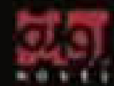
A Y M A N   A L - O T O O M





أيمن العتوم

اسمه أحمد





▼

أيمن العتوم

اسمه أحمد

▲



الإهداء

إلى الجيل الّذي لم يُلقِ البندقيّة ،
الجيل الّذي لم تحرفه البوصلة ، ولم تُغيّره
الاصطفافات ، ولم تخدعه الطّاولات . .
وظلّ أمينًا على السّيف ألاّ يُغمَد . . . وعلى الرّمح ألاّ
يُكسَر . . .
وعلى الرّاية ألاّ تهوي في الطّين وتدوسها
الأقدام . . .
وعلى جراح الشّهداء أنْ تظلّ المنارة ،
وعلى دمائهم أنْ تُبرعم وردًا
وياسمينًا . . .

أيمن

(٠)
اسمهُ أحمد

تقلّبتْ أمّي على الفراش ، ابتــسمتْ ، ورغم أنّ الحَمْل في أيّامه الأخيرة كان مُتعِبًا ، لكنّه كان مُنتظَرًا ، وكلّ لهفة مع المُنتَظَر تُجمّله ولو كان قاسِيًا . إنّه شباط ، شهر البرد لكنّه كذلك شهر الوَعد ، الوعد الّذي تضحك فيه السّماء للأرض ، فتكافئُها الأرضُ برسم تلك الضّحكة على شكل ألوانٍ ثرثارة من بعدُ . . في لوحة بديعة تَعزّ على الوصف . وإنّها (إبدر) ؛ القَرية الّتي تنام على سفوح الجبال الشّاهقة ، مجنونةً بنسائم العبق المُقدّس المُرتحل إليها من فلسطين ، وإنّه أنا . . . أنا القادم على قَدَر . . . القادم من رَحِم الحُلم الأجمل ، الحلم الّذي حوّلتْه أمّي العظيمة إلى حقيقة لا تُنسَى . . . وستعرفون صِدْق ما أقول في هذه السّطور الّتي أقصّها عليكم . . هل هذه حكايتي؟! كلاّ ؛ إنّها ليستْ كلّ الحكاية ، وليستْ حكايتي وحدي ؛ بل ما تذكّرتُه منها ؛ قد يكون هناك تحت السّطور أشياءُ لم أرسمها ، أو كلماتٌ لم أقلْها ، لكنّكم سترون الصّورة وستسمعون الكلمة ، لأنّكم مثلي ؛ تنتمون إلى هذا التّراب الّذي أنتمي إليه ، وتشربون من هذا الماء الّذي أشربُ منه ، ولذا أنصِتوا إليّ بقلوبكم ؛ إن وجدتمْ مَنْ يُشبهكم في هذه الحكاية أو ما يلمسُ أرواحكم ، فاعلموا أنّ ذلك لم يأتِ عفو الخاطر ، بل كان مقصودًا ؛ وسأقول ما حدث معي طَرِيًا كأنّه الدّم الّذي ما زال يسيل . . . والجرح الّذي ما زال يثعب . . .

كانَ يُثقلها الخوفُ عليّ قبل أنْ آتي ؛ الخوف من الحرارة اللّعينة ، الحرارة الّتي تستوطن جسد الأطفال بلا مُقدّمات فتقضي عليهم ، في قريتنا كثيرون ذهبوا مع الحرارة الّتي سكنتْ أجسادَهم أيّامًا ثُمّ رحلتْ بهم معها إلى وادي الموت ، وأخي الأكبر أصابه شيءٌ منها لكنّها فضّلتْ أنْ تُبقي على حياته لنا تاركةً في جسده بعض الآثار الّتي ستظلّ مُلازمةً له طَوال عمره . . بدأ الخوف يتسرّب إلى قلبِ أمّي من جديد ، لكنّها مثل كلّ مَنْ في القرية ، كُنّ ينتظرْن حُلُمًا يكونُ بمثابةِ مُعجزة ، حلمًا يقول لهنّ : إنّ هذا المولود القادم سيعيش ولن يموتَ كالآخرين ، سيعيش إلى أنْ ترَيه رجُلاً . . . أمّي كانت تُؤمن بالأحلام ، لكنّها لم تكنْ تستسلم لها كانتْ تنتظر البُشرَى من خلال منام لكنّها لم تكنْ لترهنَ حياتها على تلك البُشرَى في ذلك المنام ؛ كانتْ قادرةً على أنْ تصنعَ توازُنًا بين الحلم والحقيقة ، ولكنّها كانت أقدر على تحويل الحلم إلى حقيقة ، ولا شكّ أنّ أمّي كانتْ من هذا النّوع العظيم ، النّوع الّذي لا يضعف رغم أنّ كلّ ما حولَها من الظّروف القاسِية يَدفعها إلى أنْ تستسلم أو تأخذ هُدنةً . . . لكنّني لم أرها - والله يشهد - ترفع الرّاية البيضاء حتّى في أحلك لحظاتِ حياتها وأقساها كانتْ دائمة التّحدّي ، دائمة العنفوان ، دائمة الرّضا ، وفي عينَيها تستوطنُ ألفُ حكايةٍ من بطولةٍ وإصرار!!

تقلّبتْ على الفراش وهي تبتسم ، في الظّلمات ، برزتْ لها تلك المرأة السّوداء ، كان يُنيرُ جسدها التّمثاليّ المسبوك ضوءٌ قادمٌ من بعيد ، يُلقِي هالةً من النّور حول وجهها فيبدو بريئًا ، لكنّه حزين بعض الشّيء ، كان سواد الوجه المصقول الهادِئ يُضفي تلك المسحة الظّاهرة من الحزن على الوجه الّذي تراه أمّي لأوّل مرّة ، وعلى غيرِ ميعاد .

خفضتِ المرأة بصرها ، ثُمّ رفعتْه كأنّها تستأذن أمّي في الحديث معها ، أو كأنّها تفتح بابًا للكلام ليس من المعقول بَدْؤه دون إذن ؛ ظلّتْ أمّي صامتةً ، كانتْ بسمتها ترحيبًا بهذا الضّيف الغريب أكثر منه اندهاشًا لمرآه ، قالتْ لها : أفضل الأسماء عبد الله وأحمد ؛ وكأنّ أمّي سألتْها عن أفضل الأسماء وأحسنها مع أنّها لم تفعل!! من أينَ خرجتْ تلك المرأة في ذلك الحلم اليتيم لتقول لأمّي ذلك؟ لا أحدَ يدري كانتْ لا تُشبه أحدًا ، لا في نظرتها ، ولا في هدوء بسمتها ، ولا في حُزنِ قَسَماتِها ، ولا في لطفِ كلماتها كانتْ أمّي تُجيدُ الحِوار ، وارتاحتْ لأنْ تبدأ معها حوارًا يبدو أنّه يحمل البُشرَى قبل أنْ يحمل الاسم ؛ وإلاّ فلا معنى أنْ يُسمّى المولود ما لم يُولَد وما لم يكنْ متمتّعًا بالصّحّة . . . كان ذلك يعني لأمّي الكثير ، فأرادتْ ألاّ تسأل شيئًا ، ولا أنْ تخترع كلماتٍ ما دامت البُشرى تحمل معها قُدومي سليمًا ، لكنّ وجه المرأة شجّعها على أنْ تمضي قُدُمًا في الحديث ، فسألتْها : وأيّهما أفضل من الآخر : عبد الله أم أحمد؟ لم تردّ المرأة بغيرِ ابتسامة وادِعة ، كرّرتْ أمّي عليها السّؤال ، فلم تُجِبْ ، وبدأ الظّلام يصنع بشكلٍ تدريجيّ دائرةً حول جسدها ، غطّى بعضها ، فخافتْ أمّي أنْ ترحل المرأة فجأةً كما ظهرتْ ، كرّرت عليها السّؤال هذه المرّة بإلحاح : عبد الله أم أحمد؟ لكنّ الظّلام هذه المرّة انتشر حتّى غطّى أجزاءً كثيرةً من وجهها . أوشكتْ أمّي أنْ تفقد المرأة في جوف الظّلام ، فسألتْ مرّة ثالثة ، لكنّ السّؤال في هذه المرّة كان يحمل نبرةَ الرّجاء : عبد الله . . . أم . . . أحمد . .!! أتمّ الظّلام انتشاره في هذه المرّة ، فغطّى ما تبقّى من وجه المرأة الغامضة ، وكانتْ ابتسامتها هي آخر ما سقط في بئر الظّلمة آنئذٍ . . . أحدث الوجه الّذي سقط في البئر فزعًا عند أمّي ،

فاستيقظتْ وهي تلهث . لم تشأ أنْ توقظ أبي ، كانتْ ترى أنّ ذلك الحلم شيءً يخصّها ، وسرٌ يعنيها وحدها ، ومن غير اللائق أنْ تُطلعَ عليه أحدًا . . . ثُمّ ماذا سيفعل الرّجل لو قصّتْ عليه ما رأتْ : أغلبُ الظّنّ أنّه سيقول لها وهو يُدير لها ظهره : «استهدي بالله يا امرأة ، واتركي هذا الكلام الفاضي» ، أو سيكرّر الآية الّتي يحفظها دون وعي ، ويقولها بمناسبة أو بلا مناسبة : «أضغاث أحلام» عودي إلى النّوم ودعيني من أحلامك الّتي لا تنتهي ، ألا أستطيع أنْ أحصل على ليلة واحدة أنام فيها مرتاحًا بعد أسبوع متعب في العسكريّة!! هكذا تخيّلت الحوار الّذي سيدور بينهما ، وبالتّالي اختصرتْ على نفسها تبعاته المُنغّصة ، فصمتتْ واكتفتْ بالذّهاب إلى الخابية الّتي تقع عند مدخل البيت الصّغير ، فتحتْ نافذة الباب ، ومدّتْ عنقها ، نظرتْ إلى السّماء كان الجوّ باردًا ، واللّيلة مُقمِرة ، وعددٌ كبيرٌ من السّحب الكُحليّة العالية يقطع قرصَ القمر في رحلته المُسرعة نحو المجهول . . . حزّ البردُ وجهها ، لكنّها غطّته ، لفّتْ جدائلها الطّويلة تحت اللّفعة السّوداء ، وفتحت الباب ، تناولت الكوز ، وملأته من الماء ، وشربتْ ، لم تشربْ ماءً رائعًا مثل ذلك الماء في تلك اللّيلة ، كان باردًا بالحدّ الّذي يسمح للأرض العطشى بأنْ ترتوي ، وللآمال المخنوقة بأنْ تُزهِر . . . شربتْ كثيرًا قبل أنْ تحمد الله وتعود إلى فِراشها ، وقد ازدادتْ فرحًا وطُمأنينة . مرّتْ على غرفة الأولاد ، ها هو باسم ، وها هي بسمة ، وابتِسام ، ورابعة ، وإيمان . كانوا ينامون بهدوء ، كما لو أنّ عالمًا من الجَمال ينتظرهم في المستقبل

في الصّباح ، كانتْ أخواتي الصّغيرات يتحلّقْنَ حول مائدة الفَطور ، نظرتْ أمّي إلى أبي ، كان غارقًا في صمته ، يتناول لقمته دون أنْ يُحدّثَ أحدًا ، قالتْ له دون مُقدّمات : « سألِدُ ولدًا» . ازدردَ اللّقمة

وهو ينظر في عينَيها اللّتَين شَعّتا ببريقِ الثّقة ، وتابع صمته ، غمس لقمته الجديدة في الصّحن ، أردفتْ هي سهمًا آخر في أذنه «وعليكَ أنْ تُسمّيه عبد الله أو أحمد» . هذه المرّة استوقفتْه نبرةُ الإملاء الّتي في صوتِ أمّي ، كادَ أنْ يقول شيئًا ، لكنّه استعاض عن تحفّزه للقول ببلع اللّقمةِ الجديدة ، أمالتْ رأسَها إلى اليمين ، وكرّرتْ بصوتها الحادّ : «ألم تسمعْني؟! سألدُ ولدًا» . تناول كأس الشّاي ، رشف منه رشفةً عميقة ، كان ما يزال ساخنًا ، وجردَ حلقه بتلك الرّشفة لكي يبدأ حِوارًا يعرف أنّه لن يُجدي ، سألها بلهجةٍ ساخرة : «ولد . . .؟ قلتِ لي ولد . إلى أيّ عَرّافٍ ذهبتِ من أجل أنْ يقول لك هذا؟» نظرتْ إليه مستغربةً «عَرّاف؟! هل غيابُك عن البلد جعلك تؤمن بالعرّافين؟» . «أنا أقول ذلك ساخِرًا يا امرأة» . «وأنا أقول لك مُوقِنًا بأنّ الّذي سينزل من هنا . . . » وأشارتْ إلى بطنها . . . «سيكونُ ولدًا . . . وسيخلفُ أخاه باسِمًا . . . ألا تنظر إليه (وأشارتْ إلى أخي الأكبر المُسجّى) ها هو ما زال طريحًا في الفراش ، لا يكاد يستطيع المشي» . حانتْ منه التِفاتة إلى ابنه باسم ، كان وجهه الملائكيّ يغطّ في نوم عميق حتّى هذه اللّحظة ، لم يعد قادِرًا على المشي بشكلٍ صحيح مُنذ أنْ أقعدتْه تلك الحُمّى اللّعينة الّتي لازمتْه شهورًا طويلةً ، ولم تنجح معه محاولات الأطبّاء للقضاء عليها . . . النّاس قالوا : إنّ عينًا أصابتْه . آخرون تكهّنوا بأنّ امرأةً من الحصّادين الّتي بهرها جمالُه وكانتْ عاقِرًا هي الّتي سحَرَتْه كيدًا لأمّه الّتي تتباهَى به أمام العاملين في الحقول

كان قد وطّن نفسه على أنْ يطرد تلك الفرضيّات من رأسه ، وها هي اليوم تعود إليه الفرضيّات نفسها لتنهض في وجه المقارنة بينه وبين المولود الجديد» «سيعوّضنا كثيرًا» . قالتْ أمّي «نحنُ بألفِ خيرٍ يا

امرأة ولا نحتاجُ إلى تعويض» . ردَ أبي بشيءٍ من الضّيق ، وسكبَ له كأسًا أخرى من الشّاي . لكنَ أمّي تابعتْ بذات اللّهجة الواثِقة لتؤكّد على أبي : «ماذا ستُسميّه أعبد الله أم أحمد؟» . «اهدئي يا امرأة ، وصلّي على النّبي . حينَ يُشرّف بالسلامة ، سيكون من السّهل أنْ نُسمّيه» . وقام . كان يُريدُ أنْ يهرب من نفسه ، ومن تلك الجُمل الّتي يعجّ بها فضاءُ القرية «ألا تريد أنْ تنجب ولدًا يقيك شرّ المصائب ، ويقف إلى جانبكَ عندما تكبر كان يشتمهم في سِرّه ، وهذا باسم ماذا تُسمّونه يا فارغي العيون . . فيسمع همسهم : باسم لن يعيشَ طويلاً ، وإذا عاشَ فلن يكون قادِرًا على أنْ يحمل منجلاً في حقول القمح ، ولا سلاحًا في ميادين الحرب . . فيردّ عليهم دون أنْ يسمعوه : سيعيش عمرًا أطول من عمري ومن أعماركم ، وسيظلّ النّاس ينادونني به (أبو باسم) وسأفتخر بأنّه بِكري الّذي حمل اسمي . . .»

يمضي أبي إلى عمله ، وأمّي تُلاحقه ببطنها المُنتفخة وبالسّؤال ذاته : «ماذا سُتسمّيه . . . عبد الله أم أحمد؟!» . وحينَ لا تجد إلاّ الصّمت ، تصرخ : «هكذا أنت . . . لا للصّدّة ولا للرّدّة . . . لكنْ سترى غدًا صِدْقَ ما أقول . . غدًا حينَ يولَد ابني هذا ستعرفُ كيف تُحبّه وكيف تفخر به وكيف سيصنع لكَ اسمًا لن تنساه الأجيال . . . غدًا ستعرف يا أبو . . .» وتتوقّف لتعود إلى بيتها ، وهي تلهج بالسّؤال الّذي لم يسقط عن شفتها لحظةً واحدة : «ماذا سُتسمّيه . . . أنا أعرف أنّكَ ستختار أحدَهما ؛ أتعرف لماذا؟ لأنّني متأكّدة من أنّه لا يوجد اسمٌ ثالث لهذا المولود القادم عمّا قريب . . أبدًا . . . وسنكتشف ذلك معًا؟!» .

كان شهر شباط ما زال في أوّله ، حلّ بكلّ لياليه الطّويلة الباردة ، حلّ برياحه الجارحة ، لكنّه قبل أنْ يرحل حمّل لآذار كنوزه المُثقلَة

ومضى . . . كانت البرودة ما تزال تتسرّب في حجارة الأرض وترابها أبتْ أنْ تُغادر سريعًا من أجل أنْ تنعم (إبدر) بالدّفء في أوقات الظّهيرة ، وحينَ لم تعدْ تخشى لسعةَ البرد ، ولا سكّينه الذّابحة لأنَّ مولودًا مُنتظرًا سيشرّف عمّا قريب ، تحمّلتْ أمّي كلّ شيءٍ ، وشعرتْ أنَّ آلام البرد تتضاءل أمامِ فرحة الميلاد ، وعبرت أمّي موجةَ البرد بقولها حين صرختُ صرختي الأولى : «سينتهي كلّ هذا ، لقد حلّ الرّبيع مُبكّرًا في بيتنا هذا العام ، وقريبًا سيحلّ الرّبيع في الأرض ، ولن يكون ابني أقلّ جمالاً من أيّ وردةٍ من تلك الورود الّتي يُطلعها»

كان ذلك يوم الثّلاثاء ، ملأتْ عمّاتي وخالاتي سماء (إبدر) بالزّغاريد ، وشاركتْهنّ أمّي بصوتها الواهن ، ولم تكنْ قد برئت تمامًا من آلام الولادة ؛ فقد ولدتْني على فرشةٍ بالية وحصيرة ، وكانت القابلة إحدى نساء القرية ، كان ذلك شائعًا أيّامها ، ومع أنّ الفقر كان يمسح بيده الخشنة على كلّ شيءٍ في قريتنا ، إلاّ أنّ أمّي اجتهدتْ أنْ تصنع - رغمَ ذلك - بعض الأجواء الاحتفاليّة لحظةَ قدومي ، رفعتْني بيديها الحانيتَين ، وتشمّمَتْني لتشبع من رائحتي ، ثُمّ ضمّتْني إلى صدرها طويلاً ، قبل أنْ تنزل دمعتا فرح على خدّيها المُتورّدَين ، نادتْ أبي لتقول له إنّ أوّل بُشرى قد تحقّقتْ ، لكنّ صوتها لم يُجاوزْ حنجرتها ، أو ربّما لم يسمعها ، ليس مهمًا الآن أنْ يسمعها ، المهمّ أنْ يراها وتراه ، أنْ تنظر في عينَيه عميقًا لتكسب التّحدّي من أجل أنْ يُساعِدها ذلك في البُشرَى الثّانية .

في صباح اليوم الثّاني ، كنتُ مُمدّدًا إلى جانبها ، وكان أبي قد استيقظ ، كانتْ علائم الفرحة تُغطّي غضون وجهه ، وتعلو تقاسيم وجهه القرويّ الهادئ ، لم تشأ بصوتها الخفيض أنْ تقول له : «إنّ ما

رأته في المنام كان من الملائكة» . فاكتفتْ بإعادة السّؤال الّذي ظلّ يحوم في صدرها من شهور طويلة : «هل ستسمّيه عبد الله أو أحمد؟» . رفع ابنه بين يديه مُتجاهِلاً السّؤال ، لكنّها جذبتْه من طرف ثوبه ، وقالتْ له «انظر في عينَيّ . . . لن تجدَ له اسمًا ثالِثًا ، ولولا أنّ المرأة الّتي زارتْني في المنام غابتْ في الظّلام ، ولو أنّها أخبرتْني باسم واحد له فإنّك حينئذٍ لن تجد له اسمًا ثانيًا . لكنّها . . .» . وتنهّدتْ قبل أنْ تتابع «سامحها الله أوقعتْنا في الحيرة بين هذين الخيارَين» ردّ عليها ، وهو يُزيح طرفه بعيدًا عن عينَيها اللاّمعتَين : «أنا لا أريد أنْ أسمّيه بأيّ اسم من هذين الاسمَين ، بل سأسمّيه مُصطفى على اسم أبي» «لِعمّي كلّ الاحترام ، ولكنّ البُشرى لم تذكر اسمه من ضمن الأسماء» «أيّ بُشرى يا امرأة ، ما زلتِ تُصدّقين هذه الخزعبلات الّتي تأتيك في الأحلام!!» . ردّتْ عليه بحسم : «هذه الّتي تُسمّيها خزعبلات هي الّتي صدَقتْ في المرّة الأولى» . «ومن أدراكِ أنّها ستصدق في المرّة الثّانية!! أنا أبوه وسأسمّيه على كيفي» . «لن تنجح» . فاجأه ردّها كتم غيظَه ، أعادَه إلى حضنها ، وهمّ بالانصِراف . قالتْ له متودّدة : «لا تُكابر يا أبو باسم . . . عندي اقتِراح ربّما يحلّ المشكلة» نظر إليها باهتمام . وتابعتْ هي : «ضع في ورقتَين في كلّ واحدةٍ منهما اسم عبد الله واسم أحمد ودَع أحد الأولاد الصّغار في القرية يسحب الورقة ، وسنسمّيه بالاسم الّذي يظهر في الورقة» . سأل مُستهجِنًا : «ولماذا لا نُضيف ورقةً ثالثة فيها اسم مصطفى؟!!» «لا تحاول لن تنجح في ذلك ، ولو وضعت تسعةً وتسعين اسمًا وسحبْتَ ورقةً واحدةً فلن يظهر عليه إلاّ اسم من اثنَين ؛ عبد الله أو أحمد» كانتْ تُحاصره وتُغيظه ، ولكنّه فكّر بأنّ تسعةً

وتسعين اسمًا فرصةً سانحة لجَعل نسبة تسميته بهذين الاسمين ضئيلةً جدًا ، فصرخ وهو واقف في ظلفة الباب : «سأفعل ، سنكتب تسعةً وتسعين اسمًا على تسع وتسعين ورقةً ونسحبُ إحداها ، وسأسمّيه بالاسم المكتوب فيها»ً . ثُمّ غادرَ مُغضبًا ، وكانتْ هي من خلفه تبتسم مرتاحةً .

في المساء ، كان قد جمع إخوته ، وعددًا من أولاد عمّه وأولادهم ، وأخبرهم بما عقد عليه عزمه ، وجيء بالأوراق ، وكُتِبتْ فيها أسماءُ تسعةِ وتسعين ، ثُمّ أُمِر بها فخُلِطَت في صحنٍ معدنيّ عميق ، ثُمّ جيء بأصغر الحاضرين فمدّ يده وأخرج ورقةً من هذه الأوراق ، وسلّمها للعمّ الأكبر ، ففتحها ، وقرأ فيها : (أحمد) ، صاح الجميع : «إذا فلْنُسمّه أحمد» . مطّ أبي شفتَيه ، بحثَ عن حُجّة ليرفض بها هذه القرعة ، قال إنّ الولد لم يخلط الأوراق بشكلٍ جيّد ، اعترض عليه أحد أبناء عمومته : «إنّه ولدٌ صغير ولا يعرفُ المحاباة ، بل ليس له أيّ مصلحة في ألاّ يخلط الأوراق بالشّكل المناسب ، ماذا دهاك يا أبو باسم؟» . لكنّ أبي أصرّ أنْ تُخلَط الأوراق من جديد ، ويقوم بذلك طفلٌ آخَر . . . كانتْ أمّي في تلك اللّحظات تسترق السّمع وهي تحاول أنْ تفهم بين الأصوات المُختلطة ما يدور في الغرفة المُجاورة في هذا الاقتراع الحاسِم الّذي سيكون له ما بعده . . . بالفِعل خُلِطت الأوراق من أحد الأطفال الّذين لم تتجاوز أعمارهم السّابعة والّذين ضاقتْ بهم غرفة الضّيوف على اتّساعها ، وأخرج الورقة الّتي تابَعها أبي بعينَين راجِيتَين ، ودُفعَ بها إلى أحد أبناء عمومته ، وفتحها ، ليقرأ على مسامعهم من جديد أنّها تحمل اسم : (احمد) ، لم يتمالك أبي نفسه ، صفقَ كفّه اليُمنى على كفّه اليُسرَى كأنّه فقد أرضًا عزيزةً عليه ، كان

يُحبّ لابنه أنْ يحمل اسم أبيه ، لكنّ موقفه من الاعتراض على القرعة الّتي لا تشوبُ عدالتَها شائبة يبدو مُخزِيًا وغريبًا أمام أقاربه ، وتنحنح قبل أنْ يقول : «المرّة الثالثة ثابِتة» . وأعيدت القرعة ، كان أبي يبدو أنّه يستسلمُ لقدَرٍ لا مفرّ منه ، وأنّ طلبَه للمرّة الثالثة استخراجُ اسم من بين تسعةٍ وتسعين اسمًا هيِ محاولةٌ غير مُجدية ، وأنّها تُشبه من يَذهب إلى حقول القمح في الشّتاء ليحصدها كان اسمي (أحمد) في المرّة الثّالثة يظهر من جديد ، خُيّل إلى أبي أنّ أمّي من وراء الجدار تقول له «لو فعلتَ ذلك تسعةً وتسعين مرّة فلن تقرأ في الورقة غير هذا الاسم» . استسلم أبي لما يرى غيرَ مُصدّق ، رفع يده ، وقال : «يكفي» . هدأت الأصوات الّتي علت مندهشةً ممّا يحدث ، قال أبي هذه المرّة بصوتٍ مُستسلم لقدر الله ، لكنّه راضٍ به : «الأمر واضح ، ولم يعد المفرّ منه مُجدِيًا ، اسمُه أحمد ، هكذا سأسمّيه»

طُوِيتْ تلك الصّفحة ، ومضتْ أمّي تبحثُ لي عن غدي المُنتَظر ، وترسمه كذلك ، كانت من هذا النّوع من الأمّهات اللّواتي يقلْن لأنفسهنّ : «ثكلتْه أمّه إنْ لم أصنعْ منه رجلاً يسود أهله ، وينتشرْ ذِكرُه في المشرق والمغرب»

(١)
سآخذُ بُندقيّتَك حينَ أكبُر

كـبـرتُ مـثـلَ كلّ الأطفـال ؛ أحـبّ اللّعب بما توافـر من كُـرات القماش ، أو إطارات السيّارت ، أو عُلب الصّفيح الفارغة . وأعشق المشي في السّهوب بلا هدف ، والرّكض في المنحدارت بلا غاية ، والاختباء خلف الصّخور الكبيرة في المساءات الرّبيعيّة ، كانت الصّخور تأخذ من الشمسِ دِفئها فيتسلّل ذلك الدِفءُ إلى ظهري وأنا أسندُهُ إليها ، عرفتْ حارات (إبدر) بصمةَ أقدامي لطول ما ذرعتُها ، وحفظتْ أنسامُها شهقاتي لطول ما التقطتُها وأنا أعدو خلفَ القِطط الهارِبة ، أشربُ من جِران الماء بعد ليلة باكيةٍ من ليالي الشّتاء الرّماديّة ، كان دُخان المواقد المُتصاعد من البواري فوقَ البيوت يزيد الشّتاء جَمالاً ويبعثُ الحرارة المُشتهاةَ في الأرواح وإنْ كان الصّقيع يُخيّم على كلّ شيء . وفي الخريف كنتُ أجمع الأوراق اليابسة في يدي لتُصبح هشيمًا ثُم أفتح قبضةَ يدَيَّ وأنثرها في الفضاء لتذروها الرّياح العاتية . . أجمل الأشجار تلك الّتي تسقطُ أوراقُها ولا تسقطُ قاماتُها ؛ تظلّ سامقةً في السّماء تتحدّى العواصف المُزمجرة ، وتصمد أمام جيوش الرّيح الهائجة ؛ كأنّما تقول لها - وهي تُعلِنُ عن إصرارها وتحدّيها - مهما زمجرتِ فسترحلين في النّهاية ، أمّا أنا فسأبقى هنا صامدةً ؛ لأنّ جذوري ممتدّة عميقًا في هذا الثّرى النّديّ . وكنتُ أطارد الفراشات في الحقول ، في فصل الألوان واللّوحات المرسومة في كلّ مكان ، الفصل الّذي تستعيدُ

فيه الطَيور أصواتها ، والبلابل غناءَها ، كان الرّبيع يقول إنّ الحياة موتٌ لولا الماء ، وإنّ الأرض صحراء لولا الورد ، وإنّ الورد شَمْعٌ لولا الشّذا وكنتُ أستمع إلى غناء الحصّادين في الصّيف . . . وأنام في ظلّ شجرةٍ من أشجار الزيتون الهَرِمة ، وأتّكئ على جذعِ سنديانةٍ عتيقة ، وأتسلّق فروع شجرة توتٍ بيضاء وآكل من حبّاتها حتّى أشبع . . . ثُمّ أركض في الحقول المفتوحة على المطلق ، وأجري في الدّروب الخالية إلاّ منّي ، وأفتحُ ذراعَيّ للحريّة الّتي تتراقص في آفاقٍ لا يقوم على مدى الرّؤية فيها شيءٌ إلاّ خيالي الجامح . . . ومن بعيدٍ تتراقص في اللّيالي الدّافئة أضواءٌ قال لي أبي إنّها فلسطين ، وعلى الجانب الآخر قال لي : إنّها الجولان . . . وكنتُ أسأله : «وما فلسطين؟» . فيقول : «إنّها بلادُنا المغصوبة؟» . فلا أفهم شيئًا . وأسأله «وما الجولان؟» . فيقول : «إنّها جبالنا المنهوبة» . فلا أفهم شيئًا كذلك . كانتْ قريتي كلّ عالَمي ؛ فأسأله «ولماذا يسكنون بعيدًا عنّا ، لماذا لا يأتون ليسكنوا معنا؟» فيُجيبني «لأنّهم لا يستطيعون أنْ يفعلوا ذلك» . فأسأله من جديد : «ولكنّ خالتي جاءتْ من هناك هي وزوجها وسكنتْ في الزّرقاء كما قالتْ لي أمّي» . فيردّ : «ولكنّ خالتَك هجّت يا بُنيّ؟» . فأسأله : «وما معنى هجّتْ؟» فيقول : «غَصبِنْ عنها؟» . فأسأله «لماذا غَصبن عنها؟» . فيجيب : «بسبب الحرب؟» «أيّ حرب؟» . «حرب الـ ٦٧» «لماذا سمّوها حرب الـ ٦٧ ؟!» . «إنّها الحرب الّتي قُتِلْنا فيها بسبب الخيانات؟» «الخيانات يا أبي؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟» «عندما تكبر سأقول لك ماذا تعني» . «ولكنّني كبيرٌ يا أبي ، انظر إلى عضلاتي . .» «لا يا بُنيّ . سأُحدّثك غدًا عن أشياء كثيرة فلا تتعجّلْ» «أنا أريد أنْ أعرف الآن ، هل خالتي هجّتْ بسبب الحرب؟»

«نعم يا بنيَ. ومَنْ هو الّذي هجّجها؟» . «اليهود» . «اليهود!!» . «نعم يا بُنيّ. . . اليهود قتلونا، وذبحونا في كلّ مكان، وجميع الأنظمة العربيّة ساهمتْ بتسليم فلسطين لليهود يا بُنيّ» كانتْ كلمة (الأنظمة العربيّة) تدخل قاموسي لأوّل مرّة، ويبدو أنّها لن تخرج من الذّاكرة أبدًا، شعرتُ أنّها كلمةٌ كبيرةٌ، وأنّ السّؤال عنها قد يجرح معناها، فآثرتُ أنْ أسكت وأن أسأل باتّجاه آخر، فقلتُ: «لماذا لم تُقاوموا اليهود وتُدافِعوا عن أنفسكم إذا كانوا قد قاموا بقتلكم؟» . تنهّد أبي حتّى شعرتُ أنّ لهيبَ أنفاسه قد حرقَ صدري أنا، قال: « لقد تُرِكنا مكشوفين أمامهم، عُزْلاً، وصيدًا سهلاً، وخُدعنا ببنادق تنفجر منها الطّلقة بنا لا بهم، ولم يكنْ معنا ما نُدافع به عن أنفسنا بشكلٍ حقيقيّ؟ كان عدد القتلى والجرحى كبيرًا، امرأة عمّك فارقتِ الحياةَ هنا هي الأخرى» . «اليهود فعلوا بنا كُلّ ذلك يا أبي؟» . «نعم يا بُنيّ» «وهل هم بشرٌ مثلنا؟» . «لا أدري يا بُنيّ» . «هل كانتْ امرأة عمّي جميلة يا أبي؟» . «وكريمة أيضًا، كانتْ تُساعِدُ كلّ من في القرية، حصدتْ مع الحصّادين، وزرعتْ مع الزُّرّاع، وقطفتْ الزّيتون مع أهل القرية، وكانتْ حنونةً على كلّ الأطفال، كانتْ تُحبّ الجميع، وتمدّ يد المساعدة لكلّ أحد» «لماذا قتلوها إذًا إذا كانتْ تُحبّ الأطفال؟!» «لأنّهم لا يريدون لها أن تعيش» «هل قتلوا غيرها من قريتنا يا أبي؟!» . «كثيرًا» . «هل اليهود دائمًا يَقتلون؟!» . «نعم يا بُنيّ دائمًا يقتلون» . «لن أتركهم يقتلونني، وسأخذ بندقيّتك حينَ أكبر وأقتلُهم» «ما زلتَ صغيرًا على هذا يا بُنيّ» . «قلتُ لك لستُ صغيرًا، أنا كبيرٌ وانظرْ إلى عضلاتِ يديّ» . «الآن تعالَ معي» . «أريد أنْ تُحدّثني أكثر عنهم يا أبي» . «ستكبر يا ولدي وستعرف أكثر»

عَبَرْنا المقبرة ، ثُمّ حقولاً خالية كانتْ تُزرَع بالذّرة في غابر الأيّام ، إلى أنْ وصلْنا إلى حقول الزّيتون المُمتدّة امتداد البصر . . توقّف أبي فجأة ، وقال لي : هنا يا بُنيّ . . . لم أفهم ماذا يريد أنْ يقول ، لكنّه رفع بصره إلى الأفق ، وأشار بإصبعه ، قَدِموا من هناك ، كانت خمس طائِرات . ثُمّ صمت . . وراح يفحص الأرض بعينَيه ، غامتْ عيناه كأنّه يرى مشهدًا من المشاهد الدّامية ، ويستعيده في ذاكرته

شقّ صوتُ هديرهنّ السّماء الهادئة فجأة ، من أين جاءت هذه الغربان النّاعقة الّتي تملأ هدوء القرية زعيقًا؟! لا أحدَ يدري ما يحدث ، كانتْ حرب الأيّام السّتّة قد رحلتْ منذ سنتَين ، وهدأ غُبارها الخانق ، لكنْ أنْ تتضخّم الذّات عند الكيان المُغتصب فيُغيرُ متى شاء كيفما شاء فتلك هي المأساة الّتي تختبئ خلفها مآسٍ أُخرى . عرف أهل القرية أنّ معسكرات الجيش ومعسكرات الفدائيِّين هي المقصودة ، لكنّهم هم أيضًا قد يكونون مقصودين ، فاليهود لم ينسَوا بعدُ أنّ أهل هذه القرية بالذّات هم مَنْ قاموا بإيواء المُقاتلين ، وبتوفير الطّعام والشّراب والمسكن لهم في أتون المعركة ، وهم مَنْ كانوا بمثابة خطوط الإسناد والدّعم الخلفيّة لكلّ المُجاهِدين ، بل من هنا انطلقتْ بعض العمليّات الفرديّة الّتي أوجعت المحتلّ ، وجرحتْ كبرياءه .

مرّت دقائق التّحليق ثقيلةً على كلّ مَنْ في القرية ، استغلّها الكبار بالطّلب من أهالي القرية أنْ يخرجوا من دورهم إلى المزارع ؛ لأنّهم سيتحوّلون وهم في الدّور إلى صيدٍ ثمينٍ سهل الاقتِناص بالنّسبة للمحتلّ ، كان الوقت يمرّ دون استجابةٍ كبيرة ، قال بعضهم : لن نرحل عن دورنا ، فلْيفعلوا ما يشاؤون ، إنْ كان لا بُدّ من الموت فلنْ نموت ونحن هارِبون كالصّراصير . . . دوّتْ أوّل قذيفةٍ سقطتْ في المقبرة

القديمة ، تناثرت القبور ، وطوّحتْ بشواهد حجريّة وعِظام نَخِرة في الهواء قبل أنْ تسقط وقد غطّاها الغبار الكثيف والأتربة . لم تسلم حتّى أرواح الموتى منهم ؛ هل كان على سُكّان هذه المنازل الآمنة أن يموتوا مرّتين!! شظايا ذلك الصّاروخ سقطتْ على البيوت القريبة من المقبرة ، فحصدتْ أرواحَ سبعةٍ من سُكّانِها . علتْ من بَعْدُ صرخَات النّاس في كلّ مكان ، خرجوا من بيوتهم مذعورين ، كانوا يهربون في لا اتّجاه وفي كلّ اتّجاه يبحثون عن مكانٍ آمن ولا يدرون أين يُمكن أنْ يجدوه . . علا صوتٌ هاتفٌ بأقصى ما يستطيع من جديد ، كانَ صوت أبي : «إلى المزارع ، اختبئوا بين الأشجار . . . هيّا . .» كان صوته يصل متقطّعًا إلى الآذان يُغطّي عليه أزيز الطّائرات الّتي ما زالتْ تُحلّق في السّماء . . . هُرِع النّاس الّذين سمعوا النّداء – وقد تمكّن منهم الذّعر – إلى المزارع كما قال أبي ، كانت الطّائرات تُبصر دبيب النّمل من علوّها الشّاهق ، رأتْ في الجاميع المتّجهة إلى الحقول فرصتها السّانحة ، لحَظات فاصِلةً بين الحياة والموت ، لا تتعدّى بِضع ثوانٍ تلك الّتي احتاجها الصّاروخ الثّاني ليحصد أرواح ثلاثة في إصابةٍ مُباشرة ، دُفِنتْ أشلاؤُهم على الفور تحت الرّكام ، وجذوع الأشجار المُجتثّة من طرف المزارِع الّتي كان بعض الهاربين قد تمكّن من الإيغال فيها

كانت الشّظايا قادرةً على أنْ تصهر الحديد لشدّة ارتفاع حرارتها ، احترقتْ جذوع الأشجار القريبة ، بعضُ تلك الأشجار المحترقة كانتْ من نصيب الجثث المدفونة تحتها ، ممّا فاقمَ في مأساة القتلى ، وبسرعة انتشرتْ رائحة الشّواء البشريّ من الجثث المُتفحّمة   كفّت الطّائرات عن إرسال الموت عبر صواريخها المُفاجِئة ، وإنْ ظلّتْ تُحلّق على ارتفاع عالٍ ، كانَ كلّ مَنْ في القرية قد وجدَ ملجئًا أو مغارات يدْخل إليْها ، أوْ

مزارع يحتمي في دَغَلها فيختفي عن عيون الطَّائرات المُحملقة في كلّ شيء ، وبعضهم هرب إلى المقابر بعد الصّاروخ الأوّل ، لقناعته أنّ الطّائرات لن تستهدف مكانًا استهدفتْه من قبل ، لكنّ أزيز الطّائرات كان يُلاحقُ بالموت كلّ مَنْ يدب على وجه الأرض في تلك اللّحظة ، كانتْ رائحة الموتُ تُشكّل غلالةً سوداء قاتمة تُخيّم فوقَ قريتنا ، وكان كلّ مَنْ تحتها ميّتًا أو منذورًا للموت!

كانت امرأة عمّي - مع خَلْقٍ كثير - قد بدأتْ تدخل بعض مزارع الذّرة حين سمعتْ صوتًا يستغيثُ بها ، نظرتْ خلفَها باتّجاه مصدر الصّوت ، لم ترَ إلاّ يدًا مُتخشّبةً ، وقد استقرّت تحت الركام المتكوّم فوقها وقد تصاعدَ من حولها دُخانٌ كثيف . «إنّه ميّتٌ» قالتْ لنفسها . فكّرتْ أنّ الخوف والرّعب جعلها تتخيّل الصّوت ، فتجاهلت الأمر ، ومضتْ لتتابع طريقها في أدغال سيقان الذّرة العالية ، لكنّ الصّوت عادَ من جديد ، كان هذه المرّة يئنّ أنينَ المُشرف على الموت ، أدركتْ حينَها أنّ ما تسمعه حقيقيّ ، وأنّ تلك اليد الممتدّة تنتهي بجسد إنسانٍ يبحث عن الحياة في فرصٍ تبدو مستحيلةً حيثُ الموتُ يُخيّم على كلّ شيء . عادتْ أدراجَها إلى مصدر الصّوت ، برزتْ لها هذه اليد من جديد ، هذه المرّة كانتْ أطراف أصابعه تنثني بحركةٍ بطئيةٍ إلى الدّاخل ، فتأكّدتْ أنّه حيّ ، هُرِعتْ نحوه لعلّها تتمكّن من إنقاذه ، كانتْ قد بدأتْ تُزيل الصّخور وجذوع الأشجار من فوق الجثّة بحركةٍ جنونيّة ، كانتْ تُصارع الزّمن لتتمكّن من الظّفر به حيًا قبل أن تختطفَ الذّبالة المتبقيّة فيه روحَه . سمعتْ صوتَ الطّائرات المُحلّقة من جديد . كان الصّوت أقوى هذه المرّة . لم تكترث . تابعتْ عملها الدّؤوب والجنون . صار صوتُ الطّائرات المُحلّقة قريبًا كأنّه يخترق سَمْع الأذنَين بِمخرز . لم تكترثْ من

جديد . هناك روحٌ تبحثُ عن الحياة في لجّة الموت ، ولا أحدَ غيرُها قادرٌ في هذه اللّحظة على الاستجابة لهذا النّداء الإنسانيّ المُفجع . أزالتْ عنه آخر ما تبقّى من الصّخور والجذوع والرّكام ، اقتربتْ منه كان صدره محترقًا . وأنفاسه تلهثُ ببطء . ووجهه مُعفّرًا بغبار رماديّ حال إلى لون البنفسج جرّاء بعض الدّم الثّاعب من أنفه وطرفِ عينَيه نظرَ في عينَيها كأنّما يُريد بكلّ لغاتِ العالَم أنْ يشكرها ، لكنّه لم يقوَ على فتح فمه المُتيبّس . كانتْ عيناه تقولان كلامًا كثيرًا يصعب ترجمته في تلك اللّحظة . مدّتْ يدها إلى الحزام الّذي يُمنطق وسطها ، وتناولتْ منه قربة الماء الصّغيرة . قطرتْ في فمه بعضَها فاستعادَ نصفَ حياته ، أنهضتْه بيدها الأخرى حتّى استوى جالسًا ، كانتْ عيناه تطلُبان مزيدًا من الماء . فكّرتْ قبل أنْ تسقيه في سحبِه بعيدًا لتختفي معه في غابة المزارع قبل أنْ يحدث ما لا يُحمد عقباه ؛ فالطّائرات ما زالتْ تُحلّق في المكان . لكنّ عينَيه قالتا غيرَ ذلك ، كان فيهما رجاءٌ عميقًا في أنْ تسقيه ولو جرعة ماءٍ واحدةٍ أخرى ليُثبّت بها شيئًا من روحه الهاربة من جسده . ضَعُفَتْ أمام رجاءِ عينَيه . أدنتِ القربة من شفتَيه ، سال بعضُ الماء حتّى بلغ فمَ القربة لكنّه لم يبلغ فم الجريح ، إذ سبقتْ إليهما يدُ الموتُ في قذيفةٍ أصابتْهما إصابةً مُباشرة ، فتناثرتْ أشلاؤهما في كلّ مكان .

هُرِعَ النّاس بعد انجلاء العاصفة من القرى المجاورة لمُساعدة القرية المنكوبة ، جاء جمعٌ من النّاس من (حاتم) ، ساعدوا في دفن الضّحايا ، وفي إيواء المشرّدين ، وفي توفير ما استطاعوا من الطّعام للجائعين . وتكافلتْ مع قريتنا قرىً أخرى ظاهرة ، وبِتنا فيها من بعدُ في كنفِ اليُتم والفقد والحزن ، كانَ هُناك عسكريّون كثيرون من بين القتلى

أيضًا ، قصفتْهم الطّائرات في المُعسكرات القريبة من القرية ، بعضهم حفرتْ له القذيفة حفرةً عميقةً في الأرض ودفنتْه هو وسِلاحه وطعامه وخيمته كانتْ فاجِعةً بالمعنى الكُلّيّ للكلمة لا يشعر بنا إلاّ مَنْ ذاقَ لوعتنا كان سكّين الفاجِعة حاداً فغاص في القلوب عميقًا ، وظلَّ أثر الحقد فيها مُستكنًا ينتظر اللّحظة المُناسبة ليصعد من أعماقه المُستترة ، فيأخذ بحقّه وإنْ طال عليه الأمد ، ويثأر لقتلاه الّذين قَضَوا غِيلةً ولو بعدَ حين

(٢)
الأرواحُ لا أعمارَ لها

مَنْ يَعِشْ في القرية طويلاً فسيُدركُ بعد حين أنَّ للأشجار أرواحًا مثل البشر، كنتُ أخاطِبُ الأشجار، وأتّخذ منها أصدقاء، وسمّيتُ بعضها بأسماء من عندي، أمّا شجرة السّنديان العتيقة الّتي يبلغ عمرها ألف عام فقد سمّيتُها باسم امرأة عمّي، كان عليّ أنْ أُبقي ذكراها حيّة، وإنْ مرّ على رحيلها أكثرُ من عشرةِ أعوام. كنتُ أناجيها في المساءات الدّافئة، أحدّثها كأنّني عشتُ معها زمنًا طويلاً، مع أنّها استُشهِدتْ قبل أنْ آتي إلى هذا العالَم المُضطرب. كانتْ بطولاتُها حديثَنا نحن الفتيان التّائقين إلى النّماذج القويّة. أكثر ما أحزنني أنّها كانتْ أمّنا حينَ تغيبُ أمُّنا، تمكث في بيتنا ترعى أخي الكبير الّذي سرقتِ الحُمّى قدمَيه فلم يعدْ قادرًا على أنْ يمشي بشكلٍ طبيعيّ، وترعَى أختيّ اللّتين تكبرانِني، لم تكنْ أمًّا لنا فحسب، كانت أمّ الجميع، تقف على باب الحيّ المُوصِل إلى المدرسة، تتفقّد الطّلاّب الذّاهبين إلى مدرسة القرية بفخرٍ وزهو، وترمقهم بنظرات العطف والحنوّ، وتبتسم في وجوههم فيمضون منشرحي الصّدور توّاقين إلى التّعلّم، وأحيانًا كانت تعدّل لبعضهم ياقات قمصانهم، أو تربط رباط أحذيتهم إنْ كانوا قد نسوا أنْ يفعلوا ذلك، وبعض الفقراء الّذين كانوا أكثر من نصف الذّاهبين كانتْ تمنحهم بعضَ النّقود القليلة، أو تكون قد أعدّت لهم بعض الفطائر ليتقوّوا بها في يومهم الدّراسيّ حينَ

يبحثون عنْ شيءٍ ليأكلوه فلا يجدوه ، كانتْ أكثر ما تصنعه فطيرة الزّيت والسّكّر ، أو فطيرة المُربّى البلديّ ، وقد تكون في أحيانٍ أخرى قد أعدّت لكثيرٍ منهم أكياسًا صغيرةً من الزّبيب أو القُطّين أو الخبيصة

كانتْ شجرة السّنديان الأعتق في القرية لها ، وكنتُ أخلو لها كثيرًا ، وأسامرها لساعاتٍ طويلة ، وأسألها عنها ، فتقول لي : إنّها تحولّتْ إلى شجرةٍ بالفعل لكنْ في مكانٍ آخَر ، تحولّتْ إلى نخلة أعذاقُها مُثمرة باستمرار ، وسعفها يمتدّ لأمتار طويلة ، كان هذا المكان الّذي تحولّتْ فيه إلى تلك الشّجرة في طريقٍ صحراويّة مُجدِبة من تلك الّتي تمرّ بها القوافل الذّاهبة إلى الحجّ في القرن الثّامن عشر ، فيستظلّ بظلّها المُرتحلون ، ويأكل من ثمرها الجائعون ، وينام في فيئها المُتعَبون ، وكنتُ أستغربُ هذا الّذي أوحتْ لي به شجرتُها الّتي في قريتنا ، أعني شجرة السّنديان ، فأسألها : كيفَ تحولّتْ إلى نخلةٍ وعاشت قبل مئتَي سنة ، وهي لم تمتْ إلاّ قبل سنواتٍ قليلة . فأسمع غضب السّنديانة يتمثّل في عصفِ أغصانها دون وجود رياح تحرّكها ، ثُمّ تهدأ فتتهدّل أوراقها على جذوعها ، وأسمعها تهمس في أُذنَيّ كأنّما تبوح لي بسرّ : «لم تتحوّل هي إلى نخلةٍ يا أحمق ، لقد تحولّتْ روحُها إلى تلك الشّجرة»

وحينَ أسألها مُستغربًا : «روُحها لم تخرج من جسدها إلاّ قبل أنْ أولدَ بقليل» ، فأسمع صوت ضحكتها في رفيف أوراقها الهادئة ، وهي تقول : «الأرواح لا أعمار لها يا أحمد ، إنّها تعيش في كلّ الأزمنة ، وتتجسّد في كلّ الأمكنة» . فأضعُ خدّي على جذع السّنديانة العتيقة كأنّما وصلتُ إلى حقيقةٍ لم يصل إليها أحدٌ قبلي : «إذًا امراة عمّي كانتْ نخلة ثمّ تحولّتْ إلى إنسان» . فلا أسمع حينها إلاّ قلب السّنديانة يخفقُ بالحبّ والرّضا وهي تتابعُ الحقيقة الّتي توصّلتُ إليها :

«وحينَ انتهتْ مهمّتها في هذه القرية كإنسان عادتْ إلى شجرة ، ومَنْ يدري قد تكون في زمنٍ ما غمامة ماطرة ، أو عصفورةً شاديةً ، أو نجمةً هادية!!» .

***

عادت الأحلام لتزور أمّي من جديد ، هذه المرّة حينَ كنتُ طفلاً في الثّانية ، كانتْ ليلةً صيفيّة ، وكان كلّ ارتفاع في درجة الحرارة يُشكّل بدايةَ سلسلة من المتاعب الّتي يُعاني منهـا أخي الأكبر ، ستصبح حركتُه شبه مشلولة بعدَ أنْ كان وهو في الرّابعة يقفز من سورٍ إلى سور كالسّعادين ، ويتسلّق الجدران كالسّحالي ، ويتعلّق بجذوع الأشجار كالقرود ، كان دائبَ الحركة ، حتى جاءه هذا المرض فأقعده ، وفي ذلك الصّيف بالذّات ، أصبح مثل خرقةٍ بالية ، مرميًا في الفراش كأنّما عقدَ حِلفًا مع الأرض الّتي ينام فوقها فلم تصدرْ منه أيّة حركة ، ولا حتّى طرفةُ جَفْن ، كان يبدو مثلَ ميّت يُقاوم هروبَ الحياة بعلّو صدره ببطء بين فترةٍ وأخرى ، أمّا جفناه فكانا مُسبلَين كأنّه مُسجّى ينتظر مَنْ يقرأ على روحه لتهدأ ؛ تلك الرّوح الّتي كانتْ تحوم في صدره تبحثُ عن منفذٍ لها كي تخرج بسلام دون أنْ تُسبّب مزيدًا من الأذى لِصاحِبها ، لكنْ حتّى خروج الرّوح بسلاًم كان قد عزّ في تلك اللّحظة واستسلم أبي لقدر الله ، أمّا أمّي فلم تكفّ عن البكاء ، كانتْ عيناها دائمتَي الانهمال ؛ حينَ تقطر في فمه الماء تبكي ، حين تُناديه «باسم . . . باسم . . .» فيفتح عينَيه نصف انفتاحةٍ ثُمّ سرعان ما يُسبلهما ، عندها تنفجر بالبكاء . . حينَ تُغيّر له ثيابه فيتقلّب بين يدَيها كأنّه مضغةُ لحم لا إنسان كانتْ تبكي . . . حينَ تعمل في الحصيدة ، مع كلّ سنبلةٍ من سنابل القمح المُطوّحة بالمنجل كانتْ

تبكي . حينَ ترزم السّنابل في رُزَمِها المعدّة لتَنقل إلى السّوق عبر الشّاحنات كانتْ تبكي . . حينَ تنظر في وجه أختها أو أخيها كانتْ تبكي بلا مُقدّمات . نعم كانتْ تبكي ؛ تسمحُ لدمعتَين أو ثلاثٍ أنْ تنحدر ببُطءٍ فوق خدّيها ، ثُمّ سرعان ما تُشيح بوجهها ، تنظر إلى البعيد وتمسح دُموعها ، ثُمّ تتغلّب على أحزانها الذّابحة وتبتسم من جديد .

لم يكنْ من فاجعةٍ بعد الحربَين اللّتَين عاشتْهما أمّي أكثرَ وطأةً عليها من مرض أخي . وفي اللّيل يهرب النّوم من عينَيها بعيدًا ، تستجديه أنْ يهبها ساعةً أو ساعتَين لكنّه يتأبّى عليها فلا تكاد تَطرفُ لها عين ، فتقوم في الصّباح وقد انتفختْ عيناها ، فتتابع أعمالَها الصّباحيّة كأنّ شيئًا لم يحدث ، وتُنجِز مهمّاتها حتّى الظّهر ، حينَ تشتدّ الحرارة ، لتبدأ مشوار مأساتها الجديد مع أخي!!

حدث ذلك في أحد أيّام الظّهيرة ، كانتْ أمّي قد عادتْ مُتعبةً من العمل ، بعد أنْ سهرتِ اللّيل بطوله وهي تُفكّر في مصير أخي ، نظرتْ إليه مُمدّدًا ، فرأتْ في وجهه نورًا لم تره من قبل ، وطمأنينةً لم تشهدها في السّابق ، غمرتْها راحةُ البال في بداية الأمر ، ثُمّ سرعان ما انقبض صدرُها ، وبدأتْ الشّكوك والهواجسُ تغزوها ، خَطَر ببالها آنئذٍ أنّ هذا الهدوء هو علامة الموت لا علامة الحياة ، فركضتْ نحوه لتكتشف الأمر ، لكنّها ما كادتْ تجثو على رُكبتَيها بجانِبه حتّى فتح عينَيه كأنّه يستيقظ من نوم طويلٍ وهو مرتاح ، وافترّتْ شفتاه عن بسمةٍ هادئةٍ وادعة ، لم تُصدّقْ أمّي أنّها رأته في هذه الحال ، أرادتْ أنْ تُنادي أبي ، فنادتْني أنا ، كنتُ في الثّانية من عمري ، وكان الطّفل الّذي في أعماقي لا يعرفُ آنئذٍ من الحياة إلاّ اسمه ، ولا يستجيب حتّى لاسمه

إلاّ إذا نطق به أبوه أو أمّه ، مشيتُ متثاقِلاً نحوها ، فتلقّفتْني بذراعَيها ، قالتْ لي : «إنّه أخوك وسيعيش» . ابتسمتُ نظرتْ مرّة أخرى إليه فاطمأنّتْ من جديد . كان التّعبُ آنئذٍ يستأذنها في أنْ يُخلِدها إلى النّوم ، فهي لم تذقْ طعم النّوم بشكلٍ صحيح منذ ما يزيد على سنة

فتحت الشّباك القريب من الفراش ، وركزتْ على طرفَيه قطعةً من الخيش المُبلّل بالماء ليُخفّف درجة الحرارة الّتي لا تُطاق في تلك الأيّام ، واستلقتْ على فِراشها ، وسرعان ما سقطتْ في بئرٍ من النّوم لا قرارَ لها .

كان نداء الفجر يُوشِكَ أنْ يرتفع من مئذنة الجامع القديم ، وهي تجلسُ إلى ساريةٍ من سواريه الّتي قيلَ إنّ عمر بن عبد العزيز قد أسند ظهره إليها ، ذات مرّة حينَ كان والِيًا قبل أنْ يُصبح أميرَ المُؤمنين وخليفتهم العادل . تمامًا كان النّداء الخالِدُ يهمّ أنْ يُرفَع حينَ جاءَها ذلك الشّيخ المَهيب لابِسًا ثيابًا بيضاء ، وطافِحًا وجهُه بالنّور ، ويلبسُ غطاءً أبيضَ على رأسه ، كأنّه جبريل ، هكذا تخيّلتْه أمّي حينَ كانتْ تسمع عن هيئته من شيخ الجامع ، كان شيخ الجامع يُقيم درسًا لنساء القرية عصرَ كلّ خميس ، في كلّ مرّةٍ يُحدّثهنّ عن قصّة من قصص الأنبياء أو الصّحابة ، وفي كلّ قصّة كان يرسم الشّخصيّة الّتي يتحدّث عنها ، فتذهب خيالات النّساء بعيدًا في تشكيله على أرض الواقع ، لكنّه مع ذلك كان يُحذّرهنّ من أنْ يلتمسْنَ شيئًا في حياتهنّ من هذه الشّخصيّات ، أو يطلبْنَ حاجةً من هذه الرّؤى الّتي تعبر الأزمنة السّحيقة لتقفَ على قدمَين من خيالٍ أمام كلّ امرأة . كانتْ أمّي من النّوع الّذي لا يُؤمن بكثيرٍ من الخزعبلات الّتي انتشرتْ بين نساء قرية إبدر والقرى المُجاورة ، لكنّها مع ذلك كان لها قلبُ صوفيّ ، وروحُ

تبكي . حينَ ترزم السّنابل في رُزَمِها المُعدّة لتُنقَل إلى السّوق عبر الشّاحنات كانتْ تبكي . . . حينَ تنظر في وجه أختها أو أخيها كانتْ تبكي بلا مُقدّمات . نعم كانتْ تبكي ؛ تسمحُ لدمعتَين أو ثلاثٍ أنْ تنحدر ببُطءٍ فوق خدّيها ، ثُمّ سرعان ما تُشيح بوجهها ، تنظر إلى البعيد وتمسح دُموعها ، ثُمّ تتغلّب على أحزانها الذّابحة وتبتسم من جديد .

لم يكنْ من فاجعةٍ بعد الحربَين اللّتَين عاشتْهما أمّي أكثرَ وطأةً عليها من مرض أخي . وفي اللّيل يهرب النّوم من عينَيها بعيدًا ، تستجديه أنْ يهبها ساعةً أو ساعتَين لكنّه يتأبّى عليها فلا تكاد تَطرفُ لها عين ، فتقوم في الصّباح وقد انتفختْ عيناها ، فتتابع أعمالَها الصّباحيّة كأنّ شيئًا لم يحدث ، وتُنجِز مهمّاتها حتّى الظّهر ، حينَ تشتدّ الحرارة ، لتبدأ مشوار مأساتها الجديد مع أخي!!

حدث ذلك في أحد أيّام الظّهيرة ، كانتْ أمّي قد عادتْ مُتعبةً من العمل ، بعد أنْ سهرتِ اللّيل بطوله وهي تُفكّر في مصير أخي ، نظرتْ إليه مُمدّدًا ، فرأتْ في وجهه نورًا لم تره من قبل ، وطمأنينةً لم تشهدها في السّابق ، غمرتْها راحةُ البال في بداية الأمر ، ثُمّ سرعان ما انقبض صدرُها ، وبدأتْ الشّكوك والهواجسُ تغزوها ، خَطَر ببالها آنئذٍ أنّ هذا الهدوء هو علامة الموت لا علامة الحياة ، فركضتْ نحوه لتكتشف الأمر ، لكنّها ما كادتْ تجثو على رُكبتَيها بجانبه حتّى فتح عينَيه كأنّه يستيقظ من نوم طويلٍ وهو مرتاح ، وافترّتْ شفتاه عن بسمةٍ هادئة وادعة ، لم تُصدّقْ أمّي أنّها رأته في هذه الحال ، أرادتْ أنْ تُنادي أبي ، فنادتْني أنا ، كنتُ في الثّانية من عمري ، وكان الطّفل الّذي في أعماقي لا يعرفُ آنئذٍ من الحياة إلاّ اسمه ، ولا يستجيب حتّى لاسمه

إلاّ إذا نطق به أبوه أو أمّه ، مشيتُ متثاقِلاً نحوها ، فتلقّفتْني بذراعَيها ، قالتْ لي : «إنّه أخوكَ وسيعيش» . ابتسمتُ . نظرتُ مرّة أخرى إليه فاطمأنّتْ من جديد . كان التّعبُ آنئذٍ يستأذنها في أنْ يُخلِدها إلى النّوم ، فهي لم تذقْ طعم النّوم بشكلٍ صحيح منذ ما يزيد على سنة

فتحت الشّبّاك القريب من الفراش ، وركزتْ على طرفَيه قطعةً من الخيش المُبلّل بالماء ليُخفّف درجة الحرارة الّتي لا تُطاق في تلك الأيّام ، واستلقتْ على فِراشها ، وسرعان ما سقطتْ في بئرٍ من النّوم لا قرارَ لها

كان نداء الفجر يُوشِكَ أنْ يرتفع من مئذنة الجامع القديم ، وهي تجلسُ إلى ساريةٍ من سواريه الّتي قيلَ إنّ عمر بن عبد العزيز قد أسند ظهره إليها ، ذات مرّة حينَ كان والِيًا قبل أنْ يُصبح أميرَ المُؤمنين وخليفتهم العادل . تمامًا كان النّداء الخالدُ يهمّ أنْ يُرفَع حينَ جاءَها ذلك الشّيخ المَهيب لابِسًا ثيابًا بيضاء ، وطافِحًا وجهُه بالنّور ، ويلبسُ غطاءً أبيضَ على رأسه ، كأنّه جبريل ، هكذا تخيّلتْه أمّي حينَ كانتْ تسمع عن هيئته من شيخ الجامع ، كان شيخ الجامع يُقيم درسًا لنساء القرية عصرَ كلّ خميس ، في كلّ مرّةٍ يُحدّثهنّ عن قصّة من قصص الأنبياء أو الصّحابة ، وفي كلّ قصّة كان يرسم الشّخصيّة الّتي يتحدّث عنها ، فتذهب خيالات النّساء بعيدًا في تشكيله على أرض الواقع ، لكنّه مع ذلك كان يُحذّرهنّ من أنْ يلتمسْنَ شيئًا في حياتهنّ من هذه الشّخصيّات ، أو يطلبْنَ حاجةً من هذه الرّؤى الّتي تعبر الأزمنة السّحيقة لتقفَ على قدَمَين من خيالٍ أمام كلّ امرأة . كانتْ أمّي من النّوع الّذي لا يُؤمن بكثيرٍ من الخزعبلات الّتي انتشرتْ بين نساء قرية إبدر والقرى المُجاورة ، لكنّها مع ذلك كان لها قلبُ صوفيّ ، وروحُ

نورانيّ ، ونظرةُ مُريد . جاءَها الشَّيخ الجليل المَهيب في ذلك المنام ، لم تزلْ تذكر كذلك لحيتَه البيضاء الّتي يتخلّلها سوادٌ خفيف ، كانت تزيده وقارًا ، ابتسمَ في وجهها ، فاطمأنّتْ له ، سألتْه : هل أنتَ جبريل؟ لكنّه لم يردّ ، حاولتْ أنْ تصطنع معه حديثًا آخر : أأنتَ نبيّ أم صحابيٌّ أم من الصّالحين؟ غير أنّه ظلّ صامتًا . سألتْه في المرّة الثّالثة : ماذا تريد؟ لم يُجِبْ على عادته لكنّه أشارَ إلى حِضنها استغربتْ من فعلته ، لكنّها نظرتْ إلى حضنها فتفاجأتْ أنّني آوي إلى حضنها كقطّة صغيرةٍ تألف جِوار أمّها . لم تكنْ أمّي قبل أنْ يُشير الرّجل النّورانيّ إليّ تدري أنّني موجودٌ هناك ، بل لم تكنْ تشعر بأنّ جسدًا لطفلٍ في الثّانية يتكوّم في حضنها . وبخفّة لم تعهدْها أمّي ، حملتْني بين ذراعَيها ، وقدّمتْني إلى الشّيخ الجليل ، ورغم أنّه لم يقلْ كلمةً واحدةً ، إلاّ أنّها فهمتْ أنّه يريدُني بينَ يدَيه . حملني الشّيخ ، كانتْ يداه من غمام لا من لحم ، وكانتْ أصابعه من نورٍ لا من عَظم ، وكان وجهه من بُشرًى لا من تقاسيم . تمدّدْتُ على ذراعه اللّيّنة مثل عصفور في كفٍّ مفرودة ، نبتَ في أحدِ أصابعه قلمٌ من ذلك الّذي عرفتْ أمّي أنّه الّذي أقسم به الله في سورة القلم ، وخَطّ فوق شفتَيَّ شارِبَين سوداوَين ، ورسمَهما هناك بعناية حتّى بَدَوَا جذّابَين ، قالتْ له أمّي حينَ رأتِ شارِبَيّ قدِ اكتملا : «يعني سيكبُر ويُصبح رجلاً» . ظلّ الشّيخُ صامتًا على عادته . أمّي الّتي تُتقِنُ الأسئلة ، رمتْ بين يدَيه بسؤالٍ آخَر : «لن يمسّه أذىً مثل أخيه باسم؟» . لم تُجْدِ محاولتها الجديدة ، فالتفّت عليه بأسئلة سريعةٍ كالنّبال : «لن يموت . . .؟ لن يُعاني كأخيه . . .؟ سيتزوّج وسأشهد عرسه؟ ابني بطل؟ سيكون فخرَ قريته ووطنه وأمّته؟» . ظلّ الشّيخ صامتًا كأنّه تمثال لولا البسمة الّتي

كانتْ تزداد اتّساعًا مع كلّ سؤال حتّى بدتْ منها نواجذه . ردّني إلى أمّي كي تقرّ عينُها ، وغابَ كأنّه كان شبحًا دون أن يُخلّفَ وراءَه أثرًا أيقظَ نداء الفجر الحقيقيّ أمّي . نظرتْ إليّ وإلى أخي ونحن في فراشَيْنا ، كانَ تيّارٌ من السّعادة يلفّ حجراتِ قلبها . قامتْ فصلّتْ . كادتْ تتمايل من السّعادة وهي في صلاتها ، كلّما تذكّرتْ وجه ذلك الشّيخ طَرِبَتْ . شيءٌ ما يقول لها : إنّهما سيعيشان . وإنّ القادم سيكون أجمل ممّا مضى

(٣)
أجملُ الموتِ ذلك الّذي يختبئُ عبرَ رصاصاتٍ تعرفُ طريقَها

لم تكنِ المرّة الأولى ولا الوحيدة الّتي نتعرّض فيها لقصف نحن نُقاتل إنْ وجدْنا فرصةً لذلك منذ ثلاثين عامًا . لكنّنا للأسف لم نعثر عليها . نحنُ نُقصَف بإرادةِ العدوّ ، وفي المُقابل لا نُحمَى بإرادتنا ، شكّلتْ هذه المعادلة المُعقّدة مُعضلةً لي منذُ أنْ كنتُ صغيرًا ، فإذا كانوا أعداءنا فلماذا يتركونهم يفعلون بنا ذلك؟!! وإذا كانوا أصدقاءَنا فلماذا لا يتخلّون عن قمعنا وسرقتنا والاستبداد بنا كما يفعلون!!

حدث ذلك في معركة الكرامة ، كعادتي لم أشهدْ حربًا من الحروب الّتي يقولون إنّنا خُضناها مع العدوّ الصّهيوني ، جئتُ في زمن المُعاهدات والاتّفاقيّات ، أعني زمنَ الهزائم ، وزمنَ الاستِحمار للشّعب ، والاستغباء الحكوميّ! هكذا كان يحلو لي أنْ أُسمّي عصري ، لستُ مُهتمًا بمن يتّفق معي ولا بأولئكَ الّذين يختلفون معي ، بقدر ما كنتُ مهتمًا بأنْ أتّفق معي ، وأكون مُنسجِمًا مع ذاتي ، في اللّحظة الّتي يحدثُ فيها انفصال بين الكلمة الّتي أقولها وبين الفعل ، أعني بين القلب وبين العقل كنتُ أُعيدُ حِساباتي ، وأبدأ من جديد في تشكيل متغيّرات المُعادلة . أسوأ اللّحظات تلك الّتي تقول فيها ما لا تشعر به ، أو تُداري ما تقول لكي تُحافظ على مشاعر المُستمعين ، لم أكنْ من هذا النّوع ألبتّةَ ؛ كنتُ مهتمًا بصدقي التّامّ مع نفسي ،

وسيكلّفني ذلك غاليًا في المستقبل ، هذا لا يعني أنّني أكونُ دائمًا صادقًا ، كغيري تمرّ عليّ لحظاتٌ أكتشفُ فيها أنّني مُنافق ، بيدَ أنّ ذلك لا يستمرّ طويلاً ، السّبب أنّني كنتُ أُفعّل أسلوب المحاسبة الذّاتيّة
عشتُ مرّة سنةً كاملة بلا قرار ، كانتْ أفكاري تصنع داخلي مزيجًا من الحيرة والقهر والحزن والغضب معًا ، ولأنّني كنتُ موقنًا بأنّ أيّ قولٍ من العنتريّات الفارغة هو خَبطٌ في الهواء ، وادّعاءٌ أمام العامّة أكثر منه حقيقةً ، فقد تركتُ الكلام ، نعم تركتُ الكلام ، وتركتُ النّاس ، وعشتُ في إبدر مثلَ غريبٍ ، كان ذلك حينَ كنتُ في السّادسة عشرة من عمري ، وكانَ قد مرّ على التِحاقي بالجيش العربيّ عامٌ كامل شيءٌ من الذّهول سيطر عليّ في العام الأوّل بأكمله من تاريخ انضمامي إلى القوّات المسلّحة . شيءٌ من البلاهة والدّهشة الّتي لا تنقطع . كان سببُ ذلك أنّني لم أكنْ أحملُ بندقيّة مع أنّني كنتُ قنّاصًا ، تخيّل أنّكَ تدخل إلى مجرى نهرٍ وأنتَ تكادُ تموتُ من العطش ، ثُمّ يُعطونكَ كأسًا فارغة ، ويمنعونك من أنْ تصل إلى الماء ؛ ليسَ لسبب إلاّ لأنّ الّذين يقفون حُرّاسًا على الماء لم يُعطَوا بعدُ الأوامر بالسّماح لي بأنْ أغرف من النّهر الجاري . كانتْ بالفعل كأسي فارغةً طوال العام الأوّل!! وكنتُ شديدَ اللّواب إلى الحدّ الّذي تشقّقتْ فيه شِفاهُ قلبي حسرةً وأسًى!!

ذات اللّواء المُدرّع السّابع الّذي هاجم قرية (سَمّوع) في عام ١٩٦٦ هو الّذي أرادَ بغِطاءٍ جويّ كثيف أنْ يحتلّ مرتفعات السّلط ، والشّونة ، وإربد ، والكرك ، ويُتمّ سلسلة الجبال المُحتلّة الّتي يتخذها درعًا واقيًا من أجل أنْ تحفظ أمنه وتقيه شرّ الهَجَمات الّتي تُشنّ عليه من القرى الواقعة على هذه المرتفعات كقريتي إبدر .

كان عمّي (جمال) جُنديًا في الجيش ، حينَ تطوّع من تلقاء نفسه هو ومجموعة من الجنود المُتحمّسين فجرَ الواحد والعشرين من آذار لعام ١٩٦٨ أنْ يصدّ رتلاً من الدّبابات العسكريّة الّتي دخلت الحدود الأردنيّة من جسر (سويمة) ، مع أنّ الأوامر كانتْ تقضي بعدم التّدخّل في شؤون المعركة دون إذن من القيادة العُليا كان منظر الدّبابات وهي تقطع الجسر كأنّها ذاهبةٌ في نُزهةٍ هو ما أثار حفيظة عمّي ورفاقه ، فهجموا حاملين بنادقهم ، وقنابلهم اليدويّة وأرواحهم ، حينَ يقفُ الوطن بكامل جلاله أمام ناظِرَيك لا تملك إلاّ أنْ تنحني لتقبّل أقدامه ، ثُمّ تحمل روحكَ على راحتك لتكون أقلّ ما يُمكن أنْ تُقدّمه من أجله

تمكّن عمّي مع رفاقه من إعطاب دبّابةٍ بقنابلهم اليدويّة حينَ فوجِئتْ تلك الدّبّابات بمجانين يقفون في مرمى أهدافها بشكلٍ مُباشِر ويُلقون بعشرات القنابل وقذائف الـ (آر بي جي) كأنّهم يستمتعون بهذه المواجهة غير المُتكافئة . لم يُفكّروا لحظةً فيما كان يُمكن أنْ يحدث لهم ، ولو فكّروا ما أقدموا على ما أقدموا عليه ، خير الانتِصارات تلك الّتي تصنعها الضّربات الاستِباقيّة الّتي لا يكون للعقل فيها محلّ ، ولا للمنطق فيها موضع

بدأتِ الدّبابة بإطلاق قذائفها ، أصابتْ إحداهنّ أسفل الصّخرة الّتي كان يقف فوقها عمّي جمال ، تطايرتْ أجزاء واسعة من الصّخرة ، واهتزّتْ جنباتها بعمّي ، فترنّح من شدّة الضّربة وكادَ يسقط ، لكنّه تمالك وراح يستنشق الهواء بسرعةٍ ليعوّض الاختناق الّذي كادت الأتربة وشظايا الصّخور والقذيفة ودخانهما أنْ تتسبّب به ، لم يكدْ يُبصر الفضاء أمامه حتّى كانتْ إحدى الشّظايا تسقط من ارتفاعٍ شاهق

على كتفه فتُرديه أرضًا . شاهده أحدُ زُملائه فظنّ أنّه قُضي عليه ، تركه حتّى تهدأ الأمور ويستطيع أنْ يسحبه . لكنّ عمّي لم يمتْ . كان قد فقد وعيه لدقائق قبل أنْ يستعيده من جديد على صوت الطّلقات المُدويّة ، حاول أنْ ينهض من مكانه ليحتمي خلف أحد الكمائن ، لكنّ رجلَيه خانتاه . كانتْ ساقه اليُسرى قد كُسِرتْ على ما يبدو . كزّ على أسنانه من الألم ، ونظر إلى السّماء كانتْ طائرات العدوّ ما تزال تواصل تحليقها في السّماء . استمرّتِ المعركة أكثر من ستّ عشرة ساعةً مُتواصلة . ظلّ خلالها عمّي ينزف . كان النّزيف من كتفه المُصابة الّتي يبدو أنّ الشظيّة صنعتْ فيها حفرةً غائرة في اللحم والعظم بحجم حبّة التّفّاح . بعد عشر ساعات تمكّن أن ينسحب من أرضِ المعركة زحفًا على بطنه ورجله اليُمنى . أُخِذ إلى المستشفى الميدانيّ ، ثُمّ إلى مستشفًى خاصّ ، في صبيحة اليوم التّالي كان يبدو أنّه فقد ذراعه للأبد ، وأمّا رجله فأقعدتْه عن الخدمة ثلاثة أشهر قبل أن يعود مجدّدًا بوسام حقيقيّ

لم يكنْ عمّي بِدْعًا من الأبطال ، كان واحِدًا من كثيرين آخَرين قاتلوا يوم الكرامة دفاعًا عن كرامتهم وكرامة وطنهم ، ولكنّه مثل الكثيرين كاد أنْ يتسبّب إقدامُه دون أوامر على خَوض المعركة بفصله من سلك العسكريّة وحِرمانه من كلّ امتيازاته!!

عرفتُ كلّ هذه الحكايا من أبي ، كان أبي يأخذُ بيدي إلى أطراف (إبدر) ، نمشي ساعات وساعاتٍ في الحقول ، نصعد ونهبط ، حتّى نُشرفَ على تلك التّلال العالية الّتي ترى منها جبل الشّيخ ومرتفعات الجولان وهضاب فلسطين . كنتُ أشعر أنّه يستمتع بحديثه لي عن تلك البلاد ، ويستمتع أكثر بأسئلتي الّتي إذا انطلقتْ من

عِقالها فإنّها لن تنتهي حتّى يتعب أبي ، وحتّى يبدو عليه الضّجر في النّهاية لكثرتها

قلتُ له ذات مرّة : «امرأة عمّي لم تمتْ في بيتها؟» . احتار في صيغة السّؤال ، فردّ على السّؤال بسؤال : «ماذا تعني؟» . «أعني أنّها لم تمتْ قضاءً وقدرًا ، بل إنّ هناك مَنْ قتلها؟» أجابني : «لماذا تسأل هذا السّؤال وأنا كنتُ قد أخبرتُكَ بإجابته من قبلُ ، امرأة عمّك ماتتْ في القصف» . «إذًا هناكَ مَنْ قتلها» . «بالطّبع» . «ومن المَسؤول عن قتلها إذًا؟!» . «اليهود» . «لا أريد إجابات عامّة . أريدُ أنْ تُحدّد لي اسم الّذي قتلها» . «ومَا أدراني يا بُنيّ ، كانَ طيّارًا مجنونًا» . «لا يُوجَد طيّارٌ مجنون ، وهذا الطّيار ألا يحمل اسمًا؟» . «وما أدراني باسمه؟» . «يقتل امرأة عمّي ولا تعرف مَنْ هو ، ولا ما اسمه؟» . «وكيفَ لي أنْ أعرف ، كلّ ما نعرفه أنّه تابعٌ لسلاح الجوّ الإسرائيليّ» . «ومَنْ يأمر طيّارًا مثله أنْ يُغير على قريتنا؟» . «قائد الطّيران عندهم» . «ومَنْ يأمر قائد الطّيران أنْ يستخدم طيّاراته في إبادتنا؟» . «رئيس الوزراء» . «ومَنْ هو أعلى من رئيس الوزراء عندهم؟» . «لا أحدَ يا بُنيّ» . «إذًا أنا ثأري مع رئيس الوزراء الإسرائيليّ سوف أقتله كما قتل امرأة عمّي» . لم يدرِ أبي ما يقول آنذاك ، كان يُمسكُ بيُمناي ، فتركها ، وهبط من علوّه حتّى صار وجهه مُقابِلاً لوجهي : «يا بنيّ ليتَكَ تستطيع» . «أُقسم لك بالله أنّني أستطيع وسأقتل رئيس وزرائهم يومًا ما يا أبي» . مسح بيده على جبيني ، ولم يدرِ ما يفعل ، كنتُ أرتعش ، كان الدّمُ يفور من وجنتَيّ ، وعلى أطراف عينيّ تتجمّع دموع القهر . أدرتُ ظهري له فجأة ، وركضتُ بعيدًا عنه وأنا أهتف : «لا أدري كيف سامحتم كلّ هذه السّنوات بدماء امرأة عمّي؟! كيف تتركون قاتِلها حرًّا إلى اليوم دون أنْ

تقتلوه؟!»   كان عمري يومئذٍ ثلاثةَ عشر عامًا . وحينها بدا أنّ أبي قد بدأ يخافُ عليّ ويخافُ منّي!

صار هدفي بعدها أنْ أحمل البندقيّة . كان منظر فلسطين المحتلّة والجولان المغتصبة من تلال قريتنا يزيدني إصرارًا على أنْ أتأبّطها مُقاتلاً ، وأنْ أدفع كلّ أحلامي بذلك الاتّجاه . كنتُ من النّوع الّذي إذا أصرّ على شيءٍ تضافرتْ له أقدار السّماء كي يُنفّذ ما يُريد . من ذلك النّوع الّذي يرسم النّهايات العظيمة ، لأنّ أحلامه عظيمة . البدايات لا تأتي وحدها ، ولكنّها لا تحتاج إلى شيءٍ كثير ؛ يكفيها قلبٌ مُؤمن بالفكرة ، وعزيمةٌ كافرةٌ بالفشل . أمّا النّهايات – لمن يملك تلك البدايات – فتبدو تحصيل حاصل .

لم يكنْ ثمنُ هدفي زهيدًا ، كان عليّ أنْ أسابِقَ الزّمن لألتحق بسلك العسكريّة ؛ أقرب الطّرق الّتي فكّرتُ في أنّها ستوصلني إلى حَمْل بندقيّتي الّتي أحلم بها ؛ حَمْلُ البندقيّة يُشبِهُ حَمْلَ الموت ، وكنتُ أطربُ لهذا التّشبيه ؛ لأنّني كنتُ أريدُ أنْ أصبّ الموت الكامن في بندقيّتي لآخذ بثأري ، كنتُ أعرفُ أنّ للموتِ أشكالاً عديدةً ، وفي سِنّي تلك كنتُ أرى أنّ أجمله ذلك الّذي يختبئ في الرّصاصات الّتي تعرفُ طريقَها تمامًا   كانت حكايا المُجاهدين الّتي سمعتُها من أُميّ ، عن أولئك الّذين أقاموا في ربوع قريتنا قبل أنْ أولد تُداعب مخيّلتي وتُشعرني بالزّهو   كنتُ أريد للموتِ أنْ يكونَ طَوْعَ زِنادي ، وطوعَ رصاصاتي الّتي لا تُخطِئ أهدافها ، ولو كانت في السّماء . كانت عندي قناعةً بأنّني لو صوّبتُ فُوهة بندقيّتي إلى نجمةٍ في السّماء فستخرّ صريعةً بين قدميّ . وفكّرتُ في أولى الخُطوات ؛ كان ذلك يعني أنْ أُصبحَ قنّاصًا ؛ أنْ أُصبحَ من ذلك النّوع القادر أنْ يصيدَ هدفًا

صغيرًا متحركًا في الفضاء على ارتفاع شاهق . لا يُوجَد ما هو أشهقُ في ارتفاعه من طموحي ، وعليه فكلَّ شيءٍ يبدو ضئيلاً أمامه ، ومُتصاغِرًا!!

ساعدَني أبي الّذي التحق بالعسكريّة مرّتين في حياته على أنْ أُصبح أحد أفراد القوّات المُسلّحة وأنا لم أتجاوز الخامسة عشرةَ من عمري تاريخ عمّي النّضاليّ ، وقتاله على الجَبهات ساعدَ في الأمر هو الآخَر ، وسجلّي النّظيف الّذي لم تَشُبْه شائبةٌ حتّى الآن أسهمَ في قَبولي كذلك . وأشياء أخرى كثيرة لا يعلمها إلاّ الله . لكنْ أنّى لهم أنْ يُدرِكوا أنّ فتًى مثلي في الخامسة عشرة من عمره تنطوي جوانحه على ثورةٍ لا تهدأ ، وعلى بركانٍ يوشِكُ أنْ ينفجر!

(٤)
كيفَ يتخلى الله عن عبدٍ طَرَقَ بابَه

نقلْنا في ذلك اليوم أكثر من خمسين (سحّارةً) من العنب الأبيض كان ذلك في العطلة الصّيفيّة ، بدأتْ أمّي تعتمد عليّ في مُساعدتها بعدَ أنْ بلغتُ العاشرة ، كان أبي قد ترك العسكريّة آنئذ وذهب إلى السّعوديّة ليبحثَ عن منفذ رزقٍ جديد . أمثال أبي في البلد الحُلم كانوا يعملون في البقّالات الكبيرة هُناك ، يبيعون ويشترون ، أو يُفرّغون البضاعة من شاحنة النّقل ، أو يرتّبونها على أرفف العَرض ، وإذا ما اطمأنّ إليهم صاحب العمل كان بإمكانهم في حالاتٍ قليلة أنْ يجلسوا وراء (الكاشير) ليقبضوا أثمان البضاعة من المشترين .

في هذا الصّيف ، كانتْ (إبدر) تموج بمزارع العنب ، لم يكنْ من أحدٍ في القرية الوادعة إلاّ ويستظلّ في بيته تحتَ عريشةٍ من عرائشها ، ولا مِن حقلٍ إلاّ وتتزيّن صفحتُه بكرومها المنبسطةِ على الأرض انبِساطَ السّحب في السّماء . وكانتْ أمّي في الصّيف تتضمّن الكروم حتّى من أقاربها ، لِقاءَ نسبةٍ من ناتج الأرض ، ولم تكنْ أختايَ بمنأى عن العمل هما أيضًا ، لكنّ الولد النّاشِئ ، والفتى الشّقيّ الّذي كُنتُه كان محور العمل ، ومقصد الرّجاء ، ومعقد الآمال . نعم في ذلك اليوم ملأنا بالعنب الأبيض ذي الحبّات النّاضجة أكثر من خمسين (سحّارة) ، كُنتُ أحملُ اثنتَين اثنتَين على ظهري لأودعهما في مركز تجميع (السّحاحير) ، ريثما تأتي الشّاحنة ، لأقومَ من جديد برفعها على

ظهري ونقلها إلى عامل آخر يقف في جوفها ويأخذها منّي ، ويرتّبها بدوره هناك . وحينَ تمتلئ الشّاحنة بالعنب بعد نهارٍ صيفيٍّ قائظٍ طويل ، ترتحل باتّجاه سوق الخضار العامّ لتبيعها هناك . وكُنّا نتقاضى نحن المزارعين أثمانًا زهيدةً للسّحّارة مقارنةً بما تُباع به في السّوق . لكنّنا كنّا راضين . وكانتْ أمّي أوّل من علّمتْني أنّ الحياة ذهبَ نِصفُها الأوّل بالرّضى ونصفُها الثّاني بالصّبر . وكانتْ تقول : الرّضى لا يعني الذّلّ ، ولكنّه يعني الشّكر ، شكرَ الله الّذي قَسَمَ وقدّر .

كانَ بيتُنا بسيطًا ، يتكوّن من مدخل ترابيّ ضيّق ، ظلّ عشر سنوات حتّى تمكنّا من تحويله إلى مصطبة إسمنتيّة ، وغرفتَين صغيرتَين في الدّاخل ، ومجلس ضيوف واسِعًا نسبيًا . وكُنّا قد بقينا أربع سنوات نبنيه مِمّا كانَ يبعثه لنا أبي من مكان عمله ، ومِمّا نجنيه نحن أبناءَه الصّغار من العمل مع أمّي في الحقول والمزارع . وكانتْ أمّي ترى أنّ وجودي - وإنْ كنتُ ما زلتُ في ميعةِ الصّبا - إلى جانِبها يُعوّض كثيرًا من فقدان أبي ورعايته ؛ فكنتُ إلى جانب جَنْي محاصيل العنب ، أحصدُ معها في الصّيف ، وأجني معها الزّيتون في الشّتاء . وكانتْ تبعثُ بالأمانات الّتي تُريدُ أن تُوصِلها إلى أهل القرية معي ، نقودًا كانتْ من دين مُستحقّ ، أو جِرارًا من الزّيت البلديّ ، أو أكياسًا من (الخبيصة) أو غيرها . وكانتْ تبعثني أيضًا بمطالباتها الماليّة ، لأولئك الّذين ما زالَ لها عليهم نقودٌ لم يُتمّوا دفعها عن بِضاعةٍ باعتْها لهم ، وكثيرًا ما كنتُ أرجع خالي الوِفاض من هذه المهمّة الأخيرة ؛ فقد كانَ أهلُ قريتي فُقراء ، وأكثر مدخولٍ كانَ يأتيهم هو مِمّا تُنبِتُ الأرض ، أو من أولئك النّفر القليل الّذين شرّقوا في البِلاد أو غرّبوا بحثًا عن كسر الخبز المتناثرة من بين أيديهم في بلدانهم . والحقّ أنّ أمّي كانتْ كثيرًا

ما تُرجِئ المَدينين و تُؤخّرهم ، وكانتْ تتعذّر عنهم في أنّ محصول السّنة لم يكنْ كافِيًا لسداد الدّيون ، أو أنّ الأرضَ لم تَعُدْ تُغِلّ كما كانتْ تُغِلّ في السّابق ، وفي أحيانٍ أخرى كانتْ تُسامحهم ، وتحتسب ذلك عند الله . لكنّها في المقابل أيضًا لم تكنْ لتسامحَ في حقٍّ من حقوقها على مدينٍ أو آخر يتنمّر عليها ، أو يستقوي على ضعفها كونها امرأة ، أو يستهين بشأنها ويتناسَى ما عليه من مال ، بل كان صوتُها الحادّ وعيناها اللّتان تبرقان كعَيْنَي حَدأةٍ يُدخِلان الرّهبة في قلبِ مَدينها حتّى يُسارع إلى سداد دَيْنه ؛ نعم كانتْ أمّي قويّة ، حادّة اللّسان ، عالية الهمّة ، مستحيلة الضّعف ؛ لم نرها مرّة واحدةً تشكو قلّة الحال أو بُعدَ المُعيل ، أو كثرةَ الأعباء أو ضيق ذات اليد . . . كانتْ قويّة كما يليقُ بأمّ عظيمة أنْ يكون ، ومنها تعلّمتُ ثلاثةَ أرباع دروس الحياة من غير كِتابٍ ولا كُرّاس ، ولا صفٍّ ولا طباشير ، كانتْ فضائي اللامُتناهي الّذي مكّنني من أنْ أرى بعيون كثيرةٍ واقع حالنا ، وكانتْ ساقِيتي الّتي شربتُ منها ماء الحياة ، والشّجرة الّتي أويتُ إلى ظِلالها من حَرّ الهجير ، ولجأتُ إلى ثمارها من ضراوة السّغب ، وحملتْني على أكتافها عالِيًا عاليًا لأرى عوالمَ الله في كلّ مكان .

أمّا أخي الأكبر ، فما رأيتُ أمّي باكيةً عليه يومًا أمامنا ، ولا متحسّرةً على ما آل إليه حالُه ولو للحظة ، وإنْ كنتُ أؤمن أنّها تتقطّع في أعماقها حينَ تخلو لنفسها بعد يوم شاقٍّ من العمل في الحقول ، لكنّ قامتها الفارعة لم تنحنِ ولو لالتقاطِ ثمرةٍ من الطّرق ؛ إمّا أنْ تأتيها الثّمرة من الأعلى ، أو لا ثمرةَ أبدًا ، فالّذي يأتي من السّماء هو المقدور والموعود كما كانتْ تقول ، وهو المأمول ، وفيه الرّجاء ، أمّا ذلك الّذي يأتي من البشر فلا حاجةَ لنا به ، وفي السّماء رزقنا ، وفي السّماء ما

يكفينا المؤونة . أمّا أخي الأكبر الّذي أحدثَ نُدبةً في قلبِ أمّي ، خبّأتها من الرّيح ومن أنْ تظهر بِشال الصّبر ، فلم تكنْ تملك له إلاّ الدّعاء ، ولم يكنْ أحدٌ منّا أنا وأمّي وأختاي ينتظر منه أنْ يُساعِدَنا ؛ فقد أقعده - أو كادَ - شللُ الأطفال الّذي أصابه وهو في عمر الرّابعة بعدَ حمّى مُفاجِئة طرحتْه في الفِراش لأسابيعَ طويلة كما ذكرتُ .

علّمتْني أمّي أنْ أكونَ حمامةَ المسجد ، في البدايات كانتْ هي مَنْ تأخذ بيدي وتقودني إلى بوّابة المسجد القديم في القرية ، وتتركني عندها ، ولا تعود حتّى تراني دخلتُ وهي تتبعني بنظراتٍ حانية ، وبقلبٍ يخفقُ بالسّعادة . كانتْ تقول لي «كيف يتخلّى الله عن عبد طرقَ بابه» . وحينَ أُعانِدُ أحيانًا ، كانتْ تُغريني بالمال الّذي يسقطُ في جيبِها من السّماء ، وبالقول الحَسَن ، ولا أُنكِر أنّها اضطرّتْ لضربي غيرَ مرّة ، وأحيانًا كان يدفعني إلى أنْ أسارع بِخُطاي إلى المسجد نظراتُها الثّاقبة خاصّة حين تُضيّق عينَيها وتنظر إليّ وهما يبرقان بغضبٍ ووعيد ، ويلمعان خلفَ عقوبةٍ مُؤجّلة . لكنّ الفتى لا يتّصل بالله لمجرّد دعوةٍ من أبٍ أو أمٍّ ، فإنّما هو طفل ، ولا يعتاد حُبّ اللّقاء بالله إلاّ إذا دُفِعَ إلى ذلك بالتّرغيب تارةً وبالتّرهيب تارةً ، حتّى إذا سلكتْ رِجلُه في طريق المسجد وتآلفا ؛ فإنّه إنّ نشأ حُبٌّ بينه وبين تلك الطّريق ، وبينه وبين ذلك البهو العالي في بيت الله تعلّق قلبُه به ، فصارا خِدْنَين يجدُ كلُّ واحدٍ راحتَه في الآخر . نعم لم تيأسْ أمّي من أنْ تغرس حُبَّ الله وحبَّ بيته في قلبي ، وصبرتْ على شجرة الحُبّ تلك ، وسقتْها بكلّ الأمواه المُمكنة حتّى أثمرتْ ، فصار قلبي مُعلّقًا به ، وصرتُ أجدُ راحتي في الجلوس في زواياه ، وكما نشأتْ علاقةٌ متينةٌ بيني وبين أشجار القرية وخاصّة تلك السّنديانة ، فقد نشأتْ علاقة بيني وبين

تلك الأحجار في المسجد ، الزّاوية اليُمنى البعيدة الّتي كنتُ أتلقّى فيها الدّروس على يد شيخ المسجد تحوّلتْ من مجرّد زاويةٍ تكادُ تكون مهملةً في غير أوقات الدّروس إلى قطعةٍ من قلبي ، وخليّة من روحي ، كانتْ لي فيها جلساتٌ طوال ، وخَلَواتٌ أطول ، وفي ليالي مُدلهمّة ليس معي فيها إلاّ الله وقلبي كنتُ أقرأ فيها القرآن وأتتبّع فيه آيات الجهاد ، وأحفظها عن ظهر قلب . بل كنتُ في فترةٍ لاحقة أحمل دفترًا خاصًا وأسجّل فيه تلك الآيات ، وأضع الدّفتر تحت مخدّتي حين آوي إلى فراشي . وحدث غير مرّة أنْ صحوتُ في منتصف اللّيل بعد رقدةٍ عميقةٍ من نومي ، فأخرجتُ ذلك الدّفتر من مخبئه ورحتُ أراجع فيه بعض الآيات ، وأضع خطوطًا تحت بعض الكلمات لأجدَ لها تفسيرًا وشرحًا حينَ أستيقظُ في صبيحة اليوم التّالي!

لئنْ فاتَ أخي الأكبر ومن بعده أخي الأصغر أنْ يعملا في الفترة الّتي كنتُ أعمل فيها مع أمّي ، إنّه لم يَفُتهما أنْ يكونا معي من روّاد المسجد ، وخاصّة أخي الأكبر ، الّذي كان أكثرَ التصاقًا بجنبات المسجد منّي ، بل كان توقه إلى الجهاد يفوق توقي بأضعاف ، ولا تسألوني من أين جاءه ذلك ، أو من أينَ رَضعه ، فكلّ ذرّة ترابٍ في قريتنا وفي أردنّنا الحبيب علّمتْنا ذلك ، ولو أنصتْنا إلى ثراه تمام الإنصات لقال لنا إنّ هذه الأرض للطّاهرين ، الفاتحين العظام من الصّحابة الأبرار ، ألا يقول لك مقام أبي عبيدة في الأغوار لو كانَ لكَ قلبٌ لتسمع : سِرْ على طريقي ولا تَحد عنه ؛ فإنّ مَنْ حادَ عنه ذلّ . ألا تقول لك حجارة القبر الّذي يضمّ رُفات معاذ بن جبل : إيّاك أنْ تمدّ يدكَ إلى قاتلك ، فإنّما رويتُ هذه الأرض بدمائي ودماء إخواني لِتُحافظَ عليها لا لتبيعها لأحفاد القردة والخنازير . ألا تسمع رُفات عامر بن أبي وقّاص وهو يرقد

في مثواه الأخير يقول لك : لا تُلقِ سيفكَ فالذّئابُ تجمّعتْ ، واللّيلُ أطبقَ ، والجَرادُ تحَشّد . ألا تملكُ أذنَين واعِيتَين لتسمع كلّ ذلك ، ألا تُنصِت إلى تراب (إبدر) وهو لا يزال يئنّ من ضربات الفاجِرين قبل أعوام قليلة ، ألا يقول لك هذا الثّرى : «إيّاكَ أنْ تُصالح ولو على الدّم بدم!!» . ألا يصل إلى حُجُرات قلبِكَ أصوات الضّحايا الّذين تبعثرتْ أشلاؤهم في فضاء (سَمّوع) وهي تستغيث : «أترى تمدُّ يدًا تُصافح قاتلي؟!» . إنّه - فحسب - النّظر إلى الميزان العدل في الأمور لكي تتكشّف لك الحقائق ؛ فمنذ متى صار الذّئبُ راعِيًا للغنم!! ومنذ متى عقدتِ المُدية صلحًا مع الوردة!! ومنذ متى نسيَ صاحبُ الذّاكرة الضّعيفة أنّ القاتل تحوّل في غفلةٍ من الزّمن إلى ابن عمّ!!

إنّها أصواتهم لا تزال ترنّ في آذاننا ؛ فإنْ لم تسمعْ شيئًا من ذلك فراجع حقيقةَ وجودك ، وإنْ لم ينتبه قلبُك إلى هذا الصوت الشّجيّ الّذي يرتفع في الحدود الفاصلة بأنّه لا سُلطان على هذه الأرض إلاّ للمُوحّدين فراجع حقيقة إيمانك . . . ثُمّ إنّ المشكلة ليستْ فيمنْ يقول ، فهذه الأصوات الرّافعة عقيرتها بالقتال حتّى آخر قطرةِ دم دون خضوع أو خنوع أو ركوع ترتفع في كلّ يوم بل في كلّ لحظة ؛ لكنّ المُشكلةَ فيمن يسمع هذه النّداءات المُتكرّرة ؛ كلاّ بل رانَ على قلوبهم .

كنتُ أصلّي خلف الشّيخ عبد الرّزّاق ، كان يحفظُ القرآن كاملاً ، ووهبه الله صوتًا شجيًا ، وكان يعقدُ لنا نحن فتيان القرية درسًا بعد عصر كلّ ثلاثاء ، ويعقد مثله بعد عصر كلّ خميس للنّساء ، وكان قد تخرّج في الأزهر الشّريف ، وهو من القلّة الّذين استطاعوا أنْ يحصّلوا شهاداتٍ جامعيّة في ذلك الزّمن من تلك الجامعة المرموقة العريقة بدأتْ علاقتي به تقوى ؛ كان في حدود ما تعلّمْتُه منه فقيهًا ومُحدّثًا ،

وعلك روحًا مرحة ، حببّتني أنا وبقيّة أطفال القرية بدروسه ، وكان أكثرُ ما يتقنُ في دروسه قصّ القَصَص ، ولعله أخذ من أهل مصر دُعابتهم وتمثيلهم لهيئات الشّخصيّات التّاريخيّة الّتي يتحدّث عنها ، فمنه عرفتُ كيفَ خلع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص طَوقَي الذّهب اللّذين كانا يُطوّقان عُنُقَيهما لحظةَ إسلامهما ، فقد مثّل ذلك لنا ، حينَ وضع في عنقه مسبحةً طويلة من ذوات الـ ٩٩ حبّة ، وقال لنا تخيّلوا أنّ هذه الحبّات الّتي هي هنا من خشب كانتْ من لؤلؤ وذهبٍ في عنقَي خالد وعمرو ، وأنّهما شدّاها بقُوّة وخلعها كلّ واحدٍ من عنقه كأنّه يخلع جاهليّته القديمة المُظلِمة ليحلّ محلّها نور الإسلام المُبين ، وقام شيخُنا بخلع المسبحة في حركة تمثيليّة حتّى إنّها انفرطتْ حبّاتها بشدّة وتناثرت على رؤوسنا نحن الأطفال الّذين ذهبْنا في نوبةٍ من الضّحك شاركنا بها الشّيخُ نفسُه . فكُنّا نحرِص لدوره التّمثيليّ الجاذب أنْ نحضر دروسه الممتعة!

كنتُ أكثر طلبته إلحاحًا في السّؤال . كانت الرّمضانات بين يديه لها طَعمٌ آخَر ، شيءٌ من الرّوحانيّة اللّذيذة وقر في قلوبنا الغضّة ، واستقرّ هناك ليكون زادَنا في الدّروب القاسية الّتي سيرتادها كلّ واحدٍ منّا فيما بعد . كنتُ أسأله عن الآيات الّتي تتحدّث عن اليهود وأسجّلها خلفه في دفتري الخاصّ ، وأطلبُ منه أنْ يراجع لي ضبطَها إنْ كانَ صحيحًا ، وأبدأ بحفظها ، كانَ تجميعُ كلّ الآيات وضبطُها هو المرحلة الأولى ، أمّا المرحلة الثّانية فكانتْ تتمثّل في حفظها كاملةً دون خطأ واحدٍ ، وأمّا المرحلة الثّالثة والأخيرة فكانتْ أصعبَ المراحل عليّ وعلي الشّيخ ، وهو تفسيرها ؛ ولأنّ (إبدر) كانتْ قرية منسيّة من قرى الشّمال في الأردنّ ، ولا أحدَ يُتبّع خلفَ الشّيخ ، ولا خلفي آنئذٍ ؛ فقد

أفاضَ الشّيخ في تفسير الآيات وصبر طويلاً عليّ ، وهو يُبيّن لي حُكم قتال اليهود ، ويعضدُ ذلك بأحاديث شريفة ، مثل قوله صلّى الله عليه وسلّم : «إذا اغتُصبَ شبرٌ من ديار المُسلمين وجب الجهاد على كلّ مسلم ومُسلِمة ، المرأة تخرج دون إذن زوجها ، والولد دون إذن أبيه ، والعبد دون إذن سيّده» . وكان لهذا الحديث وَقْعٌ كبيرٌ في قلبي ، وبقيتُ سنةً أو يزيد آخذ عن الشّيخ الآيات الّتي تتحدّث عن طبائع اليهود وصِفاتهم وعلاقاتهم مع أنبيائهم ، ولا زلتُ أذكر أنّني قلتُ له ذات مرّة : «إذا كان اليهود يذبحون أنبياءهم فهل سيتركوننا دون ذبْح ونحن لسنا أنبياء ولا منهم ، بل نحن في عُرفهم حميرٌ مُستَضرَطة» وكان يقول لي يا بُنيّ : «إنّهم كدّشونا» . ولم أدرِ مَنْ كان يعني ولا ماذا كان يعني ، ولكنّني فهمتُ أنّنا عندهم وعند غيرهم أحطّ المخلوقاتِ قذرًا

لا تسألوني اليوم لماذا كُنّا نسأل عن تلك الآيات ، اسألوا تراب (إبدر) فعنده الجواب ، اسألوا قبور الشّهداء فهي أبلغُ منّي في الحديث .

(٥)
ما يبقى في الذّاكرة
هو ذلك الذي يستوطن القلب

كانتْ حياتي في المدرسة فصلاً آخَر من الحياة المتجدّدة ؛ إنْ لم يكنْ هناك ما هو جديد فإنّني كنتُ أصطنعه ، أكره الرّتابة ، وأكره المياه الرّاكدة ، وأكره الآفاق المسدودة ، وأبحث عن كلّ ما يلوّن الأيّام الّتي لولا الفرشاة الّتي أحملها في يدي لبدتْ متشابهةً إلى درجة التّطابق لكنّ طبيعة الحياة في القرية هي أوّل ما يكسر الرّتابة ، وكان لكلّ شيءٍ عندي موسم ؛ للحصاد موسم ، وللقطاف موسم ، ولمطاردة الفراشات موسم ، ولإيقاد النّار في المساءات الشّتائيّة موسم ، كُنّا نتحلّق خمسةً أو ستّةً حول النّار المُوقدة تحت شجرةٍ عالية ونحنُ نمدّ أيدينا المُرتجفة كالرّهبان نلتمس الدّفء والحياة من النّار ، ونغنّي أغاني الشّتاء الحزينة بصوتٍ عالٍ . أمّا أجمل المواسم - على الأقلّ وأنا في الثّانية عشرة من عمري - فكان موسم صيد الحجل كنتُ بارعًا في الصّيد عن طريق الفِخاخ البسيطة ، صحيحٌ أنّني كنتُ أتمنّى قبل أنْ أدخل العسكريّة أنْ أحصل على بندقيّة صيد ، لكنّ الظّروف الماديّة وقفت حائلاً قويًا أمام هذه الأمنيّة ، ولم أتركها تذهبُ سُدًى ، فاستعضتُ عنها بـ (النُّقّيفة) تارةً ، وبالفِخاخ المعدنيّة ذات (الرّفّاس) أو النّابض تارةً أخرى . مرّة واحدةً خرجتُ فيها مع خالي في رحلة صيد ، وكان يحمل معه بندقيّة ، وكان يومًا لا يُنسَى . قال لي خالي ونحن عائدون في المساء ،

والشّمس تُحتضَر: «ستُصبح قنّاصًا». لم يُشعرني ذلك بالزّهو كثيرًا، إذ كيفَ أُصبح قنّاصًا وأنا لا أملك بندقيّة، فسارعتُ قائلاً: «أعرني بندقيّتك أسبوعًا واحِدًا وستعرف معنى أنْ يُصبح ابن أختك قنّاصًا». كانتْ لهجتي تحمل التّحدّي ممزوجًا بالرّجاء. سكتَ خالي ولم يُجِب. لم أعرفْ إنْ كان سكوته غيظًا أو رضًى يُمكّنني من الطّلب مرّة ثانية، لعلّ بوّابة القبول تُفتَح في هذه المرّة الثّانية. هززتُ يده الّتي تحمل البُندقيّة، فقال لي: «سأعطيك البندقيّة أسبوعًا بشرط» أجبتُه على الفور من فرحتي: «ضعْ عشرة شروط». «الأوّل أنْ تُثبِتَ لي أنّك ماهرٌ في الصّيد». سألتُه وأنا مغتبط: «وكيفَ أُثبت لك ذلك؟!». «أنْ تصيد في المناطق الّتي لا تجلب لنا فيها عيون الأمن المنتشرين على الحدود، وأنْ تأتيني كلّ يوم بخمسة طيورٍ من الحجل على الأقلّ» أجبته على الفور: «وأنا قبلتُ». للأمانة بعد كلّ هذه السّنوات أقول إنّني لم أفِ بالشّرط الأوّل، ولكنّني وفيتُ بالشّرط الثّاني مُضاعَفًا؛ فكنتُ آتيه في اليوم بعشرة من طيور الحجل، وكان ينظرُ إليّ في كلّ مرّة بعَجَبٍ وبفخر.

في المدرسة، كان الأستاذ (سامي) أقرب الأساتذة إلى قلبي، يَحظَى باحترام واسع بين التّلاميذ لثلاثة أسبابٍ على الأقلّ، صوته الجهوري الّذي كان يُزلزل أعماق أحدنا إنْ نادى عليه فتُصاب جوارحه بالارتِعاد دون أنْ ندري كيفَ يفعل مجرّد صوت بالإنسان كلّ هذا الهلع. وثانيها جِدّيّته في التّعليم. وثالثها عصاه الّتي لا تُفارِقه طيلة الوقت. وكم أكلتْ هذه العصا من أقدامنا، كوتْ من جنوبنا، واحمرّت تحت هُويّها أيدينا ثُمّ ازرقّت!!

تعلّمتُ من الأستاذ سامي الأبجدية في مراحل دراستي الأولى؛

وهو ما سوف يكون كافِيًا لأقرأ حينَ تنسدّ في وجهي كلّ منافذ الحياة ، وكلّ دروب العيش ، وتنهدمُ عليّ الأسوار ، وتنغلق أمام ناظريّ النّوافذ حتّى تلك العالية منها ، في تلك اللّحظات العصيبات كنتُ أتذكّره وأدعو له ، لقد حماني من الجنون غير مرّة .

كانت المدرسةُ كعادة أكثر المدارس في القُرى غيرَ مُهتمٍّ بها ، ولا فيها مرافق تُساعد على التّعليم أو التّعلّم بشكلٍ صحيح ، أنا لا أنتقد هنا ، فأنا أحبّ مدرستي ، وما زلتُ بعد ثلاثين عامًا من مغادرتي لها أزورها بين الفينة والأخرى أسترجع فيها ذكرياتي القديمة ، ولولا أنّني كِدتُ أموتُ من البردِ أكثر من مرّة أنا وثلاثة أرباع زملائي في الصّفّ في صباحات كانون المُثلجة لما اضطُررتُ أنْ أقولَ الآنَ شيئًا . كان البرد في إحدى تلك الصّباحات يحزّ العظام ، مَنْ قال لكم إنّ البرد يحمل سكّينًا حادّةً جِدًا ويبدأ بتقطيع أطراف الإنسان وهو يهتزّ اهتزاز تُرقوة الذّبيح تحت وطأة البرد المُميت فصدّقوه . كانتْ أطرافُنا في أوقات الشّتاء تتثلّج ، ولو وضعتَ على أصابعنا قطراتٍ من الماء لما سالتْ من هناك وسقطتْ على الأرض ، بل تجمّدتْ على أطراف تلك الأصابع لشدّة ما في ذلك الصّباح الباكر من بردٍ لا يُصدّق . (الفِلدات) الّتي كان يلبسها بعضُنا ممّا أخذه من أخٍ أو قريبٍ من مُنتسبي الجيش لم تتمكّن من حِماية أصحابها من البرد ، فكيفَ بأولئك الّذين لم يستطيعوا أنْ يلبسوا غير القمصان أو كنزات الصّوف الّتي لا تصمد طويلاً أمام جائحة البرد الّذي هجمَ على أجسادنا النّحيلة دون رحمة ، ساعدَ على تفاقم المأساة أنّ نوافذ الصّفّ كانتْ قد صَدِئتْ حوافّها الحديديّة ، فلم تعد تنغلق بشكلٍ جيّد ، ولأنّ الرّيح عاصفة في ذلك الصّباح فكان الهواء يُمارِس أبشع هواياته في نَخْرنا والعبث بنا ، أضفْ

إلى كلّ ذلك المطرَ الّذي كانتْ بقاياه من اللّيلة السّابقة تتسرّب من بين الشّقوق ، فتسيل على الأرض ، وتتجمّع في بِرَكٍ صغيرةٍ تحتَ أقدامنا ، فنشعر كأنّنا عُراة نُغَطّس في محيطٍ من الثلج!!

نعم كُنّا نبرد ، ولكنّنا كُنّا نحبّ التّعلّم ، أتحدّث عن نفسي وعن الّذين رافقوني في تلك المدرسة . نعم كُنّا نخاف من الأستاذ ونحسبُ له ألفَ حساب ، ولكنّنا كُنّا نحبّه كذلك . نعم ، لم نكنْ نعرفُ أكثرَ من حدود صفحات الكتابِ غالبًا ، ولكنّ ذلك كان كافيًا ليشكّل ثقافةً جيّدة تُعيننا على النّظرة الصّائبة إلى الأمور . نعم كانتْ حياتُنا قاسيةً في المدرسة ، وفي البيت ، وفي الحقل ، ولكنّنا كُنّا نحبّ المدرسة والبيت والحقل

كانت المدرسة مُكوّنة من طابقين ، وفي كلّ طابقٍ ، كان هناك عشر غرف صفّيّة ، خالية من كلّ شيءٍ إلاّ من المقاعد الخشبيّة المهترئة الّتي كانت تتّسع لاثنَين ، لكنْ - وفي أحيانٍ قليلة - يضطرّ ثالثٌ لمشاركتهم المقعد . وكانت الغرف بشبابيك زجاجيّة ذوات حوافّ حديديّة تُفتَح وتُغلَق بمقابض مُحدّبة مركوزة في وسط الشّبّاك ، حينَ تصدأ الحواف أو تتثنّى الأطراف لا يعود بالإمكان إغلاق المقبض بإحكام ممّا يتسبّب بكوارث إنسانيّة في الشّتاء . أكثر ما يميّز الصّفوف أنّها كانتْ ذات أسقف عالية ، ولم أدرِ لماذا بنَوها بهذه الطّريقة ، ولئن كانت الأسقف العالية تسمح عبر النّوافذ أنْ تزيد من تهوية الغرفة في الصّيف القائظ فإنّها كانتْ تأتي بنتيجةٍ عكسيّة في الشّتاء إذ إنّها تجلب النِّقَم الّتي لا ترحم .

كان أكثر أولاد القرية لا يجدون طعامًا كافيًا ، وقد يمرّ يومٌ كامل دون أنْ تدخل جوف أحدهم لقمةً واحدةً ، وأشهدُ أنّني رأيتُ أحدهم

في المدرسة يتهالك على (رحلايته) من الجوع ، وحينَ سأله الأستاذ عن سبب انهياره المُفاجئ بعد أنْ رشّوا على وجهه الماء فاستيقظ ، قال : «أمس لم يكنْ دوري في العشاء . كان دور أختي» . كان أبوه قد قسم العشاء لقلّة الزّاد بينه وبين أخته ، يتعشّى هو يومًا وتتعشّى أخته في اليوم الّذي يليه ، وبالطّبع لا يوجد وجبة فَطور ، ولا يكون الطّعام إنْ جاءتْ نوبته في العشاء أكثرَ من الخُبز اليابس والشّاي!!

كُنّا نجوع نعم ، ولكنّنا لم نَهُنْ . كانتْ أمّي تقول : «نجوع ولا نمدّ أيدينا» . فيما بعدُ عرفتُ أنّ أكثر الّذين استوطنَ الذّلّ أفئدتَهم وجوارحهم هم الّذين كانوا أكثر النّاس شبعًا . لقد رأيتُ بأمّ عيني عددًا غير قليلٍ من هذه النّماذج . في يديه أموالُ الدُّنيا وطعامها وعَرَضُها ، ثمّ هو يستجدي بذُلّ وخِزيٍ أمام شهوةٍ من سلطةٍ أو من غانية ، ويسقط في امتحان الرّجولة والشّرف سقوطًا ذريعًا . ولم يكنْ هذا خاصًا بالأفراد ؛ فقد رأيتُ دُولاً تفعل ذلك!!

لا أتذكّر كثيرًا من الدّروس الّتي قرأناها على أساتذتنا . ما يبقى في الذّاكرة هو ذلك الذي يستوطنُ القلب ؛ ينام نومًا طويلاً ، حتّى إذا اشتعل الحنين ، تدفّأ القلب بحرارته ، ثُمّ أيقظته تلك الحرارة من سُباته فأخذ الطّريقَ صاعدًا من القلب إلى العقل ، فتجسّد بهيئته التّامّة أمام النّاظرين . وبالطّبع لم يكنْ يستوطنُ قلبي أكثرُ من آيات الله ، كانتْ تأتي في المقام الأوّل ، ويتبعها الأناشيد الّتي كُنّا نغنّيها بحماسٍ منقطع النّظير خلف الأستاذ . أتذكّر لليوم أنشودةً أخذناها في الصّفّ الأوّل الابتِدائيّ للشّاعر سليمان العيسى يقول فيها :

فِلَسْطِينُ داري
ودَرْبُ انْتِصاري

تَـــظَـــلُّ بِـــلادي

هـوىً فِـي فُـــؤادِي

ولحْـنًـا أبِـيًـــا

عَلَى شَـفَـتَـيّـا

وَكنتُ أرفع صوتي بأعلى ما يُمكنني حينَ أقول : «فلسطينُ داري» . وأضع يدي على فُؤادي وأنحني حُبًا وإجلالاً حينَ أقول : «تظلّ بِلادي هوىً في فؤادي» . وأكثر ما كان يبدو الغضبُ في صوتي ، حينَ أردّد مُحاوِلاً تفخيم نبرتي لكي أبدو فيها رجلاً غاضِبًا المقطع الّذي يقول :

وُجُـــوهٌ غــريبَـــة

بأرضِـي السّليـبَـــةْ

تَبِـيعُ ثِمـاري

وتَـخْـــتَـلُّ دارِي

وحينَ تردُ كلمة (ثِماري) أتخيّل اليهود وقد استولَوا على كرومنا ، وصاروا يبيعون (سحّارات العنب) من مزارعنا ، وقد طُرِدنا خارج تلك الكروم ، وأُشهِرت البنادق في وجوهنا ، فتثور ثائِرتي ، ويخشن صوتي ، وتُبَحّ حنجرتي لكثرة ما أرفع بها صوتي مُستنكِرًا

اليوم أتساءلُ بعد سنوات الطّفولة المُضمّخة بالأحلام والمُعتّقة بالرّؤى ، والممزوجة بحبّ الوطن : ماذا ظلّ من فلسطين ، بل ماذا ظلّ من الحُبّ نفسه!!

غابَ أبي من أجل لقمة العيش خارجَ الأردنّ أكثر سنيّ دراستي ، كانتْ أمّي تُتابعني في المدرسة . ذاتَ يوم وبعدَ أنْ قُرِعَ جَرَسُ الفُرصة

مُعلِنًا الدّخول إلى الصّفوف بعد استراحة لحوالي ثلث ساعة ، برزتْ أمّي من طرف السّاحة تتهادَى قاصِدةً الإدارة ، وكان عليها أنْ تمخر عُباب المجاميع الطّلاّبيّة لكي تصل إلى الإدارة أو إلى غرفة المُعلّمين ، عرفتُ فيما بعدُ أنّها جاءتْ لتسأل عنّي كانتْ تلبس (شرشتها) السّوداء وتغطّي جيدها (بالملفع) الأسود ، ورأسها بمنديل بُنّي تعقده إلى الخلف مثل كلّ نساء القرية كانتْ تذرع الطّريق مستهمّةً عندما سرى هَمسٌ بينَ الطُّلاّب حول مَنْ تكون ، وأمّ مَنْ تكون!! وبدأ الهمسُ يصل إلى أذنيّ ، حتّى إذا عرفوا أنّها أمّي راح عددٌ منهم يقترب منّي وهو يضحك ويستهزِئ ، كان سبب سخريتهم منّي أنّني ولدٌ صغيرٌ تتفقّده أمّه ، كان يمكن أنْ تنخرس ألسنتهم لو كان الذي جاء يسأل عنّي أبي ، إذ إنّ ذلك قد يكون معتادًا ، أمّا أنْ تأتي أمّ لتسال عن ابنها ؛ فهذا معناه عندهم أنّه رضيع وطفلٌ مُدلّل وأمّه تخاف عليه من نسمة الهواء العليلة! تحوّلتْ همساتهم في تلك اللّحظة إلى صوتٍ مسموع ، وكان الدّم قد بدأ يصعدُ إلى دماغي مُباشرةً ، وكانتْ عروقي قدْ بدأتْ تتضخّم لدرجة أنّها كادتْ أنْ تنفجر من الغيظ ، وكنتُ على شفا حفرةٍ من انهيار سكوتي الّذي أحسستُ أنّه استمرّ قرنًا كاملاً ، وأنتظر اللّحظة المُناسبة لأفجّره وأشفي غليلي . وجاءت هذه اللّحظة عندما دفعني أحدهم وكان يكبرني بثلاث سنوات ليوقعني أرضًا وهو يردّد : «ولد صغير» . وآخر : «رضيع» . وثالث : «أنتَ لستَ رجلاً» . ورابع : «لم يبقَ في بيتكم أحدٌ ليسأل عنك غير أمّك» . واندلاحَ الطّوفان ؛ نهضتُ مثلَ وحشٍ تنفكّ عنه سلاسل الزّرد الّتي تُقيّده ، ركضتُ بأسرع ما أستطيع ، مُصوّبًا رأسي إلى بطن الّذي دفعني ففقد توازنه للحظات قبل أنْ يخرّ على الأرض ليسقط مثلَ سقف بناءٍ عالٍ ينهار ،

كانتْ تلك البداية ، ثُمَ رُحتُ أقفز في الهواء عالِيًا مُصوِّبًا رجلي اليُمني في وجه كلِّ مَنْ سخر منّي ، وسادَ الهرج والمرج السّاحة ، وتدخّل عددٌ من الطّلاّب الآخرين لفكّ الاشتِباك ، ولكنّني كنتُ ثورًا هائِجًا ، لم يتمكّن أحدٌ من ترويضه قبل أنْ ينهار هو من التّعب ، ويسقط من الإعياء كان يومًا له ما بعدَه . صار طُلاّب المدرسة يهابونني ، وأصبح نصفُهم يمشي معي آمِلاً في أنْ يُصبح صديقًا لي ، وصرتُ أسمع همساتهم فيما بينهم وهم يُشيرون إليّ من بعيد هيّابين : «هذا هو هذا هو» ، وصرتُ من يومها بطلاً في عيونِ الكثيرين . وعندما عُدتُ في ذلك اليوم إلى البيت لم تقلْ لي أمّ كلمةً واحدةً عمّا حدث ، ولم تتوجّه إليّ حتّى بنظرة ، ظلّتْ مُطرِقة في الأرض ، ولكنّني قرأتُ في وجهها سؤالاً يتيمًا : «ما الّذي أحوجكَ إلى أنْ تفعلَ ما فعلتَ؟» . وفي الحقيقة كان هذا السّؤال هو ذاته الّذي ظلّ يخطر في بالي طوال ذلك الفصل الّذي حدثتْ فيه تلك الحادثة!



(٦)
مُجتمَع الحُفاة

كـان من الطَّبـيـعيّ أنْ ترى ثلاثة طلاّب أو أربعـة في كلّ صفٍّ يمشون حافين . وكان من الطّبيعيّ كذلك أنْ ترى نصفَ طلاّب الصّفّ يلبسون بناطيل مُشقّقة الأطراف وبدون أحزمة تشدّها على أوساطهم ، ولأنّ البنطلون يكون إرثًا وصل من أخٍ أكبر فإنّه غالبًا ما يكون واسعًا ، ولا يُمكن التّغلّب على مشكلة انسحال البنطلون لدى أدنى حركة إلاّ بربطه حول الخصر بحبلٍ من مَصّيص أحيانًا ، أو بحبل من حِبال الغسيل ، أو بأيّ حبلٍ من نوعٍ آخَر . وكان منظر الطّلاّب وهم يمشون في السّاحة وعلى أوساطهم أحزمَةٌ من حِبال الغسيل بألوانٍ شتّى منظرًا مألوفًا ، ولم أشعر - ولو مرّةً واحدة - أنّه يبعثُ على الضّحك أو على السّخرية . وكان من حُسن حظّ الكثيرين أنْ يسيروا ببناطيل سليمة وغير مشقوقة لا تُظهِر عوراتهم - حينما ينحنون لالتِقاطِ قلمٍ أو دفترٍ أو طبشورةٍ أو أيّ شيءٍ آخر - لمَن ينظر مِن خلَفهم!

أمّا أنْ تكونَ لديكَ حقيبةٌ مدرسيّة فذلك أمرٌ أرستقراطيٌّ لا يُمكن أنْ يفوز به إلاّ مَنْ كان أبوه يعمل خارج البِلاد ، أو مَنْ كانَ أهله قد قبضوا ثمن حصاد الصّيف . كانَ أكثرُ الطّلاّب وأنا كنتُ واحدًا منهم يربطون كُتُبَهم المدرسيّة بربطة مطّاطيّة كانتْ تنتهي في طَرَفَيها بإبزيمٍ حديديّ يجمع بين الطّرفَين الحُرَّين ، وكانتْ أمّي تشتريها لي بعشرةِ قروش ، وكانَ عليَّ أنْ أستخدمها على الأقل لسنتَين مُتتابِعتَين .

أمّا مَنْ كان يحمل حقيبةً من الخَيْش ، أو من أكياس القِماش فقد كان يُعدّ في طبقة متوسّطة من الطّلاّب ، وأذكر أنّني عندما صرتُ في الصّفّ الثّاني الإعداديّ حصلتُ على حقيبة من هذا النّوع ، قَصّها وخاطَها لي أخي الأكبر ، إذْ كانتْ مواهبه في الخياطة قد بدأتْ تنمّ عن ذوق فريد ، واحتراف سوف يظهر لاحِقًا حين ينتسب مثلي إلى العسكريّة . هلْ استعاض أخي عن رجلَيه بيدَيه ، هل كانتا قدَره الّذي أنجاه من العجز؟ مَنْ يدري ؛ ربّما!

والخُبز؟ كانَ الغائبَ الحاضر ، تتطلّع إليه القلوب ولا تراه العُيُون ، ومع أنّ فرن الطّابون الّذي كانتْ تلجأ إليه نساء القرية ظلّ يعمل حتّى نهاية الثّمانينيّات ، إلاّ أنّ الخبز كان شحيحًا ، وكان أعظمَ غائب يُنتَظَر!! إلاّ أنّ البَرَكة كما كنتُ أسمع من أمّي ظلّتْ تحلّ على الفقراء واليتامى ؛ يتامَى حربَين غير مُتكافِئتَين ، وظلّتْ هذه البَرَكة تُبعِدُ شبحَ الجوع ولو إلى حين ، أضِفْ إلى ذلك أنّ التّكافل ، والتّعاضد بين عشيرتنا وجيراننا كانَ يُضرَب به المَثَل ، ومن أجل هذا كان حصول الطّالب على ساندويتشة واحدة يُشعره بالأمان طوال اليوم الدّراسيّ ، إذ إنّكَ لو فتحتَ في تلك الأيّام حقائبَ الطّلبة فستتأكّد بنفسكَ أنّ نصفهم لا يحملون قِطعةَ خُبز واحدةً ولو كانتْ يابسة ، هذا فضلاً عن أنّ فكرةَ (المصروف) كان فكرةً متأخّرة ، تلوّثتْ بها أذهانُ الطّلبة فيما بعد . لكنّ سمعةَ امرأة عمّي الّتي كانتْ تُعدّ بعض السّاندويتشات للطّلبة وهي واقفة أمام المدرسة ظلّتْ عابقةً حتّى بعد أنْ دخلتُ المدرسة ، وكانت امرأة عمّي قد ماتت قبل ما يقرب من عشر سنوات على التحاقي بالصّفّ الأوّل . وكم تخيّلتُها وأنا أهمّ بالدّخول من بوّابة المدرسة ، وهي تبتسمُ في وجهي ، وتمدّ يدها الحانية بساندويتشة أو بأي

شيءٍ ؛ أيّ شيء ، فإنّني لم أحبّ امرأةً لم أرها في حياتي كما أحببتُها هي!!

نعم ، كانت السّاحةُ تجمع العشرات من الذين لا ينتعلون في أقدامهم حِذاءً ولو كان من (الشّرايط) ، وأوقنُ أنّهم كانوا يشعرون بالمتعة والحريّة والسّرعة في العَدو وهم حُفاة أكثر مِمّن كانوا يلبسون ، ذلك أنّني اختبرتُ هذا الشّعور ولو لبضعةِ أيّام . وكنتُ أمارسه بإرادتي أيّام مطاردتي للفراشات ، أو أيّام إقامتنا أنا وأولاد عمّي مسابقةً في الجري خارج القرية في المسافات المفتوحة على السّماء

أمّا أصعبُ المناظر ، فكانتْ تلك الّتي شكّلها (حَمدي) أحد الطّلبة الحُفاة بجلوسه في المقعد الأوّل ، كان قد مدّ رِجلَيه فبدوَتا للأستاذ أو للطّلبة الآخرين كالدُّمَل في الوجه ، وكانت أقدام الطّلبة تلمّ أوساخ الأرضِ كلّها ، إضافةً إلى التّشقّقات الّتي كانت تبدو عند عَقِبَي القدمَين أو على أطرافهما ، وكان أغلب الأساتذة يغضب لذلك ، ويشتم الطّالب ، ويأمره بالرّجوع إلى آخر الصّفّ ، أو يُعاقِبه بضربه على أصابع قدَمَيه بعصًا من الخيزران الطّريّ ليكون الألم مُضاعَفًا ، وأستثني من ذلك الأستاذ (سامي) فقد كان مع ملازمة العصا له كما قلت ، إلاّ أنّه كان حنونًا ، ويُقدّر ظروف الطّلبة القاسية ، والسّبب الآخَر أنّه كان من أهل القرية بخلاف الأساتذة الآخرين الّذين كان أكثرهم قادِمًا من إربد أو من المدن الأخرى وقد عيّنتْه وزارة التّربية والتّعليم في هذه القرية النّائية فشعر بأنّه قد نُفِي إلى مجتمعٍ غريبٍ عنه لا يمتُّ له بصِلة

المهمّ ، أنّ هذه الرّجل الحافِية القَذِرة امتدّتْ يومًا في وجه الأستاذ سامي ، وكنتُ شاهِدًا على ذلك اليوم إذْ إنّني كنتُ أجلسُ إلى جِواره .

حينَ بدتْ تلك الرّجل في تلك اللّحظة كصوت نشاز ناعق في مقطوعة موسيقيّة مُنسابة ، طلبَ الأستاذ سامي من الطّالب أنْ يخرج إلى اللّوح ، ظنّ الطّالب أنّ (فَلَقَةً) حاميَةً بانتظاره ، فتهيّأ للأمر بإخفاء يديه خلفَ ظهره وهو يقفُ أمامنا ، وبانكماش جسده ، وتقوقعه على نفسه كما لو كان مُصابًا بمَغص ، وأدار رأسه إلى الجهةِ الأخرى . قال له الأستاذ سامي : «انظر إلى زملائك ، واسألهم كم طالبًا مثلك لا يلبسُ حذاءً في قدَمَيه» . كانتْ هذه العبارة ابتِداءً قد أزاحتْ عن صدر الطّالب هَمًّا ثقيلاً ، فسأل زملاءه كما طلب منه الأستاذ ، فرفع أربعةٌ أيديهم في الصّف ، وصاروا مع (حمدي) خمسة ، كانتْ هذه المعيّة من الأشباه في مُجتمَع الحُفاة قد أشعرت الطّالب أنّه ليس وحده ، وأنّه يشترك في ذلك مع آخرين مِمّا أزاحَ ما تبقّى في صدره من خجلٍ وهَمّ . ثُمّ قال لهم : «أنا أعترف لكم بأنكم أفضلُ من بقيّة زملائكم» ، فانفرجتْ أسارير (حمدي) ، وأشرق وجهه ، ثُمّ ازداد هذا الوجه إشراقًا حين أكمل الأستاذ سامي : «ذلك لأنّه كان بإمكانكم ألاّ تأتوا إلى المدرسة مُتذرّعين بعدم وجود حِذاء تمشون به ، لكنّكم قهرتُم هذه العَقَبة ، وتغلّبْتُم على الصّعاب ، وجئتم لحبّكم للتعلّم مُسارِعين إلى المدرسة ولو كنتم حافين» . أنا اليوم أُدرِك أنّ هذه العبارة جعلتِ الطّلبةَ الخمسةَ يُحبّون التعلّم حتّى ولو لم يكونوا قبلها كذلك ، بل إنّ مَدْحَ الأستاذ للحُفاةِ من الزّملاء جعل البقيّة الّذي ينتعلون الأحذية يتمنّون لو أنّهم كانوا حُفاةً مثلهم . وأشهدُ فيما بعدُ أنّ حمدي تعلّمَ أكثر منّي ، وأكمل الثّانويّة العامّة بمعدّل جيّد ، وتابعَ دراسته في الجامعة ، وظلّ شغفُه بالعلم يزداد ، ولعلّ كلمة الأستاذ سامي له كانتْ سببًا رئيسًا في نجاحه ، مع أنّني - كذلك - مُدرِكٌ لو أنّ الأستاذ سامي اختار غير

تلك الكلمات لكان الأمر قد انتهى (بحمدي) إلى الضّياع .

صارَ (حمدي) يومَها يمشي مرفوعَ الرّأس ، مشدودَ الصّدر ، ناهِض الكتفَين كأنّه يحمل فوقهما أوسمةً لا يحملها أكبر الجنرالات . ثُمّ تتابعتْ من بعدِ ذلك عبارات الأستاذ سامي ، فأدخل الفلسفة في موضوع القدم الحافية ، وأذكر أنّه طلبَ مرّةً من طالبٍ آخرَ حافٍ أمامنا جميعًا أنْ يكتبَ على اللّوح هذه العبارة : «ظَلَلْتُ أطلبُ من أبي أنْ يشتري لي حذاءً لقدَمَيّ العارِيَتَين حتّى رأيتُ طِفلاً بلا أقدام» . وضعتْنا العبارة أمام فلسفة النّعمة وفلسفة الحقيقة ، واللّتين لم نكنْ ندركُ منهما شيئًا ، لكنّه قال لنا بعدها : «أتعرفون مَنْ قائل هذه العبارة؟» . لم يُجِبْ أحدٌ بالطّبع ، وسمعتُه يقول اسمًا غريبًا ، لم أحفظه لحظَتها ، لكنّني بالكاد حفظتُه لاحِقًا ، قال إنّها لـ (كونفوشيوس) الحكيم ، ولم نكنْ نعرف عنه شيئًا ، وبقيتُ أنا على الأقلّ أجهله . وكان سور المدرسة يعجّ بآياتٍ من القرآن مخطوطة عليه ، وأحاديث شريفة ، وأبياتٍ من الشّعر ، وأذكر أنّني قد قرأتُ على هذا السور من الدّاخل هذه العبارة الّتي تقول : «مهما بلغتْ درجة انشغالك ، فلا بُدّ أنْ تجد وقتًا للقراءة ، وإنْ لم تفعلْ فقد سلّمْتَ نفسكَ للجهل بمحضِ إرادتك» ، وعرفتُ فيما بعد أنّها لكونفوشيوس هذا الّذي لم أكنْ لأحفظ اسمه بشكلٍ صحيح وتامّ إلى اليوم .

ثُمّ حدّثنا الأستاذ (سامي) بحديثٍ صنعَ هالةً حول الطّلبة الحُفاة ، قال إنّه كان في الزّمن القديم عالِمٌ كبيرٌ يُسمّى (بِشر بن الحارث) ، وكان في شبابه يطلب العلم ، ويمشي في طلبه حافيًا ، فلمّا صار يأتي إلى حَلَقات العلم - ويشرح الأستاذ هازًا رأسه : أي ما يُشبه المدرسة - حافِيًا اشتهر بهذا الاسم ، فصاروا يُنادُونه (بِشر الحافي)

وأنَّ النَّاس كانتْ ترى قدَميْه قد اسودّتا من أثر التراب المُلتصِق بهما لطول ما يمشي عليه حافِيًا . وبهذا أضاف الأستاذ (سامي) إلى الصّورة المُتخيّلة في ذهني عن (كونفوشيوس) صورةً جديدً هي صورةُ (بِشر الحافي)

ظلّتْ أقدام الحُفاة النّبلاء حاضرةً في مُخيّلتي . صارَ عندي ميلٌ إلى تقديرهم ، والمسارعة إلى مُصادقتهم ، حتّى جاء يومٌ اشترتْ لي أمّي فيه حذاءً رياضيًا أسود ، كان اسمه (بوط فحمة) لأنّ قاعه ملتصقٌ بفحمات ، حوالي عشر فحمات ، كلّ فحمة بحجم حبّة الفول ، وكان صناعةً صينيّة ، وأذكر أنّ ثمنه كان (خمسةً وسبعين) قرشًا . وكان يومُ شِرائه لي عيدًا لا يُنسَى ، ذهبت الأيّامُ بلا صورةٍ تستعيدُها ولم تذهبْ ذِكراه من بالي مَعَ كَرّها الطّويل المُتمادي!!

كان أخي الأصغر عبد الله قد دخل المدرسة ، وأخي الأكبر قد التحق بالجيش ، وصرتُ أنا فتًى معروفًا في المدرسة ، كان الأستاذ سامي يقول لأمّي : «لا تسألي عن أحمد ؛ فهو مجتهد» . فهل كنتُ كذلك حَقًّا؟! بالنّسبة لقناعتي الدّاخليّة لم أكنْ أرى نفسي مجتهدًا بالمعنى الحرفيّ ، لكنّني كنتُ كثيرَ الحركة ، نشيطًا ، لا أغيبُ عن المدرسة ، مُلتزِمًا ، ولا أتوانَى عن أيّ مهمّةٍ أُوكِلَتْ لي ، ولكنّني أكره الرّتابة كما قلتُ لكم ، أمقتُ هذا الدّوران العاديّ للأيّام ، وبطبعي لم أكنْ صَبورًا حينَ تتشابه الأيّام ، ومن أجل هذا بدأتُ أتطلّع إلى العسكريّة من جديد ، وأتوق إلى اللّحاق بسلكها

لا أدري لماذا هربتُ من التّعليم بهذه الصّورة المُفاجِئة ، ولكنّني في الفصل الثّاني من الصّفّ الثّالث الإعداديّ ، كنتُ قد بدأتُ أغيبُ عن المدرسة . ربّما لأنّ هناك قدرًا آخر ينتظرني ؛ مَنْ يدري! كانتْ قريتنا

تقع في الطَّريق المُؤدِّية إلى الغَور ، وإلى الشّونة ، كنتُ أُرشِدُ الباصات الّتي تحمل الطّلاّب من مدارس عمّان والزّرقاء واربد الذّاهبة في رحلاتٍ إلى أمّ قيس وإلى الحَمّة كنتُ أحيانًا أحملُ لهم دلاء الماء وأسقيهم ، وأتمنّى لهم رحلةً سعيدة ، لا تسألوني لماذا كنتُ أفعل ذلك؟ أنا حتّى اليوم لا أدري ، وليستْ لديّ أدنى فِكرة تقودني إلى الإجابة ربّما لأنّني كنتُ أتمنّى مثلهم أنْ أصلَ الغور ، أن أقفَ في الحمّة قريبًا من نهر الأردنّ ، أنْ أسبح في الشّريعة ، أنْ أنظمَ طوقًا من الأزهار الصّفراء مثل أهل الغور ، وأقدّمه إلى زوّار تلك الأماكن مجّانًا؟ هل هناك سببٌ آخَر كان يشدّني إلى تلك المناطق الحدوديّة؟ ربّما . أعدكم أنّني سأجدُ إجابةً مُقنِعةً في الفصول اللاحقة من روايتي .

(٧)
هل تظنّون أنّ أهالي الضّحايا ينسَون؟

كنتُ قد سجّلتُ في العسكريّة ، وصرتُ أحدَ الجنود الّذين عليهم أنْ يفتخروا بالانتساب إلى جيش وُجِدَ ليكون عربيًا لا أردنيًا فحسب ، ومن أبسط أبجديّات أيّ جيش ؛ أنْ يكون حامِيًا لدولته ، ومُقاتِلاً ضدّ عدوّه ، أو مَنْ يُريدُ به شرًا ؛ وهذا ما كنتُ أفهمه

أنهيتُ الشّهور السّتّة الأولى الّتي يقضيها المُجنّد الجديد في التّدريب على السّلاح ، وعلى خشونة العيش ، وعلى القتال ، والتّصويب ، ولأنّني أفهم تمامًا معنى الجُنديّة فقد كنتُ الأوّل على دُفعتي ، وأخذتُ - كما كنتُ أؤمّل - شهادةَ تميّز في القَنْص ، وصار رفقاء السّلاح يدعونني بالقنّاص . أدخل ذلك السّرور الغامر إلى قلبي ، لكنْ سرعان ما التفّتْ على قلبي سحائبُ من الهَمّ حينَ عُيِّنْتُ في الجيش سائقًا!!

تبخّرتْ أحلامي في السّنة الأولى والثّانية من انضِمامي إلى القُوّات المُسلّحة ، ولا حاجةَ لأنْ أذكر هذه الأحلام من جديد ، وأوّل أمرٍ لفتَ أنظار قادتي نحوي ، وجعلهم يُحسّون بأنّني لستُ سهلاً ، وأنّ في رأسي موّالاً كما يقولون هو عندما طلبتُ كعسكريّ ألاّ أُعَيّن كسائق ، وأنْ أعيّن في أيّ وحدة عسكريّة بشرط أنْ أحمل السّلاح ، فهل من المعقول أنْ نتدرّب في الحرّ والقرّ كل هذه الشّهور ، وأحصل على شهادة قنّاص ثُمّ بدل أنْ تُكافِئوني بإعطائي أحدث البنادق

ترمونني خلفَ مِقود سيّارة؟! شكّل ذلك صدمةً قاسيةً بالنسبة لي ولكنْ جاء الرّدّ على الفَور : كلّ مَنْ لا يحمل شهادة الثّانوية العامّة فإنّ القرار العسكريّ ينصّ على تعيينه سائقًا . وأخرسني الجواب إذ لم أكنْ أملك عليه رَدًا ، ولوهلة نبتَ في قلبي حُبّ العودة إلى المدرسة ومتابعة تعليمي فيها ، ولكنْ هيهات!!

مرّ العام الأوّل بطيئًا ، ومثله ثلاثة أعوام أخرى ، وكانت الرّتابة الّتي أكرهها كرهًا شديدًا قد بدأتْ تُطِلّ برأسها من جديد .

في الشّهور السّتّة الأولى ؛ شهور التّدريب ، شهور الحركة والحيويّة كنتُ أعودُ طروبًا إلى إيدر ، كنتُ سعيدًا بحياتي الجديدة ، وعندما استلمتُ أوّل مُرتّب من عملي في العسكريّة كنتُ فخورًا بنفسي ، وكنتُ أعودُ مساءات الخميس بعدَ أسبوع شاقٍّ من التّدريب في مُعسكرات في الصّحراء الشّرقيّة ، وأنا أحمل معي أكياسًا من الخضروات والفواكه ، وأكياسًا أخرى من الحلوى ، أدفع بها إلى أمّي أبتغي رِضاها

حتّى العسكريّ الّذي أشعر أنّه وُلِدَ معي ، كان غالبًا ما يُسبّب لي المتاعب النّفسيّة ، شيءٌ ما جعلني أشعر بالحُزن والوحدة حينَ تكونُ القِيَم عاليةً جِدًا والتّعامل معها بأقلّ من عاديّ . في العاشرة من عمري ، دمّرت القُوّات الإسرائيليّة المفاعل النّوويّ العراقيّ ، وكنتُ في مشاعري عابرًا للحدود ، فانتكستُ انتكاسةً شعوريّة حادّة ، والحقيقة كان أمرًا غير خاضع للتّحليل بسبب صِغَر سنّي من جهة ، وبسبب أنّ الأمر حدث بعيدًا في العراق لا في الأردنّ ، فما الّذي جعلني أنهارُ نفسيًا وأمتنع عن الطّعام لأيّام بسبب ذلك القصف؟ لستُ أدري الإجابة بدقّة حتّى اليوم ، ولكنّني وجدتُ مُسوّغًا للأمر ؛ إذ إنّ يد

إسرائيل هذا الكيان المُغتصب كانتْ موجودة . وعليه فإنّ هذه الدّولة اللّقيطة الّتي تحكم العالَم اليوم هي الّتي تسبّب لي هذا القهر والغَيظ وهذا العداء الّذي ينمو في أعماقي مثلَ شجرةِ شوكٍ لا تُقتَلعُ إلاّ وهي تجرّ آلامًا فادحة .

لم يمرّ على حادثة المفاعل النّوويّ العراقي أكثر من سنةٍ حتّى وقعتْ مأساة العصر الّتي ستظلّ شاهدةً على الإجرام الإسرائيليّ الصّهيونيّ إلى يوم الدّين ، كان ذلك يحدث في دولةٍ عربيّة مخطوفة ثالثة هي لبنان ، في مخيّمات اللّاجئين الفلسطينيّين الّذين هم بالأساس نصفُ أطفالهم يتامى ، ونصفُ نسائهم أيامى ، والنّصف المتبقّي يُحارب الموت الّذي إنْ لم يكنْ برصاصةٍ طائشة لا يدري أحدٌ مصدرها فبالجوع الّذي يمزّعهم بأنيابه دون أنْ يدري أحد . نعم وقعتْ مذبحة صبرا وشاتيلا ، ومن جديدٍ تكون يد إسرائيل اللّعينة هي اليد الطّولى في هذه المذبحة . مرّ الأمر - كالعادة - على شكل تنديدات واستنكارات ورسائل شجب إلى مجلس الأمن الدّولي من الأنظمة العربيّة ، ولكنّه لم يمرّ عليّ هكذا ، كانتْ مذبحة صبرا وشاتيلا هي ثاني نقطة تحوّل فِكريّ ونفسيّ وشعوريّ لديّ بعد قصّة مقتل امرأة عمّي كانت انعطافة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى في حياتي ، تغيّرتُ كثيرًا بعد تلك الحادثة ، وظلّتْ صُور القتلى في الشّوارع والجُثث المُلقاة في الطّرقات مُنطبعةً في ذهني إلى اليوم ، وأظنّها لن تغادره ، وأعتقد أنّها ستبقى وقودًا يُفسّر كثيرًا مِن الأعمال الّتي قمتُ بها لاحقًا

كان أبي يذهب كلّ أربعاء إلى اربد وياتي بجريدة اللّواء ، وكانتْ تنشر عن المذبحة أكثر من غيرها ، وكنتُ أقرؤها حرفًا حرفًا ، ولربّما

أعيدُ قراءتها والتّمعنَ في صورها مرّاتٍ عديدة .

كنتُ آنذاك في الحادية عشرةَ من عمري ، غيّرت الصّور الفجائعيّة حتّى مشيتي في الحقول ، وجِلستي تحت الأشجار ، صرتُ أذهبُ بعيدًا ، بعيدًا عن (إيدن) أهبطُ وِديانًا وأصعدُ تلالاً ، وأمشي في الحقول مشيًا بلا توقّف وبلا طائل وبلا هدف ، كنتُ أحسّ أنّ صور الشّهداء والضّحايا تُلاحقني من الخلف ، فأُهرَع نحو المجهول هربًا منها ، كانتْ تُشبه سكاكين تُطاردني ، وأظفارًا ناشِبةً في ظهري ، فأركض لكي أتّقي انغرازها في أكتافي كنتُ أسمع أصواتهم ، أتصدّقون أنّني كنتُ أسمعُ أصواتَ الموتى؟! صَدّقوا . أنا أقول لكم صَدّقوا ، كانوا يقولون لي : هُمْ جبناء فلم يُدافِعوا عنّا ، أفتكونُ أنتَ جبانًا مثلهم؟! هُمْ أنظمة مهترئة صَدِئة تابعة لليهود أفتكونُ أنتَ مثلهم تابعًا لهؤلاء الخنازير؟! هُمْ يسمعون استغاثات الضّحايا في اليوم ألف مرّة ولا يستجيبون ، أفلا تستجيبُ أنتَ مرّة واحدة؟! ثُمّ أشعر أنّ الأسئلة نفسها تتحوّل إلى سكاكين هي الأخرى وتقوم بمهاجمتي من الأمام ، فأتّقيها بالمشي مُتعرّجًا ، فأصير ألتفّ حول الأشجار ، ومَنْ رآني لم يشكّ للحظةٍ أنّني - بالفعل - أهربُ من شيءٍ ما ، حتّى إذا انتهتْ أشجارُ حقلٍ ما ، وصارت الأرضُ خاليةً إلاّ من السّماء ومنّي ، صِرتُ أركضُ بسرعةٍ جنونيّة ، وأنا أرفع ذراعي فوق رأسي كأنّني أحميه من شيءٍ قادم من فوقي ، وأظلّ أركضُ بلا توقّف ربّما لساعاتٍ ، حتّى إذا كلّتْ رِجلاّي ، وانقطعتْ أنفاسي ، وتتابعَ صوتُ لُهاثي ، ونهشَ التّعب كلّ أطرافي ، سقطتُ على الأرض ، ثُمّ قمتُ بعدَ سقطتي فمشيتُ محنيّ الظّهر منسدل الذّراعَين ، أبحثُ عن شجرة أجلسُ تحتها ، حتّى إذا وجدتُها ، وركنتُ ظهري إلى جذعها ، ورحتُ أحاول أنْ ألتقطَ ما

تناثر من أنفاسي الّتي تتلاحقُ مثل شهب ساقطةٍ من السّماء لا ينتظر الشّهابُ أخاه الهاوي خلفه ، رحتُ أسمعُ جِذعَ الشّجرة هو الآخر يُعاتبني ، ويبدأ مِشوار اللّوم معي . حتّى إذا مرّ زمنٌ على عتابٍ قاسٍ هدأ الجِذع فيه وهدأتُ ، عاودتْني صور الضّحايا ترتسم أمامي في الفضاء الخالي ، كان منظر ذلك الذّبيح الذي ينام على كتف ذبيح آخر ، كأنّما يضحَكُ إلى أخيه في اللّحظات الأخيرة الّتي سبقتِ الموت ، وهو يحاول أنْ يجد مُتكأً ليموت عليه ما دام الموتُ حاصِلاً على أيّة حال ؛ هل كان الإنسانُ بحاجةٍ إلى أنْ يُسندَ رأسَه إلى كتفِ مَنْ يُحبّ حتّى وهو يموت!! هذا المشهد لم يغب عن ذاكرتي ولن يغيب أمّا مشهد الأمّ المفجوعة الّتي جثتْ على رُكبتَيها وعلى وجهها ارتسمتْ كلّ المصائب المُعتّقة ، ربّما في وجهها تجمّعتْ مصائب الأمّهات من يوم أنْ فقدتْ أوّل أمٍّ ابنها في أقدم مذبحةٍ في التّاريخ إلى اليوم ، فكان هو الآخَر من المشاهد الّتي لن تُنسَى ، كانَ نهرٌ من الحزن ينساب عبر إحدى يدَيها الّتي تتلمّس أوّل أبنائها الخمسة الّذين سقطوا في المذبحة ، وقد اصطفّتْ جُثثهم أمامها في لوحةٍ تفيض بالبؤس الكونيّ العميم .

كان المُخيّمان قد حُوصِرا بسلاح يهوديّ عنصريّ حاقد ، ونصراني طائفيّ بغيض ، واستمرّ القتل في أهله من السّماء ومن الأرض لمدّة ثلاثة أيّام متتابِعَة ، دون أنْ يُسمَح لأحد بالدّخول أو الخروج ، إذ إنّ كلّ منافذ المُخيّمَين كانتْ قد أُغلِقتْ بالكامل ، ومَنْ كان يحاول الخروج كانتْ تتلقّاه طلقةً في الرّأس . وشرب شارون وأذنابه من دماء المسلمين حتّى ارتوَوا ووزّعوا ما تبقّى من كؤوس الدّم على مَن تبقّى من المتخاذلين من العرب قادةً وشُعوبًا كان الجنديّ يطلب من النّساء

والأطفال والرّجال أنْ يرفعوا أيديهم ووجوههم إلى الجدران المُهشّمة ، ثُمّ يرشّونهم كأنّهم عبارة عن حيوانات ضالّة ثلاثة أيّام أبيدَ فيها كلّ مَنْ يتحرّك على قدَمَين في المُخيّمَين حتّى إنّ القطط لم تسلم من الموت .

كم زمنٍ سيمرّ على المأساة ، وكم مرّةٍ ستنسونَها ، كثيرون لم يذكروها في الأساس حتّى ينسَوها لنلومهم ، فقد كانوا في وادٍ بعيد عن عروبتهم وإسلامهم وأخوّتهم ، لكنْ هل تظنّون أنّ أهالي الضّحايا ينسَون؟! كلاّ . الضّحايا أنفسهم لن ينسَوا ، وسيأتون يوم الفزع الأكبر وقد تعلّقوا برقابانا قبل أنْ يتعلّقوا برقاب قاتليهم ليسألونا : لماذا تخلّيتمْ عنّا؟ لماذا تركتمونا للوحوش - الّتي تبدو بهيئةٍ بشريّة - تنحرنا نحرًا ، ووقفتم متفرّجين وصامتين وأنتم تملكون كلّ شيءٍ لتمنعوا عنّا ذلك؟

عام الغربة عن النّفس في (إبدر) كان العام الثّاني لالتحاقي بالعسكرية ، مئة سببٍ كان بمقدوري أنْ أقولها لكم لماذا عشتُ تلك الغربة ، ولكنّكم لا تملكونَ كلّ هذا الوقت لتسمعوني . سأقول : إنّني ما زلتُ أسمعُ أصواتًا في رأسي تدعونني إلى الثّأر . أصواتًا تقول لي بلغةٍ فصيحة : إنْ لم توقِف سيل هذا الذّلّ وهذا الذّبح ، فسيجرفك السّيل فيمن سيجرف . إنْ فاتتْكَ مدية القاتل هذه المرّة ، فلن تفوتكَ في المرّة القادمة ، وستجد عنُقَكَ تحت مقصلة السّفّاح دون أنْ تدري لماذا ، ولا مهربَ لكَ إلاّ بالقتال . هل كان هذا النّداء حقيقيًا ، أمْ أنّ تربيتي في (إبدر) ، وأثر أبي والمسجد والشّيخ عبد الرّزّاق ، قد أوحى لي بذلك؟ أنا من مهمّتي أنْ أطرح الأسئلة ، لكنْ ليس من مهمّتي أنْ أجيب دائمًا عنها

في نهاية السّنة الرّابعة للعسكريّة دخل عنصرٌ جديد في معادلتي ، كانتْ حربًا غير معلنةً تدور رحاها في الخفاء بعد دخول

العراق إلى الكويت عام ١٩٩٠ ، وكنتُ أرى أنّ معارك وشيكةً يُمكن أنْ تجتاحَ الشّرق العربيَّ وتلتهمه بنيرانها ، وأنّني عمّا قريبٍ سأحمل السّلاح ، وسيكون دوري الّذي انتظرتُه طويلاً قد أزف .

(٨)
هل كانتْ أحلامُنا ورديّةً إلى هذا الحدّ؟!

إنّه اللّيل ، وإنّها السّاعة الثّانية فجرًا من توقيت الحرب!! الحرب الّتي لم تبدأ . الحرب الّتي ستبقَى وهمًا يصنعه أصحاب الكراسيّ لادّعاء بطولات زائفةٍ من جِهة ، ولِيُحكموا تثبيت كراسيهم من جهةٍ أخرى . كان أحسنَ استعدادٍ للحرب أنْ تتذكّر التّاريخ الّذي مرّ هنا ، تستحضر حَمْحَماتِ الخيول الّتي صهلتْ في هذا المدى ؛ من هنا بالذّات ؛ من أمّ قيس ، تستحضر نداءات الجُند الخالدة : الله أكبر ، الله أكبر . والعدوّ واضح ، وهدف القِتال أوضح ؛ «هي لله» . الحرب الّتي في الوِجدان أعظم من تلك الّتي على الأرض ، إذا استُنفِر الوجدان قامت الحرب ، وإنْ خُدّر أو غُيّب انتهتْ ، لم يكنْ عليكَ أكثر من أنْ تنسَى كلّ شيءٍ ، تتجاهل الأمر برمّته كي تنتهي الحرب في الحالَين ، تلك الّتي فيك ، وتلك الّتي خارجك . ولكنْ أنّى لي أنْ أنسى ، وكان وِجداني بركانًا يقذف بحممه في كلّ حين!!

تمركزتْ حشودٌ من الجيش على المناطق الحدوديّة . أرتالٌ من السّيّارات العسكريّة المُجهّزة ، وأفراد مُقاتِلون في الشّريط الحدوديّ على النّقاط العسكريّة المبثوثة على السّياج . بدا لي أنّ الأمر قد انتهَى ، وأنّ الحرب وشيكةٌ لا محالة ، وأنّ أغنيات النّصر ستنفجر بها الحناجر عمّا قريب ، وإلاّ فما معنى هذا الاستنفار على كلّ الأصعدة ، وما معنى أنْ

تُلغَى إجازات الجنود والضُّبّاط ، وما معنى أنْ تُلقَّم المدافع والرَّشّاشات بانتِظار الأوامر؟!

بدأتُ أفكّر بدوري في المعركة ، لا بُدّ أنّ إسرائيل ابنة أمريكا المُدلّلة ستكون أوّلَ أهدافنا ، خاصّة وأنّ أمريكا هي الّتي تهمّ الآن باحتِلال العراق ، هذا البلد العروبيّ الإسلاميّ الضّارب جذوره في التّاريخ ، وهي الّتي تدعم هذا الكيان اللّقيط منذ اغتصابه لأرضنا المُقدّسة الحبيبة فلسطين . كانت الصّورة بالنّسبة لي غايةً في الوضوح ، ورصاصاتي غايةً في الاستِعداد ، وقلبي ينبض في كلّ حينٍ شوقًا إلى اللّحظة الحاسِمة!! وما اللّحظةُ الحاسِمة؟! إنّها لحظةُ إصدار الأوامر لنا ببدء الهُجوم ؛ الهجوم الّذي كان أجملَ أحلامي ، وتبيّنتُ لاحِقًا أنّه كان أسوأها

إنّها الثّانية فجرًا . الأضواء في الأرض المحتلّة في الكيبوتسات اليهوديّة تتراقص بشكلٍ مُستفزّ ، كانتْ هادئة وناعمة مثلَ ريشة تتمايل على إيقاع نسماتٍ خفيفةٍ في سقوطها الحُرّ ، حسبتُها تتحدّانا ، وأنا الثّائر النّاقم على العدوّ ، المملوء غيظًا من رتابةِ الأيّام ، وطول انتِظار البدء ، حسبتُها تتلوّى أمامي كأفعى تبتسمُ منتصرةً ، وكأنّني مُنيتُ بكلّ خسارات الدّنيا . لم تكنْ طبريّا وحدها هي الّتي تظهر رائعةً من هنا من أمّ قيس ، أضواء مزارع أخرى ، مزارع غايةً في التّنظيم والتّرتيب ، في النّهار كانتْ تبدو من هنا جنّة ، وفي اللّيل كانتْ تبدو فردوسًا مفقودًا ، إنّهم يحرثون فيها أرضنَا ، وترابنا ، ويسقونها من مائِنا ، وتُعطيهم – لكرمها – أفضل ما عندها ، ثُمّ هم يبيعون خيراتها لنا ، ونحنُ أولياؤها وأهلوها!!

كنّا ما زلنا نحشد . وما زلنا ننتظر الأوامر . نعم صدرت الأوامر لي

مع آخرين بالتّمركز على قمّة أمّ قيس ، فقط بالتّمركز دون الإتيان بأيّ حركةٍ أخرى . كنتُ وقتها سائقًا لسيّارة جيب من نوع ويلز ، وهي سيّارة عسكريّة مُجهّزة بمدفع (١٠٦) ، ومعي طاقمها ؛ أي جُنديّان آخَران . ومرّتْ ليالٍ طويلةٌ علينا هناك ، ونحن نعتلي تلك القِمّة . في إحدى تلك اللّيالي ، وقفتُ خلف مقبِض المِدفع ، نظرتُ من خلال منظاره إلى الأفق ، بدتْ من خلال الرّؤية فلسطينُ أفقًا آخَر ، خفق قلبي ، ترنّم ، شدا لها ، غنّى ما استطاع ، رَقَص لها كصوفيّ تجلّى له نور الله ، وأحبّها كما يليقُ بوطنٍ أنْ يُحبّ . أدرتُ المِنظار يمينًا ، الجنّة تُغويني لا التّفّاحة ، التّراب الّذي جُبِلَتْ منه أجسادُنا يشدّني ، الأشجار الّتي تُشبه أشجار (إبدر) تستهويني ، الذّكريات تُعيد تشكيل المشهد كما لو كان صورةً مطابقةً لتلك الّتي في ربوع الأردنّ الغالي ؛ إنّهما وطنٌ واحدٌ ، ولغةٌ واحدةٌ ، وموسيقى واحدةٌ ، ورئتان كما لو كانتا لجسدٍ واحدٍ تتقاسمان النّفَس ذاتَه ؛ كافرٌ مَنْ يفرّق بينهما في الماء والتّرابِ والسّماء ، كافرٌ مَنْ يتركهما للأوغاد يعيثون فيهما ، كافرٌ مَنْ يتسلّى بأكذوبة الدّفاع عن واحدةٍ منهما لأنّه غير قادرٍ أنْ يُبادِل الثّانية الحُبّ فيموتَ في سبيلها . إلى اليمين قليلاً يا صديقي ؛ إنّها القلب الآخَر ، ها هي طاهرةٌ تتلوّث بالنّفايات البشريّة من أراذل الخلق ، كان المشهد في اللّيل ساحِرًا ، إلاّ إنّها لم تكنْ ساحرةً إلاّ لأنّها هي ، وليس لأنّهم هم ؛ فهم يلوّثون كلّ شيء . رفعتُ رأسي عن المِنظار المُثبّت على المدفع ، وتنهدّتُ ، قلتُ لصديقيّ : «ألسْنا في حربٍ وإنْ لم تبدأ!! أليس العالَم كلّه يحشدُ من أجل الولوغ في دم العراق ، ألسْنا ننتظر ساعةَ الصّفر؟ إذًا دَعْنا نستعدّ لذلك ولو بتصويب فوهة المدفع» . ارتجفَ بدنُهما ، لم يعهدوا أنْ يُبادِروا ، كانوا من جماعة الانتِظار ، إنْ لم تكن

هناك أوامر فلا يُحرّكون نملةً واحِدةً من مكانها . رأيتُ ارتِجافهما فعلمتُ أنّ الأمر ليس سهلاً عليهما حتّى ولو لمجرّد السّؤال عن الخُطوة القادمة ، وليس سهلاً عليّ بإقناعهما بها ، لكنّني ابتسمتُ ابتِسامةَ الحالم ، وأحسستُ أنّني غريبٌ بينهما . قلتُ دون أنْ أنظر في وجهَيهما : «سأفعل ذلك وحدي» . قال الأوّل كمن يُدافع عن نفسه أمام تُهمةٍ مُهلِكة : «أنا لا علاقةَ لِي ، لا أفعل إلاّ ما أؤمر به» . الثّاني سكت . سكوته شجّعني ، اقتربَ منّي وأنا أقف خلف مقودِ المِدفع ، وضع يده على كتفي ، كانتْ إشارةً كافِيةً بالموافقة ، وبالفِعل ، أشرتُ إلى الجهة الّتي يجب التّصويبُ نحوها : «هناك» . خفض رأسه ، وأزاحني برفق لينظر ، فتراءَى له الموقع المُستَهدَف . نعم ؛ إنّه فندق تُمارَس فيه الرّذائل كلّها ، هكذا كنتُ أفكّر . أدرتُ (سَبَطانة) المِدفع جهةَ اليسار ، تحرّك معي كأنّه كان ينتظرني ليفعل ، أحسستُ أنّه يتناغَم مع ما أقومُ به ، دار في خَلَدِي شعورٌ أنّني لو انتظرتُ ليلةً أخرى فإنّني سأفيق على المِدفع ذاتَ صباح وقد غيّر اتّجاهه نحو هذا الهدف من تلقاء نفسه! النّار تعرف الثّأر وحدَها ، تعرفُ عدوّها بالغريزة ، قال لي رفيقي الّذي كان سكوتُه علامةَ الرِّضى وهو يُقرِّب جهاز اللّاسلكي من أُذنه ، ليدلّل على أنّه في حالةِ استعدادٍ تامّ ، وانتظارِ ثانيةً بثانية لساعة الصّفر : «إذا ما صدرت لنا الأوامر ببدء الهجوم فستكونُ أوّلُ قذيفة تُطلِق في هذه الحرب باتّجاه الأعداء من هذا المِدفع ، وسيكون لنا شَرَفُ ذلك . لا أعتقد أنّ الآخَرين سيحوزون هذا الشّرفَ قبلَنا»

هل كانتْ أحلامُنا ورديّة إلى هذا الحَدّ؟ أمْ أنّنا كُنّا مُغفّلين إلى تلك الدّرجة القاتلة؟ لا أحدَ منّا نحن الجنود المساكين المُترَفين بالقيم المُثلى كان يدري؟ وأنا اليوم أعترفُ بأنّني كنتُ أوّل هؤلاء المساكين!

مرّ ذلك اللّيل بسرعة ، أحلامُنا في ساعة الصّفر جعلتْه يركض ، كأنّه خيولٌ جامحة تفرّ من قَدَرٍ لاهب ، لكنّ صباحه لم يكنْ كذلك أبدًا . قبلَ أنْ نفتح عيوننا في ثكنتنا العسكريّة ، وقبل أنْ ترتفع الشّمس إلاّ بمقدار المكحل في أفق السّماء ، وقبلَ أنْ تُنهي عصافير أمّ قيس غناءَها البديع الموروث ، كُنّا نُحوّل أنا وصديقي الّذي ظلّ ساكِتًا إلى شُعبة الاستِخبارات . استدعانا الضّابط المسؤول . هُرِعنا ونحن نتساءل باستغرابٍ عن سبب الاستِدعاء المُفاجِئ ، والّذي كان جافًا وجامِدًا ، وخالِيًا من أيّ معنى ممّا زادنا رهبةً وتوجّسًا . لم نكنْ بالأساس نعلم أنّنا تحوّلنا لمجرّد حلم لم ينهض من مكانه في ليلةٍ عابرةٍ إلى مجرمين ومرتكبي فظائع . دارتِ العبارة الأخيرة في خاطري عندما وصلْنا إلى شعبة الاستخبارات التّابعة لقيادة الفِرقة ، وسَرعان ما عُصِبتْ أعيُننا ، وقاموا باقتِيادنا إلى غرفة مُصمَتة ، باردة كالسّكّين ، وغامضة كالقدر ، وخفيّة كالموت ، كانتْ تتنفّس برودةً في كلّ ذرّةِ هواءٍ فيها كُنّا وحدنا أنا وزميلي الّذي ارتكبَ الجُرمَ بصمتِه فقط ، أمّا الثّالث فلم يكنْ معنا كانت الغرفة صغيرةً وخاليةً من كلّ شيءٍ ، عرفتُ ذلك بتجوالِي فيها ، ومحاولة تقويم موجوداتها من خلال تحسّس كلّ شيءٍ فيها برِجلَيّ ، أمّا أيدينا فكانتْ مُقيّدَةً إلى الخلف . كُنّا بلا عيون . ولهذا وجدتُ صعوبةً في التّواصل مع زميلي ، ومع أنّنا لم نكنْ مُكمّمي الأفواه إلاّ أنّ الكلام يفقد قيمته ومعناه إنْ لم يغترف ذلك المعنى من النّظر في العيون . عُيُونا المعصوبة كانتْ لا ترى إلاّ سوادًا ، وأظنّ أنّها سترى السّوادَ نفسه لو لم تكنْ معصوبة ، إذْ إنّ الغرفة كانتْ مظلمةً فزادَ ذلك في برودَتها كان أسوأ شيءٍ سُلِب منّا في تلك اللّحظات هو النّظرات ، لو أنّهم اكتفَوا بتقييد أرجُلِنا لكان ذلك أهون ،

ولو أنّنا كنّا نمتلك القدرة على النّظر ، حتّى ولو في وجوه بعضِنا لكانت المأساة أخفَّ ، والقدرة على التّهوين منها أعظم .

كنتُ أسمعُ صوتَ أنفاسه كان تدريبًا على إصغاء السّمع شوّشتْ حركتُنا عليها قليلاً ، لكنّنا كنّا وحدَنا ، وكنتُ أدرّب نفسي على التِقاط صوتِ أنفاسي ، ودقّات قلبي ، اجتزتُ هذا التّمرين من قبلُ ، أنا الآن أتدرّب على التِقاط صوتِ همساتِ الآخرين ، وأرسم في خيالي من خلال شدّةَ دقّات قلوبهم حالةَ الأمان الّتي يعيشونها . لم نكنْ نشعر به لحظَتها . لكنّ غرابةَ اقتِيادنا بهذه الصّورة المُفاجِئة لم يسلبْنا أماننا بشكلٍ كبير . سألْتُه كأبله : «تُرَى لماذا فعلوا ذلك بِنا؟» أجابني بشهقةٍ وصَلَ حرّها إلى وجهي . ولم يقلْ شيئًا . سألتُ من جديد : «هل تكون سَبَطانة المِدفع هي السّبب؟» . سمعتُ دقّات قلبه تزداد ، وحرّ أنفاسه يعلو ، تخيّلتُ أنّه يتمنّى لو يقتربْ منّي ويضع يده على فمي لكي لا أنبس بحرفٍ واحد . لم يقلْ كلمةً واحدةً . قالتْ عنه دقّات قلبه : «الجدران تسمعنا ، فابتلعْ لسانَك خيرًا لي ولك»

تسلّيتُ قليلاً بالمشي في الغرفة . تعبتُ من الوقوف ، ركلتُ الزّاوية البعيدةَ بقدمي كأنّني أُزيحها أو أوسّع مساحتها ، ثُمّ تمدّدتُ على جنبي ، كانت القيود تمنعي من الاستلقاء على ظهري . لا بأس ؛ «بعضُ الشّرّ أهونُ من بعض» ظللْنا على حالنا تلك أكثر من أربع ساعاتٍ ، صرختُ بعد أنْ وقفتُ على قدَمَي : «يا حَجّي» تثاءَبَ أحدهم في الخارج ، جاءنا صوتُه كمن يشتم : «شُو بدّك؟» . «بَدْنا نصلّي» . فتح باب الغرفة ، اقتادَنا إلى حمّامات الشّعبة ، كُنّا لا نزال معصوبِي العيون . توضّأنا تحت حِراسته . أعادَنا إلى الغرفة . ودلّنا على اتّجاه القِبلة . صلّينا الظّهر . لم نكدْ ننهي صلاتَنا ، حتّى جاؤونا

بالغداء . رفضْنا أنْ نأكلَ لقمةً واحدةً كنوع من الاحتجاج . لم يهتمّوا لم نكنْ أكثرَ من موجوداتٍ لا قيمة لها ، كائنات تتنفّس لكي تظلَّ حيّة وهذا أكثر ما يهمّهم . رفعوا الغداء الّذي لم يُمَسّ بعد نصف ساعة . قلتُ لأحدهم حينَ فتحوا الباب لأخذ الطّعام : «ما سببُ إحضارِنا إلى هنا؟» . فهَوتْ يده على وجهي بلطمةٍ كادتْ تُفقدني الوعي كانتْ أوّل لطمة أتلقّاها في حياتي . حفرتْ جرحًا عميقًا في كرامتي . فثرتُ . لكنّني أعمى . تحفّزْتُ ، وقفتُ على قدَمَي كثورٍ هائج في الظّلام لا يعرفُ نحو من سيصوّب قرونه . لكنّني سرعان ما تلَقّيتُ لطمةً أخرى أقعدَتْني وأخرَسَتْني . سمعتُ صوتَ ضابطٍ أجشّ ويده حمراء من أثر صَفْعي يقول : «هذا أمرٌ لا يخُصُّك ، وممنوع تسأل» تلعثَمَتْ شفتاي ، كانتا تريدان أنْ تقولا شيئًا لكنّهما فشلتا في ذلك . شددتُ على نفسي هذه المرّة ، وحاولتُ أكثر أنْ أقولَ أيّ شيء ، أيَّ شيءٍ . لكنّني فشلتُ من جديد . شعرتُ أنّ شفتَيّ انفرجَتا وانطبقتا بسرعةٍ كفم سمكةٍ كبيرةٍ خرجتْ للتوّ من الماء . ثُمّ سمعتُ الضّابط يقول لي «اخرسْ» . فخرستُ بالفِعل

(٩)
الجوعُ كافِر

مرّتْ ساعاتٌ ثقيلةٌ من بعدها . لم يجرؤ زميلي على أنْ يقول شيئًا . ولا أنا . بقينا في الغرفة إلى اللّيل . لم نُصلّ العصر والمغرب . وغرقْنا في الحيرة والحزن معًا . شعرتُ أنّنا يتامَى في دولةٍ لا تعدّنا أبناءً لها كان الحزن خيطًا رفيعًا من سِلْك معدِنيّ يشدّه أحدهم وهو عالقٌ في أعماقنا ، فلا يخرج إلاّ وتنجرّ معه نُتَفٌ صغيرةٌ من الأحشاء . عرفْنا أنّها قد فاتَتْنا صلاتا العصر والمغرب ، حينَ اقتادونا من الغرفة إلى أحد مكاتب الضُبّاط وكان صوتُ الأذان يرتفع . سألتُ ، فقالوا : العشاء . لا أذكر أنّني نمتُ كلّ هذه الفترةِ الطّويلة فكيفَ مرّت؟ هل كنّا فاقدِي الوعي؟ كلاّ ؛ كنتُ أسمع أصواتًا في أعماقي . هل كان الخَرَسُ هو مَا ساعدَنا على قَضْم الوقت؟ ربّما

كانت العُصبة ما زالتْ تغطّي على أعيننا ليتواصل عَمَانا . مُنِعنا في الغرفة الجديدة من الجلوس أو الحركة أو الكلام . مرّتْ ساعة تحوّلنا إلى أصنام . لم يكن يُسمَع في المكان غير أصوات بعض الضّباط العالية ، وأصوات العساكر الّذين يخبطون الأرض ببساطيرهم في تحيّة عسكريّة ، وهم يهتفون بحماسةٍ غير عاديّة : «حاضِرْ سيدي» كان يُمكن للكلام أنْ يُعيننا على قَطْعِ الوقت ، لكنّ الكلام مُصادَر والوقت استطال كانت السّاعة تمشي بِثِقَلٍ مُضاعَف . تململتُ من الضّجر حاولتُ أنْ أستعيدَ صوتي ببعضِ الهمس . فنجحتُ . شعرتُ بفرحٍ

طفوليّ كمن استعادَ حلوى فقدَها دون أنْ يدري . مرّ بجانبي عسكريّ لم يكنْ ممكنًا أنْ أعرفَ أنّه ضابط أو جنديّ . لكنّ وَقْعَ خُطُواته الواثقة والهادئة دلّ على أنّه ضابط . اقتربتْ خُطُواته منّي . صار ممكنًا أنْ أقول ، أنْ أُمارس حقّي في الكلام ، أو في السّؤال ؛ السّؤال الأكثرَ من عاديّ . حينَ غلبَ عليّ الظّنّ أنّه صارَ بموازاتي في وقفتي الطّويلة أنا وزميلي ، هتفتُ بصوت يحمل رجاءً مع احتجاج : «سيّدي . . .» لكنّه لم يعتبرنا أكثر من قُمامة وتابَع مسيره كما لو أنّه لم يسمعْ شيئًا ، فرفعتُ صوتي هذه المرّة بغضب : «حسبيَ الله ونِعْم الوكيل» . تسمّرتْ خطواته فجأة . أحسستُ أنّه التفتَ إلى الوراء بعد أنْ توقّف ، وهتف بحنق : «اخرسْ يا كلب» . فأجبتُه بحنقٍ أكبر : «أنتَ كلب وابن كلب» . ارتجفتْ ساقاي استعدادًا لضربةٍ عمياء . كان زميلي غارقًا في نُكرانه لبشريّته ؛ فآثرَ أنْ يقتلعَ لسانَه من فمه . عرفتُ أنّني تماديتُ إلى الحدّ الّذي لا يُمكنني فيه الرّجوع ، وأنّ سُفُني أوشكتْ على الغرق ، وأنّ انتحارًا من نوع ما تتمّ ممارسته الآن ؛ فألقيتُ بكلّ حمولة سُفُني إلى البحر ، ومضيتُ أشقّ عُباب الهَول : «مَنْ يقول عنّي كلب فهو ابن ستّين . . .» . لم تُمهلني شجاعتي الفارغة على أنْ أُتِمّ العبارة ، كانتْ يدٌ ثقيلةٌ تهوي على رقبتي ، انحنى جِذعي ، لكنّه سرعان ما عَدَلَتْهُ يدٌ أخرى بلطمةٍ أشدّ فكدتُ أنقلبُ على ظهري . مرّتْ لحظات صمت قبل أنْ يركلنيَ الضّابط نفسه أو شخص آخَر على بطني ، فيكاد يُخرِج ما في هذه البطن من طعام اللّيلة الفائتة . تقيّأتُ لُعابًا ، وأصابني الغَثَيان ، وشعرتُ بالأرض تدورُ من تحت أقدامي فآثرتُ أنْ أرمي بنفسي على الأرض قبل أنْ أسقط فاقِدًا للوعي ، وتكوّرتُ على نفسي مثلَ جنينٍ في بطنِ أمّه ، كان بطني لا يزال في مرمى هدف بسطار

الضّابط ، فانهالَ عليّ بالرّفس ، وهو يقول : «والله لأخلّيك تنسى اسمك» . تمالكتُ نفسي ، خذلتْني يداي المُقيّدتان في التّخفيف من آثار الرّفسات ، وقلتُ بصوتٍ مخنوقٍ ومتقطّع : «أنا أريدُ فقط أنْ أعرفَ لماذا نحنُ هنا؟» ، ردّ بغيظٍ : «لأنّكم خوَنة» . وقعتِ الكلمةُ علينا أنا وزميلي وَقْعَ الصّاعقة . لم يكنْ من شيءٍ ليُقال أمام الخيانة . لكنّ زميلي الّذي ظلّ أخرس وخائفًا طَوال هذا الوقت كانت قد انحلّتْ عُقدة لسانه في تلك اللّحظة ، فسأل : «وما نوع الخيانة الّتي تتّهموننا بها؟» . لم يَسمع أيٌّ مِنّا جوابًا ، ولم نكنْ نعرفِ السّبب الحقيقيّ لإحضارنا إلى هنا حتّى هذه اللّحظة . بإشارةٍ من الضّابط أُزيلَتْ العُصابتان عن أعيننا ، احتجتُ دقيقة لكي أستعيد الرّؤية ، بدا لي العالَم كلّه أسود يتحوّل إلى كُحلي ثمّ أزرق ، رمشتِ العينان رمشات سريعة ما يكفي لاستعادة الصّورة الحقيقيّة ، كان الضّابط الّذي ضربني برتبة رائد ، هممتُ أنْ أؤدّي التّحيّة له بحُكم العادة ، لكنّني تذكّرتُ أنّني مُتّهم فتراجعت نادَى على العسكريّ الواقف بالباب ، وبإشارةٍ منه كنتُ خارجَ المكتب في لحظاتٍ ، بينما أُغلِقَ الباب على زميلي الآخَر . ولا أدري إنْ كان في الغرفة قبل أنْ أخرج منها ضُبّاط أو عساكر آخَرون أو لها بابٌ آخر من جهةٍ أخرى ، ذلك لأنّني سمعتُ صوت استغاثات زميلي تأتيني من خلفَ الباب المُغلَق ، كانَ عددٌ من العساكر فيما يبدو ينهال عليه بالضّرب والتّعذيب . كانت تلك الأصوات الّتي تصلني بهذا الوضوح قد حوّلتْني إلى قِطّة خائفة من أوّل دقيقة . نظرتُ حولي . الغرفة كانتْ خاليةً إلاّ منّي . فكّرتُ بالهرب . تقدّمتُ نحو الباب أستطلع الأمر ، فشعرتُ بالعبثيّة ، وتساءلت : مِمّنْ أهرب ، ولماذا؟ أملتُ جذعي ، وأخرجتُ رأسي بحذر ليتكشّف المشهد لي عن

ممرّ طويل يفتح على جهةٍ واحدة ، ومزروع فيه أكثر من عشرة عساكر!! لم أعدلْ عن الفكرة ؛ كانت الفكرة من الأساس مُستحيلة

ظلّ زميلي يُحقِّق معه ، ويُعذِّب أكثر من ثلاث ساعات ، وأنا واقفٌ أنتظر . فُتِحَ الباب ثُمّ خرج منه ، لم يكن ذلك الزّميل الّذي أعرفه ، كانتْ ثيابه ممزّقة ، ورأسه يسقط على صدره ، وخيطٌ رفيعٌ من الدّم يسيل من زاويتَي فمه ، وعيناه مُتورّمتَين كحبّتي برقوق أسود ، جرّه عسكريّان ككومةٍ من لحمٍ خارج الغرفة ، بينما تهيّأ اثنان لجَرّي إلى داخلها!

كانت الغرفة خاليةً إلاّ من ذلك الرّائد الّذي يجلس إلى المكتب بهدوء عجيب ، وكان كلّ ما في الغرفة يبدو مُسالمًا ومُرتّبًا . صعقني المشهد . هل كنتُ أحلم؟ ما معنى أصوات الاستغاثة الّتي كنتُ أسمعها من زميلي . إنْ خانتْني أذناي - فكانتْ تلك الأصوات تأتي من داخلي - فلن تخونني عيناي ، لقد رأيتُه بأمّ عينَيّ وآثار التّعذيب بادية عليه . لم يمهلني الرّائد لأسرَحَ أكثر في تساؤلاتي ، فقال لي بلهجةٍ ودودة ، وهو يشير إلى الكرسيّ الّذي يقع أمام المكتب : «اجلسْ يا أخِ أحمد» . انتابتْني حالةٌ من الاحتِجاج ، فرفضتُ وقلت : «أريد أنْ أصلّي العصر والمغرب والعشاء» . فسألني بلهجةٍ مستغربةٍ بدتْ لي صادقةً تمامًا : «ولماذا لم تُصلّ حتّى الآن يا أحمد؟» . فأجبتُه وقد أشاع جوّ الحوار الهادئ شهيّتي لمتابعتي احتجاجي ، فرفعتُ صوتي قليلاً لأقول : «اسألْ عناصرك» . ضغط على جرسٍ يقع على يمينه ، دخل أحد العساكر وهو يؤدّي التّحيّة : «حاضر سيّدي» . «خُذْ أحمد ليتوضّأ ويُصلّي براحته» كانت موجة الاستغراب من تباين مستوى التعامل بيني وبين زميلي تواصلُ صعودها من أعماقي لتلتفّ على دماغي

رافقني العسكريّ عبر الممرّ الطّويل الّذي يفتح على جهة واحدة والّذي بدا خاليًا من العساكر على خلاف المرّة الأولى . توضّأتُ . وأطلتُ في الصّلاة . في السّجود كانت السّماء القاتمة الضّاجّة بالنّجوم تهبطُ من عليائها تكاد تمسّ الأرض الّتي أسجدُ عليها . حلّتْ عليّ حالةٌ غريبةٌ من السّكينة . بدتْ لي خيالاتٌ كفّتْ عن الظّهور لي منذُ أنْ كنتُ في العاشرة . كانت امرأة عمّي قد حضرت . ابتسمتْ في وجهي ، سمعتها تهمس : «لا تُجاور الدّم» . لم أفهم ، لكنّني سمعتُ نفسي أجيبُها : «لا يصيرُ الدّمُ ماءً» . قالت : «صحبةُ الأخيار تُنجي» . هممتُ أنْ أسألها : «دلّيني عليهم» . لكنّني عدلتُ عن ذلك لسؤال مرتجف : «هل سأنجو؟» . هزّتْ رأسَها ، واختفتْ دون أنْ تجيب . سمعتُ خبطًا على الباب خلفي كان بدني يزداد ارتجافًا . أتممتُ الصّلاة ، وعُدتُ إلى غرفة الرّائد دون أنْ أعرف ما حلّ بزميلي . قال لي الضّابط : «هل أكلتَ؟» . أجبتُه بسؤال : «ماذا فعلتمْ بزميلي؟» . ابتسم : «إنّه بخير ، وقد منحتُه إجازةً لأسبوع . وسيعود بعدها إلى ثكنته ، سأعتبر أنّ الأمر منته» . لم أقلْ شيئًا . بدأت أخاف من أنْ تكون رُؤاي غير حقيقيّة أردفَ : «سآتيك بشيءٍ لتأكله ، من غير المعقول أنْ تبقَى كلّ هذا الوقت دون طعام» . أجبْتُه : «ما لي نَفْس» . ردّ بحزم : «أنا آمرك بذلك أمرًا»

فكّوا قُيودي ، رفعتُ يديّ أمام وجهي وقلّبْتُهما لأرى أثر القيودِ فيهما قبل أنْ أُمعن النّظر فيهما كمن ينظر في يدَين عادَتا إليه بعد أنْ فقدهما زمنًا طويلاً . تمركزَ عسكريّان فوق رأسي . قال لي الضّابط : «اجلسْ» . جلستُ بسرعةٍ لطول تعبي . ضغط الضّابط على زرّ الجرس فوق مكتبه ، وفي أقلّ من دقيقة دخل أحدهم ، مدّ العسكريّ نحوي

برغيف، نظرتُ إلى الضّابط، فأشارَ بعينَين وادِعَتَين، وهزّ رأسه: «كُلْ». توجّستُ من أنْ يكون في الرّغيف سُمٌّ!! تخيّلتُ نفسي في لحظة غير مُنتَظَرة أرتمي على الأرض تحت تأثيره، أرفس برجلَي الهواء، ويسيل الزّبد من حافّتي فمي، وتتحشرج أنفاسي، وتختلج في شَهَقات سريعة مخنوقة قبل أنْ تسكنَ إلى الأبد. أفقتُ من خيالاتي على صوت الضّابط: «كُلْ يا أحمد». فتحتُ الرّغيف أتفحّصه، كان مدهونًا بالزّبدة والحلاوة، أعدتُ لُفافته، ورُحتُ أقضمُ منه كفأرٍ حصلَ على قطعة شهيّةٍ من الجُبْن. ابتعلتُ الرّغيف في ثوانٍ، وازدرتُ آخَر لُقمة دون أنْ أرفع نظري عنه. قال الضّابط بعد أنِ انتهَيت: «هل آتي لكَ بواحدٍ آخَر؟». صمتّ. كنتُ أستعيدُ الصّورةَ الأولى الّتي تخيّلتُ نفسي عليها من أثر السّمّ فيها. فازداد صمتي. سمعتُ الضّابط يقول: «أيّ جهة هي الّتي أمرتْكَ بتصويب المدفع؟». انتبهتُ. لم أفهم من سؤاله إلاّ كلمة «المِدفع». تذكّرتُ ما قمتُ به أنا وزميلي ليلةَ أمس، فزادتْني الذّكرى وجومًا. قال لي بصوت أوضح: «صارِحْني أخ أحمد، وأنا سأساعدك». صمتّ. فأردف: «قُلْ لي الحقيقة وسأقف إلى جانبك». فسألتُه وأنا في غاية الذّهول: «أيّة حقيقة؟» «مَن أمركَ بتصويب المِدفع نحو ذلك الفندق في طبريّة؟ أيّ جهة؟ أيّ منظّمة الّتي أمرتْك بهذا الأمر؟» كان الصّمت يتفاعل في أعماقي فيتشكّل على هيئة سُحُب من دخانٍ تضغطُ على رِئتَيّ، بدأت تلك السّحب تتكاثف حتّى ملأتني بضغطٍ رهيب، كنتُ مثلَ قنبلةٍ تتهيّأ للانفجار، وبالفعل انفجرتُ، لكنْ بضحكة عالية، كانتْ تلك الضّحكة مُدوّية بحيثُ إنّها أراحتْني من انفجارٍ داخليّ، وتعالَتْ سُحُبُها حتّى غطّتْ أرجاء الغرفة الّتي أجلسُ فيها. دفعتْ تلك السّحب المتمدّدة في هواء

الغرفة الضّابط إلى الغضب ، فصرخ وهو يكتم غيظًا يحاول ألاّ يُؤثّر على توازنه : «ولماذا تضحك؟!» . «أضحكُ لسؤالِك؟ أضحك للبُؤس الّذي اوصلْتَني إليه» . كانتْ ضحكتي قدْ قلّلتْ من قَدْر مُحاكَمة أرادَ لها أنْ تكون جِدّية ، وجلسة بين ضابطٍ كبيرٍ يُحافِظ على هيبته أمام جنديّ صغير يُحوّل أجواء هذه الجِدّيّة إلى عَبَثيّة صارِخة . «آمرُكَ أيّها العسكريّ أنْ تُجيب عن سؤالي ؛ مَنْ دفعك إلى هذه الخيانة ، تصويب مِدفع حتّى نحو السّماء بدون أوامر عسكريّة يُعَدّ خيانة ، فكيفَ إذا كان باتّجاه منطقة حَيَويّة!! مِنْ أيّ منظّمة إرهابيّة تتلقّى أوامرك؟»

«من منظّمتي العسكريّة . من الجيش» . أجبتُ بهدوء . ثُمّ تابعتُ : «أنا ليس لي جهةٍ أتلقّى منها أوامري سِوى الّتي تتلقّى منها أوامرك!!» . نهض من مكانه ، كان غيظُه قد تفاقم ، قال وهو يخبطُ سطح مكتبه : «أنتَ وقح ، أجبْ على قدْر السّؤال ، وأنا أوجّهه لك للمرّة الأخيرة : أيّ حزبٍ من الأحزاب طلب منك ذلك ، أنا أعرفُ أنّ قلوب الشّباب الفارغة تستمع هذه الأيّام إلى هذه المنظّمات التّخريبيّة الّتي لا يهمّها مصلحة البلد ، ولكنْ قسمًا إنْ لم تُخبرني الحقيقة فلن تخرج من هنا كما دخلت ، وستتمنّى أنّكَ لم تُقابلْني» «نحنُ شبابٌ كما تقول . . . أخذتْنا الحماسة . . . و . . .» . هدأ قليلاً ، جلس ، وأصغى بجوارحه : «هه . . . قُلْ» «نحن لم نكنْ ننوي أنْ نفعلَ شيئًا يُسيءُ إلى القيادة ، ولكنّ اندفاعَنا وحماسَتنا للحرب ربّما جعلتْنا نتصرّف على هذا النّحو . . كلّ ما في الأمر أنّني أنتظر هذه الحرب على الحقيقة ، وربّما استبقْنا إليها بعضَ الخُطوات . . . أنا . . .» . وابتلعتُ حجرًا كبيرًا قبل أنْ أُكمِل ، كان الحجر يستعصي في أسفل حلقي فألغى الكلام ، اختناقي بالعبارة الأخيرة فرّغْتُه على شكلِ دمعتَين

ترقرقَتا في المحجرَين . نظر إليّ باهتمام يستزيدُني من الاعتراف . حولّتُ بوصلة الكلام ، فتابعتُ : «ولكنْ مَنْ أوصلَ لكم ما حدث؟» كان سؤالاً غبيًا ؛ فهو سؤال ساقطٌ من جهة إجابته ، واحتمالاته تنحصر في اثنَين . لكنّني سمعتُه يقول : «أنا أعرفُ عنكَ كلّ شيء ، أعرف ماذا تقول ، وماذا تأكل ، وكيف ، وأينَ تنام ، وما تُسرّ به قبلَ نومِك ، كلّ شيءٍ مُسجّلٌ ومكتوب» . كانتْ أوّل مرّة أعرفُ فيها أنّ للجدران آذانًا كما قال رفيقي السّابق . وأردف : «بل نحن نُسجّل ما تتلفّظ به في أحلامك . . . الهُراء الّذي تقوله وأنتَ نائم مُثبَتٌ في ملفّك . . . نحن لا يغيبُ عن بصرنا شيء . . . الأفضل لك أنْ تعترف ، وأنا المسؤول عنك ، وسأقف إلى جانبك إذا استدعَى الأمر . ما أطلبه الحقيقة الكاملة من أجل مصلحة البلد أوّلاً ثُمّ من أجل مصلحتك» . صمتَ وهو يلهثُ ، كنتُ أسمع لهاثه كما لو كانتْ حجارةً تسقط فوق رأسي وأنا في حُفرةٍ عميقة ، أو كأنّها خيولٌ بريّة تركضُ في مدىً فسيح لا تُرى نهايته ، ثُمّ صمت . «سأوفّر عليك وعلى أجهزتكَ كلّ شيء» قلتُ له وأنا أنظر إلى الجهة الأخرى . تحفّز لسماع اعترافٍ خطير بتضييق عينَيه وتعديل الطاقيّة العسكريّة الّتي يعتمرها ، فأردفتُ : «أنا أعترفُ بأنّني لستُ مرتبطًا بأيّ منظّمة أو جهة أو حزب أو قيادة سوى قيادة الجيش الّتي انتسبُ إليها» نزلت الكلمات على رأسه مثل مخرز حفر عميقًا في يافوخ رأسه ، فهبّ واقِفًا خلف مكتبه ، واستدار بحركةٍ عصبيّة ، وهجمَ باتّجاهي ، وانهال بكلّ قوّته عليّ بالضّرب ، حاولتُ أنْ أتّقي الضّرب برفع يديّ أمام وجهي ، لكنّ العسكريَّين اللّذَين كانا ما زالا يقفان فوق رأسي هما الآخَران راحَا يُشارِكانه الضّرب ، وتحوّل الثّلاثة إلى وحوش ليسَ في قلبها أدنى

رحمة ، وخلعَ أحدهم (القايش) وراح يجلدني به على وجهي ، وراحتْ صَرَخاتي تتعالَى . انفتح بابٌ لم أره من قبل ، وتجمهر عددٌ من العساكر لا أدري كيفَ نبعوا من الغيب ، وسقطتُ أنا على الأرض . كانَ رأسي يتدحرج على البلاط مع انزياح جسدي من تحت وطأة الضَّرب ، ومن خلال القبضات الَّتي شكَّلتْ غيمةً من حديدٍ فوقي ، كنتُ أحاول بما تبقَّى لديَّ من وعي أنْ أبحثَ من خلال الفراغات الَّتي تُشكِّلها تلك القبضات الهائجة عن السَّماء ؛ السَّماء؟ نعم ، بدتْ سماء (إبدر) ، الَّتي كنتُ أُسامرها في طفولتي ، وأحادثها في الظَّلمات الطَّويلة ، بدت تلك السَّماء المعشوقة أمام ناظِرَيَّ بنجومها الكثيرة اللامعة كأنَّها تحتفلُ بعاشقٍ أبديٍّ في حفلة رَقْصٍ ، وتتلألأ في نشوةٍ من الضَّحك العارم ، هل كانَت تضحكُ لي؟ ربَّما . واصلتْ رَقْصَها الغَجَريَّ فترةً ، ثُمَّ انطفأتْ فجأة ، وتحوَّل كلّ شيءٍ إلى سواد .

نُقلتُ بعدها إلى سِجن الكتيبة . خمسُ ليالٍ أطول من اللَّيالي السَّابِقَة الَّتي مرَّتْ من عمري حتَّى الآن قضيتُها في زنزانة انفراديَّة ، لم أكنْ أعلم عن زميلي السَّابق شيئًا . هل حَقًّا أعطوه إجازةً كما قيلَ لي أمْ أنَّه يتعرَّض للتَّحقيق والتَّعذيب مثلي؟ لم أعدْ أسمعُ له صوتًا كان قد اختفى كما لو أنَّه لم يكنْ يومًا أحد الَّذين شاركْتُهم حُلُمًا مسروقًا ، وآمالاً غير ناضِجة .

كانتْ زنزانتي تُشبه حُفرةٍ بابُها السَّقف . كلّ شيءٍ فيها يضغط على قلبك من كلِّ جهة . الصَّمت الذَّابح . انعِدام الحياة . لا صوت حتَّى لذبابةٍ في الفراغ . الموت القابع في كلِّ بوصة كان الموت فيها ضَجِرًا من كلِّ شيء . أوَّل ما رآني سَخِر منِّي وتجاهلني وانزوى بعيدًا عنِّي ، لم يكنْ يراني جديرًا به . النَّهارات الَّتي تُشبه اللَّيالي ؛ سوادٌ

يُغطّي بثوبه القاتم الغامض كلّ شيء . الجدران العتيقة المحفورة بأظافر السّابقين . العفن الّذي يستقرّ على الأسطح ويتثاءب بملل . الرّائحة الخانقة الّتي تتسكّع في أجوائها باشمئزاز كنتُ بالنّسبة لها أكثر مُشمَئِزٍّ منه . لم يكنْ يُزحزِح الموت الرّابض على كلّ شيءٍ فيها سوى صرير بابِها حين يُفتَح من أجل اقتيادي للتّحقيق من جديد . كنتُ أعودُ في كلّ مرّة بوجبةِ تعذيبِ جديدة . كانت إنسانيّتي تُغادرني شيئًا فشيئًا . ولحظةً بلحظةِ صرتُ أتحوّل إلى شيءٍ غيرِ مرغوبٍ فيه من قِبَل مُفرَدات الزّنزانة الّتي رأتْ فِيّ مُتطفّلاً لم تكنْ قادرةً على هَضْمه ، أو اعتباره أحد أجزائها كنتُ شيئًا ؛ شيئًا بدأ يرجع إلى حيوانيّته الأولى كانَ النَفَس الّذي يخرج من الرّئتَين بطيئًا هو الّذي يُذكّرني بتعريفي كإنسان ، لكنّ هذا النّفَس بدأ يتنكّر لي هو الآخَر ، كنتُ أتحوّل بالتّدريج إلى لاموجود ، وإلى لاإنسان . ما هو الشّيء الّذي صِرته بعدَ تلك اللّيالي؟ لا أدري . ربّما كائنًا قادرًا على الحركة بالاستِماع إلى أمر هذه الحركة من صوتٍ خارجيّ . ولكنْ ما الفضل في ذلك؟! كان الموت يتحرّك أفضل منّي في تلك الزّنزانة ، والعفن كذلك ، بل حتّى الرّائحة كانتْ تتفوّق عليّ في الحركة

لم يكنْ من شيءٍ لينقذني من ذلك السّقوط سوى الذّكريات . الذّكريات الّتي عشْتُها في طفولتي ، كان عليّ أنْ أستحضر طيفَ أمّي على وجه الخصوص . قلتُ لها في سرّي : سامِحيني ، لقد طلبوا منّي أنْ أذكر اسمَكِ المُقدّسَ أمامهم ، تردّدتُ ليسَ خجلاً من أن أذكره ، كلاّ ؛ بل لأنّكِ طاهرةٌ وقِدّيسة ، وهم حَيَوانات ووحوشٌ ، لم أكنْ لأحتمل أنْ أذكر هذا الاسم الطّاهر في هذا المحفل الّذي يعجّ بالقذارة . قلتُ لهم : اسمها (كاملة) ، وهي كاملة لأنّ كلّ الأشياء الّتي دونها

ناقِصة . وبعدها بُحتُ بكلّ الأسماء الّتي سألوني عنها . عن خطيبتي ، وأسماء أولادي المُستقبليّين ، وإخوتي وأخواتي ، وأعمامي وعمّاتي ، وأخوالي وخالاتي ، وكلّ مَنْ له صلة قرابةٍ بي كنتُ أستعينُ على الموت باستحضار صورتك الطّيّبة أيّتها القدّيسة المُطهّرة ، لكنّ العلاقة الّتي تشكّلتْ بيني وبين الذّكرى كانت تتقطّع أمام التّجوال الدّائم والمُدلّل للموت والرّائحة . هل في تذكّر المكان عزاء؟ بالطّبع ؛ تصمد (إبدر) كثيرًا في تذكّري لها ، الأشجار على وجه الخصوص ، شجرة السّنديان الّتي سمّيْتُها باسم امرأة عمّي صمدتْ هي الأخرى ، أعانتْني على أنْ أقاوم ، على أنْ أعيش . لم يكنِ الموت عدوًا صارِخًا ، عدوًا بالمواجهة . . . لم يكنْ قَطّ يتحرّش بي كان عَدُوًا بالإهمال ، كان يتحاشاني ، ويتركني أسقط في حُفرةِ الغياب ، الغياب عنّي ، وعن ذاتي ، وكان السّقوط في حفرة الغياب تلك أقسى من الموت نفسه!!

في اللّيلة الثّالثة أو الرّابعة لا أدري ؛ فاللّيالي في الزّنازين الانفراديّة كلّها مُتشابِهة ، كانوا قد اقتادوني إلى ضابطٍ جديد ليُحقّق معي ، كان هذا الضّابط هو العاشر في حلقات التّحقيق المُتواصِلة معي كانوا يُمثّلون كلّ طيوف البشر وقلوبهم . لا أُنكِرُ أنّني أحببتُ بعضهم . هذا الضّابط وكان اسمه (فرّاج) أحببْتُه بالفعل لدرجة أنّ اسمه أعطاني أملاً بالإفراج عنّي فورَ خروجي من عنده ، كانتْ بسمته ساحره ، وهدوؤه أشدّ سِحرًا ، ونَظَراته الوَدودة تأسر القلوب ، كان يقتل خوفي بالحديث المُؤنِس ، كأنّه جاء ليُسلّيني ويُبعد عنّي شبح اليأس الّذي ظلّ يغرز سكّينه في وسط قلبي . كان يضحك كطفل ، وينظر كعاشق ، وينصح كصديق ، لدرجةٍ أنّني اتّهمتُ عقلي في أنّه حقّق

معي ضابطٌ مثله وسط ليالي العذاب الّتي عِشْتُها ، وخُيّل إليّ لوهلة أنّني اخترعتُه من خيالي لأقاوم به موتي أو انهياري ، لكنّني أذكر جيّدًا أنّ حرارة المودّة ارتفعتْ بيننا إلى الحدّ الّذي رُحتُ أشتمُ فيه فوهة ذلك المدفع الّذي سولتْ لي نفسي المريضة أن أصوّبه جهة فندق طبريّة ، بل ولعنتُ علنًا أمامه كلّ الأحزاب والمنظّمات واتّهمْتُها بالخيانة والعمل على تخريب البلد ، بل اتّفقتُ معه على أنّه يجب اجتثاث كلّ هذه المنظّمات من جذورها بقوّة السّلاح ، وأذكر جيّدًا أنّني وقفتُ بعدها ووقفَ هو مثلي ، وصفقتُ كفّي بكفّه ، وعانقْته جرّاء اتّفاقنا في الرأي آنذاك . . .!! هل كان هذا يحدثُ حقيقةً أمْ أنّها أحلام اليقظة؟ هل كان واقعًا أم وهمًا؟ هل كان هروبًا منّي أم مواجهةً ؟! لا أدري ، لكنّني متأكّد من أنّ شيئًا من ذلك حدث بصورةٍ أو بأخرى ؛ وإلاّ فما معنى أنّني ما زلتُ أعيش حتى هذه اللّيلة الرّابعة رغم كلّ ألوان التّعذيب الّتي ذُقتُها من أجل أنْ أعترف .

في اللّيلة الخامسة ، لم يُفتَح باب الزّنزانة على أيّ شيء ، تُركتُ مثل قطٍّ جريح في غابةٍ من الكلاب يلعقُ جراح ليلته السّابقة . فكّرتُ أنْ أنام ، النّوم هو أفضلُ ما يمكن أنْ تفعله من أجل أنْ تنسى ؛ تنسى كلّ شيء ولو لزمنٍ قصير ، زمن يُساعِدك على الإفلات من وحش الكآبة ، الكآبة المُؤجّلة ، الّتي لا بُدّ في نهاية المطاف أنْ تغوص أنيابُها الطّويلة في عمق رُوحِك مهما نجحتَ في الهرب منها مرّة ومرّات . كان النّومُ حَلاً بالفعل ، لكنّ الجوع قرصني ، والجوع كافرٌ ، ولا يعترفُ لا بالألم ، ولا بالتّعب ، ولا بالسّهر الطّويل ، ولا بالحاجة الماسّة إلى الرّاحة ، ولا يعترفُ إلاّ بنفسه ، ولا يُسلِمُ إلاّ بامتلاء البطن ، حينها يُغادر ساحتك راضِيًا ويرحل إلى حينٍ ليستعدّ لإلقاء شبحه عليك من

جديد في لحظةِ كُفرٍ أُخرى!! اضطجعت على جنبي، صرّتْ قوائم السّرير الحديديّ من تحتي بسبب تقلّبي فوقها فزادتّني أرقًا. اعتدلتُ. مددتُ رِجليّ. وقفت. مشيت. رحتُ وجئتُ في ثلاثة أمتار هي طول الزّنزانة. توقّفتُ فجأةً. حككتُ رأسي. صرخت. ضاعت صرختي في الحُفَر الأولى المكشوطة فوق الجدران. انبطحتُ على الأرض. اعتدلت. قرفصت. قمتُ من جديد. جرّبتُ الرّكض هذه المرّة صدمتُ الجدار بكتفي في خطوتَين والثّالثة. اهتززت. صرختُ مرّة أخرى. لعنتُ كلّ شيء. شتمتُ كلّ الّذين حقّقوا معي. وهويتُ بلكمةٍ في خيالي على وجه رفيقي الثّالث الّذي وشى بنا. قشرتِ اللّكمةُ في وجه الجدار قشرةً بسيطة. تألّمتُ، أردتُ أنْ أقول: آآآآه. بدأتُ بصرخة الألم، لكنّني توقّفتُ في منتصفها، كان باب الزّنزانة يُفتَح. قال لي العسكريّ وهو يضعها على الأرض أمام سريري: «هذه هي الوجبة الأخيرة لك». فرحتُ فرحًا خاطفًا، توقّفَ فرحي فجأة. تحولّ الفرحُ إلى خوفٍ مُباغِت، ارتجفتُ. «ماذا تعني بأنّها الوجبة الأخيرة؟ هل سيُعفونني من عملي العسكريّ، هل سيذهبون بي إلى سجن آخَر؟ هل سيعقدون لي محكمةً جديدةً في مكانٍ آخَر؟». لم يسمع العسكريّ صوتَ هواجسي هذه، لكنّه قال وهو يهمّ بإغلاق باب الزّنزانة ويترك طاقة الباب العُليا مفتوحةً لتسمح للضّوء الضّئيل بالتّسلّل إلى الدّاخل «هذه الوجبة بعثها لك فرّاج بيك، وهو يقول لك جهّزْ أغراضك». أطبقَ الباب الثّقيل خلفه، وتركني أتساءل عن الأغراض الّتي سأجهّزها، لم يكنْ معي هنا في الزّنزانة غير ثيابي العسكريّة وبعض التّهيّؤات الّتي تُراودني عن نفسي في كلّ حين. تفاءلتُ من جديد؛ إنّه فرّاج بيك ولا بُدّ أنّه الفَرَج. أتاح لي هذا

التّفاؤل أنْ أُقبل على الوجبة بنَفْسٍ مفتوحة ، كانتْ وجبةً من الدّجاج المشويّ ، نصف دجاجةٍ بأكمله كانَ يتمدّد في صحنٍ نظيفٍ ، مرشوش بالسّمّاق ، والبندورة المطبوخة بالزّيت البلديّ ، وإلى جانبه صحنٌ آخَر تصطفّ في قلبه أوراقٌ من الجرجير وشرائح مُصفّفة من البندورة والخيار ، ورغيفان ساخنان من الخبز الّذي خرج من الإنضاج للتّوّ . أيُّ دلالٍ هذا؟ هتفتُ في سِرّي . هل هو الإفراج بالفعل ، أم هو تسمين الضّحيّة قبل ذَبْحها؟ طردتُ الهاجس الأخير ، فقد كنتُ أبالغ كثيرًا في تخيّلاتي لا أريد لهذه اللّحظة التّاريخيّة أنْ يتعكّر صفوُها بسبب هذه التّهيّؤات القاتلة في كثيرٍ من الأحيان . هبطتْ يدي على الطّعام هبوط الطّائف الّذي طاف بجنّة أصحاب الجنّة ، أكلتُ كمن حيلَ بينه وبين الطّعام بقرنٍ من التّجويع والتّعطيش . كانتْ وجبةً شهيّة ، كأنّها فُصّلتْ على مقاسِ جوعي . لم أُبقِ في الصحنَين شيئًا . التهمتُ كلّ ما أتوني به ، ثمّ تركتُ الأرض ، وتمدّدتُ على السّرير كانت الرّوح قد عادتْ إليّ ، لم يطلْ تمدّدي كثيرًا حتّى كان شخيري يعلو فوق صرير قوائم سريري!

صحوتُ على صوتِ عسكريّ آخَر في صباح اليوم التّالي وهو يقول : «قُمْ . . . إفراج» . هرولتُ . لقد صدّقوني إذًا كان تصويب فوهة المدفع من تلقاء نفسي ، من حماستي الّتي لا ضابِطَ لها . وتلك هي الحقيقة كان من الصّعب أنْ تقول الحقيقة ، ومن الصّعب أنْ يُصدّقها الآخَرون . لكنْ ربّما تجدُ واحدًا في كلّ هؤلاء الّذين تقصّ عليهم الحِكاية يُعنّي نفسه بتصديقكَ ولو مرّة واحدةً . هذا ما يحدث مع كلّ النّاس . هذا ما حدثَ معي .

منحني فرّاج بيك إجازة لمدّة يومَين دون أنْ ينظر في وجهي . قال

لي : «ستعود إلى كتيبتك بعد ٤٨ ساعة . هذا كلّ ما يُمكن أنْ أفعله لك» . وقّع على المِلفّ ، ثمّ أغلقه

قال لي أبي : «لستُ مع ما فعلت ، ولستُ ضدّه . الثّائر يعرفُ الثّورة اليتيمة قبل أنْ تفقد أباها . عليكَ أنْ تكون حكيمًا» . فهمتُ أشياء مِمّا قاله لي أبي ، وأشياء لم أفهمها كان عليّ أنْ أحدس بها دون أنْ أسأله . أمّي اكتفتْ باحتِضاني ، وإعداد الطّعام الّذي أشتهيه لي ومفاتحتي في أمر الزّواج . أمّي كانتْ تعرف أنّ الحياة تسير رغم ما يعترضها من منغّصات . إنّها تتحاشَى الحديث عن تلك المنغّصات ، وتتحاشَى كذلك إسداء النّصائح وتعوّض عن كلّ ذلك بإبراز الوجه الأجمل للحياة ، فَرْقٌ بين مَنْ يصوغ عبارات الحكمة وبين مَنْ يعرفها بينَ من يقولها وبين مَنْ يفعلها ، أمّي كانت تفعل الحِكمة كانت تقضي على الهمّ بنسيانه أو بتناسيه ، كانتْ لها تلك القدرة الهائلة في أنْ تُعرِض عن الحُزن حتّى ترى الفرح . الفرح موجود في مكانٍ ما ، يختبئ في إحدى الزّوايا ، تجاوزْ حُزنك إليه يتجلّى لك وهو يرفل بأثواب الهناء . كانتْ أقدرَنا جميعًا على إلباسنا تلك الأثواب رغم كلّ الحزن المخيّم على كلّ شيء .

حينَ عُدتُ إلى كتيبتي بنظرةٍ تحمل حقيبةً حُبلى من النّصائح من أبي ، وقبلة تشي عن أفقٍ من الرّضى من أمّي بعدَ يومَين ، قال لي قائد الكتيبة الّذي امتثلتُ أمامه بالوقوف : «لقد تمّ نقلُك إلى الرّمثا ، ستكونُ ضمنَ السّريّة التّابعة للجمارك» . كان القرار طعنةً أخرى . إنّه يعني أنْ تبتعد عن الحدود الّتي تُشرِفُ على الوطن الحبيب المحتلّ ، وهو بالضّرورة مقصود بعد تصويب المِدفع ، فكّرتُ : إذا كان تصويب المدفع فقط لمجرّد التّصويب دون القيام بأيّ أمرٍ آخَر قد سبّب لي كلّ هذه

المتاعب ، فماذا كان يُمكن أنْ يحدثَ لو قمتُ بإطلاق قذيفة واحدة ، واحدة فقط ، وفي الهواء؟ ماذا كان سيحلّ بي؟ قطعتُ حبلَ تساؤلاتي ، وفكّرتُ في المدينة الّتي سأُنقَل إليها ، إنّها في أقصى الشّمال من وطني الحبيب ، ما يعني أنّه إبعادٌ إلى الجهة الأخرى من الوطن ، إلى الحدود المصنوعة مع دولةٍ عربيّة شقيقة . فكّرتُ ألفَ مرّة بأنْ أحتجَ ، لكنّني خفتُ أنْ أعيش بسبب ذلك خمس ليالٍ جديدة في الزّنازين فتراجعتُ على الفور . في الحقيقة تراجعتُ أكثر حينَ تذكّرتُ قبلة الرّضى من أمّي ، لم أكنْ لأغامر بها بهذه السّهولة ، والأمر ما زال طريًا . خبطتُ الأرض ببسطاري وأدّيتُ التّحيّة العسكريّة بصوتٍ متحمّس ، وصرخت : «حاضرِ سيّدي» .

(١٠)
للنّجوم أرواحٌ مثل البشر

عُيِّنْتُ سائِقًا مع قائد السَّريّة ، وتشاجرتُ معه في اليوم الأوّل . لم أكنْ أدري كيف تلاحقني المصائب بهذه الطّريقة الغريبة ، كانتْ تلازمني كظلّي ، وتلبسني كجِلدي . قال لي : «تذكّرْ أنّكَ عسكريّ ، ومعنى ذلك أن تكون منضبطًا تمام الانضِباط . وتذكّرْ أنّك سائقٌ عليه أنْ يُطيع الأوامر فحسب ، ويكون جاهِزًا في أيّة لحظةٍ» . لم أعلّقْ ، خفتُ أنْ تكون كلماتي سببًا في زلّة قدمي باتّجاه هاويةٍ جديدة .

منع قائد السَّريّة جميع العساكر والضّبّاط التّابعين له من أنْ يختلطوا بي ، أو مجرّد إلقاء التّحيّة ، أو الجلوس معي للحظات . وتمّتْ محاصرتي . وأسكنني في خيمةٍ خارجيّة ، وأسكنَ معي عسكريًا آخَر ، كان من لهجته يبدو أنّه من أهل البادية . ولم أكنْ أعرفه من قبل ، ولا رأيته . وكان يسألني عن الأحزاب والمنظّمات ، فاقتصدتُ في الحديث معه . كنتُ أعرفُ أنّه العصفورة الّتي تنقل الأخبار . فلم أدخلْ معه في أيّ نِقاش . سألني خلال ثلاثة أيّام من بداية وجوده معي أكثر من مئة سؤال . وكِدتُ أضربه في كلّ مرّة ، ولكنّني كنتُ أتمالك نفسي في اللّحظة الأخيرة . سألني عن الشّيوخ الّذين أسمعُ لهم ، سألني عن الشّيخ كشك ، كان الشّيخ كشك هو الشّيخ الوحيد الّذي عرفْتُه من أرتال الشّيوخ الّذين كان لسانه يتدفّق بأسمائهم كأنّه يحفظهم لا يعرفهم ، سَرَدَ عبر أسئلته أكثر من عشرين اسمًا قال إنّهم

شيوخ انتشرتْ لهم (كاسيتات) في الفترة الأخيرة تحضّ على الجهاد ، ومقارعة الأعداء ، والحديث عن الحُور العِين . لكنّ جهلي كان يشفع لي . وكنتُ أستثقل أسئلته ، ولا أجيبُ إلاّ نادِرًا ، حتّى إجاباتي هذه كانتْ مُقتَضَبة لا تتعدّى كلمة أو اثنتين ، وأكثر كلمة ردّدْتُها في تلك الإجابات كانت : (لا) كنتُ أستشعر لذّة خاصّة للنّطق بهذه الكلمة ، لذّة من نوع غريب ، كأنْ أُحِسّ أنّ كلّ (لا) هي صفعةٌ في وجهه تُفقِده فقرةً منْ فقرات تقريره الّذي سيرفعه إلى سادته عنّي!! وكان يتودّد إليّ بشكلٍ كبير ، ولكنّ تودّده هذا يتحوّل في بعض الأحيان إلى غباء وسماجة ، كان مثل دودة الحلزون لزجة ومقرفة ورَطْبة

بقيتُ أسبوعًا كاملاً أسوق السّيارة بقائد السّريّة مرّة أو اثنتَين في اليوم ، يأمرني بالقيادة نحو الفصائل التّابعة لسريّته ، أو يأمرني بالقيادة إلى السّوق ، أو إلى أحد بيوتات مدينة الرّمثا ، وأحيانًا إلى مدينةِ إربد ، وفي مرّات كان يذهبُ في زياراتٍ شخصيّة لدور لا أعرفُ ساكنيها ، يدخل ساعةً أو اثنتَين ، وأنا أنتظره داخل السّيّارة متأهّبًا للحظة خروجه كي أعود به إلى السّريّة ، وكان يزور في أحيانٍ أخرى دورَ العزاء ، كان يبدو اجتماعيًا فيما لاحظْتُه ، لكنّه لم يكنْ يفتح معي أيّ موضوع ، وكان يتحاشَى النّظر في وجهي ، أو مُصافحَتي ، أو قول أيّ كلمة وحينَ كنتُ أبدؤه بالحديث ، كان يقول بصوت غاضب : «انظرْ أمامك ولا تتكلّم» كان مُستفِزًا بشكلٍ حادّ ، وفكّرتُ أكثر من مرّة أنّه بالونٌ مُنتفخ ، أو طبل فارغ . لم يُعجِبْني تعاليه ، وكنتُ أكره أنْ أتحوّل إلى آلةٍ تشتغل عنده بكبسةِ زرّ ، أو بالأمر العسكريّ دون مناقشة ، كان ذلك الأمر يُحاصِرني ، كنتُ محتاجًا إلى الحديث ، والحاجة إلى الحديث

مثل الحاجة إلى الماء ، تُصيبُ الإنسانَ بعطشٍ روحيّ إذا لم تجدْ ريًا

كان منفذي الوحيد للحديث هو تلك العصفورة الّتي تسكن معي في الخيمة ، وكان ذلك مقصودًا من أجل أنْ أضطرّ لمحادثته إذا أصابني العَطَش ، ولكنّني كنتُ أفضّل أنْ أموت من الظّمأ على أنْ أُبرّد حَرّ عطشي بكلمةٍ ولو واحدة مع ذلك المُخبر اللّعين .

بدأ الملل يأكلني . من الصّعب أنْ أهدأ وكلّ ما في أعماقي يثور . إذا كان من سبيلٍ لكي أقلّل غَلَيان الدّم في عروقي فدلّوني على ذلك . أنا حبّة كستناء على صفيح تحته نارٌ مُوقَدة ، انفجاري حتميّ ، ولحظتي مجهولة .

ركبتُ سيّارة القائد دون أنْ أستأذن أحدًا ، وتوجّهتُ بها إلى مدينة (الرّمثا) ، دخلتُ وسط البلد كانت الشّوارع تلفظُ النّاس الّذين تضيق بهم على جانبيها ، وأصواتُ باعة الخُضار تطغَى على أغنياتٍ تصدح بقوّة حتّى تترجرج من ذبذباتها الحجارة المركونة على القوارع . باعةٌ لكلّ شيء . رأيتهم يبيعون اللّيف والأواني ، الحرامات والشّراشف ، الطّيور والأرانب . زكمت الرّائحة أنفي . لكنّني شعرتُ ببهجة غامضة ؛ المشي بين النّاس جميل . امشِ بعفويّة أيّها السّالك ، ستقودُكَ قدماكَ إلى حيثُ تريد كلّ ما قلتَ أنّكَ تريدُه هو بالتّأكيد ما لا تريده . دَعْ رُوحَكَ تدلّك على ما تريد لا بالقول ، بل بالمشي . امشِ وغَنّ من القلب . الطّرقات تسمع غناء قلبك وستُرشِدُكَ إلى غايتك . «هل عندكَ أشرطة لمارسيل خليفة؟» سألْتُ بائع الكاسيتات . نظر في وجهي قليلاً كمن استغربَ أنْ أسأل مثل هذا السّؤال ، هل كان يعرفني؟ ربّما . هل هي نظرة البائع الّذي يصطاد زبونه؟ ربّما . أجاب بعد هنيهة : «نعم» سألْتُه من جديد : «أجمل الأمّهات؟» . تفحّصني هذه المرّة ، ثُمّ تلعثم وهو يقول : «نعم» . خرجتِ الكلمة مَبتُورة ، كأنّها لا . وأتبَعها لكي

يُكمل ما نَقَص منها : «أحنَ إلى خُبز أمّي أجمل» . وددتُ أنْ أعضَ لِسانه على فلسفته الزّائدة ، لكنَ رغبتي هذه فرّغتُها في كلمات خرجتْ من فمي وأنا أشدّ عليها بأسناني : «وهل أنتَ الّذي ستسمع الشّريط أم أنا؟» . «أردتُ فقط أنْ أنصحك؟» . «وفّرْها ليوم بردٍ شديد لعلّها تُدفِئك ، أو إنسانٍ سَمج مثلك لعلّها تُعيد له البراءة» . قطع دابر الكلام معي . سألتُه وقد شعرتُ بنشوة كلماتي : «هل عندك أشرطة للشّيخ كشك أو الشّيخ حسّونة؟» . اتّسعتْ حدَقَتا عينَيه ، قالتا كلامًا لم يقلْه ، ولكنّني سمعتُه : «هل تسمع للنّصارى والمسلمين معًا!!» أجبتُه من عندي دون أنْ تتحرّكَ شفتاي : «للنّصارى في المساء وللمُسلمين في الصّباح»

كانتْ حصيلتي من السّوق في ذلك اليوم ، خمسة أشرطة ، وزوجَين من الحمام ، وحِذاء يُشبه بوط الفحمة الّذي اشترتْه لي أمّي قبل ما يزيدُ عن عشرة أعوام ، وشرشف للأكل . عُدتُ بالسّيارة إلى المُعسكَر ، ترنّمتُ في الطّريق على العُود الّذي كان مارسيل يُدندنُ به لم يلحظْ أحدٌ غيابي لِحُسن الحظّ . في مساء اليوم نفسه أمرني قائدُ السّريّة بالتوجّه بالسّيارة إلى إربد . وضعتُ شريط قرآن بصوت عبد الباسط عبد الصّمد كان أحد غنائمي في الصّباح . كان الشّيخ يُرتّل : «لستَ عليهم بِمُسيطر» حينَ انفجر قائد السّريّة في وجهي صارِخًا : «غيِّرْ هذا الشّريط» . بدّلتُه بهدوء وبُطْء بشريط للشّيخ حسّونة ، ما كاد يرفع الشّيخُ صوتَه بسطرَين ، حتّى أخرج قائد السّريّة الشّريط بنفسه ورماه من شُبّاك السّيّارة ، وقال لي بصوتٍ غاضب : «أنا سمعتُ عنك أنّك تنتمي للمنظّمات الإرهابيّة . لا مكّان للخائنين بيننا» ردّدتُ من خلفه جملته الثّانية : «بالطّبع ، لا مكانَ للخائنين بيننا» كان

غضبي أشدّ من غضبه لكنّه لم يُصادفْ لحظةَ انفجاره آنئذ .
بعد يومَين ، كنتُ أجلسُ في مكان السّائق أنتظر قائد السّريّة أنْ يخرج من مكتبه لكي يأمرني بالتّوجّه إلى الجهة الّتي يريدها كان مكتبه في الجانب الآخر من الشّارع ، وكان عليه أنْ يمرّ من أمامي ، ويلتفَ من حول السّيارة ليجلسَ في كرسيّه . بدا وهو يخرج من مكتبه مثل طاووسٍ أحمق . عجرفته تقتلني . أنا لا أطيقُ هذا النّوع من النّاس . إنّهم حينَ تدوسهم الأحداث لا يُصدِرون إلاّ فرقعةً من تحت الأقدام لا أكثر . عبر الجانبَ الآخر ، خُطوتان ويقطع الشّارع الّذي تصطفّ السّيارة على يمينه . عَبْرَ الزّجاج الأمامي للسّيّارة رأيتُه شَهِيًا ، شَهِيًّا للدّهْس ، شَغّلتُ السّيارة ، وركّبْتُ المُبدّل على الغيار الأوّل ، وتخيّلْتُه بدعسةٍ واحدةٍ فوق دوّاسة البنزين يطير في الفضاء مترَين أو ثلاثةً ويسقط على الأرض مُضرّجًا بدمائه . ما أجمل أنْ أفعلها الآن ، وأتخلّص من هذا المُتعجرِف . دَوْسة قويّةً واحدة وسأستلذّ بصرخته تشقّ السّكون المُخيّم على السّريّة ، صرخته اليتيمة سيسمعها كلّ العساكر هنا ، ومَنْ يدري؟! ربّما سيفرحون مثلي لسقوطه أخيرًا من بُرجه العاجيّ . دوسة واحدة وسينحلّ ذلك الحبل الغليظ الملتفّ على قلبي ، والّذي يزداد التِفافًا في كلّ مرّة أخرج معه في السّيّارة . دوسة واحدة وبعدها ربّما سيكون بإمكاني أنْ أقود السّيّارة بقائدٍ جديد للسّريّة يكون أخفّ دمًا من هذا اللّبِط . لكنّه حينَ انتصفتْ به المسافة أمام زجاج السّيّارة رأيتُ معه أبي ، هل كان أبي؟! حنيتُ جذعي إلى الأمام لأقترب من الزّجاج وأتمكّن من الرّؤية بشكلٍ أدقّ ؛ نعم إنّه أبي!! ما الّذي أتى بكَ يا أبي إلى هنا؟ في هذه اللّحظة؟! كان يُمكنكَ أنْ تأتي في لحظةٍ أخرى!! لماذا اخترتَ هذه اللّحظةَ بالذّات للظّهور وقد

كدتُ أحقّق رغبتي الّتي ظلّت تنحبس في أعماقي مثل ماءٍ ينبجس من شِقّ صخرةٍ صلدةٍ فترةً طويلة؟ هل كان عليكَ أنْ تمنعني من تحقيق ما أريد بظهوركَ المُفاجِئ . سامحكَ الله يا أبي!! مرّتْ أقلّ من ثانيتَين قبل أنْ يصعد قائد السّريّة إلى السّيّارة ويجلس إلى جانبي ، ويغيبَ أبي في الظّلال المُستلقية خلف الأشجار . بقيتُ مشدوهًا للحظات ، قبل أنْ يثقبَ أذني صوتُه الصّارخ : «لماذا لا تقود السّيّارة ، هيّا أيّها . . .» . قدتُ السّيّارة وأنا ألعنُ الحظَّ النّحس الّذي يلازمني .

في اللّيل نمتُ خارج الخيمة ، أوى المُعسكر إلى الرّاحة كلّ شيءٍ فيه كان ساكِنًا كنتُ قد بدأتُ بالتّدرّب على معرفة مواضع أعشاش الطّيور فوق الجذوع العالية . الصّنوبر كان موطنها الأثير . كانت النّجوم لامعة . ظهرتْ ببهاءٍ لم أره إلاّ من سنواتٍ طويلة في سماء إبدر . اليوم يعود المشهد أمام ناظِرَيّ من جديد . كلّ أضواء المعسكر أُطفِئتْ . ساعدَ ذلك في أنْ تختال النّجوم في مدى الرّؤية بشكلٍ أجمل . رحتُ أعدّ النّجوم . أسمّيها كما كنتُ أسمّي الأشجار في إبدر . كلّما ألقيتُ اسمًا على نجمة ضحكتْ . وحينَ ألقيتُ اسم امرأة عمّي على نجمةٍ في الشّمال رقصتْ . هل تعرف النّجومُ الرّقص!! خُيِّل إليّ أنّها تريد أنْ تبدأ معي الكلام ، قالت : «للنّجوم أرواحٌ مثل البشر يا أحمد . روحي هي الّتي تُظلّلُك بالأمان الآن» . سألتُها : «أنتِ تبدين بكامل هذا الجمال في اللّيل ، فلماذا لا تفعلين ذلك في النّهار ، في القيظ الّذي يجعله يطول مرّتَين؟» . أجابتْني : «نحن نظهر في اللّيل لأنّ النّاس يظهرون في النّهار» . قلتُ لها قبل أنْ أغفو : «سأُسِرّ لك بِسرّ» . توقّفتْ عن الرّقص كأنّها تُصيخ السّمع . تابعتُ وأنا أضع يَدَيّ تحت رأسي كوِسادة : «سأنتقمُ مِمّن قتلكِ ، لا تخافي يا امرأةَ عمّي . اطمئنّي تمامًا ، أنا

أعرف كيف آخذُ بحقّك» . ابتسمت بحُزنْ . أحسستُ بأنّها تنزل من السّماء وتطبعُ فوق خدّي قبلةً عميقة ، ثُمّ تعود إلى عليائِها وقد ازدادت ابتسامتُها اتّساعًا

استمرّ حَصاري من قائد السّريّة . قلتُ له مرّة : «إذا كنتَ تمنعني من الاختِلاط بزملائي كلّ الوقت ، فمن حقّي أنْ أختلطَ بهم وقتَ الطّعام ، كلّ ما أريدُهُ أنْ أشاركهم ولو وجبةً واحدةً في اليوم» . ردّ عليّ بنظرةٍ واحدةٍ كانتْ تحمل ألف لا

منذ مغيب شمسٍ هذا اليوم البارد بدأتْ تُمطِر كان المطرُ ثقيلاً تغضبُ السّماء فجأة ، وأحيانا بلا سبب . كانت الخنادق الصّغيرة المحفورة حول الخيام تمنع الماء المتجمّع جرّاء هذا البكاء السّماويّ أنْ يتجمّع داخلها ، كان يسيل إلى الخارج في جداول صغيرة . صوتُه فوق قماش الخيمة السّميك هو موسيقى ذات إيقاع جذّاب . نمتُ على أنغام تلك الموسيقى . بعدَ ساعتَين من هدأتي أيقظني صوتُ اللاسلكي ، كان صوت قائد السّريّة يأمرني بتجهيز السّيّارة والتّوجّه إلى مكتبه فلديه جولة تفقّدية . نهضتُ منزعجًا . انتظرتُه حتّى شرّف . قدتُ به إلى أوّل مُراقَبة كان يمارس دور الّذي يُتابع سير الأمور . في نقطة المراقبة الثّالثة أو الرّابعة - وكنّا قد ابتعدْنا عن مركز السّريّة كثيرًا - قرّرتُ أنْ أتركه وحده هناك وأعود إلى السّريّة من دونه!! نَفّذْتُ على الفور ما فكّرتُ به كان لا يزال غارِقًا في تعليماته وتوجيهاته للضّبّاط والعساكر حينَ شغّلتُ السّيّارة وعُدتُ إلى خيمتي . ركنتُ السّيّارة أمام مكتبه ، وركضتُ باتّجاه خيمتي . وجدتُ فيها العسكريّ الّذي كُلّفَ بمراقبتي ونقل الأخبار عنّي ، كان وجهه يبدو بريئًا غارقًا في نوم سرمديّ . انهلتُ عليه بالضّرب ، استيقظَ مفزوعًا ، لم أُمهلْه لكي يتمكّن من معرفة الّذي يقوم

بإشباعه باللّكمات . ازداد غيظي حين رأيتُه يفرك عينَيه بسرعة ، ويُضيّقهما ، ثمّ يلتفتُ يمنةً ويسرةً ليفهم ما يجري ، كنتُ أنهال من جديد عليه بالرّفس وأنا أصرخُ في وجهه : «اعترفْ أيّها النمّام ، مَنْ وظّفكَ لكي تكتب التّقارير فِيّ؟» . استغرقَ وقتًا كي يفهم معنى السّؤال الّذي وجّهْتُه له ، لكنّني بادرْتُه قبل أنْ يُجيب ؛ جذبتُه من عنقه ، جررْتُه خارج الخيمة في الطّين . صار يتوسّل إليّ وهو يتأوّه . أقعدتُه وأنا أصفعه باليد الأخرى وأسكتَ توسّلاته ، ازداد صُراخي مع كلّ مرّة أقومُ فيها بضربه : «مَنْ جعلكَ مُخبِرًا عليّ أيّها الخسيس؟!» . زعق وهو يشهق ، ويرفع يدَيه أمام وجهه ، كان صوتُه يُشبِه عُواء ذئب يختنقُ في أنفاسه : «يكفي . . . سأقول لك . . . يكفي . والله سأقول؟» . «هيّا قبل أنْ تفقد إحدى عينَيك أيّها النّذل» . ردّ بسرعة لكي يوقف سيل الصّفعات والرّفسات الّتي يتلقّاها : «قائد السّريّة . . . والله قائد السّريّة هُو مَنْ أمرني بذلك . . . وأنا لا أستطيع أن أخالفه ، وإلاّ سأُحاكَم عسكريًا ، وأنا أخاف على أولادي من خلفي . . .» . قلتُ له وقد هدأتُ قليلاً وكنتُ أقبضُ على عنقه بكلتا يدَيّ : «وماذا طلبَ منكَ أيضًا؟» . «لقد طلبَ منّي أنْ أراقبكَ ، وأجرّك بالكلام لأعرف إلى أيّ المنظّمات والأحزاب تنتمي» تركتُه بعد أنْ شتمْتُه . ورُحتُ أبدّل ملابسي . رميتُ البدلة العسكريّة ، ولبستُ ثيابي المدنيّة ، خرجتُ من الخيمة وتوجّهتُ إلى غرفة المفاتيح ، سرقتُ مفتاح أكبر شاحنة في السّريّة . حملتُ أشرطتي ، وزوجَي الحَمام ، والشّرشف ، وبوط الفحمة كانت السّاعة الثّالثة فجرًا وأنا أصعد درج شاحنة (الكونتِينْتال) العملاقة بثقة ورباطة جأش ، قُدْتها بين الأشجار . راحت الشّاحنة تتهادَى ؛ لقد قرّرتُ الفِرار من الخدمة العسكريّة!!

(١١)
طُبول الحرب

تقافزت شاحنة (الكونتينتال) فوق حجارة المُعسكر . ثُمّ سلكتُ الشّارع المُعبّد نحو باب السّريّة . من بعيد بدتْ نقطة الحارس على الباب مُضيئة . لكنّ العسكريّ الّذي في داخلها كان نائمًا أو لم ينتبهْ لي . أو ظنّ أنّني خارجٌ في مهمّة . أطلقتُ بوق الشّاحنة وأنا أمرّ بمحاذاة الباب . رفعتُ يدي بالتّحيّة ، ومن جديد أطلقتُ بوقًا طويلاً كان صوتُ البوق من ذلك النّوع الّذي يُوقِظُ الأموات في القبور . لوّحتُ بيدي لأحدٍ ما ، شبح ما يستوطن تلك النّقطة ، ومضيتُ بالشّاحنة وأنا أقهقِه . أسرعتُ بالشّاحنة . طرتُ بها كانتْ أشدّ فرحًا منّي . قُدتُ حتّى وصلتُ إلى منطقة الجمارك . ركنْتُها بجانب نقطة التّفتيش . ترجّلتُ منها . صفقتُ الباب خلفي . وقفزتُ . كان طائر الفجر قد بدأ يتململ ليخفق بجناحَيه في الفضاء . مشيتُ لأكثر من نصف ساعة على الطّريق العامّ وأنا أغنّي . أشرتُ للسّيّارات القليلة الّتي كانتْ تخرج من مجاثمها بالمُوظّفين الذّاهبين إلى أعمالهم في هذا الصّباح الباكر ، تابعتُ وأنا أرفعُ إبهامي . تجاوزتْني ثلاث سيّارات على الأقلّ قبل أنْ تتوقّف السّيّارة الرّابعة أو الخامسة

ركبتُ السّيّارة وتوجّهتُ إلى خطيبتي . كانت أثقال الهموم الّتي تتصارعُ في أعماقي تحتاج إلى قلبٍ لكي يسمعها . وحدها خطيبتي

كان يُمكن أنْ تُطفِئ النّار المُشتعلة في صدري . وصلتُ بيتَ أنسبائي في الثّامنة صباحًا . قلتُ لها دون مقدّمات : «لقد فررتُ من العسكريّة . الأمر لا يُطاق» . ابتسمتْ ؛ فانسكب جرّاءَ ابتسامتها عشرون دلوًا من الماء على النّار المشبوبة في صدري . صمتتْ للحظات قبل أنْ تُشعَ عيناها بنوع غريبٍ من الأمان : «ماذا حدث بالضّبط؟» . حدّثتُها بكلّ شيء ، كدتُ أبكي في أكثر من موضع . لكنّها حافظتْ على هدوئها كانتْ تُصغي برقّةٍ وتبتسم بين فترةٍ وأخرى لتكنس ما تجمّع من أحزانٍ في قَعرِ روحي . كان عليّ أنْ أعترف اليوم أنّ النّساء قادراتٌ على إطفاء أشدّ أنواع النّيران لهيبًا . وقادِراتٌ كذلك على انتزاع أشواك الخوف والقلق من الصّدر وزرع شتلة من الياسمين أو الزّنبق بدلاً منها بشكلٍ استثنائيّ . قالتْ لي : «لا أحدَ يُمكن أنْ يلومكَ على مشاعرك ، ولا على تصرّفاتك الّتي انبنتْ على تلك المشاعر ، ولكنّ الرّجال لا يفرّون . الرّجال يُواجهون» . وصمتتْ كأنّ صمتَها أقامني في مقام الاعتِراف ، إنّها الفضيلة ؛ المرأة هي الفضيلة الّتي تُعيدُ إلى اضطراباتك الحمقاء اتّزانَها المُستَحَقّ .

في المساء غادرتُ بيت أنسبائي ، قطعتُ الطّريق الواصلة إلى قريتي (إبدر) مشيًا كنتُ أريدُ أنْ أتخلّص من آثامي بالمشي . لا يُوجد أفضل من المشي لكي تنتظم الأفكار ، وتستعيد الخلايا ترتيبها الطّبيعيّ كانت الشّمس قد رحلتْ ، وتركتْ حُمرتَها في خدّ الأفق . كان الشّارع الطّويل الّذي أمشي فيه محفوفًا بأشجار الصّنوبر ، ومفتوحًا في مدى الرّؤية على المُطلَق ، مِن هنا بدا أنّ الله الّذي أتقنَ صُنعَ كلّ شيء يقول كلامًا مُبينًا ، ولكنْ مَنْ يسمع ويرى!! هل كان الصّمم قد أتلفَ الآذان!! هل كان العمى قد غَشّى العيون!! إنّ بعضهم يمشي في

ذات الشّارع معي ، ولكنْ هل من المعقول أنّهم لا يرون ما أرى ، ولا يسمعونَ ما أسمع؟!

كنتُ ألبس بوط الفحمة وأشرطتي في جيبي ، أمّا الشّرشف وزوجَا الحَمام فقد أهديتُهما إلى خطيبتي . طالت الطّريق . وصفت أمشاجي . وهدأتْ روحي . واستقرّ ذلك العصفور النّاقر تينةَ قلبي حينَ وصلتُ بيتَنا كانتْ بعضُ الأخبار عن فِراري من الجيش قد تسرّبتْ إلى أهلي . على عادته تجهّم أبي في وجهي ، وأشاحتْ أمّي بوجهها إلى الجهة الأخرى ، وصمتَ أخي باسم . أختاي لم تكونا في البيت ، كانتا قد تزوّجتا ، وأخي الصّغير لم يكنْ يعي شيئًا . واجهتُ أهلي كما واجه زكريّا عشيّة المحراب قومَه . صُمتُ عن الكلام حتّى الصّباح . ونِمتُ كأنّ شيئًا لم يحدث .

استيقظتُ مُبكّرًا كان نوم أمس عميقًا . فأفقتُ مرتاحًا . شعورٌ بأنّني أبدأ حياةً جديدةً كان يغمرني لحظتَها . شعور ذلك الّذي ضاعَ في الصّحراء أربعين عامًا ، ثُمّ اهتدَى إلى ظلٍ ظليل . شعور الحياة بعد الموت . شعور الرّيّ بعدَ الظّمأ كان المِذياع الّذي فتحَه أخي باسم قُبيل السّابعة بعشر دقائق يُلَعلع ، صوتُه ينتشر في الأرجاء ، وكانتْ أمّي تُعدّ لنا طعام الفطور . لم نكدْ نجلس إلى طَبليّة خشبيّة اعتدْنا أنْ نأكل عليها طعامَنا ونتناول بعض اللُّقَيمات حتّى أعلنتِ السّاعة السّابعة صباحًا في إذاعة الـ BBC ، دقّتْ السّاعة دقّاتها المشهورة ، قبل أنْ تصمت الدّقات كلّها لثانية واحدة مرّتْ لمن ينتظر كأنّها ساعة ، ثُمّ تنفجر الدّقّة الأخيرة معلنةً حسب Big Benالخامسة صباحًا بتوقيت جرينتش . كان صوت المُذيع العربيّ يرتجف ، أو هكذا خُيّل إليّ وهو يُعلِن قيام الحرب في العراق . كانت الجيوش الأمريكيّة وجيوش

حلفائها البالغة أربعةً وثلاثين جيشًا قد اجتمع ليكسر شوكةَ العراق . لقد قامت الحربُ إذًا . تركتُ أهلي مجتمعين حول طبليّة الفطور ، وخرجتُ إلى الشّارع . داريتُ دمعةً انحدرتْ ساخنةً على خدّي تجمّدتْ بسرعةٍ لشدّة البرد الّذي تمتلئ به طرقات القرية . مشيتُ بسرعة مثل مَنْ يهرب منْ قَدَرٍ يلاحقه . كان الماء يفرّ في دفقاتٍ تحتَ وطأة ضرباتِ أقدامي المُتسارِعة . حتّى إذا تجاوزتُ بيوتات القرية وأشرفتُ على الخلاء ، رحتُ أركضُ ، أركضُ وأنا أضع يديّ فوقَ رأسي ، لقد عادتْ إليّ تلك الحالة الّتي لازمتْني في طفولتي زمنًا ليس بالقصير . مِمّن أخاف؟! وأيّ ضرباتِ تلك الّتي أتّقيها بيدَيّ كأنّها قادِمةً من السّماء؟! لا أدري . ركضتُ ذلك اليوم في الطّين والوَحل بشكلٍ جنونيّ . وأطلقتُ ساقَيّ للرّيح بشكلٍ هستيريّ ، وحينَ أصبحتُ وحدي لا شي غير الوديان المهجورة والظّلال الصّامتة ، بعثتُ صرخةً تفجّرتْ بها أعماقي ، كانتْ صرخةَ المستغيث المكروب ، كانتْ صرخةً محمّلة بالقهر والأسى بحيثُ أنّ حرّها لو مَسّ شجرًا لاحرقه ، ولو مسّ صخرًا لأذابه . هبطتُ أسفل الوادي وأنا أنحدر مع منحدارته مثل خيلٍ لم تعدْ تسيطر على قوائمها الّتي راحتْ تتسارع وتحتها ترتجّ الصّخور والأشواك والأتربة حتّى إذا صِرتُ في أخفض بقعةٍ في الوادي ، رميتُ نفسي على السّيل ، كان قد تحوّل إلى نهرٍ لتدفّق الماء المُتجمّع من أمطار اللّيالي الفائتة عبر الهِضاب المُحيطة . استلقيتُ وظهري إلى الماء ، كان شديدَ البرودة يكادُ يُجمّدُ كلّ شيءٍ ، فردتُ يدَيّ وقدَمي على اتّساعهما كمن يترك جسده كلّه للقدر ، وراح الماء يعبرني غيرَ عابئٍ بي . لم يعتبرْني أكثر من صخرةٍ ليّنة ، كان يتدفّق بعد أنْ يتجمّع حول رأسي متوقّفًا للحظات يكادُ فيها يعلو صفحة

وجهي وتدخل بعضُ قطراته في أنفي ، ثُمّ ينسلّ حول أطرافي كنتُ أُطفِئ ببرودته حرّ جسدي ، وأخمد بريّه نيران أنفاسي ، كان صوتُ خريره يُغطّي على صُراخ الخبر الصّاعق في أُذنيّ من خبر السّابعة فجأةً قفزتْ كلمات خطيبتي إلى أُذُنَيّ : «الرّجال لا يفرّون . الرّجال يُواجهون» . ملأتني الكلمات بالرّهبة ، حضرَ طيفُها أمام ناظِرَيّ ، خُيِّل إليّ أنّها تقول : «ها هي الحربُ قد قامت ، وها أنتَ مثلَ شاةٍ جرباء في الوادي ، الوادي المُنقطع عن العالَم ، سيقولون هرب من الحرب ، الحرب الّتي تكشفُ عن معادن الرّجال ، الرّجال الّذين يصمدون» . أقعدَتْني كلماتها الّتي رنّتْ في أُذُنَيّ ، كان الماء قد بدأ يسيل على جسدي مُبلّلاً كلّ شبرٍ في جسمي ، شعرتُ بوزنِ ثيابي المُبلّلة يُثقلني ، أردتُ أنْ أنهض ، جذبتْني تلك الثّياب المُبلّلة إلى الأسفل ، وشدّني بعضُ الطّين العالِق بي إلى الأرض ، أمعقولٌ أنّني أخلدتُ إلى الأرض ، دبّ الرّعب في صدري ، إنّ نداء الحرب يدعوني إلى القتال ، هل أنا جبانٌ إلى هذا الحدّ لكي يمنعني الماء من أنْ أنطلق . سمعتُ صوتَ خطيبتي من جديد : «سيُعيّرك أصدقاؤك ؛ سيقولون ؛ هذا الّذي أشبعنا بالبطولات ، تبيّن أنّه يعرفُ البطولات بالقول لا بالفعل ، وأنّه ليس أكثرَ من قِربةٍ فارغة» . ارتجفتُ ، هززتُ رأسي عشرات المرّات لكي أطردَ الشّياطين الّتي تجمّعتْ فيه نهضتُ مثل راعٍ لدغتْهُ أفعى دون أنْ يدري ، استويتُ واقِفًا ، وركضتُ من جديد ، من جديدٍ إلى العسكريّة ، لن أسمح لهم والحرب قد أنشبتْ أنيابَها أنْ يقولوا : «لقد فرّ» .

(١٢)
دَعُوها فإنّها مَأمُورة

وصلتُ إلى السَّريّة قادِمًا من (إبدر) في ظهر ذلك اليوم، لم يكنْ قد مرّ على الخبر سوى بضع ساعات، دخلتُ خيمتي كأنّني لم أفعل شيئًا. وجدتُ المُخبر فيها، حينَ رآني أشاح نظراته باشمِئزاز بعيدًا عنّي كأنّني أجرب، سألتُه إنْ كانَ أحدٌ قد بلّغ عن فِراري. لكنّه لم يجب. ولم يُحرّك لسانه بكلمةٍ واحدةٍ. كان يبدو أنّه خائفٌ أو يعيش في عالَم آخَر. نهضتُ باتّجاه قائد السَّريّة، دخلتُ مكتبه، أدّيتُ التّحيّةَ بشكلٍ آليّ، وانتظرتُ أنْ يتحدّث. ظلّ يحدّق بي كأنّه أخرس. قلتُ بعدَ أنْ مرّتْ دقيقة كعام: «لقد عُدتُ يا سيّدي، وأنا أعترفُ بخطئي، وأرجو أنْ تغفر لي فِراري، لقد قامت الحرب ولا أريد أن أكون هارِبًا في اللّحظةِ الّتي يُناديني فيها الواجب». ظلّ صامِتًا لدقيقةٍ أخرى مرّتْ هي أيضًا كعام آخَر، قبل أنْ ينفش صدره كأنّه يملؤه بالهواء قبل أنْ يقول جملةً واحِدةً: «لقد عيّنْتُكَ سائقًا لسيّارة الشّحن». ثُمّ أشار لي برأسه لأغادر مكتبه. خرجتُ، على الباب، سألتُ مُساعِده: «ألا تُعقَد لي مُحاكَمة... الا يرميني في (القطعة)؟». خفض رأسه وبصره وصوته، ليهمس في أذني: «لن تُعقدَ لك أيّة محاكمة، لقد مرّ الأمر كأنّك لم تفعل شيئًا؛ فالقائد لم يُبلّغْ عن فِرارك». سألتُه وأنا أُضيّق عينَيّ: «ولماذا؟». أجابني: «ربّما كان متأكّدًا من أنّك ستعود، أو ربّما لأنّه يُحبّك ولا يريد لك

الأذى». أجبتُه بصوت مسموع: «كلاّ لا هذه ولا تلك، أظنّ أنّه لم يبلّغ عنّي لأنّه خاف أنْ يكون محلّ سخرية الجنود، يقولون تركه في الصّقيع مثل لطيم وعاد بسيّارته وحده، وسيقولون: كيفَ يفرّ جنديّ من سريّتك دون أن تنتبه، لا بُدّ أنّك لاهٍ والماء يتسرّب من تحت قدمَيك! إنّ مرارة السّخرية الّتي سيتذوّقها لو عرف الجنود بالأمر وشاع ستكون أصعبَ عليه من أنْ يقوم بمحاكمتي، على كلّ مصائبُ قومٍ عندَ قوم فوائد». تركتُه وخرجت.

أُعطِيت لي سيّارة شحن من نوع (ديانا)، كانوا يسمّونها سيّارة الأرزاق، كانت أرزاق الجنود معلّقة بها، طلّتها بهيّة، ومرآها أشهى من العسل، وصوت تهاديها على الطّريق محمّلة بالطّعام أحلى من الموسيقى، هكذا كانتْ تعيش في خيال العسكر، الطّعام جوع البشريّ إلى البقاء، وسِرّ وجوده الغامض، ومحاولته للاحتيال على الموت، وسعْيه إلى نسيان ثلاثة أرباع الماضي وتأمين رُبع المُستقبل. في هذا اليوم الّذي ملأتُ السّيّارة بالطّعام، والموادّ التّموينيّة الّتي اشتريتُها بحسب الأصول زارَنا قائد الوحدة، بدا قائد السّريّة إلى جانبه هِرًا أليفًا. طلب منه أنْ يجمع له كلّ العساكر في قاعة المُحاضرات. اجتمعتْ كلّ الفصائل الأربعة الّتي تتكوّن منها سريّتنا، في القاعة الّتي لم تكنْ كبيرة، ووجّه إلينا قائد الوحدة خطابًا تعبويًا، يرفع فيه من معنويّات الجنود، ويُخبرهم أنّنا لو اضطُرِرنا إلى دخول الحرب فسندخلها أسودًا تدوس كلّ شيءٍ في طريقها كان كلامه جميلاً لكنّني لم أحسّه صادِقًا، إنّه عذبٌ كوردةٍ بلا رائحة. وحينَ فُتح المجال للأسئلة، رفعتُ يدي، كان عليّ أنْ أقتنص تلك اللّحظة، فوجود قائد وحدة لا يتوافر لنا كلّ يومٍ، وخاصّة أنّه أعلى رتبة من قائد السّريّة،

قلتُ له «أريدُ أنْ أعودَ إلى كتيبتي الأصليّة الّتي تخدم على الحدود ، أنا من إبدر وهي قرية قريبةٌ من أم قيس ، وسيكون بإمكاني أنْ أظلّ قريبًا كذلك من أهل بيتي» . لكنّه رفض قائلاً : «بقاؤك هنا أفضل من عودتك إلى الحدود ، هنا ستكون بعيدًا عن الحرب» ، فصحت : «ولكنّني لا أريدُ أنْ أكون بعيدًا عن الحرب ، أنا أريد أنْ أكونَ أوّل من يُقاتِل فيها» . فصرخ بوجهي : «اسكتْ أيّها العسكريّ ، ومنذ متى يُسمَح لك بمناقشة الأوامر العسكريّة ، أنا آمركَ أنْ تظلّ هنا ، هل هذا يحتاج إلى شرح؟!» . لم أسكتْ ، وقفتُ وأنا أهدر : «وهل تطوّعي للدّفاع عن بلدي يُلغَى بأمرِ عسكريّ ، أنا أقول لك اجعلني بوز مِدفع ، ضَعْني يا أخي في الخطوطِ الأماميّة للقِتال ، وأنتَ تقول لي أوامر عسكريّة!!» . لم يتمالك قائد الوحدة نفسه ، فأمر بإخراجي ، وبالفعل لم تمرّ إلاّ لحظات لم أتمكّن خلالها من الاستِمتاع بمرأى ثلاثة من زملائي وهم يهجمون عليّ ، ويحملونني بين أيديهم ثُمّ يُلقون بي خارجًا في لمح البصر . كنتُ لا أزالُ أسمع هدير صوته من وراء باب القاعة ، وقد راح عددٌ آخر من زملائي يرجونني أنْ أسكت وأنْ أجعل الأمور تمرّ على خير ، نفضتُ يدي من أيديهم وأنا أتوعّد ، وعدتُ إلى خيمتي كان المُخبر لا يزال قابِعًا فيها ، وكان أوار شعلة الغضب يظهر على انتفاخ منخريّ ولُهاثي الحارّ ، هممتُ أنْ أبطشَ به ، وأفرّغ غضبي فيه ، ولكنّني تراجعتُ ، لمتُ نفسي : «مسكين هذا المُخبر ، هل سيظلّ موضع تفريغ هياجي كلّما غضبت»

كنتُ لا أزال أنظر من باب الخيمة إلى باب القاعة ، أنتظر خروج قائد الوحدة لأنفّذ ما عزمتُ عليه . أعرفُ أنّني مُضطرب وجدانيًا ، هذا ليسَ امتِيازًا ، نصف البشر مثلي ، أنا أمتاز عنهم ربّما بقلّة الخيارات

الّتي أمتلكها ، لكنّ الّذي يقتلني هو هذا الرّفض المتكرّر من كلّ قائدٍ أطلبُ منه شيئًا ، وكأنّهم تواصَوا على أنْ يضعوني أمام غضبي ، وأمامَ خياراتي المُستحيلة ، إنّهم يعيشون انتفاشاتهم وتضخّم أناهم على إيقاع رفضهم المتواصل لكلّ ما يُطلَب منهم ، إنّ (لا) الّتي ينفثها أحدهم في وجه عسكريّ بسيطٍ مثلي تُشعره بالسّلطة المُطلَقة ، إنّها تدغدغ غريزة الانتِفاخ البشريّ الّذي يسعَى إلى السّيطرة ولو كانتْ كاذبة من خلال القوّة والبطش الكامنَين فيهم . ولْيكنْ ، لن تمرّ (لاؤهم) بجانبي مرور الكِرام ، ولن تقوى على إيقافي .

كانت السّاعة تُشير إلى الثّانية ظُهرًا حينَ غادر قائد الوحدة سريّتنا ، وكانت هذه السّاعة بالنّسبة لي ساعة الصّفر ، لقد بدأ العمل الجادّ . العساكر والضّبّاط والقائد ملتهون بإنزال اللّقم الحارّة إلى أجوافهم ، أنا أعرفهم في هذه اللّحظات ؛ إنّهم ينسَون أنفسهم ، يأكلون كأنّهم تاهوا في غابةٍ لأسبوع ، ثُمّ وجدوا أنفسهم فجأةً أمام مفركة بطاطا ، أو مقلوبة زهرة ، كان الهدوء يسود كلّ شيءٍ في السّريّة ، معظم الفصائل والغرف والأمكنة خالية كأنّها مهجورة وماتَ أهلُها من زمنٍ بعيد ، وحدها غرفة الطّعام تضجّ بالآكلين الّذين يقبعون فيها كذئابٍ جائعة ، تهرّ هريرًا خافِتًا وهي تزدرد اللّقمة وراء اللّقمة . توجّهتُ إلى غرفة اللاّسلكي ، وقُمتُ بقطع سلك التّلفون الواصل بين قيادة السّريّة وقيادة الوحدة ، كانتْ متعتي وأنا أقطعه لا تُوصَف ، كأنّ قِطعة سُكّرٍ من يد خطيبتي قد ذابتْ في حلقي! ثُمّ قمتُ بفصل سلك هوائيّ جهاز اللاّسلكيّ حتّى لا تستطيع السّريّة الاتّصال بالوحدة . أصبحت سريّتنا مثل مكعّب من الحجر لا أحد يعرفُ مكانه ، ولا حتّى هو . بدا هذا الانفِصال كأنّني أعدتُ سريّتنا إلى قرون النّشأة الأولى ؛ مجموعة

من البشر يعيشون في كهوف ليس بينهم وبين أيّ مكان آخَر في العالَم صِلة ، ولو كان هذا المكان يبعد بضعة أمتار . شعرتُ بلذَّة غريبة ، إنّها تُشبه لحظةَ القضاء على وهم ظلّ ينهشُ عافية القلب . أو لحظةَ تحقيق حلم ظلّ حبيسًا في الخيال لعشرة قرون ثُمّ انطلق فجأةً من حبسه وصارَ واقِعًا . لوّحتُ بجذعي يمينًا وشمالاً كمن يرقص على إيقاع ما ، وخرجت . أعرفُ مفتاح الشاحنة الكبيرة (الكونتينتال) ، سرقتُه للمرّة الثّانية ، لكنْ هذه المرّة بخوفٍ أقلّ ، ولا مبالاةٍ أكبر ، قفزتُ إلى داخلها ، وفي لحظاتٍ كانتْ تتهادَى بي ، خارجةً من معسكرٍ جنودُه لم يشبعوا قطّ .

سألتْني (الكونتينتال) هذه المرّة : «إلى أين؟» . ضحكتُ وأنا أتذكّر ذلك الحديث : «دَعوها فإنّها مأمورة» . ضحكتْ هي بدورها ، وسارتْ كأنّها تعرف طريقها . أحيانًا يُمكن أنْ تقرّر مصيرك بأكمله في لحظة ، لحظةٍ تأتي فجأة ، المصائر الّتي تُقرّر في مثل هذه الحالات هي مصائر عظيمة ، أسوأها تلك الّتي تجلسُ أسبوعًا كاملاً بكلّ ساعاته ودقائقه وأنتَ تخطّط ، هذا النوع من المصائر يأتي باهتًا ، ويبوخ مثل قفزة جندبٍ أخيرة في بريّة موحِشة . سارت (الكونتينتال) في الطّريق المُتّجهة غربًا ، أخذتُ من جيبي شريطًا لسميح شقير لم يكنْ معروفًا آنذاك كثيرًا ، لو كان يدري أنّني أوّل من اكتشفْتُه في الأردنّ ، لربّما غنّى لي أغنيةً خاصّةً بي تُمجّد هذا الجنون الّذي نُتقنه معًا

مررتُ بالشّاحنة في الطّريق الفرعيّة الموصلة إلى قريتنا ، هممتُ أنْ أمرّ بها لأسلّم على أمّي ، لكنّ الوقتَ لم يكنْ في صالحي ، وخفتُ أنْ تعرفَ ما أقومُ به ، فكّرتُ : لن تُصدّقني إذا قلتُ لها إنّ هذه السّيّارة هي سيّارة الأرزاق وأنا أقومُ بجولةٍ لأجمع الطّعام من أجل الأفواه

الجائعة ، والمِعَد الخاوية ، ستُنكِر عليّ ذلك ، وسأنهار أمام صِدقِ عينَيها وأعترفُ بالحقيقة . نظرتُ إلى يساري ، كانت الطَّريق المُؤدّية إلى بيتِ أنسبائي مُغرية وتدعوني إلى سلوكها ، قلتُ في نفسي : فرصةٌ ممتازة لأزور خطيبتي بهذه السيّارة الكبيرة ؛ إنّها لن ترى عاشِقًا يزورها بسيّارة أكبر منها ، لكنّني خِفتُ صِدق العيون من جديد ، وسمعتُ الشّاحنة تقول : «قد تصمد في المعركة أمام عدوّك عشرين عامًا ، لكنّك لن تستطيع أنْ تصمدَ أمام عيونِ مَنْ تحبّ عشرينَ ثانيةً» . ربّتُّ على مقودها وأنا أقول ضاحِكًا بصوتٍ عالٍ : «صدقتِ . . . صدقتِ!!»

وصلتُ قُبيل المغرب إلى كتيبتي الأولى في أمّ قيس ، كان البرد يُغطّي شوارعها ، والشّمس تتوارى خلفَ غيوم بيضاء كثيفة وهي تلفظُ آخر أنفاسها ، ركنتُ الشّاحنة على المدخل ، لم أستأذنْ الحارس على الباب ، كان يعرفني ، فاختصر على نفسه غباء السّؤال ، دخلتُ مباشرةً على قائد الكتيبة ، كان يجلس إلى مكتبه يتسامر مع بعضِ الضّبّاط وقد فاحتْ رائحة الكستناء قبل دخولي وهي تتفرقع فوق الموقدة ، لم يتفاجأ لمنظري ، ولا حتّى الضّباط الآخرون ، كان يبدو أنّني أصبحتُ معروفًا لديهم بما أقوم به ، قلتُ له بلا مُقدّمات : «أريدُ أنْ أعودَ إلى هذه الكتيبة ، إنّها كتيبتي الأصليّة ، وأنا خدمتُ فيها كثيرًا ، ولم تُسجّلْ عليّ فيها أيّة ملاحَظات» . فهقه القائد حينَ سمع الجُملةَ الأخيرة ، صَكّ على أسنانه بقهر ، وأراد أنْ يقول كلّ ما في نفسه ، لكنّه ضغطَ على الكلمات بكلّ ما يُمكنه حتّى أكل بعضَها وأخرج اثنتَين تسرّبتا رغمًا عنه ، وهما أقلّ بكثيرٍ مِمّا كان ينوي قوله لو لم يضغط على أسنانه بتلك الطّريقة الكريهة . قال وهو يخبط بباطن يده صفحة مكتبه «لا نريد زعران» . «لقد هربتُ من وحدة حرس الحدود» توقّفتُ

قليلاً قبل أنْ يدور بخاطري أنها كلّها حدود ، وإنْ اختلفت الوجوه ؛ الحدود الشّماليّة والحدود الغربيّة ، أكملت ببراءة طفل : «وأنا لا أريدُ العودةَ إلى هناك» . كانت جملتي الأخيرة يتيمة . قَيّدوني كمجرم خطير ، تساءلتُ وهم يضعون (الكلبشات) في يديّ عن الجُرم الّذي ارتكبْتُه ، حاولتُ أنْ أستعيد الأسابيع الأخيرة من عملي في العسكريّة لأعثر على شيءٍ واحدٍ يُسوّغ لهم تقييدي بهذه الطّريقة ففشلت ، قلتُ له ، وأنا أضحك : «ستُضطرّ لإعادتي إلى هذه الكتيبة ، وستأمرني بأنْ أقف على الحدود مع اليهود ، أنا أعرفُ ذلك تمامًا ، ومتأكّدٌ منه» قهقه : «هذا إذا خرجتَ من السّجن» .

حُوّلتُ في اللّيلة نفسِها إلى شعبة الاستخبارت التّابعة للمنطقة ، لقد كانتْ ذات الشّعبة الّتي حُوّلتُ إليها أوّل مرّة ، بل رُميتُ في ذات الغرفة الباردة الّتي رُميتُ فيها أنا وزميلي بعد حادثة المِدفع كان اللّيل قد هبطَ في الخارج ، والغرفة الباردة لا تعترف باللّيل ولا بالنّهار ، إنّها مُظلِمة وباردة دائمًا . هل كان حظّي أنْ ألقى فيها شتاءً هو السّبب ، أم أنّها باردةٌ هذه البرودة الجارحة حتّى في الصّيف؟! لا أدري . لم يتكلّم معي أحدٌ في تلك اللّيلة ، نمتُ من شدّة الإرهاق بسرعةٍ على بلاط الغرفة ، ولم أستيقظ إلاّ على الفجر ، صلّيتُ دون أنْ أتذكّر اتّجاه القبلة ، ودون أنْ أتوضّأ . وبعد أنْ أتوني بالفطور ، قال لي أحدهم : «جَهّزْ حالك ، ستُعرَض على المُحقّق بعدَ قليل» . لمعتْ عيناي ولم أتكلّم .

في السّابعة أو الثّامنة صباحًا لا أدري ، أدخلوني على المُحقّق ، عرفتُه من وجهه الكالح ، إنّ التّاريخ يُعيد نفسه على ما يبدو ، لم يتمالك نفسه حينَ رآني ، قام من خلفِ مكتبه وانهالَ عليّ بالضّرب ،

والشّتائم القبيحة ، كانت شتائمه بذيئة جداً ، لم أُحرّكْ ساكِنًا ، لا أدري لماذا اختفتْ ردّات فِعلي كلّها ، تلقّيتُ الوجبة الأولى والثّانية وحتّى الثّالثة من وجبات الضرب حتّى هدأ ، كان غضبه قد سكن بعد أنْ تعبَ من ضربي . لم أقلْ شيئًا ، واكتفيتُ بالنّظر في وجوه الحُرّاس الّذين كان يقف اثنان منهم على جانِبَي المكتب ، واثنان آخران عند الباب ، كأنّني كنتُ أستغيثُ بهم أنْ يتدخّلوا ليُخفّفوا من وَقع الضّربات المُوجِعة التي أكلُها ؛ لكنّهم لم يُحرّكوا ساكِنًا . قال لي وهو يلهث بعد أنْ فرّغ كلّ ما جوفه من حنق : «الآن تأكّدَ لي انتماؤك إلى جهاتٍ خارجيّة ، والله لن تفلتَ منّي هذه المرّة ، وسأجعل منكَ عبرةً لمن لا يعتبر» . طلبتُ منه بعضَ الماء فأنا منذ أنْ أكلتُ في الصّباح لم أشربْ جرعةً واحدةً ، استغرب طلبي ، لكنّني أكّدتُ له وأنا أمسحُ بعضَ الدّم الّذي سال على وجهي : «أنا عطشان» . جاءني أحدُ العساكر بكوز بلاستيكيّ مليءٍ ، شربتُ بعضَ الجرعات الصّغيرة منه ، ثُمّ سكبتُ بقيّته على رأسي ، كنتُ أريدُ له ألاّ ينفجر!!

(١٣)
خيالٌ جامحٌ

مللتُ من الأسئلة المُتكرّرة في كلّ تحقيق : «لأيّ منظّمة إرهابيّة تنتمي؟!» كنتُ أتساءل فيما إذا كان كلّ ما يصدر عن أفعال البشر يصدر دائمًا بسبب انتمائهم لجهةٍ ما . ألا يُمكن أنْ يقوموا بما يرغبون القِيام به دون أنْ يكونوا مدفوعين من جهةٍ خارجيّة؟! لماذا على كلّ مَنْ يفعل شيئًا أنْ يكون عبدًا لِمَنْ يُملي عليه هذا الفعل!! ألا يستطيعُ أنْ يكون حُرًا ؛ فعلَ لأنّه أراد ، وأقدمَ على الشّيء لأنّه شاء ؛ ما الغريبُ في ذلك!!

حُرِمْتُ من النّوم . أسبوعًا كامِلاً لم أنم . كاد يُصيبني الجنون ، افعلوا بي ما شئتم أيّها الزّملاء الرّائعون ، اشبحوني ، علّقوني من رِجلَيّ كذبيحة ، عرّضوا جسدي العاري لضربات المطر الّتي لا ترحم ، صادروا طعامي وشرابي ، ولكن اسمحوا لي أن أنام ولو ساعةً من نهار . الحمقى لم يستجيبوا لطلبي هذا مع أنّني رأيتُه مشروعًا وبسيطًا!! استغربتُ بالفعل أنْ يكون جوعي إلى النّوم أشدّ بكثيرٍ من جوعي إلى الطّعام ، ما سِرّ هذا النّوم الّذي يجتاحني مثل الغرغرينا ؛ ويُعشّش داخل عقلي كسربٍ مُحتشدٍ من النّمل ، تساءلتُ إنْ كان أحدٌ من قبلي استطاع أنْ يُفلِتَ من سُلطان النّوم ، ويعتبره شيئًا عابرًا يُمكن التّخلّي عنه ، مثله مثل الذّهاب إلى الحمّام . أو بَصْقِ علكةٍ على قارعة الطّريق . لكنّني لم أتحصّل على إجابةٍ مُقنِعة . ركل العسكريّ رأسي

المُلقَى على البلاط برجله ، بعد أن رميتُ نفسي عليه بعد جلسة تحقيق وضرب استمرّتْ لعشر ساعات . فصحوتُ منهوشًا ، يتهارَش في داخلي قطيعٌ من كلاب النُّعاس ، رجوتُه أنْ يسمح لي بأنْ أغفو لمدّة خمس دقائق ، لكنّه رجاني ألاّ أفعل . بكيتُ أمامه فلمعتْ عيناه بدموع حاول أنْ يُخفيها ، ونشق : «لا أستطيع» . تركتُه يبكي ، ورحّبتُ بالنّوم يَجري في جسدي المُنهَك رغمًا عنّي وعنه ، جاءَ بدلو من الماء المُثلَّج وسكبه عليَّ بلا رَحمة ، فارتجفتُ مثل سمكةٍ ألقاها مَدّ البحر إلى الرّمل ، راحت يداي ورجلاي تهتزّان في حركةٍ هستيريّة . رجَوته أنْ يمضي ويتركني وحدي . خرجَ . جاءَ اثنان من بعده وحملاني كخروفٍ مذبوح وسارا بي إلى غرفةِ التّحقيق . كنتُ بين الصّحو والموت ، سمعتُ طرفَ السّؤال المكرور : «مَنْ دَفَعَك إلى . . .» لكنّني لم أسمع بقيّة السّؤال ؛ كنتُ قد فقدتُ الوعي . فُقدان الوعي يُشبه أنْ تكونَ طائرًا على ظهر غمامةٍ ثُمّ تسمح لنفسكِ بأنْ تهوي من هناك إلى الأرض . يُشبه سقوط ثمرةٍ ناضجةٍ تمامًا من غُصن شجرةٍ عملاقة . لم أشعر بخبطات البُسطار الّتي ترفشني في بطني ، أعادوني من جديدٍ إلى الزنزانة ، هذه المرّة سمحوا لي بالنّوم ساعتَين . في الثّالثة فجرًا أيقظوني بدلوٍ جديدٍ من الماء المُثلّج . لم يكنْ شيءٌ فِيَّ يتحرّك باستثناء عينَيّ اللّتَين كانتا تحاولان استيعاب المشهد . لم أستوعبْ شيئًا ، ظننتُ أنّني في الطّبقة السّابعة من الجحيم ؛ جحيم دانتي ، كان زبانية العذاب يُمسكون بالكلاليب ويغرسونها في لحمي المُتيبّس ، كان لحمي قاسيًا ، فلم يستطيعوا أنْ يغرسوا تلك الكلاليب في ذلك الجسد بسهولة ، المساكين عانَوا كثيرًا قبل أنْ تُحكِم الخطاطيف نشوبها فيما تبقّى من لحمي ، شعرتُ بالشّفقة تُجاههم وصوتُ لُهاثهم يملأ

مناخرهم مثل خيول عجوزة . جرّوني ككلبٍ نافقٍ هذه المرّة ، وأعادوني إلى غرفة التّحقيق ، كنتُ أنتظر السّؤال نفسه ، ولذلك ما إنْ لمحتُ بوريه المُحقّق تستقرّ فوق رأسه مثل رايةً حمراء على رأس ثورٍ في حلبة مُصارعة حتّى صرختُ مُجيبًا عن سؤاله قبل أنْ ينطق به : «إيران» رفعتُ في وجهه عينًا نصفَ مُغمَضة ، كانت الأخرى مُغلَقة تمامًا بسبب الورم ، رأيتُ ابتسامته الصّفراء من خلال ضبابٍ كثيفٍ راح يتشكّل أمام عينَي . وجدتُ في الاعتراف المُباغت راحةً ومُتعة ، هتفتُ في سرّي : «هل هذا ما تريده أيّها الوغد لكي تُنهي هذه المأساة؟! الضّرّاطون يُحبّون مثل هذا الخراء ؛ حسنًا . فليكنْ . . . لا بأس ببعض الهُراء ، بعضُ الكلام يُريح . . .» تابعتُ كلمتي الأولى : «وروسيا ، والثّورة البلشفيّة ، ألمانيا بقيادة هتلر ، عملاء الحرب العالميّة الأولى ، ونُبلاء الطّابور الخامس ، والخُلفاء ، ومراسلات الحسين مكماهون ، وجدّتي الّتي ماتت قبل أنْ أراها . . . .» . كان واضحًا أنّني أهذي ، وكان هُناك خلفي مَنْ يُسجّل هذه الاعترافات الثّمينة باهتمام واضح!!

لم أدرِ كم مرّ من الأيّام وأنا غائبٌ عن الوعي ، لكنّها ثلاثة أيّام على الأرجح ، لم يقلْ لي أحدٌ ذلك ، كان هذا تقديري الخاصّ ، للأيّام تآلفٌ مع عقارب السّاعة الّتي تدور تكّاتُها في عقلي . في اليوم السّابع ، كنتُ أبدو بصحّة جيّدة ، اختفت الأورام الكثيرة الّتي ملأتْ وجهي ، واللّون الأزرق الّذي تحوّل إلى البنفسجيّ اختفى هو الآخَر ، قال لي المُحقّق : «لم يَعُدْ لي كلامٌ معك ، ستُحاكَم أمام قائد الوحدة» . وبالفعل نُقلتُ إلى الوحدة ، ونمتُ فيها تلك اللّيلة ، وفي الصّباح عُقِدتْ لي محاكمة جديدة في هذه السّلسلة

لم تكنْ محاكمة بالمعنى الحرفيّ ، كانتْ جلسة تلاوة القرار .

«أنتَ مُتّهم بالفرار من الخدمة ومخالفة الأوامر العسكريّة ، أحكم عليكَ وجاهةً بالسّجن لمدّة شهرَين ، والطّرد من الخِدمة . ويُنفَّذ الحُكم على الفور حُكمًا غير قابلٍ للاستِئناف» .

رُحّلتُ إلى سجن وحدة حرس الحدود العسكريّ ، وقضيتُ شهرًا كاملاً ، قبل أنْ يُعلن جورج بوش الأب انتهاء المهمّات القِتاليّة وتحرير الكويت ، لا أدري إن كان هذا الـ (بوش) يعرفُ أنّني أنتظر هذا الإعلان بفارغ الصّبر ، إنّ رؤساء أمريكا قادِرون في الوطن العربيّ على تغيير الأوضاع بمجرّد التّفوّه بتصريح لا يزيد عن ثلاث دقائق ، إنّ تصريحًا واحِدًا من فخامتهم يُمكنه أن يغيّر خارطة بلدٍ بأكمله ، والسّجون جزءٌ من خارطةٍ أيّ بلدٍ عربيّ ، بل ربّما هي أهمّ جزءٍ فيه ، وأنا بدوري جزءٌ من هذه السّجون ، «سيتغيّر شيءٌ ما» ؛ قلتُ لنفسي ، وأردفتُ وأنا أحكّ ذقني : «بالتّأكيد»

إذًا وضعتْ حرب الخليج الثّانية أوزارها ، أُخرِجتُ من السّجن لسببٍ لا أعرفه ، وأعادوني إلى كتيبتي ، فرحتُ . كنتُ أعتقد أنّ شهرًا سيكونُ كافِيًا للعقوبة ، ولا أدري كيف وقر في اعتقادي أنّني لن أُسجَن الشّهر الثّاني ، وأنّ تسريحي من الخِدمة سيكون هو الحلّ الأمثل لكافّة الأطراف ، ولكنّ قائد الكتيبة أقسمَ أنّني سأقضي بقيّة محكوميّتي عنده ، وأنّني حال انتهائي من هذا الشّهر الثّاني ، سيأمر بمحاكمتي من جديد ، وسَيسجنني شهرَين إضافِيّين قبل أنْ يُطلِق سراحي . لم أكنْ مؤمنًا أنّه ستُعاد محاكمتي ، ولكنّني كنتُ أفكّر في كيفيّة قضاء الشّهر الثّاني من فترة حُكمي ، خطّطتُ لقضاء الوقت المُملّ بالقراءة ، رتّبتُ في ذهني الكتب الّتي سأطلب من أهلي أنْ يوافوني بها . لكنّ كتابًا واحِدًا لم يدخل إليّ ، عكفتُ على تدريب نفسي على الحفظ .

حفظتُ بضعة أجزاء من القرآن، وبعض الأحاديث الّتي كنتُ أستلّها من كتاب التّفسير الوحيد الّذي سُمِحَ بإدخاله لي. قبل أنْ ينتهي الشّهر كان قد صدر أمرٌ بنقل قائد الكتيبة إلى مكانٍ آخر، فلم يُتَحْ له أنْ يُحاكمني من جديد. لكنّني كنتُ أنتظر أنْ أعودَ إلى الشّارع، الشّارع الّذي قضيتُ فيه طفولتي الأولى. مَنْ قال لك إنّ الغرائب تحدث دون تخطيط، فهذا بالضّبط ما حدث معي. لم أُطرَد من الجيش بالرّغم من صدور حُكم عليّ بذلك، وصرتُ أشكّ في أنّني لم أسمع القاضي جيّدًا لحظةَ تلاوته القرار، هل أسمع أشياء لا تُقال!!

استلم قِيادة الوحدة أحد الضُّبّاط الّذين تربط قريتي به وشائج رَحِم، من قرية الجود والكرم، طلبتُ مقابلته للتّوّ، وقفتُ في حضرته بلباسٍ مدنيّ، أشرتُ إلى ثيابي: «تليقُ بي الثّياب العسكريّة سيّدي». نظر إليّ كأنّني شحّادٌ يستحقّ الشّفقة، كان قلبه قلبَ عصفور، بدا التّأثّر على وجهه وهو يرمقني بطرف عينَيه لوهلة، ثُمّ يخفضهما في أوراقٍ أمامه على سطح المكتب. تابعتُ مستغلاً حدائق الرّحمة الّتي شممتُ عِطرَها يزكم أنفي: «إنّني نادِمٌ بالفِعل، سَمّه طيشًا، أو حماقةً غير محسوبة النّتائج، أنا الآن إنسانٌ آخَر، وآمُل أنْ تعفو عنّي». ظلّ صامتًا كعمودٍ من رُخام، لكنّ هذا العمود بدا مُهتزًا، حاولتُ أنْ أزرع وردةً في قاعدته، أنْ أسقيه بماء الاستعطاف لعلّ صلابته تلين، هل قال لكم أحدٌ إنّ الخُضرة قد تكسو عمود الرّخام هذا بلا سابِقة فصدّقوه: «أنا رجلٌ يبحثُ عن وسيلةٍ ليخدم بها تراب وطنه، إذا لم يتفهّمْ مثلك ما يُمكن أنْ يفعله شابٌ متحمّسٌ مثلي؛ فَمَنْ تُراه سيفعل!!». رفع بصره هذه المرّة بوجهي: «لا أستطيع يا أحمد... ستُسجَن أسبوعًا آخر على الأقلّ قبل أنْ...». قاطعته:

«أمركَ يا سيّدي . . . لكن الطّرد . . .» . واختنقتُ بالكلمة الأخيرة . «سأحاول أنْ أتغاضَى عن مسألة طردكَ من الخِدمة ، سأحاول . . . قلتُ سأحاول ، لا تلُمْني يا أحمد . . . أنا أرى فيك إنسانًا طيّبًا ، وسأجري اتّصالاتي لكي يمنحوك فرصةً جديدة» . كدتُ أتقدّم نحوه لأقبّل رأسه ، لكنّ إشارته لبعض العساكر بإعادتي إلى الحبس كانتْ قد سبقتْني . في الطّريق إلى الأسبوع الأخير كنتُ على يقين بأنّ حياةً جديدةً قد كُتِبتْ لي . إنّه أسبوعٌ آخَر من أجل عيونك أيّها الوطن الجميل . ألا تستحقّ!!

في اليوم السّابع ، جاءتْني امرأةُ عمّي في المنام قالتْ لي : «مَن استعجل الثّمرة حُرِم» . تخيّلتُ ثمرةً فَجّة تكسر أسناني وأنا أحاول قَضْمها . رميتُها

حينَ وقفتُ أمامه بعد أسبوع ، قال بصوتٍ يَشي ببسمةٍ مسروقة : «لقد نجحنا . سأمنحك أسبوعَ إجازةً لتعودَ لنا بروح جديدة» . في هذا الأسبوع كانتْ قناديل الفرح تملأ حياتي . شيءٌ ما قال لي : آنَ لك أنْ تحظَى بخطيبتك في أحضان بيتك . أليستْ هي الأخرى وطنًا؟! وطنٌ لم يتخلَّ عنكَ لحظةً ، إنّه وطنٌ جديرٌ بالاحتِفال .

قالتْ لي أمّي قولةَ كلّ أمّ : «متى سنفرح بك يا ابني؟» . أجبتُها اليوم لو أردتِ . كانتْ تعتقد أنّ زواجي سيجعل حبّة الحُمّص الّتي تقفز في كلّ مكانٍ تهدأ قليلاً ، إنّ الزّواج أفضلُ طريقةٍ لإعادة الخلايا المتنافرة إلى وضعها الطّبيعيّ ، تُصبح الحركةُ مدروسةً ، والإقدام على الشّيء يتطلّب العَدّ إلى العشرة قبل أنْ تفعله ، أمّي تؤمن بذلك . وأبي ظلّ يراني حاملاً للبندقيّة على الجبهة ، كما نشّأني منذ طفولتي وعلى مدى سنواته الّتي قضاها معنا قبل أنْ تأخذه الغربة من أجل لقمة

العيش بعيدًا عنّا لفترات مُتقطّعة

حدّدْنا موعد الفرح . وبدأتُ أحسّ بتداخل العوالم . الفرح يتطلّب انتزاع شخصيّة من شخصيّة . تبديل نفسيّة مكان أخرى . إنّها تستحقّ أنْ أعيشَ لها ، أنْ أحظى بحبّها وتحظى بحبّي . أنْ أعمل من أجل سعادةٍ تُشبه سعادة أيّ زوجَين يبنيان عُشّهما الصّغير كان عُشّي مختلِفًا ؛ جاءَ بعد سلسلةٍ من العذابات والآلام الّتي ذُقتها خلال سنوات خدمتي العسكريّة الخمس الفائتة كان كلّ يوم في العسكريّة يُشكّل لي حكاية كانت حكايتي يُمكن أنْ تكوْن حكايةَ أيّ عسكريٍّ حُرّ . لكنّهم استغربوا أنْ تجري على هذا النّحو . يبدو أنّ تقديس الأمر العسكريّ يأتي قبل تكريم الإنسان ، وأنّ عبوديّة الانتسابِ إلى هذا السّلك تأتي قبل الحُرّيّة . لم أحاول أنْ أكون حُرًا كنتُ حُرًا بالفعل ، هذا ما كنتُه ، هذا ما أردتُ أنْ أفعل وفعلْتُه ؛ هذا أنا ؛ تصرّفتُ على سجيّتي . ربّما أفعالي لم تُعجب الكثيرين ، لكنّها بالضّرورة عفويّة غير قابلة للتّزييف ، وكانتْ مدفوعةً بنداء داخليّ ونابعةً من ضمير لم يتلوّث .

جهّزت العروس البيت . لدى النّساء خيال جامحٌ وساحرٌ في تشكيل عالمهنّ الخاصّ . تعرف كيف ترتّب العُشّ ليصبح جنّة . عَتَبةُ البيت . الأرائك . المرايا . الخزائن . الوسائد . الأغطية . الشّراشف الملوّنة . وسرير اللّذّة المُباحة . النّظرات السّابحات . واللّمسات الذّابحات . والكلمات الّتي تُشبه ريش النّعام ، الكلمات القادرة وحدها على أنْ تحوّل ألف (لا) مُستعصية إلى (نعم) ليّنة في لمح البصر .

عُدتُ بعد انتهاء الأسبوع إلى وحدتي . لم أتأخّر هذه المرّة دقيقةً واحدة . انتظمتُ في السّلك على أفضل صورةٍ يُمكن أنْ يكونَ عليها

جُنديٌّ مُنضبِطٌ غايةَ الانضباط . دخلتُ في اليوم الثّاني على القائد : «أريدُ أنْ آكُل» . هكذا قلتُ له . استغرب . كان يتوقّع أيّ عبارةٍ غير هذه . اتّهمَ سمعَه . ضيّق عينَيه . لم أُمهلْه ، أردفتُ : «أنا جائع» . ضحك ضحكةً ساخرة وقال : «وما الّذي يمنعك من أنْ تأكل ، أنتَ المسؤول عن الأرزاق ، وتستطيع أنْ تأكل في كلّ حين» . لكنّني قلتُ له من جديد ببلاهة فتًى يافع : «أريدُ أنْ أُغمّس . . . سيّدي ألا تعرف كيف يُغمّس الرّجل؟» . زادَ استغرابه ، قال بعد أنْ ضاق بي : «قُلْ ما تريد بشكلٍ واضح» . «سأتزوّج الأسبوع القادم سيّدي ، هذا هو الغماس» . ضحك : «هذا كلّ شي؟! فهمت . مبروك يا ابني» . «أريد إجازةً لمدّة أسبوعَين سيّدي . أنتَ رجلٌ وتعرف ؛ الأمر يستحقّ» ضحكَ بصوتٍ أعلى : «خُذْ أربعة أسابيع أيّها العسكريّ» . ووقّع على ورقة الإجازة وصوتُ ضحكته ما زال يتصاعد في أرجاء الغرفة

غنّتْ (إبدر) كلّها ليلةَ فرحي . رقصتْ حتّى الشّياه في الزّرائب . وغنّتْ حتّى العصافير على الأشجار . وشَدَتْ حتّى المياه في الغدران . ولمعتْ أضواء الجولان وجبل الشّيخ والغور وأمّ قيس وطبريّة وبيسان على أنغام الشُّداة . كانتْ ليلةً بهيجة . لم أجرّبْ فرحًا مثل هذا في حياتي . كنتُ أخاف من شيءٍ واحدٍ ، أنْ تكون هذه اللّيلة هي نهاية الفرح ، واستعذتُ بالله من شرّ ما بعدها ، لكنّني سرعان ما عُدت إلى الأجواء الاحتفاليّة الّتي تصدح بها حناجر المُغنّين . أمّا أمّي فلم تعرف يومًا منذ ذلك اليوم الّذي حلمتْ فيه بي قبل أنْ آتي إلى الدّنيا أكثرَ سعادةً من هذا اليوم . كانت ترى أنّ عصر الوَلْدنة قد ولّى ، وأيّام فَوْرة الشّباب قد مضتْ ، وأنّني الآن سأصبح ربّ عائلة ، وأنّ مسؤوليّاتي تُجاه عائلتي ستجعلني حكيمًا ، وقادرًا على اتّخاذ القرارات بأناةٍ

وبرويّة كان صوتُ (مهاهاتها) يصل من عند النّساء إلى أذنيّ رغم الصّخب الّذي كان المُحتفلون يصطنعونه . كانتْ (تُهاهي) بحنجرةٍ صدّاحة ، كأنّه لم يُولَد لها سِواي ، ولم تفرحْ بابنٍ قبلي!! «والله وتْزوّجتْ يا أحمد»

تركتُ المُحتفِلين خلفي . أغلقتُ الباب دونَهم . وانفردتُ بعصفورتي الجميلة . لحظات القُرب الحقيقيّ هي لحظات الحُبّ الحقيقيّ ؛ ذلك المستوى من الشّعور الّذي يُعاش ولا يُقال ؛ لحظات التّماهي ما بين الأرواح والأجساد . كان ثوبُ زفافها الأبيض ينسدل على الأرض وراءَها مثل غمامات ضَلّتْ طريقها في السّماء وهبطتْ إلى الأرض تبحثُ عن دِثار ، كانَ فُستانها يُشبه غِزلانًا بريّة ، أو وصيفاتٍ سماويّة جاءتْ لترافق الملكة ، كان يكنس بنقائه كلّ آلامي ، ويُزيل ببياضه كلّ الشّوائب السّوداء الّتي علقتْ بذاكرتي جرّاء مُحاكماتي الكثيرة . ذَهبَت الآهات الغابرة وظلّتْ الضّحكة . تملأ بسمةٌ واحدةٌ حقلاً فسيحًا بالزّهور ، وضحكةٌ واحدةٌ من القلب ، كفيلةٌ بأنْ تمسح بصِدقها بُكائيّاتِ قرنٍ بأكمله!

حانتْ منّي التِفاتةٌ إلى وجهها المملوء رِقّةً وجمالاً وحنانًا ، برقتْ في ذهني لحظاتُ انهيال الأكفّ على رأسي ، والأرجل على بطني ؛ دُختُ . دارتْ بي الأرضُ قليلاً ؛ لكنّ شفتَيها اللّتَين افترّتا في تلك اللّحظة عن بسمة خجولة أعادَتا لي توازني . هذه العَروس الرّائعة تستحقّ أنْ تعيشَ العُمرَ لأجلها ، إنّها في أبهى تجلّياتها قادرةٌ أنْ تحميك من نزقك وقد فعلَتْ ، وقادرةٌ على أنْ تنتشلك من بئر الضّياع ، وتُعيدك إلى الطّريق المُستقيمة لكي تتمكّن من مواصلة السّير

بلى يا (فاطمة) ؛ أيّتها النّقيّة العَذبة ، لقد صفتْ لكِ مودّتي .

أيّتها المُطهّرة السّاحرة لقد برئتُ بكِ من أوجاعي . أيّتها الغالية الرّضيّة لقد أرخصتُ كلّ شيءٍ لأجل عينيك . يا تُفّاحة القلب ، ويا ريحانة الجَوى لقد شُفيت من مرض الوحدة ، والجوع ، والتّيه . . . ها أنتِ تلُمّين شتاتي ، وتُعيدين إليّ نفسي التّائهة . . . كلّ صفعاتهم الّتي حفرتْ أخاديد في روحي نسيتُها لأجل هذه اللّحظة ، كلّ آلامي الّتي كانتْ توقظني من النّوم ولّتْ حينَ أصبحتِ لي وأصبحتُ لكِ . يا (فاطمة) إنّ العهد وثيق ، وإنّ الأمانة ثقيلة ، وإنّني أعاهدكِ أنْ أحفظَ لكِ حقّ الله فيهما . . . وها أنا بين يديك ؛ طفلاً وجد الضّالّة ، وقلبًا عرفَ الهدأة ، ونفسًا تلمّست الدّرب المُوصلة .

يا (فاطمة) لو كانتْ لي أعمارٌ كثيرةٌ لكانتْ كلّها هيّنةً في سبيل أنْ تعيشيها فرحًا مُضاعَفًا . ما قيمةُ الحياةِ إنْ صار أحدنا للآخر ثُمّ هانَ عليه أنْ يرى نِصفه بائسًا ووحيدًا؟! لقد خُلِقْنا لنا ، وما جَمَعه الله لن يُفرّقه النّاس . . . ودخلت .

(١٤)
مَع المَوتى عليكَ أنْ تتعلَم الأدب

كان شهرًا من الغرق في العسل . عشتُ أيّامًا سعيدةً كما يقولون . كلّ شيءٍ كان يضحك حتّى أبواب البيت كلّما مررتُ بجانبها الياسمينةَ الّتي في الحاكورة . البرواز المُعلّق على جدار الغرفة . واللّيل . والنّهار . والنّجوم . والكواكب . وأشجار الحقول . وحجارة الشّوارع وأجنحة العصافير . والسّماء الكُحليّة . والشّهب المُضيئة . ونسمات الهواء . وأنا كُنّا جميعًا غارقين في الضّحك . وكُنّا لا نُريد أنْ نفعل شيئًا آخر!

بعد انقضاء الشّهر عُدتُ إلى الكتيبة . استدعاني القائد . كان يريد أنْ يُسدي إليّ خدمة ، قال : «أنتَ مُراقَب ، وعليكَ أنْ تكون حَذِرًا في تصرّفاتك . الدّولة تملك ذاكرةً من حديد ، إنّها لم تنسَ ما فعلْت ، وملفّك عندها جاهزٌ على الطّاولة . أنصحك ألاّ تختلطَ بزملائك كثيرًا ، فأنتَ لا تعرف مَنْ يحمل لك منهم خنجرًا مِمّن يحمل وردة . وأقلِلْ من الكلام ، فإنّ الكلمات لا تموت حتّى ولو لم تسمعها أذنٌ بشريّة في لحظتها ، إنّ الأجهزة الحديثة قادرةٌ على التِقاطها ولو بعدَ عام ، وإعادتها إلى هنا ولو كانتْ قد وصلت إلى المرّيخ . الألغاز لها مئة شيفرة لتفكّها . اكتفِ بالسّلام . والسّلام» كان يتحدّث بثقة وهدوءٍ حدّثُه عليهما . ووجدْتُني أنسحبُ وحدي دون أنْ تكون وصايا القائد قد أثرتْ بي بالدّرجة الأولى . كنتُ أريد أنْ أعيشَ لبيتي ولأهلي

فقط . هذا ما كنتُ أفكّر فيه آنئذ . غدًا سيأتي ابني البِكر وسيكون محتاجًا إليّ أكثر من حاجة وطني إليّ ؛ بهذا حدّثتُ نفسي .

انقطعتُ عن النّاس . كانتْ عُزلةً اختياريّة . أتاحتْ لي أنْ أسمنَ قليلاً . وأنْ آكل في اليوم خمس مرّات ، وأُدخّن . العزلة اتّضاح الرّؤى . البُعد عن النّاس يُضيّق كثيرًا من المفاهيم الباردة كالنّفاق ، والكذب ، والتّصنّع ، وإلقاء التّحيّة بلا معنى ، والقول بعد كلّ سؤال عن صحّتكَ بصورةٍ آليّة : أنا بخير . العزلة تُوقفك في مواجهة نفسك . العزلة تُزيل القُشور عن أناك وتجعلك عاريًا أمامك . تعلّمتُ كذلك أنْ أُصبح عاشقًا استثنائيًا . وعرفتُ أنّ الورد الّذي يُقطَف من جوريّة الدّار أجمل بكثيرٍ من ذلك الّذي يُباع على الإشارات . وكنتُ في مساء كلّ خميس أفعل ذلك من أجل قلبي .

كانتْ أمّي قد عاودتْها الأحلام . ذات مساءٍ قالتْ لي : «إنّها حلمتْ بي حُلمًا وسيتحقّق ، وإنّها لن تَقُصّه إلاّ في حضرة أبي» كان أبي كثير الغياب ، ولهذا تأجّل الحلم . كانتْ فاطِمة كثيرًا ما تسأل أمّي عن هذا الحلم ، لديها فضولٌ كبير في أنْ تعرف ، هي أيضًا من النوّع الّذي يبني حياته كلّها ربّما على حُلم عابرٍ ، كانتْ أمّي فنّانةً في القَصّ . لكنّها هذه المرّة امتنعتْ عن أنْ تُفصح عنه ، ولا أنْ تلْمّح له بشيء ، أكثر ما كان يُعذّب فاطِمة قول أمّي إنّ هذا الحلم سيتحقّق ، وهي تُدرك أنّ أحلامَ أمّي مثل فلق الصّبح . كانتْ تريد أنْ تعرف ماذا يُمكن أنْ يحدث لو كان هذا الحلم يحمل أنباءً غير سارّة لنا ، كان فُضولها يحترق كحطب الموقدة في أعماقها ، فتسأل أمّي بمزيدٍ من الإلحاح . لكنّ محاولاتها في استدراج عمّتها ذهبتْ سُدًى ، ولم تُعِرها أمّي كبير اهتمام .

استلمتُ عملاً جديدًا في العسكريّة ، صرتُ أقودُ سيّارة إسعاف تابعة للفرقة الّتي تتبع لها وحدتي كان عملي كسائق للأرواح المُتأرجحة بين الدُّنيا والآخرة تجربةً جديدة . وثريّة جدًا . سيّارة الإسعاف تُشبه قبرًا متحركًا أحيانًا ، وأحيانًا أخرى تُشبه أملاً هاربًا ، وفي مرّات عديدة كانت تُشبه البرزخ . ومنها تعلّمتُ قيمة الحياة . بدتِ الحياة غالية ورخيصةً في آنٍ معًا كانتْ غالية لأنّ كلّ الّذين قُدتُ بهم إلى المستشفى كانتْ أجسادُهم تتشبّث بأرواحهم تشبّث كرة الصّوف بكتلة الشّوك . وكانتْ رخيصةً لأنّني شهدتُ عددًا غير قليل من قاطِنيها يدخل إلى هنا حيًا ، ويغادِرها ميّتًا ، ما أرخصَ الرّوح الّتي لم يكنْ بقاؤها في الجسد يستغرقُ زمنًا أطولَ من المسافة بين البيت والمُستَشفَى

أتاحتْ لي سيّارة الإسعاف أنْ أرى الموت . أنْ أرى خيط الحياة وهو ينسلّ تاركًا وراءه جُثّةً هامِدة . أنْ أرى العيون الّتي تُلاحق طيوفها الرّاحلة إلى الأعالي . أنْ أشاهِد الظلال الزّرقاء تنسحب على الوجوه السّاكنة . أنْ أسمع الحشرجات الأخيرة ، كان هذا أكثر ما يُعذّبني ؛ صوتُ الحشرجات الّتي ينتزعها ملك الموت من الجسد الّذي يُقاوم حتّى آخر لحظة ، كانت تُشبه حشرجات الكِباش المذبوحة صبيحة عيد الأضحى

كان المُسعِفون يتعامَلون مع الموت ببلادة ، هذا أمرٌ آخَر من الأمور الّتي عَذّبَتْني ، كانوا يُغلِقون عيونَ الموتى المفتوحة بطريقةٍ آليّة ، ويُسدِلون الغطاء الأبيض على وجوههم بلا مُبالاة . أيّ قلوبٍ يملك هؤلاء الأطبّاء والمُمرّضون ، كانوا يقولون لي إنّنا نشاهد هذه المناظر في كلّ يوم ، ربّما كانتْ لدينا نفس الصّدمة الّتي لديك أوّل مرّة ، ولكنّنا

تعوّدْنا ، فأجيبهم : ولكنّني أعمل سائقًا للسّيارة منذ عام وما زالتْ لديَ ذات الصّدمة ، الصّدمة الأولى في رؤية الموت وجهًا لوجه . كنتُ أحيانًا أتشاجر معهم والجسد يُنازع ، والجسم ما زال ساخنًا قبل أنْ ترتفع حرارته وتغادر مع الرّوح المُغادِرة ، ومع ذلك كانوا يعتقدون أنّني سأتعوّد على ذلك قريبًا . ولكنّ اعتِقادهم كان فُقاعة صابون سرعان ما ذابت . الموتُ ليسَ اعتِيادًا . ليسَ رقمًا يُضاف إلى تعداد الرّاحلين فُرادَى وجماعات . ولو أنّني رأيتُ الموتَ أمامي ألف مرّة لتملّكتْني منه الرّهبة كأنّها المرّة الأولى . إنّ إقامته في سيّارتي لم تُمكّني من التّعايش معه ، أو التّصالح مع وجوده شبه الدّائم هنا ، كنتُ أنظر إليه من خلال النّافذة الخلفيّة بقلب مفطور ، وأخشعُ في حضوره كراهبٍ في حضرة الإله . وأحزن كأنّني أنا الّذي مِتّ!!

إذا كانت المقابر حدائق الأرواح ، فسيارة الإسعاف الّتي كنتُ أقودها ساهمتْ بشكلٍ كبير في ملْء هذه الحدائق بالورود . بهذا خاطبتُ الجنازة وأنا أشيّعها إلى الحفرة الأخيرة . تبعتُها منذ صباح هذا اليوم ، لقد خرجت هذه الوردة من (إبدر) . تخيّلتُ أرواح البشر ورودًا يانعة ومَلَكُ الموتِ يطوف بها ثُمّ ينتقي منها أجملها . في كلّ مرةٍ تُقطَف فيه وردةٌ جديدةٌ كنتُ أتساءَل وأنا أرتجف : هل شَمّ مَلَكُ الموتِ شذى وردتي؟!!

ازدادتْ عُزلتي بمرافقة الصّاعدين معي في الرّحلة الأبديّة إلى مثواهم الأخير . كنْت أشعر أنّني أقودُ بهم سيّارتي إلى النّهر الّذي تتجمّع فيه الأرواح ، وهناك أفتح لها باب سيّارتي ، فتخرج تلك الأرواح سابحةً في الفضاء إلى أنْ تهتدي إلى قطرتها في النّهر فتندمج بها وتذوب ، ثُمّ تُواصل رحلتها مع تدفّق النّهر إلى عالَمها الخفيّ

صارتْ مرافقة الأرواح ، ومجالسة الموتى أحبَّ إلى قلبي من مجالسة الأحياء . نِيّتي في أنْ أقطع كثيرًا من حبال الوصل بيني وبين النّاس ازدادتْ مع عملي الغريب هذا لا أدري لماذا قرّر قائد الوحدة أنْ يضعني في هذه الوظيفة القاسِية!! نويتُ أنْ أشتمه في سرّي ، ولكنّني تذكّرتُ أنّ روحًا تجلسُ معي في السّيّارة ، فتراجعتُ في حضرتها . مَع المَوتى عليكَ أنْ تتعلّم الأدب .

ظلّتْ سيّارة الإسعاف الّتي أقودها تردمُ الهُوّة بين العالَمين ، وتُجسّر المسافة بين الحياة والموت ، وتُوصِل الرّاغبين بالرّحيل إلى الضّفّة الأخرى . وكنتُ أرى دموعًا تملأ الوجوه ، وأسمعُ صرخاتٍ تشقّ سكون الفضاء حُزنًا على الذّاهبين ، ونظراتٍ ملؤها الرّيبة تتطلّع من خلف الحُزن إليّ ؛ كأنّني أنا الّذي أَمَتُّهم ، أو كأنّني أنا الّذي طلبَ منهم أنْ يُغادِروا هذا العالَم . لم يفهم أحدٌ أنّني لم أُجبِر أحدًا على الصّعود إلى سيّارتي ، ولم أرغم أحدًا على مرافقتي إلى نهر الأبديّة ؛ لقد كانوا يصعدون بملءِ إرادتهم ، وكانوا ينزلون كذلك بكامل رغبتهم . بل إنّني في كلّ مرّةٍ أقودُ فيها هذه السّيّارة وأستقبلُ ضيفًا جديدًا يَفِدُ عليّ كنتُ أُكرِم وِفادته ، وأقوم بواجب ضِيافته ، وأُسمِعه القرآن من صوت المُسجّلة في السّيارة لعلّ روحه المُتذبذبة في جسده تسكن قبل أنْ تُغادِر . وتطرب في النّزع الأخير لكلمات السّماء قبل أنْ ترحل إليها بل إنّني امتنعتُ عن الكلام البذيءِ بحضرتهم ، ولم أُدخّن بوجودهم ، مع أنّ وجودهم كان يدفعني إلى التّدخين دفعًا . لكنْ من المَعيب ألاّ أحترم الضّيف وهو في حضرتي ؛ ثُمّ . . . تنظرون إليّ هذه النّظرات المتقعة باللّوم كأنّني أنا الّذي قتلتُهم ، أيّها الحمقى إنّهم يسمعونكم ؛ فكونوا مُؤدّبين في حضرتهم مثلي . ألا تبًّا لكم!!

(١٥)
مِقصلةُ الأحلام

كان زواجي سببًا في ازدياد عُزلتي ؛ اكتفيتُ بفاطمة عن كلّ أحدٍ . كان عُشُّنا صغيرًا لكنّه طافحٌ بالمودّة . كم يحتاج الإنسان ليعيش سعيدًا مع نصفه الآخر؟! غرفتان وقلب . قالتْ لي فاطمة «يحتاج قلبك إلى أنْ يتجدّد» . سألتُها : «لم تقولين ذلك؟» . أجابتْ : «الّذين يقودون بالموتى يُصبِحون مثلهم» . «على العكس يا فاطمة ؛ لقد عرفتُ بهم معنى الحياة وقيمتها» . «أخافُ أنْ يأخذكَ العيشُ بينهم بعيدًا عنّي» «إنّني مجرّد سائق يتوسّطون لديه كي يُريحهم» . «وهل أنتَ الّذي يُريحهم» «بالضّبط» . «كيف؟» . «يطلبون منّي أنْ أفتحَ لهم الباب» . «أيّ باب؟» . «الباب الّذي يُوصلهم بعد رحلةٍ شاقّة إلى مثواهم الأخير» . «تقصد يُدفَنون؟!» «تمامًا ؛ الدّفن بعبارةٍ أخرى هو الباب الّذي يُوصلهم إلى العالَم الآخَر ، العالَم الّذي يجدون فيه راحتهم بعدَ عناءٍ طويل ، معظم الّذين أقلّتْهم سيّارتي كانوا يجلسون في مستشفيات عسكريّة على حافّة العدم ، على الجرف الّذي يسقطون منه إلى الموت بعد أنْ يلتفّ حبل الحياة الأخير على أعناقهم ليرحل بها ، كان الآخَرون ينظرون في وجهي كلّ مرّة حين آخذُ أحدَهم في سيّارتي ، كانتْ نظراتهم تحسد زميلهم الّذي صعد معي كأنّها تقول ها هو قد ارتاح ، ها هو قد وجد مَنْ يَحِنّ عليه ويقود به إلى حيثُ لا تعب ولا مرض ولا سرطان ولا عودة ، كانت نظراتهم تقول شيئًا آخر

«حسنًا ؛ متى دورنا؟ متى سترفق بنا أيّها العسكريّ وتحملنا مثل الآخرين في سيّارة الأحلام الّتي تقودها؟!» . لم يكنْ كلامي يُعجبها كثيرًا ، كان خوفها عليّ يزداد ، تقول بصوتٍ خفيض يشي بعدم الرّاحة : «أرى أنّ طول رفقتك لهم جعلتْكَ فيلسوفًا» . فأجيب وأنا أضحك : «الموتُ ليسَ فلسفة ؛ إنّه لغزٌ» . فتردّ : «وأنتَ الّذي ستحلّ هذا اللّغزَ لمجرّد قِيادتك لسيّارةٍ تُطلق زامورًا بغيضًا؟» . فأضحك من جديد وأقول : «ومَنْ يدري؟! ربّما ، ها أنذا أحاول» .

كانت البندورة في (إبدر) رخيصة كان الفلاّحون لا يزالون يزرعونها في قريتنا ، كما أنّ بندورة الغور كانت لكثرتها يتساقط من الشّاحنات المُحمّلة بها على الأرض منها ما يكفي لأنْ يجعل عائلاتٍ بأكملها تعيش سعيدةً . وكنتُ أحبّ قلاّية البندورة بالفليفلة الخضراء ، وحين أستلم راتبي كنّا نُضيف إليها اللّحمة البلديّة . وأمّا أمّي فكانتْ تُموّننا بالرّصيع والزّيت والسّمن البلدي ، وأحيانًا الجبنة ما يكفي لأنْ نظلّ نفطر عامًا كاملاً على بركات يديها . ما أسهل الحياة حين تعيشها ببساطة!! بهذا الحبّ العفويّ ، باللامبالاة ، حينَ تجعلها تمرّ من جانِبك دون أنْ تدوسَك أو تضغط عليها لتتمدّد أو تُسرِع . دَعْها تمرّ كما تريد ، سريعةً أو بطيئةً ، طويلةً أو عريضةً ، فيك أو أمامك . . . المهمّ دعْها تمرّ بأسلوبها ، وتقبّلْ ذلك . . . أتذكّر بيتًا لا أدري مَنْ قائله ، لكنّنا أخذناه في الصّفّ الثّاني الإعدادي ، كان يقول : «اضحكْ . . .» . نسيتُه الآن بل نسيتُ القصيدة كلّها ، لكنّني ما زلتُ أتذكّر المعنى ، كان يقول : انظرْ إلى النّجوم ، إنّها تضحك كالأطفال ، كُنْ يا أخي مثل النّجوم ، واضحكْ!

كان شابًا في العشرينيّات مثلي ، عسكريًا هو الآخَر ، عمل في

العسكريّة ثماني سنوات قبل أنْ يجمعَ مبلغًا معقولاً من المال ، ليشرعَ بناء بيتٍ من (اللّبن) في قريته على أرضٍ لأبيه ، كان يقف على (السّقّالة) في الجزء الأعلى من الحائط الخارجيّ وهو يقوم (بالقِصارة) قبل أنْ ينحلّ الحبل المربوط بالسّقّالة وتتأرجح تحتَ قدمَيه ، ويفقد هو توازنه ويهوي على رأسه . ارتطم رأسُه بالصّخرة الّتي تفترشُ الأرض ، كان حظّه عاثِرًا ، انقطع شيءٌ ما من الحبال الجسديّة الّتي تحفظ عليه الحياة ، فبدأ رحلته - مثل الملايين الآخرين الّذين بدؤوا الرّحلة ذاتها - إلى العالَم الآخَر . جاءتْنا الإخباريّة ، كانتْ وحدتنا هي الأقرب إلى قريته ، فانطلقتُ أنا واثنان من المُسعفين إلى الموقع . في الطّريق ، كان سربٌ من الطّيور المُهاجِرة يُحلّق في السّماء ، كان ممتدًا يُغطّي ثلاثة أرباع السّماء الّتي أراها من خلال الزّجاج الأماميّ لسيّارة الإسعاف . نسيتُ أنّنا ذاهِبون إلى طائرٍ مُهاجِرٍ آخَر ، واستمتعتُ بالمنظر الّذي لا يحدثُ كثيرًا . ومَضَينا . بعدَ قليلٍ كان هناك قطيعٌ عريضٌ من الأغنام يعبر الشّارع ، اضطررنا أنْ نقف إلى أنْ عبرَ هو بسلامته ، كان المرياع يتقدّم القطيع ويقوده إلى المرعى الخصب ، استغرق الأمر دقيقتَين على الأقلّ حتّى عبرتِ الشّاة العجفاء الأخيرة يتبعها كلبٌ يهتزّ ذيلُه بزهوٍ إلى الجانب الآخَر . ومضينا . على باب القرية صاح رجلٌ يحمل إبريقًا نُحاسيًا ضَخمًا يتأرجح ذيلُ طربوشه الأحمر فوقَ رأسه : «سُوس . . سُوس» . شعرتُ بطعم السّوس اللّذيذ في حلقي ونحن نعبره دون أن نشتري ؛ الوقتُ لا ينتظر . نهقَ حِمارٌ في مزرعةٍ ما ؛ كان صوتُه إيذانًا بالقبح الّذي لا تخلو منه حياة . صاحَ ديكٌ في قِنٍّ ما ؛ كان صوتُه إيذانًا ببدء العمل الّذي لا تخلو منه حياة . نعق غراب فوقَ شجرةٍ ما ؛ كان صوتُه إيذانًا بالموت الّذي لا تخلو منه حياة . زمجر ماتور تراكتور

في أرضٍ ما ؛ كان صوتُه إيذانًا بدخول التّكنولوجيا الّتي لا تخلو منها حياة . مشى أعرج على الطّريق الّتي يُشاركه المشي فيها رجلٌ سليم ؛ كان ذلك إيذانًا بالمساواة الّتي تتطلّبها كلّ حياة . أشّر لنا رجلٌ مقطوع لكي نُصعده معنا في السّيارة ؛ لكأنّه لم ينتبه أنّها سيّارةُ إسعاف! نادتْ أمٌّ على ابنتها وهي تخبزُ على صاجٍ ما : «هل كنتِ الحوش يا . . .» ؛ لكأنّها لم تنتبه أنّنا سمعناها في تلك اللّحظة . . . ثمّ . . . وصلنا!! صاح بنا الأب بغضبٍ وحُزنٍ ، وحوله جمهرةٌ كبيرةٌ من النّاس : «لقد تأخّرتمْ . . . ابني يموت . . . لماذا دائمًا تتأخّرون . . .» . لكأنّني سمعته يشتم ويتوعدّ ؛ لا أدري .

حملْناه ، هل رأيتم الوجوه البشريّة الّتي تعيش الحياة كيفَ تتغيّر حين تولّي نحو الموت ، ليسَ الوجهَ البشريّ الاعتياديّ ، إنّه وجهٌ آخَر ؛ وجهٌ مُمتقع ، يسيل الزّبد على جانبي فمه ، تبدّلتْ إشراقتُه زُرقة ، وعينان تنظران إلى جهةٍ ما ولا تتحرّكان ، ودمٌ ناشفٌ كثيفٌ يملأ شعر الرّأس من الخلف ، وكَسْرٌ في الجمجمة يكادُ يُرى منه بياض المُخّ ، وصدرٌ يقول إنّ الحياة قد تكون ممكنةً من خلال نَفَسٍ بطيءٍ جدًا ، لا يكاد يلحظه إلاّ المتمرّسون في الخِدمة

سُجّي (عطا الله) ، هكذا سمعتُ اسمه من أبيه الّذي لم يتوقّف عن البكاء والرّجفة وهم يُسجّلون بياناته داخل السّيّارة ، كان وجه (عطا الله) يزداد شُحُوبًا كان الأب يصرخ : «أسرِعوا . . . أسرِعوا أنقِذوا ابني» . والمرّضان يُحاولان تهدئته بلا جدوى . فجأةً صار جسدُ الأب يرتجّ بحركةٍ هستيريّة ، كنتُ أراه من خلال المرآة ، وأحيانًا ألتفتُ من خلال الزّجاج القابع خلفي والفاصل بين حجرة القيادة وحجرة السّرير ، رأيتُه يحتضنه ويلتحم به وهو يقبّله ويهذي بكلماتٍ غير

مفهومة ، والممرّضان يحاولان إبعاده دون فائدة . أرادوا أنْ يقولوا له : إنّك تقتل ابنك بهذه الطّريقة ، ولكنّه لم يكنْ يملك عقله ليفهم . . . وصلْنا إلى مستشفى الأمير راشد العسكريّ متأخّرين بالفعل ، كانتْ زحمةً أخرى في إربد ، لم يحترم الكثيرون بوق سيّارة الإسعاف الّذي كنتُ أطلِقه بشكلٍ متواصل .

في غرفة الإنعاش ، قال طبيب الاختِصاص : «إنّه جُثّة ؛ لقد وصل ميّتًا» . لم يفهم الأب عبارات الأطبّاء الفاسِقة ، من الصّعب أنْ يستوعب كلماتهم الخرقاء في موقف الفقد . ابنه لا يُمكن أنْ يموت ، لقد شربا معًا الشّاي في هذا الصّباح ، وتناولا عسلاً وزبدةً وخُبزًا ، وضحِكا كثيرًا قبل أنْ يتركه ليبدأ بقصارة الجزء العلويّ من البيت المُعدّ لكي يكون عُشّه مع زوجته القادمة . هل يمكن أنْ يموت بهذه السّهولة؟! إنّها مجرّد سَقطة من ارتفاع لا يزيد عن أربعة أمتار ، هل الموت قادرٌ أنْ يفتك بالإنسان في مسافةٍ قصيرةٍ كهذه!! كلاّ . «ابني لم يمتْ» صاح وهو يلتفتُ في وجوه الممرّضين الحائرة . لكنّ الممرّضين الّذين كانوا يقفون لحظَتها كتماثيل رخاميّة منكّسة الرّأس لم يقولوا شيئًا . صرخ من جديد : «لماذا تقفون كالحجارة . . . افعلوا شيئًا لإنقاذ ابني . قوموا بواجبكم أيّها الحمقى لإعادته إليّ» . تركوه يصرخ ومضَوا ، لاحقَهم بشتائمه ، لكنّهم كانوا قد غابوا بين الأسرّة المُتناثرة والمرضى الّذين تعجّ بهم جنبات المستشفى

اقتربْتُ من الأب ، قلتُ له : «البقيّة بحياتك يا عمّ» . نظر إليّ بعينَين ذاهِلتَين مُنكرِتَين ، فجأةً برقتْ عيناه بغضب . كانتا تريدان التلفّظ بكلّ الشّتائم المكنة ، تجاهلتُ غضبه ، واقتربْتُ من حزنه أكثر ، لففتُ ذراعيّ محاولاً أنْ أحضنه لأخفّف عنه ، دفعني بقوّة ، ثُمّ

هوى بكفّه فصفعني على وجهي ، رنّتِ الصّفعة في أذني كأزيز قفير كاملٍ فيه ألفُ نحلة ، تحسّستُ مكان الصّفعة وتراجعت . ثمّ سمعتُه ينفجر ببكاءٍ يفتّت قلب الصّخر

«إكرام الميّت دفنه يا حجّ» . قال له مدير المستشفى . لم يقتنعْ أنّه ميّت . رفض أنْ يوقّع على إجراءات تسلّمه ، قال لهم : «إنّه نائمٌ وسيستيقظ في الصّباح . . . اتركوه» . وضع إصبعه على فمه وهو يخفضُ صوته «إششششش . . . إنّه نائم لا تُزعِجوه . . . الصّباح رَباح» . نام إلى جِوار جثّته في اليوم الأوّل وحدّثه بكلّ المشاريع المُشتركة بينهما ، وأخبره عن الهديّة الّتي كان يُخبّئها له بمناسبة زواجه . ظنّ الأطبّاء أنّ أثر الصّدمة سيزول في اليوم الثّاني ، لكنْ يبدو أنّ الأمر ازدادَ سوءاً كان يبدو أنّه ذاهبٌ إلى أنْ يعيشَ مع الجُثّة العُمر كلّه . ما أصعبَ أنْ يعيشَ الإنسانُ مع جُثّة . سحبوا الجُثّة من بين يدي الأب ووضعوها في الثّلاجة ، تبعها إلى هناك ، ورابطَ على باب الثّلاّجة . قضى اللّيل بين ثلاّجات الموتى كان يهمسُ في أذنه بنكاتٍ قديمة ، ويضحك . ويسأله بين فترةٍ وأخرى : «ما رأيُكَ أنْ نتمشّى قليلاً . الجوّ جميل ، والهواء مُنعِش . . . أعتقد أنّ هذا سيُساعِدك على أنْ تتعافى» . وجبات الطّعام ظلّتْ على حالها ، كان يحلف بالطّلاق أنّه لن يأكل لقمةً منها حتّى يُشاركه ابنُه فيها . إنّه يغفو كعادته في هذا الوقت ، ولن يتركني وحدي ، سيستيقظ من غفوته ، ونأكل معًا ، مثلما أكلنا في صباح ذلك اليوم . «هؤلاء الأطبّاء المتمدّنون لا يعرفون الزّبدة البلديّة ولا العسل ، ما هذا المطّاط المُحلّى الّذي يأتونني به . أففف» كان يتذمّر دائمًا . في اليوم الثّالث كان قد انهار ، سحبوه من هناك ، وأعطوه بعض الأملاح والفيتامينات ، وطلبوا

من صِهره أنْ يوقّع على شهادة وفاة ابنه الوحيد!!

«الموتُ مقصلة الأحلام» ، قلتُ وأنا أتذكّر الحادثة . قطعتِ المقصلة عنق أحلامك يا عطا الله . البيت الّذي كان يمكن أنْ يكون بيتك ، بنيتَه بتحويشة العمر ، وبعرق جبينك ، صار خَرِبًا بعدك . الزّوجة الّتي كنتَ ستقطع معها الطّريق الّتي تعبْتَ من المشي فيها وحدك صارتْ أرملة الولد الّذي كان سيُسمِعك أحلى كلمة تنتظرها منذ ستّ سنين وتتخيّلها تطرق حجرات سمعك كُلّ يوم (بابا) ذهبتْ أدراجَ الرّياح ، وصار يتيمًا . وأنتَ؟ ماذا حلّ بك؟ لقدْ سمحتَ لي أنْ أفتحَ لكَ الباب!! ركبْتَ معي السّيّارة نفسها هذه المرّة لكنْ دون أبيك ، ودون المُمرّضين البليدين ، أنا وأنتَ وحدنا ، وقُدتُ بك إلى هناك ، إلى نهر الموتى ، نزلتْ روحُكَ بهدوء ، وهبطتْ نحو النّهر ، اندمجتْ مع قطرتها الّتي خُلِقتْ لها من الأزل ، ذابت فيها ، ومضتْ مع التّيار سابِحةً نحو الأبديّة!! ألف رحمة لروحك يا عطا الله .

(١٦)
الّذين يَهربون منَ الموتِ يجدِونه أمامَهم

«لقد تغيّرْت» . تقول فاطمة . أبتسم ولا أردّ . تُتابع : «صرتُ ألمح في عينيكَ حُزنًا شفيفًا» . أنظر نحو فتحة الشّبّاك كأنّني لم أسمع ، وآخذ رشفةً عميقةً من الشّاي السّاخن في يوم باردٍ كهذا كانت قطرات المطر تسيل في خطوطٍ بطيئةٍ متعرّجةٍ علىَ الزّجاج . «الشّتاء حلّ مُبكّرًا في هذه السّنة» أقول محاولاً اختلاق موضوع . «لا تذهبْ بعيدًا يا أحمد ، ما الّذي تغيّر؟» تسألني فاطمة بهدوء . أظلّ أخرس . تسألني من جديد : «صمتُك لن يُفيد ؛ الصّمتُ عذاب ، أنا هنا من أجل أنْ أساعدكَ على حَمْل وَخَمه الثّقيل ، قلْ لي يا أحمد ما الجديد الّذي تغيّر؟» . «صرتُ أفتح الباب يا فاطمة» . «تقصد الجثث الّتي تقود بها السّيّارة إلى النّهر؟» . «وماذا غير ذلك . العيشُ مع الجثث أمرٌ شاقّ ، لكنّه على الأقلّ خيرٌ من العيش مع الأحياء ، لكنّني أخشى أنْ أعتاد العيش معهم فيقسُو القلب ، أريد لحشرجات أرواحهم وهي تُغالب النّزع في طريقها إلى التّحرّر من سجن الجسد أنْ يظلّ لها ذات الوقع المُؤثّر الّذي سمعتُه أوّل مرّة» . «لن يدوم ذلك طويلاً إذا أردتَ» تقول بحبّ . «ماذا تقصدين؟» أسأل باستغراب . «اطلبْ من قائد الوحدة أنْ يُغيّر لك الوظيفة» . «ولكنّني لا أريد» . «إذًا فعليك أنْ تعتاد العيش مع الأمر وتستفيد منه ، وعلى أيّ حال لا تدعه يُؤثّر على حياتك الشّخصيّة ، حاولْ أنْ تفصل بين الأمرين ، وعِشْ في كلّ حالةٍ

بسلام» . أقفُ متأهّبًا ، أقول وأنا أتنهّد : «الأبواب تنتظرني وعليّ أنْ أفتحها» تنزعج قليلاً من عبارتي الأخيرة ، تحاول أنْ تذهب إلى مساحة أخرى في الحديث ، تقول : «وما هو الحلم الّذي حلمتْ به عمّتي وقالتْ إنّه سيتحقّق؟!» . أحاول أنْ أتذكّر أنّ هناك حلمًا كان مدار حديثٍ ما في يوم ما ، أضيّق عينَي ، وأهتف إذْ أتذكّر : «تقصدين حلم أمّي؟» . تجيب : «نعم!» «وما أدراني ، ها هي على بعد أمتارٍ من هنا تستطيعين الذّهاب إلى هناك وسؤالها عنه ، أنا نسيتُ الأمر بعد ذلك اليوم» . تتأفّف ، أسمعها وأنا أغلق الباب خلفي : «لا تتأخّر»

تهادتْ بي السّيّارة تقودني إلى الوحدة ، قال المذيع : «ينعقد غدًا مؤتمر السّلام بين إسرائيل والفلسطينيّين في العاصمة الإسبانيّة ، وستشارك به وفودٌ عربيّة وغربيّة متعدّدة ، وسيستمرّ ثلاثة أيّام» . ثقبَ الخبر فؤادي . إنّه موتٌ جديد ، هكذا تخيّلتُه . رأيتُ جثّة العرب المتعفّنة مُلقاةً في سيّارتي ، وأنا أقودها إلى نهر الجحيم وأفتح لها الباب هنا لتذوب فيه . لم يدرْ في خلدي أنّ كلّ ما تربّينا عليه يُمكن أنْ ينهارَ في لحظة ، وصُعقت بالفعل كنتُ أستعجل السّيّارة إلى القيادة . وصلتُها ظهرًا . وقرّرتُ أنْ أبيتَ تلك اللّيلة فيها من أجل أنْ أتابع الأخبار على شاشة التّلفاز . كان حيدر عبد الشّافي الأصلع يجلسُ مع النّفايات ، هذا أكثر ما أفقدني عقلي . حنان لا أدري اسمها الثّاني كانت تستغلّ وجودها في مدريد ضمن الوفد لكي تنزل إلى السّوق وتشتري البندورة والفراولة ، يبدو أنها تحبّ الألوان الفاتحة ، وبعض أدوات التّجميل لعجوزٍ أشبعها الدّهر أكلاً . الرّؤوس الّتي تدّعي انتماءَها إلى يعرب كانت تتقابل على الطّاولات الفارهة والّتي يلمع سطحها كمرآة وجهًا لوجه مع أبناء القِردة والخنازير . الشّماغات العربيّة

المصنوعة في بريطانيا من الأحمر والأبيض والأصفر كانت تتباهى بالتقاط الصّور مع الفضائح المُصبّرة . بعض الفاتنات حرصْنَ على أنْ تلتصق أجسادهنَ الغَضّة بعباءات العرب والبدو القادمين من مدن الملح ومن رملِ الصّحراء لعلّ البركة تحلّ في أرحامهنّ بآلاف الدّولارات الّتي تُمنَح لهنّ بسخاء كان المؤتمر عبارة عن بيع شرف العربيّ في سوق النّخاسة الغربيّ ؛ لم أجدْ له وصفًا أليقَ من هذا ، وكدتُ أفقد عقلي . ذهبَ نِصفه مع الابتِسامات الّتي بدتْ لي حميميّة جِداً وهي ترتسم على الوجوه العربيّة الكالحة مع أبناء عمومتهم من أراذل الشّعوب . وذهب النّصف الثّاني مع التّعامل البارد مع الأمر من حكوماتنا وشعوبنا وكأنّ الأمر تحصيل حاصل

خرجتُ في اللّيل من الكتيبة كالملسوع كنتُ كمن أصابتْه النّار ، وشبّتْ في ثوبه ، فصار يركض في كلّ اتّجاه . عاودتْني تلك الأيّام الّتي جريتُ فيها هاربًا من شيْءٍ ما لا أدري ما هو في طفولتي . كانتْ سيقاني منذورةً للرّيح . أشعلتُ سيجارة ورحتُ أدخّنها بلا وعي نفثتُ الدّخان كأنّني أنفثُ سمومًا تستقرّ في وِجداني . توالت السّجائر المحترقة . تحرقني معها . عدتُ بعد ساعة كنتُ قد دخّنْتُ علبةً كاملةً . ركضتُ من جديد في طريق العودة . لهثتُ ككلب عَطِش . ثُمّ هدأتُ قليلاً . وفي الليل عاودتْني الكوابيس . اليهوديّ الّذي يحمل خنجرًا ويجلس على الطّاولة وهو يُخفيه خلف ظهره ، والعربيّ الّذي يحمل وردةً ويجلس على الطّاولة وهو يُظهرها أمامه ، العربيّ يُقدّم الوردة وهو يضحك مُقهقِهًا ، واليهوديّ يستل خنجره ويقوم في اللّحظةِ الّتي يمدّ فيها العربيّ الوردة بطعنه في عنقه ، فتتوقّف ضحكة العربيّ في منتصفها ، ويبدأ الدّم يشخب من العنق على شكلِ نافورةٍ صغيرةٍ .

واستيقظُ مذعورًا وأنا أتحسّس عنقي كأنّني أنا الّذي طُعنت!!

في الصّباح لم أفطرْ . ولم أنتظرْ لحظةً واحدة . هُرِعتُ إلى قائد الكتيبة ، وقدّمتُ له طلبًا بإعفائي من الخِدمة العسكريّة ، كنتُ قد قلتُ فيه : «سيّدي . . . إنّ دوري كجنديّ في القُوّات المُسلّحة قد انتهى ، لقد انتسبْتُ إلى هذا السّلك وأفتخر بذلك لكي أقوم بالدّفاع عن وطني ضدّ أعدائه ، وأحاربَ المحتلّين لبلادِنا ، وما دام السّلام قد وقع بيننا وبين اليهود في مؤتمر مدريد ، وما دام التّنازل عن فلسطين قد تمّ في هذا المُؤتمر ؛ فإنّ وجودي يُصبح في هذه الحالة بلا معنى ، وعليه فإنّني أتقدّم لحضرتكم بطلب تسريحي من الخِدمة» كان يقرؤه باهتِمام ، ولمّا انتهى منه انفجر بالضّحك . مزّق الطّلب إلى قطَع صغيرة ، وطردني من المكتب .

عُدْتُ إلى البيت بعد ثلاثة أيّام غاضِبًا وحزينًا ، كان المؤتمر قد انتهى ، وغاصت السّكين عميقًا في قلبي . صرتُ عصبيًا . أصرخ لأدنى كلمة . وأهيج لأقلّ سبب . تركتْني فاطِمة في أكثر من موقف على سجيّتي ، كانتْ تريدُ أن تمتصّ غضبي ونزقِي ، قالتْ لي في نهاية ذلك الأسبوع : «ما رأيك أنْ نذهبَ في رحلة؟» . لم تنتظر حتّى أوافق . جهّزت الأغراض ، وانطلقْنا إلى الأغوار ، إلى الحمّة ، التّلّة المُشرفة على هضبة الجولان ، الهضبة الّتي لا يكون بينَكَ وبينها إلاّ ذراع ، ومن الأسفل نهر اليرموك الّذي ما زال - رغم حزنه العميق - يجري وادِعًا منذ أنْ وقف على ضِفافه خالد ، وقال لرئيس الوفد الرّوميّ المُفاوِض حينَ سأله : «ما الّذي أخرجكم من الصّحراء؟» فأجابه «لقد سمِعْنا أنّ دماء الرّوم طيّبة فجِئنا لكي نتذوّقها» . ما أشبه اللّيلة بالبارحة ، قلتُ ذلك لنفسي وأنا أتذكّر التّاريخ كيف يلوي أعنّته

زادتْني الرّحلة بُؤسًا وضيقًا . لو أخذتْني فاطِمة إلى أيّ مكانٍ غير هذا لكان أفضل ، أمّا أنْ تأخذني إلى المكان الّذي يجعل صُور الماضي والحاضر تتقافزان إلى ذهني وتبدأ بينهما المقارنة فذلك لا يدعو إلى نسيان أحدهما ، بل إلى تذكّرهما معًا . قلتُ لها في طريق العودة : «سأفتعل المشاكل من أجل أنْ يُسرّحوني من الجيش ، البقاء في جيش تتصالح حكومته مع اليهود أمرٌ لا يُمكن تصوّره ولا التّعايش معه بأيّ حالٍ من الأحوال» كانتْ تبكي بصمت . لم أشأ أنْ أسألها ، ولكنّها ظلّتْ واجِمة . نطقتْ بجملةٍ واحدة ونحن ندخل البيت : «لا تجعلْ عاطفتك توصلك إلى الباب المسدود» . ابتسمتُ في أعماقي وأنا أتذكّر أنّني الرّجل الّذي يفتح الباب في كلّ رحلةٍ أقوم بها بالسّيّارة البكّاءة!

مرّتْ شهورٌ ثقيلة كنتُ قد صرتُ سائق سيّارة الإسعاف الّذي يفتح الباب بهدوء ، وابتِسامةٍ حزينةٍ كصديقٍ يُودّع ضيوفه العابرين . نعم ، صرتُ صديق الأرواح المُسافِرة . سمّيتُ نفسي أنا بذلك . إنّها شهور النّسيان . مع الموتى تنسى ؛ تنسى كلّ شيءٍ حتّى نفسك . لكنّ جرحًا عميقًا مهما مرّتْ عليه عهود من الزّمن فإنّ ذكرى واحدة يُمكن أنْ تعيد إليه طراوته فينزف من جديد . ما الجرح؟! ليستْ لي عينا زرقاء اليمامة حتّى أراه ، ولا نبوءة يوسف حتّى أؤوّله ، قد يكون الجرح حُلمًا ، أو وطنًا ، أو امرأةً ، أو أنا . لستُ أدري .

جاءتْنا إخباريّة ؛ كان الحريق الّذي شبّ كبيرًا انطلقتُ أنا بسيّارة الإسعاف ، وانطلقتْ معنا سيّارتا إطفاء . وصلْنا بعد نصف ساعة إلى الموقع . لم أكنْ أكثر من سائق . الإطفائيّون في السّيّارتَين الأخريَين ، والمُسعِفون في سيّارتي . كان الحريق قد أتى على مزرعةٍ كبيرة لضابطٍ في الجيش ، رشحَ لنا - فيما بعد - أنّ زوجته هي الّتي أشعلت النّار في

المزرعة بدعوى أنّه يهجرها ، ويدعو إليه فتياتِ الهوى فيها . المسكين لم يكنْ في المزرعة سِواه ، لكأنّه كان هارِبًا من الدّنيا ومنها ، كان نائمًا وقتَ الظّهيرة ، ولم يشعر بالنّار إلاّ حينَ لفحتْ وجهه بلهيبها الّذي يشوي الطّير في السّماء . صرخ . لم يسمع صرختَه أحدٌ . حاول أنْ يُطفِئ النّار - الّتي بدأتْ تشتعل في السّرير - بأيّ شيءٍ تقع عليه يداه ، ولكنّ النّار كانتْ قد تجاوزتْ مرحلة أنْ يتغلّب عليها أحدٌ مهما كانتْ سرعته وحدّة ذكائه ورباطة جأشه ، كانت قد تعملقتْ والتهمتْ كلّ شيء . ولّى هارِبًا . فرّ بجلده . لكنّها لم تتركْ له فرصةً لذلك ، علقتْ بثيابه ، ووصلتْ إلى جلده . لم نُبلّغْ منه عن الحادث ، بلّغنا أحدُ المارّة من الطّريق الّذي رأى جهنّم أمامه . حينَ وضعْناه في سيّارة الإسعاف وانطلقْنا تاركين خلفنا سيّارتَي الإطفاء تقومان بواجبهما وقد طلبتا سيّارةً ثالثة ، سمعتُ المسعفين يقولون : «إنّها حروق من الدّرجة الثّالثة» . لم أفهم . لكنّ هيئته كانتْ تُغني عن الشّرح . قالتْ لي كلّ شيءٍ . جُثّةٌ بشريّةٌ تتفحّم أمامي ، تبدو كشيطانٍ أسود بعينَين حمراوَين ، ويدَين تتّجهان بأصابعهما العشر إلى نافذة السّيّارة الجانبيّة هُيِّئَ لي أنّه كان يستغيثُ بي لأفتحَ له الباب . لكنّني هذه المرّة لم أشأ أن أستسلم له وأستجيب لندائه ، قلتُ له «انتظرْ لم يحنِ الوقتُ بعد» . ندّتْ منه شتيمةٌ ثقبتْ قلبي . ضغطتُ على دوّاسة البنزين ، وقدتُ بأسرع ما يُمكن لتفادي انفلات الرّوح ، تخيّلتُه ينهضُ من السّرير ويقوم بفتح الباب بنفسه لينزل إلى النّهر ، ولكنّني صرختُ بالمُسعفين أنْ يُمسكوه ، كانتْ صرختي بلا صوت . أطلقتُ بوق السّيّارة على أعلى درجة . وشغّلتُ الأضواء الدّوّارة ، ورحتُ أصيح بالسّيّارات الّتي أمامي أنْ تبتعد . قطعتُ ثلاث إشارات حمراء على الطّريق من

كفر أسد إلى إربد . الّذين يَهربون مِنَ الموتِ يَجِدونه أمامَهم . كنتُ أهبطُ وادي الغفر وأنا أقود بسرعةٍ جنونيّة حينَ أبطأني كلبٌ أسودُ لا أدري من أينَ ظهر ، لكأنَّ الأرض انفتحتْ وخرج منها دون سابق إنذار . دُسْتُ على الفرامل بأقصى ما أستطيع ، وانحرفتُ يمينًا في محاولةٍ لتفاديه ، اضطربت السّيّارة . تأرجحتْ كبندول ، اصطدم بابها الأيمن بعمودٍ على الشّارع لم أستطعْ تفاديه ، وانزلقتْ في الوادي ، لتنقلب على ظهرها من عند عبّارةٍ مُعدّةٍ لتصريف المياه ، وترفع دواليبها إلى الأعلى وهي ما تزال تدور في الفراغ . مات الضّابط . وأصيب أحد المُسعفين بجرحٍ قطعيّ ، وكسور في الصّدر . وقُطِعتْ رجل المُسعف الآخَر ، كانتْ رِجْله قد انحشرتْ تحت حديد الجانب الأيمن الّذي انقصّ مع ارتطامه بعمود الشّارعِ ذي الحوافّ الحادّة . وأُصِبْت أنا بارتجاجٍ في الدّماغ ، وكَسْرٍ في الذّراع اليُمنى . وفقدتُ الوعي أسبوعًا كامِلاً . قبل أنْ أحوّل إلى المحكمة العسكريّة حال تعافِيّ ، واستِعادتي القدرة على الكلام . رافقتْني يدي محمولةً إلى كتفي ثلاثة شهور قبل أنْ يلتئم الكسر وتعود إلى حالتها الطّبيعيّة . في المحضر قال شهودُ عيانٍ جمعتْني بهم الطّريق ، وأسعفوني بعدها : «لم يكنْ هناك كلب ، الطّريق كانتْ أمامه خاليةً تمامًا ، لم يظهر كلبٌ من الأساس لا أسود ولا أبيض» . لم يُصدّقْني أحدٌ . حتّى أنا تزعزعتْ قناعاتي بي . حاولتُ أنْ أسترجع المشهد ، فلم أقدرْ على ذلك بدقّة ، بدا أنّني أنظر إليه من خلال حجابٍ من غمامات سُود ، يُخفين أكثر مِمّا يُبدين . فجأةً ظهر شيءٌ ما على الطّريق وأنا أستعيدُ شريطَ الذّاكرة ، لكنّه لم يكنْ كلبًا ، كان حيوانًا آخر يُشبه الكلب ، له عينان لامِعتان حمروان ، وجسده مُغطّى بالقار الأسود ، لكنّه اختفى من الشّريط كما ظهر في لمح البصر .

قـال لي أبي : «كـان يُمكن أنْ تنقـذه دون أنْ تُسـبّب كلّ هذه الكوارث ، لقد عيّنوك سائِقًا لهذه السّيّارة كي تقود المرضى إلى الحياة لا إلى الموت» . أجبتُه بعينِ نصفِ مغمضة : «لكنّ تفادي الموت أصعب من مواجهته ؛ هذا ما حدث» . سكتَ لكنّه لم يكنْ راضِيًا . قالتْ أمّي : «الحمد لله على سلامتك ، لقد كان لطفُ الله كبيرًا» . هززتُ رأسي ، أنهضتْني هذه الكلمات من عثرتي . «قالتْ لي زوجتي مازِحةً «مَنْ سيقود بكَ السّيّارة ويفتح لك الباب أمام النّهر لو تبدّلت الأدوار؟! أرجوك حافِظْ على دورك الحاليّ فهو أفضل بكثير ، أو اطلبْ منهم أنْ ينقلوك إلى المطبخ ، ألا يُمكن أنْ تكون طبّاخًا ماهِرًا . جرّبْ ولن تندم» . ضحكتُ من كلّ قلبي . قال لي طبيب المستشفى الّذي أصبحَ صديقًا لي فيما بعد : «ما الّذي كان يشغل بالكَ وقتَها!!» «هل عليّ أنْ أجيبَ أيّها الطّبيب؟!» «كلاّ ؛ أنا فقط أتساءَل» .

(١٧)
نحنُ مُجرّد أوراق؛

لا أدري لماذا أبقَوا عليَّ قائدًا لسيّارة الإسعاف، كان بإمكانهم بعد حادث السّير الّذي عُدتُ فيه من الموت أنْ يُريحوني مِمّا تُشكّله رُؤاي فيُسرّحوني من الجيش، أو ينقلوني إلى مكانٍ آخر، كان يُمكنهم أنْ يصنعوا مِنّي طبّاخًا ماهِرًا كما تمنّتْ زوجتي. لكنّ كلّ شيءٍ يمضي بقدر. لو أردتُ أنْ أكتب مذكّراتي مع الّذين سُجّيتْ أجسادهم في قلب السّيّارة من الّذين صارَعوا البَقاء لخرجتُ بمجلّدات. نحن مجرّد أوراق؛ أوراق يُغيّبها الخريف، ثُمّ يأتي الرّبيع فيستبدل بها غيرها، لكلّ واحدٍ منّا ورقةٌ سيحينُ موعدُ استبدالها، شكل الورقة لا يهمّ، عمر الورقة لا يهمّ، لون الورقة لا يهمّ، مركز الورقة في أعلى الشّجرة أو منتصفها أو في أسفلها لا يهمّ، كلّنا أوراق، المرأة ورقة مثلما هو الرّجل، العبدُ مثلما هو السّيّد، الصّغير مثلما هو الكبير، والآخرون بشتّى تصنيفاتهم هم أوراق كذلك. كلّ هذه الأوراق على اختلافها صعدتْ معي إلى هذه السّيّارة وقُدتُ بها كان الموتُ رفيقًا خفيًا، مَنْ قال لكم إنّه غير مرئي؟! أنا كنتُ أراه، يصعد بهدوء ويجلس إلى جانب الورقة. الموتُ يُشبه أشياء كثيرة رأيتُها في حياتي. يُشبه انطِفاء فتيلة المصباح بعد آخر قطرةٍ من الزّيت في ليلةِ عجوز. انقطاع حبل البئر وهو يهبط بالدّلو فجأة. انسِحاق هندباء في الصّيف تحت قدم عمياء. أنْ يهوي حجرٌ من قمّة رعناء إلى وادٍ سحيق. لقد جرّبتُ هذا

الشّعور في الحادث الأخير ؛ رأيتُ نفسي أسقط . . . أسقط عميقًا ، كنتُ مثل طائرٍ مُحترقٍ تجذبه قوّة غامضةٌ إلى القاع ، قاع لا قرار له ، كنتُ بلا أجنحة . أجنحتي كانت قد التصقتْ بجسدي فلَمْ أعدْ أقوى على أنْ أفردها وأرتفع . كان القاع يراودني على أنْ أستسلم . لو استسلمتُ لما عُدت . الاستِسلام سهلٌ ولذيذ ، لكنّني قاومت ، قاومتُ كقدّيسٍ في حضرة ظِباءٍ يكشفْن عن صدر الفتنة ، الفتنة القاتلة الموتُ يُشبه الاستسلام للفتنة ، إنّها خضراء الوجه سوداء القلب .

مرّتِ السّنوات وما توقّف صعود الأجساد المُسافرة إلى سرير سيّارتي . صرتُ بعد أنْ صعد المئات منها إلى هنا أتحدّث معهم . بالطّبع أتخيل شكلاً لهذا الحديث . ليس حديثًا حقيقيًا . لكنّه يبدو أصدق من أيّ حديثٍ آخر ؛ لأنّه خالٍ من الزّيف الّذي يُتقنه البشر دائمًا

قالتْ لي فاطمة : «الموتُ ليسَ أمرًا عاديًا» كانتْ تظنّ أنّني اعتدتُ الموت فصرتُ أطمئنّ إليه ، لم تكنْ تدري أنّني في كلّ مرّةٍ أزدادُ خوفًا منه . وتكمل : «عليكَ أنْ تكون مستعدًا له» لا أدري كيف يستعدّ الإنسانُ للموت ، إذا كان الموت مُراوِغًا ، وسارِقًا ، ولا يباغتك إلاّ وأنتَ ساهٍ . «كيف يكون الاستِعداد له يا فاطمة . . .؟!» أسألها في سرّي ، وأكملُ : «أتظنّين أنّ قراءة بعض الأذكار تجعل الإنسان مستعدًا له؟! كيف يا فاطمة كيف؟!» كانت تُريد أنْ تقول لي : «اقرأ عنه القراءة عن الشّيء وجه من وجوه الاستِعداد له . القراءة مواجهة» لكنّها لا تعرف أنّ القراءة أيضًا ضلال ، أنّ القراءة انفتاح المعنى ، وانفتاح المعنى يعني أنْ يتشعّب الموت فيصبح ألفَ موت ، أنْ يتمدّد ، فلا تعرفه أهو على هذا النّحو أو ذاك» كان قلبُها أبيض كالثّلج ، تقول

لي : «اسألْ شيخًا» . أريد أنْ أقول لها : «الشّيوخ لا يعرفون الموت ، إنّهم يعرفون الحديث عنه ، والفرق شاسعٌ بين الأمرين» . تقول لي : «ولا حتّى الشّيخ عبد الرّزّاق» . يقفز قلبي في أعماقي ، تصحو ذكراه فجأة ، هل مات الشّيخ عبد الرّزّاق؟ لا أدري . لم يعدْ أحدٌ يراه في المسجد ، كان غريبًا وظلّ غريبًا . بعضهم يقول : إنّه غادر إلى مَنْ تبقّى من أهله في قريةٍ أخرى بعد أنْ أقعدتْه سنواته الثمانون عن الحركة . تذهب فاطمة إلى إربد حينَ أكون في عملي في العسكريّة ، تزور مكتبة اللّواء ومكتبة حجازي في شارع بغداد وتشتري لي كُتُبًا . «اقرأ يا أحمد اقرأْ» . القراءة هروب ، هذا ما اكتشفتُه بعد ثلاث سنوات من العمل سائقًا لسيّارة الإسعاف . كنتُ أُذهل عن نفسي . أهربُ من الوجوه الشّاحبة المكروبة المُستغيثة إلى السّطور . لكنّ هذه السّطور سرعان ما تواطأتْ مع الموتى ، صارتْ وجوه الرّاحلين تبرز لي من بينها ، تطلع من تحتها ، وتصعدُ فاغرةَ الأفواه ، هل للموتى قدرةٌ على نهش لحوم الأحياء!! لقد وقعتُ في الفخّ . القراءة فَخّ!

انتفخَ بطنُها . قالتْ لي بمرح : «إنّه كثيرُ الحركة ، هل سيكون مُشاغِبًا مثلك؟!» . أجبتُها باستنكار بريء : «أنا؟ أنا مُشاغب!! أنا لا أفعل شيئًا أكثر من مطاردة الفراشات في الرّبيع» . ضحكتْ . تقول : «أنا أريدُه أنْ يكون مثلك» . تصمت ، ثُمّ تقول كأنّها تحلم : «ماذا سنُسمّيه؟!» . أتركُ السّؤال مُعلّقًا : «حين يجيء الصّبيّ سنصلّي على النّبيّ» كُنّا ننتظر مولودَنا الأوّل يومًا بعدَ يوم . انتظار المولود الأوّل ، مثل انتظار شتلةٍ صغيرةٍ بفارغ الصّبر لكي تُثمر بعد طول سِقاية وعناية كانتْ حياتُنا هادئة وسعيدة . غلّفها الهدوء مثلما يغلّف السّولفان حبّة الشّوكولاتة ، وباستثناء الحدث الأخير ، فإنّ صعود الموتى

معي تحوّل إلى عمل رتيب هو الآخَر . «سكونُ البيت جميل لكنَّ صخب الأطفال فيه أجمل» هكذا كُنّا نردّد أنا وفاطِمة . الرّتابة قاتلة أكزّ على أسناني بغيظ ، أهتفُ في سِرّي : «أنا أكثر ضحاياها ألمًا . إنّها مثل البراغيث يستحيل التّخلّص منها إذا التصقتْ بالجلد» . أحتاج في كلّ مرّة أنْ يقفز أرنبُ المفاجآتِ أمامي كانتْ تضع يدي على بطنها ، تقول : «ألا تشعر به؟!» . أودّ أنْ أقول إنّني لا أشعر بشيءٍ قبل أنْ يرفسني بضربةٍ مُدهشة من إحدى قدمَيه ، أضحك . أكركر . أعودُ طفلاً . الآباء أطفال ، لا يكبرون إلاّ حينَ يُصبِحون وحيدين .

في عام ١٩٩٣ قرّر الذّئب أنْ يجرّ من الحظيرة شاةً جديدةً إلى غابته . لم يكن الأمر يتطلّب أكثر من التّلويح ، كانت الشّاة تنتظر الإشارة ، وُقّعتْ اتّفاقيّة أوسلو . ليستْ خيانة ؛ إنّها خيانةٌ للخيانة مرضتُ . هل أنا وحدي الّذي تُمرضني هذه الاتّفاقيّات!! أصابني وجعٌ في المعدة . ثُمّ في الكبد . هيّأ لي خيالي أنّ التّدخين أحدُ الحلول . أدخّن هذه الأيّام بشراهة يا فاطمة ؛ هل تغفرين لي خطيئتي هذه؟! غربتي تزداد ، وعُزلتي تتفاقم . صار وجودي في العسكريّة تافِهًا وبلا معنى . لا تلومي القلب ؛ إنّه مُصابٌ بداء العشق للوطن . كيف يُمكن لوطنٍ أنْ يُباع بهذه الفجاجة؟! كيفَ يُمكن أنْ يُساق إلى المذبح على مرأى ومسمع من الجميع؟! لم أحتمل . بكيت ؛ ماذا يُفيد البكاء! لعنتُ الأنظمةَ ؛ ماذا يُفيد اللّعن! شتمتُ الزّعماء شتائم بذيئة ؛ ماذا يُفيد الشّتم! دخّنتُ ثلاث علبٍ في اليوم ؛ ماذا يُفيد التّدخين! ها أنذا أحترق كسيجارة .

لم يشبع الذّئب . حينَ يجرّب لحم الشّاة الأولى يصبح ذلك إدمانًا . إنّه الخضوع الأوّل ، ومن بعده لن يتوقّف سيل الذّلّ ، سيطلب

في كلِّ مرّةٍ ضحيّة جديدةً ليُشبع نهمه . الاحتلال دراكولا حقيقيّ ، ليس مثل ذلك الّذي نراه في الأفلام ، إنّه بالفعل لا يعيشُ إلاّ على شُربِ دماء ضحاياه .

في عام ١٩٩٤ قرّر هذا الذّئب أنْ يأكل من القطيع شاةً جديدة ؛ كانتْ أسمن من الأولى ، منح الأولى خرمًا واسِعًا في القَفا ، ومنح الثّانية خراءً في الماء . وُقّعتْ اتّفاقيّة وادي عربة كانتْ فضيحة . قلتُ لفاطمة وأنا أبكي مثل يتيم : «ماذا أفعل يا فاطمة؟!» . ظلّتْ ساكتةً هي الأخرى ، مسحتْ دموعي بأصابعها وبكتْ هي الأخرى ، لم تجدْ جوابًا . كانت الكلمات قد ماتت .

كانت التّرتيبات للاحتِفال بالاتّفاق التّاريخيّ تجري على قدم وساق!! كان لا بُدّ من إعلان الزّواج ، لن يبقى عرفيًا أكثر من خمسين عامًا ، آن له أنْ يُشهَر ، وإشهار زواج كاثوليكيّ كهذا يحتاج إلى تنظيم عالٍ ، وتجهيزات على كافّة الأصعدة .

كُنّا في التّمرين الصّباحي . نقف كأشجار موزٍ بلبسانا الأخضر في ساحة الكتيبة كان آمر الكتيبة يصيح بصوتٍ حماسيّ شديد : «اااااااسترِحْ . . . ااااااستعِدْ» . وكانتْ خبطات بساطيرنا على الأرض تُثير الغُبار في الأجواء . ظللْنا في حالة استِعداد ، حينَ راح قائد الكتيبة يتحدّث بلغةٍ تنضح بالفخر : «هناك حفلٌ ضَخْمٌ سيُقام لافتتاح معبر وادي الأردنّ . وقد وقع اختيار قائد الجيش على كتيبتنا للقِيام بالتّأمينات الأمنيّة اللّازمة للموقع . وسنكون على قدر المسؤوليّة ، وسأوعز باختيار الأكفأ منكم لهذه المهمّة الرّسميّة الجليلة» . رقص قلبي . طربت الحجرات . مرّ عهدٌ طويلٌ لم أفرحْ . لقد حانت الفرصة لأنفّذ الفكرة الّتي تنخز رأسي كدبّوس . الآن سأستريح . فرصةٌ كهذه

لا تتكرّر . المهمّ أنْ أكون ضمن فريق الحماية .

سألتُ أحد الزّملاء : «كيف يختارون أفراد فريق الحماية؟» . «حسب الطّول» . وضحك . كان يعني أنّ طولي لا يؤهّلني لأن أكون ضمن الفريق . أجبتُه : «الأغبياء غير مدعوّين» . وضحكتُ بدوري . نحّى المزح جانبًا ، ونظر إليّ باهتمام : «هل تريد أنْ تكون ضمن فريق الحماية؟» . أجبتُه : «بالطّبع ، أحلم بذلك من زمن» . استغرب الجواب ، لكنّه أردف : «لا أظنّ أنّ أحدًا من السّائقين سيُشارك ضمن الفريق» . قلتُ له «ولكنّني قنّاص ، لا تنس ذلك» . ردّ : «قانص الأرواح لا يقوم بحمايتها» . اكفهرّ وجهي ، فسألتُه مُغضبًا : «ماذا تعني؟!» . «أمزح معك يا رجل . . . ألا تحتمل المزح» . وضحك مُجدّدًا

مرّ أسبوع ، لم يختاروا أحدًا بعد . سمعتُهم يتحدّثون أنّ الفريق سيُختار قبل مراسم الاحتفال بيومَين فقط . السّرّيّة التّامّة تُحيط بالأمر . «إذا أرادوا أنْ نحمل العصيّ لحماية المُحتفلين فلهم أنْ يؤخّروا الأمر ، لكنْ إذا أرادوا الحماية الحقيقيّة فعلى الفريق أنْ يكون قد تمّ اختياره من أسبوعَين ودُرّب من جديد على وسائل الحماية المُتّبعة ، وأُخِذ إلى الموقع ، وقام بعمل تمرين على التّصدّي لمحاولات الاختِراق هناك» . قلتُ ذلك في سرّي مُستهزئًا ، وأردفتُ : «هل هي فَزعة!!»

عشيّة اختيار فريق الحماية كنتُ أركب سيّارة الأجرة قافلاً إلى إبدر . وصلتُ والشّمسُ تصبغ الأفق بدم الفِراق ، قالتْ لي فاطمة وهي تستقبلني على الباب بحبور : «أنتظرك من الظّهر» أجبتُها في سرّي : «أخشى أنْ يطول انتِظارك لو ذهبتُ إلى وادي عربة ضمن فريق الحِماية» . أردفتْ حين رأتني واجمًا : «الغداء جاهز من خمس

ساعات ، سأسخّنه ريثما تُغيّر ثيابك» .

قضينا ليلةً جميلة . كان (سيف) نائمًا . ربّما هذا هو السّرّ الحقيقيّ . صعدتُ مع فاطمة على سطوح البيت ، جلسنا على كُرسيّيْن خشبيّيْن ، وتناولنا شايًا بالنّعناع كان جوّ تشرين لطيفًا ، نسماتٌ دافئة كانتْ تُداعب خدودنا . ونجماتٌ لا حصر لها ترسمُ لوحةً سماويّة فريدة ، بعضُ هذه النّجمات سقط فأضاء دور القُرى البعيدة . من هنا تبدو هضبة الجولان . من هنا تبدو فلسطين . لتلك الأضواء البعيدة ، لأناسِها ، لترابها ، لفضائها ، لعبق تاريخها ، تُصبح عاشِقًا حقًا

قلتُ لفاطمة : «غدًا سيختارون الفريق الّذي سيقوم بحراسة احتفال معبر وادي الأردّن ، حيثُ سيتعانق الأخَوَان ؛ القاتل والضّحيّة» . ردّتْ : «لهم الله» . غضبتُ في أعماقي . كنتُ متّكِئًا ، فنهضت : «الله للجميع . لكنْ هؤلاء لهم الرّصاصة» . جفلتْ من ردّة فعلي المُفاجِئة «حسابهم عند الله» «بل عِندنا» . ضاقتْ بي كدتُ أُفصح لها عن رغبتي في الانتِقام لو تمّ اختِياري ضمن الفريق الأمني . لكنّني تراجعتُ . شعرتُ أنّها بدأتْ تخافني وتخاف منّي . إنّه شعورٌ طبيعيٌ لو حدث بالفعل ، قلتُ في سِرّي : «لقد بدأتُ أخاف أنا من نفسي»

نزلْنا إلى البيت . صلّتْ فاطمة طوال اللّيل حتّى لا أخرج إلى العسكريّة في اليوم التّالي . تمنّتْ أنْ تحدث معجزة ولا أذهب . أنْ يتّصل بي القائد ويمنحني إجازة لأسبوع ريثما تمرّ ترتيبات الاحتِفال التّاريخيّ! أنْ آخذ إجازة مرضيّة . توسّلتْ إلى الله ألاّ تحدث مُصيبة .

قبّلتُ (سيف الدّين) وأنا أهمّ بالخروج في صباح اليوم التّالي ،

قلتُ لها : «أعتذر عن فجاجتي أمس ، لقد كنتُ أهوج» . لم تردّ بشيء . بدت عيناها خائفتَين . كنتُ قد أدرتُ ظهري لأمضي في حال سبيلي حين أمسكتْ بذراعي ، ونظرتْ إليّ : «أرجوك لا تذهب اليوم» . سألتُها مُستغرِبًا : «ماذا هنالك؟» . تردّ : «لا أريد أنْ أفقدك» أسألها بمزيدٍ من الاستغراب : «ولماذا ستفقدينني؟» . تردّ برجاء آخر : «ارفضْ إذا اختاروك ضمن الفريق ، قلْ لهم إنّني سائق ، وإنّهم يحتاجونني في الكتيبة» كدتُ أنْ أقول لها : «إنّ لحظة اختياري ضمن الفريق ستكون أجمل لحظاتِ حياتي ، ثُمّ إنّني قنّاصٌ حاصلٌ على المرتبة الأولى في القنص قبل أنْ أكون سائِقًا» . لكنّني ابتلعتُ لساني . بكتْ دمعتَين ودعوة .

وقفْنا في الطّابور . وقفَ الآمر أمامنا كان موقعي في ترتيب العساكر المُتأهّبين في هيأة استعداد هو الثّالث والعشرين . كان الآمر يحمل ورقةً في يده ليقرأ الأسماء الّتي تمّ اختيارها لتتولّى المهمّة المُقدّسة!! تلا الأسماء العشرة الأولى ، وسمّاها مجموعة واحد ، وعيّن عليها المُلازم (عوّاد) مسؤولاً . تلا أسماء الثّلاثة الأولى من العشرة الثّانية وقفز عن الاسم الرّابع عشر ، لم يكشف عن سبب استثنائه ، كنتُ أعرفُ أنا السّبب . جاء دور العشرة الثّالثة ، تلا : «حمود . .» «حاضر سيّدي» . «هنا في المجموعة الثّالثة» . «حاضر سيّدي» كان قلبي بندولاً يتحرّك يضرب جدران صدري بشدّة ، بيني وبين الاختِيار اسمٌ واحِدٌ فقط . صاح الآمر من جديد : «سَعْد» . هتف سعد : «حاضر سيّدي» . «إلى الثّالثة» . توقّف قليلاً . فتوقّف قلبي . لكنّ أنفاسي ظلّتْ تتلاحق . مرّتْ كلّ ثانيةٍ مع كلّ نَفَسٍ يعلو كأنّه زفير نار مشبوبة . صمتَ الآمر وهو يدقّق في الأوراق . «هل سيقفز عن اسمي؟

هل هو يتحقّق من أنّ الاسم مُؤشّرٌ عليه ضمن المُختارين؟ هل هناك خطأ ما في اسمي». عشرات الأسئلة والهواجس ثقبتْ روحي في تلك الأثناء، قبل أنْ يصيح الآمر من جديد: «أحمد». قفزتُ من الفرح، وخبطتُ الأرض ببسطاري بشدّة، وهتفتُ بصوت يكاد يبكي من الفرح: «حاضر سيّدي». صاح: «أنتَ...» وتوقّف النّبض والنّفَس هذه المرّة... كرّر قبل أنْ تدور بي الأرض: «أنتَ ستبقَى هنا». ارتختْ يداي. سمعتُ طنينًا يدور في رأسي. حاولتُ أنْ أعترض، أنْ أقول شيئًا. أنْ أصرخ. أنْ أشتم. لكنّني لم أقوَ على شيء. كنتُ لا أزال واقفًا مكاني حينَ صرخ بي الآمر من جديد: «هيّا تحرّك أيّها العسكريّ من هنا... هيّا».

(١٨)
الأصدقاءُ في الغُربةِ وطَن

هذيتُ في تلك اللّيلة بآلاف الكلمات . قلتُ أشياء غريبة وفعلتُ أشياء أكثرَ غرابةً كنتُ محمومًا ، جرّبوا معي الأدوية كلّها الّتي تخفض الحرارة وفشلوا كانت الحرارة تطوف برأسي مثلما يطوف شُواظٌ من النّار بكومةٍ من الحطب اليابس . يلتهب فجأة ثمّ ينتهي الشّواظ فيهدأ قليلاً . في لحظات الالتهاب أرى عجائب . وحوشًا على هيئة تنّين ينفث النّار . كائنات تُهاجمني وأنا أركضُ بلا توقّف . كنتُ خائفًا لاحقتْني أصواتٌ غريبةٌ . أضع يديّ على أذني كي لا تنفجر من شدّتها كانت بعض هذه الأصوات على هيئة أبي . كان يصرخ بلا سبب . ويضربني بلا سبب . وأنا أتوسّل إليه . لم يكنْ ينفع معه التّوسّل ولا الاستجداء . «ما الّذي حدث يا أحمد؟» قال لي صديقي الطّبيب (شاهر) الّذي عالجني من حادث السّيّارة وأنا أرقد في مستشفى الأمير راشد . لم أكنْ أستطيع الإجابة ، كنتُ أسمع ما يدور حولي دون أنْ أكون قادرًا على التّفوّه بكلمة واحدةٍ . لكنّني في لحظات الوعي كنتُ أقول إجاباتٍ على أسئلةٍ لم أُسألْها . بالطّبع لم يسمعني الدّكتور شاهر ، ولكنّني قلتُ له : «لقد مرضتُ بسبب استثنائي من الفريق الأمنيّ» كان يقول : «هذا ليس سببًا كافيًا إلاّ إذا كنت مجنونًا» . أريد أنْ أقول له : «إنّني بالفعل مجنون» . لكنّه يُتابع : «هل المياه الّتي تشربها في قريتكم نظيفة؟» . أودّ أنْ أقول له «إنّها أنظفُ

مياهٍ في الأردنَ كلّها» . لكنّه معذورٌ لأنّه لم يسمعني . فيتابع : «الأميبا منتشرة هذه الأيّام ، فلا تشربْ من ماء إيدر» . أكاد أصرخ ، وأقسم أنّني لن أشرب من سِواها . فيستطرد : «الدّودة إذا تمكّنت من الإنسان، قلبتْه إلى كائنٍ آخَر» . أتذكّر إسرائيل ، هي الدّوة الّتي يقصدها في كلامه بلا شكٍّ . أسمعه يُكمل : «ما أصغرها ؛ لا تُرى بالعين المُجرّدة ومع ذلك تصنع الأعاجيب بهذا الجسد الضّخم بكلّ ما فيه من أجهزة وإمكانات» . أتأكّد من أنّه يعني إسرائيل ، لا تُكادُ تُرى وهي تسوقُ العرب ، ودُولهم ، وإمكاناتهم الضّخمة ، وأنهار أموالهم ، وطاقات شبابهم إلى المذبحة!!

أستعيدُ عافيتي بعدَ ثلاثة أشهر من العِلاج المُتتابع . عرفتُ أنّ الحفل تمّ ، وأنّ معاهدة الذّلّ وُقّعتْ . وأنّ الأيدي وكلّها آثمة تصافحتْ معًا في سلام الشّجعان كما كان يُسمّيه السّادات . لا أدري لماذا ترحّمتُ على السّادات حينَها كانَ زرقاءَ اليمامة بالنّسبة لقادة العرب الآخرين ، رأى ما لم يرَوا ، وعرفَ ما لم يعرفوا!! اتّهموه بالخيانة ، وذهب بأخزى ما فعلوا

خفّف قدوم ابني الثّاني بعضَ آلامي المُستوطنة في القلب . جاء (نور الدّين) ليكون سندًا لأخيه . كنتُ أعرفُ أنّ جيله سيكون أشجعَ من جيلنا ، وأنّه سيكون الأقدر على التّغيير ، وأنّ تبعيّته لن تكون إلاّ لِذاته ، وأنّه قادِرٌ على أنْ يقول (لا) في الوقت المناسب . تمنّيتُ أنْ أَراهما مُقاتِلَين في معركةٍ ما ، معركةٍ تكونُ على النّهر . النّهر الموعود . النّهر المُقدّس . لم أكنْ أستعجل القِيامة ، كنتُ فقط أريدهما أنْ يفعلا ما عَجِزتُ أنا عن فِعله . وجدتُ بهما وبأمّهما السّلوى . كانت العائلة الجدار الّذي حماني في أوقاتٍ كثيرةٍ من السّقوط في وادي الجنون .

لكنّها لم تحمني من العزلة . العزلة الاختياريّة كما قلتُ لكم . كانتْ عزلةً حميدة . وأبقتْ سيّارة الإسعاف - الّتي ظَلَلْتُ أقودها حتّى ذلك الحين - على النّافذة مفتوحة . النّافذة الّتي أطللتُ منها على العالَم ، على النّاس ، على طِباعهم ، على أمراضهم ، على علاقاتهم . على دَنَسهم . على وَسَخهم الّذي تفوح منه رائحةٌ نَتِنة . بعضُ الّذين صعدوا إلى سريرها كانوا من الّذين تُرِكوا بلا مأوى . أو من الّذين انْتشَلْتُهم في النّزع الأخير من دور المُسنّين والعَجَزة . كان صعودهم معي إلى هنا يُريني الوجه القبيح للإنسان ، كيف يتحوّل الابن إلى قاتلٍ لأبيه وهو حَيّ كيف يرى الابن في أبيه عثرةَ تقدّمه وما الابنُ إلاّ ضرطةٌ كبيرة ، كيف ينظر إليه على أنّه عارٌ وما العار إلاّ ما يفعل ، كيف يرميه خارج عتبة بيته ليتركه في دور المُسنّين للوحدة ، تنهشه الكآبة ، وتلغ كلاب الهجران في دمه . لم يكنْ حال الأمّهات بأفضلَ من حال الآباء كان قلبي يتقطّع على مرآهنّ ، كنتُ أبكيهنّ وهنّ على قيد الحياة ، لم يكن قرب زيارة الموت لهنّ هو السّبب ، كان الموت آنئذٍ راحةً لهنّ ، كان الألم الحقيقيّ أنْ تبقى تُهلوِس باسم ابنها العاقّ وهو لم يرها منذ أعوام طويلة كلّ ما يُميّز الابن تلك الرّتبة العالية الّتي يحملها على أكتافه ، وما يدري أنّه بهذا الفِعل انحطّ إلى قعر الخِسّة والنّذالة . صاحبتُ عدداً من هؤلاء الرّاحلين . نقلتُهم من هنا إلى هناك أكثر من مرّة . حاولتُ أنْ أكون ابنَهم ، أنْ أعوّض لهم فقدهم ، حاولتُ أنْ أزرعَ أملاً في صحراء البُعد والجفاء ، حاولت أنْ أجعلهنّ يبتسمْن . كُنّ يجدْنَ بعضَ العَزاء معي ، وكنتُ أحظَى بكثيرٍ من الدّعوات معهنّ .

الأمّهات صنفٌ عجيبٌ من المخلوقات ، أنا أقول ذلك عن تجربة كُنّ يتسامَين على كلّ الجِراح من أجل تلك المُضغة الّتي حَمَلْنها في

أرحامهنّ ذات زمن . يظلّ الابن لهؤلاء الأمّهات - حتّى لو كان عاقًا - صغيرَهنّ المُدلّل ، ويبقَى قلبها مُعلّقًا به ، تُسامحه وتغفر له ، ولو كنتُ مكانها لأشعلتُ فيه النّار . مَنْ قال إنّ قلبَ الأمّ ينتمي إلى البشر على ما فيهم من خِصالٍ حميدة مُخطئ!! إنّه قلبٌ من نور ، لا بُدّ أنّه ينتمي للملائكة الّذينَ لا يعرفون إلاّ الله ، ولا يرجون إلاّ قُربه ، ولا يعيشون إلاّ في جَلاله كثيرًا ما كنتُ أعودُ في تلك الأيّام من العسكريّة فأُهرع إلى أمّي ، أهوي على قدمَيها ، أقبّل الغُبار الّذي يعلوهما ، وأبلّلهما ببكائي . تستغرب . إنّها لا تدري ما أرى . أقول لها : سامحيني . شغلتْني الحياةُ عنك . تبتسم . أرفعُ وجهي المخضلّ بالدّموعِ ، تمسح عليه بيدٍ من حنان . تُعيدُ إليّ بشريّتي . لو تمثّلت الرّحمةُ على هيئةِ مخلوقٍ لكانت قلبَ الأمّ!!

كَبُر الأولادُ يا فاطمةُ . صارت خطواتهم تنهب الأرض كلماتهم فراشات تذرّ الفرحة في قلبي . أصواتهم صدى روحي المتعبة تُعيد إليها ألقَها . غدًا سيدخلون المدرسة . وسيُصبِحون ما يريدون . «عليهم أنْ يعرفوا أنّ أباهم قاتلَ في هذه الحياة من أجلهم يا فاطمة» . أقول لها مازِحًا . تردّ بتحدٍّ : «قاتلتَ من أجلهم؟! لم أركَ تُطلِق رصاصةً واحدةً» . تجعلني العبارة الأخيرة أنكّس رأسي . تصفعني على وجهي صفعة الكلمة أشدّ بكثير من صفعة الكفّ ، الثّانية سرعان ما يزول أثرها ، والأولى تظلّ حاضرةً عشرات السّنين حتّى تأكلها أَرَضةُ النّسيان إذا تمكّنتْ منها بعد هذا الزّمن الطّويل . أهتف في سرّي : «صدقتِ يا فاطمة ، ولكنْ هل تعنين ما تقولين؟ هل تُريدين منّي أنْ أحمل البندقيّة وأقاتِل ، وأطلق الرّصاصات الّتي لم أُطلِقْها؟ ولكنْ على مَنْ؟ أيّ هدفٍ تستحقّه رصاصاتي؟» .

صرتُ أتردّدُ بسيّارة الإسعاف على مستشفى الأمير راشد العسكريّ . كوّنتُ علاقات قويّة مع الأطبّاء . غير الدّكتور شاهر ، كان هناك عددٌ كبيرٌ من الأطبّاء والممرّضين ممّن أصبحوا أصدقاء لي . لكنّ علاقتي بهم تبدأ هناك وتنتهي هناك . يُمكنك أنْ تقول إنّ مهنةً واحدةً قد جمعتْنا كنتُ أصفّ السّيّارة على باب الطّوارئ كالعادة . يكون طاقمٌ من المُسعفين بالإضافة إلى الّذين تحملهم سيّارتي ينتظرون على الباب . يحملون السّرير بالقادم فيه . أعيد اصطفاف سيّارتي في موقفها المخصّص لها . وأدخل إلى المستشفى أنتظر تقرير الطّبيب . أحيانًا كنتُ أنتظر فترةً تزيدُ عن ستّ ساعاتٍ ، كانت الأوامر تقضي بأنْ أعود إلى وحدتي ومعي تقرير طبيب المستشفى العسكريّ ليتسلّمه منّي طبيب الوحدة حسب الأصول . في السّاعات الطّوال الّتي أقضيها في الانتظار ، كنتُ أجدُ فرصةً كبيرةً في التّعرّف أكثر على النّاس . مَنْ أراد أنْ يعرفَ قيمة الحياة فلينظرْ في وجوه القاطنين في وحدة العناية المُركّزة . كان يُسمَح لي بالمرابطة فيها كلّ الوقت . تعوّد عليّ هنا كلّ مَنْ في المُستَشفى بلباسي العسكريّ ، وذقني المحلوقة ، وجسدي المشدود . وكان يُسمَح لي بحرّيّة التّجوّل بين أقسام المُستشفى دون أيّ اعتراض صحبتي للدّكتور شاهر فتحتْ لي مساحةً واسعة لصحباتٍ أخرى أكبر وأوثق .

دخلَ حيًّا وخرج جُثّة . قلتُ هذه العبارة لنفسي أكثر من مئة مرّة خلال ثلاث سنوات . كنتُ أحمل هؤلاء إلى هنا مرّة أو مرّتين في اليوم . كان يخطر ببالي : إذا كان كلّ هؤلاء يرحلون وعبر سيّارتي فحسب ناهيك بالرّاحلين عبر سيّارات أخرى ، وأسباب أخرى ، فكيفَ يزداد عدد السّكّان في الأردنّ؟!! كنتُ أعتقدُ أنّه إذا استمرّ الأمر على

هذه الوتيرة فإنَّ الأردنَ ستصبح منطقة خاليةً من السُّكَّان خلال عشر سنوات فقط . وأضحك لأنّني أجدُ الأمر طريفًا كانتْ أعدادُنا تزداد ببركة القادمين إلينا هنا . نحن شعبٌ مِضياف ونحبّ كلّ النّاس . قذف حِصار العراق في أوائل التّسعينيّات أمواجًا من البشر إلى هنا ، وقذفتْ حرب الخليج الثّانية بعدها أمواجًا أخرى إلى مَضيقنا كُنّا نقول : «المكان الضيّق يسع مئة محبّ» .

غارتْ منّي زوجتي لكثرة تردّدي على المستشفى . «الممرّضات يسحبْن الرّجل مثل الحيّات ، والرّجال عيونهم فارغة» تقول وهي تُردف : «لماذا عليكَ أنْ تظلّ سائقًا لسيّارة الموتى؟!» . أضحك . تزداد غيظًا . أحاول أنْ أسترجع ماء الودّ ، أقول لها : «الموتُ لا يتركني أنظر إلى أيٍّ منهنّ يا فاطمة» . تقول : «إنّهنّ عجفاوات ، مُزيّفات» . أقول : «هل أحتاج إلى قَسَم لأؤكّد أنّني لم أنظر إلى أيّ واحدةٍ منهنّ» . تُنكِر : «لقد صرتَ صديقًا لكلّ مَنْ في المُستَشفى» . «لا يوجَدُ صديقٌ لي في حياتي غيرك» . «تكذب كما يكذب كلّ الرّجال» . «أُقسِم لك إنّني صادق» . «عيناك تفضحانك ، أرى سرورَك بلقائهنّ ظاهِرًا في لَمعانهما» «سوفَ ألبسُ نظّارةً سوداء» . تبدو غاضِبة من جديد : «هكذا أنتم أيّها الرّجال تهربون حينَ تحاصركم الحقيقة» . «الحقيقة أنّه ليس في حياتي سِواك» . ثُمّ أقول متصنّعًا غضبًا وعِتابًا لتحويل مجرى الحديث : «أنا جائعٌ يا فاطمة ، منظر الموتى يُجيع ، ألَمْ تطبخي بعد؟!» .

في أوائل عام ١٩٩٦ تمّ نقلي إلى كتيبة (أبي عبيدة) . كان قائد الكتيبة يعرفني حقّ المعرفة ، خدمتُ في حضرته عندما كان قائدًا لسريّة . أدّيتُ له التّحيّة أوّل ما رأيتُه . خفضتُ له رأسي احترامًا ، ثُمّ عانقتُه . الأصدقاءُ في الغُربةِ وَطَن .

قُدتُ به سيّارته بالإضافة إلى سيّارة الإسعاف . كنتُ أحبّه ، فتطوّعتُ أنْ أكونَ سائِقه إذا لم تكنْ لديَ مهمّة في سيّارة الإسعاف وكان يُحبّني ، ويميّزني عن بقيّة الزملاء . مع أنّه كان لطيفًا معنا جميعًا . تعرف بعد سنواتٍ طويلةٍ من الخدمة العسكريّة ، أنّ ما يجعلك تحترمُ قائدك ليس منصبه ، ولا النّجوم الّتي تحطّ على كتفيه ، ولا عشيرته ، ولا كَشْرته الّتي هي بصمةٌ على وجوه الأردنيّين كما يقولون ، ولا صوتَ أوامره الّتي لا يُمكن تخطّيها . بل أخلاقُه ؛ أخلاقُه الّتي يخشع لها قلبُ الحجر ، أخلاقُه الّتي تأذنُ للتّربَة القاحِلة أنْ تُنبت الورد . والكلمة الطّيّبة الّتي تأذن للقلب أنْ يُشرق .

في نهاية ذلك العام ، كُلّفتْ كتيبتُنا بحراسة منطقة الأغوار ، صدرت الأوامر قبل رحيل ذلك العامِ بيومَين ، فرِحتُ . من جديدٍ أزهر الأمل في صدري . هذه المرّة سأتمكّن من تحقيق ما عزمتُ عليه ، وخطّطتُ له من خمس سنين .

توزّعتْ كتيبتُنا على نقاطٍ كثيرةٍ في الأغوار . كانَ لي عِلْمٌ سابِقٌ بمنطقةٍ حدوديّة تُسمّى (الباقورة) . لقد قرأتُ عنها كثيرًا . استلبها اليهود قَبل أنْ تحدث النّكبة عام ١٩٤٨, وفي اتّفاقيّة وادي عربة عام ١٩٩٤ لم يتغيّر على حالها الكثير غير الاسم ؛ سُمّيتْ بالباقورة المُستعادة ، وقصّتها طويلة . ليس هذا هو المهمّ في الأمر ، المهمّ أنّ اليهود حتّى بعدَ الاتّفاقيّة ظلّوا يعتبرونها بمزارعها الغنّاء ملكًا لهم ، فكانتْ تأتيها حشودٌ قادِمة من أنحاء شتّى من الكيان الغاصب لزيارتها بعضُ الّذين خدموا فيها من زملائي أكّدوا أنّه لا يمرّ يومٌ من الأيّام في صيفٍ ولا شِتاء دون أنْ تأتي إليها مجموعاتٌ من اليهود في رحلاتٍ سياحيّة كان هذا الأمر هو محور تفكيري . كانت منطقة الباقورة تقع

ضمن النّقاط الحدوديّة المطلوب منّا حراستُها، فسارعتُ بالطّلب من قائد الكتيبة أنْ يجعلني ضمن الفريق المُكلّف بحماية هذه النّقطة بالذّات، ولا أريد أنْ أذهب إلى أيّ منطقة أخرى. لم يجد القائد بأسًا في طلبي هذا، واعتبره مشروعًا، وسرعانَ ما وافق! كانَ ما حدث من استثنائي لأنّني مُراقبٌ قبل أكثر من عام في احتفال وادي عربة ما زال حاضِرًا في ذاكرتي، ولهذا كنتُ أخشى أنْ يتكرّر الأمر هنا، وجهّزتُ عشرة أسبابٍ على الأقلّ من أجل أنْ أُقنع قائد الكتيبة بقبولي في نقطة الحراسة في هذه المنطقة بالذّات، لكنّ القائد أراحني منها كلّها، حينَ دخلتُ على مكتبه بدوتُ مرتبكًا قليلاً. قال لي بكلماتٍ دافئة: «أعرف أنّكَ تريدُ أنْ تخدمَ في منطقة الباقورة». خفتُ أنْ تكونَ هذه العبارة مُقدّمةً للرّفض، سألتُه: «ومَنْ أخبركَ بذلك سيّدي؟». «عيناك» كدتُ أنْ أغلقهما، هتفتُ في سرّي: «عيناي تُوقِعانني في الفخّ عند زوجتي، وهنا أيضًا؟!». قلتُ: «وهل يُمكن أنْ أخدمَ هناك سيّدي؟». أجاب: «بالطّبع يا أحمد... بالطّبع... بشرطٍ واحد» هتفتُ وأنا أشدّ صدري إلى الأعلى: «أنا موافق على أيّ شرطٍ يا سيّدي». هتف: «أنْ تكون نموذجًا في الانضباط والجنديّة يا أحمد» خبطتُ الأرض ببسطاري، وأدّيتُ التّحية، وتراقصتْ حروفي من الفرح وأنا أصرخ: «حاضِرْ يا سيّدي»

(١٩)
لن أُسامحَ ولن أغفر ولن أنسى

لن تهنأ يا (بنحاس روتنبرغ) حتّى وأنتَ في قبرك . سأجعل عِظامك تلعن اليوم الّذي وطِئتَ فيه ترابنا ، وسرقتَ فيه أرضَنا . لم تكنْ ذرّةٌ واحدةٌ منها لك ولا لأجدادك الملاعين ، ولا لأحفادك الخنازير . لكنَّ بني قومي لا يقرؤون التّاريخ . واحسرتاه . لو ولدتُ قبلَ ستّة عقود لأكلتُ من لحمك . الحكومات الّتي اعترفتْ بك وأعطتْكَ ما ليسَ لك سأجعلها هي الأخرى تندم ، وسترى ذلك قريبًا أيّها الضّبع . أنا متمرّس في سَحق الضّباع . لن تجرّ شاةً من جديد ، حتّى ولو ورث أنيابَك الّتي تقطر بالدّم كلُّ أبناء جلدتك ، وحتّى لو ظلّ أصحاب السّلطة من بني جلدتي يُواظِبون على تقديم الورود لك ولمن جاء بعدك ، وينثرونها على رُفاتك اللّعين .

هذه أرضي ، وهذا ترابي ، وهذه سمائي ، وهذا مائي . وسأحوّل كلّ ما فيها إلى جحيم يبتلعك حتّى ولو كان ذلك آخر يومٍ في حياتي . أنا لا تعنيني الاتّفاقيّات ، ولا الوعود ، ولا المُعاهداتُ ، فليبلّوها ويشربوا ماءها . إنّها لا تساوي ثمن الحبر الّذي كُتبتْ به . أنا أفهم اللّغة الّتي تفهمها أنتَ ؛ إنّها لغة الرّصاص . أدري أنّكَ جئتَ في زمنٍ لا يعترفُ سادتي فيه بهذا المنطق ، لكنْ هذا شأنهم ، أمّا شأني معكَ ومع أتباعك فأنا أعرفه كما تعرفه أنت . ويوم القَصاص قريب ؛ فأينَ المفرّ!!

أمّا نهر اليرموك الّذي سرقتَ ماءه، فسأصبغ ماءه هذا باللّون الأحمر، لكثرة ما ستسيل فيه من دماءِ أمثالك. أتظنّ أنّ الأمر سيمرّ هكذا. أسمع روحَكَ الملعونة تُقهقه «لقد مرّ أيّها السّاذج وانتهى» لقد مرّ على غيري، أمّا عندي فلن يمرّ. والحربُ سِجال. وجذوتها لم تنطفئ. ولن تُفيدكَ (الهاغانا) بشيءٍ، ورصاصةُ الغدر ترتدّ على صاحِبها. أنا أعرفُ أنّك مثلي لا تُصدّق هذه المُعاهدَات الزّائفة لأنّكَ مثلي تؤمن أنّ الحرب ستقوم آجِلاً أم عاجِلاً. وستنهضُ من جديد على كُعوب بنادقنا نحن الّذين نضحك ممّا يجري فوق الطّاولات، في حين أنّ كلّ شيءٍ حقيقيّ يجري تحتها

لقد وجدتُ ضالّتي، وها أنا أقف في مدى المُواجهة. لم يبقَ إلاّ التّخطيط المَدروس. أولى الخُطوات المستشفى. المستشفى؟! بلى. أصدقائي فيه من الأطبّاء كثيرون، سأحصل منهم على تقارير تُفيد بأنّني مريضٌ نفسيّ. الأمر سهل. الحركات والكلمات جاهزة. أمّا الهيئة الّتي تمنحني هذه التّقارير فقد تدرّبتُ عليها مئات المرّات. وسأفعل ما أريد؛ لأنّني أريد. هذا هو الفرق بيني وبين الآخرين. أمعقولٌ أنّ اللّحظة الّتي انتظرتها كلّ هذه السّنين قد حانت!! ما فات مات وكُلّ آتٍ آت. والآتي ترسمه البنادق الثّائرة. والأيادي الطّاهرة. وإنّي لأرجوها

في اللّيل عشيّة ذهابي إلى المُستشفى جاءتني امرأةُ عمّي في المنام، كانتْ تبدو فَرِحة ترفل بثوبٍ أبيض طويل. أضاءتْ بسمتُها عتمة روحي. قالت: «هل ستثأر لي؟». أجبتُها: «لقد انتظرتُ هذه اللّحظة طويلاً». قالتْ: «الرّصاصات عمياء إذا كان هدفها غير واضح». أجبتُها: «لم يكنْ هدفي أكثر وضوحًا منه اليوم»

«وأنتَ؟!» . «لن أُسامح ولن أغفر ولن أنسى» . قالتْ : «البندقيّة الّتي على كتفك أمل الوطن ، فيها تختبئُ أحلامه ، فحذارِ أنْ يسرقوها» «لن يستطيعوا ، وأنا حارِسُها» . «وماذا أعددتَ لها كي لا تُسرَق؟» «الإيمان والرّصاصات» «والصّبر فالطّريق طويلة» «والصّبر . ولن أتعب» «في الطريق الشّائكة لن تجد على الحقّ مُعينًا . يكثر النّاس في طريق الباطل ويقلّون في طريق الحقّ» . «لستُ وحيدًا . معي قلبي ويقيني»

أخذني الدّكتور شاهر إلى العيادة النّفسيّة ، كان الطّبيب (رامي) متهيّئًا لاستقبالنا ، ضحك أوّل ما رآني . سألتُه : «لماذا تضحك؟» . لم يُجِبْ غير أنّه حرّك يدَيه في الهواء ثُمّ خفض يُمناه كأنّه يريد أنْ يقول لي «اخرسْ» . نظرتُ إلى الدّكتور شاهر كان هو الآخر يضع يدَيه على فمه يُحاول أنْ يخنق ضحكةً تحاول التّفلّت رغمًا عنه . تحسّستُ القبّعة العسكريّة الّتي أعتمرها ، ظننتُ أنّها هي السّبب ، أصلحتُ من شأنها عدلتُ ياقةَ القميص العسكريّ الّذي أرتديه . انحنيتُ لأراني كلّ شيء كان عاديًا!! مسحتُ على وجهي بيدي ، خِفتُ أنْ يكونوا رأوا فأرًا مثلاً يتسكّع على قَسَماته ، أو أرنبًا يقفز فوق شعر رأسي فلذلك غرقوا في الضّحك . نظرتُ في المرآة ، كنتُ حتّى هذه اللّحظة طبيعيًا لا يوجد ما يلفت الانتباه في شكلي أو يُثير الضّحك . لكنّني أنا الآخر عالجتُ فمي بيدي من الموقف الّذي حدث للتّوّ وكدتُ أنفجر بالضّحك لضحكهم . تساءلتُ في نفسي إنْ كان أطبّاء العيادة النّفسيّة يحتاجون هم الآخرون إلى عِلاج نفسيّ .

سألني الدّكتور رامي : «ما الّذي تشعر به؟» . انفلتُّ بالحكي : «تلتوي أمعائي ، أشعر كأنّها تلتفّ على بعضها كالتفاف أفعى ضخمة

على جسد تمساح في مياه طينيّة» . ضيّق الطّبيب عينَيه ، شهقَ شهقةً يتيمةً ، أراد أنْ يُتبِعها بزفير حارّ ، لكنّني قبل أنْ يفعل ، كنتُ أتابع ما يحدث لي : «مثانتي تكاد تنفجر كلّ ساعة ، أضغطُ بيدي على محاشمي حتّى لا أتبوّل على نفسي ، حاجتي إلى التّبوّل تحدث كلّ عشر دقائق على مدى خمس سنين» هزّني الدّكتور شاهر من كتفي وعضّ على شفتَيه «هذه الأعراض ليس لها علاقة بالأمراض النّفسيّة ، قُلْ أيّ شيءٍ آخَر» . نهره الدّكتور رامي : «دَعْه يتحدّث براحته ، هل أنتَ طبيبه النّفسيّ أمْ أنا؟» . تابعتُ بفرح مثلَ سيلٍ هادرٍ توقّف لحظاتٍ حينَ اعترضَتْه حصاةٌ صغيرة ، ثُمّ تدفّقَ بعنفوانٍ طاغٍ «أنا دائمُ القلق والخوف ، أشعر أنّ سكاكين مثل السّهامِ نازلة منَ السّماء تريدُ أن تنغرسَ في عينَيّ ، فأركضُ هاربًا فتنشب في ظهري مُشكّلة غابةً من الخناجر تُشبه جلد القنفذ . أنا لا أنام جيّدًا . الكوابيس تمنعني من التّمتّع بنوم كافٍ . عيوني دائمة الاحمرار بسبب قلّة النوم . تنفّسي في الشّهور الأخيرة صار بطيئًا . أشعر بالاختناق ؛ لديّ صعوبةٌ في دخول الهواء إلى رئتيّ أو خروجهما . دائمًا هناك رفّة في القلب تؤلمني أضع يدي على صدري لكي أتخلّص منها ، أدلّك الصّدر جهة القلب لكي تسيل دماؤه لأنّني أحسّ أنها تتجلّط . حين أستيقظُ من النّوم بعد سلسلةٍ من الكوابيس أكون غارقًا في عرقي ثيابي تكون مبلّلة من شدّة العرق . مخدّتي كذلك ولحافي . تظهر لي في عملي أشياء لا أدري إنْ كانت حقيقةً أم أنّ خيالي يخترعها معظم هذه الأشياء الغريبة تحدث وأنا أقود سيّارة الإسعاف . تتشكّل هيئات المرضى الّذين يصعدون معي وأنا أرمقهم من خلال المرآة على هيئات حيوانات غريبة ، أحيانًا قرود ، وأحيانا زرافات ، أفاعٍ ، مِعاز

سوداء ، و . بشر متوحّشون . حينَ أغسل يديّ بالماء ، يتحوّل الماءُ إلى دم . أنفض يديّ . أرتعب . لكنّني أحتمل المنظر حتّى إذا ظننتُ أنّني انتهيتُ من غسلهما رأيتُهما مُتسختَين ، فأرجع لأغسلهما من جديد ، وأرى قطرات الدّم تنثال من بين أصابعي . . . هل أنا طبيعيٌّ يا دكتور؟ لا أدري ماذا يحدث معي . أصابُ بالخمول كثيرًا لا أريد أنْ أذهب إلى العمل . أجلس في زاوية البيت أدخّن فحسب . أتصوّر نفسي أغوص في تلك الزّاوية وأتحوّل إلى سحليّة ، أدخل أحد الثّقوب لأتوارَى عن البشر. لا أريد أنْ يراني أحدٌ أو أن يُحدّثني أحدٌ . أنا لا أصلح للحياة مع النّاس ، ولا للحياة نفسها . أفكّر أحيانًا بالانتِحار . هل هذا أمرٌ طبيعيٌّ يا دكتور . لا تقلْ لي إنّها أعراضُ الكآبة ، فأنا أبو الكآبة وعمّها وجدّها ، ليست هذه الأعراض لها ، كلّ ما في الأمر أنّني أريد أنْ أعيشَ كما أريد لا كما يُريد الآخرون ، والآخرون يُصرّون . . . هل أُكمل يا دكتور؟» . هزّ الدّكتور رامي رأسه دون أنْ يتكلّم ، كانت عيناه جاحِظتَين ، وكنتُ ألمح فيهما طيورَ فرح تحلّق عالِيًا . أمّا الدّكتور شاهر فوضع يده على ذقنه وضيّق عينَيه يُحاوِل أنْ يستوعب الموقف تابعتُ بعد هزّة رأس الدّكتور رامي : «أشعر أنّ حياتي بلا قيمة ، بلا جدوى ، بلا معنى ، أريدُ لها أن تنتهي سريعًا ، أنْ تنتهي على أيّ نحو ، المهمّ أنْ تنتهي ، لقد سئمتُ كلّ هذا الهراء الّذي أعيشه . أحيانًا أركضُ في الشّارع ، تنتابني حالاتٌ من الفرح المُفاجِئ . أُقهقه كالمجنون ، أحرّك يديّ في الهواء مثل أشرعة سفُن مُسافرة ، أقفز ، وأضحك من كلّ قلبي ، هل هذه ردّة فعلٍ على الأسى ، الأسى ما بِنْتَسى كما يقولون ، ومع ذلك أحاول أنْ أفعلَ ، جرّبتُ ذلك مئة مرّة ، ولكنّني فشلتُ في كلّ هذه المحاولات . أتذكّر الشّيخ عبد الرّزّاق ، له

فضلٌ كبيرٌ عليَّ يا دكتور، حَبَّبَني بالعلم وبالقرآن وبالقراءة. أتذكَّر حلقات الذِّكر معه في المسجد، فأطرب لتلك الأيَّام، أذهب إلى المسجد أبحث عن الشَّيخ عبد الرَّزَّاق، أشعر بجوع إلى مقابلته وبثِّه همومي، ولكنَّني لا أجده، أسأل عنه، فيقول لي بعضُ المصلِّين الحمقى في المسجد: مَنْ هو الشَّيخ عبد الرَّزاق؟ فأجيبهم: الإمام. فيردُّون بوقاحة: لم يؤمّ هذا المسجد منذ ثلاثين سنة شخصٌ يُسمَّى عبد الرَّزَّاق. أكادُ أصفعهم على وجوههم. أخرج. أبحثُ عنه في كلِّ الجوامع. أخرج إلى القرى الأخرى. أذهب إلى حاتم وإلى كفر أسد وإلى حرتا وإلى أمّ قيس، أدور جوامعها جامعًا جامعًا لعلِّي أعثر على الشَّيخ عبد الرَّزَّاق، إنَّه يعني الكثير لي وأنا مشتاقٌ جدًا إليه، وأشعر أنَّ لديه حلولاً سحريَّة لمشاكلي. طفتُ كلَّ القرى، إلى أنْ دخلتُ مسجدًا في قرية نائية، لم أعدْ أتذكَّر اسمها، ليس فيها ناسٌ كثيرون، كان ذلك يوم خميس من الخميسات الَّتي أكونُ فيها مُجازًا. رأيتُه هناك. كان هو، إنَّني أعرفُه من صوته الشَّجيِّ وروحه المرحة. تذكَّرتُ قلادة خالد بن الوليد أوَّل ما رأيتُه، كان يجلسُ في وسط حلقةٍ تُشبه الحلقات الَّتي كان يعقدها لنا في (إبدر) قبل أكثر من عشرين عامًا كان وجهه يطفح بالبِشر، لحيته ازدادتْ بياضًا وقسمات وجهه ازدادتْ حمرةً، وعيناه تغيَّرتا، صارتا زرقاوَين، انضممتُ إلى الحلقة، عندما رآني قام إليَّ واحتضنني وأجلسني بجانبه، وقضيتُ معه تلك اللَّيلة، ثُمَّ تعشَّيتُ في بيته، ونمتُ عنده. الحمقَى يقولون: ليس هناك شيخ اسمه عبد الرَّزَّاق، وماذا يكون هذا الَّذي رأيتُه إذًا؟! وكيف آكلُ من طعامه وأبيتُ عنده ولا يكون هو... هل أُكملُ يا دكتور؟». أشار الدّكتور رامي بإصبعه إشارة عصبيَّة، دوَّره في الهواء مثل دولاب

عجلة ، وكأنّه يقول لي تابع دون أنْ تتوقّف ، لا تسألْني في كلّ مرّة السّؤال نفسه أكملُ بنهم كأنّ جوعي إلى الكلام لم يُشفَ : «قضيتُ شهرًا مع الشّيخ عبد الرّزّاق ، في كلّ مرّةٍ نُذهل في الحضرة مع السّالكين عن أنفسنا ، يا حنّان . . . يا منّان . . . يا ذا الجُود والإحسان . . . كُنّا نردّدها حتّى نذوب ، كُنّا طيوفًا من النّور لم تُر ، وحروفًا من الحقّ لم تُسمَع . بحثَ عنّي أهلي في كلّ مكانٍ ، لم يجدوني ، مَنْ أنِس بالله تخلّى عن الخلق ، فكيفَ سيجدونني؟! قال لي الشّيخ عبد الرّزّاق : نحن هنا لا ننتمي إلى عالَم البشر ولسنا على الأرض ، عُدْ إلى أهلك ، حضرتنا باقيةٌ إلى يومِ الدّين ، إنْ شئت التحقْ بنا في كلّ عامٍ شهرًا ، ستجدنا بانتظارك دائمًا ، أمّا الآن فعد إلى أهل بيتك . لم أستوعبْ أنّني سأخرج من هذا النّعيم ، رفضتُ ، أنكرتُ ، لكنّ عينَيه كانتا حازمَتَين . قال لي : لن تقوى على مرافقتنا كلّ الوقت ، أنتَ ميّت ، وطينيّتُك تجذبك إلى العالَم السّفليّ ، أما نحن فأحياء ، ونورانيّتنا تسمو بنا إلى الأعالي ، وأرواحنا مُعلّقةٌ بعرش الرّحمن كيفَ للميّت أنْ يعيشَ بين الأحياء!! رضختُ لرغبته ، كادتْ روحي تفارقني وأنا أفارقه . استحلفتُه أنْ يدعوني إليه كلّما احتاجَ إليّ . أنا خادمكَ يا سيّدي وطَوْعُ أمرك ، لثمتُ ظاهر يديه ، وخرجتُ . . . هل أكمل يا دكتور؟!» . هزّني من كتفي بعصبيّة ، وصرخ : «مَنْ قال لك أنْ تتوقّف؟» . تابعتُ بشغف كما لو أنّني بدأتُ الكلامَ الآن : «كثيرًا ما يُصيبني الشّرود يا دكتور ، لا تقلْ لي إنّه هروبٌ من الواقع ، من ضغط الأعباء اليوميّة ، هذا تحليل السّذّج ، شرودي نابعٌ من شعوري بالغربة عن هذا العالَم ، أحلّق في سَماوات بعيدة ، وأرتاد آفاقًا لم يرها بشرٌ من قبلُ ، الواقع ليسَ مؤلِمًا تمامًا ، نحن نؤلمه أكثرَ مِمّا

لأملنا ، ولو نطقَ لقال للبشر كفى . . .!! كفى كذبًا وتدجيلاً ونفاقًا وغشًا وادّعاءً . أحيانًا يا دكتور يحدث عندي مسحٌ للذّاكرة ، يبدأ بمغص في الصّباح ، أطلب من قائد الوحدة إجازةً مرضيّة فيمنحني إيّاها ، في الطّريق تُصبح ذاكرتي صِفرًا ، عقلي يُصبح نظيفًا تمامًا ، لا يُوجَد فيه أيّ شيء ، أيّ شيءٍ على الحقيقة يا دكتور ، أنسى أنّ لي أبًا أو أمًا أو أخوات أو إخوةً أو زوجةً أو أبناءً ، وحينَ أصلُ إلى المجمّع لاستقلّ سيّارةً ، أنسى إلى أيّ قريةٍ سأركب ، أطالع أسماء القُرى والمدن على اللّوحات ، يمرّ اسم قريتي من بينها ولا أتذكّرها . . ليستْ هنا المُشكلة ، أنوي أنْ أعودَ من حيثُ أتيت ، لكنّ المشكلةَ أنّني أنسى المكان الّذي أتيتُ منه ، أقفُ على البرزخ بين بيتي ووحدتي ، لا إلى هنا ولا إلى هنا ، أضيع ما بيني وما بيني أنا . تستمرّ هذه الحال معي يومين ، أبيتُ في الشّوارع ، تُوقظني سيّارة إسعاف بزامورها تمرّ من مجمّع الأغوار ذاهبةً إلى مستشفى الأميرة بسمة فأتذكّر مَنْ أنا ، إنّ هذه السّيّارة تنتمي لي ، أنا أقودُ مثلها ، أنا في الجيش ، أنا أحمد ، وقريتي إبدر ، تستيقظ الذّكريات فجأةً بعدَ نوم طويل ، كأنّها غزلان نهضتْ من مجاثمها ، وتركضُ ، تبدأ تركضُ في كلّ اتّجاه ، وقعُ أقدامها في غابة عقلي يُوقظ كلّ شيءٍ فيه . أنفضُ الغبار والأوساخ عن ثيابي ، وأعود إلى وحدتي حتّى لا تراني زوجتي في صورةٍ رثّة ، هناك أغيّر ثيابي ، وأتابع حياتي بشكلٍ عاديّ ، وأعود إلى الانضباط والمسؤوليّة كأنّ شيئًا لم يحدث . . . سُقتُ مرّةً سيّارة الإسعاف إلى مخيّم الرّويشد على الحدود العراقيّة ، كنتُ قد سمعتُ أصوات استغاثاتٍ من أهل المُخيّم ، أردتُ أنْ أساعدهم ، طرتُ بالسّيّارة في طريقٍ صحراويّ لا تُشاركني فيه إلاّ الهوامّ والحرارة الّتي تُذيب الحديد ،

قُدتُ لأكثر من أربع ساعات أنهبُ الطَّريق نهبًا كانت الرِّمال الصَّفراء والسَّوداء أحيانًا ترافقني طوال الطَّريق ، لا بشر ولا شجر ولا حجر ، وحدي مع الدّروب المُهلكة ، مرّ الوقت بأكمله ولم يظهر أيّ بنيانٍ أو أيّ مخيّم أو أيّ أحد . توقّفتُ في السّاعة الخامسة ، بدا أنّني ضللتُ الطّريق ، ومع أنّني أحفظها تمامًا إلاّ أنّني بدوت ضائعًا بالفعل . قُدتُ ساعةً أخرى لعلّ شيئًا سيظهر ، لكنّ الرّمل ظل عنيدًا ولم يُبدِ سواه في مدى الرّؤية ، كانتْ حرارة الشّمس قد بدأتْ تخفّ ، وصار رحيلُها بعد ساعتَين أو ثلاثًا أمرًا لا مفرّ منه ، فكّرتُ هل أتابع؟ كانت الصّرخات ما تزال ترنّ في أذنيّ ، وعليّ أنْ أقومَ بواجبي . فقرّرتُ أنْ أمضي أكثر ، توغّلتُ في مناطق غريبة عليّ ، بدا أنّها ليستْ من الأردنّ ، لا أدري إنْ كنتُ قد دخلتُ السّعوديّة أو العِراق أو أرض السّواد أو أحقاف الجنّ . كانت الصّحراء قد أحاطتْ بي من كلّ جهة ، صار الرّجوع صعبًا والتّقدّم أصعب ، احترتُ ماذا أفعل . أكلَ التّعب والخوفُ قلبي . لعنتُ النّداءات الّتي تتهيّأ لي ، والّتي تجعلني أفعل كلّ هذا ، ارتختْ أعصابي فجأة ، رميتُ رأسي على المِقود ، وغطستُ في نوم عميق . . لم أستيقظْ منه إلاّ بعد ثلاثة أيّام ، نظرتُ في سقف الغرفة ، فركتُ عينَيّ ، أجلتُهما في الفراغ ، بدا لي وجه فاطمة النّبويّ يبتسم!!»

احتار الطّبيب ماذا يكتبُ في التّقرير ، همس في أذن الدّكتور شاهر «إنّه مجمع من الأمراض النّفسيّة» . أجابه الدّكتور : «لا عليكَ سيتعافَى قريبًا» . قال التّقرير إنّني مُصابٌ بالوسواس القهريّ ، والهلع (الفوبيا) ، واضطراب ما بعد الصّدمة ، والهستيريا ، والاكتئاب الهوَسيّ ، والفصام (الشّيزوفرينيا) ، والإدمان ، والصّرع ، وفقدان الوعي ،

واهتزاز الشّخصيّة (البارونيّة والانعِزاليّة) ، والشَّرَه العصبيّ ، . . .»
وضعتُ التّقرير في جيبي ثمّ لعنتُ فرويد الكذّاب ومَنْ جاء بعده ،
كان هذا أحسنَ ما أريد ، على الباب ونحن خارِجون قال لي الدّكتور
شاهر : «ألهذه الدّرجة تُتقن التّمثيل ، أنا نفسي صدّقتُك!!» . بقيتُ
صامتًا . لم يُعجِبْه صمتي ، أردف بغيظ : «هل كنتَ تقول الحقيقة أمْ
تُمثّل؟» تركتُه ورائي ، وخرجت . قُدتُ سيّارة الإسعاف إلى الوحدة ،
تنفّستُ الصّعَداء ؛ لقد أتممتُ نصف الخُطّة!!

(٢٠)
لن أنظرَ إلى الوراءِ بعدَ اليوم

قالوا لنا : كلّ شيءٍ في (الباقورة المُستعادة) مُحرّم . إنّه يخصّ اليهود ولا يخصّنا . ممنوعٌ قطع ورقة شجرة ، ولا كسر غُصنٍ ولو كان يابِسًا ، ولا قَلعُ شيءٍ ولو كان شوكًا ، ولا أخذُ حبّة فاكهة ، ولا تناول شربة ماء . نحنُ قومٌ نعرف الحقّ وحدوده ، وعلينا أنْ نكون ملتزمين بعهودنا

كان برج المراقبة الّذي أعتليه في عملي الجديد ، يُطلّ على مساحة واسعةٍ من بلدي الحبيب فلسطين ، كانتْ تبدو نقيّة طاهرة ، لا تتلوّث إلاّ حينَ ألمح من بعيدٍ حافلةً تحمل سُيّاحًا قادِمين إلى المنطقة كان عليّ أنْ أتعلّم ضبطَ مشاعري ، غلياني الّذي يصعد إلى رأسي ويكاد يفجّره بسبب قدوم المجموعات السّياحيّة يجب ألاّ يظهر على جوارحي ولا يلحظه أحدٌ . عليّ أنْ أدرّب نفسي على التّحكّم بعواطفي . إنّ أيّ خطأٍ في الخُطّة وتوقيتها قد يكلّفني حياتي وفشلي ، في الحقيقة لم تكنْ حياتي مهمّة ، كنتُ قد بعتُها عندما عزمتُ على الأمر ، لكنّ الفشل كان هاجسي ، أنْ أتصرّف كعديمي الخِبرة وأُفسِدَ الأمور كلّ شيءٍ له أوان ، وكلّ عملٍ يحتاج إلى وقت ، وحتّى الوقت يحتاج إلى إدارة وتوزيع وتقدير . أنْ تتركَ الأمور على التّقادير تجري كما تشتهي الرّياح فتأكّد أنّ الرّياح لن تجري بما تشتهي أنت .

في أوقات الفراغ كنتُ أُواظبُ على قراءة وِردي من القرآن ، وأقرأ

ما يُمكن أنْ يُتاح من الكتب ، وأحادث الزّملاء . كانتْ تعتريني أحيانًا حالاتٌ من النّدم لأنّني لم أكمل دراستي ، لكنّني أتعلّل بما أقرأ . أيّام سيّارة الإسعاف الصّعبة قد ولّتْ وإنْ كنتُ بين الفترة والأخرى أشتاقُ للوجوه الّتي تحمل على قَسَماتها تذكرة السّفر إلى العالَم الآخَر . العمل هنا مريحٌ جِدًا . الوقوف في برج المراقبة يُشبه الوقوف في زنزانة ضيّقة لا يحدث فيها شيء ، صامتة وخرساء . الفرق أنّ البرج زنزانةٌ مفتوحةٌ على المُطلَق وهذا ما كان يُسلّيني . لم أكنْ أحمل البندقيّة دائمًا ، لأنَّ مُسمّاي كسائق ما زال يلتصق بي ، زملائي الّذين يُشاركونني نقطة الحراسة يحملون عددًا من البنادق ، وهناك غرفة خاصّة بها . لكنَّ البنادق كانتْ خرساء هي الأخرى ، ولا تكادُ تُبين .

في نوبة الحراسة اللّيليّة ، وفي اللّيالي الهادِئة كان يُغريني المنظر كثيرًا ، أنزل من برج المراقبة ، وأمشي في الطّريق المُعبّدة الطويلة الّتي تتفرّع عنها في نهايتها طرقٌ فرعيّة تصل إلى مزارع غنّاء ، وحدائق فيحاء ، كأنّها جنّة الله في أرضه ، وكلّها مغصوبةٌ من اليهود . يستهويني المشي ، فأوغل أكثر . زميلي يسدّ مكاني ، كنتُ قد بلّغتُه بذلك قبل أنْ أقومَ بهذه الجولة . لا يعنيه الأمر كثيرًا ، لكنّه لا يرفض في الهدأة . . . في الصّمت المُطبق ، في المكان الخالي من البشر سِواي ، أسمع حفَسَةً خلفي ، أشمّ رائحةً غريبةً ، أنفاسًا كريهةً ، شيءٌ ما حيوانيّ يقترب منّي حتّى لأكاد أشعر بأنفاسه تلفح ظهري . . . يعتريني الخوف ، أُضيء المِصباح اللّيلي الّذي أحمله ، وأستدير فجأةً إلى الخلف وأنا أصوّب المِصباح جهةَ الصّوت ، أتفاجأ بضبع كبير ، عيناه تبرقان على ضوء المصباح فيزداد رُعبي ، أصرخ كأنّني أطرده بصرختي المرعوبة ، يتراجع للضّوء لا لصرختي ، كان خوفي يُمكن أنْ

يُشكّلني وجبةً دسمةً له ، لكنّ ضوء المصباحِ يُضطرّه إلى الهرب ، يهرب ، وعلى وقع خُطاه المُبتعدة ، أسمع لُهاثَ صدري . أعودُ مُسرِعًا إلى نُقطة المراقبة وأنا أتلفّت خلفي ، يقول لي الزّملاء بصلافةٍ بعد أنْ عرفوا ما حدث : «نعم ، تظهر في هذه المنطقة ضِباعٌ بين الفينة والأخرى ، ألا تعرف؟!» . «كيفَ لي أنْ أعرف ، لم يقلْ لي أحدٌ شيئًا عن هذا الأمر» . «عليكَ أنْ تكون حذرًا» «عليّ أنْ أحمل بندقيّة إذًا» . يردّ أحدهم : «غير مسموح» . «بندقيّة صيد؟» «ولا حتّى هذه» البنادق لا تُغادر أرجاء النّقطة . أهتفُ في سرّي «سأجدُ طريقة»

بعد شَهرَين من الخِدمة صرتُ خبيرًا بالمنطقة ، صرتُ أعرفُ عدد الحيوانات الّتي تتردّد على المكان ، وأسماءَها وأشكالها وأحجامها ، بل صرتُ لشدّة مراقبتي للمكان أعرف أنّ المكان فيه أكثر من خمسين نوعًا من الطّيور ، كنتُ أعدّدها بالاسم نوعًا نوعًا . لفتَ انتباهي أنّ المنطقة فيها عددٌ لا بأس به من حيوان (النّيص) ، وكنتُ مولَعًا بصيده وأنا صغير ، فقرّرتُ أنْ أصيد واحِدًا منه ، وأنْ أشويه وأصنع منه عشاءً فاخِرًا للزّملاء . والنّيص حيوان يُشبه القنفذ ، لكنّ حجمه أكبر بأربعة أضعاف على الأقلّ ، وشوك جسمه أطول ، وقد يصل طول الشّوكة إلى ١٥ سم . المهمّ أنّني راقبتُ جحره ، وضبطتُ أوقات دخوله إلى ذلك الجُحر وخروجه منه ، غالِبًا ما تكون جحور النّيص في الصّخور . نصبتُ فخّي البدائيّ له أمام الجُحر في إحدى اللّيالي ، ولبدتُ له حتّى يقع في فخّي . استمرّتْ مراقبتي له ما يقربُ من ثلاث ساعاتٍ ، استثمرتُها في مراقبة كلّ ما يتحرّك ، ورأيتُ أنّ لليل مخلوقاتٍ تتفوّق على مخلوقات النّهار . كانت السّاعة الثانية فجرًا حينَ أطلّ برأسه من

خلف شقٍّ في الصّخرة الّتي يقع تحتها جحره . انتبه قلبي ، وطار النّعاسُ من عينَيَّ . هتفتُ بصوتٍ خفيض : «ها أنتَ . لقد تعبتُ من انتظارك . هيّا تقدّم إلى الفخّ أرجوك . لن أجعله يُؤلمك كثيرًا . سأسارع إلى رفع النّابض الحديديّ العالِق برجلك ، وسأحرّرك منه» . توقّف بلا حراك . دار رأسُه الصّغير يمينًا ويسارًا كما يدور رأس الصّقر ، مشى خطوتَين . فرحتُ . هتفتُ في سرّي : «بقيتْ لك خُطوتان أُخريان وتُصبح ملكي . أهلاً بك في عالَم البشر . ستعيشُ معنا يومًا واحدًا ، وبعده عليكَ أنْ تُسامحني ، لأنّ بطون زملائي جائعة وتنتظر أنْ تلتهمك في حفلة شواء رائعة» . مشى خُطوة ثالثة ، خفض رأسه ونقر في الأرض يبحثُ عن شيءٍ يأكله على ما يبدو . لم يجدْ شيئًا فتوقّف . هتفتُ من جديدٍ في أعماقي وأنا أشدّ على أسناني : «لماذا عليكَ أنْ تُمزّق قلبي . هيّا أيّها النّيص العزيز . قلتُ لكَ لن أجعلك تتألّم . هيّا لم تبقَ إلاّ خُطوةٌ واحدة» . مرّ على الخطوة الأخيرة زمنٌ طويلٌ قبل أنْ يخطوها ، ثُمّ . . . وقعَ في الفخّ أخيرًا . أصدر صوت استغاثة حادًا . علقتْ رِجله في الشَّرَك ، راح يُرافس ليتخلّص منه لكنّه لم يستطعْ . علا صوتُه . ركضتُ نحوه . ألقيتُ على جسمه الشّوكيّ كيسًا أعددتُه لحمله به . حرّرتُ رِجله ، وأحكمتُ إغلاق فتحة الكيس ، وعُدتُ به إلى قيادة السّريّة كأنّني عائدٌ بكنزٍ ثمين . كان زملائي ينتظرونني ، وينتظرون تنفيذ وعدي . أحدُ البُلهاء – وهم بالمناسبة موجودون في كلّ مكان – أخبرَ قائد السّريّة بأنّ معي (نِيصًا) ، وأنّني أنوي شيّه وتقديمه وجبة شهيّة . فناداني القائد . لم يحاوِرْني ، فقط أمرني بإرجاع النّيص حيًّا إلى أرض الباقورة ، قال : «ليس مسموحًا لنا أنْ نأخذ من أرضِ جيراننا شيئًا» . كتمتُ غيظي ،

وتابع هو «ما ليسَ لنا مُحرَّمٌ علينا ، أعدْه بأمانٍ إلى مكانه» كادَ يقول لي : «واعتذرْ له عن سوءِ ما بَدَر منك» . خرجتُ من عنده مَغيظًا ، حملتُ النّبص في الكيس وهرولتُ به إلى الباقورة المُستعادة ، وقريبًا من جحره أطلقتُه ، قلتُ له من غيظي : «شفعَ بك قائد السّريّة ، إنّه يحترم المواثيق ، أظنّ بأنّكَ تحظَى باحترامٍ لا يحظَى به كثيرٌ من النّاس لا بأس . عداوتي لليهود شفعتْ لك عندَ القائد . مصائب قوم عندَ قوم فوائد كما يقول المتنبّي . لن أحزنَ لفراقك . حينَ يتغيّر قائدُ السّريّةَ ربّما سأحاول اصطِيادك أو اصطِياد ابن عمّك من جديد . أمّا الآن فلا أقول وداعًا ، بل أقول إلى اللّقاء!!»

في اللّيل السّاجي بإمكانك أنْ تسمع خرير النّهر من هنا يتهادَى كأسطورةٍ تجري إلى منتهاها . وإذا كنتَ قد درّبتَ نفسكَ على الإنصاتِ جيّدًا مثلي ، فستفهم أحيانًا ما يقول ، النّهر يحكي . يشرحُ هواه يتألّم . ويحتاج إلى نديم . حتّى صمتُه حكاية . للنّهر لغةٌ لا يفهمها إلاّ مَنْ وهبه أُذُنَي قلبه . ليس من المعقول أنّ نهرًا خاضَ فيه شابّان طاهران وسيمان من الأنبياء ألاّ يكون لديه ما يقوله . أسمع أحيانًا صوت يحيى قادِمًا من النهر وهو ينادي : «أيّها النّاس ، أنا صوتٌ صارخٌ في البرّيّة ، توبوا ؛ لأنّه قد اقترب ملكوتُ السّماوات» . وأصواتُ خَبط أقدام التّائبين الخائضين في النّهر تتعالَى وهم يتاقطرون إليه وهو واقفٌ في وسط النّهر كعمودٍ من نور ، يستقبلهم بالحبّ ويعمّدهم بالماء المُقدّس . وأكادُ أشمّ رائحة أشجار الحَور تنمو على الضّفاف الحزينة ، ورائحة البرتقال الفوّاحة ، والتّفّاح ، والجوز ، والتّوت . وأتخيّل لذّة انهراس حبّات التّوت تحت أسناني ، وذوبان سُكّرها في فمي . عند النّهر كلامٌ كثير ، وفي مائه معرفةٌ لا يملكها سِواه ، وعليكَ أنْ تعرف

كيفَ تصمتُ في حضرته لتنتشي .

على النّهر ألقيتُ مودّتي . وعلى ضِفافه صدحتُ بأغنياتي . وعرضتُ عليه صداقتي فرحّب بي دون شروط . كنتُ أنزلُ إليه بالسّيارة أحيانًا ، وأحيانًا ماشيًا على قَدَمَيّ أغبّرهما في الطّريق المُقدّسة لأصل إلى الماء المُقدّس . لا أعبأ بالأضواء الّتي تلمع في الجهة الأخرى تغتال الأرض والإنسان ، وتلوّث التّراب والهواء . كنتُ حينَ أصل إلى الضّفّة أمدّ يدَيّ إلى النّهر ، فأغرف منه غُرُفات مُتتابعة ، وأشرب ، أشربُ حتّى أرتوي ، ثُمّ أغسل وجهي ، وأسكبُ الماء على رأسي ، ثُمّ أستلقي على ظهري ، أعدّ النّجوم . اللّيل أَليل . والقمر غائر . وأنا ساهر . أسرّح البصر والرّوح أهيم على وجهي طائِفًا بأجنحةٍ من خيال في ملكوت السّماوات . حتّى السّماء من هنا أجمل من سِواها يُوقِظني من خيالاتي سُقوط شهابٍ في قبّة السّماء السّوداء ، لامعًا كأنّه لفظَ الرّوح ومات . أُغمض عينَيّ طويلاً قبل أنْ أفتحهما وأهزّ رأسي ، لأتذكّر أنّ وقت تأمّلاتي محدود . وأعرفُ أنّهم سرعان ما يفتقدونني ويسألون عنّي . أنهض . أغذّ الخُطا عائِدًا إلى النّقطة وفي البال ألفُ سؤال يرفرف بألف جناح في آفاق الحلم .

سأحبّ ما يحدث مهما كان ، لقد وصلتُ إلى هنا بقدر الله ، وقَدَر الله هو الّذي سيرعى لحظاتي القادِمات . وبقائي هنا بقدره أيضًا أخشى ما أخشاه أنْ يعجل القدر فأُنقَل من هنا قبل أنْ يتمّ ما سعيتُ من أجله . لكنّني مُطمئنّ ؛ فالأقدار عملتْ أقلامُها في اللّوح من قبل أنْ أشاء

سأنضو عنّي جسدي لأعرفني . ربّما سأتركه هنا . إذا كُنّا جميعًا سنرحَل . ويومًا ما سنصبح مجرّد ذكرى ، كلماتٍ في أفواه عابرين ،

فأنا أريدُ لهذا المكان أنْ يكون نقطة البداية في هذا الرّحيل المقدور ليس بإمكاني أنْ أعيشَ كلّ حياتي كما أريد ، لكنّني أيضًا لن أتركها تسير بلا غاية . الغايات على قَدْر أصحابها ، العليّة لأصحاب الهمم العاليّة ، والدّنيّة لأهل الدّنايا . ومنذ ذلك اليوم الّذي اجتاحتْ فيه الطّائرات قريتي قرّرتُ أنْ أكون في العالين .

أخاف ، وأتوجّس ، وأشكّ ، وأقلق ، ويشتدّ إيماني ويضعف ، وأصبح أحيانًا رقيقًا كماء هذا النّهر صافِيًا سَلِسًا أجري كما يجري ، وأصبح قاسِيًا كصخره وشوكه أحيانًا أخرى . أنتبه ، وأغفل ، أتغيّر ، وأبكي ، وأفرح ، وأحزن ، وأسرع ، وأبطِئ ، وأصمتُ يومَين دون أنْ أقول حرفًا ثُمّ أثرثر كأنّ طاقة الكلام اندفقتْ فجأةً في اليوم الثّالث ، وتعتريني رِعدةٌ أحيانًا ، وشجاعةٌ استثنائيّة أحيانًا أخرى . وأشكو ، وأتذمّر ، وألعن ، وأبوح ، وأُخفي ، وأُبدي ، وأُسِرّ ، وأطمع ، وأرجو ، وأفزع ، وأقفو ، وأتراجع ، وأمضي ، وأُحسِن ، وأُسيء ، وارتعب ، وأكركر ، وأرتجف ، وأَثبُتُ ، وأنفرد ، وأتقوقع ، وأشكو . . لكنّني في كلّ حالاتي لن أنظرَ إلى الوراءِ بعدَ اليوم .

(٢١)
إصابةُ الهَدَف تحتاج إلى انقِطاع النَفَس

كنتُ أقضي الوقت هنا في الباقورة بالتّفكير. أرسم الخطوات في المكان، وأعِدّ العُدّة لليوم المشهود. لم أكنْ أعرف متى سيكون ذلك اليوم، ولكنّني أشعر أنّه قريبٌ، وقريبٌ جداً، ربّما لن يتجاوز الأسبوعَين. زملائي في النّقطة لاحَظوا شرودي في الأيّام الأخيرة. كُنّا نجلسُ نأكل (قلاّية بندورة)، بالمناسبة أكثر طبخة يطبخها العساكر هي هذه القلاّية كانت اللّقمة تدور ببطءٍ في فمي، وتظلّ فيه وقتًا أمضغها دون أن أبلعها، يمزح أحدهم محاولاً كسر حِدّة الصّمت: «تِنْهَنّا إلّي شاغْله بالك». أبتسم، تظهر فاطمة، آخذها من يدها، وأبتعد، أريد أنْ أقول لها سِرّاً يتحرّك في صدري، يُعذّبني، يجعلني أتقلّب على الشّوك، تسير معي خطواتٍ قلائل، حينَ يبدأ صوتُ النّهر بالوصول إلى مسامعنا تغيب. أنظر إلى يدي، فلا أجد يدَ فاطمة فيها، ذابتْ فجأة. لا أدري كيف تتركني دون أنْ تقول كلمةً واحدة، ما زال دفءُ يدها يغلّف يدي. الّذين نحبّهم يبقى أثرهم مستمراً فينا وإنْ غابوا

كان نهارًا آذاريًا دافِئًا. الجوّ في الأغوار في مثل هذا الوقت يكون رائعًا، وفي الصّباح يُباغتك آذار بنسماتٍ دافِئةٍ عليلة قادِمة من النّهر كلّ ما يأتي من النّهر جميل، لو لم يُسرَق، لو لم يلوّثه البشر البائِسون. أتخيّل صورةَ المعركة القادمة على النّهر فأرجف. أؤجّل

الصّور إلى حين يُوقظني من هواجسي صوتُ عسكريّ يصيح من مركز النّقطة : «أحمد . . . شاي ولا قهوة» . أجيب بعد أنِ انتبهتُ بصوتٍ أعلى «قهوة سادة» . تأتيني القهوة ، سمراء كتراب بلدي ، وكجبين رجالها العاشقين ، أُحبّها ، أُشعِلُ سيجارةً لعينَيها وأنا أقف في برج المُراقبة ، أرشفُ رشفةً عميقةً من السّيجارة وأتبعها بمثلها من الفنجان ، أشعر بمتعةٍ كبيرة . يدبّ النّشاط في جسدي . أتطلّع إلى البعيد ، تنهض الخيالات والمقارنة من جديد . كلّ هذه الغابات والمزارع والثّمار لهم؟! يتراجع منسوب السّعادة في جسدي ، لكنّني حينَ أفكّر بالثّأر يعود إلى مستواه الطّبيعيّ . قبل أنْ أنتقل إلى هنا ، حدث ذلك منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، سألتْني فاطمة من جديد عن حلم أمّي الّذي سيتحقّق ، كانتْ دائمةَ السّؤال عن هذا الحلم ، وأحسّ أنّها تتوجّس منه خِيفة ، لا أدري مِمّ تخاف؟ لكنّ بريقَ عينَيها يقول ذلك ، ربّما هو الفضول أيضًا . ولا أدري لماذا علّقَتْها أمّي بحلم من أحلامها المئة هي الأخرى ، كان أفضلَ لو لم نحدّثْنا عن هذا الحلم ، أو أنّها أراحَتْنا وقصّته علينا وبدّدتْ حيرةَ فاطمة الّتي تُلاحقني ، ولا تفتأ بين فترةٍ وأخرى تُذكّرني به ، في هذه المرّة أردتُ أنْ أتخلّص من أسئلتها المتكرِّرة عنه فأجبتُها : الحلم أنّه سيُولَد لنا ابنان أحدهما سيُصبح قائدًا للجيش ، والآخَر رئيسًا للوزراء . وقد تحقّق بفضل الله ، ها هما سيف الدّين ونور الدّين . تكادُ تضربني بالملعقة الّتي بين يديها . وتصرخ مستاءةً : «تهزأ بي؟» . أضحك . تُشير إلى بطنها ، «وهذا القادم ؛ ما هو نصيبه من حلم أمّك ، هل سيكون وزيرًا للدّاخليّة مثلاً؟!» . كانتْ ستضع لنا مولودًا ثالثًا عمّا قريب . قبل أسبوع أيّام قالوا لي إنّ (بتول) قد وفدتْ إلى الدّنيا . رقصتُ من الفرحة . ودرتُ حول نفسي دوراتٍ

عديدةٍ ، واشتريتُ من غَور أبي عبيدة سدرًا من البقلاوة حلّيتُ به زملائي في النّقطة . وطلبتُ من القائد أنْ يمنحني إجازةً لأحظى بعناية زوجتي وابنتي . فأعطاني إجازةً لخمسة أيّام . وها أنا اليوم أعود إلى النهر . الّذين يشربون من ماء النّهر لا يتخلّون عنه وإن ابتعدوا . النّهر يعيشُ فيك ، إنّه ليس مجرّد ماء ، إنّه أنتَ ، تاريخُكَ ، ومبدؤكَ ، وعقيدتُك . وشيءٌ من الذّكريات الجميلة تُقاوم النّسيان .

صارت السّاعة التّاسعة ، كُنّا قد أفطرنا في السّادسة . المشهد ما زال على هيئته منذ الصّباح كأنّه صورةٌ ثابِتة عُلّقت على جِدارٍ أصمّ . الهواء يحرّك اللّوحة أحيانًا حين تتحرّك معه الأغصان فتوقِظ شرودَك وتكسر أمامك رتابة المشهد . لكنّ شيئًا آخر حدث ، إنّه باصٌ سياحيّ ، أعرفُ ذلك من لونه ، يحمل عددًا جديدًا من السّيّاح إلى المنطقة . منذ بداية خدمتي هنا وأنا أراقب هذه الباصات وأعرفُ أعدادَها ، وألوانَها ، وأفرادَها . عيني لا تنام . جوارحي لا تغفل . أعرفُ ما أريد . اليوم هذا الباص الأزرق يتقدّم إلى النّقطة بهدوء لكنْ دون توقّف ، كان يبدو أنّه مطمئنٌ تمامًا إلى أنّه يدخل أراضيَ تخصّه ، وأنّه ليسَ مجرّد سائح لأرضِ غيره ، إنّها أرضه هكذا يعتبرها ، ولا يعتبرنا نحن إلاّ خدَمًا أو حرسًا له . ظلّ الباص يتقدّم حتّى توقّف في السّاحة الخالية الّتي تمتدّ تحت البرج الّذي أقف عليه ، في منطقة تُسمّى (برج العلم) . أحسستُ أنّ أمعائي تتقطّع ، وأنّ الباص كان يمشي على جسدي لا على الأرض .

أطلق السّائق بوقًا طويلاً ، وراحتْ أصوات الرّكّاب تتعالى وهي تصفّر وتُصفّق . يبدو أنّهم جاؤوا ليحتفلوا . عنّ ببالي أنْ أحتفل أنا بهم على طريقتي ، لكنّني تراجعت ، وأرجأت الموضوع إلى حينه . نزل من

الباص ما يقرب من عشرين راكِبًا وراكبة . اليهود كانوا يعتمرون قبّعات الكاوبوي ، ويلبسون (شرتًا) تبين منه أفخاذهم المهترئة وركبهم الّتي تُشبه أظلاف الماعز ، ويلبسون أطواقًا من الذّهب تلمع في أعناقهم ، كانت أعمارهم متفاوتة ، قدّرتُها بين الثلاثين والستّين . أمّا النّساء فكان لباسهنّ يكشفُ أكثرَ مِمّا يُخفي . يكشف عن صدور وسيقان ، وأفواه جائعة للحرام . وشفاه ملوّنة ، وشعور تطير مع الهواء . أصبح الباص فارغًا بعد أنْ أنزلوا منه كلّ ما فيه . لقد كان ما فيه من الأشياء أكثر مِمّا فيه من البشر ، أنزلوا معهم الطّبول ، وأواني الخمر ، والآلات الموسيقيّة ، والطّعام والشّراب ، والكلاب ، والقدور ، وأشياء أخرى لا أعرف لها مُسمّى . ثُمّ بدأ حفلهم . راح طَبّالان ينقران طبلتهما ، ونزل الشّباب مع الشّيب يرقصون ، على اهتزاز الأرداف والصّدور . وراحوا يشربون الخمر ، ويتناقلون كؤوسه بينهم ، ويصيحون صيحاتٍ عجيبة ، ويُقهقهون بفجور ، وأوغلوا في حفلة سُكرٍ ورقصٍ ماجِنة

لم يؤلمني مشهد عُهرهم في أرضنا أكثرَ من شعورهم بالأمان والاطمِئنان وهم يفعلون ذلك ، وكأنّهم قد أُبلِغوا من قادتهم أنّ عساكر العرب القائمين على الحدود هم لحمايتكم فلا تخافوا منهم!! وإلاّ فما هو السّرّ وراء انغِماسهم في اللّهو والملذّات جهارًا نهارًا أمام أعيننا دون أنْ يرفّ لهم جفن . فكّرتُ في أنْ أفعل شيئًا ، ولكنّ زميلي الّذي كان بجانبي والّذي عرفَ من تحفّزي ، وتشنّجات يديّ أنّني أنوي شيئًا ، قال لي : «إيّاك أنْ تُقدِمَ على فِعْل شيء ، سيخرب بيتك وبيتنا ، نحن ما لنا ، فليفعلوا ما يشاؤون ، كلّ ما هو مطلوبٌ منّا أنْ نلتزم الصّمت ريثما يُنهون عملهم ويُغادِرون بسلام» كانتْ كلمات زميلي قد غاظتْني أكثر مِمّا غاظني فِعلهم .

بدا أنَّ حفلتهم اللّعينة ستطول . صاروا يقذفون بقشور الموز في كلّ اتّجاه ، ويدلقون بقايا الطّعام على الأرض . ويكسرون زجاجات الخمر على الأرض وهم غارقون في الضّحك والشّتائم . ثُمّ حدث في المشهد ما لسعني وصفعني بقوّة ؛ سمعتُ أحدهم في هذه الميعة يُنادي : «محمّد . . . محمّد . . .» لم أكترثْ كثيرًا لحظَتها ، ظننتُ أنّه يُنادي على أحد الأدلاء السّياحيّين المُرافقين لهؤلاء الخنازير من عرب الـ ٤٨ ، ولكنَّ الّذي طعنني برمح في الخاصرة نفذ إلى القلب هو ظهور كلب ظلّ يركضُ حتّى قفز إلى حضن هذا الّذي ناداه بـ (محمّد) ، لقد سمّى هذا الكلبُ كلبَه بهذا الاسم الطّاهر ، أحسستُ بالدّم حينها يتفجّر من أنفي ، ويتدفّق من أذنيّ ، وشعرتُ بحرارةٍ عاليةٍ في رأسي ، وأحسستُ أنّ الأرضَ تميدُ بي ، ضربتُ رأسي بباطن كفّي حتّى لا أدوخ ، ونزلتُ مُسرِعًا من البرج إليهم ، كان زميلي يُنادي عليّ : «يا أحمد يا أحمد . . . اتركْهم لا علاقة لنا بهم . . .» . لكنّني لم أكنْ لأسمعه في تلك اللّحظة . هبطتُ مُسرِعًا . ومشيتُ الخطوات المُتبقّية بيني وبينهم وأنا أصيح «ارحلوا من هنا ، اخرجوا من أرضِنا . . هيّا أيّها الخنازير . . هيّا» توقّفَ هرجُهم قليلاً وظنّوا أنّني مجنون ، فتابعتُ صُراخي : «لا تدنّسوا أرضي أيّها القرود ، عودوا من حيثُ أتيتم . إنْ لم تذهبوا الآن فسأقتلكم» . لكنّهم بدلاً من أنْ يخافوا أو يحسبوا لكلامي حِسابًا ، بدؤوا يستهزِئون بي ، ويضحكون ، ويُشيرون إليّ وأنا مُنفعل ، وكأنّهم يقولون : «انظروا إلى هذا الأحمق . . انظروا إلى هذا الأبله . . .» . لم أتمالكْ نفسي . كلّ تدريباتي السّابِقة على ضبطِ أعصابي ذهبتْ سُدًى . رحتُ آخذُ من الأرضِ بعضَ الحصى الصغيرة وأرميها باتّجاههم ، كان أحد زملائي قد لحق بي . وهو يصيح :

«ارجعْ يا أحمد . ارجعْ لا تُطَعْمينا . . .» . عُدتُ بالفعل ، ولكنْ إلى زميلي الّذي يحملُ البندقيّة ، قلتُ له : «أعطِني بُندقيّتك ، سأعيدُها إليك حالاً» كنتُ أرتجّ من الغضب والعصبيّة ، لكنّه رفض أنْ يُعطيني إيّاها ، وقال : «هذه عُهدة عليّ . وأنتَ سائق لا يجوز لك أنْ تحمل بندقيّة» كان كلامه مُوجِعًا لي ، جعلني أُحسّ بالعجز التّامّ . تركتُه وركضتُ باتّجاه سيّارة الدّورية ، الشّيء الوحيد الّذي يُمكنني استخدامه دون أنْ يُوقفني أحدٌ ، سُقتُها باتّجاههم ، كنتُ أريدُ أنْ أفرم لحمهم وعِظامهم ، لكنّ امرأة عمّي ظهرتْ فجأةً ووقفتْ في الطّريق الفاصلة بيني وبينهم . دُستُ على الكوابح ، لم يُصدّقْ زملائي المشهد ، قالوا : «إنّه يمزح» . «لقد عادَ إليه عقلُه» . «إنّ حياته ليستْ أثمنَ من حياتهم ، هو يُدرك ذلك ولن يُقدِم على عملٍ يجعله يذهب بشربة ماء» . لم يعلموا أنّ الّذي أوقفني هو صوتُ امرأة عمّي ، قالت : «ليس الآن يا أحمد . . . حينَ تكون الرّصاصات جاهِزة ، قُدْ إلى النّهر وأطفِئ غضبكَ هناك ، النّهر ينتظرك» . ابتسمتْ ثُمّ اختفتْ فجأةً كما ظهرتْ . أدرتُ مقودَ السّيارة باتّجاه النّهر ، قُدتُ إلى هناك . نزلتُ من السّيارة وأنا أكاد أتميّز من الغيظ ، صفقتُ الباب خلفي ، وجريتُ إلى الضّفّة الّتي تهبطُ قليلاً عن مستوى الشّارع . غمرتْني رائحةُ مائه والشّجر الّذي على ضِفافه ، فانتشيْتُ ، بردَ غضبي قليلاً ، ثُمّ لفّتْني نسائم قادمةٌ من الجنان المنتشرة على ضِفّتَيه ، فسكبتْ ماءَ الرّضى على نار الغضب أبطأتُ من ركضي العصبيّ ، مشيتُ الهوَينى ، نظرتُ باتّجاه النّهر الّذي صار قريبًا جدًا ، إنّني أستطيعُ النّفاذ إلى عقل النّهر ، شعرتُ أنّه يرحّب بي ، كان بالفعل يفتحُ ذراعَيه مُرحّبًا ومُبتسِمًا ، سمعتُه يقول : «أنتَ ابني بالفعل ، وأنا لن أخذلك»

غمرتْني مياهه ، استسلمتُ له بكامل جسدي ، غطستُ فيه بكلّي ، حتّى رأسي غاصَ فيه إلى القاع ، كان الغضبُ قد سكت عنّي تمامًا ، وحلّتْ محلّه سكينةٌ عجيبةٌ . سمعتُه من جديد يقول : «إصابةُ الهدف تحتاج إلى انقِطاع النَّفَس . ومَنْ عَجِلَ نَدِم» . إنّه يُشبه في حديثه حديثَ امرأة عمّي ، فكّرتُ إذا كان قد خُلِقا من نفس الماء ، أو من نفس الطّين ، ظللتُ فيه أكثر من نصف ساعة حتّى هدأتُ تمامًا ، كنتُ مستمتعًا بالماء ، كنتُ أريدُ أنْ أحدّثه عمّا أشاهده من اليهود يوميًا في المنطقة ، وأبثّه أحزاني ، لكنّني شعرتُ أنّ خريره قال لي : «إنّهم يمرّون من هنا في كلّ يوم ، أراهم يا عزيزي قبل أنْ تراهم أنت ، لكنّني مثلك أنتظر اللّحظة المُناسِبة ، ويوم تقوم الحربُ على ضِفّتَيَّ ، سأقاتل مع المؤمنين ضِدّهم»

خرجتُ من النّهر ، توضّأتُ بمائه المُقدّس . وصلّيتُ ركعتَين ، ركعتَين خرجتُ بهما من الدّنيا خروجَ الآثِم من الجحيم ، كان هروبًا إلى الخالق من درَن المخلوق . في السّجود الثّاني من الركعة الثّانية بكيتُ حتّى انتفض جسدي ، لم أستطعْ أنْ أتوقّف عن البكاء لحظة ، كان شعورًا بالقهر والعجز والخزي ، وشعورًا بالضّياع . كنتُ أحسّ بغربتي بين زملائي لا بُدّ من أنّهم تطبّعوا أو طُبّعوا ، أنا لا أستطيع أنْ أتغيّر ، بقيتُ على نسختي الأولى الّتي خرجتْ معي من (إبدر) ، بقيتُ على عهدي لأبي ، ولأمّي ، ولامرأة عمّي ، وما كان يجدر بمثلي أنْ ينكص أو يخون!

لم أنهض من الرّكعة الثّانية إلا وقد امتلأ وجهي بالدّموع . ابْكِ يا أحمد من أجل أنْ تجعلهم يبكون . لكنّ أوان ذلك لم يَئِنْ بعدُ . متى سيشفى الغليل أيّها القلب المُتعَب!! عُدتُ إلى السريّة . في اللّيل

أضاءتْ عتمة منامي ثلاث شموع ، لقد كبر أبنائي : مضى من عمر سيف الدّين أربع سنوات ، ونور الدّين سنتان ، وبتول شهرٌ واحدٌ . كانوا أسرجةَ العتمة الطّاغية ، بهم شعرتُ أنّ للحياة معنًى في حمأة فقداني لقيمة الأشياء ومعناها في كلّ شيء . لكنّ حبّات القلوب هذه هل ستجذبني إلى الأسفل ، هل تنجح في ثَنْيي عما نويتُه ، وخطّطتُ له!!

نظرتْ إليّ بتول ، كانتْ شمعةً صغيرة ، إنّها لا تعرفُ عن أبيها شيئًا . ربّما حينَ تكبر قليلاً ستُحدّثها أمّها عنّي ، ستقول لها أشياء كنتُ أودّ أنْ أقولها لها بنفسي ، ولكنّ هذه الحدود والحواجز ستمنعنا ربّما من اللّقاء أو البوح . يا ابنتي إنّ أباك ليسَ القارظ العنزيّ ، سيعودُ يومًا ، بكلّ ما كنتِ تريدين أنْ يعود به ؛ بالأمل ، بالحبّ ، بالحياة ، ببسمة الانتصار . . . ورأسه سيكون مرفوعًا ، في زمنٍ نُكّستْ فيه الرّؤوس حتّى لا تُقطَع ، وسيكون صحيح الرّأي والعقل والعزم ، في زمنٍ صارت الخيانةُ فيه وِجهة نظر!!

(٢٢)
مَنْ سيُطعِمُ الفِراخَ بعدي؟!

لم أستطع النوم تلك اللّيلة ، اختلطتْ عليّ الرّؤى والمشاعر ، داهمَتْني مئات المشاهد وطيوفها تتتابعُ أمام ناظِرَيّ . أوجعني حبّ أبنائي ؛ هل حبّ الأبناء يُوجع؟! ارتباط الجذع بالجذر ، وارتباط الجذر بالتّراب ؛ ارتِباط مُقدّس ، يُصبح الانفِكاك منه مستحيلاً

منذ الصّباح الباكر لهذا اليوم ، والخنازير تتوافد إلى هنا بالعشرات ، وكذلك القرود ، حتّى ملؤوا السّاحة عن بكرة أبيها بقاذوراتهم ، لا أدري لماذا أتوا في هذا اليوم بهذه الكثافة؟! كنتُ أسمع عن أعيادٍ لهم يُقدّسون فيها نهر الأردنّ ، وأيّام يشكرون الله فيها على أنْ عبر بهم يوشع بن نون النّهر ، لم أكنْ متأكّدًا منها تمامًا ، هذا ما سمعتُه . أفتكون هذه الأعداد الغفيرة جاءت لتحتفل بذلك العيد؟! لا أدري . ولكنّ الّذي أدريه أنّه أسوأ احتفالٍ يُمكن أنْ يتمّ من مجموعاتٍ ما بِعيدٍ ما ، في احتفالنا نحن بأعيادنا ، نقوم بزيارة أقاربنا ، وصلة أرحامنا ، ونهنّئ بعضنا ونشكر الله على الطّاعة ، هؤلاء الّذين يجيئون إلى هنا أراهم يشكرون الله بالمعصية ، إنّه فجورٌ وفِسقٌ ما بعده فجورٌ ولا فسْق . لقد استمالوا قلوب بعض زملائي من ذوي النّفوس الضّعيفة ، فنزل بعضهم يرقصُ معهم . الرّقص هنا والعري أهمّ سمتَين . استغلّوا ربيع الغَور الدّافئ فشلحوا حتّى لم يبقَ شيءٌ يُستَر أكثر من العورة المُغلّظة ، إنّه وضعٌ لا يُطاق . ومنظرٌ لا يُمكن السّكوتُ عليه طويلاً . طلبتُ من

القائد إجازة مرضيّة ، كنتُ بالفعل مريضًا بما أشاهد من مناظر يندَى لها الجبين . أصواتُ اليهود حتّى في أغانيهم غليظة مُبهَمة ، لا تكادُ تعرفُ ماذا يريدون ، فقط أجسادهم الّتي تتمايل هي الّتي تشي بأنّهم في عالَم آخر . حصلتُ على الإجازة المرضيّة ، ومضيتُ مُسرِعًا إلى (إيدن) هارِبًا مِن المنطقة الّتي لَوّثتْ بحفلاتهم الإباحيّة كمن يهربُ من الطّاعون .

غيّرتُ ملابسي ، وجلستُ مع زوجتي على العشاء . كانتْ قد أعدّتْ لي كُفتة بالطّحينيّة ، وهي طبخةٌ أحبّها ، أشعرُ بنهم إلى الأكل ، لكنّني آكُل بصمتٍ ، لم أفتح فمي إلاّ للّقم تتبعها اللّقم ، كنتُ أسبحُ في خيالاتي ، تقول لي فاطمة : «ما الّذي يشغل تفكيرك؟» . أنتبه : «هه . . . أنا؟ لا شيء» . «لا تُخفي ما اتّفقْنا على أنْ تقوله ، نحن شُركاء في كلّ شيء» . أجيبُ بعد أنْ أبتلع اللّقمة الأخيرة : «كلّ ما في الأمر أنّ الطّبخة طيّبة وأنا منشغلٌ بها وجائعٌ جدًا» . «أفهم هذا ، لكنّني أريدُ الأمر الآخَر» . أهتفُ في سِرّي : «مع الزّوجات لا سبيل إلى الإنكار ، الزّوجة مسبارٌ تعرفُ من حركات عينَيك ، ومن تلفّتك ، ومن كلماتك المُبعثرة وغير المفهومة ، والمتقطّعة ، أنّ هناكَ أمرًا ما . وخياراتك في الفرار من الأسئلة الّتي تُحاصِركَ بها تكاد تكون معدومةً» . تُباغتني من جديد : «لم تقلْ لي ماذا يحدث؟» أجيبُها دون وعي : «أيّامنا في هذه الحياة معدودة» . تضع يدها على صدرها وهي تشهق : «قل لي بربّك ، ماذا تنوي أنْ تفعل؟» . أكذب : «لا أريد أنْ أفعل شيئًا ، فقط قلتُ عبارةً عامّة ، وهي صالحة لكلّ واحدٍ فينا كلّ ما في الأمر أنّني أستمع إلى مواعظ الشّيخ كشك هذه الأيّام ومتأثّر به جِدًا» . تصمتُ وهي غير مُصدّقة . تُعدّ الشّاي . أطلبُ منها

أنْ نشربه على السّطوح كعادتنا . في طريقي إلى السّطوح على الدّرجات الاثنتي عشرة أفكّر في كلّ درجة أنْ أصارِحها بالأمر ، أتخيّل نفسي والرّاحة الّتي تُصيبني حينَ أتخفّف من ثقل هذا السّرّ الّذي يضغط على صدري ، إنّه لا يجعلني أفكّر بدقّة ، يشوّشني ، يقلبني ويجعلني كمن يسير رأسهُ إلى الأسفل ورِجلاه إلى الأعلى . في الدّرجة الأخيرة أتخيّل نفسي أقف أمامها كإنسانٍ قرّر أخيرًا أنْ يرمي بكلّ الأسرار الّتي تُثقله ، ويصرخ : «يا فاطمة ؛ إنّها ساعاتي الأخيرة معك . لقد نويتُ أنْ . . .» . ثُمّ تتحشرج الكلمات ، وتنغرس في الحلق دون أنْ تتحرّك إلى الأمام خطوةً واحدةً كما لو كانتْ خيوطًا رفيعةً من الكتّان قد علقتْ بكتلة كبيرة من الشّوك . أتنحنح . أبلع ريقي . أعيد ترتيب الكلمات ، أبدأ بنطقها من جديد : «يا فاطمة ، بيني وبين ما أريدُ لحظاتٌ قلائل ، لا أدري إنْ كنّا سنجتمع مرّة ثانية ، يا فاطمة . . .» ثُمّ تظهر كتلة الصّوف من جديد لتعرقل خيوط الكتّان الماضية . أزدرد خوفي ، وأشدّ على أسناني ، وأستجمع شجاعتي ، وأنا أستوي واقفًا على السّطوح ، وقد بردّتْ نسمات الهواء السّابحة هنا أعصابي وألغتْ خوفي : «يا فاطمة ، سأحمل البندقيّة وأ . . .» . ثُمّ أقع في الشّرَك من جديد ، أصرخُ صرخةً عاليةً أفرّغ فيها كُتلاً من القهر المتحجرّة في جوفي . يأتيني صوتُ فاطمة وهي تصعد أولى الدّرجات إليّ من الأسفل : «ما الّذي حدث يا أحمد . . . لماذا تصرخ هكذا كالمجنون؟!» تحاول أنْ تُهرع نحوي لتستطلع الأمر . أكذبُ من جديد : «لقد تأخّرتِ بالشّاي . . . هيّا يا فاطمة . . . هيّا» .

تسكبُ الشّاي ، حُلوًا كأيّامي معها ، صافِيًا كحُبّي لها ، ورقراقًا مثل نهر المودّة الّذي يجري في أرضِ قلوبنا . أشربُ رشفتَين وأغادر دون

أن أقول شيئًا . تكتفي ببكاءٍ صامت . وأمضي هائمًا على وجهي أسير في حواري (إبدر) بلا غاية ، أمضي على غير هُدى ، أركلُ الحصى في طريقي ، أضع يديّ في جيبِ بنطالي ، أرفع رأسي إلى السّماء ، وأسألها أنْ تدلّني

آه لو كان الشّيخ عبد الرّزّاق حيًا ، أو لو أنّني أعرفُ أين هو لذهبتُ إليه ، وكاشفتُه ، وقلتُ له : «يا شيخ ، إنّ أرضَنا مُغتصبة ، وإنّ حدودنا مُنتهَكة ، وإنّ محارمنا مُستباحة ، إنّهم يشربون ويسكرون ويزنون ويرقصون على تراب بلادنا وفوق أرضنا ، وإنّهم في فلسطين يقتلون أطفالَنا ونساءَنا ، ويُذبّحون شبابنا ، ويعتقلون شيوخَنا ، ويُصادرون أراضينا ، ويبنون مستوطناتهم على قلوبنا ، فهل هناك عليّ من حرج إنْ حملتُ السّلاح وأشرعتُه في وجوههم ، وأفرغتُ رصاصاتي في صدورهم؟! هل أنا مُذنبٌ في حقّ الله والتّاريخ والوطن يا شيخ إنْ فعلتُ ذلك؟! أينَ أنتَ يا شيخ عبد الرّزّاق لتُجيبني ، أينَ أنت؟!»

أنعطفُ إلى دار أخي ، أعرفُ أنّ له صديقًا من أصحاب العلم يمكنه أنْ يدلّني عليه لأستفتيه ، أدخل إلى أخي ، يستقبلني باسِمًا ، يعرفُ من وجومي ما بي ، يقول لي بلا مُقدّمات : «الشّيخ تيسير عالِمٌ وفقيه ، ولن تندم إنْ شاورتَه» . أخرجُ من عنده دون انتِظارٍ إلى (إربد) حيثُ عنوان الشّيخ (تيسير) ، يرحّب بي هو الآخَر ، أتذكّر شيئًا من هيئة الشّيخ عبد الرّزّاق أوّل ما أراه ، هل أصحابُ العلم بعد زمنٍ من مدارستهم للدّين يُصبحون مُتشابهين؟! أسأله ، أبسطُ له أمري بكُلّ وضوح . يُفتيني بكلام كثير ، آخُذُ منه ما فهمتُ ، كان ما فهمتُه من فتواه كلمتَين : «قَتْلُهمْ واجبٌ» . أعودُ مرتاحًا وخائِفًا . هل رأيتم في حياتكم مرتاحًا يخاف؟! أنا كنتُ ذلك الإنسان . وضعتْني الفتوى أمام

هذه المشاعر المُتناقِضة . ارتحتُ لأنّني سمعتُ بالدّليل ما كنتُ أبحثُ عنه ، وخِفتُ لأكثر من عشرة أسباب ، آخرها : مَنْ سيُطعِمُ الفِراخَ بعدي؟

عُدتُ في اللّيلة نفسِها إلى (إبدر) ، كانتْ فاطمة تنتظرني وهي قلقة . ذهبتْ إلى بيتِ أهلي تسأل عنّي ، قالوا لها : لم يأتِ إلى هنا يزدادُ قلقُها . تودّ أنْ تسأل في حمأة القلقِ هذا أمّي عن الحلم القديم الّذي قالتْ لها : إنّه سيتحقّق ، لعلّها تكتشف من خلاله إجاباتٍ عن الحالة المُريبة الّتي أصابتْني في الأيّام الأخيرة ، لكنّها تتراجع ، ترى أنّ الوقتَ غيرُ مناسب . تردّ أمّي عليها : «لا تقلقي على أحمد . أنا أعرفُه ، سيعودُ اللّيلةَ إليك . لن يذهبَ إلى المرّيخ . المهمّ ما أخبار الأولاد؟ انتبهي لهم جيّدًا» . تعودُ هي إلى بيتنا وأذهبُ أنا إلى صديق الطّفولة . أذهب إلى (سعيد) ، لعلّي أجدُ عنده إجابةً وافية

أوّل دخولي من الباب ، يصيح بصوته الغليظ : «مين؟» . أُجيبُه «أنا أحمد يا سعيد . . . أحمد الموسى» . ينهض من مكانه ، يُهرَعُ إليّ وهو يحمل في يده أفعى يزيد طولُها عن مترين . أجفل من منظرها المُخيف . أكاد أصرخُ لولا أنّني أعالجُ صرختي بابتلاع ريقي . ينفجر بالضّحك ، يقول وهو في غمرة ضحكه : «ألا تذكر كيف كنّا نصيد الأفاعي ، أنتَ جرّبتَ ذلك قليلاً ولم تستمرّ ، كنتَ تصيد الحجل والعصافير ، أمّا أنا فتخصّصتُ بعدَك بالأفاعي ، كان الأمر صعبًا في البداية ، لكنّه صار بعد طول تدريب سهلاً ، سهلاً جِداً كما لو كنتُ أصيدُ جرادةً ، مجرّد جرادة صغيرة . أصبحتْ لديّ خِبرة في كيفيّة الإمساك بالأفعى من عنقها ونزع أنيابها . اصطياد الأفاعي كان هوايتي منذ الصّغر ، ومنذ أن كنتُ طفلًا لم أكن أخافها البتّة . أصبحتْ مع

الزّمن لديّ سلطة على الأفاعي ، حتّى إنّها أصبحت هي الّتي تخاف منّي . . . انظر يا أحمد انظر ، طولها متران وهي خاضعةٌ بين يديّ ، هل تظنّ أنّني سحرتُها . . .؟ لا ، بل هي تعرفُ سلطتي وسطوتي فتخضع لي ، إنّ إمساكي بعنقها بهذه الطّريقة أشدّ عليها من لدغتها المميتة»

أتذكّر أنّ اليهود أفاع وأنّ صديقي سعيد يُمكن أنْ يُشاركني فيما عزمتُ عليه ، أو على الأقلّ - لكونه ليس عسكريًا - يُساعدني برأيه

هتفتُ فيه بعد أنْ ضِقتُ ذرعًا بأفعاه : «يا سعيد ، ضع الأفعى جانبًا لقد جِئتُ أستشيرك في أمرٍ مهمّ جِدًا ، فتعالَ بنا نمشِ في الشّارع» «تستشيرني؟! حسنًا . . . ولكنْ لماذا في الشّارع؟» . «أخافُ من أفاعيك . . كم أفعى لديك هنا في البيت» «أكثر من ثلاثين أفعى يا أحمد . . بألوان وأشكال مختلفة ، لكنْ لا تخف ، لكلّ أفعى صندوقٌ خاصٌ بها . . .» . أندهش : «هل تحوّلتَ إلى حاو؟! ماذا تفعل بكلّ هذه الأفاعي يا سعيد؟!» . «أبيعها ، وأحيانًا أربّيها» «لمن تبيعها؟» «الزّبائن كُثر ، بعضها سعره يكفيني مصروف شهر بأكمله» . «مَنْ يشتري الأفاعي في هذه الأيّام يا سعيد ، الأفاعي تُقتَل ولا تُباع» «أنتَ لا تعرفُ شيئًا إذًا» . «إلى هذا الحدّ تغيّرْتَ يا سعيد؟» «ماذا أفعل إذا ذهبتَ إلى العسكريّة وتركْتَني ، قُلْ لي ماذا تفعل في العسكريّة» . أجيبه بلا مُقدّمات : «أفكّر كيفَ أعود إلى إبدر شهيدًا» يتنهّد . أعاجله : «اصطِياد الأفاعي أمرٌ مثير ، لكنّ العيش معهم!» يبتسم ، يردّ : «كيفَ بك وأنتَ تنام بين هذه الصّناديق يا أحمد . .؟!! لا تخفْ . . . هيّا ، سأُعيد هذه الأفعى إلى صندوقها ، وأغسل يديّ وآتيك ، تفضّل إلى غرفة الضّيوف . . . تفضّل»

أقول له ما عزمتُ عليه ، يضحك ، يُشجّعني . أسأله : «لماذا

ضحكتَ؟» . يردّ : «توقّعتُ أنْ تأتي وتستشيرني في هذا الأمر من زمان ، لقد تأخّرتَ» . «لماذا كنتَ تتوقّع ذلك منّي؟» . «لأنّني أعرفك جيّدًا يا أحمد . . لقد قضيتُ معك سنوات الطّفولة كلّها ، وسنوات المدرسة التّسع ، هل تظنّ أنّني أنسى ، أنا أعرفُ أنّكَ خرجتَ من المدرسة ، ودخلتَ العسكريّة من أجل هذه اللّحظة ، وقد انتظرتُها منكَ طويلاً وقد حانتْ فلا تتردّدْ» . «يعني تُشجّعني؟!» «بالطّبع يا صديقي ، أفي الأمر شكّ؟!» . «وأولادي يا سعيد ، مَنْ سيتولاّهم بعدَ رحيلي ، أخافُ من حاجتهم للنّاس ، إنّهم نُقطة ضعفي؟!» «الله الّذي خلقهم هو الّذي يتولاّهم . وما دامتْ نيّتك لله فنفّذْ ما عزمْتَ عليه وتوكّل على الله» . «الأمرُ ليس سهلاً يا سعيد» . «أعرف ، ولكنّ شرفَ ما أنتَ مُقدِمٌ عليه لا يحظى به أيّ أحد . أنتَ تعرف ، لو كنتُ مكانَك لما انتظرتُ حتّى الآن . ربّما قَدّر الله أبعدني عن العسكريّة ، وقَدَر الله هو الّذي قرّبكَ منها ، وأنتَ الآن في قَدَرِ الله فامضِ ولا تتردّد»

(٢٣)
الكَلِمة تُقاتِل

عُدتُ من عند سعيد في آخر اللّيل إلى البيت . تلقّتْني فاطمة على الباب مُصفرّةَ الوجه «أينَ كنتَ كلّ هذا الوقت ، لقد قلبْنا عليك الدّنيا» لا أردّ عليها . أتحاشى النّظر في وجهها وأمضي إلى الدّاخل تتبعني وهي غاضِبة . «الهرب . . . الهرب . . الهرب . . . هذا ما تتقِنونه أنتم أيّها الرّجال» . أظلّ صامتًا . «أينَ كنتَ؟! لماذا هذا الصّمت؟! قل لي أين كنتَ يا رجل؟» . أستلقي على السّرير أريد أنْ أنفصل عن الواقع بالنّوم . تقول لي معلومةً كانتْ تُخبّئها لتخبرني بها بعد العشاء ، لكنّني لم أُعطِها الفرصة المُناسبة ، تُلقِي بها في أذني وأنا أهوي إلى وادي النّوم السّحيق : «سجّلتُ أمس سيف الدّين بالرّوضة» كأنّني قلتُ لها أو لنفسي قبل أنْ أغطسَ : «لقد كبر الأولاد يا فاطمة ، وصاروا يحتاجون إليّ أكثر إلى جانبهم»

استيقظتُ في اللّيل تائِهًا . استعدتُ في ذاكرتي الكلمات الّتي قالها الشّيخ تيسير وصديقي سعيد ، فتحمّست . ما أكثرَ الدّوافعَ إلى ما أنوي القِيام به ، لكنّني كنتُ أبحثُ عن الدّافع الأكثر وضوحًا ، الدّافع الّذي لا تلوّثه أيّ ذرةٍ من شَكٍّ أو ندم ، كنتُ أبحثُ عن نور الله الّذي يُقذَف في القلب ، فيطمئنّ طمأنِينةً لا تشوبها شائِبة كان الوصول إلى ذلك الشّيء من أصعب ما جرّبتُ ، إنّه اليقين ، واليقين لا يُؤتيه الله مَن شاء ، إنّه لمن أخلصَ نفسه له ، وصلحتْ عليه نِيّته . توضّأتُ

وصلّيتُ ركعتَين ، نظرتُ إلى فاطمة كان وجهها الملائكيّ يحوّل العتمة إلى نور ، والدّنيا إلى جنّة . أهتفُ في سرّي : «هل ستغفرين لي!!»

صلّيتُ ركعتَي استخارة بعدها كنتُ أريدُ أنْ أسمع صوتَ الله يقول لي : «اذهب» . لقد سمعتُ من الشّيخ تيسير ومن سعيد ما يكفي . لكنّ بقيتْ خُطوة واحدة على التّنفيذ ، وصوتُ الله سيجعلني أختصرها . خاطبني الله بكتابه ، كان صوتُه يرسم لي الدّروب كلّها ثمتُ مطمئنًا . في الصّباح هممتُ أنْ أصارح فاطمة بالأمر كدتُ أقول لها : «إنّني نويتُ على . .» . ثُمّ توقّفتُ ، أعرفُ أنّها لن تقبل بذلك ، ولو وجدتْ منّي محاولاتٍ لإقناعها فإنّها ستُزعزعُ كياني كلّه بالأولاد ، ستقول «لمن تتركنا بعدكَ يا أحمد . . إلى أيّ صحراء ستقذف بنا . . . وهذه الأفواه الّتي لم تتعلّم إلاّ كلمة (بابا) حتّى الآن ، كيف ستقول هذه الكلمة ولا تجد لها ردًا . . .؟! كيف سيستيقظُ هؤلاء الأولاد على حقيقة أنّك لم تعدْ لهم ، ولم تعدْ موجودًا ، وأنّكَ رحلتَ إلى غير عودة . . .؟!هل يهون عليكَ نداؤهم : بابا . . بابا . وهم يتقافزون حولك . . إنّهم سيفتقدونك . . . سيحنّون إلى اليد الّتي كانتْ تحملهم ، واليد الّتي كانتْ تُطعمهم ، واليد الّتي كانتْ تمسح على رؤوسهم . . .» . أنفضُ رأسي أريد أنْ أتخلّص من هذه الأفكار الّتي تتداعَى إلى ذهني . أختصر الحالة كلّها بعبارةٍ واحدةٍ ، قلتُها لفاطمة بعد تلكّؤٍ طويل : «انتبهي للأولاد جيّدًا يا فاطمة ، أشعر أنّني لن أعودَ إلى البيت ثانية» . انفجرتْ بالبُكاء كانتْ هذه الجملة الأخيرة كفيلةً بأنْ تُفجّر ينابيع التّفجّع من عينَيها ، صارتْ تقول وهي تنشق : «ماذا ستفعل بنفسكَ يا أحمد . . .؟!! أنا كنتُ حاسّة أنّكَ تنوي على شيءٍ ما» . أحضنُها ، أهدّئُ من رَوْعها ، أقول لها «إنّه

مجرّد حُلم أنا مثل أمّي ، كثير الأحلام ، إنّه مجرّد حلم يا فاطمة ، وأنا سائقٌ كما تعلمين ، ويُمكن أنْ يحدث معي أيّ شيء ، حادث سير مثلاً أو غيره» كنتُ أختلقُ الإجابة . يستمرّ نحيبُها ، أكاد أبكي مثلَها ، أضعفُ أمام طوفان الرّحمة الّذي يغمرنا ، أتركها في غمرةِ بكائِها ، وأخرج . أتوجّه إلى بيتِ أهلي ، أودّع أبي وأمّي . لا يعرفان هما الآخَران شيئًا . يقول لي أبي عِظةً جديدةً من مواعظه الّتي يتحيّن كلّ لقاءٍ بيننا ليقولها : «لن يمنعك أحدٌ من أن تعيشَ كما تريد ، وتموتَ كما تريد . إيّاكَ أنْ تسترضي أحدًا في مسخطة الله ، كلّ لحظةٍ هي اختبار ، وكلّ اختبار هو اختِبار للصّبر في ذاته ، فاصبِرْ ليمرّ كُلُّ مُرّ ، وعن قريب ، سيطمر ترابُ الزّمن كلّ شيءٍ . وكلّ شيءٍ سينتهي ، إلاّ الذّكرى الطّيّبة ، ستخرج من تحت التّراب كما لو كانتْ زنبقةً ذات عطرٍ فوّاحٍ لا ينتهي عبقه مدى الزّمن» . لا أدري يا أبي لماذا تقول ذلك الآن لي ، وماذا تقصد به؟ لكنْ على عيني ورأسي يا أبي ، حاضِر

أستقلّ الباص المتوجّه إلى (الشّونة الشّماليّة) ، أحمل في جيبي مُصحفًا ، وبعض الأشرطة الدّينيّة . أكثر ما يُميّز الباصات والسّرافيس هو صوتُ الغناء الصّاخب الّذي تقذف به السّمّاعات مثل القيح في آذان الرُّكّاب ، صخبٌ وضجيج ، وتطبيلٌ ، وزمرةٌ ، كلّ هذا موجود ، أمّا المفقود فالكلمات الّتي تحمل معنى كان السّائق يضع أغنيةً فكّرتُ أنّها لمعلّم فاشلٍ تحوّل من التّعليم إلى الغناء الأفشل ، لأنّ كلماتها كانت تقول : «حُبّك جيّد . . . جيّد . . . جيّد جدًا . .» إي والله ، هذه كلمات الأغنية ، كنتُ أتساءل ما إذا كان هذا المغنّي الفاشل معلّمًا قاسِيًا قبل أنْ يترك مهنة التّدريس ، ذلك أنّه لا يُوجد في كلمات الأغنية الألف كلمة «ممتاز» واحدة!! تحوّلت هذه التّرّهات إلى

تُرّهات جديدة ، إذ صارتِ السّماعات تقول على لسانِ مُغنٍ آخَر يبدو أنّه قادمٌ من البسطرمة : «بيني وبينَك خَطوة ونُصْ لا بْتِتْكَلّمْ ولا بِتْبُصْ» . بصراحة مع هذا السّيل من التّفاهة خِفتُ أنْ أفقد حماستي للأمر الّذي عزمتُ عليه ، فقمتُ من مكاني وتوجّهتُ إلى السّائق ، وطلبتُ منه أنْ يضع في المُسجّلة شريطًا من الأشرطة الّتي معي ، ووافق ، وأعطيتُه شريطًا من أشرطة الشّيخ عبد الحميد كشك . كنتُ منذ الصّباح قد أخذتُ معي كيسًا فيه أكثر من عشرين شريطًا من أشرطة الخُطب الدّينيّة ، قرّرتُ أنْ أواظبَ على سَماعها حتّى تظلَّ بوصلة قلبي متّجهة إلى الفعل الّذي نويتُ أنْ أُقدم عليه كنتُ أعرفُ أنّ الكلمة تُحمّس . وأنا من النّوع الّذي تلينُ قلوبهم للكلمات ، وتُؤثّر فيهم المعاني بشكلٍ عميق . كنتُ أعرفُ أيضًا أنّ الكلمة تُقاتِل ، وأنّها تعيشُ بعدَ موتِ صاحبها ، فكلمات الشّيخ كشك ظلّتْ حيّة ورفاته قد أودع الثّرى من سنواتٍ . الكلمة تُحيي . وأهل العزائم يحتاجون إليها ، وأهل السّيوف تصبح سيوفهم أكثرَ مضاءً بتلك الكلمة الّتي تشحذ هِممهم

وصلتُ إلى الباقورة ظهرًا ، وفورًا غيّرتُ ملابسي ، وطلبتُ من القائد أنْ أستلم الدّوريّة كالمعتاد ، كنتُ مُتحفزًا جدًا ، ومُستفَزًا ، وعشرات المشاعر المتناقضة تموج في قلبي ، وأحلم باللّحظة المُناسِبة ، الخُطوة الأولى أنْ أقود سيّارة الدّوريّة ، ومن هناك تُصبح الرّؤية واضِحة ، ويُصبح الهدف في المرمى . لكنّني فُوجِئتُ أنّ قائد السّريّة يطلب منّي أنْ أكونَ سائِقه ، لأنّ سائقه الخاصّ كان قد أُعطِي إجازةً لحظة وصولي إلى هنا . انزعجتُ جِدًا من الأمر ، وفكّرتُ في أنّ هذه أولى العراقيل في سلسلةٍ طويلةٍ ربّما ، ومَنْ يدري قد يكون الله يُريد أنْ يثنيني عمّا

أفكّر به ، لكنّني تراجعتُ عن هذا التّفكير الآثم ، وقلتُ : إنّ ما حدث لم يكنْ إلاّ من الشّيطان ، لم يكن بوُسعي إلاّ أنْ أرضخَ للأمر ، لكنّني سألتُ قائد السّريّة عن الفترة الّتي سيظلّ فيها سائقه مُجازًا ، فقال لي إنّها خمسةُ أيّام . وبالفعل بقيتُ أسوق بقائد السّريّة خمسةَ أيّام ، ثُمّ في اليوم السّادس عاد السّائق من إجازته ، واستلمتُ أنا دوريّتي بشكلٍ طبيعيّ

كان دوامي في الدّوريّة المتحرّكة ستّ ساعات ، يليها ستّ ساعات استراحة يتولّى القيادة أثناءَها شخصٌ آخَر ، في اللّحظة الّتي كنتُ أهمّ فيها باستِلام نوبتي طلبتُ من خازن الأسلحة أنْ يُعطيني بُندقيّة ، فرفض!! قال : «أنتَ سائق ، والسّائق لا يحمل بندقيّة» أجبتُه وأنا أنوي أنْ ألكمه على وجهه فأهشّمه : «ولكنّني أحد أفراد الدّوريّة ، والدّوريّة يجب أنْ تكون مُسلّحة» . ردّ كأنّه كان يعرف أنّني سأقول له ذلك : «العنصران اللّذان يكونان معك يحمل كلّ واحدٍ منهما بُندقيّة ، أمّا أنتَ فلا» . لم أقلْ شيئًا كان افتعال المشاكل سيُفشِل كلّ شيء . خرجتُ حزينًا وغاضِبًا . قُدتُ الدّورية على ضفّة النّهر . كان كلّ شيءٍ وادِعًا لا شيءَ يبعثُ على الرّيبة أو الشّكّ . لم يزُر المنطقة أحدٌ من اليهود في ذلك اليوم . رحل النّهار على خير . وأتى اللّيل ، وفي اللّيل أرقٌ طويل ، وتفكيرٌ لا ينقطع ، وظلّ أمر الحصول على بندقيّة في اللّحظة المُناسِبة يُؤرّقني

في اليوم التّالي ، في ١١-٣-١٩٩٧ كان مجلس الأمن منعقدًا ، من أجل إصدار قرار بمنع اليهود من بناء مستوطنة في (جبل أبو غنيم) ، وكان يُمكن أنْ يُصوّت لصالح الفلسطينيّين بإيقاف قرار بناء المستوطنة ، ولكنّ الفيتو الأمريكيّ كان جاهِزًا من أجل مُدلّلتِها

وسيّدتها (إسرائيل) ، وبالفعل أُفشِل قرار إيقاف بناء المستوطنة ، ومضتْ إسرائيل في بناء المُستوطنة الّتي تبتلع من أراضي القدس ما يحولّها إلى أفعى نهمة ، وشعرتُ بضيقٍ في الصّدر ، وحزنٍ عميق ، وغضبٍ شديد ، وكان تصويت أمريكا في المجلس دافِعًا كبيرًا لِي كي أُتمّ ما أريد . وشعرتُ أنّ الله يفتح لي الطّريق من جديد ، وأنّ تنفيذ العمليّة صار محسومًا

تمنّيتُ في اللّيل أنْ تُشلّ يد أمريكا الّتي رُفِعت بالفيتو في التّصويت ، أمريكا الّتي تدّعي الحرّيّة وحقوق الإنسان ، كلّما تذكّرتُ تمثال الحرّيّة رافِعًا يده بالمشعل أعرف أنّهم كَذَبة ، وأنّ دولتهم المتجبّرة المُستكبرة في الأرض هي الأولى في قمع الحرّيّات ، وفي نهبِ خيرات الشّعوب ، وفي احتِلال البلاد الآمنة ، وإثارة الفتن والحروب فيها

في اليوم التّالي ، يوم الأربعاء ١٢-٣ كنتُ أجلسُ خلفَ مِقود الدّوريّة ، وأنا أغنّي أغنياتٍ حماسيّة ، وكان معي في الدّوريّة زميلي (مجدي) ، كانت الشّمس قد ارتفعتْ في السّماء ، وكنّا منذ الصّباح قد أفطرْنا ، وشربْنا القهوة ، ودخنّا سجائرنا ، وتمركزْنا في الدوريّة في الجزء النّهاريّ في منطقة برج العلم ، وهي السّاحة الّتي ينزل فيها السّيّاح . في العاشرة ، تهادَى باصٌ من بعيد . عرفْنا أنّهم سُيّاح يهودٌ الخازن لم يُعطِني بُندقيّة ، ومجدي تتربّع البندقيّة على كتفه ، كنتُ أنظر إليها كحبيبةٍ باعدَ بيننا الهجر والفِراق . وصل الباص المُتهادِي ، ونزل منه أكثر من عشرةٍ من الرّجال والنّساء ، وبدؤوا فظائعهم ، راحوا يُغنّون ويرقُصون ويشربون الخمر ، فجأةً أشاروا لنا ، كانوا يقولون بإشارتهم أنِ انضمّوا إلينا ، تشجّع (مجدي) للأمر ، وراح يُصفّق على إيقاع أغانيهم وحركاتهم الفاضِحة ، فزاد ذلك من تشجّعهم ، فأشاروا

إليه أنْ هيّا ماذا تنتظر ، وهمّ (مجدي) بالفِعل أنْ ينزل من الدّوريّة ، ويختلط بهم ، ويغنّي معهم ، ويسكر . فجُنّ جنوني ، كان قد صارتْ رِجلاه على الأرض يستعدّ للمشي باتّجاههم ، حينما نزلتُ من السّيّارة والتففتُ حتّى صرتُ في مواجهته ، ووقفتُ أمامه كالحائط الأصمّ ، ومنعته من أن يخطو خطوةً واحدة ، صرختُ بصوتٍ حاولتُ ألاّ يسمعوه : «هل أنتَ مجنون ، ترقص مع اليهود» «دقائق يا أخي ، قليلٌ من الخمر يُفرِح القلب» كان يبدو أنّه لم يُقِم لغضبي وزنًا ، وظنّ أنّني أمزحُ معه ، دفعتُه من كتفَيه بكلتا يديّ حتّى كادَ يقع على الأرض ، وصرختُ من جديد : «لن تفعل ذلك وأنا موجودٌ» . تراجع عندما رأى الجِدّيّة في عينَي . عادَ إلى موقعه في ظهر الدّوريّة ، وعدتُ إلى مكاني خلف المقود . ووصلتْ قهقهاتُهم إلينا مختلطةً بصخبهم الّذي كانت تهتزّ له الجدران . مرّتْ عشر دقائق على هذا الفجور ، لم أحتمل أكثر ، صعدتُ إلى (مجدي) ، طلبتُ منه أنْ يُعطيني بُندقيّته ، لكنّه رفض كتمتُ غيظي من جديد . وعُدتُ إلى مكاني كانوا قد أنهَوا حفلتهم في تلك الأثناء ، لكنّ عددًا منهم وهو يُغادِر راح يستهزئ بنا ، ويصنع أشكالاً من الحيوانات بيده ، ليقول لنا إنّنا حمير ودوابّ ، وهو ينفجر بالضّحك ، وكنتُ أنا أنفجر من الغيظ ، وكان هذا الموقف قد رسّخ لديّ القناعة أنّه يجب أنْ أنفّذ العمليّة في غضون ٢٤ ساعةً ، لأنّ الدّوافع لها كلّها قد تشكّلتْ ، ولم يبقَ إلاّ أمر حصولي على بندقيّة ولو بالحيلة أو بكسر باب مخزن الأسلحة الموجود في النّقطة

قال لي مجدي بعد أنْ غادروا : «لماذا طلبْتَ منّي السّلاح يا أحمد؟» . كان سؤاله ينضح بالشّكّ ، أجبتُه لأبعد من رأسه ما يُفكّر به : «لقد طلبتُ منكَ البندقيّة لأشاركهم فرحتهم بإطلاق الرّصاص

في الهواء، لقد كان علينا أنْ نزغرد معهم» . بالطّبع لم يقتنعْ، لكنّني كنتُ أحمي نفسي بهذه الكلمات فيما لو وقعت المُساءلة . سألني من جديد : «وهل كنتَ ستفعل ذلك حَقًا؟ أنتَ الإنسان الملتزم بالصّلاة لا أُصدّق أنّه يُمكن أنْ يقوم بذلك» . أجبتُه : «لكنّني إنسان، من لحم ودم، ولي مشاعر، ألا يمكن أنْ يطرب القلبُ مرّة، مرّة واحدة ياً مجدي، ألا يمكن أنْ يفعل الإنسان ذلك» كانت الشّكوك قد بدأتْ تتصاعد في المكان، وكان كثيرٌ من الزّملاء قد بدؤوا ينظرون إليّ وكأنّني أُخبّئ أمرًا مُدبّرًا لا يُدركون كُنهه . وكان إتمام التّنفيذ قد صار واجِبًا، وحتميًا، قبل أنْ تهبّ رياحٌ عاصفة فتهدم كلّ شيء وأقسمتُ في تلك اللّيلة على تنفيذ العمليّة غدًا، وكان قسمي من الصّدق إلى درجة أنّني شعرتُ بحرارته، بعد أنْ غادرتْ طيور الشّك قلبي بعد ذلك القَسَم تاركةً سعةً في الصّدر وراحة

(٢٤)
هناك نهرٌ مثل هذا النّهر

مرّ ليلُ الأربعاء بطيئًا . هتفتُ في سِرّي : «القلقُ أكثرُ من الذُّباب في هذا العالَم ، لكنّ الرّاحةَ هنا» ، وأشرتُ إلى قلبي . «ولكنْ ما نَفْعُ هذا إذا لم يكنْ هذا مرتاحًا؟!» وأشرتُ إلى رأسي   لا نَبْعَ في الكون يشرب منه النّاس فيُصابون باليقين . لا بُدّ من الشّكّ في كلّ شيء!

كنتُ أبتسم منذ حلول هذا المساء ، لم أنَمْ أكثر من ساعتَين بعد انتهاء دوريّتي . أعددتُ أنا الشّاي والقهوة لزملائي ، وقدّمتُ لهم الأكواب بنفسي ، وضحكتُ معهم على العَشاء ، حتّى ظنّوا أنّني شخصٌ آخَر . قلتُ لهم وهم يلتهمون كلّ ما في الأواني من طعام ، ولا يُبقون شيئًا : «يبدو أنّ المثل الّذي يقول : (لُقمة هَنِيّة بِتْكَفّي مِيّة) لا يصلح هنا» . ضَحِكوا ، وقمتُ وأعددتُ لهم مزيدًا من الطّعام ، وأنا في حالةٍ عجيبةٍ من النّشوة .

منذ أمسِ ، وأنا أردّد القَسَم كلّ دقيقة عشر مرّات : «والله العظيم لأنفّذ العمليّة غدًا   . والله العظيم لأنفّذ العمليّة غدًا» . واليوم منذ الرّابعة مساءً كنتُ أسأل عن المسؤول عن مخزن الأسلحة ، قالوا لي إنّه قد تغيّر ، وإنّ المسؤول الأوّل الّذي خدم هنا أكثرَ من سنةٍ قد نُقِلَ إلى نُقطةٍ حدوديّة أخرى . فسألتُ إنْ كانوا قد بعثوا بمسؤول آخَر عن المخزن بدلاً منه ، فقالوا لي : لا . ولكنّ مأمور المقسم يحلّ محلّه ريثما يبعثون لنا مسؤولاً جديدًا . صنع ذلك انشراحًا كبيرًا في صدري ، خطوتُ

خطوةً حاسِمة في الاتّجاه الصّحيح . قرّرتُ فجأةً أنْ أصمت . أنْ أتوقّف عن الحديث معَ الزّملاء من ساعة بدء استلام عملي على الدّوريّة العيون تفضح فكيفَ بالكلام . سأصمت كما صمتَ زكريّا حتّى أُرزَق بالخير كما رُزِق . لكنّني بيني وبين نفسي ، ومن دون أنْ أحرّك شفاهي كنتُ قد أقسمتُ القسم أكثر من ألف مرّة!!

رجعتُ بعد العشاء إلى المنامات لوقتٍ قصير ، استمعتُ إلى بعضِ الأشرطة الدّينيّة الّتي أحضرتُها ، استمعتُ إلى سورة آل عمران ، أضاءتْ لي كثيرًا من المفاهيم المُعتِمة . والمعاني المُستغلِقة . الاستماع إلى القرآن في وقت الحاجة له طعمٌ آخَر ، تتعلّق به كلّ الجوارح المُضطربة الباحثة عن الاطمِئنان ، وتهفو إليه القلوب المنكسرة الباحثة عن الأمان ، وتتبدّى لك معانٍ جديدةٌ لم تنتبه لها من قبلُ ، مع أنّكَ تكون قد سمعتَ الآيةَ نفسها عشر مرّات من قبل

كان وقتُ تبديل الورديّات قد حلّ في السّابعة تقريبًا . جاءني زميلي (فلاح) ليحلّ محلّي . منذ ثلاثة أيّام أخبرني بأنّ والده مريضٌ وأنّه يحتاج إلى أنْ يكون جانبه . رأيتُه اليوم منكسرًا ، عرفتُ أنّني سأجد عنده ما أريد ، وسيجد هو عندي ما يُريد ، أخبرتُه بشكل صريح : «والِدك مريض ، وهو بحاجة إليك ، وإذا لم نبرّ آباءَنا الآن فمتى نستطيع؟» . برقتْ عيناه ، لكنّه سألني بلهجة حزينة : «ليتني أستطيع أنْ أكون معه في هذه اللّحظات» . فقلتُ له بثقة : «تستطيع» فسألني محتارًا : «ولكنْ كيف ، والآن هو دوريّتي؟» . قلتُ له «أنا يُمكنني أنْ أحلّ مكانك؟» . فسألني مُستغرِبًا : «وهل تستطيع؟! أنتَ في العمل منذ ستّ ساعات» . «بالطّبع يا صديقي ، اذهبْ وكُنْ إلى جانب أبيك . اطلبْ إجازةً ولا تتأخّر عنه ، أمّا هذه السّيارة فأقودها

أنا في وقتك» . قال : «ولكنَّ ذلك يعني أنْ تظلَّ ساهِرًا طَوال اللّيل ، وهذا يُتعِبُكَ كثيرًا ؛ لأنّني لن أتمكّن من العودة قبل غد» . أجبته «لا تهتمَّ ، فأنا متعوّدٌ على السّهر . اذهبْ ولا تُكابِر ، أنا أعرف أنّك بحاجة إلى هذه الإجازة» . كادتْ عيناه تدمعان من الفرحة ، قال لي : «لن أنسى معروفك معي» أجبتُه ببيتٍ من الشّعر أحفظه من الثّالث الإعداديّ : «لا يذهبُ العُرفُ بين الله والنّاسِ» كانتْ فرحته كبيرة ، اتّصلتُ أنا بنفسي بقائد السّريّة ، وطلبتُ منه إجازةً ، قلتُ له «زميلي فلاح بحاجة إلى أنْ يرعى أباه ، وإذا تكرّمْتَ عليه بإجازة فسأسدّ أنا مكانه حتّى يأتي» . كان ذلك يعني أنْ أبقى في عملي سائقًا للدّوريّة ٢٤ ساعةً متّصلة . حدّثتُ نفسي : لكنّ هذا ما كنتُ أريده حتّى أحصلَ على صيدي ، لأنّني لا أدري بأيّ السّاعات السّتّ يُمكن أنْ أظفر بهذا الصّيد . أضفتُ لقائد السّريّة : «إنّني أفعل ذلك من أجل حالة إنسانيّة ، ولن يتأخّر فلاح في إجازته عن يوم واحد ، إنّه يسكن في المَنشيّة وهي قريبةٌ من هنا» . كان كلامي مُقنِعًا لكنّه لم يكنْ قانونيًا . وافق القائد على الطّلب . وسرعان ما كان (فلاح) يُغادِر المكان فَرِحًا ، وأنا استلم كامل وقت الدّوريّة حتّى أحقّق ما نويتُ عليه

عُدتُ إلى صَمْتي . المرافِقان اللّذان يُرافِقان الدّوريّة معي يسألان عن حالة الخَرَس المُفاجِئ الّتي أصابَتْني ، فأقول : «ستعرفون كلّ شيءٍ في وقته» ، فيزداد استغرابهم . أبقيتُ على أشرطة القرآن ، والدّروس الدّينيّة تصدح من مسجّلة السّيّارة ، كان الظّلام قد غطّى كلّ شيءٍ ، وسكنَ معه كلّ شيء . كنتُ أحاول أنْ أشحنَ عاطفتي من خلال ما أسمع ، وكنتُ دائم الذِّكر والتّسبيح . يسألني زميلٌ آخَر : «لِمَ كلّ هذا الصّمت يا أحمد» . أُجيبه إجابةً مُقتضبة : «إنّه اللّيل وأنا أحبّ أنْ

أختلي بنفسي فقط ، وغدًا ستعرفون كلّ شيءٍ . وأرجوك لا تسألني مرّة ثانية ، واشتغلْ بنفسك فهو أفضل لي ولك» . يسكت على مضض ، وينسحب من الحديث ، ليُمارس هو الصّمت مثلي . أوقفتُ السّيارة منذ الثّامنة مساءً حتّى العاشرة ليلاً أربع مرّات . كنتُ أنزلُ منها ، وأصلّي بجانِبها . في السّجود كان يتناهَى إلى سمعي خريرُ النّهر قادِمًا من الغيب ، كانتْ وشوشتُه تبعثُ فِيّ الرّاحة ، بدا أنّ أُخوّتي للنّهر قديمةً جِدًا

في الثّانية عشرة ليلاً نعستُ ، سقطَ رأسي على المقود في حركة خاطِفة ، انحرفت السّيّارة عن مسارها ، هزّني زميلي الّذي يجلس في الخلف ، أيقظني من غفوتي المُفاجِئة ، قال لي : «أحمد . . . أحمد . . . انتبه . . . انتبه إلى السّيّارة ، كدتَ تُهلِكنا» . أنتبه بالفعل فأرى سوادًا يُخفي كلّ شيء . سألني من جديد : «هل تريد النّوم؟» . أجبتُه «نعم؟ ولكنْ مَنْ يقود السّيّارة؟!» . أجابني : «أنا ، فلديّ رخصة سواقة» . استلم مكاني . طلبتُ منه أنْ يُبقِي على صوت القرآن المُنبعث من المُسجّل حتّى لو نمت . مددتُ جسدي قليلاً في الكرسيّ الخلفيّ ونمتُ ساعةً ونصف . صحوتُ على صوتِ تبديل الورديّة كان زميلان آخران يستلمان ، سألتهما إنْ كان أحدهما يستطيع قِيادة السّيّارة حتّى أنام ساعةً أخرى ، فأجابني أحدهم : «نعم ، أنا» . قلتُ له وأنا أُشير إليه بيدي طالِبًا منه استِلامَ المَهمّة ، مُبتلِعًا نصف الجملة من شدّة النّعاس والتّعب : «إذًا قُد السّيّارة أنت وأيقظني بعد ساعة لأتولّى الأمر مكانك . . أنا مُتعبٌ كما ترى» . وسقطتْ يدي ، جذبني عسل النّوم إلى قَفيره .

صحوتُ بعد أقلّ من ساعة مفزوعًا على صوتِ ارتِطام السّيّارة

بشجرةِ نخل مُجانبة للطّريق في إحدى البّيارات ، كان ارتجاج السّيّارة قويًا لدرجة أنّني استيقظتُ وأنا أقول : «بسم الله . . بسم الله . ماذا حدث؟» . قال لي السّائق وهو في حالة ذُعر : «لقد صدمتُ النّخلة ، لم أرها» . نزلتُ لأتفقّد الأضرار ، لم تكنِ الأضرار كبيرة ، فقط كان الصّدّام الأمامي للسّيّارة قد انبعج قليلاً . اطمأننتُ ؛ كنتُ خائفًا أنْ تكون الأضرار كبيرة ، ويتعطّل عمل السّيّارة وندخل في تحقيق وأسئلة ، ويضيعُ عليّ صيدي ، قلتُ للّذي صدم السّيّارة : «لا تُحدّثْ أحدًا بما حصل ، واعتبرْ أنّ الأمر لم يحدثْ من الأساس ، وفي وقتٍ لاحق أنا سأتدبّر الأمر فلا تخف» . نزلتْ كلماتي عليه بردًا وسلامًا ، كان خائفًا من المساءلة ، وتعاملي البسيط مع الأمر أراحه كثيرًا . لكنّني أخذتُ مكانه ، وأرجعته إلى صندوق السّيّارة خلف الرّشّاش .

قُدتُ السّيّارة على الشّريط الحدوديّ المسموح لنا في عتمة هذا اللّيل ربّما لساعتَين أو أكثر لا أدري ، كان وقتُ الفجر قد اقترب ، قدّرتُ أنّ أذان الفجر سيرتفع بعد نصف ساعة . السّحَر ساحِر . ظُلْمته رغم حُلكتها إلاّ أنّها تُزيلُ عنكَ تعبَ الدّنيا وأوضارَها . ترتقي بكَ كما لو كنتَ ريشةً بيضاء يجذبها غمام السّماء إلى الله . صمتٌ ونقاء لا صوتَ إلاّ ما يقوله الله فيك ، ولن تسمع ذلك الصّوتَ الإلهيّ إلاّ إذا كنتَ قد تجرّدت من ذاتك ووهبتَه جوارحك مُصغِيًا إليه بكلّك .

أوقفتُ السّيّارة ونزلتُ إلى النّهر . . . تهادَيتُ وأنا أسير نحوه ، مشى هو الآخر في مسيره التّاريخيّ إلى أحلامه وهو يتهادَى إليّ كُنّا مُقبلَين أحدُنا إلى الآخر ، كلٌّ يفتح قلبَه لخليله ، النّهر يحفظ العهد والمودّة أكثر من البشر ، علاقتي به توثّقتْ منذ أوّل يوم جئتُ فيه إلى هنا . وصلَ إليّ صوتُ خريره النّاعم ، برودة الجوّ المحيطة به أيقظتْ في روحي

أشجار الحنين . نَسَمات الهَواء المُنعِشة تحتضنني ، تمسح برقّة على وجهي . رأيتُ فاطمة . تجمّدتْ خُطاي . كان سيف ونور يمشيان خلفها وهما يقفزان جذلَين بصوتِ النّهر وطراوة العُشب ، وبتول تستقرّ بين يديها وهي تلعب بطرف الغطاء المنعقد بين يدَيها الصّغيرتَين!! «لماذا يا فاطمة . . لماذا تظهرين الآن . . . لماذا أتيتِ بالأولادِ يا فاطمة . . . ألا يكفي ما أعيشه في داخلي أيّتها الغالية . .؟! لا أريد أنْ يقضم فأر الخوف من قلبي ، عليّ أن أظلّ على ما غادرتُكِ عليه ، قويًا ، صامدًا ، ومالِئًا باليقين روحي . أرجوك لا تظهري لي قبل أنْ ألتقيكِ هناك . . هناك نهرٌ مثل هذا النّهر ، مَنْ شَرِبَ منه لا يظمأ أبدًا ، فأجّلي موعدنا عنده ، إنّ الفارق الزّمنيّ بين الموعدَين عشيّةً أو ضُحاها ، فاصبري حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولا» . ابتسمتْ حين سمعتْ كلماتي وذابتْ في النّسيم العليل هي وسيف ونور وبتول كأنّها لم تكنْ . ظهرتْ أمّي مكانها . نفضتُ رأسي ، فتمايلتُ . يبدو أنّ تعب اللّيلِ وسهره قد أثّرا على ما أرى . هل هذه التّهيّؤات بسبب التّعب فِعلاً أم بسبب الفارق الزّمني الّذي يتضاءل بيني وبين قدَري . تابعتُ سيري إلى النّهر . نادتْني . التفتّ خلفي ، فرأيتُها . إنّها هي بالفعل تقفُ مثل نخلةٍ صابرة ، قالتْ لي : «ألا إنّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» . قالتْها بصوت الشّيخ عبد الرزّاق . لا بُدّ أنّني أحلم . كيف أحلم وأنا أسمع وأرى وأقف على بعد خُطوات من النّهر ، وصوتُ خريره يصلني صافيًا كنجمة في اللّيل . «إنّه التّعب . . إنّه التّعب . . .» . هتفتُ في سِرّي : «لا بُدّ أنّ هذه التّهيّؤات من تعب اللّيلة الشّديد . أمّي في إبدر وكذلك زوجتي وأولادي ، أنا هنا على نهر الأردنّ ، أستعدّ للوضوء من أجل صلاة الفجر» . نفضتُ رأسي من

جديد ، التفتَ مرّة أخرى خلفي ، كان طيف أمّي قد ذاب هو الآخر بين الأشجار!

من بعيد كان أحد زميليّ الجالسَين في الدّوريّة يُدخّن ، عرفتُ ذلك من ضوء السّيجارة المُشتعلة في الظّلام ، كانتْ تلمع كجمرةٍ في عين أسدٍ . مشيتُ الخطوات القليلة المُتبقّية إلى النهر . قرفصتُ على ضفّته ، كان الماء يتراقص في جريه الأزليّ ، وقد سقطتْ فيه انعكاسات نجوم ما تزال ساهرة في قلب السّماء . كان الفجر يأذن بالقدوم ، ولهذا بَدأ لمعان النّجمات المتراقصة على سطح الماء يخفتُ تدريجيًا . أمسكتُ بحصاةٍ صغيرة ، رميتُها في النّهر ، فتجعّد وجهه قليلاً ، ثُمّ ما لبث أنْ عاد إلى نعومته يثرثر كأنّ شيئًا لم يحدث .

لم أتوضّأ بماءٍ منعشٍ مثل هذا في حياتي ، كأنّ الماء كان يُهدّئ من كلّ ما هو ثائرٌ فِيّ . ملأتُ يديّ به ، ورشقتُهما على وجهي فانتشيت ، ثُمّ ملأتهما من جديد ، ورشقتُ وجهي ثانيةً ، كنتُ أحسّ بمتعة غامضةٍ في كلّ مرّة ، فعلتُ ذلك أكثر من عشر مرّات . ثُمّ لمّا أتممتُ الوضوءَ ، قمتُ فسكبتُ كفّين من الماء على رأسي ، وبلّلتُ به ثيابي . إنّه الماء المُقدّس الّذي يُعيد للكون دورته ، وللجسد طهارته ، وللرّوح نقاءها

صلّيتُ على العشب ، كان سجّادة الأرض الأروع . لم يُصلِّ أحدٌ من زميليّ معي ، لديهما إجاباتٌ جاهزة في كلّ مرّة : «نحن في مهمّة الحراسة ، وفي واجب المراقبة ، وعلينا ألاّ نغفل لحظة» . أسخر من ردودهم الجاهزة في سرّي : «هه لا تريدون أن تغفلوا لحظةً واحدةً كأنّ مدافع اليهود ورشّاشاتهم وصواريخهم تقصفنا بشكلٍ متواصل ، وكأنّهم في الوقت القصير الّذي نؤدّي فيه الصّلاة سيحتلّون نصفَ

أراضينا . أتبع مُستهزئًا في سِرّي : «إنّهم يعتبروننا أبناء عمّ ، ومصيرنا واحدٌ ومُشترَك ، فلا تخافوا يا جماعة من هذه النّاحية»

في السّجود ، سجد الكونُ معي ، كان يعبد الله كما لا نعبد ، ويعرفه كما لا نعرف ، قليلٌ من التّماهي مع الطّبيعة يكشفُ لكَ حُبّها الفطريّ للخالق . قمتُ فقامت معي الأشجار ، ركعتُ فركعتْ معي الظّلال ، رفعتُ يديّ إلى الله فرفعت الكائنات قبلي يدَيها شاكرةً على الوجه الّذي يكون عليه الشّكر الحقّ . سلّمتُ فسلّمتْ عليّ نسائم الفجر ، وشقشقات النّور القادمة من الشّرق ، وزقزقات العصافير الغادية من وُكناتها إلى أرزاقها المقدورة في هذا الفضاء الرّحب ، لا بُدّ أنّ الشّرّ جاء إلى الأرض بعد خلق الإنسان ، وإلاّ فلماذا لا يكونُ شرٌّ إلاّ ويكون هو مصدره وآلته؟!

طلبتُ من زميلَيّ أنْ يقودا الدّوريّة بشكلٍ معتادٍ حتّى أُنهي صلاتي ، نصف ساعة أخرى وينتهي كلّ شيءٍ أقول لهم . نصفُ ساعة وتنقلبُ عقارب السّاعة . أجلسُ أسبّح الله بعد الصّلاة حتّى طلعت الشّمس كان نورها في أوّله ، خجولاً ، وخفيفًا آتيا من بين الأشجار وادِعًا ، يقول للنّاس انهضوا إلى أعمالكم ، فقد قُسِمت أرزاقكم كما قسم الله لي البهجة . أصلّي صلاة الاستخارة مرّة أخرى . أطلبُ من الله شيئًا واحدًا : «إذا كان فيه الخير لي ، فلا تُرِني سواه حتّى أقضيه» . أعودُ إلى الدّوريّة أقودها . السّاعة تُشير إلى السّابعة صباحًا . إنّه موعد تبديل المناوبين على الدّوريّة . منذ أكثر من أربع عشرة ساعةً وأنا لم أُبدّل عملي . لقد حانت السّاعة المرتجاة ، لم يبقَ إلاّ القليل ، وفرحُ لحظةٍ واحدةٍ يُنسي تعبَ دهرٍ بأكمله ، أمنّي نفسي بنجاح مهمّتي ، وأصبّر جسديَ الّذي بدا أنّ الخَدَر سرى في كلّ شبرٍ

فيه ، وأنّه بحاجة إلى الرّاحة ، أُنكِر عليه ذلك ، وأطلبُ منه مزيدًا من الصّبر

أتوجّه بالسّيارة إلى مركز النّقطة ، يُبدل عسكريّان فيأخذان مكان الزّميلَين السّابقَين ، وأبقَى أنا أسدّ مكان زميلي (فلاح) ، أطلبُ من الزّميلَين الجديدَين أنْ يُمْهلاني أقلّ من ساعة أذهبُ فيها إلى قيادة السّريّة ، أتناول إفطاري ، وأحلقُ ذقني ، وأعودُ إليهما سريعًا ، يوافقان بلا تردّد . لقد صرتُ قاب قوسَين أو أدنَى من تحقيق الحلم .

(٢٥)
البندقيّةُ الفارِغة ليستْ أكثر من عُود حِراثة!!

دخلتُ إلى المنامات ، خلعتُ بدلتي العسكريّة ، وتوجّهتُ إلى المطبخ ، تناولتُ فطوري وأنا أشعر بغربةٍ عن المكان وساكنيه ، أشعر أنّ روحي تحلّق في مكانٍ آخَر ، أهتفُ في أعماقي بتوجّس : «هل أنا فِعلاً أنتمِي إلى هذا المكان؟!» . أُنهي فطوري بسرعةٍ قبل أنْ يسمع أحدٌ صوتَ أفكاري ، أغادر إلى الحَمامات ، أرغّي ذقني بصابون الحلاقة ، أفركها جيّدًا ، أنظر إلى وجهي في المرآة ، بدوتُ رجلاً ثلجيًا . أجرّر شفرة الحلاقة على ذقني ، أكشط الرّغوة ومعها الشّعرات النّابِزات ، أكرّر على الموضع ذاته ، أُرغّي ذقني مرّة أخرى ، وأعيد حلاقتها ، تبدو ناعِمة ، أتحسّسها ، أبدو وسيمًا إلى حدٍّ ما ، ينزّ جرحٌ صغير لحبّة انفثأتْ من جرّاء تكرار مرور شفرة الحلاقة عليها ، يسيل خيطٌ من الدّم على جانب ذقني الأيمن ، لا يزيد طوله عن ٢ سم ، خيطٌ رفيع ، أتساءل في نفسي : «هل هو بداية الدّم!!» . لم يسمعني أحدٌ . أفرح ؛ ليس للأفكار صوتٌ وإلاّ كُنتُ قد انتهيتُ من زمنٍ أعقّم مكان الجرحِ ، وأشطف وجهي بالماء ، أنشّفه بالمنشفة المُلقاة علىٰ كتفي ، أرشّ قليلاً من الكولونيا ، أضع فوق موضع الجرح لاصِقة صغيرة . تقول لي فاطمة «عريس . . . ما أجملك!!» . أجيبُها : «إنّه فعلاً عرس ، وسيكون مشهودًا» . ألتفتُ خلفي ، أسمع صوتَ أقدامها وهي تُغادر

المكان ؛ «هل كانتْ حقًا هنا؟!» . أعرفُ الجواب ، لكنّ متعة السّؤال لا تمنعني من أن ألقيه ولو على نفسي . أبتسم . «الموت ليس انتهاءً ، إنّه التفافٌ إلى الجهة المقابلة ، من أجل الالتقاء بالأحبّة الّذين طال غيابُهم على الضّفّة الأخرى!» .

أعودُ إلى المنامات ، ألبسُ بدلةً عسكريّة جديدة ، نظيفةً ومكويّة ، كنتُ قد أعددتُها لهذه اللّحظة ، عليّ أنْ أكون جميلاً . الأناقة تعني أنّ عمليّتي يجب أنْ تكون أنيقةً كذلك . أدور حول نفسي ، أنظر إلى المرآة ، أصلح ياقة البدلة العُليا . أمرّر يدي على شعري ، أُعيده إلى الوراء في حركة أرستقراطيّة ، أشدّ (القايش) على وسطي . أتأكّد من لَمعان بسطاري ، أربطُ ساقه الطّويلة على ساقي ، أقف وأعيد النّظر في المرآة ، أضع النّظّارة الشّمسيّة على عينَيّ . أبدو مثل كوماندوز حقيقيّ أقول بصوت خفيض : «أنا جاهز»

أذهبُ إلى مُستودَع الأسلحة ، أعرفُ أنّ خازن المستودع ليس موجودًا ، وأنّ مأمور المقسم يحلّ محلّه ، يُصفّر أوّل ما يراني ، أسأله : «هل أبدو لائقًا بعروس؟» . يصدمه السّؤال . يكتفي بهزّ رأسه . أطلبُ منه بشكلٍ طبيعيّ : «بندقيّتي أيّها الصّديق؟!» . يتردّد . يسألني والشّكّ يبرق في عينَيه : «وهل مسموحٌ للسّائق أنْ يحمل بندقيّة؟!» أُجيبه بثقة : «بالطّبع» . يسألني بدرجةٍ أخفّ من الشّكّ : «منذ متى يحمل السّائق سلاحًا؟» . أجيبه بثقةٍ أكبر من السّابقة : «لقد صدرتْ أوامر جديدة بذلك» وأسأله بنغمةٍ تطفح بالعتاب واللّوم : «ألا تعرف؟!» . ينحرج ، يفتح المخزن ، أمرّر يدي على البنادق جميعًا ، إنّها كلاشينات حديثة ، أكادُ أقبّلها بندقيّةً بُندقيّة ، أتوقّف في المنتصف ، أقول كمن اهتدى إلى حبيبةٍ تاه عنها نصف قرن : «هذه . . . هذه

بندقيّتي» . يناولني إيّاها . أقف متصنّعًا انتظار الجزء الآخَر من تسليم السّلاح ، يسألني بريبة «وماذا بعد؟!» . «الرّصاصات يا عزيزي . هل تظنّ أنّني سآخذ البندقيّة فارغة ، إذا كنتَ بالفعل تظنّ أنّنا نحمل البنادق فارغةً فأنتَ إذًا جديدٌ على الصّنعة كلّها ، البندقيّةُ الفارغة ليستْ أكثرَ من عُود حراثة!! ماذا أفعلُ بعود حراثةٍ يا صديقي!!» يسألني وقد هزّه استفهامي ، وشعر بضعفٍ حين أحسّ أنّه يستلم هذا الموقع لأوّل مرّة في حياته : «أين هي الرّصاصات لأعطيكَ ما تريد؟» أجيبه برفق : «لا عليك ، أنا أعرف مكانها» . أدور خلف صفّ البنادق إلى صفّ (الباغات) ، آخذُ سبعَ باغات بحمولتهنّ كاملة ، كلّ باغة فيها ثلاثون رصاصة ، أخرج مزهوًا ، في جعبتي مئتان وعشر رصاصات بالعدّ والتّمام . ينظر مأمور المقسم إليّ كأبله ، أربّت على كتفيه بيُمناي ، أتمنّى له يومًا سعيدًا ، وأغادر وأنا أكادُ أرقصُ من الفرحة

غَذَذْتُ الخُطا إلى الدّوريّة ؛ إنّها سيّارتي ، وأنا سيّدها وسيّد اللّحظة الآن ، جلستُ في صندوق الدّوريّة الخلفي ، أفرغتُ الباغات السّبع من الرّصاصات المحشوّة ، وفردتُ مئتين وعشر رصاصات على الأرض . وبدأتُ أعدّها من جديد ، كانتْ كلّ رصاصةٍ ترفع منسوبَ سعادتي عشرة أمتار ، وصلَ منسوب السّعادة عندي إلى القمر ، بعد أنْ تأكّدتُ من عددها ، رحتُ أفرز الرّصاصات المستقيمة من الرّصاصات الّتي بها اعوِجاج ، الرّصاصة المستقية كالصّراط المستقيم تصل إلى هدفها بدقّة وبسرعة ، أمّا الرّصاصات المُعوجّة فهي كالرّقاب المُعوجّة لا ترى بشكلٍ صحيح ، عددتُ مئتَي رصاصةً مستقيمة قاتلة ، ولم يكنْ هناك لحسنَ الحظ إلاّ عشر رصاصات خاطِئات ، وإنْ كُنّ قادرات حتّى هذه العشر على إصابة طرف الهدف إذا كان واسِعًا ، كأنْ يكون مجاميع

بشريّة متوزّعة على مساحةٍ عريضةٍ من المكان . ركضَ قلبي أمامي وهو يُغنّي . أعدتُ الرّصاصات المئتين إلى باغاتها ، في الرّصاصة الأولى وأنا ألقمها للباغة الأولى هتفتُ : هذه من أجل الله . في الثّانية هذه من أجل محمّد . . . في الثالثة هذه من أجل امرأة عمّي . في الرّابعة : هذه من أجل بني قريظة لقد حانَ حينُكم . . . هذه من أجل رأسِ كعب بن الأشرف . . هذه من أجل عنق حُييّ بن أخطب . . . هذه من أجل عنق بنحاس روتنبرغ . وعددتُ مئة رصاصة على الأقلّ سمّيتُ أهدافها وغاياتها

تمنطقتُ بالباغات ، حزّمتُها على وسطي ، ولففتُ الجنّاد على كتفي تذكّرتُ صورة الشّهيد عبد القادر الحُسيني ، لو كنتُ ألبسُ شماغًا لحظتها لبدوتُ مثله ، خاصّة وأنّ شواربي وقتذاك نسخةٌ عن شواربه! قفزتُ من صندوق السّيّارة وأخذتُ مكاني خلف مقودها ، ووضعتُ البندقيّة إلى جانبي ، مع باغاتها ، وكمنتُ كما يكمن النّمر للفريسة كنتُ أستعجل الزّمن ، إنّ الالتفات إلى الوراء صار مُستحيلاً ، وإنّه لا تراجَع ولا استسلام ، ولا ندمَ ولا لوم ، وإنّ الجنّة أمامك وإنّ النّار خلفك ، ولن أدع نفسي للنّار ولو لآخر قطرةٍ من دمي

الدّوريّة في الصّباح تكون ثابتةً في منطقة برج العلم ، في هذه السّاحة الأكثر زيارةً من اليهود . تتحرّك في اللّيل على طول الحدود . أنا الآن متمركزٌ في موقعي أنتظر أفواج اليهود لأكتب درس الوطنيّة الأوّل في هذا المكان . كانت السّاعة تُشير إلى التّاسعة والنّصف صباحًا من يوم ١٣-٣-١٩٩٧ حين عاد زميلي (فلاح) الّذي أخذتُ مكانه منذ نوبةِ أمس ، وذهبَ لزيارة والده المريض . قال لي وكلماته تلهج بالشّكر والامتِنان : «سآخذ مكانك ، لقد كنتَ صديقًا رائِعًا ، زرتُ والدي ،

وقضيتُ معه يومًا بطوله ، واطمأننتُ على صحّته ، وحان الآن دوري ، اذهبْ أنت وارتَحْ ، لا بُدّ أنّك تَعبٌ جِدًا» . لم يُعجبْني ظهوره ابتِداءً ، ولا عودته بهذه السّرعة ، فرفضتُ طلبه ، قلتُ له : «نوبتي تنتهي في الواحدة ظهرًا ، سأبقى هنا إلى ذلك الوقت ، وبعدها سأذهب لأنام ، وحينها يُمكنك أنْ تحلّ محلّي» . استغرب من طلبي . لكنّه لم يغادر إلى المنامات ، وصعد ليجلس بجانبي ، ركنتُ البندقيّة خلفي شكرني مرّة أخرى ، وراح يتحدّث في مواضيع شتّى ، كنتُ أسمعه ولا أسمعه ، كان عالَمي مختلفًا عن عالَمه ، صحيحٌ أنّنا نقتسم السّيّارة نفسها ونجلس على مقعدين متجاورَين ، إلاّ أنّني كنتُ أحلّق في سماءٍ أخرى ، سماءٍ بعيدةٍ عن زملائي هنا ، كنتُ أرى أنّ أيّ شيءٍ غير التّركيز على الهدف ، سيجعل كلّ شيءٍ ينهار .

في العاشرة صباحًا فتحتُ المذياع في السّيّارة على نشرة الأخبار ، كان المُذيع يتحدّث عن مستوطنة (جبل أبو غنيم) والتّداعيات الّتي صاحبتْ فيتو امريكا ، وأنّ بناء المستوطنات هو حجر عثرةٍ في عمليّة السّلام . قال لي فلاح معلّقًا على ما سمعناه معًا : «الظّاهر أنّ عمليّة السّلام ستفشل» . ندّتْ منّي ضحكةً عاليةً هي أقربُ إلى الغيظ المكبوت منها إلى الضّحكة الطّبيعيّة ، وهتفتُ قائلاً : «أُقسم بالله العظيم لأقومنّ أنا بإفشالها ، وفي هذا اليوم» كان يعرفُ أنّني أتصرّف على غير المتوقّع ، فأخافه قسَمي ، التفتَ إليّ وقد أمال جذعه نحوي ، وبدا الرّعب يتسرّب من خلال قسمات وجهه ، وقال : «ما الّذي تنوي فعله أيّها المجنون ، أنا أعرفُ أنّك مجنونٌ ، لا أدري كيفَ وضعوك في هذا الموقع الحسّاس وعندهم ملفّك الأمنيّ» . خفّفتُ حِدّة عباراتي ، عرفتُ أنّني تلفّظتُ بما لا يجب أنْ أتلفّظ به ، قلتُ له بلا مبالاة كي

أزيلَ غبار الشّكّ الّذي أثرتُه بقسَمي السّابق : «وماذا تراني سأفعل؟ هه . . . أنا مجرّد سائق دوريّة لا حول له ولا قوّة ، وأنا أمزحُ كثيرًا كما تعرفني» . نظر إلى وسطي وما زال لواء الشّك يلوح في وجهه ، وسأل باستهجانٍ شديدٍ : «وما هذه الذّخيرة الّتي تتحزّم بها على وسطك . . . يا رجل . . سبع باغات؟!» . وصفّر طويلاً . ضحكتُ لأداري انحراف الأمور إلى مسار آخَر ، وباغتّه بسؤال أوقع أفكاره السيّئة تحتَ قدمَيه «ألا تعرف بالأوامر الجديدة يا صديقي؟» . فسألني : «وما هي الأوامر الجديدة يا طويل العمر؟! ومنذ متى حضرتك تلتزم بالأوامر؟» . فقلتُ له بكلماتٍ هادئة ، حرصتُ على نبرها بشكلٍ فخْمٍ وأنا أشدّ بيدَيّ على مِقود الدّوريّة : «لقد صدرتْ أوامر بأنْ يكون السّائق مُسلّحًا» «ومنذ متى صدرتْ هذه الأوامر ، على خبري قبل إجازتي ، أي قبل يومٍ واحدٍ ، كانت الأوامر تقضي بأنّ السّائق لا يُسمح له بحمل السّلاح» . فأجبتُه دون أنْ يطرفَ لي جفنٌ ، ودون أنْ يشعر بأنّه يحفر خندقًا عميقًا تحت إرادتي ليوقعني فيه : «في اللّيلة الماضية فقط ، ألم يُخبِروك بذلك!!» . لكنّه لم يُصدّقْني ، وبدأ يطرح أسئلةً تدلّ على أنّ هذه الإجابات لا يُمكن أنْ تمرّ عليه ، فلم أجدْ بُدًا من المناورة على مستوًى آخَر ، فقلتُ له : «أريدُ أنْ أصارِحك ، كنتُ أودّ أنْ يبقى هذا الأمر سِرًا ، لكنْ أنتَ صديقي ، ولن أُخفي عنكَ شيئًا .» . عدّلتُ من جِلستي وتصنّعتُ الجِدّيّة الكاملة ، وقلتُ له كمن يُدلي بمعلومات خطيرةٍ لم يعرفها أحدٌ قبله «أتذكر قِصّة الضّبع في تلك اللّيلة المشؤومة ، ليلةَ أنْ كاد يلتهمني ويقضي عليّ؟» . فأجابني ضاحكًا :

«بالطّبع ، وهل تلك اللّيلة تُنسَى ، لقد عُدتَ إلينا ووجهك مثل اللّيمونة من الفزع» . «تمام ، إنّني أحمل هذا السّلاح من أجل أنْ

أصطادَ ذلك الضّبع الّذي كاد يفتكُ بي» . فسألني : «وماذا ستستفيد من اصطِياد الضّبع؟» . حينَ سألني هذا السّؤال انزاحَ عن صدري هَمٌّ ثقيل ، لقد فاته أنْ يكتشفَ أنّني أكذب ، لو عرف أنّ الضّبع لا يخرج في النّهار بل في اللّيل ، وأنا أحمل السّلاح الآن في النّهار . لكنّ الله يريد أنْ يُتمّ قدَرَه . أجبتُه وأنا منشرح الأسارير : «تعرف يا فلاحِ ، هناكَ فوائد كثيرة من اصطِياد هذا الضّبع ، أوّلاً سنتخلّص من شرّه ، فلا تكون أنتَ على سبيل المثال فريسته القادِمة ، وثانِيًا ، أنا سأبيعُ جلده ، جلده إذا نُظّف واعتُني به فإنّه سيحصّل في سوق الجلود قرب مسجد إربد الكبير ثمنًا جيّدًا ، لقد ذهبتُ إلى تلك السّوق مرّات عديدة وجلود بعض الحيوانات النّادرة مطلوبةٌ لديهم ، وأسعارها مرتفعة» . ثمّ توقّفتُ قليلاً قبل أنْ أميل برأسي نحو أذنه وأهمس فيها : «وهناك سببٌ آخَر ، لقد اتّفقتُ مع قائد السّريّة على أنْ يمنحني إجازةً لمدّة أسبوع إذا خلّصتُ السّريّة من شرّ هذا الوحش المتجوّل» . لم يقتنعْ كثيرًا ، أحسّ أنّ القِصّة كلّها مُختلَقة ، وأنّها ليستْ أكثر من مجرّد فلم هنديّ ، ولكنّه تركني وغادر إلى السّريّة ، فحمدتُ الله على أنّني ارتحتُ منه ومن أسئلته .

(٢٦)
رَكعتانِ لا يصحّ وضوؤهما إلاّ بالدَم

كان المشهد هادئًا حتّى هذه اللّحظة . الوقتُ يمرّ برتابة قاتلة ، وأنا أنتظر صيدي . سمعتُ أصواتًا لجنودٍ في الجهة البعيدة على يميني ، التفتَ جهةَ الأصوات فرأيتُ أربعةَ جنود يقومون برفع خزّان معدنيَ للمياه ليضعوه فوق الحمّامات ، نعقَ غُرابٌ على شجرةٍ خلفَ المنامات : غاااق . . . غاااااق . طارتْ مجموعةٌ من الحمامات أمامَ ناظريّ ، حلّقتْ عاليًا فوق العلم المركوز في السّاحة ، هتفتُ : النّقائض تجتمع ، نعطيهم الحمامات فيبعثون لنا بالغربان . سمعتُ صوت الغراب مرّة أخرى يصيح بشدّة : غاااااق . . غااااق . . . كأنّما هو يحتجّ : «لستُ مثلهم ؛ أنا علّمتُ الإنسانيّة النّظافة والحضارة ، وهم علّموها الغدر والقذارة»

رفعتُ المنظار إلى عينَيّ كان هناك باصٌ التقطتْه عينا المنظار قادمًا من بعيد . تحفّزت . أنزلتُ المنظار عن عينيّ ، وتلفّتَ حولي ، يبدو أنْ الصّيد الثّمين قادمٍ ، انتظرتُ دقائق حتّى يقترب أكثر ، ويكون بإمكاني مشاهدة الرّكاب في داخله . رفعتُ المنظار إلى عينيّ من جديد ، فانخلع قلبي بلعتُ ريقي ، دقّقتُ النّظر مرّة أخرى وتأكّدتُ من أنّ الباص يحوي ما يقرب من عشرين طِفلاً أعمارهم بين السّادسة والثّامنة . قفز إلى ذهني أطفالي ، تخيّلتُ بُقعًا من الدّم تُغطّي وجهي بعد أنْ سقطوا قتلى بنيران مجهولة ، نفضتُ رأسي ، ورحتُ أمسح وجهي من آثار الدّم الّتي تخيّلتُها . حادثتُ نفسي : «ليس من

البطولة ولا الرّجولة أنْ أقتل باص أطفال ، سأدعهم يمرّون» . دار الباص نصف دورةٍ قبل أنْ يستقرّ في السّاحة ، ها هم على مدى الرّؤية العاديّة ، كانوا ينزلون واحِدًا واحِدًا من الباص ، وبهدوء عجيب ، كانوا بيض الوجوه شُقر الشّعور زُرق العيون ، باستثناء ثلاثةٍ من الصّغيرات كُنّ سودًا ، وشعورهنّ مُجعّدة ، ويربطْنها في جدائل كثيرة تتدلّى من على الرأس . ثمانية عشر طِفلاً نزلوا من الباص وهم يحملون عَلم إسرائيل كانتْ نجمة داود تتوسّطه ، وهو يرفرف بين أيديهم ، وهم ينزلون جَذلين ، وعلامات الفرح الغامر باديةً على وجوههم . أحيانا هناك من يستغل البراءة ، مَنْ يقتلها ، هم يفعلون ذلك ، منهاجهم التّعليميّ يفعل ذلك ، أناشيدهم الصّباحيّة تفعل ذلك ، أتعرفون ماذا يُنشد هؤلاء الأبرياء أمام العلم في الصّباحات الباكرة قبل أنْ يدخلوا إلى صفوفهم؟! إنّهم الآن أطفال ، ولكنّهم سيُصبحون غدًا أشدّ القتلةَ تمرّسًا حينَ يكبرون ، وسيقتلون ابني وابنك وأبناء المُسلمين ، وستتدلّى جدائلهم من تحت قُبّعاتهم الكهنوتيّة وهم يمرحون في شوارع القدس العتيقة ، يذرعونها بعنجهيّة وفي أيديهم الرّشّاشات الحديثة ولن يتأخّروا عن إفراغ الرّصاصات في وسط رؤوسنا لو شعروا بأدنى خطر وهل كان هؤلاء القتلة الكِبار إلاّ أطفالاً تفيضُ بالبراءة والشّفقة وجوههم!! وماذا أصبحوا اليوم؟! أصبحو (الهاغانا) ، وأصبحوا (البالماخ) و (الأرجونز) . هل تظنّون أنّ أفراد عصابة (الهاغانا) الّتي فعلتْ كلّ هذه الفظائع وُلِدوا قتلةً من بطون أمّهاتهم؟!! لقد كانت وجوههم اللّينة حينَ نزلوا من أرحام أمّهاتهم أكثر براءةً من وجوه هؤلاء الأطفال الّذين ينزلون من الباص أمامي!!

ولكنّني سأعمل بمروءتي ، وبشعوري الدّينيّ والقوميّ والعُروبيّ

لن أسمح للنّاس أنْ يقولوا : إنّه قتلَ أطفالاً ، وذبح صِغارًا . سأدعكم تمرّون بسلام أيّها الصّغار ، مع أنّني موقنٌ أنكم حينما تكبرون ستذبحون أبنائي ، وأبناء إخوتي ، وأدركُ أنّ الوقاية خيرٌ من العِلاج ، وأنَ قَطْع رأس الأفعى الصّغيرة ذات الملمس اللّين هو من أجل ألا يكبر ويستعصي على القطع ، ويخشن جلدها ويستعصي على الحرق . سأترككم أيّها الصّغار ، لأنّني أعلم أنّ مِن خلفكم آخرين سيأتون ، ربّتهم مدارسهم الدّينيّة على أنّ في قتلنا قربات إلى الرّبّ ، سأنتظر أنا هذا الصّنف من النّاس . أمّا أنتم يا مَنْ تعيشون الآن عمر الورود مُرّوا بسلام .

تحلّقوا في حلقة دائريّة ، كانت الأعلام البغيضة لا تزال تُرفرفُ في أيديهم ، تمنّيتُ أنْ يتربّى أطفالُنا على عُشر ما يتربّى عليه هؤلاء ، مع أنّ عقيدتهم فاسِدةٌ منحرفة ، إلاّ أنّهم يأخذون بها ، ويعملون بمُقتضاها ، ويشبّون على شرائعها ، ولذلك تجد اليهوديّ منسجمًا مع نفسه ومع توراته ، أمّا نحن ، فالأمّ تربّي بطريقة ، والأب بطريقة ، والعادات بطريقة ، والدّين بطريقة ، والعيب والحرام بطريقة ، والشّارع بطريقة ، وتأتي الحكومة فتنسف كلّ ما سبق وتربّي الإنسان منّا بطريقتها ، بحيثُ تصبح القاعدة الأولى فيها : «ابعدْ عن طريقَ الحكومة وغنّيلها» . ويخرج الفرد منّا بلا تربية ، ويضيع قلبه وعقله بين عشرات المُشتّتات ، وتختلط لديه المفاهيم والقِيم ، وتُصبح أخلاقه أنْ يكون بلا أخلاق ، ودينه أنْ يتمرّد على دينه ، ولهذا سنبقى أمّة مرذولة ، يستعبدها الأراذل ، حتّى يعود إلينا انسجامنا واتّساقنا على هَدْي واحد هو هَدْي القرآن والسّنّة .

كانوا يُغنّون ، صوتهم متناسقٌ ، كلماتهم عبريّة فوق أرضي

العربيّة ، وجوههم غريبة فوق أرضي الحبيبة ، عيونهم لا تنتمي إلى هنا ، ولكنّها بوقاحتها تُحاول أنْ تفرض علينا أنّ هذه الأرض لها ، وأنّ هذه السّماء لها ، وأنّ هذه المياه لها ، ونحن باسم تسامُح الإسلام وأنّه دينُ السّلام نضع رؤوسنا تحت مقصلتهم وننتظر أنْ تسقط على أعناقنا فتفصلها عن رؤوسنا ، وهل المفاوضات إلاّ مقصلة ، وهل القبول بحقّهم في أرضنا إلاّ نِطعٌ وسيفٌ؟!

أصواتهم في تراتيلهم بدتْ جاذبة ، إنّهم يغنّون بأسلوب الجوقات الدّينيّة . حرّكوا جُذوعهم إلى الأمام عدّة مرّاتٍ ، كعصافير تنقر من الماء بسرعة ثمّ وقفوا على أقدامهم ، وتابَعوا غناءهم وهم يتمايلون ، ويهزّون الأعلام بيمناهم ، ليتني كنتُ أفهم العبريّة يومَها لأدرك ما يقول هؤلاء الأطفال الملاعين .

أكلوا وشربوا ، وتفسّحوا مع أدلاّئهم في المكان ، وكنتُ أرى الدّليل يُشير إلى كلّ شبر في هذه السّاحة ، كأنّه يعرفه ، وكأنّه يعرّفه إلى الطّفل ، يتحدّث له عنه طويلاً ، وكأنّني أسمعه يقول له . «هذه أرضُك ، احتلّها هؤلاء العرب الهمج ، وستعود لك يومًا ، لكنّ عودتها لا تكون بالتّمنّي ، ولا بانتظار المُخلّص ، إنّما تكون بالعمل ، اعمل كما قالتْ لك التّوراة ، أنتَ شعبُ الله المختار ، وهؤلاء كلّهم جوييم ، وحمير ، خُلِقوا على هيئة البشر من أجل أنْ يخدمونا» .

كنتُ في كلّ لحظةٍ أضع يدي على مخازن الرّصاصات (الباغات) ، أتحسّسها ، أتأكّد من جاهزيّتها ، أتمنّى لو أنّني أستطيع أنْ أنفّذ هذه العمليّة بهؤلاء ، لكنّني أكفّ في اللّحظة الأخيرة ، كان الصّبر صعبًا حينها ، عليّ أنْ أفعل شيئًا ، أين باصاتكم القذرة الأخرى ، لتأتِ إلى هنا ، لتحلّ في أرضي لكي أُذيقها من العذاب ألوانًا

صعدوا إلى الباص بعد أكثر من ساعة ، ما كاد الباص يُكمل دورته في السّاحة مُستعدًا للرّحيل باتّجاه الجانب المُغتصب حتّى كشف المنظار لي باصًا آخر قادمًا إلينا ، دعوتُ الله حينها ألاّ يحمل أطفالاً هو الآخَر ، وأنْ يكون رُكّابه من الكبار في السّنّ ، انتظرتُ قليلاً قبل أنْ أُعاود النّظر إليهم عبر ناظور الدّوريّة ، فيقفز قلبي من الفرحة ، لقد كان يحمل نساءً كبيرات في السّنّ وبعضَ الرّجال ، لقد جاء صيدي أخيرًا إذًا ، وها هي لحظة الصّفر قد حانتْ . استعجلتُ تقدّمه إلينا ، وهل يستعجل الإنسان عدوّه إليه إلاّ إذا أرادَ أنْ يُرديَه!!

نزلتُ من الدّوريّة ، سأصلّي ركعتَين ، ربّما تكونان آخر ركعتَين ستمسّ جبهتي فيهما تُراب وطني ، إنّهما رَكعتانِ لا يَصحّ وضوؤهما إلاّ بالدّم . ستكونان آخَر عهدي بالدّنيا وبالبشر ، كنتُ أتخيّل أنْ قتلي سيكون على يد زملائي لا على يد اليهود ، سيقتلونني ليبرّئوا أنفسهم من فَعلتي . لكنْ وليَكنْ ، إنْ كانتْ شهادةً في سبيل الله فألفُ مرحبًا بها . المُختصَر إنّ حدث : «قتلوني ليحموا اليهود» . أو : «قتلوني لأنّني قتلتُ اليهود»

أطلتُ في الرّكعتَين ، الباص لم يصل بعدُ تمامًا إلى المكان ، وسيمكث على الأقلّ ساعتَين هنا قبل أنْ يُغادر ، وسيكون بإمكاني أنْ أخاطب الله بشكلٍ جيّد قبل أنْ أكون على موعدٍ مع الموت ، الموتُ ليس مُخيفًا ، لأنّه البوّابة الّتي تُوصلك إلى الله ، وهل يكون لقاء الله مُخيفًا!! والموتُ ليس صعبًا ؛ لأنّه يساوي لحظة خروج الرّوح من الجسد ، ويُمكن أنْ تخرج الرّوح من الجسد برصاصةٍ واحدة ، رصاصة واحدةٍ فقط ؛ تخيّلوا ، وأنا أتوقّع عددًا لا بأس به من الرّصاصات سيستقرّ في جسدي ، ولذا سيُسهّلون عليّ وعلى الرّوح خروجها

والموتُ ليس بعيدًا ، إنّه يعيشُ في كلّ واحدٍ منّا ، يفارقه حين يفارقه ، وهو في عيشه معنا أقربُ إلينا من حبل الوريد ، والرّحيل معه يُمكن أنْ يحدث في أيّ لحظةٍ دون سابق إنذار ، وأنا لا أريد أنْ يرحل بي إلاّ شهيدًا

كنتُ في الرّكعة الثّانية حينما وصل الباص واستقرّ تمامًا في السّاحة على بعد خطواتٍ منّي ، نزل منه بعضُ الرّجال وفتيات بالِغاتً ، كانوا قد هاجوا بأصواتٍ مُنكرةٍ غريبة ، كما لو أنّهم كانوا سُجناء لعشرات السّنين وأُخبِروا بإطلاق سراحهم . أجفلني صوتُهم من صلاتي ، وقطَعها عليّ ، لكنّ الأمر لم يتوقّف عند نهيقهم ، بل ارتفع صوتُ قهقهاتهم الفاجرة ، انفجروا بالضّحك وهم يُشيرون إليّ إشاراتِ استِهزاء ، وراحوا يأخذون من حصى الأرض ويقذفونه في وجهي ، سيقولون لكم في الإعلام : إنّ الّذي دفعني إلى استِخدام الرّشّاش هو استهزاؤهم بي وأنا في الصّلاة ، في الحقيقة هذا عُشر الحقيقة ، الحقيقة الأنصع أنّني كنتُ أنتظر هذه اللّحظة بفارغ الصّبر ، وإلاّ فما معنى أنّني أخذتُ معي مئتين وعشر رصاصات ، أفأخذتها لأتسلّى بها ، أو لأتصوّر معها وهي تُمنطِقُ وسطي!!

حاولتُ أن أتخفّف فيما بقي لي من الصّلاة ، أسرعتُ في أدائها قليلاً ، وأنا في الجلوس الأخير ، جلوس التّشهّد ، رَموا باتّجاهي قشر الموز ، واستقرّ أمامي تمامًا في موضع سُجودي ، سلّمتُ وأنا أقول في سِرّي : «اصبروا عليّ قليلاً ، لأجعلنكم عبرةً يتحدّث بها القاصي والدّاني» . مشيتُ بثقة لم أمشها من قبلُ باتّجاه الدّوريّة ، استللتُ البُندقيّة من مكانها ، عبّأتُ أوّل باغة ذات الثّلاثين رصاصة ، وصوّبتُ بهدوء تُجاه إحداهنّ ، بدا لي مسمار التّصويب يتوسّط رأسها الفاجر ،

ستكون إصابةً في منتصف الرّأس ، أنا قنّاص ، وأعرف هدفي تمامًا كتمتُ نَفَسي ، وضعتُ يدي على الزّناد ، بدأتُ بالتّحفز ، إصبعي يضغط ، والكونُ كلّه يتوقّف ، إنّها الرّصاصة الأولى الحقيقيّة ، الّتي ستُوقظ هذا العالَم الكافر من سُباته ، وستوقف طُغيانه إلى حين ، إنّها الرّصاصة الأولى الّتي ستجعل النّائم يصحو ، والغافل ينتبه ، والمخدوع يعرف . وقبل أن أسمع للزّناد أنْ يُتمّ شرارتَه لتخرج الرّصاصة الأولى إلى هدفها ، صحتُ : «الله أكبر . . .» . وانطلقت الرّصاصة على هَدْي هذه الكلمة الخالِدة ، الكلمة الّتي تبعث الطّمأنينة والشّجاعة في قلوب المُؤمنين ، والهلع والرّعب في قلوب الفَجَرة . أصابتِ الطّلقة هدَفها بدقّة ، وتناثر رأسُها في المكان ، ورأيتُ من خلال الشُّعيرةِ دماءَها ترشق باب الباص ، ودماغها يندفق إلى بوز الباص . كانت هذه الرّصاصة الأولى كفيلةً بأنْ تُغيّر الحياةَ هنا في المكان ، وتُلخبط مجريات الأحداث ، كانت النّساء مدرّبات في حالة الهجوم ، إنّهنّ خرّيجات مدارس عسكريّة ، ونحن شبابنا لا فتياتُنا في هذا السّنّ لا تنزل المصّاصة من أفواههم ، ولولا الخجل العامّ لوضعوا أحمر الشّفاه وهزّوا خصورهم ، تذكّرتُ ما قرأتُه في السّنة الثالثة من التحاقي بالعسكريّة في مذكّرات هشام شرابي (الجمر والرّماد) مُتسائِلاً كيفَ تركَ فلسطين وذهب إلى أمريكا للدّراسة وهو في سنّ الثّامنة عشرة ولم يكنْ يعرف أنّ اليهود في مثل سِنّه وخاصّة الفتيات قد كانوا جميعًا مُجنّدين نهضتِ المقارنة من جديد مع شبابنا ، فعضضتُ شفتَيّ حتّى كاد يسيل منهما الدّم . أمّا هؤلاء الفتيات اللّواتي تفرعَطْنَ من الرّصاصة الأولى فلم ينتظرْن رصاصتي الثانية ، هربْن باتّجاه شيءٍ يُخفيهنّ ، باتّجاه المزراع ، ركضنْ لعشرين أو ثلاثين مترًا ، ثُمّ انبطحنْ على المُنحدر

العُشبيَ كما نفعل نحن الجنود المدرّبين المُحترفين ، وأخذْن يزحفْنَ باتّجاه الأشجار لتفادي رصاصاتٍ أخرى مُحتَملة . مع أنّ صوتَ الرّصاص سكتَ لوهلة

هتفتُ وأنا أشدّ على الكلمات ، ودمائي تغلي في عروقي : «لنْ تكنّ أذكى منّي ، أعرف كيف أواجه الأمر» . حولتُ مُبدّلة الرّمي على الإطلاق السّريع (الأوتوماتيكيّ) من أجل أنْ أحظى بعددٍ كبيرٍ منهنّ ، في هذه اللّحظات كان الجنود المكلّفين برفع خزّان المياه فوق الحمّامات قد وصلوا إليّ وهم يصيحون بي أنْ أتوقّف ، وجّهتُ فوّهة الرّشّاش تُجاهم ، وحذّرتُهم بكلمةٍ واحدةٍ : «إنْ تدخلتّم فسأفرّغ ما تبقّى من الرّصاصات في رؤوسكم» . تراجعوا مذعورين ولم يكفّوا عن الصّراخ حرفتُ البندقيّة باتّجاه المُنحدر العُشبيّ ، وصوّبتُ باتّجاه الزّاحفات ، هتفتُ بصوتٍ عالٍ : «الله أكبر . . . الله أكبر . . .» غطّى على هتافي رغم أنّه كان يشقّ الفضاء صوتُ الطّلقات الرّشّاشة ، كانت الرّصاصات تُلعلع في الجوّ ، أنهيتُ المخزن الأوّل ، بدلتُه بالثّاني ، ورأيتُ أياديهنّ ترتفع ثمّ تخمد حركتهنّ ، في المخزن الثّالث (أردفت) البندقيّة معي ، كززتُ على أسناني ، وخبطتُ الأرض ببسطاري ، وهتفتُ مغتاظًا : «لا بُدّ أنّ رصاصة مطعوجة هي الّتي أوقفت الوضع الأوتوماتيكيّ» . نظرتُ إلى المنحدر من جديد ، كان عددٌ لم أستطعْ تقديره على وجه الدّقّة يرقد بلا حراك ، البقيّة كانوا قد اجتازوا مرمى رصاصاتي ، صوّبتُ البندقيّة نحوهم من جديد ، لكنّها لم تُطاوعني ، صرختُ صرخة غيظ كبيرةً ، ورميتُها بعيدًا عنّي . كان عليّ أنْ أبحث عن وسيلةٍ أخرى لأتمّ مهمّتي

قدرٌ كبيرٌ من الرّاحة يجتاح كياني ، انتصرتُ على نفسي أخيرًا ،

وانتصرتُ لديني وأُمّتي . بعثرتُ لغة الشّجب في وجوه العَجَزة ، وغيّرتُ ولو بشكلٍ فرديّ أسلوب التّباكي على وضعنا ، ها نحن نستطيع أنْ نثأر ، ونستطيع أنْ ننتقم .

اقترب منّي عددٌ كبيرٌ من العسكريّين بحذر ، كانوا يخافون أنْ أكون مُسلّحًا ، طمأنتهم : «سلاحي ليس مُوجّهًا لإخوتي ، سلاحي مُوجّه للخنازير والحَيّات» . أمسكوا بي ، ومضَوا بي إلى الدّوريّة ، أجلسوني في داخلها ، وتوجّهوا مع عددٍ كبير لإخلاء المُصابين تركتُهم يفعلون ذلك ، ونزلتُ من السّيّارة ، وصلّيتُ ركعتَين لله شكرًا على نجاح مهمّتي . بعد أنْ صلّيتُ الركعتين ، قفزتُ وجلستُ على بوز السّيّارة ، وأخرجتُ سيجارةً ، وأشعلتُها ، ورحتُ أدخّنها بلذّةٍ عجيبة كنتُ أنظر إلى العساكر وهم يتقافزون ويتصايحون ويقومون بحمل القتيلات على النّقالات استعدادًا لإجلائهنّ لا أدري إلى أين ، كان أحلى منظرٍ رأيته في حياتي كلّها ، وربّما في حياتي المُستقبليّة ، كلّما رأيتهم يحملون قتيلةً على النّقّالة آخذُ نَفَسًا من السّيجارة وأنا في غاية الاستِمتاع ، وكنتُ أعدّ معهم القتلى ، دخّنتُ وأنا أنظر إليهم سجائر بعدد اللّواتي حُمِلْنَ على النّقّالات ، دخّنتُ تسع سجائر ، لكنّني سأكتشف فيما بعد أنّ اللّواتي مُتْنَ كُنّ سبعًا ، وأنّني لشدّة سعادتي وانفعالي لم أكنْ أتمالك نفسي ودخّنتُ سيجارتَين إضافيّتَين . وأنا اليوم أقسم صادِقًا قسمًا نابِعًا من القلب أنّ هذا المنظر الّذي رأيتُه كان أجمل منظرٍ أراه في حياتي!!

لم ينتهِ المشهدُ تمامًا ، حانتْ منّي التِفاتةٌ نحو المعبر ، فرأيتُ مجموعة من الطّالبات اللّواتي تشتّتْنَ ومعهنّ ثلاثةُ رجال ، يبدو أنّهم من الّذين تمكّنوا من الاختباء ، وأنّهم ربّما بعد أن اطمأنّوا إلى توقّف

انهمار الرّصاص ، قاموا من مخابئهم وهربوا باتّجاه بوّابة المعبر لينجوا بأرواحهم . لم أحتجْ إلى وقتٍ كثيرٍ لآخذ قراري ، قفزتُ إلى السّيّارة ، وقدتُها باتّجاههم ، إنّهم يهربونَ كالفئران على الممرّ الإسفلتي ، بإمكاني أنْ أحظى بالمزيد من القتلى ، من أجل أنْ يُشفَى صدري أكثر ، وبالفعل ، دُستُ على دوّاسة البنزين بأقصى ما أستطيع ، لكنّني أتيتُهم من الجهة المقابلة ، أي من جهة الأراضي المحتلّة حتّى يطمئنّوا لي ، وبالفعل ظنّوا أنّني سيّارة جاءتْ لتنقذهم ، وتُقلّهم إلى الدّاخل ، فراحوا يُشيرون لي بأيديهم الملطّخة بالدّماء ، ويستغيثون بي كي أحملهم . كانوا صيدًا سهلاً ، قلتُ مُرحّبًا بهم : «تعالوا ذوقوا مرارة ما ذقناه عبر عشرات السّنين ، هلّموا إلى الموت في مقدّمة هذه السّيّارة ، دهستُ الأوّل والثّاني ، وفرّ البقيّة عبر المزارع ، واختفوا وراء الأشجار ، لا أدري أمات الرّجلان اللّذان دهستهما أمِ انْضمّوا إلى الجرحى الّذين أتمنّى أنْ يكون عددهم كبيرًا!!

عُدتُ بالسّيّارة إلى منطقة برج العلم ، إلى مكانها الطّبيعيّ ، كأنَّ شيئًا لم يحدث . أطفأتُ المُحرّك . خرجتُ من جديد ، وقرفصتُ على بوزها ، ورحتُ أدخّن وأتساءل ما إذا كان الزّملاء قد طبخوا الغداء أم لا!

(٢٧)
استراحةُ مُحارِب

أبلغَ الجنودُ الشّهودُ قائد السّريّة عبر اللاسلكيّ بما حدث فحضر إلى السّاحة كان يرافقه ثلاثةً من العسكريّين المُسلّحين . سألني قائد السّريّة «لماذا فعلتَ ذلك؟» . فأجبتُه «فعلتُ ما كان يجب أنْ أفعله من زمنٍ بعيد» . لم يقلْ شيئًا . أحاطَ المُسلّحون بي ، وأمروني بأنْ أستجيبَ لما يطلبونه منّي دون مقاومة . انتبهتُ إلى عقب السّيجارة وهو يلسع بجمرته إصبعَيّ ، ألقيتُه على الأرض ، دستُ عليه بالبُسطار ، قلتُ وأنا أنفث دُخان النّفَسِ الأخير «ما أردتُ أنْ أفعله فعلتُه ، أنا لا أقاوم زملائي» . دفعني اثنان منهم إلى الأمام ، وأشار الثّالث بسبطانة الرّشّاش لأتقدّم . سمعتُ أصوات طائرات عموديّة تُحلّق في الجوّ استبطأتُهم قليلاً في المُغادرة لكي أعرف لمن تتبع هذه الطّائرات العموديّة . هبطت الأولى في مدرج صغيرٍ مُعدّ لهبوط الطّائرات قرب المعبر في الموضع الّذي حُصِدتْ فيه الأرواح ، كانت تابعة لسلاح الجوّ الإسرائيليّ . نزل منها المُسعفون ، وراحوا يحملون القتلى والجرحى ويتوجّهون بهم إلى الطّائرة في حركةٍ سريعةٍ وخائفة . مرّتْ دقائق قبل أنْ تهبط طائرة (هليوكبتر) أخرى قريبًا من الأولى . عرفتُ فيما بعد أنّها كانت تحمل الأمير حسن الّذي كان وليّ العهد يومئذ .

قُيّدتْ يداي إلى الخلف ، ودُفِعتُ إلى قيادة السّريّة . في الطّريق تخابروا مع الجهات المعنيّة ، وقرّروا نقلي من قيادة السّريّة إلى

استخبارات الشّونة الشّماليّة . في مُصفّحة وحراسةٍ مُشدّدة وصلت إلى مركز الاستخبارات . انتظرتُ ساعتَين في غرفةٍ وحدي ، القيد يلفّ يدَيّ ورجلَيّ ، ويمنعني من أدنى حركة ، قبل أنْ يفد ضُبّاط التّحقيق من الاستخبارات . كانت المعلومات الأوّليّة قد وصلتْهم . كان في الجسد العربيّ وقتها بعضُ الدّم . بعض المبادئ الّتي تربّى عليها أبناؤنا وإخوتنا لم تكنْ قد طُمِستْ تمامًا مثلما هي اليوم . أدخلوني على أوّل ضابطٍ سيبدأ معي سلسلة التّحقيقات ، كانت السّاعة تشير إلى الواحدة ظُهرًا بدا أنّ قلبَه ليس مرهونًا إلاّ لعروبته ، لم يشتمْ كما يفعل المحقّقون عادة ، ولم يضربْ ، ولم يصرخْ ، ولم يفعلْ أيَّ شيءٍ ، كان أوّل شيءٍ قاله «هل تريدُ شيئًا؟» . أجبتُه «أريدُ أنْ أُصلّي» فكّوا القيود من يدَيّ ورِجلَيّ ، وتوضّأتُ ، وصلّيتُ براحتي ، وانتظرني حتّى أنهيت . بعد الصّلاة سألني إنْ كنتُ أريدُ شيئًا آخَر . فضحكتُ وقلت : «هل لديكمْ شيءٌ يُؤكل ، فأنا جائعٌ جِدًّا؟» . وبالفعل أحضروا لي مقلوبة دجاج بالباذنجان والزّهرة ، وأكلتُ بنهم ، كان الطّعام لذيذًا ، وكانتْ نفسي مفتوحة ، لم أُبقِ في الصّحن شيئًا ، فطلبتُ المزيد ، فأحضروا لي صحنًا آخر ، كان ساخِنًا أكثر من سابِقه ، رأيتُ البُخار يتصاعَد من كتلة الرّزّ الّتي تلمع من زيت الزهْرة المقليّة ، وفوقه تستقرّ قطعةُ دجاج محمّرةٍ كبيرة وكانت الرّائحة تسافر عبر المسافة الفاصلة بيننا فتصلنّي قبل أنْ يصلني الصّحن نفسه ، ولولا أنّني أخشى أنْ تزعل منّي فاطمة ، لقلتُ إنّ هذه المقلوبة أزكى مقلوبةٍ أكلتُها في حياتي . أتيتُ على الصّحن الثّاني كما أتيتُ على الأوّل ولم أُبقِ فيه إلاّ العِظام أحسستُ بالشّبَع . سألت : «هل عندكم شاي؟» . قالوا : «نعم!» . فقلت : «بالنّعنع لو سمحتم» . كان الضّابط ينظر إليّ ويبتسم ،

سألتُه «تُدخّن؟» استغرب سؤالي ، لكنّه أجاب : «نعم» . فطلبتُ منه سيجارة ، أعطاني سيجارة (مالبورو) كان الشّاي قد حضر ، فشربتُه ودخّنتُ وأنا في غاية الاستمتاع ، كنتُ أرشفُ من هنا رشفةً عميقةً يصلُ صوتها إلى أذن الحَرَس ، وأسحبُ من هنا نَفَسًا عميقًا أملأ به هواء الغرفة . اقترب منّي أحدُ العساكر ، أمال جذعه حتّى صار فمه قريبًا من أذني ، ظننتُ أنّه سيوبّخني على جرأتي في حضرة الضّابط ، أو يشتمني على ما فعلت ، أو يطلب منّي أنْ أكون أكثر تهذيبًا ، لكنّه قال لي بصوتٍ خفيض وهو مرتبك لا يريد لغيري أنْ يسمعه : «تسلم ايدك» . هبطت الكلمتان على صدري كغمامةٍ من الطّمأنينة ، إنّ هذا يعني أنّ في الجيش مثلي ، وأنّ في القلب مشاعر تُجاه الصّهاينة مثل المشاعر الّتي في قلبي ، وأنّ هؤلاء العساكر لولا القيود الّتي تمنعهم من كلّ شيءٍ لفعلوا ما فعلتُ وزيادة . كنتُ أردّد في سرّي : «مَنْ يقبل بقاتلٍ إلاّ قاتل ، ومَنْ يقبل بخائنٍ إلاّ خائن!! هؤلاء اليهود قتلوا وخانوا واستحلّوا المحارم فلا يقبل بهم إلاّ واحدٌ منهم أو مَنْ يُشبههم ، أمّا هذه الصّدور الأبيّة ، وهذه القلوب اليعربيّة فلا يُمكن أنْ تقبلَ بفلسطين إلاّ طاهرةً من الأنجاس ، موحّدةً ومُحرّرة»

لم يفعل ضابط التّحقيق أكثر من استضافتي على الغداء وعلى سيجارة وكأس شاي ، نُقلتُ بعدها في سيّارة مرسيدس خاصّة ، كان زُجاجها أسود يُخفي خلفه الرّاكبين ، شعرتُ بشيءٍ من الأهمّيّة ، لوهلة ظننتُ أنّ النّاس ستصطفّ على جانبَي الطّريق وهي تمدّ يدها بالتّحيّة ، وتهتفُ لي بصوتٍ مُرتفع . تقدّمَتْنا سيّارة جيب مُسلّحة وتَبِعَتْنا سيّارة مُسلّحة أخرى ، كان المُلثّمون يقبعون فيهما خلفَ بنادقهم الرّشّاشة ، إنّ رشاشاتهم تُشبه الرّشّاش الّذي نفّذتُ به العمليّة ، رقصَ

قلبي من الفرح ، شيءٌ من الحنين إلى صداقةٍ من نوع خاصّ بين الجنديّ وبندقيّته ، كما هي بين الفارس وخَيْلِه . توجّهوا بي إلى مبنى استخبارات إربد . في الطّريق مرّوا قريبًا من (إبدر) ، قفز قلبي من صدري كعصفور يقفز من قفص ، حننتُ إلى الأولاد ، منذ أسبوع لم أرهم ، تُرى ماذا يفعل سيف الدّين ونور الدّين وبتول الآن ، وماذا تفعل أمّهم؟ هل وصل خبر العمليّة إليهم؟ ما هي ردّة فِعل أبي وأمّي على ما قمتُ به؟! كيفَ يسير العالَم في الخارج الآن؟ ها هي (إبدر) ، إبدر الّتي زرعتْ فِيّ حقيقة الإباء ، وعلّمتْني أنْ أكون جُنديًا مُقاتلاً لا جُنديًا خانعًا ، ها هي تنبسطُ أمامي كزهرة سوسنةٍ تأبى أنْ تموت . تذكّرتُ امرأة عمّي ، خِلتُ نفسي أخاطبها : «لقد انتقمتُ لك يا امرأة عمّي . وإذا عُدتُ إلى المكان مرّة أخرى فسأنتقم لكِ من جديد»

قال أحدُ الجالسين في سيّارة المرسيدس في الكرسيّ الأمامي ، بصوتٍ أقرب إلى الهمس : «إنّ هذه العمليّة ستُؤثّر على عمليّة السّلام ، وستُعيد ترتيب الحسابات من جديد» . ردّ عليه السّائق : «وهل تظنّ أنّ هناك عمليّة سلام من الأساس؟!» . تفاعلتُ معهما قائلاً : «السّلام مع الأفعى نهايته نابٌ ينهشُ في الضّلوع ، ألَمْ تعلّمْنا التّجارب عبر التّاريخ ، ألم يقولوا : الملدوغ يخاف من جَرّةِ الحبل!!» لكزني الجنديّ الّذي بجانبي كي أسكتْ ، لكنّه كان يبدو فَرِحًا ومرتاحًا لما قمتُ به ، شاركَ هو بدوره : «الله يعدّيها على خير» . ذات العبارة الّتي يقولها ثلاثة أرباع الشّعب العربيّ المقهور ، يعرفُ الصّواب لكنّه عاجزٌ عن تحقيقه . أردتُ أنْ أقول له «الله لا يأتي بالخير لمن لا يريدون الخير لأنفسهم» لكنّني آثرتُ الصّمت . تابع الذي يجلس بجانب السّائق : «أعتقد أنّ هذا السّلام سلام حكومات لا سلام

شعوب ، هل ترى أنّ الشّعوب بشكلٍ عامٍ ترضى الصّلح مع اليهود؟ لا أعتقد بذلك؟» . ردّ السّائق : «جرائمهم لا تتوقّف ، إنّ مجازرهم من دير ياسين إلى اليوم شاهدةٌ على دمويّتهم ، ليس من المعقول أنْ يقتلوا كلّ هذا العدد منّا ونبقى ساكتين» . قال الّذي يجلس بجانبي : «لا تنس مذبحة قانا ، ولا تنس مذبحة الخليل ، يريدون أنْ نتلقّى الضّربة بصمتٍ ولا نردّها . . . تِسْلَمْ . . . .» خفض صوته كأنّه يخشى من أنْ يكونَ الحديث مُسجّلاً . «إي والله تِسلم إيدك على هالعمليّة» ولكزني مرّة أُخرى . زفر السّائق من صدره زفرةً حرّى ، وقال : «ولا يهمّك ، لا تندم على ما فعلت ، إنْ شاء الله ما تأخذ عليها حُكمًا ، وإذا أخذتَ إنْ شاء الله سيكونُ مُخفّفًا» . ضحك الّذي بجانبي ، وقد وجد أنّ الحديث قد بسطَ راحته بيننا ، وصار مُباحًا : «ماذا سيحكمونك؟ مُؤبّد! بتِطْلَع» . ردّ عليه الّذي بجانب السّائق : «افرض حكموه إعدام!» . أجابه بسرعةٍ الّذي بجانبي : «سيكون شهيدًا» . قال الّذي يليني من جهة اليسار : «ولماذا إعدام ، ألأنّه قتل مُجنّدات يهوديّات؟» قال السّائق : «آه والله بالفِعل . . . ليش إعدام!! أنتَ قتلتَ مسلمين أو أردنيّين . . . يا حيف!!» . في داخلي كان عالمٌ من النّشوة يتفاعل ، نقّلتُ رأسي ونظراتي بينهم ، هؤلاء الجنود المساكين مارسوا دور القاضي والمحامين والمحكمة . قلتُ لهم وأنا أضحك : «لو أعدموني الأمر سهل بالنّسبة لي ، الّذي أرجوه ألاّ تبقى معاهدة السّلام الفضيحة في وادي عربة قائمة» . ثُمّ قلتُ بصوتٍ جادّ : «هل أفراد الجيش المخلصون من أبناء الّذين قاتلوا في باب الواد ، ومن أحفاد الّذين استُشهِدوا مع عزّ الدّين القسّام ، ومن إخوة مفلح كايد العبيدات ، هل هؤلاء مستعدّون أنْ يُساهِموا في إفشال عمليّة السّلام ، وإعادة إبرة البوصلة إلى اتّجاهها

الصّحيح ، حيثُ يبقى العدوّ عدواً ، ويبقى المحتلّ محتلاً؟! وهل هناك مَنْ يبثّ هذه الرّوح في أبناء سلكنا العسكريّ المنضبط ويُؤكّد على أنّ مقاومة المحتلّ وإخراجه من أرضنا واجبٌ وضرورةٌ وفريضةٌ؟!» . ساد الصّمت . لكنّ روحي كانتْ تحلّق في الأعالي كنتُ أشعر أنّ خمس سنوات من التّفكير بالأمر قد آتى ثِماره اليوم ، وأنّني كمحاربٍ دخل معركةً شديدةً ، وقاتَلَ وقُوتِل ، وأصاب وأُصيب ، وأنهَى المعركةَ على الوجه الّذي يُرضيه ، وآنَ له أنْ يستريح ، ألم يقولوا ذلك : استراحةُ مُحارِب!

على الباب ، وضعوا غِطاءً أسودَ على عَينَيّ ، وقيّدوا يديّ ورجلَيّ ، ومشيتُ بصعوبةٍ وأنا مدفوعٌ من الخلف ، كانت القيود الّتي تجمع بين رجليّ ، تجعل الخطوة قصيرةً وصعبة ، ومع الحركة كانتْ تضطرّ القيد أنْ يضغطَ أكثر على عظمة رجلي فأحسّ بألم فظيع ، أدخلوني إلى أحد المكاتب ، وبقيتُ واقِفًا ، أسمعُ ما يدور حوْلي من حديث ولا أرى . بعد أقلّ من نصفِ ساعةٍ من سماع أحاديث لا علاقةَ لي بها ، قال أحدهم وأظنّه أكبرهم رُتبةً «هل تريدُ شيئًا؟» . وكان سؤاله وَدُودًا فأجبتُه «القيود تُسبّب لي آلامًا ، والغطاء الّذي على عينَيّ يحوّلني إلى أعمى» . فأمر الجنود الصّغار بأنْ يفكّوا قيودَ رجلَيّ ، فشعرتُ بانزياح كمّيّة كبيرةٍ من الألم ، ونزعوا الغِطاء عن عينَيّ ، فشعرتُ براحةٍ وأنا أتخلّص من عماي وأستعيد نعمة البصر ، لكنّ الضّابط أبقى على قيود يدَيّ ، وسألني إنْ كنتُ أرغب بالطّعام ، فأجبتُه «لقد أكلتُ مقلوبة زهرة في الشّونة وكثّرتُ فأنا شبعان ، لكنّني أريد فنجانًا من القهوة ، ولتكنْ سادة» . ضحك ، واهتزّ مع ضحكته ، وقال لي : «تُؤمر أَمْر» . أشعلَ سيجارةً وقدّمها لي ، كانتْ من نوع «كِنْت» كدتُ

أقول له وأنا آخذها بكلتا يديَ : «ما بحبَ أغيّر لكنْ للظّروف أحكام» حضرتِ القهوة برائحتها الّتي تعيدُ ترتيب خلايا الذّهن المُشتّتة ، وترفع منسوبَ الرّاحة ، قلتُ له وأنا أرفع يدَيّ المُقيّدتين عالِيًا ليراهما : «سيّدي ، ألا ترى ، كيفُ يمكنني أنْ أشرب القهوة ويداي لا تنتميان لي ، أهكذا تُعامِلون ضُيوفَكم؟!» . ضحك هذه المرّة بصوتٍ أعلى ، وقال : «مش قليل أنت يا أحمد» . وأمر أحد العساكر أنْ يفكّ قيدي ، وشربتُ القهوة وأتممتُ السّيجارة وطلبْتُ أخرى . وأشعلها هذه المرّة أحد العساكر بعد أنْ غادر الضّابط المكتب ، وكانت من نوع (ريم) ، وكنتُ على استِعدادٍ - بسبب العالَم الّذي يضجّ بداخلي - أنْ أدخّن (روثمان) في تلكَ اللّحظات ، كنتُ أحرقُ أيّ شيءٍ يقع بينَ شفتَيّ وترحّمْتُ على أيّام الهيشي الّتي كنتُ أرى جدّاتِنا وأجدادَنا يدخّنونه ، وهتفتُ نحن جيل (كمال) و (جولد ستار)!!

مرّتْ ساعةً ثقيلةً ، حرسٌ في الغرفة ، ولا أحدَ سوايَ معهم . يقفون بانتِظار أوامر تخصّ التّحقيق معي . رنّ هاتف الجرس في المكتب . قفز أحد العساكر ، وردّ على الهاتف ، وحينَ أغلق السّمّاعة هتف : «قَيّدوه . . . (صيّاح بيك) في الطّريق ، سيكون في المكتب خلال خمس دقائق»

شعرتُ بارتِياح عندما سمعتُ اسم (صيّاح بيك) ، فأنا أعرفُه من سنواتٍ طويلة ، عندما خدمتُ في حدود الرّمثا ، وكان هو مديرًا لاستِخباراتها ، وكان شهمًا ، وعلاقتي به قويّة ، ويعرف أهلي ، وأعرف أهله ، وتجمعنا مشاعرُ ألفةٍ واحدة . قلتُ لأحد العساكر وهو يقوم بتقييدي : «وما هي وظيفة صيّاح بك في الاستخبارات هذه الأيّام؟» فأجابني : «سيكون رئيس هيئة التّحقيق» . ارتحتُ أكثر لهذه المعلومة ،

صار بإمكانهم تفهّم دوافعي ، إذا تفهّمَ ابنُ قريتك أو محافظتك ذلك .

كانت السّاعة تقترب من الثّانية عندما حضر صيّاح بك إلى المكتب . نظر إليّ نظرةً فاحصة ، أراد أنْ يتأكّد من أنّني هو ، أردتُ أنْ أجيبَ عمّا يدور في ذهنه فأقول : «أنا هو بشحمه ولحمه» . طلب من كلّ الحرس والعساكر أنْ يخرجوا من المكان ، وبقينا وحدَنا ، قال لي وهو يحدّق في سقف الغرفة : «فعلتَها إذًا؟!» . لم أقلْ شيئًا . طرفتْ عيناي من دون أنْ أنظر نحوه وقالتا : «نعم» . سكتَ قليلاً ، ثُمّ تابع «تكلّمْ يا أحمد . . . قُلْ لي ما الّذي حصل معك هناك؟!» . أجبتُه «لقد كنتُ أصلّي صلاةَ الضّحَى في أمانِ الله ، ولم أُقِمْ أيّ اعتبار لوجود المجنّدات الإسرائيليّات ، لكنّهنّ لم يتْرُكْنني وشأني ، في الرّكعة الثّانية ، بدأنَ بالاستِهزاء بي ورَمْي الحصى والنّفايات باتّجاهي ، في الجلوس الأخير كانت قشور الموز ، وبقايا الأكل تتجمّع في موضع سجودي . كلّ ما أذكره أنّني أنهيتُ الصّلاةَ بسرعة ، وتناولتُ من السّيّارة بندقيّتي ، في اللّحظة الّتي صارتْ معي فقدتُ الوعي ، لا أعرفُ ماذا حدث بالضّبط ، سمعتُ أصواتًا ولَغَطًا لكنّ ذلك كان قبل فُقداني للوعي ، دارت بي الأرض ، دُخت ، رأيتُ الباص مقلوبًا ، وبوّابة المعبر تسيح كأنّها تنصهر ، سقطتُ على الأرض ، جاءت السّقطةُ على طرف رأسي ، فأُصبت بغيبوبة عميقة ، ولم أصحُ على نفسي إلاّ في قسم الاستخبارات في الشّونة الشّماليّة» . سألني وقد بدا الاهتمام التّامّ على قَسمات وجهه «فقدتَ الوعي؟ كيفَ؟! لقد تناولتَ البندقيّة بكامل إرادتك!!» . أجبتُه وأنا أهزّ رأسي ، كأنّني كنتُ أنتظر منه أنْ يسألني هذا السّؤال : «بعد أنْ صارت البندقيّة بين يديّ ، تصرّفتُ بلا

وعي ، أعني أنّني لم أكنْ أعي ما يحدث ، إذ إنّني أعاني من أمراضٍ نفسيّة مُتعدّدة ، أعاني من نوبات فُقدان الوعي ، والفُصام ، واضطراب الشّخصيّة ، ومعي تقريرٌ طبّيّ يوضّح حالتي هذه بشكلٍ كامل» . سألني بلهفةٍ وكأنّه وجد مخرجًا بعد طول تفكير «وأينَ هو هذا التّقرير؟» . أجبتُه : «في ملفّي الطّبّيّ في مستشفى الأمير راشد ، وهناك نسخةٌ منه في بيتي» . ضغط صيّاح بيك على الجرس بسرعة ، قفز في وجهه عسكريّ أدّى له التّحيّة ، تناول صيّاح بيك ورقةً وكتب عليها أمرًا وختمها بختم القسم ووقّع عليها ، وقال للعسكريّ : «الآن تستقلّ إحدى السّيّارات التّابعة لنا ، وتذهب إلى مستشفى الأمير راشد ، وتُحضِر الملفَّ الطّبّيّ الكامل المتعلّق بأحمد» . خرج العسكريّ يلبّي الأمر . قال لي صيّاح : «هذا التّقرير سيساعدكَ كثيرًا ، أنا أريدُ أنْ تنتهي هذه القضيّة على خير ، وإذا ما عُرِض في المحكمة في بيّنات الدّفاع من قِبَل مُحامٍ مُتمرّس فإنّه ربّما يُساعد القاضي على النّطق بقرار عدم المسؤوليّة لِعدم الأهليّة العقليّة» . ثُمّ واصلَ أسئلته حول دوافع القضيّة ، وحول الأصدقاء الّذين أنا على علاقةٍ وثيقةٍ بهم ، وبِمَنْ تأثّرتُ من الشّيوخ ، ولِمَنْ أستمع ، وكانت أكثر أسئلته عاديّة ، ولم أرَ عسكريًا يجلسُ معه إلى مكتبه ويُدوّن مجريات هذا التّحقيق ، فقد كانت الأسئلة كلّها شفويّة وكأنّها حديثٌ بين صديقَين أحدهما يريد أنْ يعرف ما حدث مع الآخَر بعد طول غِياب!!

استمرّتْ أسئلة صيّاح بك أكثر من ساعة شربتُ خلالها فنجانَين من القهوة ، ودخّنتُ خمس سجائر على الأقلّ . وأثناء ذلك سمعتُ أذان العصر يُرفَع ، فطلبتُ من صيّاح بيك أنْ أؤدّي الصّلاة ، فسمح لي بتأديتها في المكتب ، وقام من خلف مكتبه ، وأعطاني سِجّادة الصّلاة

بنفسه ، وكان ذلك لطفًا كبيرًا منه .

بعد أنْ أنهيتُ الصّلاة ، رنّ هاتف المكتب ، فتناول العقيد صيّاح السّمّاعة ، فلمّا علم مَنِ المُتّصل على الخَطّ الآخَر ، رنّ على جرس مكتبه ، وطلبَ من عساكره إخراجي من المكتب ، لكي يُكمل المكالمة من دون أنْ يسمعه أحدٌ ، وكان الّذي يُكلّمه يومئذٍ هو رئيس الوزراء . ولعلّه تلقّى أمرًا في هذه المكالمة بإعفائه من التّحقيق ، وإبعاده عنه

لم تمرّ غيرُ عشر دقائق ، حين أعادوني إلى مكتب العقيد صيّاح ، كان يبدو مخطوف اللّون ، تغيّر في هذه الدّقائق العشر كثيرًا ، لم يعدْ له ذات الوجه ، سألني كأنّما يعتذر : «هل تريدُ شيئًا قبلَ أنْ أخرج؟» أجبتُه وقد خمّنْتُ ما حدث : «لا شيء صيّاح بيك سوى تزويدي بالسّجائر» . أخرج علبة سجائره كاملةً وكانت من نوع ((LMوأعطاني إيّاها ، وقال موجّهًا حديثه للعساكر «زوّدوه بالسّجائر كلّما طلب» . فهزّ اثنان رأسَيهما صافحني مصافحةَ مَنْ يودّع صديقًا سيغيبُ عنه عقودًا من السّنوات ، وخرج .

(٢٨)
أينَ الكلب؟

بقيتُ في المكتب وحدي ومعي بعضُ الحرس ، ارتفع صوتُ أذان المغرب من أحد المساجد القريبة ، قمتُ وصلّيتُ ، كنتُ قد أنهيتُ الفرض ، وشرعتُ بركعتَي السّنّة ، وقبل أنْ أُتمّهما رنّ جرس الهاتف ، رفع أحد الحرس السّمّاعة ، أصغَى قليلاً ، قبل أنْ يُشير برأسه جهةَ الباب بطريقةٍ مُضطربة ، قائلاً : «إنّ أبو سليم» قد حضر . رأيتُ حركةً لا اعتياديّة من قِبَل الحرس والعساكر ، كنتُ قد أنهيتُ الرّكعتَين ، وبقيتُ جالِسًا أدعو الله ، في هذه اللّحظات سمعتُ وقعَ خُطُواتِ شخصٍ خلفي ، ثُمّ صوته وهو يفحّ كأفعى : «أينَ الكلب؟» . فردّ عليه الحرس : «إنّه هذا الذّي يُصلّي أمامك» . صار بجانبي تمامًا ، حينها هممتُ بالوقوف ، لكنّه سألني : «هل أتممتَ صلاتَك؟» . فأجبتُه كمن يريد أنْ يكون ودودًا : «ودَعَوْتُ لك» . فرفسني برجله رفسةً قويّة على ظهري أوقعتْني على الأرض ، وصرخ : «لا أريدُ دَعَواتِك يا كلب» ثُمّ أمرني بالوقوف ، فوقفتُ وأنا لا أزال أضع يدي على جانب ظهري من شدّة الرّفسة ، ما إنْ استويتُ في وقوفي حتّى هوى على وجهي بلطمةٍ أشدّ أفقدتْني وعيي للحظات ، وسقطتْ ساعته من يده لقوّة اللّطمة كنتُ لا أزال أُحِسّ طنينًا يثقب أذني في الجهة الّتي تلقّت اللّطمة حينَ نظر إلى ساعته على الأرض وأشار إليّ كمن يُخاطب كلبًا أجرب : «أعطِني السّاعة» . هممتُ لحظتَها أنْ أُنشِبَ أظافري في عنقه

وأعضَ رقبته حتَى يسيل منها الدّم ، لطالَمَا كان هذا الشّعور يراودني في حالات الغضب الشّديد ، لكنّني تمالكْتُ نفسي ، وأجبتُه «هذه ساعتُك وليستْ ساعتي ، وأنتَ الّذي أوقعتَها لا أنا ، وعليكَ أنْ تلتقطْها بنفسك ، أنا لستُ خادِمًا في بيتِك ، ولستُ حتّى سوّاقًا عندك» . فاجأه رَدّي ، لكنّه في الوقتِ نفسه كبحَ جِماح تماديه وعنجهيّته ، فقال وهو يزفر : «الظّاهر أنّك وَقح!!» . فقلتُ له بلا مبالاة ، لكنْ بتشفٍّ بيني وبينَ نفسي : «ليس بمستوى وقاحتك ، ولا جُرْأتكَ على الله» . هزّته العبارة الأخيرة ، أمال رأسه جهةَ اليمين قليلاً كمن يريد أنْ يسأل عن جرأته على الله ، فأعطيتُه الجواب قبل أنْ ينتظر «لقد ضربْتني وأنا بينَ يدي الله ؛ فهل هذه رجولة؟!» . فردَّ عليَّ وهو مصعوق : «وهل مثلك يعرف الله ، يبدو أنّ الله الّذي تعرفه غير الله المعروف للنّاس؟» فرددتُ : «وهذه جرأةٌ أخرى منكَ على الله ، لقد دخلتَ ورأيتَنِي أُصلّي له ، وكنتُ أدعوه ، ولم تحترم جلوسي أمام ملك الملوك ، ورحتَ لتضربني على ظهري ، هل هذا فِعْلُ مَنْ يعرف الله؟!» لم يقلْ كلمةً واحدةً بعد عبارتي الأخيرة ، انحنى مثلَ مهزومٍ في الحلبة وتناول ساعته الّتي سقطتْ على الأرض . وقال لي ووجهه محمرّ من أثر تدفّق الدّم فيه بعد انحناءته : «اجلسْ» . جلستُ وأنا أشعر بألم شديدٍ في ظهرِي ، كان موضع الرّفسة يؤلمني كثيرًا ، كأنّ صخرةً صلدَةً قد هرسَتْه

سألني «مَنْ وراءَك؟!» . أجبتُه «لا أحد غيري ، أنا ورائي» . «لا تتهبَلْ . هذا كلامٌ غير مقنع» . «أنتَ حُرّ ، أنا أقول لك الحقيقة ، لأنّني من أجل هذه الحقيقة فعلتُ ما فعلتُ ، ولن أقول لكَ أكثر من الكلام الّذي قلتُه لصيّاح بيك» لانتْ نبرتُه وهو يقول : «إذا تعاونْتَ معنا

فإنّكَ ستـرتاح وتُريح ، وإذا لم تتعاونْ . . .» . توقَّف قليلاً ليغيِّر نبرته أهتفُ في سِرّي : «إنّه جيِّد في تغيير مستوى الأصوات» . يُتابع هو بنبرته الخشنة ، مُهدِّدًا : «وإذا لم تتعاونْ فأعدكَ بأنّك سترى أشياء تتمنّى لو أنّك لم تعشْ حتّى تراها» . أجبته ببرود : «هذا كلّ ما عندي ، ليسَ لديّ ما أقوله بعد» . وأدرتُ وجهي إلى الجهةِ الأخرى . وقف على قدمَيه ، وصرخ : «سأعرفُ كيفَ أجعلك تعترف ، لقد قرأت ملفّك كلّه ، أنتَ واحد مُتَنَمِّرد ، ولديك أسبقيّات في المشاكل والمشاجرات ، وعندي شكاوى كثيرة من زملائك عليك ، وأنتَ غير منضبط ولا ملتزم ، والدّليل أنّه لك أحدَ عشر عامًا في العسكريّة وما زلت برتبة جندي حافٍ ، وزملاؤك الّذين خدموا معك صار كلّ واحد منهم وكيل أوّل» . ثُمّ جلس ، وهو يلتقط أنفاسه . أجبتُه عن عبارته الأخيرة : «صحيح أنّني لا أزال جنديًا حافًا وزملائي صاروا وكلاء ، ولكنْ أتعرف السّبب؟ السّبب أنّني لا أطاطِئ رأسي لأحد ، ولا أقبل أنْ يكون حيطي واطِئًا» . ثُمّ طلبتُ منه سيجارةً قائلاً : «أنتَ تحقّق معي منذ أكثر من ساعة ، وتُثير أعصابي بكلماتك وأسئلتك ، وفوق ذلك رفستني على ظهري ، ولطمْتني على وجهي ، وأنا في ضيافتك كلّ هذا الوقت ؛ ألا تعزمْني على سيجارة؟! أشعِلْ لي سيجارةً من فضلك ، أعصابي تعبتْ من الأسئلة المكرورة» . صَفَقَ بيده على المكتب ، أراد أنْ يشتم ، أراد أنْ يبصق ، أرادَ أنْ يفعل شيئًا ، لكنّه برطمَ شفتَيه ، ومطّهما ، وابتلعَ بعضَ الزّبد الّذي طفا عليهما ، وسكت

دخل ضابطٌ أعلى منه ، عرفتُه من هيئته أوّل ما دخل ، ثُمّ إنّ (أبو سليم) وقف على أصابع قدمَيه وأدّى له التّحيّة ، لقد كان هذا هو اللّواء (أبو عبّود) . نظرَ إليّ نظرةَ غضبٍ وبادلْتُه مثلها ، فقد كانتْ لي معه

حكاية قديمة . جلس على أحد المقاعد ولم يُحوّلْ بصره عنّي ، وأشار للضّابط السّابق أنْ يُتابع معي التّحقيق . سألني الضّابط إنْ كنتُ أعرفُ الباشا ، أجبتُه «هل هذا سؤال!! ومَنْ لا يعرف (أبو عبّود)؟» . فانتفض الباشا وشتم شتيمةً لم أعدْ أذكرها ، قائلاً : «وهل أنا حرّاث عند أبيك يا خَلْقَة العسكريّ ، اسمي اللّواء أبو عبّود باشا» . لم أردّ . سكتَ الضّابِطان وتبادَلا النّظر ، قبل أنْ أوجّه كلامي للباشا قائلاً : «أريدُ أنْ أُنعِش ذاكرتك» . انتبهَ إليّ ، وعرفَ ما سأقول فسألني «كيفَ حصلتَ على البندقيّة؟» . فأجبتُه «أجّلْ سؤالكَ هذا لاحقًا ، لدينا وقتٌ طويلٌ من أجل أنْ أُجيبَكَ عنه ، لكنّني أودّ أن أذكّرك ببعضِ أعمالك ، أتذكُر في عام ١٩٨٩ ولم تكنْ قد صرتَ باشا يومَها ، وكنتُ أنا أعمل سائقًا على صهريج ماء ، وكنتَ تقوم بجولة تفقّديّة ، وأثناء قيادتي للصّهريج ، طلبَ منّي أحد الرّعاة المساكين الّذين شقّق العطشُ أفواههم أنْ أملأ له قربته بالماء ، تخيّلْ يا سيّدي لديّ صهريج ماء يحمل أكثر من عشرة أطنان من الماء ، أي ما يُعادل عشرة آلاف قربة ماء ، ولم يكنْ لينقص من ذلك الماء شيءٌ لو سقيتُ الرّاعي ، بل إنّ ما يتساقطُ منه بسبب حركة الصّهريج على الطّريق يُمكن أنْ يملأ خمسين قربة . تخيّل يا سيّدي ، كنتُ أريدُ أنْ أهبَ ذلك الرّاعي المسكين قربةً واحدةً من عشرة آلاف قربة تتماوج في صهريجي ، وفعلتُ ؛ ملأتُ له قربته بالماء ، ورأيتَني ، هل صادف ذلك يومَ نحس بالنّسبة لي؟! لا أدري ؛ لكنْ ربّما . شاهدْتَني وأنا أسرق من ماء الدّولة قربةً واحدةً لأروي بها ظمأ راعٍ مَنسيّ ربّما لا تعتبره الدّولة أحدَ أبنائها ، فماذا فعلتَ؟ لقد بعثتَ بي إلى المحكمة ، تُحاكمني على أنْ بَرّدتُ ظمأ مَنِ استجار بي من حُرقة العَطَش؟!! وحُوكمتُ بالفعل ،

وصدر قرار ضِدّي بخصم راتب شهرٍ كاملٍ بتهمة مخالفة الأوامر والتّعليمات . وذهبَ راتبي في ذلك الشّهر بشربة ماء!! أتذكر ذلك يا سيّدي!!» . تحرّكَ على الكرسيّ الّذي يجلس عليه ، كان يُحاول أنْ يبتلع أطنان المرارة العالقة بحلقه جرّاء ما قلت ، صَكَّ جملةً واحدةً قالها بلهجةٍ مُستخذية «هل أنتَ حقودٌ إلى هذه الدّرجة .. ألم تنسَ!!» أجبتُه «أنا لا أنسى مَنْ يُسيءُ إليّ بغير حَقّ» . صرخ : «ولكنّكَ كنتَ تستحقّ» . صرختُ بذات المستوى : «كنتُ أستحقّ أنْ أشكَر على إنسانيّتي لا أنْ أعاقَب» . ردّ بحروفٍ مرتجفة «وهل ستقوم بقتلي إذا سنحتْ لك الفرصة؟ إذا خرجتَ من هنا ، ولقيتَني في الشّارع فهل ستقتلني؟» . أجبتُه «الله أكبر . . . حاشاك . . وهل تظنّ أنّني سفّاح ومجرم؟! أنا لا أمدّ يدي على مُسلِم ، أمّا ظُلمُكَ لي فأحتسبه عند الله ، وأطلبه منه يومَ ألقاه» . فردّ بعصبيّة «إذا كنتَ تدّعي أنّكَ لستَ سَفّاحًا ولا مُجرِمًا ، فلماذا قتلْتَ نساءً؟!» . أجبْتُه كمُنظّرٍ عَزّ مثيلُه ، وكدتُ أضعُ رجلاً على رجلٍ وأنا أتحدّث ، لكنْ خِفتُ أنْ يُفسدَ ذلك الأمر ، فقلتُ : «اليهودُ مُغتصِبون ، ونحن في حالة حربٍ معهم ، دَعْكَ من المُفاوضات فهذه لم يشهد عليها أو لها إلاّ مَنْ كان حاضرًا ، أمّا الغُيّب الشّهود على الحقّ والوطن فهم يرفضونها ، ومعنى أنّنا في حالة حربٍ أنّنا نقتلُ منهم ويقتلون منّا ، وقد استحلّوا أرضَنا وعِرضنا ، وأساؤوا لدِيننا ، ولم تنشفْ دماؤنا على حِرابهم من أوّل يوم وَطِئوا فيه تُراب بلادنا الطّاهرة ، ولهذا واجبٌ على كلّ مَنْ يستطيعُ منّا أنْ يقاتلهم» . وضع يدَيه على ركبتَيه ، وقال كمن أرادَ أنْ يوقعني في اعتراف لم أقلْه سابقًا : «إذًا أنتَ قتلْتَهُنّ بدافع دينيّ ، لا بدافعٍ آخَر ، يعني أنّ ما قلتَه من أنّهنّ استهزأنَ بكَ في الصّلاة هو

كذبٌ واختِلاق ، ومعنى ذلك أنّ الأمر كان مُبيّتًا ، وكان مُخطّطًا له!!»
أجبْتُه باستِخفاف : «يعني أنتَ الآن مبسوط ، وتظنّ أنّكَ أوقعْتَني في التّناقض بين ما قُلتُه سابِقًا وما أقوله الآن» . أجاب : «أنتَ الّذي أوقعتَ نفسكَ فيه ، الآنَ تأكّد لي من أنّك كنت تكذب بخصوص استهزائهنّ ورميهنّ عليكَ مخلّفات الطّعام» . أجبتُه باستِخفاف أشدّ : «لم أكنْ أكذب ، بالفِعل هنّ استهزأن ، وعملْن إشارات سخرية ، وقهقَهْنَ بصوتٍ عالٍ ، ولم أكنْ أنوي قبل ذلك قتلهنّ ، فرقٌ بين الحُكم الشّرعيّ بشأن اغتصاب شبرٍ من ديار المسلمين ، وبين واقعةٍ فعليّة حدثتْ معي صباح هذا اليوم»

طال الجِدال بيننا ، يبدو أنّ الحديث معي ذو شجون ، ذهبوا في الأسئلة كلّ مذهب ، ويبدو أنّ هذه الأسئلة الّتي يصل عددها إلى المئات ، لم تكنْ أكثرَ من جولةٍ تمهيديّة لما سيأتي . دخل علينا مدير مخابرات محافظة إربد وبرفقته ضابِطٌ آخَر ، وبدؤوا معي تحقيقًا جديدًا ، كنتُ قد أُصِبْتُ بالدّوار لكثرة الأسئلة ، وشعرتُ بتعب شديد ، وكان أثر الرّفسة في ظهري ما زال قائمًا ، فقلتُ لهم : «إنّني نعسان ، وقد مرّ وقتُ نومي ، ولا بُدّ أنْ أُصلّي وأنام» . فضجّ الأربعة بالضّحك ، وقال لي المحقّق الأوّل العقيد أبو سليم : «يا رجل كيفَ تستطيع النّوم وقد قتلتَ سبعًا وجرحتَ ستّةً ، بأيّ برودِ أعصاب تتمتّع؟» . هتفتُ في سِرّي : «إذًا هذه هي حصيلة عمليّتي . . . آآآخ بَسْ» . وعَضَضْتُ على شفاهي مُنزعِجًا ، لقد كنتُ أتمنّى أنْ يكون الرّقم ضعفَ هذا على الأقلّ ، ندمتُ على أنّني لم أفحص الرّصاصات بشكلٍ أدقّ قبل أنْ أُعبّئها في المخازن ، إنّ رصاصة واحدة في المخزن الثّالث هي الّتي خرّبَتْ عليّ ، ولم تُكمِلْ فرحتي إلى نهايتها ، وإلاّ

كنتُ قد حصدتُ أرواحَ كلّ مَنْ كان في الباص . انتبهتُ من خواطري هذه لأجيبه عن سؤاله «وما علاقة ذلك بالنّوم ، اعتبرْ أنّني عدتُ من مناورة ، ألا أستحقّ أنْ أرتاح قليلاً بعدها!!» . لم يُعتقوني ، بل أمعنوا في أسئلةٍ بمعنى وبلا معنى ، ولذلك رحتُ أحاول أنْ أخفّف تعبي بالتّسلّي معهم بالاستهبال في الإجابة . سألني الباشا : «ما علاقتك بحزب التّحرير ، ومَنْ تعرفُ من عناصره؟» . أجبْتُه «أعرف ياسر عرفات ، ولكنّني لا أعرفه معرفةً شخصيّة ، لم يحصل لي الشّرف حتّى الآن ، أتوقُ إلى ذلك ، ربّما يومًا ما سأصافحه كصديق ، وأنال منه بوسةً رَطْبة ، وأشدّ على يده قائلاً مَنْ خان البندقيّة قتَلَتْه . في الحقيقة أراه في التّلفاز ، وفي الجرائد ، إنّ صوره تملأ الجرائد اليوميّة والأسبوعيّة ، وعيناه تُخبران أنّه ثائرٌ من طرازٍ فريد ، أمّا شفتاه فترتجفان من البرد أو الشّوق دائمًا على أرجح تقدير» . سألني وقد علَتْه بَهتة : «وما علاقة ياسر عرفات بحزب التّحرير؟!» . فأجبْتُهم ، وكأنّني أريدُ أنْ أضيفَ بإجابتي شيئًا جديدًا إلى معلوماته «ألا تعرفون؟! إنّه رئيس هذا الحزب» . قال أبو سليم : «نحن نسألك عن حزب التحرير وليس عن منظّمة التحرير» . سألتُ بتغابٍ فاضح : «أليسا شيئًا واحدًا ، ما الفرق بين الحزب والمنظّمة إذا كان كلاهما يُضاف إلى التّحرير؟!» لاحقًا في سجن سواقة سيُصبح عددٌ غيرُ قليلٍ من أعضاء الحزب أصدقاء لي وقد جمعتْنا المحنة نفسُها

لم يشأ الضبّاط أنْ يُتعِبوا أنفسهم أكثر من ذلك . عرفوا أنّ طريق الأسئلة للحصول على الإجابات الّتي يريدونها مسدود . كان أذان الفجر قد ارتفع منذ أكثرَ من نصفِ ساعةٍ . غادروا المكتب ، ونُقلت إلى إحدى زنازين الشّعبة . صلّيتُ ، ونِمت .

كانتْ أوّل ليلة لي بعد العمليّة . ألفُ ذكرى تجتاحني ، وأمواجٌ من المشاعر المُتضاربة تغمرني . ظلّتْ طيوف المُجنّدات الهاوِيات على وَقْع الرّصاصات يشغل خيالي ، لم يغبْنَ لحظةً ، كلّما تذكّرتُ الموقفَ شعرتُ بالفخر ، حمدتُ الله على التّوفيق . لكنّني من جهةٍ أخرى كنتُ أقفُ أمام الباب المُغلَق لسؤال جارح : ماذا سيفعلون بي؟ هل سأُعرَض على محاكمةٍ عسكريّة علنيّة أم سريّة؟ كيفَ تجري أمور العالَم في الخارج؟! ماذا فَعلتْ فاطمة؟ هل وصل الخبر إلى القنوات وإلى شاشات التّلفاز؟ ماذا يقول النّاس الآن بحقّي؟ هل يعتبرون ما قمتُ به بطولةً أم يعتبرونه جريمةً؟ لستُ مهتمًا إلاّ بصنفٍ واحدٍ من النّاس ؛ عائلتي وأهلي ، إذا اعتبر هؤلاء ما فعلتُه بطولةً فلن يضيرني ما يقوله الآخَرون أريدُ من زوجتي أنْ تقف إلى جانبي ، من أبي وأمّي أنْ يفعلوا ذلك . أريدُ من أبنائي حينَ يكبرون قليلاً ويعُون ما حدث أنْ يفخروا بأبيهم ، أنْ يقولوا بكبرياء حينَ يُسألون : نعم نحن أبناء أحمد الدّقامسة . أنْ يرفعوا رؤوسهم وهم يمشون بين النّاس ، يهتفون : إنّ أبانا بطل ، وإنّه هو الّذي أنقذَ ماءَ وجه العرب ، وهو الّذي أعاد إلينا أسماءَنا ، وإلى شوارعنا أفراحها ، وإلى بلادنا بسمتَها . أيّتها الأمّ الّتي تعبتْ من أجل أنْ تراني رجلاً : هل تحقّق الحلم الّذي قلتِ لفاطمة إنّه سيتحقّق ، أنا أعرفُ ذلك ، كلّ أحلامك كانتْ لا تنتظر شروق الشّمس لتصبح واقِعًا ، إنّها تُصبح كذلك بمجرّد أنّها مرّتْ ببالك ، ولمعتْ في خاطرك . أيّتها القدّيسة النقيّة كلّ ما أريده من الدّنيا أنْ يكون قلبُكِ راضِيًا عنّي ، وأنْ يلهجَ لِسانُكِ بالدّعاءِ لي . . . فهل تفعلين؟! وسقطتُ دون وعيٍ في النّوم .

(٢٩)
انتظارُ العَذابِ أشدُّ مِنَ العَذاب

في السّاعة السّابعة من صباح يوم الجمعة أيقظوني . كنتُ لا أزالُ أفركُ عينَيّ ، حينَ سحبوني إلى مكتب (أبو سليم) ، وقفتُ أمامه وأنا أراه من خلال غشاوةٍ ما تزال تملأ عينَيّ ، قال لعناصر الاستخبارات الموجودين في المكتب : «خُذوه وأعطوه دُشّ خَلّوه يصَحْصِحْ» . فرحتُ جِدًا ، كنتُ محتاجًا بالفعل إلى دُشّ تعبُ الأمس ، ونكد الأسئلة ، وطول فترات التّحقيق ، والتّرحيل من شعبةٍ إلى شعبة كلّ ذلك زادَ من حاجتي إلى دُشٍّ يُنظّفني من بعضِ ما علق بجسدي وبروحي من الدّنس . سحبوني إلى غرفةٍ صمّاء ليس بها أيّ قطعة أثاث ، وهي معتمة لخلوّها من الشّبابيك ، فقط يأتيها الضّوءُ من لمبةٍ وحيدةٍ بنتْ فيها عشرات العناكب أعشاشَها تتدلّى من السّقف منذ سنين بعيدة بحثتُ عن دُشّ يمكن أنْ يستحمّ تحته الإنسان فلم أجدْ ، فسألتهم ببراءة : «العقيد أمر أنْ أستحمّ» . فأجابوني وهم يتضاحكون : «بالضّبط ، ونحن سنجعلك تستحمّ تمامًا» . أجلتُ بصري مرّة ثانيةً في الغرفة ، وقد بدأ الشّك والخوف ينقران قلبي كانتْ هاك قُيود مُثبّتة على الجدار ، بدا الجدار مُهترئًا ومقشور الطّلاء في أكثرَ من مكان ، أمّا القيود فعلاهنّ بعض الصّدأ ، كُنّ بنات الألم ، رفيقات الوجع ، والرّاقصات على إيقاع الصّرخات ، أو هكذا خُيّل إليّ . وفي إحدى الزّوايا يقبع دلو ماء ممتلئ ، وبجانبه (شوال) ملح كبير ، وإلى جانب

القيود هناك سوطٌ مضفور لم أكنْ أعرفُ بعدُ إنْ كان من الجِلد أم من الحديد . قلتُ في نفسي : «هو إرهابٌ نفسيٌّ فقط ، لن يفعلوا لي شيئًا» كانتْ آمالي تتعاظَم بأنْ لا يمسّوني بسوء ، ومع تعاظم آمالي كانتْ تتعملَقُ إلى جانبها مخاوفي من أنْ تكون هنا نهايتي ، لم أدخلْ مثلَ هذه الغرفة من قبل

أجبرني ثلاثةٌ من الحرس على أنْ أخلع ملابسي . ضحكتُ كأنّني سمعتُ نكتة ، كانت ضحكةَ خوف ، هل سمعتم من قبل بأنْ هناك خوفًا يبعثُ على الضّحك ، هكذا كانتْ حالتي . قلتُ لهم بودّ ، وقد تقلّصتْ ضحكتي إلى الرّبع : «بلاش يا شباب . . . عيب . . . والله عيب» . لوّح أحدهم بالسّوط ، فسارعتُ إلى خلع ملابسي ، لم يبقَ ما يستر جسدي إلاّ الملابس الدّاخليّة ، دفعوني إلى الجدار الأصمّ ، وضعوا القيود في يدَيّ ، وعلقوهما إلى الجدار ، كان القيد المُثبّت على الجدار أعلى من رأسي قليلاً ، وبهذه الهيئة بدوتُ مثل ذبيحةٍ تُعلّق للسّلخ . تراجعوا إلى الوراء ، ما زال الأمل حتّى في حالات انعدامه يواصل زحفه إلى قلبي ، هتفتُ في سِرّي : «غدًا كان الألم مجرّد شَبح على الجدار ، فأستطيع أنْ أحتمل ذلك ، لن يكون الأمر مؤلمًا بشكلٍ كبير» . لم أكدْ أُتمّ هذه الجُملة في خاطري حتّى دخل شخصٌ لا أدري إنْ كان ينتمي لنا نحن البشر ، هو بشريّ بلا شكّ ، لكنّه لا يُشبه أحدًا من البشر الّذين عرفتُهم طوال حياتي ، كان طوله يتجاوز المترين ، حتّى إنّه انحنى برأسه وهو يدخل من الباب ، وكان عريضًا أعرض من ثلاّجة ٢٤ قدم ، وعضلاته تُشبه البطاطا الضّخمة ، ورأسه يُشبه بطّيخ الغور في الصّيف ، ظننتُ أنّهم يمزحون حتّى هذه اللّحظة معي ، لكنّ البغل الّذي دخل للتّو كان لا يعرفُ المزح . نسيتُ أنْ أقول لكم إنّ

شواربه يقف عليها الصّقر كما يقولون ، لم تأخذ المسافة الفاصلة بين الجدار المشبوح عليه وبين الباب معه أكثر من خطوتين ، صار أمامي تمامًا ، وبدون أنْ يقول كلمةً واحدةً رفع يده الّتي تساوي في حجمها وجهي بأكمله ، ولطمني لطمةً ظنّ أنّها البداية ، ولم يكنْ يدري أنّها النّهاية بالنّسبة لي ، ارتطم رأسي بالجدار ، وانسحقَ من أثر اللّطمة ، وفقدتُ الوعي مُباشرة ، يمكنكم أنْ تقولوا إنّه تغلّب عليّ بالضّربة القاضِية ، أنا الّذي حسبتُ نفسي كوماندوز في صباح اليوم الفائت لم آخذ معه إلاّ ضربة واحدة!!

لا أدري كم بقيتُ غائبًا عن الوعي ، لكنّهم رشّوا على وجهي دلوًا تلو الآخَر من الماء ، واستيقظتُ ، وأوّل ما استيقظتُ طالعَني وجهه المشؤوم ، أردتُ أنْ أبكي لكنّه لم يتركْ لي فرصةً للبكاء ، فلكمني من جديد ، ورحتُ أتلوّى على الجدار مثل شاةٍ مربوطةٍ من عرقوبها ، كان جسدي كلّه ساحةً مفتوحةً أمامه يفعل به ما يشاء ، كانتْ صرخاتي تملأ المكان ، رجوتُه أنْ يتوقّف عن ضربي ، لكنّه كان أصمّ ، رجوته أكثر أنْ يتوقّف قليلاً ريثما أرتاح ، وبعدها فليتابع عمله المُقدّس ، لكنّه ردّ عليّ بأنْ تناول السّوط وبدأ يضربني به ، حمدتُ الله أنّه كان من الجِلد لا من الحديد ، صحيح أنْ ضربة سوط الجلد مؤلمة جدًا ، وتظهر آثارها على الجسد لأسابيع لكنّه بعد ذلك يتعافى ، أمّا ضربة سوط الحديد فإنّها تأخذ نتَفًا من اللحم ، وهذا اللحم الّذي يذهب منك لا يعود لا في أسابيع ولا في أشهر ، إنّ استخدام سوط الحديد يعني أنْ يُنقِصوك شيئًا فشيئًا حتّى لا يعودَ لك وجود . حمدتُ الله كثيرًا على سوط الجلد ، لكنّ صرخاتي ، واستغاثاتي لم تتوقّف ، حتّى دخل العقيد أبو سليم ، فأمر الوحش أنْ يكفّ عن تعذيبي . قلتُ له ورأسي مُدلّى بين

كتفيّ ، ويدايَ ما تزالان مُعلّقتَين إلى الحائط : «أنتَ قلت لهم أنْ يأخذوني للدُّشّ من أجل الاستِحمام ، من الممكن أنّ العساكر الطّيّبين قد فِهموا خطأ» . فردّ عليّ : «لا لم يفهموا خطأ ؛ لأنّ هذا هو الدُّشّ الخاصّ بنا» . فقلتُ له وأنا أحاول أنْ أبتسم بفم يملؤه الدّم : «سامَحكَ الله ، لماذا لم تخبرني بهذه المصطلحات من قبل ، لقد قضيتُ معكَ ليلةً كاملة ولم تقلْ لي شيئًا عنها!!» . فسألني من جديد : «وكيفَ رأيتَ الدُّشّ» . أجبتُه وأنا أحرّك رأسي محاولاً أنْ أرفعه قليلاً : «أعجبني ، لكنّه ساخنٌ قليلاً» . قال لي : «تستطيع أنْ تخرج اليوم لو أنّكَ . . .» وصمت . فسألته : «ماذا تريد منّي؟» . أجابني : «أنْ تقول الحقيقة» فأقسمتُ له بربّ السّماوات السّبع أنّني سأقول له الحقيقة ، لكنْ خلّصْني من هذا الدُّشّ اللّعين ، وفُكّ قيودي ، ودَعْنا نتحدّث رجلاً لرجل . فأمر على الفور بفكّ قيودي ، وإخراجي من تلك الغرفة المُخيفة . وقفوا على الباب ينتظرون أن ألبس ثيابي . لم أكنْ أقوى على الإمساك بالبنطال ، ولا بالقميص العسكريّ ، كنتُ أرتجف ، ولا أقوى على حمل ذرّة تراب . وكدتُ أسقط وأنا أحاول ، أشار العقيد إلى الرّجل البغل ، وفي خلال ثوانٍ ، كنتُ ألبسُ كلّ شيءٍ ولا أدري كيف . على الباب ، سألني العقيد : «هل تُحسن القراءة» . أجبتُه كأنّ الموضع موضع افتِخار : «أنا قارئٌ جيّد ، ويمكن أنْ تعدّني قارئًا نوعيًا» . ابتسم بسخرية ، وأشار إلى لوحة مُعلّقة على الجدار أراها لأوّل مرّة : «إذًا اقرأ هذه» . وقرأتُ عبارةً حمدتُ اللهَ أنّني لم أقرأها قبل دخولي إلى هذه الغرفة القاتلة ، فلو أنّني فعلتُ لأصابني الرّعب ، كانت العبارة تقول : «مَنْ فاتَ مات . ومَنْ لم يمتْ وُلِدَ من جديد» . بلعتُ ريقي ، حاولتُ أنْ أتغلّب على خوفي ، قلتُ للعقيد : «لقد وُلِدتُ من جديد إذًا»

المعركة لمن صبر . أعرفُ هذه القاعدة . لقد قالوا : «النّصر صبرُ ساعة» . جدي الّذي خرجَ لتوّه من حفلة تعذيب لا يُساعدني كثيرًا على الصّمود ، وكذلك ذهني المُشوّش . أحتاج إلى بعض الوقت للتّعافي . التّعافي يكونُ بانتظار التّعافي . كان عليّ إذًا أنْ أُماطل حتّى أستعيدَ بعضَ قُواي . دخلنا إلى الغرفة . جلس خلفَ مكتبه ، أرادَ أنْ يبدأ مشوار الأسئلة البغيض ، استمهلْتُه بطلبي أنْ أدخّن : «هل لديكَ سيجارة؟ منذ الصّباح لم أدخّن» . دخّنْتُ . «سيجارة بلا كأس شايٍ أو قهوة كأنّها ليستْ سيجارة» . أحضروا لي شايًا يقطر حلاوةً . «الجوع يقرص معدتي ، والوحش الّذي أدّبني قبل قليلٍ جوّعني أكثر» أحضروا لي فطورًا كان لسان حالهم يقول : «لاحق العَيّار لباب الدّار» كانوا يلبّون طلباتي على أمل أنْ أعترف لهم بما يبحثون هم عنه . تناولتُ الإفطار مع المحقّقين جميعهم . مزحتُ معهم . ضحكوا رفعوا الطّعام بعد أنْ انتهَينا . لم يعدْ هناك مهربٌ من مواجهة الأسئلة . قال أبو سليم : «تكلّمْ يا بُنيّ . قل لي ماذا حصل» .أعدتُ له القصّة الّتي أعدْتُها منذ أمس إلى اليوم أكثر من عشر مرّات : «كنتُ أصلّي . . وجاء باصٌ . . . وبدؤوا يستهزِئون . . .» كان هناك عددٌ كبيرٌ من المحقّقين ، لم يكنْ أبو سليم وحده ، أحد هؤلاء المُحقّقين ولم أكنْ قد رأيتُه من قبل قفز في وجهي ، وصرخ : «وهل تستغفلنا يا كلب يا ابن الكلب» . فوقفتُ على رِجليّ ، كنتُ أرتجف ، كان أبي يقف أمامي ، كان هو الآخَر يرتجف ، صرختُ في وجهه «أنْ تشتمني في وجهي فمن الممكن أنْ أقبلها ، لكنْ لماذا تشتم أبي ، وهل أبي فعل لكَ شيئًا . أنتَ هو الكلب ، وأنتَ ابن كلب» . فهجم نحوي وانهال عليّ ضربًا بيدَيه ورِجلَيه ، وكان يغلي من الغلّ ، ولا أدري إنْ غاظه سبّي

لأبيه لماذا لم يتوقّع أنْ أغضبَ أنا لسبّه لأبي ، والبادئ أظلم . سحبوني بعدها إلى الغرفة المشؤومة ذاتها ، كان اثنان يقومان بجرّي ، ورجلاي تشحطان خلفي ، فلمّا رأيتُ الباب ، حاولتُ أنْ أقاومَ برجليّ فاوقف جرّهما لي ، لكنّ قواي لم تُساعدْني ، وأُدخِلتُ إلى الغرفة ، ونزعوا عنّي ملابسي ، وتوقّعتُ الأسوأ ، وانتشر الخوف في جسدي ، فأحسستُ بخدرٍ في كلّ جوارحي ، ومرارةٍ تحت لساني ، وكدتُ أبكي من القهر . قيّدوني إلى الجدار الأصمّ ، وذهبوا كنتُ أتوقّع في أيّة لحظة أنْ يدخل عليّ البغل ويبدأ بضربي ، وكنتُ أتخيّله منهالاً عليّ بالضّرب فأحسّ بالألم بالفعل مع أنّه مجرّد تخيّل ، وتأكّد لي أنّ في انتظار العذاب عذابًا أشدّ من العذاب نفسه . وأنّ ما تحسّ به هو ما يصنعه خيالُك ، فقرّرتُ أنْ أخفّف من حدّ آلامي الجسديّة بخيالاتي الجميلة

مرّ الوقتُ بطيئًا ، لكنّ أحدًا لم يدخل عليّ الغرفة ، وبدا أنّهم عدلوا عن فكرة التّعذيب . أو أنّها حدثتْ دون أنْ أحسّ أو أنتبه ، هل استطعتُ التّحكّم بمشاعري منذ ذلك اليوم؟ ربّما . بقيتُ مشبوحًا حتّى الظّهر . أخرجوني من الغرفة السّوداء ، وسألوني إنْ كنتُ أريدُ الغداء ، كنتُ غضبانَ وحزينًا ومجروحًا لما حدث معي ، كانتْ شتيمته لأبي قاسية ، لم أسمحْ في حياتي لأحدٍ أنْ يمسّ والِديّ بسوء ، ولا بالكلام ، لكنّ هذا الجيفة استقوى عليّ بسلطته وبوجوده بين زملائه المُحقّقين ، هذا أكثر ما أوجعني ؛ أنْ يشتمه على مسمع الآخَرين . رفضتُ أنْ آكل احتجاجًا على ما حدث . توضّأتُ وصلّيتُ الظّهر . وبعد أنْ أتممتُ الصّلاة . قيّدوا يديّ ورجليّ . وعلى باب شعبة الاستخبارات كانتْ تنتظرني سيّارة عسكريّة ، ركبتُ في الكرسيّ الخلفيّ وعن يميني

وشمالي عسكريّان ، وانطلقت السّيارة ترافقها مسلّحتان كالعادة باتّجاه الأغوار ، باتّجاه الباقورة المُستعادة . من أجل أنْ أقومَ بتمثيل العمليّة الّتي نفذْتُها على أرض الواقع

قال لي أبو سليم الّذي كان يجلس في المقعد الأمامي ونحن لم نُبارحْ إربد بعد : «نحن ذاهبون إلى الحدود ، وبعد أنْ تُمثّل العمليّة سأقوم بتسليمك لليهود» . فاجأتني العبارة وبعثرتني ، فسألتُ باستنكار : «تسليمي لليهود؟» . «نعم ، نسلّمكَ لليهود ، أنتَ قتلتَ يهوديّات ، والاتّفاقيّة الّتي بيننا تقتضي أنْ نسلّم القاتل لهم ، وستُحاكم في محاكمهم» . لا أنكر أنّني خفتُ ، ولاحظ هو شرودي ، فعرفَ أنّه استطاع أنْ يهزّني ، تابعَ : «لكنْ فكّرْ . . . قبل أنْ نصل إلى الباقورة ، معكَ وقتٌ إنْ قلتَ لنا الحقيقة ، وأخبرْتنا عن الجماعة الّتي وقفتْ وراءك ودفعتْكَ إلى هذا العمل ، فسوف ألغي الطّلب الإسرائيليّ ، وأطلبُ من القضاء العسكريّ أنْ تتمّ محاكمتك هنا ، ليس هذا فحسب ، بل سأطالب بتخفيف الحكم عليك إنْ صدر» . مرّتْ لحظات صمت صعبة . لكزني الّذي عن يميني ، التفتُّ إليه ، هزّ رأسه ورفع حواجبه إلى الأعلى ، قال لي بهذه الحركة كلّ شيء : «إنّه يكذب ، لا تُصدّقه» . لم أكنْ أعلم من قبل أنّ إشارةً واحدةً من العينَين يُمكن أنْ تُزيل جبالاً من الصّخر القاسي كانت تضغط على الصّدر .

قبل أنْ نصل بقليل إلى الأغوار ، سألني أبو سليم : «هل فكّرت؟» . أجبتُه «نعم» . فتحفّز . «وماذا قرّرتَ؟» . «حتّى لو أردتم قتلي فلن أقول لكم كلامًا غير الّذي قلتُه لكم اليوم وأمس ، لأنّه هو الحقيقة ، ولأنّه لا يوجد عندي كلامٌ سِواه» . ردّ العقيد بغضبٍ :

«الجماعة الّتي دفعتْك لهذا العمل لن تنفعك حينَ نُسلّمك لليهود ، هل ستدافع عنك مثلاً؟ سوف يُعدمونك ، أو تتعفّن في سجونهم دون أنْ يسأل بك أحدٌ» . أجبتُه هذه المرّة بحنق : «أقسم بالله العظيم لك أنّه لا تُوجَد جماعة ولا أيّ شخصٍ دفعني لذلك ، أنا قمتُ بهذا العمل من تلقاء نفسي ، أنا أكره اليهود ، وأريد أنْ أنتقم منهم ، أليس هذا سببًا كافيًا لأنفّذ هذه العمليّة؟!»

كانت ساحة برج العلم في الباقورة تعجّ بالضّباط والعساكر وكاميرات التّصوير والكلاب البوليسيّة والمحقّقين والحرس ، وعُمّال المختبرات الجنائيّة ، والأطبّاء . أحسستُ بأنّ المكان يُرحّب بي على طريقته ، عشرات من الجنود والضّباط احتشدوا في المكان ، كان يعتبرهم عوالق زائدة ، وحدي كنتُ حبيبَه ، وحدي كنتُ الغائبَ المُنتظر . وأنا أيضًا هزّني الشّوق إلى المكان ، من بعيدٍ خُيّل إليّ أنّني أسمع خرير النّهر ، كم اشتقتُ إليكَ أيّها الصّوتُ السّماويّ ، إنّه يومٌ واحدٌ ، لكنّهم جعلوه يطول كأنّه قرنٌ . إنّ البعد عنك ساعةً يفجّر فِيّ ينابيع الحنين . نزلتُ من السّيارة مُقيّدًا ، وتأهّب الجميع ، وعلى الأبراج تحفّزت الرّشّاشات ، «ليستْ هذه طريقة مناسبة للتّرحيب بي» هتفتُ في سِرّي قاصِدًا الزّملاء القابعين خلفَ تلك الرّشاشات فوق تلك الأبراج .

«فُكّوا القيد من يَدَيّ ورِجلَيّ . أريدُ أنْ أمثّل لكم عمليّتي بشكلٍ حُرّ لا تخافوا لن أهرب . أنا لا أهرب مِمّا أفتخر به . أنا لا أهربُ من حلمي الّذي تحقّق» . سألوني عن موضع صلاتي ، وعن موضع الباص والمُجنّدات ، وعن الحصى وقشور الموز . . . شرحتُ لهم كلّ شيءٍ بالتّفصيل مُترنّمًا كما لو كنتُ أُنشِدُ قصيدةً في الفخر والحماسة

«ثُمَّ . . .» وصمتُّ ، فاستعجلني المُحققون والمُصوّرون والمُخرِجون : «أيوه . . . ثُمَّ ماذا؟» «ثُمّ توجّهتُ إلى السّيّارة وسحبتُ البندقيّة ، وصوّبتُ باتّجاههم . . ثُمّ . .» . «أيوه . . ثُمّ ماذا؟!» . «ثُمّ فقدتُ الوعي ، ولم أصحُ إلاّ في مبنى استِخبارات الشّونة الشّماليّة» . سألني كبير المُحقّقين : «وكيفَ قُمتَ بدهسِ اثنين وأنتَ فاقدٌ للوعي ، هل يُعقَل ذلك؟» . أجبْتُه : «قُلتُ لك لا أدري . . . لا أدري ما الّذي حدث أو كيفَ حدث . . .» . فأجابني بشيءٍ من الاستِعطاف : «تذكّرْ يا بُنيَّ . . تذكّرْ . . .» . فقلتُ له : «هاتِ سيجارة لربّما أتذكّر ، أحتاج أنْ أدخّنَ من أجل أنْ يصفو ذهني» . انفجر المُحقّق بالضّحك ، حتّى إنّه ضربَ بيده على كتفي ، وأمال جذعه حتّى ركن رأسه على صَدْري . أخرج سيجارةً من نوع (دنهل) وأشعلها ، وقدّمها لي . قلتُ له شاكِرًا : «اللّحظات الجميلة تحتاج إلى سيجارة أرستقراطيّة» . ضحك من جديد ، وسألني بعد لحظات : «والآن هل تذكّرتَ . . .؟ هل ساعدتْكَ السّيجارة على استرجاع الموقف؟» . أجبتُه وأنا أنفث دخان السّيجارة عالِيًا : «ربّما ، تذكّرتُ بعضَ الأشياء ، لكنّني سمعتُ أنّ الشّاي وخاصّة الحلو منه يُساعد على تنشيط الذّاكرة ، أظنّك لا تمانع بأنْ يُحضروا لي كأسًا؟» كان أبو سليم يقف على بعد خطوات من كبير المُحقّقين ، لم يُعجبه الموقف ، فاقترب وهو يقول بازدراء : «إنتا يا ولد أهبل ولا بتهبّل؟» . أجبتُه بهدوء : «لا هذا ولا ذاك . وكأس الشّاي تنشّط الذّاكرة كما قلتُ لك لكنْ يبدو أنّك لا تقرأ» . أضاف كبير المُحقّقين موجّهًا كلامه لأبي سليم : «ابقَ بعيدًا . لا تتدخّلْ» . زفر وهو يضع يديه على خصره ويبتعد . لم يكنْ بالمكان كلّه شاي ، فأرسلوا سيّارة إلى النّقطة لإحضار إبريق شايٍ كاملٍ ، طلبوا تحضيره عبر

اللاسلكي قبل أنْ تنطلقَ السَّيارة من هنا على وجه السّرعة ، وصل الشّاي بعد حوالي عشر دقائق . فرفصت على الأرض . سكبوا لي كأسًا ، ورحتُ أستمخّ عليه ، شاي العصريّة كما يقول نزار : «بلقيس هذا موعدُ الشّاي العراقيّ المُعطّر كالسُّلافة» كان بالفعل كالسُّلافة . كان كبير المحقّقين ينتظر ، رحتُ أهرشُ رأسي ، وأشرب رشفةً من الكأس وأضعه على الأرض ، ثُمّ أسحبُ نفسًا عميقًا من سيجارةٍ هي الثّانية الّتي تبرّع بها مُحققٌ آخَر ، وأنظر في السّماء ، وأشردُ ببصري بعيدًا ، وأتظاهر بأنّني أفكّر في الّذي حدث محاولاً استرجاع المشهد ، وكلّ مَنْ في السّاحة وهو بالعشرات كان يقف على رِجلٍ واحدةٍ بانتظار الجَوهرة الّتي سأنطق بها!! بعد أنْ أتممتُ الكأس الأولى ، طلبتُ كأسًا ثانية وأعطوني ، وبعد أنْ أنهيتُها وقفت ، وتحفّزت الكاميرات والمُصوّرون لتصوير ما سأقول . سألني كبير المُحقّقين : «والآن هل تذكّرت؟» هرشتُ رأسي من جديد ، وأطرقتُ برأسي ، وقلتُ بصوتٍ خفيض : «للأسف يا سيّدي . . . إنّني ما زلتُ مُصابًا باضطرابِ ما بعد الصّدمة» . وهززتُ رأسي بأسف . عندها لم يتمالك أبو سليم نفسه ، وركض باتّجاهي وقد تخلّى عن هيبته كعقيد ، وعن وجود مسؤول أكبر منه يحقّق في الموضوع ، وانهال عليّ بالضّرب وهو يقول بحنقٍ : «ألم أقلْ لكم إنّه يَسْتَهْبِلنا؟!!!»

(٣٠)
ليس مهماً أنْ يتأذى جسدي، المهمّ ألاّ يتأذى جسدُ الوطن

أعادوني وأنا أتلوّى من الألم إلى شعبة استخبارات إربد ، لكنْ خفّف من ألمي أنّني دخّنتُ ما أريد وشربت من الشّاي ما أريد ، وحظيتُ كذلك بتصويرٍ سينمائيّ مثل ذلك الّذي يحظى به النّجوم . في الطّريق كان العقيدُ أبو سليم يزفر مثل ثورٍ لم يأكل شيئًا منذ الصّباح ، قال لي بصوتٍ لم أعرف أنّه له من كمّيّة الغيظ الّتي فيه «سترى معي ما لم تحلم بأنْ يحدث طَوال حياتك» . هتفتُ في سرّي «لقد حدث معي ما حلمتُ به أمس» . وتابَع : «سترى أيّامًا تتمنّى أنّك لم تُخلَق لتراها» . هممتُ أنْ أطلبَ منه سيجارةً ، ولكنّني خفتُ أنْ ينفجر بالصّراخ . الملاعين لا يُدركون حاجتي الشّديدة للتّدخين ، وخاصّةً عندما أسمع حماقاتهم وهم يُرغون ويُزبِدون بها

وصلنا إلى إربد عصرًا . لم أستطع التّحدّث براحتي في الطّريق أدخلوني إلى شعبة استخبارات إربد مُقيّد اليدَين والرّجلين كنتُ أتوقّع أنْ يخفّ غضب أبو سليم بعد أنْ قطعنا هذه المسافة من الأغوار إلى إربد ، لكنّه كان لا يزال حانِقًا على ما فعلتُ في ساحة برج العلم ، فهتف بي غاضبًا : «ما رأيتَه في السّابق منّي سيكون دغدغةً لما ستراه اليوم» . أُدخِلتُ إلى الغرفة السّوداء الكئيبة ، ومن جديد عُلّقتُ من يدَيّ إلى القيود المُثبّتة على الجدار فوق رأسي ، مرّتْ لحظات هدوء

مريح ، ظننتُ أنّها ستطول ، وأنّني ربّما أستطيع أنْ أغفو حتّى ولو على هذه الهيئة ، فمنذ ثلاثة أيّام لم أنمْ جيّدًا . لكنّ حبل الآمال قصير ، سرعان ما انقطع بدخول الوحش ، كانتْ لديه تعليمات بالتّعذيب بقسوة ، كان مُنخراه ينفتحان وينغلقان كأنّهما مُنخرا بغل يلهث . اقترب وعيناه تقدحان شررًا ، ابتسمتُ ابتسامةً راجفة ، أردتُ أنْ أقول له : «دَعْنا نتفاهم . أنا والله لن أضربكَ مثلما تضربني ، وسأعتبرك صديقًا لي منذ اليوم إذا قبلتَ صداقتي» . لكنّ هذه الكلمات ظلّتْ حبيسةً في داخلي ، لأنّه لم يُمهلْني حتّى أقولها . أوّل شيءٍ فعله أنّه أمسكَ بشعر رأسي وشدّه بيدَيه ، حتّى كادتْ جلدة رأسي تنخلع من مكانها وتخرج بيده . صرختُ من الألم ، فعاجلني بلكمةٍ على فمي كادتْ تُحطّم نصفَ أسناني . سال الدّم غزيرًا . تناول السّوط ولفّ طرفه على يده ، لوّح به في الهواء ، فصفر صفيرًا مُرعِبًا ، كدتُ أسترحم ، لكنّ قُواي خارتْ . جلدني جلدةً مرّتْ على وجهي كألفِ أفعي ذاتِ جلد شوكيّ ، رفعتُ رأسي من شدّة الضّربة ، فتلقّاه بيده الأخرى ، وصكّه على الجدار حتّى أحسستُ أنّ جمجمتي انقسمتْ إلى نِصفَين ، كنتُ أشهقُ على حافّة الموت أو هكذا خُيّل إليّ ، سمعتُ صفير السّوط مرّة أخرى لكنّني لم أره لأنّني كنتُ قد بدأتُ طريقي إلى الغيبوبة . أكل السّوط من جسدي العاري حتّى شبع ، كنتُ قد سقطتُ في وادي الغيبوبة السّحيق منذ السّوط الرّابع . اللّعين لم يتوقّف . كنتُ في عالَم آخَر ، وكان هو يستلذّ بممارسة ساديّته معي . لمّا تأكّدَ أنّني لم أعدْ أصرخُ بسبب فُقدان وعيي توقّف . ذهبَ باتّجاه زاوية الغرفة ، سكب من (جوال) الملح كمّية كبيرةً في الدّلو وأذابَها ، ثُمّ حمل الدّلو ، وعلى بعدِ مترٍ رشقني فيها بقوّة ، التحمَ الماء المالح مع

الجرح النّازف فأنتج ألمًا لا يوصف ، كان هذا الألم الجهنّمي كافيًا لإيقاظي من غيبوبتي ، صحوت وأنا أفتح عينَيّ وأغلقهما لتفادي دخول الماء المالح إليهما ، وأحاول أنْ أحرّك راسي يمينًا وشمالاً لأزيح الماء عن وجهي ، لكنّه لمّا رآني على هذه ، ملأ دلوًا أخرى بالماء ، وسكبَ فيها الملح ورَشَقَها في وجهي وجسدي من جديد ، فراح جسدي يرتجّ كخروفٍ مذبوح

تركني بعد ساعتَين من التّعذيب ، كان الماء المالح قد أنتج تهيّجات بنفسجيّة في مواضع كثيرة من وجهي وصدري ورِجلَيّ ، كنتُ لا أزالُ مشبوحًا ، وأنا أنظر من خلال عيونٍ منتفخة لا تكاد ترى شيئًا في المكان غير الدّلو و (جوال) الملح . كنتُ في وضعٍ يُرثَى له ؛ بردٌ قارسٌ ، وألمٌ نابحٌ ، وجوعٌ ذابحٌ ، وحُزنٌ مُهلِكٌ ، وعَطَشٌ قديمٌ ، وموتٌ وشيكٌ ، ووحدةٌ قاتلةٌ ، وعالَمٌ لا يرحم . تركوني ساعاتٍ طويلة دون أنْ يسأل بي أحدٌ ، أو يفتح لي باب الغرفة كائنٌ حَيّ ، أو يطمئنّ على وضعي ، أو يسألني إنْ كنتُ محتاجًا للتّبوّل أو للماء . ووحدي كنتُ أرى أنّ وطنيّتي تُداسُ بأقدامهم ، وروحي الثّائرة تُزهَق ببساطيرهم ، وهم إخوة السّلاح ورفقاء الدّرب ، فما أمرّ الشّعور ، وما أقساه!!

في ساعةٍ متأخّرة من اللّيل ، فكّوا قيودي ، كنتُ قد بقيتُ مشبوحًا فترةً طويلة فلم أتمكّن من السّيطرة على نفسي ، بدوتُ مثل خشبةٍ تأبى أنْ تنثنى أو تتقدّم خطوة ، كدتُ أسقط كجذع شجرةٍ مقطوعةٍ ، لولا أنْ تلقّاني أحدهم فأسندني ، وضربني آخَر على وجهي ضربةً خفيفةً ظنًا منه بأنّني فقدتُ وعيي ، والحقيقة أنّ يدَيّ ورِجلَيّ لم تكنْ معي أو لي لكي أتحكّم بها فأمشي بشكلٍ سويّ . ألبسوني ثيابي ، وقيّدوني من جديد ، وأركبوني سيّارة عسكريّة جديدةً مع

حراساتها ، ورُحّلتُ إلى شعبة استخبارات عمّان .

الطّريق بين إربد وعمّان ليست قصيرة . وأنا دُنيا من التّعب المُخثّر ، وفضاء من الألم الجنون ، ما إنْ مشتِ السّيّارة بنا عدّة كيلومترات ، حتّى أملتُ رأسي على كتفِ حارسي الّذي يجلس عن يميني ، كانتْ كَتِفُه حَنونةً وطريّة ، فغطستُ في النّوم سريعًا

أيقظوني على باب شعبة استخبارات عمّان ، ساقوني إلى زنزانة جديدة ، لا أدري كم من الزّنازين ستُصبح لي أوطانًا في رحلتي هذه نحو المجهول! كانت الزّنزانة صغيرة طولها متران وعرضُها مترٌ واحدٌ ، وليس بها مكانٌ لقضاء الحاجة ، فقط هناك دلو تفوح منها رائحة البول الكريهة . عشرات قبلي سكبوا بولَهم هنا في الدّلو نفسِها . قال لي الجَلاّد الجديد : «ممنوعٌ أنْ تنام» . لم أكترثْ كثيرًا فقائمة الممنوعات في رحلتي هذه طويلة ، وليس فيها مسموحاتٌ أبدًا ، إلاّ تلك الّتي أصنعها بنفسي ، وغالِبًا ما يكونُ ثمنُها باهظًا . ما إنْ أَغلقَ الباب حتّى تكيّفتُ مع عالَمي الجديد ، حنيتُ جذعي كالهِلال ، ودفنتُ يُمناي تحت رأسي كمخدّة ، ووضعتُ يُسرايَ فوقي كغطاء ، ورحّبتُ بالنّوم بكلّ ما في لغات الأرض من ترحيب ، ثُمّ تلاشيتُ في أحضانه .

مرّتْ نصفُ ساعةٍ أو أقلّ قبل أنْ أنْ يدخل (أبو قاسم) ، عرفتُ أنّه مدير الشّعبة هنا فيما بعد ، أوّل بدء العلاقة بيني وبينه رَكلةٌ ، وتذكّرتُ الأغنية القديمة «أوّل عِشْرة محبوبي هَداني خاتم الماس» ركلني برجله بشدّة فأيقظني فَزِعًا من النوّم ، وصرخ بي «ألم يقولوا لك ممنوع النّوم!!» . تلوّيتُ من أثر الضّربة ، وقلتُ له : «يا رجل خَفْ ربّك . أنا نعسان . ولي ثلاثة أيّام لم أنمْ . ألا يُمكن للإنسان أنْ يحظَى بنصفِ ساعةٍ من النّوم؟!» . لا أدري لماذا لم تُعجبه عباراتي

فركلني ركلةً أشدّ من سابقتها . نهضتُ مثلَ عسكريٍّ ما زال في الخدمة يتهيّأ لتلقّي الأوامر . لكنّ سرعة نهوضي وخزتْني في كلّ أنحاء جسدي ، كان كلّ شبرٍ فيه يتكلّم بلسان الألم . قال لي أبو قاسم : «المحقّقون السّابقون كانوا يلعبونَ معك ، وقت اللعب انتهى ، لسوء حظّكَ أنّكَ وقعتَ بين يدَي . لكنْ أقسم لك إنْ بقيتَ حيًّا فلن تخرج من عندي إلاّ بعاهةٍ أو مجنونًا» . هرشتُ راسي ، وأنا مُطرقٌ هَرَشات مُتتاليات ، ثُمّ رفعتُه نحوه ، وسألتُه : «ولماذا تريدُ أنْ تُخرجني من هنا بعاهة ، فأنا قتلتُ يهوديّات ، ولم أقتلْ أحدًا يخصّك ، ولا أحدًا من أقاربك . أمْ أنّ لكَ صِلةً بهؤلاء اليهوديّات ، صِلَة قرابةٍ أو نسبٍ ، فأنتَ تريد أنْ تثأر لهنّ ، وتنتقم منّي لأجلهنّ . . . هل تُبدّل بدَمِ أخيك دمَ عدوّك!!» . أثارتْه كلماتي كأنّني بالفعل قتلتُ أخواته ، فأوسعني ضربًا ولكمًا وصفعًا وشتْمًا ، ثُمّ أمسكني من أُذُنَيّ ، ورَطَمَ رأسي بالجدار ، فظنّ كأنّه يُهيّئني لغيبوبةٍ جديدة ، فلم أتمالك نفسي وبصقْتُ عليه ، وصرختُ في وجهه «ستبقَون عبيدًا لسادتكم اليهود يا كِلاب» . وأعترف اليوم أنّها كانتْ جُرعةً فوق العادة من الجُرأة . وأمر عساكره ، فالتمّ عليّ أكثرُ من عشرة ، وربطوني ، وقيّدوا يديّ ورِجلَيّ ، ثُمّ أمرهم بإخراجي من الزّنزانة إلى الممرّ الطويل الّذي يفصل بين الزّنازين لكي يسمع صوتَ تعذيبي كلّ المساجين الآخَرين ، وأمر بسوطٍ فأُتي له به ، وأذاقني من العذاب ألوانًا لم أقدرْ على احتمالها ، وشعرتُ أنّ عيني قد فقدتْ بصرها ، وكانتْ تلك البداية . ولم أكره في حياتي مثله!! ثُمّ أعادوني إلى الزنزانة شبه ميّت ، وهناك كان قد أمر بإغراق أرضيّة الزّنزانة بماءٍ باردٍ حتّى لا أتمكّن من النّوم!!

ظللتُ واقِفًا ، تنزّ قدماي دمًا وألمًا حتّى سمعتُ أذان الفجر .

فناديتُ عليهم لأصلّي ، فقالوا علينا أن نسأل (أبو قاسم) ، ولم يعودوا إلاّ بعدَ ساعتَين وكانت الشّمسُ قد أشرقت ، ولم أصلّ الفجر ، وكان هذا فجر اليوم الثّالث بعد العمليّة ، وبهذا يكون قد مرّ عليّ قرابة أربعة أيّام منذ اليوم الّذي سبق العمليّة ، وأنا لم أذق طعم النّوم بشكلٍ جيّد ، وكان كلّ ما نمته لا يزيد عن بضع ساعاتٍ متقطّعة . وأحسستُ في تلك الأيّام أنّ النّوم أهمّ من الحياة ، وأنّ الإنسان يُمكن أنْ يقبل حرمانَه من الحياة ، ولا يقبل حرمانه من النّوم ، ولم أجدْ تفسيرًا واضِحًا لحاجة الإنسان الكبيرة للنّوم لدرجة أنّه يفضّل الموت على فُقدانها ، وإلى اليوم ظلّ لغز النّوم مُحيّرًا بالنّسبة لي!

في السّادسة والنّصف أحضروا الفطور ، كنتُ أذهبُ في جوعي إلى حالاته الأشدّ ، لم تعدْ لي رغبةٌ في الطّعام ، ورأيتُ في ذلك أحد طرق الخَلاص . لقد لوّثوا صفاء نفسي ، وعرفتُ من جديدٍ ، أنّ التّخلّي عن الطّعام أسهل بكثيرٍ من المسامحة في عشر دقائق من النّوم . قلتُ لهم : لا أريد أنْ آكل ، أريد أنْ أصلّي . أخرجوني وتوضّأتُ وصلّيتُ في الممرّ (الكرودور) فهو أنظف من أرضيّة الزّنزانة الّتي اختلط فيها الماء بالبول بالقذارات بأشياء أخرى .

عندما أنهيتُ صلاتي ، حانتْ منّي التِفاتةٌ إلى طاقة إحدى الزّنازين ، كانت الزّنازين تتوزّع على ممّر طويل ، بأبواب حديديّة ، يقبع في ثلثها الأعلى طاقة مربعة لإدخال الطّعام غالِبًا أو المناداة على النّزيل ، في تلك اللّحظة الّتي أنهيتُ فيها صلاتي وقُمتُ لأعود إلى زنزازنتي من ضُحى يوم ١٥-٣-١٩٩٧ نظرتُ عبر إحدى الطّاقات فرأيتُ صديقي (فلاح) الّذي قمتُ بقيادة سيّارة الدّوريّة بدلاً منه حينَ ذهبَ ليطمئنّ على والده . المسكين ظنّوا أنّه مُتواطِئٌ معي ، أو أنّنا دبّرنا

الأمر معًا ، فاقتيد إلى هنا ، ولا أدري ما هي الآلام الّتي عَبَرَها قبل أنْ يصل إلى هذه الزنازين المشؤومة ، وحزنتُ لأجله ، وكدتُ أبكي لشعوري بأنّني أنا الّذي ورّطتُه في هذا الأمر دون أنْ يدري .

في التّاسعة من صباح ذلك اليوم ، دخل غرفتي ممّرض ، عرفتُه من لباسه ، ومن الأدوات الّتي يحملها ، كان في يده (إسرنجة) أشهرها في وجهي بدون مقدّمات ، وقال لي كأنّ الأمر تحصيلُ حاصل «سآخذ منكَ عينة دم ، فمُدّ ذراعك» . خفتُ كثيرًا ، قلتُ ربّما يكون في الإسرنجة مصلٌ قاتلٌ ، وأنّهم يريدون أنْ يتخلّصوا منّي بأسرع الطّرق ، وتذكّرتُ قصّة المصريّ سليمان خاطر ، وما أسهل أنْ يقولوا إنّه انتحر تهارشتْ في رأسي كِلاب الشّكّ ، وقلتُ إذا لم يكنْ مصلاً قاتلاً فسيكون مصل هلوسة ، يفقدني السّيطرة على أقوالي أو أفعالي ، أو يُريني ما لا أرى ، وكان الخوف هو الّذي دفعني إلى أنْ أرفض قلتُ له : «أنا لا أثق بك» . قال لي : «إنّها عينة لتحليل دمك ، لأغراض صِحّتك» . «أنا لا أصدّقك» . «ليس المهمّ أنْ تُصدّقني المهمّ أنْ أنهي عملي وأخرج فهم ينتظرونني أنْ أعود بها» «لن تفعل» . نظر إلى باب الزّنزانة الّذي كان لا يزال مفتوحًا ، أراد أنْ يُشير برأسه إلى بعض الحرس ، ليقيّدوني ويأخذ العينة بالقوّة ، لكنّني خفتُ أنْ أتعرّض لمزيد من الأذى ، فتراجعتُ عن عنادي ، وسألتُه بلهجة مُختلفة «أنتَ متأكّدٌ من أنّهم يفعلون ذلك من أجل صِحّتي؟» . أجابني بهزّة رأسه «نعم» . قلتُ له : «إذا كان الأمر كذلك فعلى بركة الله» . ومددتُ ذراعي ، وغرز إبرة الإسرنجة في عرق العضد ، وسحب عينة الدّم ، وخرج

في الحادية عشرة تقريبًا من ظهر ذلك اليوم ، أخرجوني من

الزّنزانة إلى أحد المكاتب ، كان يبدو أنّه عيادةٌ مؤقّتة ، كان بانتظاري في جوفها طبيبان عرّفاني على نفسَيهما ، قالا بأنّهما طبيبان نفسيّان ، كان يبدو أنّهم يعتقدون بأنّني مجنونٌ على الحقيقة ، ضحكتُ في سرّي ، وهتفتُ : «يبدو أنّني ممثّلٌ بارعٌ»

أجلسني الطّبيبان على كرسيّ وثير ، شعرتُ معه براحة غريبة في قفاي ، هتفتُ في سرّي : «في وسط هذا العذاب المتواصل يُمكن أنْ تحظَى بفترة استراحة يُمكن أنْ تنبت وردةٌ جميلةٌ على قمّة مزبلة» كان الكرسيّ الّذي جلستُ عليه من الجلد الطّريّ ، غاص قليلاً تحت تأثير ضغط جسمي ، وكان من النّوع الدّوار ، درتُ به ذات اليمين وذات الشّمال ، دورتَين فقط ، ليمنحني شعورًا بالسّيادة وبالنّعيم المُقيم ، وبأنّني أنا المُحقّق لا هما ، وبأنّ أسئلتي هي الّتي سأوجّهها لهم بدلاً من توجيهها لي . تمنّيتُ في تلك اللّحظات أنْ يسألوني عن كلّ شيء ، أنْ يخوضوا معي بالتّفاصيل ، فأنا أعشق التّفاصيل ، وأستمتع برواياتها ، ومن ناحية أخرى الجمال كلّه يكمنُ في تلك التّفاصيل

كان الطّبيبان النّفسيّان ضابطَين في الخدمات الطّبّيّة الملكيّة ، أحدهما برتبة عقيد والآخَر برتبة رائد . قال العقيد : «هل كنتَ تعاني من مشاكل في المدرسة؟» . سألتُه : «أيّ نوع من المشاكل تعني؟» . قال : «الضّرب» «الضّرب؟!» . «الضّربُ من قبل المُعلّمين أو الزّملاء؟» «كلاّ كُنّا عائلةً ، أنتَ لا تعرف معنى أنْ تكون طالبًا في مدرسة حكوميّة في قرية . القرية وحدها تعلّمنا الرّقّة ، تعلّمنا التّعاون ، تعلّمنا حُبَّ الآخَرين ، والتّلذّذ بمساعدتهم ، والسّعادة لرؤيتهم سُعداء ، لا أنْ نسعى إلى إيذائهم» . سألني الرّائد : «هل تعرّضتَ هنا للتّعذيب؟» . أجبتُه «كثيرًا» . وكشفتُ له عن جسدي . أشاحَ مع

زميله برأسه بعيدًا . «لا تخافا ، ليس مهمًا أنْ يتأذّى جسدي أنا ، المهمّ أنْ يسلم جسدُ الوطن من الإيذاء ، إذا ساعدْتُماني على ذلك ، فسنكون متساوين في حُبّ الوطن ، حُبّ الوطن ليس ادّعاءً ، تعالَوا لنُثبِتَ لأنفسنا قبل الآخَرين أنّنا نُحبّه»

سألاني عن أسرتي ، علاقتي بها ، سلوك أبي وأمّي معنا نحن أبناءهما . المساكين لا يعرفون أنّنا تحت جناح أبي عرفْنا معنى الوطن ، وتحت ظِلال أمّي عرفْنا معنى الحُبّ والرّحمة . هم حتّى الآن لا يستطيعون أنْ يقتنعوا أنّ العمليّة الّتي قُمتُ بها يُمكن أنْ يقوم بها إنسانٌ سويٌّ ، إنسانٌ يريد لبلده الطّاهر أنْ يظلّ طاهِرًا .

تحوّلا من الأسئلة النّفسيّة ، إلى السّؤال عن العمليّة ، وكيف تمّتْ ، وما الدّوافع الّتي دفعتْني إليها؟ لم أزِدْ على ما قلتُه في السّابق شيئًا صرتُ أحفظُ ما أقول لكثرةِ ما سُئلتُ عنه كان العقيد طيّبا في أسئلته ، أحسستُ أنّه يبحثُ عن طريقة للوقوف إلى جانبي . أمّا الرّائد فكان خبيثًا ، قال لي : «لماذا قتلتَ يهوديّاتٍ بالذّات؟» . أجبتُه : «وماذا تريدني أنْ أقتل ، واويّات مثلاً!!» . انزعج من إجابتي لأنّه وجدَ فيها سُخرية ، لكنّه بلع الأمر ، وسألني ثانية : «قصدت لماذا قتلتَ باصًا فيه فتيات ولم تقتلْ باصًا فيه رجال!!» . أجبتُه : «لقد مرّ أوّل باصٍ وكان فيه أطفال ولم أشأْ أنْ أقتلهم مع أنّه كان بإمكاني ذلك وبسهولةٍ ، لقد انتظرتُ حتّى يأتي باصٌ فيه بالِغون وراشِدون مع أنّهم الصّغار والكبار كلّهم قتَلة ، وكلّهم مُغتصبون ، لكنْ ومع ذلك الباص الّذي قتلتُ مَنْ كان فيه كان يضمّ يهوديّات ومعهم رجال» . دَفَش نظّارته بإصبعه بين عَينَيه لتثبتَ وهو ينحني ليُسجّل معلوماته ، ثُمّ رفع رأسه وسأل بصوتٍ ليّن ، فيه انطِعاجةُ أنثويّة «ألمْ يكُنّ جميلاتٍ . . . ألم يُغرِكَ منظرهنّ ،

وخاصّة أنّهن يُبرِزنْ كلَّ شيء . . .؟!» أراد أنْ يقول ماذا يُبرِزنْ فتوقّف حتّى يرى أثر السّؤال عليَّ . فهمتُ إلى ما يقصد ، وعرفتُ أنّه يريد أنْ يُثبِتَ في تقريره أنّ الدّافع إلى عمليّتي يتعلّق بصورةٍ أو بأخرى بالجنس . الأحمق يظلّ أحمق . قلتُ له لأزيل غشاوةً تشكّلتْ على عينَيه بسبب افتراضاته المُسبَقة «لو كان الدّافع غريزيّ كما ألحتَ لما قُمتُ بقتلهنّ أيّها الطّبيب الذّكيّ ، فجمالهنّ يَقتُل ولا يُقتَل ، لو تركتُ الأمر لأهوائي ولشهواتي كما فعلِ بعضُ زملائي ، لنزلتُ من الدّوريّة ورقصتُ معهنّ وللعبتُ وأخذتهنّ بالأحضان و . . .» . قاطَعَني كمن يريد أنْ يستثني «لكنّ الجميلة إذا راودَها الرّاغب عن نفسِها وأبتْ يقوم بقتْلها» . قلتُ : «إذًا أنتَ تتّهمني بأنّني راودتُهنّ عن أنفسهنّ أمام الخَلق ، هل هذا يُعقَل!! إنّ افتراضًا مثل هذا بلغ من الغباء مستوًى خياليًا ، ثُمّ افترضْ أنّني راودْتهنّ أيّها الحصيف ، فهل لديكَ شهادةً منهنّ بأنّهنّ رفضْنَ ، إذا قلتَ إنّهنّ صاحباتُ غِواية ، فهل صاحبة الغِواية ترفض الّذي يرادوها ، إنْ كانتْ ترفض كما تفترض فلماذا هِي غاوية ومُغوِية!! ألا تريدُ أنْ تسألني أسئلة معقولة أيّها الطّبيب!! مشكلة الأطبّاء النّفسيّين أنّهم في كثيرٍ من أحوالهم يحتاجون هم أنفسُهم إلى علاج ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يضعون فرضيّات تحتاج إلى خيالٍ ، أو إلى مجنونٍ ليصدّقها ، لأنّها تُنافي العقل ، وتفتقر إلى أدنى مُقوّمات الصّحّة» سألني : «هل أنتَ متزوّج؟» . أجبتُه : «إضبارتي عندكم ، ثُمّ لماذا تسألُ سؤالاً كهذا» . وسأل ثانية : «هل علاقتكما . . .» فأوقفتُه صارخًا : «ليس لك حقّ في أنْ تتدخّل في أموري الشّخصيّة ، أنتَ تسأل عن أفعالي هنا ، فاجعلْ أسئلتك تتمحور حولي ، ولولا أنّني أريدُ أنْ أتسلّى ، وأقضي بعض الوقتِ لما أجبتُ عن

سؤال واحد من أسئلتك ، لأنّني أعرف أنّها تافهة ، وأنّها تريد أنْ تُطبّق نماذج أجنبيّةً في التّعامل معنا ، ونحن نختلف أيّها الطّبيب الذّكيّ ، نختلف عن الغرب في كلّ شيءٍ» . نظر إليّ من تحتِ نظّارته نظرات توعّد ، وسمعتُه يقول : «سأعرفُ حقيقة دوافعك بطريقتي» قالَها بأسلوب أقرب إلى التّهديد والتّقرير .

قرّرا بعد جولةٍ طويلة من الأسئلة تحويلي إلى المدينة الطّبّيّة لإجراء بعض الفحوصات المتعلّقة بصحّتي الجسديّة والعقليّة ، ولأخذ صورة طبقيّة للدّماغ

(٣١)
مَنْ خافَ اللهَ لم يَضُرَّه أحدٌ، وَمَنْ خافَ غيرَ اللهِ لم ينفعه أحدٌ

في الممرّ عائدًا إلى زنزانتي، حاولتُ أنْ أسترق النّظر عبر طاقات الزّنازين لكنّهم كانوا يطلبون منّي أنْ أنظر في الأرض. أدخلوني زنزانتي وأغلقوا بابها الثّقيل عليّ وغادروا كان وجه فلاح حين لمحتُه في الضّحى شاحِبًا. يا ويلي مِمّا حدث له، ماذا فعلوا بهذا المسكين؟! كان منكسرًا ويبدو كمن يتمنّى الموت. أشفقتُ عليه، وشعرتُ أنّني السّبب. قمتُ إلى الطّاقة، ناديت: «فلاح.. فلاح...». ضاع صوتي في الممرّ، وظلّ الصّمتُ مخيّمًا. لم يكن الوقوف أمّام الطّاقة يسمح لك أنْ ترى الزّنازين الأخرى، ولا أنْ ترى طاقاتها، مترٌ واحدٌ هو مدى رؤيتك، لكنّ الصّوت لا يمشي في خطوط مستقيمة مثل الضّوء، وبالتّالي يمكن أنْ يحتال على الآفاق المسدودة بالانكِسار والتّلوّي، ويصل إلى مُبتغاه في النّهاية، وإنْ يكنْ قد فقد جزءًا كبيرًا من تأثيره وقوّته. ومن أجل هذا صرختُ مرّة أخرى: «فلاح فلاح... أنا أحمد.... صاحبك... هل تسمعني». جاءني صوتٌ ضعيفٌ قدّرتُ أنّه لفلاح، قال الصّوت: «نعم..». ناديتُ مرّة ثانية «ارفعْ صوتَك إنْ كنتَ فلاح... ارفعْ صوتك أنا أحمد...». جاءني صوته هذه المرّة واضحًا: «نعم يا أحمد...». «انا أعتذر لك يا صديقي... صدّقْني لم أذكرْ اسمك في كلّ جولات التّعذيب... أنا

آسف إنْ كنتُ سببًا فيما أنتَ فيه» . كانتْ كلماتي كأنّها قد بعثتْ فيه الحياة ، فدبّتْ فيه الحيويّة «لا عليك يا صديقي . هنا في الزّنازين . . . سبعةٌ من زملائنا . . .» . «لا تهتمّ ولا يهتمّوا الشمس ستشرق يا شباب . . . ستشرق قريبًا . . . وستخرجون من هنا سالمِين بإذن الله» . وتعالتْ أصواتُ الزّملاء الآخَرين : «أنا هنا . . .» «اعتقلوني قبل يومَين . . .» أمسِ جاؤوا بي إلى هنا .» وعلى الرّغم من أنّ أصواتَ زملاء لك قد ترفع معنويّاتك من جهة ، إلاّ أنّ تأثيرها عليّ من جهةٍ أخرى كان سلبيًا . فلقد خِفتُ أنْ يُجبروهم على الاعتِراف بأنّهم كانوا على علم بالعمليّة ، وعلى الاشتِراك معي فيها ، وهم في الحقيقة ليس لهم في الأمر ناقةٌ ولا جملٌ ، وفكّرتُ في أولادهم وعائلاتهم ، وأكثرَ ما طَعَنني والد (فلاح) الّذي ينتظره في منتصف الأسبوع وفي نهايته من أجل أنْ يرعاه فهو مريضٌ جِدًا ، وآلمني أنْ يكون لي يدٌ في كلّ هذه العذابات ، وضغطَ ذلك عليّ حتّى إنّني قرّرتُ في لحظةِ ضعف أنْ أعترف بأنّني قمتُ بالعمليّة وحدي بكامل وعيي ودون إكراه لا تعاونٍ من أحدٍ لأبرّئ ساحةَ زملائي وقفتُ على الطّاقة «يا شباب . . الصّبر يا شباب . . والله . . .» لم أُكملْ قَسَمي ، فقد قاطعنا صوتٌ غليظٌ قرع بالعصا على باب الزّنازين : «اصمتوا أيّها الـ . . .» . كان الحرس قد عادوا ، يبدو أنّهم كانوا في استراحة أو في غداء

خمدتْ حركتي داخل الزّنزانة . في الأماكن الضّيّقة الّتي تضيق بجدرانها على قلبك ليس أمامك من مهربٍ من أذاها إلاّ بمصادقتها الأماكن تُصادَق . إنْ صادقْتَها غفرتْ لك ضِيقَك الأوليّ منها ، تبدأ فَتْح قلبِها لك ، وإنْ فتحتْ قلبَها لك رأيتَ العَجَب . قلتُ لها : إذا كُنّا

سنقضي معًا زمنًا طويلاً فلا بُدّ أنْ يعرفَ أحدنًا الآخَر ، المعرفة شرطٌ كسر الجمود في العلاقة بين الاثنين ، الوجه الاخر لبداية الحُبّ . الحُبّ من النَّظرة الأولى خادعٌ ، أنا أؤمن بالحبّ الّذي يأتي بعد طول المعاشرة . أنا رجلٌ عمليّ ولستُ حالمًا على طريقة الشّعراء

بعد الظّهر أخرجوني من الزّنزانة ، اقتادوني إلى مكتب (أبو قاسم) ، أوّل ما رأيتُه انقبضَ قلبي ، كان بإمكاني أنْ أُسامح كلّ الجلاّدين ، أمّا هذا فقلبي لم يُطاوعني حتّى هذه اللّحظة . أمرني بالجلوس على أحد الكراسيّ ، قال لي : «اسمعْ يا ولد ، أنا لستُ مثل باقي المُحقّقين وقد جرّبتني قليلاً ، ومعروفٌ عنّي أنّ مَنْ أحقق معه هنا ، إمّا أنْ يخرج ميّتًا ، أو مُشوّهًا ، أو فاقِدًا عقله ، إلاّ إذا أرادَ أنْ يخرج سليمًا فهناك طريقةٌ واحدةٌ أنتَ تعرفها» . ثُمّ صمت . أجبتُه ، وكنتُ لحنقي عليه أتحدّاه بما أستطيع : «افعلْ ما تشاء ، فلو أمرت بقتلي ، أو قَطَعْتَ أطرافي فلن أقول إلاّ الحقيقة ، والحقيقةُ قلتُها لك ولكلّ المُحقّقين السّابقين ، وسابقَى أقولها لكلّ مُحقّق لاحق ، لأنّ عقلي وروحي لا يوجَد فيهما كلامٌ آخر . انتهى» . وأخذ يُجادلني ، وفي أثناء ذلك ، دخل عسكريٌّ لاهِثٌ ، أدّى التّحيّة بشكلٍ مُضطرب ، وهتف : «سيّدي . . . لقد . . .» . ولم يستطعْ أنْ يُكمل . كانَ يرتجف . فسأله أبو قاسم : «قُلْ ، هيّا . . ماذا هُنالك» . فأجابه : «إنّ العسكريّ الّذي نُحقّق معه في قضيّة السّرقة قد مات» . فسأله : «مات؟ كيفَ؟» . فردّ عليه «تحت التّعذيب يا سيّدي» . أجابه أبو قاسم ، وهو ينفثُ دخان سيجارته ، ويضعها في المكتّة «بسيطة ، ضَعُوا العسكريّ الميّت في كيس زبالة ، وحولّوه إلى المستشفى ، واكتبوا في التّقرير إنّه انتحر» اهتزّتْ ترقوتي ، صعدتْ وهبطتْ ، رمشتْ عيناي بسرعة ، سرى وجعٌ

في كبدي ، ارتختْ بعضُ مفاصلي ، واجتاحني خوفٌ حقيقيّ . نظرَ إليّ أبو قاسم : «أرأيت ، قلتُ لك مَنْ أُحقّق معه يخرج من عندي ميّتًا ، الأمر عندي بغاية البساطة ، مَنْ يموت من تحت يدَي ، أبعثُ مع جُثّته إلى أهله تقريرًا من كلمةٍ واحدةٍ : انتحر . وهذا العسكريّ الّذي حقّقْنا معه تُهمته بسيطة ، إنّها قضيّة سرقة ، وليس مثل قضيّتك قتْل سبعةٍ وجرحِ ستّة» كان اضطرابي قد بدأ يستقرّ . ابتلعتُ الصّدمة الأولى ، ومرّت الضّربةُ بشيءٍ من السّلام . كنتُ حَذِرًا ، وثابتًا على أقوالي حتّى الآن ، ولم أُغيّرْ منها حرفًا ، إلاّ أنّ هذا الثّبات تعرّض لهزّةٍ عنيفةٍ قبل قليل ، ولكنّها هزّةٌ كسحابة الصّيف ، انقشعتْ سريعًا ساعدني على ذلك عبارةٌ قفزتْ إلى ذهني من أيّام المدرسة ، أظنّ انّها كانتْ في أحد دروس الحِكَم في الصّفّ السّادس ، وهي للفُضيل بن عِياض ، كانت العبارة تقول : «مَنْ خافَ الله لم يَضُرّه أحدٌ ، وَمَنْ خافَ غيرَ الله لم ينفعْه أحدٌ» . وعلى هَذي منها أجبتُه : «بودّي لو أنّ ما حدث حدثَ بطريقةٍ أخرى لأغيّرَ أقوالي . ووسائل ترهيبي لن تنجح» . جرحت الجملة الأخيرة كبرياءه ، فسألني مُستنكِرًا : «وهل تعتقد أنّنا اختلقْنا هذه القصّة لإرهابك؟» . أجبتُه بهدوء : «نعم» فسألني : «ولِماذا أنتَ متأكّدٌ هكذا؟» . فأجبتُه «لأنّنا دولةُ مؤسّسات وقوانين ولسنا دولة عصابات وبلطجة ، وهذا الّذي قلتَه لا يحدث في بلدي» كانت طعنتي في كبريائه قد أتمّتْ نفاذها بعبارتي الأخيرة ، فنادَى عددًا من عساكره ، وقال لهم : «خُذوه إلى غرفة الضّيوف وجَهّزوه ، حتّى يعلم أنّ الله حَقّ» .

كانت الغرفة نُسخةً أخرى عن الغرفة السّوداء في استخبارات إربد ، تُشبهها إلى حدٍّ كبير ، سمّيتُها الغرفة السّوداء رقم ٢ ، توقّعتُ

الأسوأ ، هذه قاعدةٌ مهمّةٌ في تخفيف الألم عند المساجين ، حينَ تتوقّع الأسوأ ، ويحدث ما هو أقلّ منه تشعر بارتياحٍ كبير ، وبنعمة الله عليك ، وستتجاوز الألم بقَدْرٍ معقولٍ من السّهولة كان الجدار هو الجدار ، كئيبًا مُحفرًا مقشورًا ، والقيود هي القيود مُثبّتةً على ذلك الجِدار الأصمّ ، باستِثناء أنّني لم ألحظ دلو الماء ولا (جوال) الملح . ولم يُعرّوني .

بقيتُ بملابسي . شُبِحت . تمّت الخطوة الأولى . ارتحتُ أنّني اجتزتُها . حتّى العذاب مراحل ، بعد كلّ مرحلةٍ ما تشعر بنوعٍ غيرِ مُفسّر من الارتِياح . ظللتُ مشبوحًا ، توقّعتُ في أيّ لحظةٍ أنْ يدْخل عليّ أحد البِغال ليبدأ بتعذيبي . تخيّلتُ البغل هنا أكبر من البغل هُناك . فهذه عمّان العاصمة وهناك إربد ، وما يحدثُ في الأكبر أكبر ، هكذا فكّرت ، لكنّهم لم يُدخِلوا إليّ لا بغلاً ولا ثورًا ولا حتّى ضبعًا ، وهذا أسوأ ما في الأمر ، إذ لو دخل شيءٌ من ذلك إليّ لارتحتُ من هذا القسم من العذاب ، أمّا أن تنتظره ، وتعيش على جمر انتِظاره ولا يأتي ؛ فذلك هو الجزء الأصعب في عمليّة التّعذيب!!

في الثّانية تقريبًا ، فكّوا قيودي تلمّستُ يدي ، وفرحتُ . ها أنذا أنجو ، سمحوا لي بالصّلاة ، توضّأتُ وصلّيتُ الظّهر ، وأحضروا لي طعام الغَداء . كنتُ جائِعًا ، ونسيتُ أمر غضبي السّابق ، فأكلتُ - مسرورًا - كلّ شيءٍ . لم يُعيدوني إلى الغرفة السّوداء ، بل ذهبوا بي إلى زنزانتي ، وقالوا لي : «النوم ممنوع» كدتُ أتقيّأ ما أكلتُه ، كنتُ أريدُ أنْ أقول لهم : خذوا كلّ ما يُمكن أنْ آكله ، ولكنْ لا تمنعوني من النّوم . المنع من النّوم يُشبه أنْ تشدّ بحبلٍ غليظٍ على عنقٍ بشريّة حتّى تموت . لماذا لا تجرّبون وسائل أخرى من التّعذيب غير هذا . أنا أقبل بأيّ شيءٍ ، لكنْ اسمحوا

لي أنْ أنام ولو على الأرض المليئة بالبَول والقاذروات ربعَ ساعة!!

بعد أذان المغرب، فتحوا باب الزّنزانة، وأتوني بملابس مدنيّة قميص أبيض، وبنطلون رماديّ. الملاعين يعرفون المقاسات الّتي ألبسها. من أين عرفوا يا تُرى؟ هل سألوا زوجتي، أم سألوا أمّي؟ لا أدري، ربّما قاسوا كلّ شيءٍ وسجّلوه في إضباراتي أثناء التّحقيقات السّابقة. المهمّ أنّني لبستُ وفرحتُ كالأطفال بملابسي الجديدة، كانتْ قد غيّرتْني إلى رجلٍ مدنيّ مُقبِلٍ على الحياة بكلّ ما فيها من فضاءاتٍ. خرّبت القيود المشهدَ قليلاً، لكنّه عاد واعتدل في الموكب الّذي رافقَني. وضعوني في سيّارة مدنيّة مظلّلة الزّجاج كما لو كنتُ زعيمًا. ورافقتْنا سيّارتان مُسلّحتان بالأجهزة الرّشاشة المُنتصبة في ظهورها أمام قنّاصَين. وتقدّمتْنا سيّارة نجدة، ودرّاجة مُراقِب سير، كانتْ مهمّة سيّارة النّجدة والدّراجة أنْ تُبعد السّيّارات عن الطّريق، كُنّا نسير في موكبٍ ملكيّ، من جديد تعافيتُ من بعض جروحي بذلك. لم نقفْ على إشارةٍ واحدةٍ من إشارات المرور، عبرناها جميعًا وهي حمراء، وكانت طوّافات سيّارة النّجدة ودرّاجة مراقب السّيّارة، ترشق بضوئِها الأحمر جانبي الشّارع، والعمارات المنتصبة على طرفَيه، وصوتُ سائق سيّارة النّجدة، يصيح بقوّة: «افتح الطّريق افتح الطّريق...» لا بُدّ أنّ المواطنين المساكين ظنّوا أنّ شخصيّة من طرازٍ رفيع تجلس في السّيّارة المحميّة؛ هل كنتُ كذلك؟

وصلْنا إلى المدينة الطّبّيّة، أدخلوني من بابٍ خلفيّ حتّى لا يُلاحظ أحدٌ دخولنا، كانت الكرودورات خاليةً تمامًا من المرضى أو الأطبّاء، يبدو أنّهم قد جهّزوا ذلك من قبل، إضافة إلى أنّ الوقتَ كان قريبًا من العِشاء، فهو وقتٌ مسائيّ تخفّ فيه الحركة كثيرًا. رافقني في

هذه الممرّات الخالية أكثر من عشرة مُسلّحين ، لم أعرفْ منهم أحدًا ، باستثناء بنادقهم ، فأنا صديقٌ قديمٌ لها ، كُنّا نسير إلى حيثُ الغرفة الّتي يوجد بها جهاز الرّنين المغناطيسيّ ، يبدو أنّهم يريدون أنْ يُجروا مَسْحًا لدماغي ، ليكتشفوا دوافعي وراء العمليّة ، تذكّرتُ على الفور ما كنتُ قرأته وأنا في العسكريّة عمّا فعلوه بآينشتاين من أجل اكتشاف مصدر عبقريّته ؛ فقد شطرَ علماء الدّماغ والأعصاب دماغَه إلى مئتين وأربعين قطعةً ، وحلّلوا كلّ قِطعةٍ على حِدة ، من أجل أنْ يعثروا على أسباب عبقريّته ، لكنّهم لم يعثروا على شيءٍ ، كان هو قد قال لزملائه الّذين يقومون الآن بتشريح دماغه قبل أنْ يموت : أمتلك موهبةً خاصّة ، أنا فُضوليّ على نحوٍ مجنونٍ فحسب . لقد قال عنّي ما كنتُ أودّ أنْ أقوله لهؤلاء الّذين يَجُرّونني كفأر تجارب إلى غرفة الرّنين المغناطيسيّ

في الغرفة كان في استقبالي جمهرةٌ من الأطبّاء العباقرة ، اللّواء ، والعقيد ، والرّائد الّذي حقّق معي بشأن حياتي الجِنسيّة ، وآخَرون ، كان يبدو أنّهم انتظروا لوقتٍ طويل ، ظهر ذلك من خلال وجوههم الّتي استبشرتْ بدخولي أوّل ما رأوني . تولّى اللّواء الطّبيب التّخطيط بنفسه ، وأخذ عددًا من الصّور الطّبقيّة ، وساعده ممرّضون في تسجيل المُلاحَظات . كان الدّخول إلى جهاز الرّنين المغناطيسيّ يُشبه الدّخول إلى القبر أو إلى عالم الآخرة ، فيه نوعٌ من الشّعور بأنّه طريقٌ في اتّجاهٍ واحدٍ فحسبُ ، يُفضي إلى الضّفّة الأخرى ، الضّفّة الّتي لا يُمكن العودة منها

تمنّيتُ أنْ تطول إقامتي في المدينة الطّبّيّة ، فأجواؤها مريحة ، وفرصتي في التّخلّص من العذاب الجسدي والنّفسي ولو إلى حينٍ فيها كبيرة ، لكنّ الأمنيات سُمّيتْ بذلك لأنّها تستعصي على التّحقّق ، ولذلك سرعان ما عُدنا إلى استخبارات عمّان .

(٣٢)
طالَ شوقي إليكِ أيتها الحبيبةُ الغائبة

بعد أنْ عُدْنا إلى شعبة استخبارات عمّان ، أدخلوني إلى أحد مكاتب المُحقّقين ، كان مُحققًا جديدًا ، لم يمرّ عليّ في الطّائفة الّتي مرّتْ عليّ كان يلبس لِباسًا مدنيًا ، وحيّاني كصديق ، وسرعان ما جرى ماء المودّة بيننا ، طلبَ لي فُنجانًا من القهوة ، وسحب سيجارةً من علبة سجائره ، ومدّها نحوي ، فتناولْتُها ، وقام بإشعالها لي بنفسه . قال لي دون مقدّمات : «لن أضغطَ عليك ، فقط أريدُ أنْ أسمع منك ما حدث ، كما لو كنتَ تقصّه لقريبٍ أو صديق ، أنا مهمّتي أنْ أعرف ما حدث ، لكنْ ليس مهمّتي أنْ أستلّ ما حدث بالإكراه ، لا أؤمن بالتّعذيب ، ولا بالضّغط النّفسي ، ولا بالتّخويف ، لا أؤمن بهذه الأساليب كلّها ، ولا يُمكن أنْ أتّبعها في حياتي . قُلْ لي ما حدث يا أحمد براحتك» كان كلامُه مُقنعًا ، واستثار الجانب الشّاعريّ الكامن فِيّ ، وكدتُ أروي عليه التّفاصيلَ الحقيقيّة ، لكنّني خفتُ أنْ تُقارَن بأقوالي الأولى فيُؤخذ ذلك ضِدّي في المحكمة من أنّني أغيّر أقوالي . فسردتُ له بشيءٍ من التّفصيل ، لكنْ بذات المضمون الّذي سردْتُه لجيشٍ من المُحقّقين السّابقين . فلمْ يزدْ على ما قلتُه له حرفًا . ولم يسألني سؤالاً آخر ، وأمر بإعادتي إلى الزّنزانة ، وسحب من دُرجه علبة سجائر جديدة وأعطاني إيّاها ، وقال لعناصره ، اصنعوا له شايًا ، وكلّما طلبَ منكم ذلك فلا تتأخّروا عليه كنتُ قد كدتُ أخرج من الباب

مُغادِرًا إلى الزّنزانة حين قلتُ له بعد أنْ طَمِعتُ في كرمه «أريدُ أن أطلب شيئًا آخر يا سيّدي» . فابتسم برقّة ، وسألني ما أريد ، فقلت : «زنزانتي صَلْخ» . فضحك ، وسألني ما معنى : «صلخ» . فأجبتُه «يعني فارِغة ، لا شيء فيها إلاّ أنا والذّباب . لا فرشة لا مخدّة لا أغطية لا . . . وأنا منذ أربعة أيّام لم أنم» . فضحكَ أكثر ، وطلبَ من عناصره أنْ يؤمّنوا لي ذلك ، وأنْ يسمحوا لي بالنّوم ، فقال أحدهم خائفًا : «ولكنْ أبو قاسم أمرنا ألاّ نسمح له بالنّوم» كدتُ أضربه ، لولا أنّ المحقّق سارع بالقول : «خُذوا أوامركم منّي» . كان هذا المحقّق اللّطيف هو الرّجل الثّاني بعد (أبو قاسم) في هذه الشّعبة ، وعدم وجود أبو قاسم يومها هناك ، جعله في المرتبة الأولى

اجتاحتْني موجةُ غامرةٌ من الفرح ، وأنا أراهم يحملون في أيديهم فرشةً ، كدتُ أحتضنها ، وأقبّلها على رأسها وأقول لها : «طالَ شوقي إليكِ أيّتها الحبيبةُ الغائِبة» . لكنّهم لم يكتفوا بإغراقي بتلك الموجة من الفرح ، إذْ جاءتْها موجةٌ أخرى تشكّلتْ على هيئة ثلاث بطّانيّات ومِخدّة ، رقصتُ في أعماقي ، لمعتْ عيناي ، وترقْرقَتْ فيهما دمعتان نزلتا على خَدّي بسرعة . وضعتُ الفرشة في الزّاوية ، وفوقها المخدّة ، وتغطّيتُ ببطّانِيّتَن ، وفاضت الثّالثة ، سأجعلها سجّادةً للصّلاة . أيّ نعيم هبطَ عليّ من السّماء فجأة؟! حينَ مدّدتُ جسدي المُنهَك على الفرشَة ، أحسستُ بأنّ ملائكةَ الرّحمة في الجنّة تضعني على أسرّة من ريش ، وتحلّق بي في السّماوات العُلا ، وتطوف بي الكواكب وأنا مُغمَض العينَين أستمتع بأحلام تُريني كلّ جميل ومُدهِش . لكنّ الملائكة لم تكدْ تسير قليلاً بأسرّة الرّيش النّاعمة بي في الفضاء حتّى كنتُ قد ذهبتُ في نوم عميقٍ ، لا أدري إنْ كنتُ قادِرًا على الاستيقاظ منه لروعته

لم أصحُ إلاّ في الصّباح . ضاعتْ صلاة الفجر كنتُ قد استيقظتُ على أصوات العساكر ، كانوا قد فتحوا الباب فجأةً ، وحرّكوني من ذراعيّ ، وأقاموني ، وهم يقولون : «قُمْ . . . قُمْ . . . أبو قاسم جاء» كانوا مرتبكين ومُضطربين ، ويرتجفون خوفًا . وقفتُ وأنا أفركُ عينَيّ ، وأتمطّى من نوم لذيذ . أخذوا الفرشة والأغطية ، وأخفوها بسرعة . توضّأتُ وصلّيتُ الفجر فائتًا ، وجلستُ في الزّاوية ، أخرجتُ سيجارةً وأشعلْتها وانتظرتُ حتّى تأتيني كأس الشّاي . لكنّ الّذي أتاني كان أبو قاسم ومعه نائبه ومجموعة أخرى من الضبّاط والعساكر الصّغار كنتُ أدخّن مُستمتِعًا ، حينَ أطلّ وجهه من الباب ، ما إنْ رأى السّيجارة تستقرّ بتنعّم بين أصابعي حتّى جُنّ جنونه «مَنْ أعطاكَ السّيجارة؟ مَنْ سمح لكَ بالتّدخين . . .؟» ثُمّ التفتَ خلفه إلى كلّ الضبّاط والعساكر ، وتابع هياجه «لماذا سمحتم له بالتّدخين ، سأقدّمكم للمحاكمة لمخالفة الأوامر» . بعد أنْ سكنت القنبلة الّتي ألقاها للتوّ ، كان الخوف قد عقد ألسنة العساكر كلّهم ، حتّى تكلّم نائبه ، وقال : «أنا أعطيتُه الدّخان ، وأنا سمحتُ له بذلك» . فخرجَ أبو قاسم وهو يتوعّد ، ويُرغي ويُزبِد . ومرّت عاصفته الهوجاء كأنْ لم تحدث . بعضُ العواصف لا يُؤذيكَ إلاّ صوتُها ، وهو مُؤذٍ ليسَ لأنّه مُخيفٌ فعلاً ، ولكنْ لأنّه جعجعةٌ ، ونشازٌ ، وخارجٌ عن الذّوق العامّ .

بعد أنْ أفطرتُ ، وشربتُ الشّاي الّذي وُعِدتُ به ، أخذوني إلى مكتب لم أدخلْه من قبل ، لكنّني وجدتُ فيها الطّبيبَين النّفسيَّين اللّذَين قابلتهما أمس ، العقيد والرّائد . مكثتُ عندهما ما يقرب من السّاعتَين ، ستكونان أجمل ساعتَين يُمكن أنْ يقضيهما سجين حتّى الآن . كانتا ساعتَين من التّسلية والضّحك بحيثُ أنّني تمنّيتُ أنْ تطولا

إلى المساء كان الرّائد بالذّات الّذي لا أدري لماذا أُحسّ كلّما أراه أنّه بحاجة إلى عِلاج ؛ مُنقبضًا . دائم النّظر في إضبارته . حادّ الكلام . جملته غالبًا مبتورة . وعيناه ساهمتان . وجسده مُرتخ كدتُ أنْ أقول له في المرّات الثّلاث الّتي رأيتُه فيها منذ أمس : «هل أنتَ مريض؟ لا بُدّ أنّكَ بحاجة للعلاج؟ ألا يُوجَد أحدٌ في العائلة يدلّك على طبيبٍ جيّد ، لو كنتُ أعرفُ أنا لساعدتُك»

كانا يحملان رسومات خشبيّة ، ولوحات (بازل) ، وبعض الألعاب ، وبدآ يسألانِني أسئلةً غريبة ، قال لي الرّائد : «هل حدث معك سرنمة؟» سألتُه «هل هذه أكلة تُؤكل؟!» . لم يُعجِبْه جوابي لا أدري لماذا يفعل الكثيرون ذلك!! يسألونني أسئلةً غريبة ، وحين أجيبُهم عنها يشمئزّون ، إنْ كان لا تُعجبكم إجاباتي فلماذا تسألونني إذًا ، وفّروا عليّ وعلى أنفسكم ، وقُوا مشاعركم ومشاعري من الانزلاق وكُفّوا عن أسئلتكم السّخيفة والهجينة . العقيد أراد أنْ يُطرّي الجوّ قليلاً ، فقال : «السّرنمة ، يعني المشي وأنتَ نائم» . قلتُ للرّائد : «هل تعني مثلاً أنْ أستيقظَ من فراشي في منتصف اللّيل ، وأقومُ أمشي ، أتحسس الجدران وأنا نائم ، والمقاعد وأنا نائم» . فأجابني بلهفة «نعم . . نعم . .» . فأكملتُ : «فأخرجُ من بيتي ، إلى الشّارع وأنا نائم ، فأسير فيه كالمسحور ، حتّى أصل إلى المقبرة ، فأدور على سورها كأنّني أحفظه . .» . هزّ الرّائد رأسه بعنف : «نعم . . . نعم . . .» . ثُمّ يحدثُ أنْ ينهقَ حمارٌ بصوتٍ عالٍ فلا أسمعه ، وينبح كلبٌ نباحًا مسعورًا فلا أسمعه ، ويهربُ منّي عشرةٌ من النّاس وهم يصرخون فَزِعين لمنظري يظنّون أنّني خرجتُ من المقابر فلا أسمعهم ، وأتابع مسيري ، حتّى إذا وصلتُ أطراف القرية ، بدأتُ بالتقاط بعض الحصى وإلقائها في الوادي بصورةٍ مسرحيّة؟» . هزّ الرّائد رأسه

بشدّة أكبر : «نعم . . . نعم . . . هل هذا ما حصل معك لو مرّة واحدة . .» . فأتجاهل سؤاله ثُمّ أتابع «وعندما أملّ من رمي الحصى ، أعود أدراجي ، فأُسلّم على أهل القبور ، وأتابع صعودًا حتّى أصل إلى بيتي ، وأدخل من الباب المفتوح ، وأدرج إلى فناء البيت ، ثُمّ إلى الغرفة ، وأنسلّ في فراشي ، وأغطّ في نوم عميقٍ من جديدٍ كأنّ شيئًا لم يحدث» . انتفض الرّائد وهو ينتظرُ الإجابة «نعم . . . نعم . . . هل هذا ما حصل معك؟» . أجبتُه كأنّني لم أقلْ شيئًا : «كلاّ . . .» . انتفخَ صدرُه مثل بالونٍ راح يمتلئ بالهواء ، ظلّ يمتلئ ويتزايد حجمه حتّى انفجر مرّة واحدة : «ومن أينَ جئتَ بهذه المعلومات؟» . أجبتُه بهدوء لا يتناسب أبدًا مع انفعاله الصّارخ : «ربّما تخيّلتُها . . .لا لا . . ربّما قرأتُها في كتاب . . . لا لا أدري على وجه الدّقّة إنْ كنتُ تخيّلتُها أو قرأتُها ، لكنْ افترضْ أنّني ألّفتُها!» . كاد الرّائد يخرج عن طوره ، ويغادر المكتب ؛ «ألم أقلْ لكمْ إنّه بحاجةٍ إلى طبيبٍ» ، لكنّ زميلة العقيد شدّه من كتفه وأبقاه : «علينا أنْ ننهي المهمّة» .

بدأ وقت اللّعب ، خربطوا قِطَع البازل ، وطلبوا منّي إعادة ترتيبها ، كانت الخريطة تضمّ ستّة عشر قِطعةً ، وهي صورة أسد . ضحكتُ في سرّي وأنا أجمعها ، لا أدري إنْ كان الأطبّاء يتعاملون مع المرضى بهذا الغباء ، لكنّني أكملتُ لأنّني أريدُ أنْ أتسلّى ، جاؤوني بأخرى أصعب ، وتدرّجوا في الصّعوبة ، حتّى أتوني بواحدةٍ مكوّنة من ١٤٤ قطعة ، قلتُ لهم : «تسلّيتُ بما فيه الكِفاية . هل لديكم خريطة العالَم» . اندهشوا ، لكنّهم قالوا : «إنّها موجودةٌ» . فأكملتُ : «بشرط أنْ تكون الخريطة مكوّنة من ٦٠٠ قطعة على الأقلّ» أتوني بها مُبعثرةً . ابتهجت . أحفظ خريطة العالَم من الصّفّ الخامس ، ليس عن طريق

المدرسة ، بل عن طريق أبي ، كان يأتيني بالأطلس من الغربة ، ويشتري لي كُرات العالَم ، كان الشّعور بأنْ تلفّ العالَم كلّه على إصبعك شعورًا لا يُضاهَى من المُتعة . نثروا الـ ٦٠٠ قطعة أمامي ، وكان تحدّيًا ، ربّما سيختصر نصف الأسئلة المُتبقّية ، وهذا ما كنتُ أخشاه ، إذ إنّني كنتُ مسرورًا بحصّة التّسلية هذه . كانوا ينظرون إليّ وأنا أعيد ترتيب القِطَع بثقة وبسرعة ، أعرفُ زوايا العالَم وبُلدانه المنسيّة قبل المعروفة ، وأنهاره ، وجِباله ، وصحاريه ، كنتُ أعمل على إعادة ترتيب القِطع كما يعمل عازِف البيانو على إعادة إنتاج اللّحن ، وفي خلال ١٨ دقيقة كنتُ أسلّمهم الخريطة ، وقد أخذتْ كلّ دولةٍ موقعها في عالَمٍ لا يُعتَرف فيه إلاّ بخمس دولٍ أو ستّ ، والباقي عبارة عن هلاميّات .

وبدؤوا بعدها بالحزازير كانت بعض الحزازير تخصّ طلاّب الصّفّ الأوّل والثاني ، وكنتُ أجيب عنها لكي أُطيل أمدَ اللعْبة ننتقل إلى الحزّورة الأصعب . سألوني أسئلةً في الرّياضيّات وفي الفيزياء ، وكنتُ لا أزال أتذكّر بعض قوانين الفيزياء الّتي أخذناها في حصص العلوم المهمّ فشلوا في إخراجي مريضًا نفسيًا أو مريضًا عقليًا ، فذهبوا إلى مساحاتٍ جديدةٍ من المحاولات ؛ راحوا يسألونني عن طفولتي ، عن علاقاتي بأصدقائي في الطّفولة ، عن طبيعة هذه العلاقات ، وعن أحلامي ، وعن سلوكي أيّام المدرسة ، لقد نشّطوا ذاكرتي جيّدًا ، وهذا ما جعلني أحتمل بعض أسئلتهم الحمقاء .

أُعدتُ إلى الزّنزانة ، وكان يبدو أنّ الطّبيبَين قد اكتفيا بما قلتُ ، وبما أجبتُ عنه لِيُقدّما تقريرهما إلى الأمن العسكريّ ، من أجل حيثيّات المُحاكمة . بقيتُ في الزنزانة إلى الرّابعة عصرًا تقريبًا ، وبعدها نُقِلتُ إلى مكتب التّحقيق .

عندما دخلتُ المكتب رأيتُ جميع الّذين حقّقوا معي في السّابق ، من أوّل لحظة تمّتْ فيها العمليّة إلى اليوم ، ربّما زادوا عن سبعة ، سألني (أبو سليم) المحقّق الأعنف في مرحلة التّحقيق في إربد : «هل عذّبوكَ هنا؟ هل قام أحدٌ بضربك أو بتعريضك للأذى» . فأجبتُ : «نعم ، عذّبوني ومنعوني من النّوم» . فردّ : «تمام ، يعني قاموا بالواجب» . فرددتُ سخريته بسخريةٍ أخرى : «لا تخاف ، ما قصّروا ، كأنّك موجود وزيادة» . فردّ : «اسمع يا أحمد . . .» واتّكأ بكلتا يديه على مسندَي الكرسي الّذي يجلس عليه ليعدّل جِلستَه ليشعرني بخطورة ما سيقول ، وتابع : «حتّى الآن نحن نتسلّى جميعًا معك ، ما رأيته منذ ثلاثة أيّام كان كلّه تجريبًا ، العذاب الحقيقيّ لم يأتِ بعد ، نحن لم نستعمل معك الكهرباء ، ولا الشّبحة العراقيّة ، ولا الفرّوجة ، ولا القالب ، ولا طريقة ستالين . وأنتَ تعتقد أنّنا غير جادّين في ذلك ، لكنّك إنْ لم تقل مَنْ دفعكَ إلى العمليّة . . .» وأشار بسبّابته وحرّكها مُتوعّدًا ، وتابع «إنْ لم تقل لنا من هي الجهة الّتي دعمَتْك ، فسوف تمرّ على أساليب التّعذيب كلّها ، وهذا وعدٌ منّي ، وسترى»

ثُمّ أمر بعض العناصر ، فشغّلوا التّلفاز ، ووضعوا شريطَ فيديو في مُشغّلة الفيديو ، وراحت الشّاشة تعرض فيلمًا عن طرق التّعذيب ، وقد كنتُ بالفعل توّاقًا إلى أنْ أعرف ذلك ، ولا أدري لِماذا ، وفي الحقيقة شاهدتُ تلك الطّريق باهتمامٍ كبير ، وشغفٍ عالٍ .

أمّا الشّبحة العراقيّة فيتّمّ رفع المعتقل فيها على شبك حديدٍ ، وإدخال يديه بين القُضبان ، ويتمّ ربط اليدَين إلى الخلف في الشّبك ، وتكون الرّجلان في الأسفل حُرّتان لكنّهما لا تصلان الأرض ، والسّجين في هذه الحالة أمامه خياران ، إمّا أنْ يسكن ويستسلم ،

فيكون كلّ ثقل جسمه مرتكزًا على يدَيه المُقيّدَتَين خلفه فوق رأسه، ويبدأ الجسم يضغط على القيود وعلى اليدَين وعلى مِفصل الكوع ويكاد يكسرهما أو يسبب لهما ألَمًا فظيعًا في منطقة الرُّسغَين، والخيار الثّاني أنْ يحاول التّخفيف من وزن جسمه بواسطة رِجلَيه الحُرّتين، فيبدأ يحاول أنْ يصعد بهما إلى الأعلى، لكنّ يدَيه الداخلتَين في الشّبك واللّتان اضطرّتا جسمه إلى الميلان لا تمكّنان رجلَيه من الارتكاز مِمّا يسبّب ثقلاً إضافيًا على اليدَين وبالتّالي مزيدًا من الألم الّذي لا يُحتمل، يكتشف السّجين متأخّرًا في هذا النّوع من العذاب أنْ رجليه الحرّتَين كانتا فَخًا وقد وقع هو الفخّ، لكنّه فخٌ لا يمكن إصلاح ما ينتج عنه من خراب!!

وأمّا الكهرباء، فسلك معدني له طرفان، يوضَع أحدهما في القابس الموصل للكهرباء، والآخَر يكون جزءاً معدنيا، يوضَع على الجزء المُراد تعذيبه، وضربه بالكهرباء، يبدؤون من أنحاء الجسم الّتي من الممكن انْ تحتمل قليلاً صعقة الكهرباء مثل اليدين وباطن القدَمين، ثُمّ ينتقلون إلى الأجزاء الأصعب والّتي تُسبّب الصّعقة فيها ألَمًا لا يُغتفر، مثل الرّأس، ثُمّ إلى أصعب الأصعب وهي المناطق الحسّاسة في الجسم مثل الأعضاء التّناسليّة

وأمّا القالب، فيوضَع المعتقل داخل قالبٍ من الخشب، يُحشَر فيه حشرًا، ويُدلّى باتّجاه مُعاكس، رأسه إلى الأسفل وقدماه إلى الأعلى، ثُمّ يرفع الرأس قليلاً، ويوضَع تحته مكعبٌ من الخشب صغيرٌ جدًا، حجمه (١ سم مكعّب)، بحيثُ يكون ارتكاز الجسم كلّه بثقله على هذا المكعّب الصّغير، فيبدأ يخترق الرأس مثل مخرز، وتبدأ صيحات السّجين بالاستِغاثة إلى أنْ يقول ما يجب أنْ يقوله

وأمّا أسلوب ستالين فهو الدّولاب ، يُوضع السّجين داخل دولاب سيّارة ، يُحشَر فيه ، ثُمّ يُعلّق هذا الدّولاب في السّقف بسلسلة معدنيّة ، ويكون السّجين مُقيّد الرّجلين واليدَين معًا ، ورأسه إلى الأسفل ، يرى العالَم مقلوبًا ، ويبدؤون بتدوير الدّولاب ، دورات بطيئة ثمّ تتسارع فيبدأ عقل السّجين يدور في دوّامة ، ومع السّرعة يشعر بأنّ رأسه سينفجر ، وأنّ عينَيه ستخرجان من محجريهما وترتشقان على الجدار .

وأمّا الفرّوجة ، فهو يُشبه فرّوجة الدّجاج ، يُؤتي بقضيبٍ معدنيّ بعد أنْ تُقيّد اليدان ، ويجلس السّجين مُقرفِصًا ، ويدخل القضيب من تحت ركبتَي الرّجلَين ، ويربط مع اليدين ، فيصبح في هيئة الفرّوجة ، ولكنّه لا يستطيع أنْ يفرد رجلَيه أو يباعد بينهما وبين يدَيه ، ويُعلّق طرفا القضيب على طرفَي جدار ، ويُصبح السّجين فرّوجةً في الهواء ، ويبدأ السّجّان بجلده بالسّياط حتّى يعترف .

خَفَت الشّغف بعد أوّل مشهدٍ في الحقيقة ، وتحوّل إلى قلب يخفق ، وترقوةٍ تتأرجح ، وأطراف ترتجف . بعد هذا الفلم الّذي لم يكنْ لطيفًا أبدًا . عرضوا على الشّاشة فلمًا آخر ، يبدو فيه المُتهّم جالِسًا مُرتاحًا ، والمُحقّقون يتحدّثون معه بلطف ، والجلسة أقرب إلى منادمة منها إلى جلسةِ تحقيق ، والكلّ يشرب الشّاي والقهوة ، ويُدخّن . وبعد أنْ تمّ عرض الفلم الثّاني ، سألني أبو سليم : «والآن . . . أيّ أسلوبٍ تختار؟ الأوّل أم الثّاني؟» . فأجبته دون إبطاء : «الثّاني بالطّبع» فضرب (أبو سليم) على الجرس ، وسألني وهو يرفع سمّاعة الهاتف : شاي أم قهوة؟

ماذا تظنّين يا فاطمة؟ ماذا أطلبُ في موقفٍ صعبٍ كهذا؟ أيّهما

أقربُ إليك يومَ كُنّا نسمر على السّطوح وننظر إلى البعيد ، كانت الأحلام تتسع على قدر اتّساع الأفق . هل ما زالت هذه الأحلام قادرة على أنْ تظلَّ خضراء؟ هل ما زلنا قادرين على أنْ نمشي الطّريق إلى نهايتها؟ أمْ أنَّ النّهاية جاءت أسرع ممّا نظنّ!! جاءت هنا على شكل موتٍ لا يمكن الهروب منه . ماذا تظنّين يا فاطمة ؛ شاي أم قهوة؟

(٣٣)
أبحثُ عن الحقيقة يا بُني...
أبحثُ عن الإنسان!!

«لقد قُمنا بالتّحقيق مع زملائك الّذين شهدوا الحادثة، وقالوا كلامًا غير الّذي تقوله، جاء دور الحقيقة، فلا تُخبّئْ شيئًا، وقُلْ كلّ شيءٍ دون موارية». قال لي ذلك أبو قاسم وعناصره يضعون كأسًا كبيرةً من الشّاي تفوح منها رائحة النّعنع الطّازجة. تنحنحت. عدلْتُ من جلستي. كنتُ بالفِعل أريدُ أنْ أقول ما حدث معي دون موارية، ولكنْ من أين آتي بكلامٍ جديدٍ، إنّه ذات الكلام الّذي أعدته عشرات المرّات عليهم حتّى حَفِظتْهُ الجدران!!

تخيّلتُ حِوارًا يدور بيني وبينهم، لكنّني أنا الّذي أقوم بأدواره كلّها، حينَ صارت كلماته جاهزةً للخروج من الحلق، أجبتُه: «في المجمل ماذا فعلتُ؟ لقد قتلت. السّؤال الّذي يجب أنْ يُطرَح هنا: لماذا قتلت؟ الجواب: لأنّهم يهود. السّؤال: ولماذا تقتل اليهود؟ الجواب: لأنّهم عدوّ، وأنا عسكريّ، وكنتُ على الحدود، وعليّ أنْ أحمي حدود وطني، هم قاموا بتلويثه، فقتلتهم. هل هناك إجابةٌ أوضح من هذه. ستقول لي: ولماذا تقتلهم وبيننا معاهدةُ سلام وهؤلاء جاؤوا سائحين؟ الجواب الّذي عندي: أنا لا أعترف بعمليّة السّلام، هذه مشكلتي، لا أُقرّ لهم بأنْ يطؤوا ذرّة ترابٍ واحدةٍ من ثرى الأردنّ فما بالك بفلسطين، وهي عندي أجلّ وأعظم. مشكلتي مع اليهود ليس

لها حلٌ، لا أمس ولا اليوم ولا غدًا، مشكلتي معهم تنتهي في حالةٍ واحدةٍ أنْ أقتلعهم من وطني بالرّصاص، أو يرحلوا هم بكلّ مُقدّراتهم إلى أيّ مكان، وليكن الجحيم مثلاً، فقد خُلقوا له. ثُمّ هؤلاء ليسوا سائحين، هؤلاء مجنّدات في مدرسة عسكريّة. أظنّ لو أنّ الأمر كان بالعكس، لقُمنَ جميعًا بتصفيتي، ولأفرغتْ كلّ واحدةٍ منهنّ خزّانًا كاملاً من الرّصاص في جسدي. أظنّ أنّهم يتفهّمون هذه المسألة أكثر منكم. ظلّتْ قضيّة أنّني مدفوع من جهة خارجيّة؛ لقد أجبتكم عن ذلك أكثر من مرّة، وأنا هنا أتحدّى أنْ تكونوا أثبتّم أنّني دُفعتُ من جهةٍ أو منظّمةٍ خارجيّةٍ من خلال تحقيقكم مع زملائي. أظنّ أنّ الأمر باتَ لا يحتاج إلى أسئلة وتحقيقاتٍ أُخرى، ألا تعتقدون معي بذلك؟!». وأرحتُ يديّ كأنّني كنتُ أحملُ حملاً ثقيلاً وتخلّصتُ منه. ونفثتُ نفثةً طويلةً من صدري، كاد حرّها يحرق شفتيّ. مطّ أبو قاسم شفتَيه، شعرَ بأنّ مشروع فيديو أساليب التّعذيب لم يُؤتِ ثِماره كما يشتهي، فخبط بيده على المكتب مُغضبًا، وهتف بصوتٍ يرشحُ بالأسف والتّهديد معًا: «الظّاهر أنّه لا ينفع معك هذا الأسلوب»

وشعرتُ بثقل الكلمات، فسألتُه وفي صوتي بَحّة اليأس: «ما الّذي تُريدُونه بالضّبط منّي؟ أنا مُعترفٌ بكامل رغبتي بأنّني قتلتُ فماذا تريدون أكثر من ذلك، لقد تعبتُ من الدّوران حول النّقطة نفسها، قلتُ كلّ شيءٍ عندي كلّ مرّةٍ بطريقةٍ مختلفة، ولم تُصدّقوني حتّى الآن، ماذا أفعل حتّى تُصدّقوني؟ هل أعترف على أشخاص ليس لهم ذنبٌ، وليس لهم أدنى علاقةٍ بالأمر؟ هل تريدون أنْ أورّط معي أناسًا أبرياء؟ هل ترتاحون إذا اعترفتُ على نصفِ زملائي وقادتي بأنّهم هم الّذين دفعوني إلى ذلك؟ هل تريدون أنْ أقول إنّ الأحزاب خلف

ذلك؟ما أسهل أنْ أورّط النّاس معي ، ولكنْ أينَ أذهبُ من نفسي حين أخلو بنفسي؟ أين أذهب من الحقيقة وهي تهوي على رأسي بمطرقةٍ من حديد حين أكون وحدي؟ هل هذا يُعجبكم؟ أنْ أجلبَ إلى البلوى مَنْ ليس له في الأمر ناقةٌ ولا جملٌ . إنّه لسهلٌ إذا كان يُريحكم ، لكنّه ليسَ الحقيقة . . . ليس الحقيقة . . .» . صرخ (أبو سليم) : «أنتَ تكذب كما تتحدّث ، لم أرَ ممثّلاً يُتقن الدّور في كلّ الّذين حقّقتُ معهم مثلك . لي معك أسلوبٌ آخَر» . أجبتُه وقد هدأتْ ثائرتي ، مثل مَنْ يستسلم للأمر ، ولا يعودُ أيّ شيءٍ يعنيه : «اكتبوا الإفادة الّتي تُعجِبكم وأنا سأوقّع عليها إذا كان ذلك يُنهي الأمر ، ويُريحكم .
اكتبوا أيّ شيءٍ ، سأوقّع عليه ، هل هذا العَرض يُسعِدكم . . . وإذا شئتم سأوقّع لكم على بياض ، وسوّدوا الصّفحة بما تشاؤون من اعترافات» كنتُ قد وصلتُ إلى حافّة الانهيار ، لم يكنْ من شيءٍ ليقيَني من السّقوط . ظلّوا يحفرون رأسي اللّيل كلّه ، لم يتركوني لحظةً ، استمرّ التّحقيق حتّى الفجر ، وواجهني بالأسئلة في تلك الليلة أكثر من عشرة مُحقّقين ، منهم مَنْ عرفتُ ومنهم مَنْ لم أعرف ، وكانتْ ليلةً من العذاب النّفسيّ لا يعلم بها إلاّ الله

من بعيد ، وشفيفًا كأنّه قادمٌ من الجنّة ، وعَذْبًا كماءٍ يتهادى في جَرَيانه ، وحزينًا كنبيّ ، تعالَى النّداء الخالد : «الله أكبر» من مآذن أحد المساجد في الخارج ، كان هذا النّداء شفاءً لما في الرّوح من ضنك ، ولما في القلب من أسى ، لكأنّه مسح على جروحي ، وأعاد إليّ ذاتي الّتي شعرتُ أنّها تبعثرت ومُزّقت إلى أشلاء بين يدي المُحقّقين . لقد رفعني النّداء الصّافي في هدوء اللّيل من وهدة اليأس ، ليقول لي : «من الظّلام يأتي الفجر ، ومن الضّيق ينبثق الفرج» . سمحوا لي بالتّوضّؤ والصّلاة .

وبعد أنْ صلَيت ، نعستُ ، وغفوتُ للحظات ، لكأنّني رأيتُ المُحقّقين العشرة يقفون في صَفّ مُنتظَم كما لو كانوا يصطفّون لإعدامهم بإطلاق الرّصاص على رؤوسهم من الخلف ، سمعتهم يقولون بصوتٍ واحد : «اذهبْ وفكّرْ ، فما زالتْ لديكَ فرصةٌ للتّفكير» . سحبوني من هناك إلى الزّنزانة ، كانتْ خالية ، قد أُفرغت من الفرشة والبطّانيّات والمخدّة ، فرميتُ نفسي على الأرض ، ونمتُ على البلاط ، لم يكنْ قاسِيًا ولا بارِدًا كما كنتُ أتخيّل ، بل إنّه كان ليّنًا كفراشٍ من الرّيش ، وناعمًا كالحرير ، وحينَ وضعتُ يدي تحت رأسي ، أحسستُ أنّ يدي تحولت إلى مخدّة طريّة يغوصُ فيها رأسي بالنّعيم . . . نمتُ حتّى شروق الشّمس ، كأنّني نمتُ اللّيل بطوله في أفخر الفنادق ، لقد عرّفني الله في تلك اللّيلة معنًى جديدًا للنّعمة لم أكنْ أعرفْه من قبل ، إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء

أخرجوني في العاشرة تقريبًا ، إنّه اليوم الخامس ، إلى مكتبٍ جديد ، رأيتُ فيه الطّبيبَين النّفسيَّين بانتظاري ، العقيد والرّائد . بعد أنْ جلستُ رأيتُ وجه الرّائد مخطوفًا ، كان يبدو حزينًا جِدًا ، لكنّني لم أعر عينَيه انتباهًا طويلاً ، سألتهما : «لماذا أنتما هنا ، ألم تكتبا تقريركما وانتهى الأمر» . رفع الرّائد وجهه ، وقال : «أترى هذه الصّور؟» كانتْ - فيما يبدو - صورًا للقتيلات . قلتُ له بدون أدنى تأثّر : «وماذا تقصد من وراء عَرْضِ هذه الصّور عليّ؟ لقد قتلتهنّ وكفى» . قال لي وقد بدا أنّ دمعةً تترقرق في عينَيه تحاول أنْ تجدَ لها طريقًا إلى خدّه : «هل تعلم أنْ خمسًا من هؤلاء القتيلات هنّ عربيّات ولسْنَ يهوديّات» . نزل الخبر عليّ كالصّاعقة ، شعرتُ أنّ نارًا اشتعلتْ في رأسي ، وبدأتُ أهرشُ رأسي ، سألتُه وقد بدأ جسدي يرجف : «وهل أنتَ متأكّد؟»

فأجابني : «نعم ، وهذه أسماء العربيّات الخمس» ، وأشار إلى القتيلات وقد كُتِبَ تحتهنّ أسماءَهنّ بالعربيّة ، قرّب الصّورة منّي لأتأكّد من قراءة الأسماء ، وكانت هذه هي الصّاعقة الثّانية ، قرأتُ اسم الأولى فاطمة البتول ، والثّانية : نور ، والثّالثة : ميسون . . . غامتْ بي الأرض ، وصفعني الصّوت الّذي وجدتُ نفسي عاريًا أمامه «لقد قتلتَ عربيّات مُسلمات . . وليس يهوديّات كما كنتَ تظنّ . . أتدري ما أسماؤهنّ ، إنّها أسماء تُشبه عائلتك الحبيبة ، فاطمة ، وبتول ، ونور ، . . . والآن لقد جرّبت شعور أنْ تفقد عزيزًا على قلبك ، أولمْ تُفكّر بشعور أهلهنّ ، أليس لهؤلاء المسلمات العربيّات آباء وأمّهات ، أليس لهنّ أقارب . . . إنّ بطولتك صارتْ في مهبّ الرّيح ، إنّها تتضاءل وتتضاءل حتّى تُصبح كحصاةٍ صغيرة تقذفها الرّيح إلى عينَين فتفقأهما . . .» . لم أعدْ أحتملْ أكثر ، لقد ذهبَ كلّ شيءٍ سُدًى ، ها هي البطولة تتحوّل إلى جريمة ، وها هي الأحلام تحترق في لحظة ، وها أنتَ أمام نفسك الآثمة ، كيفَ سيهدأ لك بالٌ بعدَ اليوم ، وكيفَ ستمرّ لحظةٌ عليكَ دون أنْ تطعنَ نفسكَ بسكّين الألم . . . وجثوتُ على ركبتيّ ، كمن لم يعدْ قادِرًا على حَمْل آلاف الأطنان على كاهلَيه . وارتختْ يداي . . . ورميتُ رأسي على صدري ، كانت الدّموع من أوّل الجثوّ قد وجدتْ طريقها ، وصارتْ تسيل ، ثُمّ انفجرتُ بالبُكاء . . . لقد قتلتُ عربيّات ، لقد قتلتُ مسلمات ، لقد قتلتُ بناتٍ أسماؤهنّ تُشبه أسماء أحبّ النّاس إليّ ، أقربهم إلى قلبي . . . يا لخَسارتك يا أحمد . . يا لَشُؤم ذلك اليوم الّذي قرّرتَ فيه أنْ تستلّ البُندقيّة وتصوّبها إلى هؤلاء المسكينات . . . واحسرتاه . . . ولم أستطعْ أنْ أمنع نفسي من البكاء ، واستمررتُ بالبكاء الّذي تحوّل إلى نشيج ،

ثُم إلى عـويل ، ثمّ إلى انهِيـارٍ تامّ . . . ثُمّ رحتُ أطلبُ من الله لهنّ الرّحمة ، وأصرخ : لم يكنْ قصدي . . . لم يكنْ قصدي . . . أنا أردتُ أنْ أقتل يهودًا لا عربًا . . والله لم يكنْ قصدي . . . وسقطتُ مثل عجلٍ يخور ، ولم أعدْ قادِرًا على رؤية شيء

سحبوني إلى الزّنزانة ، ظللتُ فاقِدًا للوعي أكثر من سبع ساعاتٍ ، لم يفعلوا خلالها شيئًا ، كنتُ مرميًا على بلاط الزّنزانة ككيس نُفايات ، سكبوا عليّ دلوًا كبيرًا من الماء بعدها ، فصحوتُ كالمجنون ، كان اللّيل قد بدأ يزحف على الأرض ، ظللتُ أكثر من ربع ساعة حتّى استوعبتُ أينَ أنا ، وما الّذي حدث معي . كان المغرب يطوي الأرض من جهة الغرب ليُعلِن عن نفسه ، وقبل أنْ يفعل ذلك أخذوني إلى مكتب المُحقّقين من جديد ، كانتْ آثار الصّدمة ما زالتْ ماثلةً على وجهي ، وجهٌ شاحبٌ مسّتْه حرقة الدّموع فزادتْه شحوبًا ، وعينانى مُنتفختان لكثرةِ ما نزفَتا من الدّموع ، وآثار تخميشات على وجهي ، لا أدري إنْ كانت في حالة ذهولي أم لا ، لكنّني أعملتُ فيما يبدو أظافري في وجهي كثيرًا أثناء تلك الصّدمة .

في المكتب ، بدأ المُحقّقون ثقيلو الدّم ، بالأسئلة من جديد ، سألوني عن أسماء شيوخ يسكنون الأغوار ، وكانوا يريدون معرفة ما إذا كانتْ لي بهم صِلة . وفي الحقيقة مع احترامي لمقام هؤلاء الشّيوخ فإنّني بالفعل لم أكنْ أعرف أحدًا منهم . لعلّ هذا السّؤال كان بداية الاقتِناع بأنّ ما قمتُ به كان عملاً فرديًا ، قام به أحد العساكر المُنتسبين إلى الجيش . ذلك أنّهم ربّما سألوا هذا السّؤال ذاته للشّيوخ فقالوا : «إنّنا لم نسمع به من قبلُ أبدًا ، ولم نعرفْ قبل العمليّة أحدًا بهذا الاسم» . وهذا يريحني ويُريحهم ، إذْ إنّه لا يُحمّل أيّ أحدٍ سواي

مسؤوليّة العمل الّذي قُمتُ به كان أمر القتيلات العربيّات الخمس ما زال يطنّ في رأسي ، كان لا يزال قادرًا على هزّي ، وتشويشي ، وجعل معنى حياتي تافهًا ، لكنّ صوتًا آخر كان يصعد رويدًا رويدًا قادمًا من الأعماق يقول لي : «وهل صدّقتهم أيّها السّاذج؟!»

سألوني عن أخي الأكبر (باسم) الّذي عمل خيّاطًا في العسكريّة ، وعن أخي عبد الله ، كان أخي باسم هو نُقطة ضعفي ، الأخ الأكبر والأحنّ والأحبّ إليّ . ما زلْنا في العائلة نُكنّ له ذلك الحُبّ لأنّه عانى في طفولته من مرض جعله لا يستطيع السّير بشكلٍ طبيعيّ ، وظلّ مظلّتنا حين تنكشف تلك المِظلّة بغياب أبي ، مَنْ قال لك إنّك الأخ الأكبر هو أبٌ فصدّقْه ، إنّه يظلّ طائرًا مُهاجِرًا ، نتبعه نحن الصّغار لنعرف مساقط الماء ومنابت الزّرع ، ولنسكنَ إليه ، يومَ نحتاج إلى قلبٍ دافئٍ يحمينا من الصّقيع .

قال لي أبو قاسم ، الّذي جرّب عددًا من الطّرق المُختلفة لأُغيّر إفادتي لا يُمكن حصْرُها : «إذا لم تقلْ لنا الحقيقة ، فإنّني سأوصي بطرد أخيك باسم من الوظيفة ، ثُمّ اعتقاله واعتقال أخيك عبد الله بتهمة مُساندتهما لك في العمليّة ، وبالمُقابِل فإنّني سأعرضُ عليكَ عرضًا مُغرِيًا لا يمكن أنْ يخطر ببال أحدٍ لو أنّكَ قلتَ لنا الحقيقة . .»

ثُمّ صمت . كانت الحقيقة الّتي يبحثُ عنها أبو قاسم مثل الحقيقة الّتي يبحث عنها ديوجين الحكيم ، يحمل لها مِصباحًا في الطّرقات في وَضَح النّهار ، فإذا سأله أحد المارّة : «ماذا تفعل أيّها الحكيم؟ لِمَ تحمل مِصباحًا ونحن في وَضَح النهار؟!» . فيُجيبه «أنا أبحث عن الحقيقة يا بُني . . أبحثُ عن الإنسان» . ومات ديوجين الّذي كان يعيشُ في برميل دون أنْ يعرف الحقيقة ، ولا أنْ يعرفَ الإنسان ، ولكنْ هل كان

ديوجين يرى ما لا نراه! فمن أجل ذلك كان يحمل مصباح البحث عن الحقيقة . أخشى ما أخشاه يا أبا قاسم أنْ تموت مثل ديوجين دون أنْ تجد الحقيقة . . . أيقظني من هَذَياني هذا صوتُه الخَشِن : «ماذا قلتَ بشأنِ العرض أيّها العسكريّ؟» . نفضتُ رأسي لأسقِطَ منه آخَر ما تبقّى من نثارة الخيال الّذي ذهب بي إلى ديوجين ، وسألته : «أيّ عرضٍ تقصد؟» . فتنحنح وغيّر جلسته ، واستعدّ للعَرض التّاريخيّ الّذي لا يُفوّت : «العرض يقول إنّه إذا أخبرْتنا بالحقيقة . . .» وضحكتُ من أعماقي . . . حقًا تخيّلتُ ديوجين يطوف في شوارع وسط البلد القديمة وهو يُساعد أبا قاسم في البحث عن الحقيقة

فسألني المُحقّق - وقد قاطعتْ ضِحكتي عَرْضَه - باستهجان : «ولماذا تضحك؟» . أجبتُه وأنا أشير له بيدي ليُكمل حديثه «لا شيء . . . لا شيء يا عزيزي . . . فقط أكملْ من فضلك» . ولا أدري إنْ كانت هذه الكلمات الطّريّة الضّاحكة السّاخرة خرجتْ منّي لأبي قاسم أمْ لديوجين الحكيم . وتابع هو كلامه : «كنتُ أقول إذا أخبرتَنا بالحقيقة فستحظَى بمحاكمة صُوريّة أشبه بالمسرحيّة وستخرج من السّجن خلال مُدّة بسيطة ، وسآمُر بصرف راتبٍ شهريّ لكَ يُقدّر بأكثر من ألفِ دينار . . .» . تراقصت المئة والثّمانية والخمسون دينارًا أمام ناظِريّ الّتي كانتْ هي كلّ راتبي بعد حوالي عشر سنوات من الخدمة ، وتناثرتْ مثل أحجارٍ صغيرةٍ أمام الصّخرة الكبيرة ذات الألف دينار . . . هل كانوا يريدونَ تعييني وزيرًا مثلاً ، أو مستشارًا في الدّيوان حتّى آخذ مثل هذا الرّاتب الضّخم؟! وغفلتُ عن باقي العرض ، فطلبتُ منه أنْ يُعيده ، فسمعتُ الألف دينار مرّة ثانية وتخيّلتُها حوتًا كبيرًا تأكل بلقمة واحدة السّمكة الصّغيرة الّتي كنتُ أفرح بها في آخر كلّ شهر .

وسمعتُه يقول أيضًا وهو يُتابع فِقرات عَرْضِه : «وسنبني لكَ بيتًا» . وهذا البيت الّذي في إبدر ، إنّه بيتٌ صغيرٌ ضيّقٌ مُتهالك ، نحن نبني للّذين نحبّهم بيوتًا أرحبَ من قلوبنا ، وتراجعت البيوت الطّينيّة ، وراحتْ تختفي أمام ناظِرَيّ في الأفق البعيد كأنّها نِقاطٌ سوداءُ صغيرةٌ تذوب في المحيط ، وبدتْ مكانها بيوتٌ حجريّة بيضاء ، تشمخُ في السّماء ، وتتّسع أمامها الحدائق ذات الجمال الطّاغي . . . ثُمّ سمعتُه يقول : «وسنشتري لك سيّارة» كان هذا حلم فاطمة أكثر مِمّا هو حلمي ، تقول ، وهي تضع يدها على كتفي ، وتُسند رأسَها فوقهما : «لو أنّنا نملك سيّارة لاستطعنا أنْ نزور أهلي في أمّ قيس في الأسبوع مرّة . . . إنّني أشتاق إليهم كثيرًا ، وسيكونُ بإمكاننا أنْ نلفّ الأردنّ من شماله إلى جنوبه ، وسنشتري ما لذّ وطاب من الطّعام ، ونتمتّع بمناظر البلد السّاحرة ونحن نعبر جِباله وصحاريه وسهوله ووديانه ، وسيكون بإمكاننا في إجازتك أنْ نسهر ولو ليلةً واحدةً على قِمّة من قمم رم الأقرب إلى النّجوم الّتي لا يراها سِوانا ، وإلى الله ، وسنُسمّي بعضَها بأسمائنا ، هاتان نجمتان دائمتا التّرافق والالتِصاق ، إذا ظهرتْ واحدة ظهرت الثّانية ، وإنْ غابتْ غابتْ ، وإنْ ضحكتْ ضحكتْ معها ، سنُسمّيهما : أحمد وفاطمة . . . ثُمّ يُعجبنا الاسم ، وحينَ نعود إلى إبدر ، نرى النّجمتَين في إحدى ليالي الصّيف الوادعة ، فنقول : ها هما ؛ لقد طلعتا معًا ، إنّنا حقًا نستحقّهما ، نستحقّ أنْ نعيش مثلهما إلى آخر العمر ، بل إلى أنْ يفنى الكون : فاطمة وأحمد . . ثُمّ تضحك من كلّ قلبها . . وأضحك أنا . . . وأستفيق من هُيامي على صوته الخَشِن : «لماذا تضحك ثانيةً ، ألم يُعجِبْك العرض؟» . أنفض رأسي ، ما أوسع خيالي ، أحدّث نفسي : «ستُهلكني هذه الخيالات

الّتي لا حَدّ لها» . أسأله بعد أنْ أستعيد بعضًا من الواقعيّة : «لخَص لي العرض مرّة أخرى» . فيقول وهو يتأفّف : «إذا قلتَ لنا من وراءَك فستخرجُ من السّجن سريعًا ، وسنصرف لكَ راتِبًا مقداره ألف دينار ، وسنبني لك بيتًا فارهًا ، ونشتري لك سيّارةً حديثةً ، هل هذا واضح؟! هذا هو العَرض» . ثُمّ تظهر لي فاطمة من جديد ، كانتْ عيناها تقولان لي «حُبًا بي لا تتخلّ عنّي» . فهمتُ كلّ شيءٍ يا فاطمة ، أين أذهبُ من عينَيك السّاحرتَين ، لن أساومَ عليهما ، ولن أقبلَ بسواهما وطنًا أصرخُ كمن فقد صوته لزمنٍ طويلٍ ثُمّ استعادَه فجأة بعد انحِباس : «وأنا رفضتُ» . فيهتف متوعّدًا ، وهو يُمسّد على لحيته ، ويأمر عساكره مُزبِدًا : «خُذوه إلى غرفة الضّيوف»

(٣٤)
المُنتصِر يَفرضُ شُروطَه

لقد كان يُشاهد كلّ هذا ، كان يستمتع ، وكان يتشفّى ، لقد أراد أنْ يُتابع الأمر بنفسه لأنّ الوحش الّذي يوجد فِي داخل كلّ واحدٍ منّا ويظلّ كامنًا حتّى تأتي لحظة خروجه ، استيقظ في نفسه آنئذٍ فطلَبَ من البغل أنْ تكون الضّيافة على الأصول . نزلتْ عليّ كلّ أنواع الألم ، للوحوش قلوبٌ أرقّ من قلوب البشر أحيانًا . نحن لا نولَد بهذه الوحشيّة مُطلَقًا ، لا بُدّ أنّ تربيتَنا هي الّتي جعلتْنا نبدو على هذا الوجه الكريه البغيض الّذي لا يَمَتُّ إلى الإنسانيّة بِصلة ، إذا كان الكُره ينغرس في قلوب هؤلاء بهذه الصّورة المُرعبة ؛ ألا يُمكن أنْ ينغرس الحُبّ في ذات القلوب؟! ألا يُمكن أنْ نعلّم النّاس الحبّ بدل الكُره ، ألا يُمكن أنْ نغرس في قلوبهم الوردَ بدل الشّوك؟! لو بحثتَ أعمقَ في قلبك ستجدني هناك ، أتعرفُ لماذا؟ لأنّني أنا أخوك ، لأنّني لا أحمل لكَ أيّ نوعٍ من العداوة ، أنتَ لم تحتلّ أرضي ، ولم تسرق قمحي ، ولم تركب ظهري ، أنتَ أخي ، وهناك في المهوى البعيد من القلب ، في السّويداء بالضّبط ؛ ستجدني!! لكنْ افتح نافذة قلبك ليدخل إليه النّور ، علّمْ صغاركَ أنْ يُحبّوا مَنْ لم تمتدّ إليهم يدٌ بالأذى ، هكذا نبني الوطن ، وهكذا نعيشُ في أمانٍ ، وهكذا تظلّ الشّمس تُشرقُ كلّ صباح

هَوَيْتُ على الأرضِ مغشيًا عليّ من شدّة التّعذيب ، لقد جرّبوا كلّ شيءٍ ، كان صياحي من شدّة الألم لا يستمرّ طويلاً ، ربّما نصف

ساعة وبعدها أفقد كلّ شيءٍ ، وكان هو يرى ذلك ، ولم يُحرّكْ ساكنًا ، بل كان يُساعد في صبّ الزّيت على النّار . على الأرض كنتُ مرتخيًا مثل ممسحة ، مثل شريطة لو ركلْتَها برجلك فتتثنّى وتتحرّك بضعة سنتيمترات ، لا حياةَ فِيّ ، لا وعي ، ولستُ أنا ، كنتُ قد غادرتُ هذا المكان منذ فترةٍ ، وسافرتُ بعيدًا في اللاّوعي الّذي كم تمنّيتُ أنْ أتذكّر من رحلتي إليه شيئًا بعد عودتي ، لكنّ الغياب كان يُنكرني في الحضور

رشقوا عليّ ماءً باردًا لأصحو ، ثبّتوا يدَيّ على المكتب ، وأحضروا كمّاشَة ، كانت الكمّاشة تستعدّ لالتِهام أظافري . قرّبوها من ظفر الإبهام . قال لي أبو قاسمٍ : «تقول الحقيقة أم نخلعه؟!» . تحطّم مصباح ديوجين فجأة ، لم يعد يرى في وَضَح النّهار شيئًا . أجبتُه : «قلتُ كلّ شيءٍ . افعلوا ما شئتم . كَسّروا يدَيّ . أنا لن أُقاوم» . ردّ أبو قاسم : «يبدو أنّكَ غير مُقتنع بأنّنا سنقوم بخلع أظافرك ، هل تعتقد أنّنا نمزح!!» . خار كثورٍ يُعالج الرّوح قبل أنْ تصعَد ، وزفر مثل نارٍ مُلتهبة ، واقترب منّي ، ووضع الكمّاشة على ظفر إبهام يدي اليُمنى ، وأدخلَ فكّيها الحديديّين المُدبّبَين تحت الظّفر بصعوبة ، وأنا أكزّ على أسناني من الألم ، ثُمّ شدّ عليهما ، فندّتْ منّي صرخةٌ عالية ، كانت الصّرخة قد حفّزته أكثر على ما يبدو ليستمرّ ، أدار الكمّاشة بحركةٍ سريعةٍ يمينًا ويسارًا ، فأحسستُ أنّ شَعر رأسي قد احترق ، حتّى إنّني شممتُ رائحة الحريق وشُواظه ، وضغطَ أكثر إلى الخلف ليُتمّ خلْعه ، فضغطتُ على أسناني لأمنع مزيدًا من الصّراخ أنْ يملأ الغرفة ، ورشحَ وجهي وجسدي عرقًا ، وصار العرق يتصبّب من رأسي كأنّه تحت نافورةٍ من الماء السّاخن ، كان الظّفر ينسحب إلى الخارج ببطءٍ ، وكان كلّ ملّيمتر

منه لا يتخلّى عن جَذرِه إلاّ بألم فظيع . قاوم الظّفر كثيرًا قبل أنْ يستسلم ، نزّ قليلٌ من الدّم على جانبَي الظّفر في خيطَين رفيعَين ، وازرقّ لونُه ، ورحتُ أضغطُ على أسناني ، وأكتمُ أنفاسي حتّى كدتُ أنفجر ، شدّ أبو قاسم أكثر إلى الخارج ، وفي اللّحظة الّتي كان ينخلع فيها الظّفر مع الكمّاشة كنتُ أنا أسقطُ في غيبوبةٍ جديدة .

لم أستيقظ إلاّ برَشْقِ الماء . لقد أسرفوا في الماء ، رشقوني بعشرات الدّلاء حتّى الآن ، ثُم يأتي مَنْ يقول لك إنّنا دولةٌ شحيحةٌ بالماء ، إنْ كان الأمر كذلك فمن أين جئتم بكلّ هذا الماء الّذي رشقتموني به؟! على أيّة حالٍ هو خيرٌ منكم ، كنتم من قبله تبعثون بي من الحياة إلى الموت ، وكان هو يُرجعني من الموت إلى الحياة . صحوتُ وآثار الألم ما زالتْ باقية ، ومنظر اللّحم تحت ظفري كان بَشِعًا ، أدرتُ رأسي بعيدًا وأنا أراه ، قيّدوني من جديد ، وقذفوني في الزّنزانة العارية . ارتميتُ على البلاط ونمتُ من شدّة الألم والإرهاق إلى ظُهر اليوم الثّاني

حينَ صحوتُ ، رأيتُني قد تغيّرت . لستُني . والعالَم الّذي يجري في الخارج غير العالَم . شيءٌ ما يقول إنّ الطّريق قد وصلتْ إلى نهاية مسدودة . سوف تصطدم بالحائط الحديديّ السّميك . وما من عودة . والذّئاب على جانبي الطّريق تنتظر لحظةَ انهيارك من أجل أنْ تنقضّ عليكَ فتأكل لحمك . إنّها فقط تنتظر لحظة الضّعف الفاصلة بين حياتك والموت ، وها هي تبدو وشيكةً جدًا . ناديتُ بصوتٍ مبحوح أشبه بعواء كلبٍ جريح : «أين أنتم . . . يا هوه . . . يا هيه .» . أطلّ عليّ من الطّاقة وجهٌ عسكريٌّ يُشبه الموت الّذي وُعِدْنا به ، صرخ بي بقرف : «ماذا تريد؟» . أجبتُه : «أريدُ أنْ أعترف . . . نادوا لي (أبو سليم) أريدُ أنْ أعترف»

هرول أبو سليم إليّ ، حدثَ استنفار في الشّعبة كلّها . بدا أنّ الكلبَ أخيرًا سيعترف ، يبدو أنّ صبره نفد ، وأنّ نفوره من العَظْمة قد زال ، وأنّ ما كان مُستحيلاً أصبحَ ممكنًا . فُتحَ باب الزّنزانة ، فبدا أبو سليم في الباب مثل أبي الهول ، قلتُ له : «فكّ قيودي ، سأعترف» قال لي بفوقيّة : «بل اعترفْ وأنتَ مُقيّد» ؛ المُنتصر يَفرضُ شُروطَه . فقلتُ له ما كان ينتظره ، حدّثتُه عن طفولتي ومقتل امرأة عمّي ، وقسمي على أنْ أثأر لها ، قلتُ له إنّني كنتُ أنوي أنْ آخذ بثاري لها من رئيس وزراء العدوّ يوم الاحتفال على معبر وادي عربة ، لكنّكم استثنيتموني من تشكيلة الحِراسة في آخر لحظة . أخبرته عن عمليّة السّلام وأثرها القاتل عليّ ، أخبرتُه عن تأثّري بقصف مُفاعل تمّوز النّووي العراقيّ ، وعن انهياري لِما رأيتُه من صور الضّحايا في صبرا وشاتيلا ، أخبرتُه أنّني كنتُ أخطّط لهذه اللّحظة ، ثانيةً بثانية منذ أكثر من خمس سنين ، وأنّني عملتُ على أنْ ينتهي بي الأمر إلى منطقة الباقورة بأيّ وسيلةٍ لأنّها مسرحُ العمليّة الّتي نويتُ أنْ أفعلها . لم يحدث أيّ شيءٍ بالصّدفة ، لقد كنتُ أعي ما أقوم به ، كان كلّه عن تخطيط ، وكان عقلي يعمل في الاتّجاهات الأربعة . الصُّدَف لا يُعوّل عليها إلاّ الفاشلون ، أنا أعرفُ ما كنتُ أقوم به . وها أنا فافعلوا بي ما شِئتم . ردّ أبو سليم وقد بدا الارتِياح يغمر وجهه «أتعرف أنّ حكومة الكباريتي قد استقالتْ بسبب عمليّتك؟» . فأجبتُه : «من الطّبيعيّ أنْ تنتحر لا أنْ تستقيل فحسبُ ، إنّها حكومة تطبيع ، والتّطبيع في عُرفي خِيانة» . فسألني مُتجاهلاً تعليقي على استقالة الحُكومة : «ومن أين استطعتَ أنْ تحصل على التّقارير الّتي تُفيد بأنّك تُعاني من مرض نفسيّ . مَنْ هو الطّبيب الّذي وقّع لكَ عليها؟!» . خِفتُ أنْ يُعاقَب هذا

الطَّبيب، فأجبتُه لكي أحميه، وأحمي بعضَ أصدقائي من الأطبّاء: «أنا بالفِعل أعاني من مرضٍ نفسيّ. ألم تُثبِتوا ذلك خلال فترة التّحقيقات هذه؟!»

كان اثنان مُوكَلان بكتابة الإفادة، وكانا مُنهمكَين في تدوين كلّ حرفٍ أتلفّظ به، وكان أبو سليم يسألهم بين فترةٍ وأخرى: «هلْ سجّلْتُم كلّ شيءٍ؟». وكان أحيانًا يجعلني أُعيد بعض العبارات ليتمكّنوا من تدوينها. استمرّ ذلك أكثر من ساعتَين، ثُمّ طلبوا منّي التّوقيع على الإفادة، طلبتُ أنْ أقرأ ما كتبوا فرفضوا، وقّعتُ على إفادتي من دون أنْ أقرأها، وسألني أبو سليم إنْ كنتُ أريدُ توكيلَ مُحامٍ في قضيّتي فرفضتُ لأنّني لا أملك فلسًا واحِدًا. كان وضعي المادّيّ صعبًا، وكذلك وضع أهلي

لم أكنْ حتّى تلك اللّحظة أعلم ما يحدث في الخارج، موقف أهلي والنّاس، والنّقابات، وأصحاب الرّأي، والإعلام ماذا يقول، كنتُ متشوّقًا أنْ أعرف كيف يرسمُ العالَم الخارجيّ صورتَه عنّي، هل يعتبرني بطلاً أم مُجرِمًا؟ هل ينظر إليّ كقدّيسٍ أم كإبليس؟ وإذا كان النّاس قد انقسموا فِيّ إلى فريقَين، فَمَنْ مِنَ الفريقَين يراني بطلاً، ومَنْ منهما يراني مُجرِمًا؟ ومَنْ منهما يعدّني قدّيسًا، ومَنْ منهما يعدّني إبليسًا؟ كانت هذه الأسئلة تؤرّقني بالفعل، وكنُت كذلك ما أزال مثقوبَ الفؤاد من المعلومة الّتي عرضها عليّ الطّبيبُ النّفسيّ من أنّ خمسًا من القتيلات كُنّ عربيّات من عرب الـ ٤٨,

لا أدري كيف مرّ اللّيل، نمتُ وخيول الحزن تتسابق في ذاكرتي، وفي الصّباح نقلوني إلى دائرة المُخابرات العامّة. وأدخلوني أوّل وصولي على رجلٍ أجنبيّ. عرفتُه من ملامحه، ملامحه لا تنتمي إلينا

ولِسانه كان ثقيلاً مثل لِسان السّكران ، وحروفه مقطوشة كأنّما قصّ أحدُهم آخرها بِمقصّ . كانت الغرفة أشبه بعيادة . طلبَ منّي أنْ أخلع ثيابي . أجلتُ النّظر في الغرفة لأرى إنّ كانتْ هناك قيود وسوط (وجوال) ملح ودلو ماء فلم أرَ شيئًا من ذلك فارتحت . ركّب الأجنبيّ الّذي بدا طبيبًا على جسدي بعض القِطع الّتي تُشبه القطع المعدنيّة الموصولة بأسلاك إلى جهاز إلكترونيّ ، كان الجهاز يُطلق زمرة بين الفينة والأخرى كانت الأسلاكُ مع القطع الدّائريّة قد غطّتْ صدري . وضع بعض الملاقط الموصولة بأسلاك كهربائيّة على إصبعَي الشّاهد والبِنصر ، كنتُ أنظر إليه مُنهمِكًا في عمله وأحسّ أنّني في كوكب آخر ، كما لو كنتُ رائد فضاء يريد أنْ ينطلقَ بعيدًا عن الأرض ، للحظة تمنّيتُ أنْ يحدث ذلك ، كنتُ أريد أنْ أنفصل عن البشر ، أنْ أذهبَ بعيدًا عن الأرض الّتي يتقاسَمون العيشَ فوقَها . تابع الأجنبيّ مهمّته بكلّ إخلاص ؛ وضع موصلاً كهربائيًا كبيرًا على القلب ، ولفّ حزامًا على وسطي ، وعلى عضدي لفّ شريطًا يُشبه شريط الضّغط ، إلاّ أنّه موصولٌ بأسلاك إلى الجهاز الإلكترونيّ . آنئذ قال الأجنبيّ : «نحن جاهزون» كان هذا الجِهاز هو جهاز فَحص الكَذب . الملاعين لم يكتفوا بكلّ العذابات والتّحقيقات السّابقة ، لم يقتنعوا بإفاداتي كلّها ، إنّهم يريدون للعلم الحديث أنْ يُثبت صحّة أقوالي من كذبها . قال لي الأجنبيّ : «سأسألك عدّة أسئلة ، وستُجيب بواحدة من إجابتَين هما : نعم ، أو لا اتّفقْنا؟» . أجبتُه وقد أجلسني على كرسيّ : «اتّفقْنا أيّها الغريب» . سألني : «هل تنتمي إلى تنظيم سرّي؟» «لا» . زمّر الجهاز «هل تنتمي إلى أيّ جماعة إسلاميّة؟» . «لا» . زمّر الجهاز . «هل أحدٌ من ضُبّاط الجيْش أو الجنود قد كلّفكَ بهذه المهمّة أو ساعَدكَ فيها»

توقّفتُ قليلاً قبل أنْ أُجيب . شعرتُ بأنّ قلوب عشرات الضُّبّاط والجنود ترتجف في تلك اللّحظات ، كلّ واحدٍ منهم كان يُمكن أنْ ينتهي وجوده ومستقبَله بمجرّد الإجابة بثلاثة حروف ، كان طائر الرّهبة والتوجّس يقف على رؤوسهم فينقر منها ما يشاء وهم لا يحرّكون ساكنًا ، فقط كانوا ينتظرون إجابتي بكامل الرّهبة على السّؤال الأصعب . لكنّني أجبتُه بثقة وبإيمان : «لا» . فولّى الطّائر بعيدًا عن رؤوسهم ، وتنفّسوا الصّعداء بعد أنْ توقّفتْ تلك الأنفاس في صدورهم للحظات قصيرةٍ هي زمنٍ ما بين السّؤال والجواب ولكنّها بدتْ في عُرفِ شعورهم طويلة ، وطويلةً جِدًا . سألني : «هل أنتَ مدفوعٌ لهذا العمل من قِبَل جهاز مُخابَرات عربيّ أو أجنبيّ؟» . أجبتُه : «لا» . زمّر الجهاز لم أكنْ أفرّق بين زمرات الجهاز ، لكنّني أحسستُ أنّها مُتشابهة ، ولم أكنْ أعرفُ كلّ زمرةٍ ماذا تعني

أعادوني إلى شعبة الاستِخبارات . لأجد أبا سليم ومعه رجلٌ آخَر لا أعرف من هو بانتظاري ، قال لي أوّل ما رآني : «اجلس . هذا المحامي سيتولّى الدّفاع عنك أمام المحكمة . هل تريدُ توكيله؟!» أجبتُه «لا» فخرج المحامي . قال لي أبو سليم : «ولماذا لا تريد توكيل محام يتولّى الدّفاع عنك ، أنتَ بحاجةٍ إليه من الآن فصاعدًا ، ملفّ التّحقيق أُغلِق ، وسنبدأ بعرضك لمُحاكَمة» . أجبتُه «حالتي الماديّة لا تسمح» فضحك : «لا تخف . هذا المحامي لن يأخذ منك قرشًا واحِدًا ، المحكمة العسكريّة هي الّتي تطلب منه أنْ يترافع عنك» . ورفع الهاتف ، واتّصل بالمحامي الّذي عادَ بعد أنْ غادر في غضون ربع ساعة ، وقال لي : «أنا مُناضِلٌ مثلك ، أتظنّ أنّني سآخذ منك مليّمًا واحِدًا ، أنا من المُبعَدين من فلسطين ، وأريد أنْ آخذ وكالة الدّفاع عنك ، لأنّني مُقتنع بذلك .

لقد تمّ انتدابي من قِبَل نقابة المُحامين، ومن اتّحاد المُحامين العرب، ومن المُنظَّمة العربيّة لحقوق الإنسان من أجل الدّفاع عنك». فردَ طائر الاطمئنان جناحَيه قليلاً في أعماقي، حدّثتُ نفسي قائلاً: «إذًا قضيّتي في الخارَج تتفاعل، وكلّ هؤلاء تصدّوا لتوكيل هذا المُحامي من أجلي». فوقّعتُ له الوكالة، وكتبتُ فيها اسمي الرّباعي، ثُمّ قال لي: «لقد اطّلعتُ على إفادتك، في الحقيقة يجب أنْ تُغيّرها، وسنقول إنّها أُخذت منك تحت الضّغط والإكراه، إفادتك هذه لن تكون في صالحنا، أنا أخشى أنْ تُحكَم بالإعدام إذا لم تُغيّرْها». خِفتُ قليلاً، لكنّني شككتُ بالمحامي أكثر، ثُمّ راح يستعرضُ بطولاته، وتاريخه العريق في المُحاماة، والقضايا الصّعبة الّتي جلبَ لأصحابها البراءة أو عدم المسؤوليّة، واستطردَ في الحديث عن نفسه كثيرًا حتّى أحسستُ بأنّ قضيّتي هامشيّة، وأنّ ذاته هي الفلك الّذي يدور حوله الحديث، شيءٌ ما نقر راحتي وجعلني على قلقٍ منه. وخرج!! خرج دون أنْ يسألني عن أيّ شيءٍ يخصّ قضيّتي، لا عن ظروفها، ولا كيف حدثت العمليّة، ولا عن ملابساتها، خرج ولم يعدْ إلاّ بعد ما يقربُ من شهرَين!!

كان جِهاز فحص الكذب قد كذب عليهم، اعتقدوا ذلك لأنّه لم يُعطِهم النّتيجة الّتي يرجونها، حتّى الأجهزة الّتي ليس لها مشاعر وتُعطي النّتيجة دون محاباة لأنّه لا عقل لها سوى حساباتها الرّقميّة، اعتقدوا أنّها تواطأتْ معي ولم تقل الحقيقة. مرّتْ ثلاثةُ أيّام قبلَ أنْ يُعيدوني من جديد إلى دائرة المُخابرات ليقوموا بفحصي على هذا الجهاز ثانيةً، ويبدو أنّه أعطاهم النّتيجة نفسها، لكنّهم مع كلّ ذلك لم يقتنعوا!!

في أحد الأيّام الّتي بدأتْ تمرّ دون كثير من الانتباه لغزلانها الّتي تقفز مسارعةً إلى الأمام، قال لي الرائد الطّبيب النّفسيّ: «لا بُدّ أنْ نجري لكَ مزيدًا من الفحوصات». سألتُه «ما إذا كان مستشفى الطّبّ النّفسي الّذي يعمل فيه يريد أنْ يستخدمني كفأر تجارب، ويُجري عليّ أبحاثه ليواصل تقدّمه، فأنا سجينٌ ولا بُدّ أنّ الفرصة في استغلال السّجين من أجل إجراء الاختبارات عليه هي فرصةٌ ثمينة، ولا تتكرّر كثيرًا، فالسّجين لا حول له ولا قوّة، وليس له أنْ يعترض أو يرفض» لم يقل الطّبيب شيئًا، بل باشَر في عمله دون إبطاء، قال لي: «سآخذ منك عينةً من الدّم لأتأكّد من خُلُوّكَ من الأمراض». وسحبَ بالفعل عينة الدّم، لكنّني لاحظتُه يقوم بأشياء غريبة بعدَها، قال لي نَمْ هنا، ولم يكنْ هناك سرير، لا طبّي ولا سريرٌ عاديّ، كانتْ هناك فرشةٌ إسفنجيّة، وكان عند طرفها ماسورةٌ عاليةٌ مثبّتٌ فوقها كيس جلوكوز، تمدّدتُ على الفرشة كما طلبَ منّي، ثُمّ رأيته يغرز إبرة الجلوكوز في وريد يدي، وبعد أنْ غرز تلك الإبرة، رأيتُه يأتي بإسرنجة فيها محلولٌ أصفر، واستطعتُ أنْ أميّز عدد المليلترات الّتي تحويها الإسرنجة، لقد كانت حوالي ٤٠ مل، وهي كمّية كبيرةٌ، ثُمّ رأيتُه يُفرّغ كلّ ما في المحلول في الإبرة الّتي في الوريد لتنتشر في جسمي مُباشرةً. صمتَ جلس على كرسيّ قريبٍ منّي، ويداه بين ركْبتَيه، وهو ينظر إليّ يُتابع أثر المحلول عليّ. مرّتْ دقائق صمت من تلك الّتي لا تسمعُ فيها شيئًا ولا حتّى خفقات القلب المُجهَد بعد رحلةِ تعبٍ طويلة جداً. بعد تلك الدّقائق البكماء شعرتُ بارتخاء أعصابي، ويدَيّ، وكلّ جوارح جسمي، لم أعدْ قادرًا على رَفْع رأسي لأنظرَ إليه. قال لي الطّبيب الّذي بدا أنّه يَغِيم، ويبدو من خلال ضبابٍ أبيض: «بماذا تشعر

الآن؟» كان صوته يُشبه صوتًا عميقًا قادمًا من بئر ، حاولتُ أنْ أُجيبه بأنّني أتحوّل إلى خرقة ، لكنّ لساني كان ثقيلاً جدًا . أردتُ أنْ ألعنه ، أن أشتمه ، أنْ أقول له إنّني إنسان ولستُ فأرًا ، أنْ أقول له ما هذا الشّيء اللّعين الّذي أعطيتَني إيّاه ، لكنّني لم أقلْ ما أريد ، كنتُ أقول ما يريدون ؛ لقد كنتُ أُهلوِس!!

دخل أبو سليم إلى الغرفة الّتي كنتُ فيها لكنّني غير موجود ، عيناي مفتوحتان ، ولكنّني لا أرى ، ولساني يتحرّك في فمي ، لكنّه ينتمي لهم ولا ينتمي لي كان أبو سليم يحمل جهازَ تسجيلٍ في يده ، قرفص عند رأسي مثلَ مَلَك الموت ، وضع يده على رأسي ، وبدأ يلقّنني ، سألني : «مَنْ دفعكَ إلى هذا العمل؟» . أجبتُه «لا أحد» خرجتْ كلّ كلمةٍ كأنّها جيشٌ من الكلمات لثقلها ، ولطول الزّمن الّذي نطقتُها به ، لم أجرّب ثقلاً في اللّسان مثلَ هذا من قبلُ . سألني أيضًا : «كمْ دَفَعوا لك من المال أو الذّهب لكي تقوم بهذا العمل؟» كنتُ أريد أنْ أبصقَ في وجهه ، لكنّني قلت : «أنا لا أُباع ولا أُشترى ، لستُ خسيسًا ولا نَذلاً مثل الكثيرين ، أنا قُمتُ بعملي هذا من أجل ديني وأُمّتي ، ومن أجلِ أنْ أُنقذَ أبنائي وأبناءَكَ وأبناء العرب والمسلمين ، وأحميهم» . فسألني وحاجِباه يرتفعان فوقَ جفنَيه كغُرابَين : «ومِمَّنْ ستُنقِذهم؟» . أجبتُه «من اليهود ، اليهود الّذين سيبدؤون بك ؛ فيقتلونك لو سنحتْ لهم الفرصة» . قال لي «ولماذا لا نُصالحهم ونعيشُ معهم بسلام» . فأجبتُه : «أنتَ تحلم ، هم لن يقبلوا بغير إفنائك ، وإرسالك إلى الجحيم ، قُل لي : هل يُمكن أنْ يعيش الذّئب مع الغنم في مكان واحدٍ ، مستحيل ، إنّ الذّئب سيُفكّر في كلّ لحظةٍ أيّ غنمةٍ سيأكل ، سينفرد بها واحدةً واحدةً ، ويأكلهنّ جميعًا

لو قلتُ لكَ إنّ صداقةً نشأتْ بين ذئبٍ ونعجةٍ فهل يُمكن أنْ تُصدّقني!! إنّها الغريزة ، الذّئاب لا تعترف غريزتُها بغير أنيابها»
سألني : «ها هي معاهدة السّلام لها ما يقرب من سنتين بيننا وبين اليهود ولم يحدث شيءٌ» . أجبتُه : «يبدو أنّك جاهل أو تتجاهل ، والمياه الّتي سرقوها من نهر الأردنّ!! والأرض الّتي نهبوها وقالوا إنّها مُستعادَة وهي ليستْ كذلك!! والخيرات الّتي تذهبُ كلّها لهم في الباقورة!! والّذين يُقتَلون في بلادنا على أيديهم ، في لبنان وفي فلسطين!! أمْ أنّك لا تعتقد إلاّ الأردنّ وطنًا لك ، أليست تلك أيضًا أوطانَنا؟ أليس القتلى مسلمين مثلنا؟ أليسوا عربًا ، أليسوا إخوتَنا ، أمْ أنّ دماءَهم رخيصةٌ عندَك إلى هذا الحدّ؟!» . سألني وهو يُضيّق عينَيه «هل أنتَ تعي ما تقوله؟» . سكتّ ، أرحتُ نَفَسي قليلاً ، وتابعتُ : «تمامًا ، ولكنّ لساني ثقيل ، وأعي ما هو أبعد من ذلك . أنتَ خائف أنتَ تفعل ما تفعل لأنّك لا تريدُ للمُرتّب الشّهريّ أنْ ينقطع ، ولأنّهم يُسجّلون خلفكَ كلّ كلمةٍ تقولها ، لو تحرّرتَ من هذا الخوف ، فستصطفّ إلى جانبي . دمّاء العروبة والإسلام تجري في عروقنا جميعًا ، ولن يفرّق الذّئب بين دمي ودمك ، حين تُناديه رائحة الضّحيّة»

(٣٥)
أحاوِلُ أنْ أَنفي نفسي من المَنفى لأعيش

نزع الطَّبيب النَّفسيّ إبرة الجلوكوز من يدي ، وخرج هو وأبو سليم مرّتْ لحظات قصيرة قبل أنْ يأتي بعضُ العساكر ويأمروني بالقِيام للذّهابِ إلى الزّنزانة . تحاملتُ على نفسي لأنهض ، لكنّني لم أستطع ، قلتُ : «الدّبّابات على الحدود» . لم تلفت العبارة انتِباههم . فأشرتُ بيدي إلى سقف الغرفة وأصابعي مرتخية «والطّائرات ستقصفكم» . «هنا كثير من العناكب . . . الحشرات مفيدة . . . أنتم مثل الحشرات . . . الباقورة فيها موز . . . أنا جائع والبيت لا يوجد فيه أحد . . .» كنتُ أهذي . أسندني اثنان ، وضع كلٌّ منهما رقبتَه تحت ذراعي ، ويده على ظهري ، وقاداني إلى الزّنزانة كنتُ لا أزال لا أقوى على الحركة حتّى سمعتُ أذان العصر ، كنتُ قد بدأتُ أعي ما أقوله تمامًا ، ولكنّني أردتُ أنْ أستغلّ فكرة هلوساتي لأفرّغ من خلالها بعض مكنونات صدري .

تجمّع عددٌ من عناصر الشّعبة من العساكر أمام زنزانتي ، لقد أعجبهم أنْ يروا شخصًا تحت تأثير حقنة هلوسة ، فأرادوا أنْ يعبثوا معي ، ويستهزِئوا ، ويُمضُوا وقتًا طريفًا ، فراحوا يتضاحَكون ، ويُشيرون إليّ بسخريةٍ واحتِقار ظنًّا منهم بأنّني لا أعي ما يدور ، فقلتُ لهم : «أنتم ظَلَمة ، لأنّكم أذنابٌ للظّلمة ، تُطيعون أبا قاسم طاعةً عمياء» فجفلوا ، وعلا لَغَطُهم ، وحضر أبو قاسم ، فقال وهو يُقهقه : «هل

صحيحٌ أنّك قلتَ عنّي إنّني ظالم؟» . فقلتُ له «نعم ، أنا قلتُ ذلك ؛ أنتَ ظالم وحقيرٌ وعميلٌ لليهود ، وخائنٌ لله والوطن» . ولم يُصدّق أن تخرج منّي هذه الكلمات وخصوصًا أمام عناصره الصّغار ، فاحمرّ وجهه ، ولم يدرِ ما يفعل ، أمر عناصره بإغلاق باب الزّنزانة ومغادرة المكان ، وولّى هو وجهه إلى مكتبه على وجه السّرعة . في اليوم التّالي ناداني وقال لي «هل أنا ظالمٌ؟» . فأجبتُه وأنا أميل رقبتي جهة اليمين وأعقد يمناي على يُسراي فوقَ بطني «الله أعلم» . فقال : «أنتَ قلتَ هذا أمس أمام العساكر» . فأنكرتُ ذلك ، وقلتُ له» «لا لم أقلْ كلمةً من ذلك» ، وتظاهرتُ بأنّني لا أذكر شيئًا . فقال لي : «بلى ، أنتَ قلتَ عنّي بأنّني خائنٌ وعميلٌ لليهود» . فقلت له «إذا كنتُ قد قلتُ هذا الكلام فعلاً فأنا آسف ؛ يبدو أنّني كنتُ تحت تأثير الهلوسة الّتي أصابتْني بسبب الحقنة فلا تُؤاخذني»

مرّ يومان بعد إبرة الهلوسة . في الحقيقة لقد حسّنت الإبرة نفسيّتي قليلاً ، مكّنتْني من أن أقول ما أريد تحت ذريعتها ، وقد قلتُ أشياء أفرغتُ فيها احتقانات كثيرة سبّبتْها التّحقيقات المتواصلة الّتي أُجريتْ معي ، والتّعذيب المتكرّر الّذي تعرّضتُ له . وبذريعة هذه الإبرة خرجتْ أشياء أريدُها وأشياء أخرى لا أريدها ، لكنّني في المجمل ارتحت .

عادتْ إليّ صُور أهلي وأحبابي . صار تذكّرهم مثل نورٍ يكشف لي موطئ قدمَيّ وأنا أسير في الظّلام . حلمتُ بجزيرة . جزيرةٍ نائية لم تمسّها قدمٌ من قبلُ ، أعيشُ فوقَها بأمانٍ ، تمنّيتُ أنْ أسرق من الزّمن أسبوعًا ، أسبوعًا واحدًا ، لا أفعل شيئًا سوى التّمدّد على ترابِها اللّين ، وأقلّب بصري بين زرقة سمائها وخُضرة بحارها ، إنّها أمنيةٌ فحسب ، إنّني أُحاولُ أنْ أَنفي نفسي من المَنفى لأعيش ، هذا المنفى الّذي

يُحاصرني ويخنقني ويضغط على صدري ليسَ أكثر من قبرٍ مُظلم ، أريدُ آفاقًا بلا نهاية ، أريدُ أنْ أرى شمسًا ، أنْ أشاهدَ نجومًا ولو كانتْ خافتةً ، أريدُ أنْ أسمع أصواتَ الطّيور تتداخل فيما بينها في صباحٍ لازورديّ أريد أنْ أشعر أنّني حيّ!!

أخذوني إلى مكتب المُحقّقين ، أوّل ما دخلتُه كدتُ أصفّر ، كان منظرًا لا يتكرّر ، عددٌ كبيرٌ من ضُبّاط المخابرات يتراصّون في مقاعدهم كأنّما جاؤوا ليحضروا عرضًا سينمائيًا من بطولة (فان دام) ، أو محاضرةً في الأمن القوميّ يُلقيها عليهم (هنري كيسنجر) ، أو ندوةً في الوعي السّياسيّ يُديرها (هشام جعيط) . وكان من ضمن الضّبّاط أشهر مدير مخابرات مرّ على الأردنّ ، يجلس وعلى رأسه الشّماغ الأحمر ، ويلبس لباسًا مدنيًا ، وعلمتُ بعدها أنّه كُلّف بمتابعة التّحقيق والإشراف عليه ، لخبرته الطّويلة في هذا المجال ، ولعلّهم استعانوا بالحرس القديم أو المُحاربين القُدَماء كما يقولون لأنّ (الدّهن بالعتاقي) . لم يكنْ هذا هو المشهد المُثير بحدّ ذاته ، ما كان أكثر إثارةً هو ما لم يخطرْ على بالي ولا أظنّ أنّه خطر حتّى على بال إبليس . كانتْ هناك امرأة سافرة ليست عجوزًا ولكنّها شمطاء ، وكانت عيناها تُشبهان عينَي فهدٍ في جُنح الظّلام ، وشعرها غابة من اللّيل الفاحم ، وتلبس لباسًا غريبًا . لقد عرفتُ أنّها عرّافة ، أو ساحرة!! هل تُصدّقون أنّ مثلَ هذا التّخلّف يحدث على أبواب القرن الحادي والعشرين!! والله لقد حدث معي

أمرني مدير المخابرات بالجلوس إلى جانبها ، ولم أتردّد لأنّني كنتُ أريد أنْ أدخل اللعبة وأعرف إلى أين تصل الأمور ، وكان عندي فضولٌ شديدٌ أنْ أعرف ماذا يُمكن أنْ تفعل هذه المرأة بسحرها ، والدّخول في تجربة السّحر بحدّ ذاته أمرٌ ساحر ؛ ولهذا سارعتُ بالجلوس إلى جانبها

قال لها مدير المخابرات بالحرف الواحد : «هذا الّذي يجلسُ بجانبك اسمه أحمد موسى مصطفى الدّقامسة واسم أمّه كاملة ، ونريد منك أنْ تعرفي ما إذا كان مرتبطًا أو مدفوعًا من جماعة أو تنظيم أو جهازِ مخابرات» . وبدأت المرأة تُتمتم بكلماتٍ غير مفهومة ، وتأتي بحركات المُشعوذين الغريبة ، وتذكّرتُ أنّ (نانسي ريجان) زوجة (رونالد ريجان) رئيس أمريكا لم تكنْ تسمح لزوجها أنْ يعقد صفقة مع دولة أخرى ، ولا أنْ يُلقي خطابًا قبلَ أنْ تأخذ رأي العرّافين والعرّافات ، وتستشير المُنجّمين والمُنجّمات ، وقلتُ في سرّي : «إذا كان رئيس أكبر دولة وأقوى دولة في العالَم يستعين بهؤلاء المُشعوذِين فما بالك بنا!!» . وكنتُ قد قرأتُ قبل حوالي أربع سنوات كتابًا يكشف فيه صاحبه أسماء رؤساء دول كُبرَى يستعينون بالسّحَرة ، وكان ذلك من أعجب ما قرأتُ ، وقد ظننتُ أنّ فيه مبالغةً حتّى رأيت ذلك بأمّ عيني ، لقد قرأتُ في الكتاب أنّ جاك شيراك وميتران وهما رؤساء دولة فرنسا العُظمى ، الدّولة العلمانيّة الّتي لا تُؤمن بوجود إله ، ولا تعترف إلاّ بالعلم ، كان هذا الرّئيسان يتردّدان على المُنجّمين ، بل إنّهم كانوا يستجلبون السّحرة من أفريقيا ، ويضعونهم عندهم في القصر الرّئاسيّ تحت مُسمّى مُستشارين ويدفعون لهم الملايين مقابل استشاراتهم!! وقرأتُ فيه أيضًا أنّ حاكم إحدى ولايات أمريكا أنفق مدّخرات الولاية البالغة ١٨٠ مليار دولار على عرّاف ليدلّه أين يستثمر أمواله!! بل إنّ ستالين صاحب القبضة الحديديّة وبريجينيف من زعماء روسيا العُظمَى كان لكلّ واحدٍ منهما ساحرة ، صنعتْ من كلّ منهما طاغيةً لا يُصدّق ، وسرقتْ من خزينة الدّولة ما يزنُ أطنانًا من الذّهب وهرّبتْه إلى خارج روسيا!!

صحيحٌ أنّ الموقف الّذي أقفه اليوم قد حدث مع مَنْ هو أكبر من

مدير مخابرات ، ولكنّه يكتسبُ عَظَمَته بالنّسبة لي لأنّه يحدث معي بشكلٍ مباشر ؛ إذًا بدأت المرأة تُتمتِم بعبارات وألفاظ غريبة ، وراحتْ تقوم ببعض الحركات غير المألوفة ، تضع أحيانًا يدها على صدرها وأحيانًا على رأسها ، وتلفّ إصبعها في حركات أفقيّة دائريّة وتهزّ رأسها مثل المجانين ، وبدأتُ أنا أقرأ بآية الكرسيّ والمُعوّذتَين لكنْ في سِرّي دون أنْ يسمعني أحدٌ ، وفي غمرة حركات العرّافة وتمتماتها صرختْ في وجه مدير المخابرات بشكلٍ هستيريّ : «قُلْ له أنْ يتوقّف عن القراءة . امنعه بأيّ شكلٍ من الأشكال الآن» وراحتْ تهذي . لم أستجبْ لها في البداية ، استمتعتُ بصراخها ، كان تأثير آيات الله عليها جَلِيًا ، أحببْتُ أنْ تتأذّى فناكفْتُها قليلاً حتّى صرختْ مرّة ثانية ، فتوقّفتُ ؛ توقّفتُ لأرى ما يحدث . وبعد دقائق ، توقّفتْ عن التّمتمة وعن حركات الرأس وقالتْ لمدير المخابرات : «إنّه لا ينتمي لأيّ جهة» . ولن تُصدّقوني إذا قلتُ لكم إنّ التّحقيق في هذه القضيّة توقّف نهائيًا بعد هذه العبارة من هذه العرّافة ، ولم أُطلَب له من بعدُ أبدًا ، ولم يعرضوني على جهاز فحص الكذب من جديد ، ولم يُحاولوا معي أيّ محاولة ، لقد كان عند هذه العرّافة الخبر اليقين ، وعجبتُ أيّما عجب ، أنّهم لم يثقوا بقولي ، ولا بشهادات زملائي ، ولا بالفحص الطّبيّ ، ولا بالأجهزة العلميّة ، الّتي أعطتْهم النّتيجة نفسها ، ووثقوا فقط بقول العرّافة ، وبناءً عليه أُغلق ملفّ القضيّة نهائيًا . وتساءلتُ وأنا في غمرة الذّهول : هل نحنُ فعلاً على أعتاب القرن الحادي والعشرين!!

قضيتُ عمري المقدور لي في شعبة استخبارات عمّان حتّى جاء عيد الأضحى . والحقّ يُقال أنّ معاملتهم بعد توقّف التّحقيق قد تغيّرت إلى الأحسن ، صاروا أكثر لطفًا وتهذيبًا معي ، حتّى المُحقّق الأشرس

(أبو قاسم) الّذي كنتُ أراه فَظًا غليظَ القلب مُتعجرفًا ، صار ودودًا . ولا أدري أهو بابُ اللّطف الّذي فتحتْه العرّافة ، وحينها تمنّيتُ لو أنّهم جاؤوا بها من البداية وأراحوني من العذاب الطّويل ، أم هو إغلاق الملفّ ، وبداية تحويلي إلى المحكمة العسكريّة ، وانتهاء عمل هؤلاء المحقّقين الّذين يريدون أنْ أخرج من عندهم دون أن تكون في صدري أدنى ضغينة تُجاههم!!

ومرّت الأيّام . ملأتُها بصور الأحبّة حتّى لا تتشابه . واستطعتُ أنْ أقرأ بعض الكتب المُهرّبة ، كان من الممكن أنْ يتعاطف معي بعض الضّبّاط ويُحضِروا لي الكتب على مسؤوليّتهم الشّخصيّة ، أكثر صنف من الكتب في تلك المرحلة كان يستهويني هو كتب المذكّرات ، وخاصّة مذكّرات السّياسيّين والأدباء ، قرأتُ في فترةٍ وجيزةٍ مذكّرات هزّاع المجالي ، ومذكّرات وصفي التّلّ ، ووُعِدتُ بمذكّرات الملك عبد الله ، لكنّها لم تأتني ، وستسبقني إلى سجن سواقة ، حيثُ ستكون فترة هذا السّجن أخصب فترة في القراءة بالنّسبة لي .

وعرفتُ من مذكّرات هزاع المجالي فكرة الصّالونات السّياسيّة الّتي لم تتغيّر كثيرًا في عصرنا ، فهو يقول : «في هذه الفترة بالذّات استدعى المغفور له الملك عبد الله الدّكتور صبحي أبو غنيمة من دمشق ، فجاء إلى عمّان وكان في استِقباله ما يزيد عن المئة سيّارة ، وحلّ ضيفًا على السّيّد محمّد العجلوني . وأَوْلم له الملك وليمةً كبرى ، اختلى به على إثرها واستكتَبَه رأيَه في جميع المسائل السّياسيّة ، ومن جُملتها رأيه في تحقيق مشروع الهلال الخصيب مُبتدِئًا باتّحاد سوريّة والأردنّ ، فوافقَ الدّكتور على ذلك ، وسجّله بخطّ يده ، واحتفظ الملك عبد الله بالوثيقة معه واعِدًا الدّكتور بتعيينه رئيسًا للوزراء . وانقلب بيت السّيّد

محمّد علي العجلوني ندوةً سياسيّة عامّة ، تعجّ بالشّباب وبالكهول من كُلّ مُشتغلٍ بالمسائل العامّة . وكانت تقوم تكتُّلات عنيفة ، ترشّح هذا وزيرًا وتُقصي غيره . ولم يبقَ أحدٌ إلاّ وزار الدّكتور أبو غنيمة رئيس الوزراء المُرتقَب . . .»

وعرفتُ من هذه المذكّرات أنّ السّيد (جونستون) كان سيعقد اتّفاقيّة مع الأردنّ لاستغلال مياه نهر الأردنّ تحت مسمّى (مشروع اليرموك) ، وكادت الأردنّ أنْ توافق لولا تدخّل جامعة الدّول العربيّة ورفضها المشروع خشيةَ أنّ يكون بدايةً للتعامل مع إسرائيل!

لقد حاولتُ بالفعل أنْ أتخلّص من الرّتابة الّتي فُطِرتُ على كُرهها بالقراءة ، وقد نجحتُ إلى حدٍّ ما ، لقد كنتُ أفضّل أنْ أنادَى للتّحقيق أو أن أتعرّض للأذى على أنْ أبقى جالِسًا مثل القرد لا أفعل شيئًا ، وليس بين يديّ كتابٌ لأقرأه .

في ١٧-٤-١٩٩٧ حلّ عيد الأضحى عليّ وأنا في السّجن ، كان أوّل عيدٍ أقضيه بعيدًا عن أهلي وأبنائي ، تذكّرتُ التّكبيرات الّتي كانت تشقّ سكون الصّباح بعد الشّروق في جامع القرية تصدح بها حنجرة الشّيخ عبد الرّزّاق كان أحدَ الّذين وجدتُ بهم فهمًا للحياة ومعنًى للعطاء كُنّا مُعتادين أنْ نصحبه إلى سوق الحلال في ذلك اليوم ، فيشتري كبشًا أملح ، ويجرّه من قرنيه ، ويقوم بذبحه في ساحة المسجد ، ويُفرّق لحمه على الفقراء والمساكين ، وكان لي من أضحيّة الشّيخ عبد الرّزّاق في كلّ عيدٍ نصيبًا مفروضًا ، ولم يكنْ يُبقي لنفسه إلاّ القليل . إنّه طقسٌ ظلّ يكبر معي حتى ذهبتُ إلى العسكريّة ، ولم نعدْ نعرفُ للشّيخ مكانًا ، اختفى فجأة ، كأنّه كان حلمًا أو طيفًا زار القرية ورحل بهدوء دون أيّ ضجيج

فُتحَ باب الزّنزانة ، كان أبو قاسم يقف بالباب ، جثا حتّى صار وجهه مقابِلاً لوجهي ، ابتسم : «جِئتُ لأهنئك بالعيد» . ومدّ يده مُصافحًا وقد أشرقَ وجهه : «كلّ عام وأنتَ بخير» . ثُمّ أمر عساكره بأنْ أخرج إلى ساحة التّشميس ، كانتْ هذه السّاحة تقع ضمن مبنى شعبة الاستِخبارات لكنّها كبيرةٌ ومفتوحة على السّماء ، ومنها يُمكن أنْ ترى نور الله كما خلقه دون حواجز كنتُ قابِعًا في الزّنازين لحوالي شهر لم أخرج منها ، وحينَ خرجتُ إلى هذه السّاحة لم أستطع أنْ أحتمل تدفّق النّور الثّرّ إلى عينَي بهذه الكثافة ، فأغلقتُهما ، ولم يكنْ بإمكاني فتْحُهما إلاّ بالتّدريج ، لقد أعماني النّور لفترةٍ مُؤقّتة ، وعجبتُ أنّ هذا النّور الّذي هو سبب الإبصار يكون أداةً للعمى . بدأتُ أفتحُ عينَيّ شيئًا فشيئًا ، حتّى بدأتْ حدقتا عينَيّ تستوعبان المشهد ، ثُمّ ركضتُ كخيلٍ تُفلِت من عقالها ، جامحةٍ لا تلوي على شيء ، كنتُ طفلاً يتعلّم المشي في البراري لأوّل مرّة ، فرحتُ أركضُ في كلّ اتّجاه ، ها هي سهول (إبدر) تنفتح أمامي ، وها هي آفاقُها تنبسطُ ، وها هي حقولها تخضرّ ، وها هي أشجارها تسمق ، وها هي فراشاتها تطير .
كنتُ بغاية السّعادة ، لا قيود في الأرجل ، ولا في اليدَين ، وأنتَ حرّ في اختيار الاتّجاه الّذي تريد أنْ تملأه بقبلات قدمَيك ، وبالفضاء الّذي تريد أنْ تُشبعه بتلويحات يديك .

(٣٦)
وَلَدتُكَ لهذا، فكُنْ رجُلاً

في اليوم الثّالث من عيد الأضحى ، زارني المحامي الّذي أوكلتُه في قضيّتي قبل ما يقرب من شهر ، طمأنني على أخبار أهلي ، وقال إنّهم يُسلّمون عليك وجميعهم بخير . وخرج سريعًا دون أنْ يشفي غليلي ، ولم يجلسْ معي أكثر من عشر دقائق .

مرّ أسبوع من بعدها رتيبًا كئيبًا ، لا شيءَ يُذكر ، أعدتُ قراءة بعض المذكّرات ، وذكّرت الضّابط الّذي وعدني بإحضار مذكّرات الملك عبد الله بوعده ، ولكنّه لم يفِ ، وربّما كانتْ لديه أسبابه ؛ لا أدري حفظتُ بعض عبارات وصفي

في ليلة سابعة - بعد صبيحة العيد - طويلةٍ ورتيبةٍ إلى حدّ الكآبة ، كنتُ أجلسُ وأنا أردّد بعض الفقرات الّتي حفّظتُها من الكتب الّتي قرأتُها . لم يكنْ لديَ من عملٍ آخر كان الجوّ خانقًا ، وكنتُ قد بدأتُ أتساءل عن موعد تقديمهم لي إلى المحكمة كانت الزّنزانة ضيّقة ، وشعرتُ بحرارةٍ ترتفع إلى يافوخي . وكان العشاء قد رحل ، فتحوا باب الزّنزانة ، وأخرجوني منها إلى غرفةٍ خاصّة ، وهناك أعطوني ملابس جديدة لألبسها ، ورشّوا على جسمي العِطر ، وتناثرَ رذاذه في الأجواء وحولي فزادني انتِعاشًا ، ثُمّ أخذوني إلى أحد المكاتب ولم أكنْ لأعرف لماذا يفعلون ذلك معي ، وعندما دخلتُ كانت المُفاجأة ؛ لم أتمالك نفسي ، وضعتُ يديّ على وجهي من الدّهشة ، وأطرقتُ طويلاً

مُتسمّرًا مكاني كأنّما رُبطتْ أقدامي بالأرض ، قبلَ أنْ أتوجّه إلى أخي باسم وأهوي عليه بالعِناق ، كان أخي باسم بعرجته الجميلة ، وروحه الطّيّبة في انتظاري هو واثنان من أقاربي ، ألم أقلْ إنّ أخي الأكبر كان مثلَ أبي ، كانت الدّموع قد بدأتْ تنسابُ على خدّي ، مسَحَها لي ، وعانقني من جديد ، وقال لي : «لا خوفَ عليك ، ولا تحزن ؛ أنتَ في خير يا أخي» . وسألتُه «ألم يعتقلوك؟ لقد هدّدوني باعتقالك إنْ لم أعترفْ» . فأجابني «لا ، لم يمسّني أحدٌ بسوء ، وها أنا كما تراني في صحّة جيّدة» «ألمْ يفصلوك من وظيفتك؟» «لا لا يا أخي نحن كُلّنا بخير» «كُلّكم بخير؟!!» . قال أقاربي الّذين جاؤوا معه «لا تهتمّ لأيّ شيء ، نحن معك ، ونفخر بك ، وسنُساندك في قضيّتك إلى نهايتها ، وإنّ ما قُمتَ به هو عينُ الصّواب» . فشعرتُ بسعادة عظيمة ، ولكنّني نكّستُ رأسي لبرهة ، وسألتُ أخي : «هل صحيحٌ أنّ من بين القتيلات السّبع خمسًا من العربيّات؟» . فابتسم وقال لي : «مَنْ قال لك ذلك؟» . فأجبتُه : «لقد أقنعوني بذلك في التّحقيق وأروني صورهنّ وأنّ أسماءَهن فاطمة البتول ونور وميسون» . فضحك هذه المرّة وقال : «الملاعين قالوا لك ذلك؟ إنّهم يكذبون . لا تضعْ كلامهم في بالك ، القتيلات جميعهنّ يهوديّات مُتشدّدات ، والرّحلة الّتي كُنّ ضِمْنها هي رِحلة لكلّيّة عسكريّة دينيّة» . فانزاح عن صدري همّ ثقيل ، وكربٌ شديد ، وغَمَرني فرحٌ لا يُعادله إلاّ الفرح الّذي شعرتُ به لحظةَ أنْ أتممتُ عمليّتي . وعرفتُ أنّهم استطاعوا بكذبهم أنْ يهزّوني شهرًا كاملاً ، لقد كُنّ يهوديّات إذًا ، وقرّرتُ ألاّ أُصدّق كلّ ما أسمع بعد اليوم حتّى ولو بدا أنّ تكذيبه غيرُ ممكن .

طلبْتُ من (أبو موسى) الّذي كان يجلسُ في المكتب المُجاور ،

ويتابع المشهد أنْ يسمح لوالدي ووالدتي وأطفالي بزيارتي ، فقال لي : «إنّ زيارتهم مسموحة ، يستطيعون أنْ يزوروك إنْ شاؤوا» . فطلبتُ من أخي (باسم) أنْ يُخبرهم أنْ يزوروني غدًا

غادر أخي وأقاربي بعد أنْ زرعوا في حديقة قلبي ورودَ الأمل ، وبعد أنْ رفعوا معنويّاتي ، وأكثر شيءٍ حمدتُ الله عليه هو أنّ القتيلات لم يكنّ عربيّات ، لأنّ الدّم العربيّ مُقدّسٌ عندي . ولم أكنْ لأسامح نفسي لو كُنّ عربيّات . لكنّني تعجّبتُ من هؤلاء الكَذَبة : كيفَ أعاشوني كلّ هذا الوقت في هذا الوهم ، كنتُ أرى في كلّ ليلةٍ يدَيّ مُلوّثتَين بدماءٍ تصرخ وتستغيث : هل يُمكن أنْ تسفكَ دماءَنا أيّها العربيّ ونحن مثلُك ، وفي عروقنا يجري ذات الدّم الّذي يجري في عروقك!! فأستيقظ مذعورًا ، إلى أنْ تبيّن افتراء الطّبيب النّفسيّ عليّ ، لو رأيتُه مرّة ثانيةً فسأعضّه في ذراعه حتّى لا يرفع بها مرّة ثانيةً صورًا كاذبةً في وجهي .

منذ صباح اليوم التّالي لزيارة أخي جاءني أبو (سليم) وفي يده كيسٌ كبير ، كان الكيس يضمّ ألعابَ أطفال ، قال لي وهو يبتسم : «اليوم سيزورك أهلك ، عليكَ أنْ تكون جميلاً في حضرتهم ، وسيزورك أبناؤك كذلك ، عليكَ أنْ تكون أبًا صالحًا وتُقدّم لهم بعض الهدايا ، قُلْ لهم إنّها هدايا العيد ، أريدُك أنْ تفرح بهم» . لم أدْرِ ما أفعل . تعجّبتُ من قدرة الإنسان ذاته على أنْ يتقنَ دورَين على طرَفَي نقيض!! لكنّني مع ذلك لم أتمكّن من حبسِ دموعي

في المساء ، عبرتُ الممرّ الطويل المؤدّي إلى مكتب الزّيارات ، بدأ قلبي يخفق بشدّة . ها أنذا أسمع صوت دقّاته بوضوح ، إنّه يكادُ يفرّ من صدري ، نهبتُ الخُطوات الباقيات إلى المكتب ، قبلَ خطوتَين من

انفتاح الأبواب سمعتُ أصواتَ أطفالي ، كدتُ أصرخ : «يا رب الرّحمة» . لكنّني سرقتُ خطواتي العجلى لأدخل وفي يدي الهدايا ، سقطتْ من يدي على الباب ، إنّه مشهدٌ من الجنّة ، إنّها أمّي ، تمايلت ، أريدُ من أحد أنْ يسندني ، لا أحدَ يُمكنه أنْ يحتمل هذا ؛ أنْ ترى قلبَكَ بعد هذا الغياب دُفعةً واحدةً ، إنّها أمّي ، دالية البيت ، ونخلة الدّار ، وعريشة الياسمين ، ونبضَ القلب ، ونقاء الرّوح . . . إنّها أُمّي بشُرشتها السّوداء ولَفْعتها البُنّيّة ، كم تُشبه (إبدر) بكلّ بهائها . . إنّها هي . . نعم هي . . فأنا لا أحلم ، لقد صرتُ أميّز بعدَ هذه الرّحلة الطّويلة بين ما هو وهمٌ وما هو حقيقة ، ولا توجَد حقيقةٌ أثبتُ من رُؤية أمّي ، إنّ الأمّ لا يُمكن أنْ تُخطِئها العَين ، تُخطئ كلّ شيءٍ سواها ، أمّا أمّي فهي العين ، فإنْ أبصرتُ بعيني فلأنّني أرى أمّي . . . ركضتُ إليها ، جثوتُ على الأرض أقبّل قدَمَيها ، وأمسح بخدّي طُهرَهما ، ثُمّ وقفتُ ، فأخذتْني في أحضانها فشعرتُ أنّ العالَم يتوقّف إجلالاً لها ، قالتْ : «ولدْتُكَ لهذا ، فكُنْ رجُلاً» . ثُمّ هويتُ على كَفّيها ألثمهما وأبكي ، كان الأطفال قد تحلّقوا حول ساقَيّ يتضاغَون ، وسيف الدّين ونور الدّين يهزِجان : «بابا . . . بابا . . .» نعم يا بابا ، يا رُوحَهما ، هل هناك نِداءٌ في الجنّة أعذب على القلب من هذ النّداء . ثُمّ حملتُهما بين أحضاني ، وقدّمتُ إليهما الهدايا ، ركضا في الغرفة فَرِحَين ، وكان هناك أبي . . وكانتْ فاطمة وعلى ذراعَيها البَتول ، عذبةٌ كالأحلام . كذبوا لا يُمكن أنْ تُشبهاها ؛ أنتما نَفْحةٌ مُبارَكة ، أنتما حياةُ روحي الّتي كادتْ تموتُ بين هذه الجدران الضّيّقة ، والسّقوف المُعتِمة أنتما سرّ كفاحي لأبقَى حيًا . قالتْ فاطمة : «لقد اشتقتُ إلى كاس الشّاي على السّطوح في اللّيالي المُقمِرة» . قالتْ أمّي : «لو لمْ تفعلْ هذا لما عرفتُك .

أنتَ الآنَ ابني . لكنّني كنتُ أرى ذلك في عينَيك . صحيحٌ أنّكَ لم تقلْ لي ولم تستشرْني في الأمر ، تعرف لو استشرتَني لما خالفتُك . المهمّ أنّ الرّجال يفعلون ، وهذا ما غفر لك عندي» . قال أبي «لقد غِبْتُ عنكَ كثيرًا في العسكريّة والغُربة يا بُنيّ . . . أخشى أنْ تطول غربتي فلا أراك ، هل ستسامحني لطول بُعدي عنك؟» . بكيتُ ، بدا أنّ أبي في الشّهر الّذي قضيتُه هنا قد كَبُر كثيرًا ، كانتْ غضون وجهه تبدو غارقة في الصّمت . ويداه تنطقان بالأسى . وعيناه تُسافران في المدى البعيد ، أشاحَهما عنّي كمن يطلب الصّفح ، وبكيتُ من جديد : «لا يا أبي لا تفعلْ . أنا لك يا أبي ، فلا تقلْ ذلك» . وحضنتُه طويلاً ، وبكيتُ على كتفيه حتّى تشجتُ ، قال لي وهو يُعيد لي بعض ما تناثر منّي : «يا بُنيّ ، إنْ كان ما فعلتَه لله ، فلا تندمْ عليه لحظةً ، يا بُنيّ إنّا لله وإنّا إليه راجِعون» . ثُمّ لم يمنع هو نفسَه من البُكاء

وغابوا في أيكة القلب كأنّهم ما كانوا . وظلّ عِطرُهم فوّاحًا أسابيع بعد أسابيع ، وأنا أراهم من نافذة قلبي ، أُطلّ عليهم كلّ مساء ، وأقصّ لهم ما يحدثُ معي . الرّتابة . الرّتابة قاتلة . إنْ لم أقصصْ عليكم قَصَصي في كلّ ليلةٍ فأموت ، وأنا لا أريدُ أنْ أموت قبلَ أنْ أقول كلّ شيءٍ ، أنا أقاتل بكم لأجلي ، وأناضل من أجل ألاّ أفنى . لقد قلتَ لي يا أبي : «لا تندم» . وها أنذا أفعل ، أحاول أنْ أطردَ النّدم كما أطرد السّأم ؛ بأنْ تظلّوا معي ، ولا يُمكن أنْ تظلّوا معي دون أنْ أحدّثكم ، دون أنْ أقصّ عليكم حكاياي ، إنّها حكايا ملوّنة ، وطويلة ، وأنا سأختار لكم أجملها ، فكلّ حكايةٍ لا تتّشح بالوَجد لا يُعوّلُ عليها . ما زال خرير النّهر الخالد يملأ رِئتَيّ بالهواء ، أتنفّسه . لن أموت ما دام ذلك الصّوتُ يعيشُ فِيّ . النّهر رئتي . وسأظلّ وفيًا لهوائه وتُرابه ومائه ، ولن أبيعه أبدًا

(٣٧)
فَاصبِرْ إنَّ العاقبةَ للمُتَّقين

/

جهدوا في أنْ أكون في صحّة جيّدة ومظهر لائق ؛ منذ مساء اليوم الّذي يسبق المُحاكمة وهم يجرون بعض التّعديلات على جسدي ، أنْ أظهر إنسانًا طبيعيًا في الجلسة الأولى للمحكمة العسكريّة . ليس هناك من آثار لأيّ أذى على جسدي . وهذا ما حدث . إنّه يوم الثّلاثاء ٢٧-٥-١٩٩٧ وإنّها المرّة الأولى الّتي أُقاد فيها إلى المحكمة . رافقتْني سبعُ سيّارات على الأقلّ في الطّريق ، بينها ثلاث سيّارات مُسلّحة تنتصب الرّشّاشات الآليّة فوقها ، ويقبعُ خلفَها جنودٌ مُلثّمون ، وباص يحمل عددًا من عناصر الاستخبارات ، والزنزانة المتحرّكة الّتي تُقلّني ، وسيّارتان أُخريان إحداهما سيّارة نجدة ، لقد كان موكبًا حافلاً

حينَ وصلنا إلى المحكمة أُدخِلتُ إلى نظارةٍ صغيرة تقع خارج مبنى المحكمة ، ريثما يتمّ انعقاد المحكمة بشكلٍ رسميّ . كان فأر الخوف يلعب داخل صدري ، لن أُنكِر ذلك ، شيءٌ من الخوف استحوذتْ عليه صورتي أمام النّاس ، تخيّلتُ للحظاتٍ أنّني أمرّ بين صفّيْنِ من النّاس ، الصّفّ الّذي عن يساري يرميني بالحجارة والبيض الفاسد ويشتمني بأقذع الشّتائم ، والصّف الّذي عن يميني يرميني بالورود ويُحيّيني ويهتف باسمي!!

كان لا بُدّ من وسيلةٍ للتّغلّب على هذه الخيالات المُتعبة ، وهذه النّفسيّة القَلِقة ، ولم يكنْ من دواء خيرًا من القرآن ، فرحتُ أتلو بعض

آياته في سرّي ، ردّدتُ ما استطعتُ تذكّره من آيات الصّبر : «وبشّر الصّابرين» «فاصبرْ إنّ العاقبة للمتّقين» . «ولَمَنْ صبَر وغفرَ إنّ ذلك لَمن عَزْم الأمور» «يا أيّها الّذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطوا واتّقوا الله لعلّكم تُفلِحون» . «إنّما يُوفّى الصّابِرون أجرهم بغيرِ حِساب» . وغيرها من الآيات ، كنتُ أردّدها وأنا أحاول أنْ أخفّف من توتّري ، إنّها الجلسة الأولى الّتي سأقفُ فيها أمام قُضاة عسكريّين ، طلبتُ من أحد العساكر المُكلّفين بحراستي أنْ ينادي المحاميَ الّذي أوكلتُه في قضيّتي من أجل أنْ أعرف منه ماذا سأقول في الجلسة . لكنّه لم يأتِ . عادَ العسكريّ ليقول : إنّه غير موجود . توتّرتُ أكثر ، فأنا لا أعرف بالضّبط ما هي التُّهَم الّتي وُجّهتْ لي ، ولا أعرف بِمَ أردّ ، ولا أدري ما هو الموقف المناسب لمواجهة هذه التّهم! أينَ هذا المحامي الّذي أخذ توقيعي منذ أكثر من شهر ونصف ولم يجلس معي إلاّ عشر دقائق . لم يكن أحدٌ يدري بمدى الغَلَيان الّذي كنتُ أعيشه

في العاشرة ، أُخرِجتُ من النّظارة باتّجاه قفص الاتّهام في قلب المحكمة ، وقبل أنْ أدخل القاعة التقيتُ بالمحامي ، فقلتُ له مُعاتِبًا وغاضِبًا «لماذا لم تحضرْ إلى النّظارة عندما طلبتُ رؤيتك؟» . فقال لي «لماذا؟» . فازداد غضبي ، وهتفتُ : «لماذا!!! لكي أعرف ما أقوله في المحكمة يا سيادة المحامي!!» . فردّ عليّ : «لم يُبلّغْني أحدٌ بذلك» فقلتُ له «لم يفتْ شيء ، نحن لم ندخل المحكمة بعدُ ، هل يُمكننا أنْ نجلس معًا لتداول الأمر ولو لعشر دقائق؟» . فقال لي : «لا ، لا يُمكننا ذلك ، فالمحكمة قد انعقدتْ بالفِعل . ولكنْ إنْ سألك القاضي هل أنتَ مُذنب؟ فأجبْه بـ : لا»

ودخلتُ ، من الزّاوية اليُمنى القريبة من مجلس القُضاة .

وارتبكْتُ . شيءٌ ما لمع في فضاء المحكمة ، إنّه ضوء لامعٌ جِدًا كان له صوت (كلاك) ثُمّ تتابعت الأضواء الّتي تلمع من فلاشات الكاميرات ، كاميرات من كلّ الزّوايا ، صحافات محلّية وعربيّة وغير عربيّة جاءتْ لتُسجّل اللّحظة ، اللّحظة التّاريخيّة . لكنّ المفاجأةَ كانت حين أجلتُ بصري بنظرةٍ خاطِفةٍ على القاعة ، إذ كنتُ أظنّ أنّنا سنكون ثلاثةً في المحكمة لا رابع لنا : أنا والمحامي والقاضي ، فإذا القاعة تمتلئ بالنّاس عن بكرة أبيها ، وإذا هي تَفيضُ بهم حتّى لا يوجد فيها مقعدٌ شاغر . ورفع ذلك من معنويّاتي قليلاً ؛ إذًا النّاس لم تنس بعد مرور أكثر من سبعين يومًا على العمليّة ، النّاس جاءتْ لترى هذا الّذي قتل اليهوديّات ، إذًا ما زال الشّعور العربيّ الإسلاميّ بِكُره اليهود قائِمًا في النّفوس ، هذا ما كنتُ أُحدّث به نفسي ، وأنا أحاول أنْ أصعدَ الدّرجة الأخيرة لأدخل إلى داخل قفص الاتّهام .

كان ضوء الكاميرات قد خفّ قليلاً بعد موجة الشّهب الّتي تساقطتْ من فلاشاتها قبل قليل ، صار بإمكاني النّظر في الوجوه لأعرف مَنْ هو موجود ، رأيتُ عددًا كبيرًا من الشّخصيّات الوطنيّة الّذين كنتُ أراهم في الصّحف اليوميّة وأتابع أخبارهم في التّلفاز ووسائل الإعلام الأخرى ، رأيتُ أحمد عبيدات وحسين مجلّي وليث شبيلات وسليم الزّعبي ، وشخصيّات نقابيّة ووطنيّة أخرى ، كانوا في المقدّمة تقريبًا ، ارتقيتُ بنظري إلى الأعلى لأشاهد عددًا غير قليلٍ من أقاربي ، وعددًا آخَر من النّاس لا أعرفهم جاؤوا ليحضروا المحكمة مُساندةً لي ، ولم أتابع نظري ، فقد أُمِرتُ بالجلوس على الكرسيّ ، وأحسستُ بيدٍ خشنةٍ تهبط على كتفي تطلب منّي ذلك ، فجلستُ ، وأطرقتُ برأسي ، ووضعتُ يدي على جبيني ، كان يبدو أنّني متعبٌ ،

أو مُحمّلٌ بدفقٍ ثقيلٍ من الشّعور جعلني أجلسُ هذه الجلسة ، وفي أثناء محاولتي أنْ أغيبَ بانكماشي على نفسي عن المكان ، صدح صوتَ ألوفَ ، صوتَ سماويَ ، صوتَ اهتزّتْ له أركان القاعة بكلّ مَنْ فيها من البشر ، إنّها أمّي ، وقفت شامخة كنخلة ، ثابتةً كطود ، وعاليةً كرمح ، هتفتْ وهي تُلوّح بيمناها كأنّها ألفُ فارسٍ يُثير النّقع في الميدان ، وهي تُنادي عليّ : «يا أحمد . . . يا أحمد . . .» فانتبه طائر القلب إلى صوتها ، إنّها هي ، عظيمةٌ بقدر ما في العظمة من معنى ، تابعتْ بصوتٍ يهدر والقاعة كلّها تُنصت لكلماتها الخالِدات ، حتّى الجدران خشعتْ وهي تُصغي لكبريائها : «ارفعْ رأسك يا أحمد . . . ولا يهمّك . . لستَ أنتَ الّذي يُطأطِئ رأسه ، هؤلاء . .» وأشارتْ إلى القُضاة ، وتابعت : «هؤلاء الّذين يجب أنْ يُطأطِئوا رؤوسهم ، أمّا أنتَ فارْفعه إلى فوق ، إلى فوق . لا تخفْ ولا تخجلْ يُمّه ، فأنت لم تُخطِئ . . . ارفعْه عالِيًا إلى السّماء يُمّه ، ونحن نرفع راسَنا بك ، لا تحزن ، ولا تهتمّ ؛ إنْ عشتَ عشتَ سعيدًا وإنْ مُتّ مُتّ شهيدًا» . وشعرتُ أنّ القاعة كلّها رفعتْ رأسها ، وأحسستُ أنّ كلّ مَنْ فيها شعر بمعنى العزّة والإباء ، وأدرك جلالَ الموقف ، ولم يتوقّع أحدٌ من أمّي أنْ تفعل هذا ، لكنّها جعلتْني مع كلّ كلمةٍ أُحلّق فوق السّحاب ، جعلتْني أشدّ صدري ، وأرفع هامتي ، وأستقبل بها النّجوم . وجلستْ أمّي بعد أنْ علّمت القاعة والتّاريخ أنّ البطولة مبدؤها الأمّ ، وأنّ الكبرياء منبعها الأمّ ، وأنّ صناعة الرّجال تبدأ بهذه الأمّ العظيمة ، شعرتُ بعدها أنّهم لو بعثوا بي من قفص المحاكمة إلى منصّة الإعدام مباشرةً فسأموت مرتاحًا وفخورًا بما قمتُ به ، مَنْ كان يدري أنّ بضع كلماتٍ من أمّ لم تتعلّم في المدارس ، ولم تقرأ في الكتب ، لكنّها تعلّمت من تراب

الوطن ، وقرأت من ثراه ، أنّ هذه الكلمات يُمكن أنْ تَخُطّ في كتاب التّاريخ صفحة جديدةً!!

ولم تكدْ أمّي تجلس ، حتّى قامت فاطمة ، بوجهها النّبويّ ، وصوتِها الحنون ، فنادتْ وهتفتْ بكلمات يتخاذل أمامها أشجع الرّجال ، فقالت : «ارفع رأسك يا (أبو سيف) ، أولادُك يُسلّمون عليك وفخورون بوالدهم ، ولا تهتمّ لهؤلاء الخونة عملاء اليهود» . وجلستْ . كانتا أعظم امرأتين في الوجود آنئذٍ ، كانتا تعلّمان كلّ مَنْ في القاعة أنّ الرّجولة ليست ذكورة ، وإنّما موقف . وأنّ العظمة ليست ادّعاء وإنّما عمل ، وأيقنتُ يومَها أنّه لا قائد في التّاريخ ، ولا عظيم في الأمّة لم تكنْ قد صنعتْه امرأة ، وتذكّرتُ سيّدنا محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم وخديجة ، وتذكّرتُ معاوية بن أبي سفيان وهندًا ، وتذكّرتُ صلاح الدّين الأيّوبي وأمّه . . . وتذكّرتُ وتذكّرت . . .

ما إنْ أنهتْ زوجتي كلامها ، حتّى قامتْ نساء القاعة على قدم واحدة ، كان أكثرهنّ من أقاربي ، ابتدأت السّلسلة واحدةٌ منهنّ ، أطلقتْ زغرودةً شقّتْ فضاء المحكمة ، وتبعتْها ثانية ، فثالثة ، فهيّجْنَ كلّ مَنْ حضرْن ، فرحْنَ يُزغردْن ، وتحولت المحاكمة إلى عُرس!

واكتمل عِقدُ المحامين ، وكنتُ أظنّ أنّ المحامي الّذي أوكلْتُه عن طريق الاستخبارات هو مُحاميّ الوحيد ، وأنّ النّاس خائفةٌ ، تجلس وتُراقب ، وتنتظر ما تُسفِر عنه المُحاكمة ، فاكتشفْتُ أنّه ما من محامٍ وطنيٍّ ومعروفٍ في الأردنّ إلاّ وسجّل نفسه في هيئة الدّفاع عنّي ، فبالإضافة إلى أحمد عبيدات وحسين مجلّي ، كان هناك الأساتذة الأجلاّء المُحامُون : صالح العرموطي ، ونجيب الرّشدان ، وهاني الخصاونة ، وعلي الضّمور ، ونعيم المدني ، وصالح الفايز ، وفيصل

البطاينة ، وزايد الرّدايدة ، ومحمّد خشوش ، ورياض النّوايسة ، وخالد الزّعبيّ ، وحاتم الشّريدة ، وهاني الدّحلة ، وسميح خريس ، وزهير أبو الرّاغب ، ومحمّد الضّباطي . . . وآخرون لم أعد أتذكّرهم ، وقد وكّلتُهم جميعًا بالدّفاع عنّي ، وبدأتُ أفكّر بعزل أوّل محام اضطُرِرتُ إليه الّذي ما إنْ رأى توكيلي لكلّ هؤلاء حتّى قال لي : «إنّ عملك هذا خطأ ، وليس بصالحك» . فأجبْتُه «أنا أعرفُ ما هو في صالحي ، ولا أريدُ نصائحك»

وتقدّم أحمد عبيدات رئيس وزراء الأردنّ الأسبق إلى القفص الّذي أقف فيه ، ومدّ يده من خلال القُضبان مُصافحًا ومُشجّعا ، وشادًا على يدَي ، وقال لي بكلماتٍ عفويّة مليئة بالعاطفة والصّدق : «أُقسِم بالله أنّني أتمنّى أنْ أكــونَ مكانك . أنتَ بطل» . وحلّقتْ بي هذه الكلمات من جديد ، وشعرتُ أنّ الله يقفُ إلى جانبي ، وأنّه هيّأ كلّ هؤلاء النّاس ليشُدّوا من أزري

ووقف الجميع استعدادًا لبدء المحكمة ، ولتلاوة لائحة الاتّهام ، وقد تمّ تشكيل هذه المحكمة بأمرٍ من رئيس هيئة الأركان المُشتركة ، للنّظر في قضيّتي على وجه التّحديد ، وسُمّيت : «المجلس العسكريّ الخاصّ» . ووجّهتْ إليّ أربعُ تُهم : «التّهمة الأولى القتل القصد مع سبق الإصرار خلافًا لأحكام المادّة ١/٣٢٨ التّهمة الثّانية الشّروع بالقتل مع سبْق الإصرار خلافًا لأحكام المادّة ١/٣٢٨ . التّهمة الثّالثة : التّهديد بإشهار السّلاح خلافًا لأحكام المادّة ١/٣٤٩ . التّهمة الرّابعة عصيان الأوامر العسكريّة خلافًا لأحكام المادّة ١٧ من قانون العقوبات العسكريّة رقم ٤٣ لسنة ١٩٥٢» . وسألني القاضي العسكريّ عن التّهم المُسنَدة إليّ بأنّني مذنبٌ أم لا ، فأجبتُه بأنّني غير مُذنب . وقرّرت

المحكمة رفع الجلسة . وتمَ إخراجي من المحكمة ، ولوّحتْ لي أمّي من بعيد ، وأنا أهمّ بالخُروج ، ورأيتُ ابتسامةً على وجه زوجتي انطبعتْ في فؤادي ، ورأيتُ أبي يرفع قبضته كأنّه يقول لي : «كُنْ صُلبًا»

ما إنْ خطوتُ بضع خطوات في طريق العودة ، حتّى هالَني عددٌ كبيرٌ من المواطنين وقد احتشدوا خارج المحكمة مِمّن لم يُسمَح لهم بدخولها لاكتظاظ الأعداد في الدّاخل كانوا قد جاؤوا لمُساندتي ، ورفع همّتي ومعنويّاتي . لقد غرز رجل المهمّات الصّعبة الّذي يعيشُ في داخلي قدمَيه في الأرض ، وتعملقت أغصان شجرة العِزّة ، وعرفتُ أنّ جمهرةً كبيرةً من المواطنين تقف إلى جانبي . وسمعتُ من بعيدٍ وأنا أركبُ زنزانة التّرحيلات أصواتهم وهي تهتف وتُحيّي

(٣٨)
الواحدُ الثّابتُ على الحقِّ كثيرٌ

على باب شعبة الاستخبارات في عمّان ، استقبلني (أبو قاسم) ، كان ينتظر قدومي بفارغ الصّبر ، بَشَّ في وجهي ، وتحوّل إلى حَمَلٍ وديع ، مشى معي إلى الزّنزانة ، وقال لي بصوتٍ أبويّ : «غيّرْ ملابسك ، أحضرنا لك ملابس مُريحة . والغداء جاهز» . أمر عساكره بأنْ يأتوني بالغداء سريعًا ، وطلبَ منهم أنْ يُلبّوا لي كلّ شيءٍ أطلبه يبدو أنّ موقف النّاس معي وموقف الشّخصيّات الوطنيّة قد حسّن معاملتي هنا ، ابتسمت . هتفتُ في سِرّي : «الواحدُ الثّابتُ على الحقّ كثيرٌ»

أكلتُ على جوعٍ ، وشربتُ على عطش ، وتمدّدتُ في الزنزانة وأنا أسترجعُ صور اليوم المُذهلة . مرّت الصّور سريعًا ، وتوقّفتْ عند أمّي لا زالتْ كلماتها تملأ وِجداني بالشّذا ، شعرتُ أنّني يُمكن أنْ أقاتل بها وحدي جيشًا صهيونيًا بكامل عتاده ، وأنّها يُمكن أنْ تظلّ بوصلتي إنْ ضلّت الجهات ، ودربي إنْ تشعّبت السُّبُل . فتح أحدُ العساكر باب الزّنزانة ، وقال : «إنّ أبا قاسم يريد رؤيتك في مكتبه» . دخلتُ عليه ، كان غارقًا في قراءة صحيفةٍ بين يديه ، رفع رأسه ، وابتسم ابتسامةً عريضةً ، وأشار إلى مقعدٍ جلديّ : «تفضّلْ . اجلس يا أحمد» جلست . تابع : «بعد قليلٍ سيحضر طبيبٌ من الخدمات الطّبّيّة الملكيّة ، ليتأكّد من أنّكَ لم تتعرضْ للضّرب أو الأذى ، فأرجو ألاّ تُقدّم

أيّ شكوى ضدّي، أو ضدّ أيّ من عناصري». وسكت، بدا متأثرًا وشعرتُ بالتّعاطف معه، لكنّني قلت: «لقد تعرّضتُ بالفعل للتّعذيب هنا، وأنتَ بنفسك خلعتَ إظفر إصبعي». وعدّلتُ جلستي على الكرسيّ، وأملتُ رقبتي قليلاً إلى اليمين، كنتُ أشعر بالتّشفّي، وأنّني أصبحتُ أنا المُحقّق وهو المُتّهم، لقد تبادلْنا الأدوار تقريبًا. لكنّ ما هالَني، أنّني لمجرّد هذا التّخيّل في تبادل الأدوار تحوّلتُ بسرعةٍ إلى جلاّدٍ مثله، كان يبدو أنّ كلّ إنسانٍ يحمل في داخله كلا الشّخصيّتَين: الضّحيّة والجلاّد، وأنّ إحداهما تظهر حسب الموقف لتختفي الأخرى، كدتُ أقول له «أنا أريدُ حقّي، وتقديم الشّكوى أقلّ شيءٍ ممكن، ولو تمكّنتُ من الحصول على كمّاشةٍ لخلعتُ إظفركَ كما فعلتَ معي، ولو وقع في يدي سوطٌ وأنتَ أمامي مُقيّد إلى الجِدار لجلدتُكَ كما جَلدْتَني». لقد كان هذا الصّوتُ ينمو في داخلي بشكلٍ عجيب، حتّى كاد يُتلفُ لي أعصابي، أغمضتُ عينيّ في محاولة للتّخلّص منه، وأغلقتُ أذنيّ لكي لا يستمرّ الصّوت في تشويشي، ورحتُ أكسّر هيمنته عليّ، فتحتُ عينيّ فجأةً، ومددتُ يدي نحوه، وقلتُ له: «انظرْ، ما زال ظفري شاهدًا». ردّ بصوتٍ ضعيف مخذول، استطاع أنْ يجد طريقه إلى قلبي «لو اشتكيتَ فسيلحق بنا الضّرر جرّاء هذه الشّكوى، ولربّما نُقدّم للمحاكمة، هل ترضى لنا ذلك، وقد استضفْناكَ عندنا كلّ هذه الفترة؟». ضحكتُ من أعماقي، وقلتُ وأنا أعبثُ بمحفظة أوراق على جانب مكتبه: «كانت استضافةً مُذهلة» شعر بسخريتي، فقال: «أنتَ حُرّ يا أحمد، مارِسْ حقّك، ولكنْ تذكّرْ أنّ العفوَ مِن شِيم الكرام، وأنتَ من الكرام». أجبتُه بصوتٍ واثق: «لا تخفْ لن أشتكي عليكَ ولا على أحد، وأحتسبُ ذلك عند الله»

حضر طبيب الخدمات الطّبّية الملكيّة ، كشف على كلّ بوصة في جسدي ، أراد أنْ يقول لي «بعض آثار الأذى ما زالتْ ماثلة» . لكنّني عاجلْتُه بقولي : «أنا بخير» . سألني : «هل تريد أنْ تشتكي على أحد؟» . أجبتُه : «لا» «هل تعرّضتَ للضّرب؟» «لا» «هل توقّع على إفادةٍ بهذه المعلومات؟» . «نعم»

في ٣١-٥-١٩٩٧ حضر أهلي لزيارتي ، قال لي باسم : «إنّ مسؤولاً كبيرًا في الدّولة اتّصل بنا ، وطلب منّا أنْ نقومَ بإقناعكَ بعدم توكيل هيئة الدّفاع الجديدة في القضيّة ، والإبقاء على المحامي الأوّل الّذي اختارتْه شعبة الاستخبارات ، وأنّنا إنْ نجحنا في إقناعك في ذلك وتمّ الأمر ، فإنّهم سيوظّفون أخي الأصغر عبد الله في وظيفة ممتازة وبراتبٍ كبير ، كما أنّهم سيصرفون لزوجتك وأطفالك مبلغًا كبيرًا من المال ، بالإضافة إلى راتبٍ شهريّ للأسرة بـ (٥٠٠) دينار» كان العرضُ مغريًا جداً كانتْ زوجتي بلا معيل ، وأولادي بلا أبٍ يقفُ إلى جانبهم ، وأخي الأصغر كان لا يزال يطارد وظيفةً لا يُمكن الظّفر بها . تردّدتُ ، وسألتُهم : «أنتم ما رأيكم؟» . فقال أخي الأكبر باسم : «نحن رأيْنا أنْ تعزل المحامي الأوّل ، لأنّه يريد أنْ يحوّل القضيّة إلى قضيّة جنائيّة ، وهذا ليس في صالحك ، وتُبقي على هيئة الدّفاع الجديد» . واتّفقتُ معه على هذا ، وكان امتحانًا اجتزناه بحمد الله

في ٢-٦-١٩٩٧ انعقدت الجلسة الثّانية للمجلس العسكريّ الخاصّ (المحكمة) ، حضر عددٌ جديدٌ من المحامين المُتطوّعين للدّفاع عنّي ، وسألني القاضي مَنْ تختار من المحامين لينوب في الدّفاع عنك ، فاخترتُ هيئة الدّفاع متمثّلة بالمحامي حسين مجلّي . وسارت القضايا على هذا النّحو ، من محكمةٍ إلى أخرى ، ومن منفى إلى آخر ، ومن

سجنٍ إلى آخر . . . خمس عشرة جلسةً متتابعةً ، كانتْ لُهاثًا خلفَ القرار ، أشبه بلُهاثِ ضائعٍ في غابةٍ مُتشابكةٍ لم يهتدِ إلى الخروج من تعقيداتها

كان ظهوري في الجلسات الأولى للمحكمة يتحوّل إلى مشهد سينمائيّ ، مجرّد صعودي الدّرجات القلائل الّتي تفصل باب المحكمة والقفص ، يسبّب عاصفةً هوجاء من التّصفيق والهُتاف . كان القلبُ طريًا . والنّاس مُتعاطِفين ، وأنا أحملُ إرثًا قديمًا عنوانه الأبرز الصّراع مع إسرائيل الغاصبة ، وهو عنوانٌ كان يجمع الكثيرين تحت لوائه في تلك الأيّام .

في إحدى الأمسيات ، طرقَ أحدُ الغُرباء باب بيتنا في (إبدر) ، فتحتْ أمّي له الباب ، وجدتْ أمامها رجلاً لم تره من قبل ، رحّبتْ به ، لكنّه أطرق في الأرض ، وراح يبكي ، لم تفهم أمّي ؛ هل كان يبكي بالفعل ، استغربتْ ، لم يكنْ منظره مُتسوّلاً ولا طالبَ حاجة هدأتْ من روعه ، وسألتْه إنْ كان بإمكانها مُساعدته ، قال لها : «لقد أُجبِرتُ على الإدلاء بشهادةٍ ضِدّ أحمد ، أحمد زميلي ، ولكنّهم دفعوني إلى انْ أقول في المحكمة كلامًا غير صحيحٍ عنه ، أنا جئتُ لأعتذر لأمّه ، ولأقول إنّني مُستعدٌّ من جديدٍ للشّهادة الصّادقة» شكرتْه أمّي . سامحتْه . وقالتْ له «أحمد يُسامحك» . وأعطتْه ثلاثةَ أرغفة . قالت له حينَ رأت الرّفضَ في عينَيه «كنتُ خبزتُهما صباح هذا اليوم ليأكل أحمد منها ، انتظرْتُه طويلاً ولم يأتِ ، هي لك ، كأنّه أكل»

انسحب المحامي الأوّل من قضيّتي في الجلسة الرّابعة ، قال إنّه انسحب من هذه القضيّة بسبب استدعاء بعض الصّهاينة للإدلاء

بشهاداتهم ، وموقفه الوطنيّ لا يسمح له بمتابعة قضيّة يقف فيها معه صهاينة ، لقد غطّى على انسحابه الحتميّ من القضيّة بتقمّص الدّور الوطني بشكلٍ ذكيّ ، أشهد أنّه كان ماهرًا

في الجلسة الخامسة ، استُدعي الشّهود اليهود ، قرّرت المحكمة تعيين مترجم لهم من العبريّة إلى العربيّة ، كانوا يلبسون القلنسوة اليهوديّة بكلّ فخر ، ويدخلون مرتاحين دون أنْ يشعروا بأنّ منظرهم مستفزّ ، أدلى بالشّهادة أقارب القتيلات من الرّجال والنّساء ، وجميعهم كانوا يعتمرون تلك القلنسوة . كانتْ إحدى الشّاهدات امرأةً يهوديّة مغربيّة ، ضحكتْ علينا جميعًا ، قالتْ بالعبريّة إنّها لا تتقن العربيّة ، وحينَ كان القاضي يسألها بالعربيّة ، كانتْ تُجيبُ بلغتها العبريّة قبلَ أنْ يُتمّ المُترجم ترجمة جملةً واحدةً من العربيّة إلى العبريّة . انذهل القاضي ، ولم يُعجِبْه ، فسألها بالعربيّة : هل تفهمين العربيّة؟ فأجابتْ بالعربيّة «لا لا أفهم ما تقول؟» . وانفجر القاضي بالضّحك .

استقبلَ رئيس الوزراء الشّهود الصّهاينة يومئذٍ بالحفاوة والتّرحيب ، كان واسع الصّدر ، متهلّل الأسارير ، لم تستفزّه أبدًا طقوسهم الدّينيّة ، ولا قبّعاتهم السّوداء ، أقام لهم مأدبةً حافلةً ، وقدّم لهم على الغداء المنسف على أصوله . لم يخفّف التّرحابُ المُبالَغ فيه حُزنَهم ، كانوا لا يكادون يأكلون ، اختلطَتْ على قَسمات وجوههم علائم الأسى والغضب معًا كان هذا بروتوكولاً سَمِجًا بالنّسبة لهم ، هم لا يريدون مثل هذه الطّريقة السّخيفة في الاعتِذار أو إبداء التّعاطف . كان لسانُ حالهم يقول : نحن نفهم بعضنا أكثر من هذه المُجاملات الّتي تبدو كاذبة

طلبَ القاضي من إحدى الشّاهدات أنْ تُقدّم بطاقتها الشّخصيّة

للكاتب، أجابتْه بأنّها لا تملك بطاقةً، سألها من جديد: «لا بأس، فليكنْ جواز سفر إذًا». ردّتْ: «لا أملكُ أيّ وثيقة رسميّة على الإطلاق». سألها: «وكيفَ عبرتُم الحدود ودخلتم الأردنّ». أجابتْ: «لم يطلبْ منّا أحدٌ أيّ إثبات لشخصيّاتنا، وعبرنا الحدود بلا أيّ مساءلة». قلتُ للقاضي لحظتَها: «وهل تستطيع أنتَ أو أيّ أردنيّ أنْ تتحرّكَ داخل بلدكَ بدون إثبات للشّخصيّة، لماذا نحن كلّما مشينا مئة متر طلبوا منّا هُويّاتنا، وسألوا عن أصلنا إلى الجدّ السّادس؟». امتعض القاضي، لم يُعِرْ ما قلتُ اهتمامًا. قال لها: «ضعي يدكِ على الكتاب المُقدّس من أجل القَسَم». أجابتْه بثقة «أنا لا أُقسم» جحظتْ عينا القاضي، سألها، وما زال حاجباه يُحلّقان بعيدًا عن جفنَيه: «ولماذا؟» أجابتْه وهي تبسطُ كفّيْها: «لأنّنا مُتديّنون، والمُتديّنون لا يكذبون». لم يعلّقِ القاضي بشيء، طلبَ منها أنْ تُدلي بشهادتها، لقد احترمَ دينَها، وقناعاتها، ولم يُجبرها على وضع يدها فوق الكتاب المُقدّس!!

حضرتْ أمّي كلّ الجلسات، كانت تمدّني بالعزيمة، لم أكنْ أشعر بالخوف وهي إلى جانبي، كانتْ تُحدّ عينَيها حينَ يقف محامي الادّعاء تكاد تلتهمه، كثيرًا ما كانتْ تُطلقُ كلمات توبّخ فيها القُضاة والشّهود، كانتْ تتصرّف في المحكمة كما في البيت، غير مرّة أرادتْ أنْ تكنس من الحوش ما رأتْ أنّهم زوائد يجب تنظيفه منها

قالتْ لي مرّة في إحدى الزّيارات أثناء هذا الماراثون القضائيّ: «هل رأيتَ العاصفير الثّلاثة؟». ضحكتُ أعرفُ أنّ أمّي لديها دائمًا قصصًا طريفة، سألتُ: «أيّ عصافير؟». عصافير الدّوريّ الثّلاثة يا أحمد ألم ترها؟» «أين؟» «في المحكمة» «في المحكمة؟» «نعم» «ما قصّتهنّ يا أمّي؟» «ثلاثة عصافير ملوّنة، كانتْ تدخل من طاقة

علويّة في الحكمة ، تطير حتّى تصلَ إليك ، ترفرف بأجنحتها فوقَ كتفَيك . ألم تُلاحِظْها يا أحمد؟ كانتْ تُربتُ على أكتافك ، تُطمئنك ، وتشدو بلحنٍ ساحرٍ عند أُذنَيك ، ثُمّ تطير ، تطير مُسرعةً من عندك ، باتّجاه صفّ القُضاة ، هل هي عمياء يا أحمد؟ لأنّها كانت تصطدم بالصّور المُعلّقة فوق رؤوس القُضاة ، تضرب إطار البراويز بمناقيرها ، ثُمّ تعود إليك ، بوداعةٍ ترفرفُ فوقَ كتفَيك ، تهبُك قليلاً من الهواء البارد في هذا الحرّ ، تغنّي أغنيةً عذبة ، ثُمّ ترتفع إلى الطّاقة وتغادر الحكمة . ما تفسيرك لذلك يا أحمد؟» . أجيبُها وأنا محتار : «لا أدري يا أمّي لا أدري . هل رأيتِ هذه العصافير كثيرًا يا أمّي؟» «ثلاث مرّات . ثلاث مرّات يا أحمد . ألم ترَها أنتَ؟» . «ربّما شعرتُ بشيءٍ ما يا أُمّي ، لكنّني لستُ متأكّدًا» . «كانتْ هذه إشارةً يا بُنيّ ، إشارةً من الله ، الله يقف معك ، وقلبي يقف معك ، أنتَ رضيّ والدين يا أحمد ، ولن يُضيّعك الله . . . الله يحفظك يا ابني»

قال لي أبو قاسم : «هل سمعتَ شهادة الطّبيب النّفسيّ فيك؟» كانت الشّهادة قد شوّهتْ صُورتي ، وأثبتتْ بخطّ يدي أنّني لم أتعرّض للتّعذيب ، كنتُ قد كتبتُ هذه الشّهادة بعد أن استدرّ عطفي بكلامه المعسول أجبتُه «نعم» . ضحك : «لقد أخذتُ منكَ كلّ شيء ، الآن لا أريدكَ أنْ تبقَى شوكةً في حلقي ، جهّزْ نفسَكَ لكي تُنقَل إلى السّجن العسكريّ في الزّرقاء» . أجبتُه «أنتَ إنسانٌ نذلٌ وحقيرٌ وسأبقى هنا ، لكي أبقى شوكةً في حلقكَ كما تقول» . ردّ عليّ بلهجة المنتصر والمُتحدّي «سترى النّذالة على أصولها»

استدعى في اليوم الثّاني طبيبَين نفسيّين ، أحدهما امرأة . كنتُ بالفعل قد تحولتُ إلى حقل تجارب أو وسيلة تسلية ، لا أدري . لم أشأ

أن أدخل عليهما من الأساس لكنّني أجبِرت . كانا يريدان التّحقّق من جديد فيما إذا كُنتُ أعاني من اضطرابات نفسيّة بدآ يسألانني أسئلةً تافهة ، مثل أنْ يرفع أصابعه في وجهي ويسألني : «كم عدد هؤلاء؟» بدأتُ أتبرّم ، انتظرت أنْ تكون الجلسة جدّيّةً ، فإذا هي تزداد تفاهةً ، طردتُهما من المكتب . جاؤوا وأخذوني إلى الزّنزانة مُقيّدًا . في الطّريق وَعَداني أنْ يتركا الأسئلة الّتي أظنّها تافهة ، ويتوجّها إلى أسئلة ذات جدوى نظرتُ إلى الخلف إليهما ، كدتُ أبصق لولا أنّ باب الزّنزانة استقبلني بسرعةٍ ، وفي لحظات كان جوفُها يبتلعني

بعد يومَين من تلك الحادثة ، فتحوا باب الزّنزانة ، وأخرجوني إلى ساحة التّشميس الواسعة ، تفاءلتُ في البداية ، أنْ ترى الشّمس يعني أنْ تشعر بأنّ الحياة ما زالتْ تواصل مسيرتها إلى الثّقب الّذي سيبتلع كلّ شيء . بدأ الخوف يجتاحني حين قالوا لي : اخلع ملابسك . رفضت . فلوّحوا بالسّوط . فامتثلت . صرتُ عارِيًا تمامًا إلا مِمّا يستر عورتي المُغلّظة ، دفعوني باتّجاه الزّاوية ، خفتُ أكثر ، شبح أيّام التّعذيب ولياليه قفز في وجهي ، وسدّ عليّ الفضاء . ما زالوا يدفعونني إلى الزّاوية حتّى صرتُ بمحاذاة صندوق النّفايات الكبير (الحاوية) قيّدوني إلى حلقةٍ معدنيّةٍ فيها . ارتفع هرمون الخوف أكثر ، ثُمّ جاء ثالث ، ظننتُ أنّه يحمل سوطًا ، أو أداة تعذيب ، لكنّه كان يحمل سطلاً كبيرًا من الماء ، كان هذا السّطل مليئًا بالماء المُذاب فيه كمّيّات كبيرة من السُّكّر ، رشقني به ، فغطّاني من رأسي إلى أسفل قدمَي ، ولشدّة حرارة الجوّ ، نشف الماء وبقي السّكّر ، وبدأتْ رحلتي مع العذاب ، صرتُ مهوًى للذّباب والحشرات والنّحل ، هبطتْ عليّ كلّ الحشرات المُحبّة للسّكّر ، كان جسدي يستجلب الحَكّ ، لكنّ يديّ

مُقيّدتان ، كانتْ رغبتي في هَرْشِ أنحاء جسدي بما في ذلك رأسي رغبةً عارِمةً لا تُوصَف ، لكنّني كُنتُ عاجِزًا تمامًا ، تعرّضتُ للسعات النّحل ودغدغات الذّباب وقرصات البعوض ، كانتْ دغدغات الذّباب الّذي أراه وهو يُحرّك رجلَيه مُطمئِنًا في جلدي وخاصّةً قربَ العينَين أوجع بكثير من قرصات النّحل . وعشتُ ساعتَين من العذاب لا يعلم بمعاناتي فيهما غير الله

فكّوا قيودي ، وأدخلوني إلى الحمّامات ، قال أحدهم : «الدُّشّ أمامك» . فتحتُ ماسورة الماء على أوسع مجالٍ لها ، تبرطعتُ تحت الماء ، نظّفتُ كلّ بوصةٍ في جسمي ، وتلذّذتُ بانسكاب الماء على الجسد العاري في هذا الجوّ الحارّ . عُدتُ إلى الزنزانة ، أحضروا لي الغداء ، فرفضتُ كنوعٍ من الاحتجاج . جاءني أبو قاسم ، قال لي : «تظنّ أنّه بامتناعك عنّ الأكل ستضغط علينا» . أجبتُه : «أريدُ أنْ أفهم لماذا فعلتَ ذلك؟» . فقال لي بلهجة البريء : «وماذا فعلتُ؟ هل فعلتُ شيئًا يسيءُ إليكَ لا سمح الله» . سألتُه بغيظٍ مكتوم : «لماذا سكبتم عليّ ماءً محلّى بالسّكر وتركتموني تحت رحمة الذّباب والحشرات» «نحن؟ لم نفعل ذلك . أثبِتْ أنّنا فعلْنا» «إذا كنتَ تظنّ أنّك بذلك ستجبرني على كتابة استِدعاء لنقلي إلى السّجن العسكري ، فاعلمْ أنّك خاسر ، ذلك لن يحدث ولو فصلْتم رأسي عن جسدي» «ستفعله عن قريب يا أحمد . أؤكّد لك ذلك . لديّ وسائل أخرى ستضطرّك إلى أنْ ترجوني كي أقبل بنقلك إلى هناك . لم أعدْ أطيق أنْ تبقى عندي»

في مساء اليوم الثّاني ، أُخرجتُ بقسوةٍ من الزنزانة ، مَثُلتُ أمام أبي قاسم ، كان يُمسكُ بورقةٍ بين يديه ، قال لي وهو يشير بها نحوي :

«لديّ في هذه الورقة إفادة من عناصري المُناوبين تقول بأنّك حاولتَ الفرار من إحدى الحمّامات وأمسكوا بكَ خارج المبنى» كدتُ أبصق في وجهه . لكنّني عرفتُ أنّ الامور ستتّجه إلى الأسوأ إن فعلت . فرّغتُ غضبي بشتيمة . ، صرختُ في وجهه «هذا ليس غريبًا عنكَ يا نذل» . فهجم عليّ ، وطرحني أرضًا بضربةٍ واحدةٍ من يده ، قمتُ بسرعة ورددتُ له ضربته ، فانهال عليّ عناصرُه بالضّرب بالسّوط والأرجل والأيدي . قال لي وهم يسحبونني إلى الخارج بصوتٍ لاهث : «صار أمر نقلك إلى السّجن العسكريّ واقعًا لا مفرّ منه ، نُسخةٌ من هذه الإفادة ستصل إلى المحكمة غدًا»

في الجلسة التّاسعة قال تقرير الطّبيب : إنّني قمتُ بضربِ نفسي!! وقالتْ إفادة العساكر إنّني بالفعل حاولتُ الهروب من السّجن من خلال نافذة إحدى الحمّامات . وهذا ما استدعَى عرضي على طبيبٍ نفسيّ من جديد!! وبناءً عليه قرّرتِ المحكمة الموافقة على طلب أبي قاسم ، ونقلتُ بالفعل إلى السّجن العسكريّ .

(٣٩)
الرّضا شرطُ القَبول

حضر طبيبٌ شرعيٌّ هذه المرّة ، لا أظنّ أنّهم يعتقدون بأنّني ميّت ، وجاؤوا ليكشفوا على الجثّة ، ما زلتُ حيّا ، وما زلتُ أقاوم ، وما زال لديّ ما أقوله كشفَ الطّبيب على جسدي ، وكتبَ تقريرًا في صالحي أنّني تعرّضتُ للضّرب ، عجّل هذا في نقلي من شعبة الاستخبارات إلى السّجن العسكريّ في قلب الزّرقاء

وصلتُ إلى السّجن ليلاً ، كانتْ حرارة الزّرقاء اللاّهبة قد خفّتْ ، وسمح اللّيل لبعض النّسمات اللّطيفة أنْ تتجوّل في الأرجاء ، أعرفُ جوّ الزّرقاء ، إنّه خانق ، ويضغط على الصّدر ، ولاهبٌ ، ومليءٌ بالغبار ، وفاسدٌ كأنّ عشرات الآلاف من الأقفية ضرطتْ فيه مرّة واحدة!! لكنّ انزياح الشّمس عن قبّة السّماء ، وخلوّ الطّرقات الخارجيّة من ازدحام النّاس ، وسرعة ترحيلي ، وإفساح الطّريق للموكب العسكريّ ، كلّ ذلك خفّف كثيرًا من انزعاجي

أدخلوني على مدير السّجن ، تفاجأتُ أوّل ما رأيتُه ، إنّه العقيد (مدّ الله) ، لقد خدمْتُ تحت قيادته في السّابق ، وكانتْ مياه المودّة تجري في قلوبنا ، وكنتُ أحترمه ، ولا أظنّ أنّ قضيّتي ستؤثّر على هذا الاحترام ، وقد صدق حدسي . تلقّاني بترحابٍ شديدٍ ، وسألني عن أخباري ، قلتُ له ، وأنا أنظر إلى جسدي وأشير إليه «ها أنا كما ترى ، كامل الأوصاف» وضحكت .

خصّص المدير لي غرفةً نظيفة ، وأمر عساكره بتلبية حوائجي دون تأخير ، فأعطوني فراشًا نظيفًا يُمكن للنّائم عليه أنْ يرى أحلامًا سعيدة ، أو على الأقلّ يحلم أكثر من حلمٍ في اللّيلة الواحدة ، وأمرهم كذلك بأنْ يصرفوا لي وجبات الطّعام من مطبخ الضُّبّاط لا مطبخ السّجناء ، وكانتْ تلك تكرمةً عظيمةً ، إذ حصلتُ بموجبها على وجبات دجاج ولحم مطبوخةٍ على يدَي طبّاخ ماهرٍ ما كنتُ أحلم بها في السّابق .

نمتُ نومًا هنيئًا ، ترحّمتُ على مشاكساتي مع أبي قاسم ، وتعاطفتُ معه قليلاً ، وهتفتُ في سِرّي : «لو كنتُ أدري أنّ هذا ما ينتظرني لعجّلتُ بطلب نقلي إلى هنا . لكنّ الإنسان يتوقّع الأسوأ دائمًا» تابعتُ حديثي مع نفسي : «لا تلمْ نفسكَ على توقّع الأسوأ ، فإنّه كثيرًا ما يُساعد القلب الضّعيف على عبور الأزمات»

حلمتُ بزوجتي تلك اللّيلة ، كانتْ تجلسُ مع أمّي ، تجادلها ، تقول لها : «أريدُ أنْ أعرفَ ما هو الحلم الّذي قلتِ إنّه عن أحمد وسيتحقّق» كانتْ أمّي تضحك ، وتستمتعُ بمناكفتها دون أنْ تقول لها عن الحلم فجأةً أضاء التّلفاز القابع خلفهما ، وظهر على الشّاشة مُذيع الأخبار وهو ينقل خبر مقتل صهاينة في عمليّة استشهاديّة في القدس» . قالتْ أمّي لزوجتي «هذا هو الحلم يا فاطمة» . وانطفأت الشّاشة ، وأعتم المكان

في الصّباح استيقظتُ على صوت مدير السّجن العقيد (مدّ الله) ، كان يقرفص عند رأسي ، حينَ فتحتُ عينَيَّ رأيتُه يبتسم ، قال لي : «يبدو أنّكَ كنتَ متعبًا ، لقد نمتَ بعمق» . حيّيْتُه ، أشار إلى عناصره الواقفين خلفه ، جاؤوني بالفطور ، وبالشّاي السّاخن ، عزمتُ

عليه قائلاً : «مالحْني يا سيدي» . أكل لقمةً من صحن الحمّص ، ونهض ، قال لي : أمرتُ العساكر بأنْ يضعوا جرسًا لكَ داخل غرفتك ، إن احتجْتَ شيئًا ما عليك إلاّ أنْ ترنّ الجرس وسيكون عسكريّ أمامك ينتظر أوامرك ، وبالفعل عيّنوا شرطيًا مناوبًا ٢٤ ساعةً أمام باب غرفتي وانسحبَ هذا التّعامل اللّطيف من مدير السّجن على بقيّة العساكر الصّغار ، فكانوا غايةً في التّهذيب معي ، وعرفتُ أنّ الثّمرة الحلوة لا تأتي إلاّ من شجرةٍ طيّبة

أغضبُ سريعًا . لكنّني أسامح أسرع كان هذا أكثر ما انطبع في ذهن الّذين تعاملوا معي تعاملاً مباشرًا . لم أكنْ أهتمّ كثيرًا بآراء النّاس حولي ، كان يهمّني أنْ أكون متصالحًا مع نفسي ، وألاّ أندمَ على شيءٍ ، وألاّ تلطّخني الشّهوات ، أو تنغصَ حياتي الآلام ، أو أنْ تصرفني عن هدفي المُغريات . ما أقصرَ العيش ، ما أمرّ السّاعة ، وما أغبانا إنْ قضيناها في الحقد على الآخرين!! سيعبرون قريبًا ممرّ الحياة إلى الموت كما سنعبره مثلهم ، فلماذا كلّ هذا العداء؟! أنا أؤكّد لكم أنّه على لا شيء ؛ لا شيء يستحقّ . في جلسةٍ من هذه الجلسات الّتي طال أمدها ، كنتُ قد دخلتُ مع القاضي في جِدال ، فصرخ بي قائلاً : «اسكتْ» . فأجبتُه «كيفَ أسكت ، لن أسكت» . وكنتُ منفعلاً ، فطلبَ منّي أنْ أخرج من قاعة المحكمة ، لكنّني رفضتُ قائلاً : «لن أخرج» . فهاج القاضي ، وطلب من عناصر الشّرطة أنْ يُخرجوني بالقوّة ، وصاروا يدفعونني إلى الخارج وأنا أتشبّث بقضبان الحديد في القفص حتّى لا يتمكّنوا من ذلك ، كان أحدهم قريبًا منّي ، وقد غاظه ما يحدث ، ولا أدري إنْ كان يريد أنْ يُثبت أنّه قادرٌ على تحقيق الأمر بالقوّة ، أم أنّه نوعٌ من الاستعراض الّذي استيقظ في أعماقه في تلك

اللّحظات ليُشاهده النّاس ، قفز هذا الشّرطي إلى أعلى القفص ، تسلّقه مثل قرد ، كان أعلى القفص مفتوحًا ، ونزل من جزئه المفتوح هذا وهوى بسطاره على كتفي ورأسي ، وراح يضربني ليُرغمني على الخروج ، وتدخّل عددٌ من المحامين وروجوني أنْ أخرج ، وخرجتُ بالفعل . أثّرتْ بي تلك الحادثة . جرحتْني عميقًا لا أنكر ذلك . ولكنّني اليوم وأنا أروي لكم قصّتي ، أنظر إليها كما أنظر إلى العشرات مثلها ، متسامِحًا مع أصحابها ، قالتْ لي أمّي : «لن أسامحه ولن أغفر له» . قلتُ لها : «أنا سامحتُه» . أجابتْني وهي ترفع يديها معترضةً في وجهي «أنتَ حرّ ، أمّا أنا فلليوم لم أُسامحه ، لك أنْ تتصرّف بالجزء الّذي يخصّك ، ولي أنْ أتصرّف بالجزء الّذي يخصّني»

في الجلسة الثّالثة عشرة من هذا الماراثون الطّويل الّتي عُقدتْ بتاريخ ١٢-٧-١٩٩٧ قدّم المحامي حسين مجلّي مرافعته الخطّيّة الّتي تقع في مئتين وثماني عشرة صفحة ، تضمّنتْ وقائع المحاكمة منذ البداية ، ورفضه للاستماع إلى شهادة الصّهاينة باعتبار أنَ أسماءهم لم تكنْ مُدرجة في لائحة الشّهود ، ورفض وصف أطبّاء المحكمة لي بأنّني أعاني من اختِلالات نفسيّة ، ودفع باتّجاه حماية حدود الوطن ، وأنّه تصرّف بما يُمليه عليّ الواجب بوصفه حارِسًا في نُقطة حدوديّة كان يبدو أنّ خطَّ النّهاية في هذا الماراثون يقع على بُعدِ جلستَين فقط ، وهذا ما حدث .

في ليلة النُّطق بالقرار ، كان ذلك ليلة الجمعة ، وهي اللّيلة الّتي سبقتْ الجلسة الخامسة عشرة ، سَهِرَ معي مدير السّجن ، كان واضِحًا أنّه يريد أنْ يُخفّف عنّي ، كان يُدرك أنّ الوجع يُمكن أنْ يُنسى إذا وجدَ قلبًا دافِئًا يُسامره ، مكثْنا ساعتَين معًا . قال لي : «المحاكمة غارقةٌ في الحسابات السّياسيّة ، والوَقْعة مع اليهود ليست أيّ وقعة ، ولذلك لا

تتفاءلْ كثيرًا» . أجبْتُه «كان ذلك في علم الغيب وفي علم الله قبل أنْ أُصبحَ مُضغةً في بطن أمّي ، أقبلُ ما يقبله الله لي» . قال : «لا أريدُكَ أنْ تُصاب بصدمة ، ربّما تظنّ أنّ هذا التّعاطف الكبير معك من النّاس سوف يُخفّف الأحكام الّتي ستصدر غدًا بحقّك ، كلاّ يا أخي ، التّعاطف كان معكَ شعبيًا ، وهؤلاء لا يملكون القرار ولا يصنعونه ، ولا حتّى يُشارِكون في صنعه ، كلّ هذه الهتافات الّتي كان القلب يطربُ لها في جلسات المحكمة لا ترفع عنكَ عقوبةً أو بندًا منها ما دام أنّ هذه العقوبة ستُقرّر على ضوء التّوازنات الدّوليّة ، خذني مثالاً على ذلك ، أنا معك ، ومع العمل الّذي قُمتَ به ، لكنّني وأنا العقيد ذو الشّارة الحمراء لا يُمكنني أنْ أفعل لك شيئًا سوى أنْ أقدّم لك الشّاي بكمّيّة السّكّر الّتي تُحبّها» . قلتُ له وأنا أهزّ راسي وأبتسم : «هذا يكفي ، يكفي أنْ تكون القلوب معي ، أنْ يعرف النّاس ، أنْ تعرف الأجيال أنّ ما قمتُ به كان مُستندًا على مبدأ رفض وجود اليهود في بلادنا من الأساس ، أنّه حتّى لو دُبّجت الاتّفاقيّات ووُقّعت المعاهدات ، وخضع الزّعماء فإنّنا - شعوبًا - سنظلّ نرفع البندقيّة في وجه القتَلة والمُحتلّين» تنهّد تنهّدةً طويلة ، وقال : «أرجو ألاّ نعيش أنا وأنتَ إلى زمانٍ تتطبّع فيه الشّعوب بطباع الرّؤساء ، أنْ يُصبح قَبول اليهود أمرًا واقِعًا ، ويتمّ تجريم من ينالهم بمجرّد الكلام في المجالس العامّة بتهمة معاداة السّاميّة أو العنصريّة أو حتّى الإرهاب» . فاجأني تشاؤمه ، قلتُ له «أمّا أنا فأرجو أنْ أعيش حتّى أرى جيلاً يقلب الطاولة على رؤوس الجميع ، ويخربط معادلات السّياسة وتوازناتها ، ويُغيّر خارطة المنطقة ، ويُعيد القدس إلى حوزة المُسلمين» . قال لي وهو يهزّ رأسه بأسى : «أحسدكَ على تفاؤلك» . أجبتُه «تفاءلوا بالخير تجدوه مدّ الله بيك»

قال لي : «أنا أتشاءم أحيانًا لأكون واقعيًا ، لكنّ هذا التّشاؤم لا يدفعني إلى اليأس ، لو كان في الأجيال هذه أو القادمة من يحمل قلبَك وروحَك فستبقى الأمّة حيّة ، وسيبقى صراعنا مع اليهود قائمًا ، أرجو ألاّ تخبو هذه الجذوة» . قلتُ له : «وماذا تتوقّع أنْ يحكموا غدًا عليّ؟» أجابني : «توقّعْ أحكامًا عالية مثل الإعدام أو المُؤبّد ، أسأل الله أنْ يُسلّمك ، ولكنّنا لا ندري أين يقودنا مركب السّياسة والتّوازنات الإقليميّة!! في المقابلة الّتي أُجريت أمس مع مستشار رئيس وزراء العدوّ الصّهيونيّ على إحدى قنواتهم التلفازيّة سُئِل من مُعِدّ البرنامج : ماذا تتوقّع أنْ يُحكَم على الجنديّ الأردنيّ أحمد الدقامسة؟ أجابه المُستشار : المُؤبّد مع الأشغال الشّاقّة . هذا ما قاله في المقابلة ولكنْ لا ندري عَمّ ستتمخّض المحاكمة غدًا» . قلتُ له «أرضى بقدر الله» سألني : «هل أنتَ خائف؟» . أجبتُه : «لا . . . لكنْ للأمانة أنا مشغول الفكر ، لا أكاد أستقرّ» . «الإيمان يُثبّت القلوب ، خُذْ هذا» . وأعطاني كُتَيّبًا صغيرًا فيه سُورٌ مختارةٌ من القرآن الكريم ، وأدعيةٌ مأثورة ، وقال لي : «صلّ به اللّيلة أو صلاة الفجر ، وادعُ مِمّا ورد فيه ، زوجتي قالتْ أنْ أوصله إليك ، هي الأخرى تدعو لك» قلتُ له قبل أنْ يغادر وقد كاد اللّيل ينتصف : «عندي طلبٌ واحد سيّدي» . التفتَ إليّ وابتسم : «على طول» . قلتُ له «أريدُ ثيابًا نظيفةً في الصّباح ، وحذاءً جديدًا ، وعِطرًا ، وأريدُ من الحلاّق أنْ يقصّ لي شعري بشكلٍ رائع» . سألني وهو يبتسم مستغربًا : «حاضرْ ، ولكن لماذا تريدُ كلّ ذلك؟» . أجبتُه «أريدُ أنْ أبدو وسيمًا أمام المحكمة ، غدًا هو النّطق بالقرار ، وعليّ أنْ أكونَ جميلاً في تلك اللّحظة ، مرفوع الهامة ، موفور الكرامة ، لا أريد أنْ أستقبل الحكم بأيّ ثياب ، لا أريد أنْ أبدو أنّني خَجِلٌ أو خائفٌ أو

مُرتبك أو نادمٍ أو ضعيف ، لي قلبُ أسدٍ ، أريد أنْ أتلقَى الحكم بكامل بهائي ، الرّضا شرطُ القَبول»

مرّ الليل كطائر تخفق أجنحته بصمت ، صمت عميق ، حركةً بلا صوت ، لم يحدثْ ذلك لليلةٍ من ليالي السّجن الكثيرة إلاّ لهذه . قطع الطّائر طرفَي الغابة في هدوء ، وحطّ على شجرةٍ عالية ، وبدأ يؤذّن لصلاة الفجر ، استيقظتُ حينها ، توضأتُ وصلّيتُ ، ورفعتُ يدَيَّ إلى السّماء ، كانت أبواب السّماء مُفتّحة ، هكذا رأيتُها ، كانتْ أمّي تقف في ذات اللّحظة مثلي ، وكذلك أبي ، وزوجتي ، وإخوتي ، كانوا يقفون يرفعون الأكفّ إلى السّماء ، فتنهمر غيمات الرّضا

إنّه صباح التّاسع عشر من تمّوز لعام ١٩٩٧م ، أحضروا لي طعام الإفطار في السّابعة ، أكلتُ بشهيّة ، شممتُ في رائحة الخبز السّاخن رائحةَ الخبز الّذي تصنعه أمّي ، كأنّ يدَيها قد مسّتْه بشذاهما . أخرجوني من الزنزانة إلى غرفة الحلاقة ، حلق الحلاّق لي ذقني ، وزيّن لي شعر رأسي ، ثُمّ خرجتُ من هناك إلى الحمّامات ، لبستُ ثيابي الّتي وعدني بها مدير السّجن ، ورششتُ العطر ، فبدوتُ وسيمًا كما أردت . وانتظرتُ الموكب الّذي سيُقلّني إلى المحكمة . على باب الزّنزانة المتحرّكة ، وكنتُ قد صعدتُ درجتَيها ، وقف المدير على بابها ، ومدّ يده إلى الأعلى وصافحني ، وهو يقول : «ابقَ كما عرفتُك ، قويًا شامخًا مُتماسِكًا ، قلبي معك» . ابتسم ، ولمعتْ عيناه .

وصلْنا إلى محيط المحكمة ، كانت المحكمة قد تحولتْ إلى ثكنة عسكريّة ، يُحيطُ بها القنّاصة والحرس من كلّ جهةٍ ، وينزرعون في كلّ شبرٍ منها ، أُدخلتُ كالمعتاد إلى النّظارة الّتي تقع خارج المبنى ، بانتظار انعقاد جلسة النّطق بالقرار ، كان الكتيّب قد رافقني من السّجن إلى

هنا ، قرأتُ فيه ، وتلوتُ ما أحفظ من الآيات ، ودعوتُ بما استطعت .

في العاشرة أدخلوني من الباب الّذي يُفضي إلى القفص المعروف . كانت القاعة مكتظّة . حضرها أقاربي وأهلي ، وكثيرٌ من المؤيّدين لي ، وعددٌ من أعضاء مجلس النّوّاب الأردنيّ ، وعددٌ من أقارب القتلى اليهود . على يمين المحكمة احتشدتْ عشرات العدسات والكاميرات وأجهزة التصوير والميكروفونات ، كانتْ هناك وسائل إعلام محلّيّة وعربيّة وغربيّة وصهيونيّة ، كلّ قناة جاءت لتشهدَ الحكم عليّ ، كانت العدسات قد فتحتْ قلوبها وآذانها وأعيُنها لتلتقط الفصل الأخير في هذه المحاكمات الطّويلة

دخل القاضي وأعضاء المحكمة القاعة ، فضجّ صوتُ الحاجب : «محكمة» ، وأمر الجميع بالوقوف . فوقفتُ . وبدأ القاضي بتلاوة القرار ، كان القرار مُكوّنًا من ثلاثٍ وسبعينَ صفحةً ، في غمرة قراءته للقرار ، جلستُ وبدأتُ أتلو آياتٍ من القرآن الكريم ، كانت الآيات بلسمًا مسح على كلّ الجروح السّابقة ، في منتصف آيات سورة يونس ، رأيتُ الشّيخ عبد الرّزّاق ، كان يقف وهو يلبس جُبّته الخضراء ، كان يضحك ، وفي يده عُكّاز خشبيّ ، قلتُ له «لقد هرمتَ يا شيخ عبد الرّزّاق» أجابني «نحن هناك سنُولَد من جديد ، اتبعني» . ومشيتُ خلفه ، دخل إلى غاباتٍ ملتفّة الأيكة ، سألتُه : «إلى أينَ تأخذني يا شيخ عبد الرّزّاق . القضاة هنا يتلون قرارهم وأنا أنتظر ما سيقولون» . ردّ عليّ وهو يلتفتُ نحوي إلى الخلف ، ويُشجّعني : «هيّا اتبعْني ، هؤلاء القُضاة لا يَملكون من أمرهم شيئًا ، نحن سنذهب إلى قاضٍ عادلٍ لا يُظلَم عنده أحدٌ» . وغاب ولم أعدْ أراه .

استيقظتُ من غفوتي على صوتِ القاضي ، كان القاضي يقرأ

الجزء الأخير من القرار: «ثانِيًا: عَمَلاً بأحكام المادّة ١/٧٢ من قانون العقوبات، فإنّه تُنفّذ بحقّه العقوبة الأشدّ دون سواها وهي الوضع بالأشغال الشّاقّة المُؤبّدة، تُحسب له العقوبة اعتِبارًا من تاريخ توقيفه ثالثًا: تنزيله إلى رتبة جُندي ثانٍ وطرده من الخدمة العسكريّة عملاً بأحكام المادّة... قرارًا وِجاهيًا صدر بالإجماع موقوفًا على تصديق عطوفة رئيس هيئة الأركان المُشتركة، وأُفهم علنًا بتاريخ ١٩-٧-١٩٩٧م». رُفعت الجلسة

هجم على القفص عددٌ من المحامين ومن أقاربي. هنّأني عددٌ من النّاس بالسّلامة، بعضهم ذهبتْ تقديراتهم إلى الإعدام، ورأوا في الحُكم المُؤبّد نوعًا من التّخفيف. بعضُ الشّرّ أهون من بعضٍ كما يُقال. سارَع العساكر بإخراجي من القفص تحت حراسة مُشدّدة، كانت حراسةً غير مسبوقة، عشرات السّيّارات المُسلّحة رافقتْ الزّنزانة المُتحرّكة الّتي تُقلّني، بالإضافة إلى باصٍ يحمل أكثر من عشرين مُسلّحًا مُلثّمًا، وأربع درّاجات ناريّة

كان قلبي يمور في الطّريق بآلاف المشاعر المُتضاربة، ضجيجٌ لم آلفه من قبل يملأ رأسي، طيورٌ مهاجرة تخفق بجناحَيها عالِيًا في فضاء عقلي، تمضي إلى آفاقٍ مجهولة، وصُوَرٌ عديدةٌ منذُ طفولتي تمرّ سريعًا أمام عينيّ، تتوقّف للحظات أمام أمّي مرّة، وأمام أبي مرّة، ثُمّ تتابع عَدْوها السّريع، إلى أنْ تصل إلى الشّيخ عبد الرّزّاق، يملؤها بالعطر وهي تمرّ من أمامه، لتصل إلى اليوم الّذي نفّذْتُ فيه العمليّة، إنّها خلايا ضوئيّة تختبئ في أشعّة تركضُ مسرعةً من البدايات إلى النّهايات، هل كلّ حياة البشر أضواءٌ تمرّ سريعًا، وفجأةً تنطفئ، هل نحن نِقاطٌ ضوئيّة مُسافرة!! ما الّذي يحدثُ في هذا العالَم المجنون!!

(٤٠)
العالَم مليءٌ بالذّئاب

على باب السّجن العسكريّ استقبلني المُدير ، كان مُتأثرًا جدًا عانقني كأخ يرى أخاه العائد لتوّه من غربةٍ طويلة أوّل مرّة ، وأطال عناقه ، سمعتُ شهيقَه ، ربّتُّ على ظهره لأقول له «ثمنُ الجنّة غال» رفع رأسه ، كانت عيناه جمرتَين ، تتحفّز فيهما الدّموع إلى الانهِمار ، أشاحَ بوجهه بعيدًا حتى لا أراه ، وهتف : «حسبي الله ونِعم الوكيل» خفّفتُ عنه ، دعوتُه إلى التّصبّر والاحتساب كأنّه هو الّذي حُكِم بالمؤبّد لا أنا ، عجيبٌ هذا الرّجلِ ، قال لي : «مع أنّني كنتُ أتوقّع حُكمًا كهذا ، لكنّني أرى أنّ بطلاً مثلك يجب أنْ يُكرّم لا أنْ يقضي عمره كلّه في السّجون» . قلتُ له «كلّ شيءٍ عنده بمقدار» . بكى . لم يتأسّ . هتفتُ من جديد : «لو كان الأمر بيد البشر لهلكوا ، نحن نتطلّع إلى رحمة الله ، أملي أنْ ألقاه راضِيًا . هل تعتقد ذلك سيّدي؟» . لم يُجِب . أجابتْني عيناه ، كان طائر المودّة يخفق في آفاقهما الواسعة . إنْ لم تعرف النّاس عن قربٍ ، وتعاشرهم زمنًا يُتيح لك الحُكم عليهم ، فلا تتبرّعْ بتوزيع أحكامك الجوفاء ، أقول هذا الكلام ، لأنّني عرفتُ أنّ في الجيش شرفاء بهم تستعيد الأوطان كرامتها ، وترفع هامتها

رافقني العقيد مدّ الله إلى زنزانتي ، قال لي وهو يقف على بابها : «اطلبْ أيّ شيءٍ . أيّ شيءٍ . اعتبرني أخاك الكبير . أنا لا أحظى بأخوّةِ مثلك في كلّ حين . وسأحاول جاهِدًا أنْ تبقى عندي هنا في

السّجن العسكريّ، لأنّ المعروف أنّ العسكريّ الّذي يصدر حُكمٌ بحقّه يُرحّل تلقائيًا إلى سجن سواقة». شكرتُه «لن أنسى معروفك سيّدي، هل يمكن أنْ يُحضِروا لي الصّحف اليوميّة الصّادرة صباح غدٍ؟». أجابني: «ممنوعٌ إدخال الصّحف، لكنّني سأحاول أنْ أؤمّنها لك بأيّة وسيلة». ومضى

كان يومًا فارقًا. إنّها مدن الخوف، إنّها عواصم الرّعب. هؤلاء الّذين يجلسون على الكراسي يعيشون في رعبٍ متواصل، إنّهم لا يحظون بساعةٍ من هدوء. لقد تحوّلوا إلى عبيدٍ لأولئك الّذين يُقيمون لهم القواعد العسكريّة في بلادهم من أجل حمايتهم. لن يفهم العالَم بشكلٍ واضح، ولا بصورةٍ سريعةٍ أن العالَم اليوم تحوّل إلى خادم مُطيع للعمّ سام، وأنّ العمّ سام تحوّل إلى خادم ذليل لإسرائيل. النّزاعات الّتي تُفتَعل، الحروب الّتي تُشنّ، الثّورات الّتي تُشترى، الأوطان الّتي تُباع، الجُزر الّتي توهَب، البشر الّذين يُدجّنون، كلّ ذلك يحدث من أجل أنْ تظلّ الابنة المُدلّلة تعيشُ في رفاهية كلّ حكم على مُقاوم، أو مُعارض، أو صاحب رأي، ينبع من الخوف، الخوف على البقاء إلى حفيد الحفيد السّادس عشر على ذات الكرسيّ؛ الكرسيّ الّذي قوائمه بيد المُستعمِر، المُستعمِر الّذي يملك أنْ يُحطّم هذه القوائم بما يُسمّى إرادة الشّعب، الشّعب الّذي لا يُتقن غير النّباح على الشّعب الشّقيق، الشّقيق الّذي يُحاصر شقيقه بكلّ ما أوتي من قُوّة حتّى يرمي له المُستعمر العَظْمة أمام قدمَيه اللّتين نهشهما الدّود ولا يرميها لشقيقٍ آخَر!! إنّها دوّامة من الجنون، والهلع، والسُّعار، والهَذَيان؛ فأينَ المخرج!!

كانتْ ليلةً لها ما بعدَها. إنّها ليلة الحُكم على المُقاومة، كلّ مَنْ يُقاوم سيكون أقلّ مصيرٍ له المُؤبّد، سيأكله العفن في السّجن، أو يأكل

حبلُ المشنقة من عنقه ، إنّها عصا التّأديب لكلّ مَنْ يفكّر في هذا النّهج . ليس لهذا الزّمان ، ولكنّها لكلّ زمان . حدثتْ في كلّ مراحل مقاومة المحتلّ في فلسطين ، وستحدثُ غدًا ، وبعدَ غد . ولن يُوقِفها إلاّ جيلٌ واعٍ تربّى على ألاّ يرى الوردة على طاولة المُفاوضات ، بل يرى الخنجر الّذي يُخبّئه المُفاوض خلف ظهره ، ويتحيّن الفرصة المُناسبة لطَعنِ غريمه

لقد قالوا «إنْ لم تكنْ ذئبًا أكلتْكَ الذّئاب» . صدقوا . العالَم مليءٌ بالذّئاب ، الذّئاب تتجوّل في كلّ مكان ، شوارعنا مليئةٌ بالذّئاب ، بيوتنا مليئةٌ بالذّئاب ، فُرُشنا مليئة بالذّئاب ، عيوننا مليئةٌ بالذّئاب ، إلى حدّ أنّ أرواحنا مليئةٌ بالذّئاب ، وإنْ لم نُدرّب أنفسَنا على قَتْلها ، وقتل الخوف منها ، فمصيرنا إمّا أنْ نتحوّل ذئابًا مثلها تلغ في كلّ دم ، وإمّا أنْ نستقرّ في بطونها . ولا خيار ثالث . وعليه قاومْ حتّى آخر قطرةٍ في دمك ، وحتّى آخر لحظةٍ في عمرك ، وحتّى آخر نَفَسٍ في صدرك!!

صحوتُ كأنّني قد نمتُ قرنًا من الزّمان ، وعبرتُ عوالَم مختلفة ، وتجوّلت في أماكن غريبة ، صحوتُ كأنّني أصحو على عالَمٍ لا ينتمي إلى السّجن ، عالَم ينتمي إلى بشرٍ آخرين ، وكوكبٍ آخر غيرِ الأرض ، كان ذلك محاولةً للهروب من الواقع ، هل يُمكن لأحلام مثل هذه أنْ تخدعك ، تفصلك عن عالمك الحقيقيّ ، لتجعلك تعيشُ عالَمك الوهميّ ، إنّه وهميٌّ نعم ، ولكنّه عالَم على الأقلّ خالٍ من وقاحات البشر ، خالٍ من المبادئ المعكوسة ، والقِيم المُنهارة ، والخيانة المُستمرّة ، والتبعيّة للآخر

كانت السّاعة تُشير إلى الثّامنة حينَ طرقَ مدير السّجن باب

زنزانتي، وأحضر لي بنفسه جرائد الصّباح لذلك اليوم، وكانت تصدر أربع جرائد في الأردنّ يومَها هي: الرّأي والدّستور والعرب اليوم والأسواق. قلّبْتُها، كان خبر الحُكم عليّ يتصدّر صفحاتها الأولى. من الجميل أنْ يعرف الأطفال أنّ في بلدهم من أطلق النّار على الصّهاينة، أنّ شابًا مليئًا بالحقد على اليهود تحوّل حِقده إلى عمل حقيقيّ الشّتائم وحدها لا تصنع الوعي. ولا تُبرز الحقيقة. ليسَ أصدقَ من البندقيّة في إثبات ما تحمله من فِكر. لسان البندقيّة غير ذي عوج، إنّه لسانٌ عربيٌّ مُبين. لقد تكلّمت البندقيّة في ذلك الصّباح من أجل أن تُشعل فكرة الصّراع الأبديّ بيننا وبين اليهود. لقد قرأتُ عن تاريخ اليهود ما يشيبُ له رأسُ الوليد. لم تقتصرْ مكائدهم على الأنبياء فحسب، فذلك مِمّا أخبرنا به القرآن، لكنّ مكائدهم طالتْ كلّ شعبٍ وكلّ عرق وفي كلّ عصر. قتلوا، وأبادوا، وأحرقوا، وأعدموا، وسَحلوا في الشّوارع، ونهبوا، وزيّفوا، واستلبوا، وانتحلوا، وراوَغوا، وفتنوا، وأوقعوا بين الشّعوب، ورقصوا على الجراح، وسكروا على الدّماء، واغتصبوا، وخانوا، وغدروا . ثُمّ لعبوا دور الضّحيّة، واستجدَوا العالَم أنْ يقف إلى جانبهم بصورةٍ لم تعهدْها أيّ طائفة من البشر مهما كان دينُها أو لونُها أو عِرقُها!!

قرأتُ الصّحف، وشعرتُ بشيءٍ من الزّهو، إنّني أصلُ إلى المحطّة الأخيرة في المرحلة الأولى. لقد قمتُ بما كان يجب أنْ أقومَ به، ولستُ نادمًا على شيء، وأترك ما فعلتُه للأجيال الحُرّة والتّاريخ من أجل أنْ يحكموا عليه. قال لي مدير السّجن: «إنّها كاذبة، يُسمّونها الصّحف الصّفراء». سألته: «ولماذا يُسمّونها كذلك؟». أجابني: «لأنّها تُشبه أنياب الضبع الصّفراء، تعيش على دماء الضّحيّة ولا تشبع!!»

بعد خمسة أيّام من صحف تأتيني تِباعًا عن طريق مدير السّجن ذي القلب الطّيّب ، جاءني المحامي حسين مجلّي ، كانتْ نظّارتاه تُغطّيان عينَيه بإطارهما الأسود الشّهير ، من خلف زُجاجتَيهما رأيتُ حزنًا عميقًا . سألتُه إنْ كان الحُزن عابِرًا أم مُقيمًا على سبيل الدّعابة ، قال لي إنّ سبب ذلك أنّ رئيس هيئة الأركان المُشتركة قد صادقَ على قرار الحكم الصّادر بالمُؤبّد ، وأردفَ وهو يحكّ ذقنه : «أحكام المجلس العسكريّ قَطْعيّة» . لم تكن المُصادقة على القرار لتُضيف إلى قائمة توقّعاتي شيئًا الأمر محسوم بالنّسبة لي من الأيّام الأولى لتنفيذ العمليّة .

في ذات اليوم ، في المساء الشّفيف ، دخل عليّ العقيد (مدّ الله) ، كان يضحك ، يحمل في يده راديو ترانزستور ، بحجم كفّة اليد ، قال لي : «إنّه يلتقط إشارة الإذاعة الإسرائيليّة بوضوح ، الملاعين بثّهم يصل إلى كافّة أنحاء الأردنّ ، في حين أنّ بثّ إذاعة مُحافظة من مُحافظاتنا لا يصل إلى المحافظات الأخرى داخل الأردنّ نفسها!! لقد أحضرتُه لك كي تستمع إلى الأخبار متى تشاء» . شكرتُه . لم يكدْ يخرج ، حتّى سمعتُ على محطّة إذاعة القُدس (إذاعة المُقاومة الفلسطينيّة) أخبارًا تُفيد باعتقال والدتي ، وعدد من أقاربي ، بتهمة التّحريض على أعمال شغب . هل من المعقول انْ تُسوّل لهم أنفسهم اعتقال امرأة!!

تخيّلتُ أمّي وهي تتقدّم الجموع الغاضبة ، تهتف بصوتِها الهادر ، وتهيجُ الجموع من بعدها ؛ أمّي من النّوع الّذي يُمكن أنْ يصنع ثورةً لقد علّمتْني أنّ الحُرّ لا يرهنُ إرادته لأحد ، أتخيّلها بشُرشتها السّوداء ، تشقّ الطّرق ، وترفع صورتي ، لقد طلبتُ من كلّ المُصوّرين الّذين التقطوا لي صورًا أيّام المحاكمة أنْ يُزوّدوها بنسخةٍ من كلّ واحدةٍ ، تحمل

تلك الصّوَر وتهتف بأعلى الصّوت . تحتمي بها الجموع من خلفها ، إنّها أمّ ، وامرأةٌ ستّينيّة ، ولكنّ ذلك لا يشفع لها ، فتُعتقَل . يأتي رجلٌ رشيدٌ ، يُسارع في الإفراج عنها ، ويُلغي التّهم الحمقاء بحقّها . تعود إلى البيت وما زالتْ تهتف . ينال منها التّعب ، وتنام . تحت مخدّتها تنام صوري كذلك بهدوء ، تتلمّسها قبل أنْ تنام ، وتغلّفها بدعاءٍ يصل إلى قلبي هنا ، فيُشعِرني بالطّمأنينة

يا فاطمة ، إنّني لم أتمّ تعليمي في المدرسة ، لكنّ ذلك ليس نهاية الأمر ، إنّني أعلّم نفسي بنفسي ، هل ذلك صعبٌ؟ كلاّ . إنّني أعشق الكتاب الّذي أحمله بين يديّ ، أقرأ بشغف ، إنّه يُساعدني على الصّبر على ما أنا فيه ، ويُساعدني على التّسامح ، كلّما قرأتُ كتابًا شعرتُ بتفاهة الدّنيا ، وحماقة لُهاث النّاس فيها ، وصراعهم على حُطامها ، ونُشوب النّزاعات بينهم ، يَقتلون لرغبة ، أو لنزوة ، أو لطمع . . . الكتاب يُخلّصني من الرّغبات الدّنيئة والنّزوات الوضيعة ، ويُطهّرنيّ من الطّمع ، إذا تطهّرتُ من الطمع لم آسف على مفقود ، ولم أتطلّع إلى موجود ، ودعاني ذلك إلى أنْ أسامح كلّ أحد . . . فلا تحرميني من الكتاب . . .

إنّني خرجتُ من المدرسة مُبكّرًا لأحمل البُندقيّة ، لا لكي أُصبح جاهِلاً ، والعالِم الّذي يحمل البندقيّة لا يُخطِئ ، لأنّ لديه رصاصتَين : رصاصةَ الثّورة ورصاصةَ الفكرة . انظري إلى ابن تيمية ، وإلى أحمد بن حنبل . وأنا؟ سأتعلّم ، سأتعلّم ما استطعت . يبقى الإنسان يتعلّم إلى آخر يوم في حياته ، ولي بأولئك العُظماء الّذين لم يُكملوا تعليمهم قدوة ، لي بالعقّاد والرّافعيّ قدوة ، وبغيرهما . وإنّني قادرٌ على أنْ أنقّي روحي بالقراءة ، فلا تحرميني في كلّ زيارةٍ من أنْ تأتيني بالكُتب . أنتِ تعرفين ما أريد ، وأنا أنتظر على أحرّ من الجمر .

(٤١)
الكُتبُ قنابلُ مَوقوتةٌ

إنّها أوّل زيارةٍ لأهلي بعد صدور الحكم ، وإنّه يوم الجمعة ، زارتْني يومَها أمّي ، وزوجتي ، وشقيقها . لم أكنْ بعدُ قد سافرتُ في البعيد ، ولا حملتُ حقائبي ورحلتُ باتّجاه الصّحراء حيثُ السّجن الأحنَ (سواقة) كنتُ لا أزال في السّجن العسكريَ بالزّرقاء . وكان يومًا انبنى عليه أملي في العشرين عامًا الّتي سأقضيها في المنافي .

منذ يوم الأربعاء وأمّي مع فاطمة ، يَدورون على مكتبات إربد ، يبحثون لي عن كتبٍ كنتُ قد طلبْتُ منهم أنْ يحضروها سابِقًا كانتْ أمّي تحمل ورقةً كتبَ فيها أخي (باسم) الأسماء ومؤلّفيها ، إنّها لا تقرأ ، تعرض الورقة على صاحب المكتبة ، وتُشير إلى المكتوب فيها «أريدُ هذه الكتب» كان يهزّ رأسَه «لا يُوجَد منها عندنا أيّ كتاب» لا يؤثّر ذلك في عزيمتها ، تنادي على فاطمة الّتي تتفحّص بعض الكتب المعروضة : «هيّا ليسَ لدينا النّهار بطوله» تقول لها وهي تُشير بيدها كي تتبعها . لقد استغرقهم البحثُ يومًا كاملاً حتّى استطاعوا الحصول على ستّة كتب من عشرةٍ مدوّنة في الورقة . تفرح أمّي ، تُقلّب الكتاب بين يدَيها ، تشعر بقيمته ، لا تستطيع أنْ تقرأ حتّى اسمه ، لكنّها تضمّ الكتاب إلى صدرها ، ثُمّ تقبّله ، تقول في سِرّها : «سيقرؤه أحمد ، وهذا يكفي . إنّه يُعالجُ أموره بشكلٍ جيّد في السّجن الكتاب صديق صامتٌ . إنّه يخفّف عن ابني وحشة اللّيل» . مَنْ علّمها

الحِكمة؟ الحياة . أقول وأنا أبتدئ رحلتي الجديدة مع القراءة : «الكتاب صديقٌ ليس كأيِّ صديق ، الأصدقاء ينامون ، لديهم حاجاتهم الخاصّة لا يُمكن أنْ تلتقيهم في كلّ وقت ، لكنّ الكتاب يلتقيك في أيّ وقت تراه أنتَ مُناسبًا ، بالنّسبة له كلّ الأوقات مناسبة ؛ أيّ صديقٍ هذا!! الأصدقاء يُعطونك ظهرهم مرّاتٍ ؛ إنّهم معذورون ، لديهم أسبابهم ، أمّا الكتاب فلم يُعطني ظهره يومًا . وها أنا أقرأ ؛ أقرأ لأنّني أريد أنْ أعيش الحياة الّتي أريدُها ، لا الحياة الّتي يُريدُها لي الآخَرون ، لقد عرفتُ بعد مضيّ السّنوات أنّ أكثرنا يعيش حياته كأنّه يمشي في حقل ألغام ، يحذر في كلّ خطوة أنْ ينفجر به لغمٌ ما ؛ لغم رأي النّاس فيه ، لغم العادات ، لغم بعض ما تربّينا عليه ، لغم العيب الّذي لا يكون عيبًا ، لغم الحلال والحرام الّذي تزرعه رؤوس مشايخ ليسوا بمشايخ!! ولغم السّائد ، واللّغم الأشدّ خطورةً لغم : «إنّا وجدْنا آباءَنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مُقتدون» . لم يُتحْ لنفسه يومًا أنْ يُفكّر ، أنْ يُشغّل آلةَ التّبصّر والتّمحيص ليهتدي . أمّا أنا فاريدُ أنْ أعيش حياتي الّتي لم يصنعها أحدٌ سِواي ، أريدُ أنْ أتدفّق بشكلٍ حرّ ، أن أتداعى بشكلٍ ثرثار وعلى نحوٍ غير مسبوق .

إنّه شهر آب ، اللّهاب كما يقولون ، لكنّ نسائمه المُستحيلة تُصبح ممكنة إنْ رافقتْ حبيبًا . فكيفَ بحبيبَين . تنتظر أمّي مع فاطمة في الخارج ، يقول لها العسكريّ : «الكتب ممنوعة» . تُطلّ برأسها من النّافذة الصّغيرة ، تكاد تسحبه من ياقة قميصه العسكريّ ، وتعنّفه «ليش ممنوعة؟» . يحتار ماذا يقول : «الأوامر» . هذا أقصى ما يُمكن أنْ تُفسّر به الحماقات الّتي تُرتكب كلّ يوم في عالَم الأدب والسّياسة والاجتِماع : «الأوامر» «أوامر إبليس» تردّ عليه غاضبة . يصمت من

جديد ، فتتابع هي : «ستدخل هذه الكتب يعني ستدخل . . . نادِ لي شاويشك» . يُحرَج ، يحتار ، ماذا تعني بعبارتها الأخيرة؟ تُنقذه في اللّحظة المناسبة : «وين مدّ الله بيك» . يأتي مدّ الله ، يعتذر لها «إنّه أحمق ، لكنّه بالفعل لم يتلقّ منّي الأوامر» «الأوامر . الأوامر» . تردّ من خلفه مُضجرةً . يضحك ، يعتذر من جديد ، ويسألها : «بخدمتك نحن يا حجّة» . ترفع الكتب بوجهه «هاي الكتب لأحمد . . . اليوم لازم تدخل لعنده» . يبتسم ، يهزّ رأسه ، ويهتف : «حاضر يا حجّة» يُقلّب الكتب بين يدَيه ، يعثر على عنوانٍ ما ، يرتبكُ قليلاً ، ينظر خلفه ليتأكّد فيما إذا كانت الكاميرا تلتقط اسم الكتاب الّذي ينظر إليه الآن ، يُقلّب الّذي بعده ، ينظر من جديد ، يعرف أنّ الكُتبُ قنابلُ مَوقوتةٌ ، يُدرك أنّ الكلمة تُشبه الرّصاصة ، حين تخرج لا تعودُ أبدًا ، بعضُ الكتب مخازنها من الرّصاص لا تنفد ، تظلّ رصاصاتها حيّةً وقادرةً على إصابة أهدافها آلافَ السّنين . كلّ هذا يحدث هنا ، وعين الكاميرا تتابع . يقول لأمّي ثانيةً «حاضِرْ يا حجّة» . يأخذ الكتب معه . يوقفها قليلاً ، يراجع شريط الكاميرا ، يحذف مشاهد الحِوار الأجمل ، ويقول لعناصره : «بإمكانكم الآن تسليم الكتب لأحمد»

ينفتح لهم باب القلب ، قبل باب الزّنزانة . يقول لي المدير : «بإمكانكم أنْ تجلسوا في أحد المكاتب ، سيكون الأمر أسهل . ننتقل إلى مكتب مُخصّص للزّيارة الخاصّة . أقفُ في مواجهة فاطمة ، عيناها تقولان ما نقص من الحكاية ، تقولان إنّ الدّرب موحشةٌ دون رفيق ، وأنّ العتَمات تحتاج إلى ضياءِ عَينَي حبيب ، هي تعرف ذلك جيّدًا ، وتُدرك أنّني مُبعثرٌ هنا ، تائهٌ حدّ البكاء ، وأنّ دروبي كلّها موحشة ، ومُعتمة ، ولا بُدّ من عينَيها لكي أبصر . أفكّر في أنْ أقول لها ما يدور

في خاطري منذ يوم صدور الحُكم ، أتراجع في كلّ مرّة ، توقفني فجأةً صدمة ما بعد الإجابة عن سؤال مثل نشطة الحبل في مشنقة الإعدام ، يقذفها قاضٍ من بعيد ، فإمّا أنْ يكون ماهرًا فيدخلها في عنقك فترحل بك عن الدّنيا ، وإمّا أنْ تُخطئك فتعيش ما شاء الله لكَ أنْ تعيش . ولقد نجوتُ من عقدة الحبل الأولى الّتي قذفها القاضي ، فهل أنجو من عقدة الحبل الثّانية الّتي أقذفها أنا في سؤالي المصيريّ .

السّؤال الأخير في الشّوط الأخير يُشبه السّير على حافّة جرف هارٍ ، إنّه اضطرابٌ وِجدانيّ فظيعٌ ، قلقٌ لا مُتناه ، أرجلٌ مهتزّة ، وفؤادٌ هَلعٌ ، وعيونٌ فَزِعة ، وبدنٌ مرتجف ، تكادُ نسمةٌ هواءٍ واحدة تُلقِي بك إلى الوادي حيثُ الغياب السّحيق . وفي لحظات انتظار الإجابة عن هذا السّؤال تتأرجح كورقة يابِسة في مهبّ عاصفة ، وعلى الجواب أنْ يُنهي قلقك الأبديّ ، إمّا أنْ يغرز رجلَيك في تلك الحافّة ويُثبّتهما فتقطع الوادي بهدوء حتّى تصل إلى الغاية ، وإمّا أنْ يُطوّح بك مثل صخرة تدحرجتْ من أعلى الجبل ، وظلّتْ تهوي إلى قاعٍ لا قرار له

أيّ شيءٍ يُمكن أنْ يوقفَ سيل الحزن هذا غير الذّكريات الجميلة! أيّ شيءٍ يحوّل الذّعر إلى أمن ، والهلع إلى اطمئنان غير أنْ تعود بذاكرتك إلى البدايات ؛ البدايات الحالمة ، البدايات الّتي كنتَ تريد أنْ تفتحَ فيها ذراعَيك للعالَم بأكمله وتحتضنه دفعةً واحدة . وها أنذا يا فاطمة أعود معك إلى البدايات ، حينما كان القلب مزروعًا بالياسمين .

كنتُ أبحثُ عنكِ ، لم أكنْ أعرف أنّ الّتي أبحثُ عنها هي أنتِ ، لكنّني كنتُ أبحث عن القِيمة الّتي يُظهرها العقل ، وعن الجمال الّذي تُظهره الرّوح ، وقد كانا فيك يا فاطمة ، ليس مهمًّا أنْ تكون الطّريق طويلةً ، ولا أنْ تكون مليئةً بالحُفر ؛ المهمّ أنْ نصل . وها نحن يا فاطمة

مشينا الطَّريق ذاتها معًا ، وحينَ صِرْنا في المُفتَرق ، كنتُ أخاف أنْ أُخبِرك بما عزمتُ على فِعله خشية أنْ أضيع ، فآثرتُ أنْ أخبّئ ذلك عنك ، لا أدرِي إنْ كنتُ مخطِئًا في ذلك أم لا ؛ ولكنّني أطلبُ منك اليوم في الحالَين أنْ تُسامحيني . ولقد صار بإمكانك أنْ تمضي الطَّريق إلى نهايته ، أمّا أنا فعليّ أنْ أنتظر عشرين عامًا أخرى لكي أواصل الطَّريق ، ولا أدري إنْ كنتُ سأصل إليك أم أنّني سأفقدك! إنّ خوفي من الفقد لا يُعادله إلاّ خوفي من أنْ يضيعَ كلّ ما فعلتُه هباءً!!

في هذه الزّيارة تستعيد أمّي طفولتها ، تتذكّر أيّام كانتْ تعمل في الحقول ، وأيّام تتعبُ في الحصاد ، وأيّام تستيقظُ في الفجر لتحجز دورها في فرن الطَّابون لكي تخبز لبيت أهلها ، تتنهّد ثمّ تقول : «لقد مرّ على ذلك خمسون عامًا كأنّها أمس . كلّ شيءٍ سينتهي يا بُنيّ . وكلّ صعبٍ سيهون ، وإنْ شاء الله يكون الفرج قريبًا» . أبتسم ، أجدُ في كلامها ما يُشجّعني لأسأل فاطمة السّؤال الّذي يعذّبني ، السّؤال الّذي يئزّ في رأسي فيمنعني من التّفكير . سأقول يا فاطمة ، سأطرحه الآن ، كلّ تأجيلٍ يعني عذابًا جديدًا ، وأخوك موجودٌ هنا ، وأمّي كذلك ، إنّها الفرصة المناسبة ، وسأقبلُ بالإجابة مهما كانت . وتبعات الهروب من المواجهة أصعبُ من تبعات المواجهة ذاتها مهما كانتْ مصيريّة

نظرتُ في عينَيها عميقًا ، مواجهة العينَين تُعذّب في البداية ولكنّها تُريح في النّهاية ، وهذا ما أردْته ، أردتُ أنْ أرتاح كانتْ عيناها تعرفان ما سأقول ، لكنّهما تخشيان مثلي البَوح ، وبوحُ الأنثى أشدّ صمتًا وأشدّ وطئًا وأبلغ من أيّ بوح . ناديتُها كما لو كنتُ أنادي على بعيدٍ قريب : «يا فاطمة» . فأجابتْ عيناها : «لبّيك» . فهتفتُ : «يا فاطمةً ، إنّه مؤبّدٌ يا فاطِمة ، وإنّها عشرون عامًا ، وقد أقضيها كاملةً دون

عفو . . .» كانتْ عيناها قد بدأتا تغرورقان بالدّمع ، سالتْ دمعتان ، شهقتْ ، مسحتهما بظاهر يدها النّبويّة ، وأشاحتْ بطرفها . . . قلتُ : «انظري في عينَيّ أنا أيضًا أبكي . . . لا خيار لنا إلاّ أنْ ينظر أحدُنا في عينَي الآخَر ، أنا أيضًا أفيضُ بالوجع مثلك يا فاطمة ، لكنّني أريدُ أنْ أسالك سؤالي القاتل الّذي ظلّ يمزّقني منذ ذلك اليوم . . . إنّها عشرون عامًا يا فاطمة ، وأنتِ ما زلتِ صبيّة ، أنتِ في أواسط العشرينيّات ، ولديك . . .» . علا صوتُها بالبكاء ، قالتْ وكلماتها تبكي معها «لا تُكمِلْ لا تقل شيئًا أرجوك . . .» . شددتُ بأصابعي على عينَيّ لأوقف نزيف الدّمع «دعيني أُكمِلْ يا فاطمة . دعيني أسأل السّؤال وأرتاح . لن ألومك على جوابك مهما كان ، فقط قوليه بكلّ صراحة وبكلّ موضوعيّة . . . العواطف مهمّة صحيحٌ ، ولكنّ الواقع له أحكامه والّذي في القلب صعبٌ أنْ ينفصم صحيحٌ . . . ولكنّها حياتُك . . . لن أكون سببًا في القضاء عليها وضياعها . . .» . علا صوتُها بالبُكاء أكثر ، وضعتْ يدها على فمي ، وصرختْ : «ألم أقلْ لكَ أنْ تسكت . . .» أجيبها وأنا أرتجف من هزّة الدّمع : «دِينُنا يضع الخيارَ لك . . . فكّري جيّدًا يا فاطمة ، أيّ امرأة يُمكن أن تحتمل غياب زوجها عشرين عامًا ، إنّه موتٌ لا غِياب ، أيّ امرأةٍ تبقى على ذمّة رجلٍ غير موجود ، معنى أنْ أقضي خلفَ القُضبان عشرين عامًا أنّني لستُ هنا ، لستُ إلى جانبك ، ووجودي كغيابي ، كموتي ، كفُقداني ، كأنّ موتًا من نوع خاصّ غيّبني . فلماذا ترهنين حياتَك وسعادتك ومُستقبلك في انتظار لا يُؤدّي إلى نتيجة . . . وها أنا يا فاطمة ، أهبكُ الخيار ، لك أنْ تختاري ما تشائين ، إذا أردتِ أنْ أُخلِي سبيلك – وإنْ كان حَزّ السّكاكين في عنقي أهونُ عليّ منه – فعلتُ ، وإنْ أردتِ الأخرى فأنتِ

تملكين إرادتك ، وسأدرّب نفسي على الرّضا بأي شيءٍ تُقرّرينه»
شهقتْ شهقةً عالية ، قامتْ من المكان ، مسحتْ دموعها ، حاولتْ أنْ تبدو متماسكة ، لكنّنا كُنّا معًا غارقَين في نوبة بكاءٍ جارحة ، هتفتْ وهي تتنشّق ، وتتقطّع كلماتها بنَشْقها : «أريدُ أنْ أقول لك كلمةً واحدةً : «اسكتْ» . فسألتُها : «هل ستنتظرينني حتّى أعود ولو بعد عشرين عامًا؟» . أجابتْ بحنوّ إلهي «سوفَ أنتظرك لو بقيتَ مئة سنة في السّجن . وسأرعَى أولادي وأولادك ، وسيكبرون على حُبّ والدهم ، وسأعلّمهم أنْ يقتفوا أثرك ، ويسيروا على هَدْيك . . . فلا تهتمّ . . أنتَ في محنةٍ ، وإذا لم أقفْ أنا معك فيها فمنْ يفعل . لقد تكلّمتُ مع أهلي وأهلكَ في هذا الموضوع واتّفقنا على ذلك . لن أتخلّى عنكَ أبدًا ، أولادُك لهم الله ثُمّ أنا ، لن يموتوا من الجوع ، سأعمل من أجلهم ، وسأكون لهم أبًا وأمًا ، إنْ فقدوك في السّجن ، فلن يفقدوا روحك الّتي تُظلّنا ، والله لا ينسى أحدًا . ما يهمّنا أنْ تبقى أنتَ بخير ، أنْ تظلّ رافع الرّأس ، ولن أسمح لهم بأنْ ينالوا من شجاعتك» . لم أفعلْ شيئًا ، لم أقلْ كلمةً ، لم أقوَ على الوقوف ، تهاويتُ على أقرب كرسيّ ، دفنتُ رأسي في صدري ورحتُ أبكي

في اللّيل ، من ذلك اليوم ، كانتْ فاطمة قد تحوّلتْ إلى أيقونة عشق ، إلى نهر حُبّ يروي القلب في كلّ حين ، كانت كلماتها قد تشكلتْ على هيئة ملائكةٍ صغارٍ تحلّق في فضاء زنزانتي الضّيّق فتحوّله إلى أفق فسيح . عرفتُ أنّ بطولتي إلى جانب بطولتها هباء أيقنتُ أنّها كانتْ أكثر وفاءً منّي . لقد فكّرتُ بما بعد الموتِ حينَ نفّذتُ عمليّتي ، وفكّرتْ هي بي وبأبنائي حينَ اتّخذتْ قرارها الصّعب ، إنّ قلبَ الأنثى العاشقة كفيلٌ بأنْ يُصلح ما انكسر ، ويبني ما انهدم ،

ويُحيل الأرض الخراب إلى جنانٍ وارفة . لقد عرفتُ اليوم قيمةَ وجودها إلى جانبي ، أتخيّل لو أنّها اختارتْ أنْ تمضي في سبيلها بعيدًا عنّي وهذا من حقّها ، ماذا كان يُمكن أنْ يحدث لي؟ ماذا كان يُمكن أنْ يحلّ بي؟ أدركتُ يومَها أنّني بحاجةٍ إليها أكثر من أيّ يوم مضى ، وأنّها أسندتْ روحي الّتي كادتْ تنهار ، وجعلتْني أقفُ على رجليّ وأجتاز غابةَ الشّوك ، وأبدأ من جديد .

تذكّرتُ قصّة (أمينة قطب) مع (كمال السّنانيري) ، كنتُ قد قرأتُ ديوانها فيه (رسائل إلى شهيد) ، شاعرة مصريّةٌ رقيقة ، صنعتْ من الحرف حزنًا يُدمي العيون ، ومن الكلمة ألَمًا يشقّ القلوب ، خطبها من أخيها سيّد قطب وهما في السّجن ، كان قد مرّ على سَجْن كمال خمس سنين من خمسٍ وعشرين سنةٍ حُكِمَ بها في سجون الطّغيان ، كانتْ أمينة في العشرين من عمرها ، وانتظرتْه عشرين عامًا حتّى خرج ، عشرين عامًا بكلّ ما فيها من مُرٍّ ومُرّ ، خيّرها في أنْ تتركه وتجد لها قلبًا سِواه ، لكنّها أبتْ ، وصبرتْ صبرَ القدّيسات ، وظلّتْ وفيّةً لرجلٍ اختارتْه عن قناعةٍ ورِضًى . وخرج أخيرًا ، وتزوّجا ، وعاشا معًا بضع سنوات قبل أنْ يسجنه السّادات مُجدّدًا ، وخيّرها مرّةً أخرى وهو ينظر في عينَيها من خلف قُضبان الزّنازين ، في أنْ يتركها لتختار غيره ، فقالتْ له وهي تُدرك حجم التّضحيات الّتي تحملها على عاتقَيها : «بدأنا الطريق مَعا ، وسننهيها معًا على ما يُحبّ الله» . لكنّ الفاجعة أنّهما لم يُنهيا الطّريق معًا ، فقد أعدمه (السّادات) بعد عدّة سنوات من سجنه ، وظلّتْ وفيّة لم تتزوّج من بعده حتّى وافاها الأجل!

(٤٢)
الشّيءُ الوحيدُ الجيّدُ هنا هو أنّه لا قِيمة للألقاب

نُقلت إلى سجن سواقة في ٢٥-٨-١٩٩٧م ، قال لي الرّجل الطّيّب العقيد (مدّ الله) وعيناه ينفر منهما الدّمع «إنّها الأوامر ، لقد صدرتْ أوامر بترحيلك إلى سجن سواقة من القيادة العامّة» كان حزينًا بالفعل ، ويشعر بأنّه يفقد صديقًا . لقد كان بالفعل صديقًا الأصدقاء الحقيقيّون يُعرَفون برفرفة القلب حينَ تودّعهم أعانقه . أُلملم أغراضي . يأتيني بحقيبةٍ من حقائب الجيش . أضع فيها كلّ ما هو لي هنا ، أحرص على أن آخذ الكتب معي ، أسأله «هل سيسمحون بإدخالها معي؟» . وأشير إلى رزمةٍ من الكتب تزيد عن عشرين كتابًا يقول : «سأهاتف مدير السّجن هناك ، وأطلب منه أنْ يُدخلوها ، وأنْ يكون متعاونًا» . أعانقه من جديد ، وأهتف : «لقد كانتْ أيامًا جميلةً بصحبتك . . . شكرًا على هذا» . أعطيه راديو الترانزستور ، يقول لي بأسى : «لماذا لا تريد أنْ تأخذه معك؟» . أجيبُه «سيأخذونه منّي ، أنتَ تعرف ذلك ، لا أريد لأحدٍ أنْ يأخذ منّي هديّتك الجميلة ، إذا خرجتُ من السّجن يومًا ما فأعِدْه لي ، هل تعدني بأنْ تُحافظ عليه حتّى نلتقي خارج هذه القُضبان؟!» . يردّ وهو يشرد ببصره بعيدًا «سأحاول ؛ قد يكون ذلك ممكنًا إذا خرجتَ قبل أنْ تقضي مدّتك كاملة ، أمّا إذا قضيتَها كلّها لا سمح الله فسامحْني به ، سيكون قد

أصبح تراثًا ، وسأكون أنا قد تقاعدتُ من الجيش من سنوات طويلة ، وسأحتفظ به كعنوان للصّداقة الاستثنائيّة الّتي جمعتْنا» . أشدّ على يدَيه بحرارة ، أشعر بحاجة كبيرة للبكاء ، آخذ نفَسًا عميقًا كي أمنع دموعي من الانهمال ، أنحني لآخذ الحقيبة ، أحملها فوق كتفي ، وأغادر باتّجاه زنزانة التّرحيلات ، شيءٌ ما في قلبي قد انكسر بسبب فراق هذا الرّجل الطّيّب . لم يأتِ كعادته إلى باب الزّنزانة المتحرّكة ليودّعني ، كان يخشى من أنْ تلتقي عيوننا ، العيون تذبح المُحبّين . غادرتُ دون نظرةِ وداع واحدة!

كانت الحراسة الّتي تُرافقني لا يُمكن أنْ ترافق إلاّ زعيمًا . لم يكنْ في الزّنزانة المُتحرّكة سواي ، ولكنّ الّذين رافقوني في الطّريق من العساكر يزيدون عن عشرين عنصرًا كلّهم مُسلّحون . من خلال الطّاقة العلويّة في زنزانة التّرحيلات كنتُ أُتابع صُور الحياة ، كانت الشّوارع تضجّ بها ، هذا العالَم المجنون لا يتوقّف عن التدفّق كالنّهر ، إنّه يحبّ الحياة بشكلٍ هستيريّ ، يمشي في الطّرقات ، يصعد الدّرجات ، يستقبل الأصدقاء ، ويودّعهم ، يحبّ ، يكره ، ينام ، يصحو ، يسير على القوارع أو فوق الجسور ، أو تحت الأشجار ، يعبر الإشارات أو الأنهار أو السّاحات ، ويفعل كلّ ما يدلّ على الوجود المُتنامي . في اللّحظة الّتي كان يقلي فيها بائع فلافلٍ عددًا من الأقراص في مطعم ينتصف سلسلةً من المحلاّت الشّعبيّة ، كان هناك معلّم يشرح درس النّحو لتلاميذه في مدرسةٍ ما ، وأمٌّ تُرضع وليدها الّذي وُلِد منذ ساعاتٍ ، وأبٌ ينتظر حافلةً تُقلّهُ إلى مكان عمله في محطّة ما ، وجزّار يُسمّي الله وهو يذبح خروفًا ليبيع لحمه ، ونملةٌ تتسلّى بالمشي المتعرّج على حائطٍ أجرد يمتلئ بورد الجوريّ من الدّاخل ، وقِطّة تعدو بسرعةٍ تتسلّق

الباب لتُفلِت من حجر الصّبيّ الّذي يُطاردها ، ونحلةً تطوف بزهور الجبل البريّة لتجمع الرّحيق للآكلين . وأنا . أنظر من هذه النّافذة لعلّ عَدْوى الأمل تُصيبني ؛ كلّ ذلك حدث في اللّحظة نفسِها ، في الثّانيةِ إيّاها ، إنّه عالَمٌ مُفعَمٌ بالحياة ، مهووسٌ بها ، ولا يعترف بسِواها وحده الموت ينتظر ، يقبع ، يراقب ، يلبد مثل أسدٍ جائع ، ويتحرّك إلى هذا المُحيط المليء بعنفوان الحياة لينهش روحًا هنا أو هناك ، ثُمّ يعود إلى مكانه ، يراقبُ من جديدٍ وينتظر بلا ملل هذا الطّوفان الّذي لا يتوقّف!

استقبلني في سجن سواقة رئيس فرع الأمن الوقائيّ . أخذ المعلومات الشّخصيّة الخاصّة بي . وعامَلني كسجينٍ غريب ، لقد كنتُ فعلاً غريبًا ، إنّها خطوتي الأولى إلى عالَمي الجديد . ثُمّ حُوِّلتُ إلى غرفة المراقبة ، ومن هناك وُزّعتُ إلى ما يُسمّى غرفة الاستقبال ، وهي الغرفة الّتي يتمّ فيها استقبال النّزلاء الجُدُد .

تعرّفتُ في اليوم الأوّل على مهندس معماريّ ، كبيرٍ في السّنّ ، خبيرٍ في الحياة ، محكوم سنةً بسبب شيك ، عرف بقِصّتي من الأخبار ، قدّم لي قائمةً من النّصائح الّتي يقوم عليها مجتمع السّجن ، فكّرتُ أنْ أعرضها على فيلسوف عندما أخرج ليؤلّف فيها كتابًا ، لم أعدْ أذكر الكثير ، لكنّ القليل منها كان كافِيًا لأخبركم به ، قال لي

- لا تثقْ بأحدٍ هنا حتّى ولو كان أباك .

- السّجناء المُتمرّسون في الاحتِيال يُشكّلون ثلاثة أرباع نزلاء هذا السّجن ، فاعرفْ لتلزم .

- مَنْ بدا لكَ بجلدٍ ليّن فاقطعْ رأسه ؛ إنّه أفعى

- إذا سلّم عليكَ أحدُهم فتفقّدْ أصابِعك .

- الحياةُ هنا أصدقُ من الخارج وأوضح ، وهي تُظهر ما خفي من نذالة البشر وخِسّتهم هناك ، وأشار إلى نافذة السّجن الّتي تُطلّ على العالم الخارجيّ

- لا تخجل من أحدٍ ولا تُداري أحدًا ، إذا بدا لديكَ ميلٌ إلى الخجل أو احترام أيّ نزيل فسيشربونك في كأسِ عصيرٍ دفعةً واحدةً أو دُفعتَين على الأكثر

- الشّيء الوحيد الجيّد هنا هو أنّه لا قيمة للألقاب ، تنتفي وتُوضَع تحت الحِذاء ، ليس هنا مهندس ، ولا دكتور ، ولا طبيب ، ولا محام . أنتَ هنا رقم ، وعليكَ أنْ تُحافِظَ على هذا الرّقم بكرامة حتّى لا يُداسَ أو يُمحى .

- كُنْ طيبًا مع الكلب ولا تكنْ طيبًا مع أحد .

- لا تحاولْ أنْ تكون مُصلِحًا اجتماعيًا ، فهذا المجتمع الّذي صرتَ جزءًا منه لو جاءه كونفوشيوس أو بوذا أو زرادشت أو المسيح أو كريشنا أو ماني فإنّه سيكفر بهم جميعًا ، وسيعلّق لهم - إن استطاع - مشانق فوق أبواب المهاجع واحدًا تلو الآخَر!!

- كلّ مَنْ في هذا المجتمع يتبع إنجيله أو قُرآنه الخاصّ فلا تُحاولْ أنْ تكونَ نبيًا

- اركلْ برجلكَ كلّ قيمةٍ من الأخلاق مثل التّسامح والعطاء والرّضى والشّفقة ، واتركْها خلفَ أسوار هذا السّجن ، هنا أنتَ تعيش في مجتمع الغابة بصورته الأعمق ؛ البقاء للأقوى وليسَ للأصلح

- سيبكي أمامك كثيرون ، ويحزن آخرون ، ويروي لك غيرهم قِصصًا ينخلع لها الفؤاد ، لا تصدّقْهم ، فعملة التّعاطف مُهلِكة إنّها تستنزف الجيب والقلب .

– هؤلاء الّذين يبدون لك مجرمين ليسوا في واقع الأمر إلاّ ممثّلين محترفين ، ولو زار مخرجٌ قديرٌ مهجع النّصب والاحتِيال فقط فإنّه سيختار نصف المهجع ليؤدّوا أدوارهم في فلم الموسم!

– القلوب للضّعفاء ، والعقول للفلاسفة ، والأيدي للرّجال ، لا بقاء عندنا هنا إلاّ للرّجال .

– لا تحاولْ أنْ تفصل بين مُتنازِعَين ، ولا تتدخّلْ بين مُتشاجرَين ، ستكون محفظتك هي الخاسر الوحيد ، ألم أقلْ لكَ إنّهم ممثّلون بارِعون!!

– الشّرف كذبة ، المروءة خدعة ، الصّداقة خُرافة ، التّعاون سذاجة ، والصدّق أسطورة ، الإنسانيّة بلاهة ؛ كُنْ واقِعيًا لتعيش

– التّظاهر بالصّمم أفضل وسيلة لنجاة الفريسة ، العَدْو يُثير شهيّة المُفترِس .

– المجتمع هنا يقتات على الكذب ، لن تكون حياته مُمكنةً بدون كذب ، لقد اعتاد على ذلك وانتهى الأمر ، في حالتك لا تكنْ صادِقًا ولا تكنْ كاذبًا ، يُمكنك أنْ تكون أخرس

– لا تحزنْ ولا تفرحْ ، ولا تقسُ ولا ترحم ، ولا تُجالِس ولا تَجفُ ، ولا تُساعدْ ولا تتركْ ، ولا تتقدّمْ ولا تتراجع ؛ فقط عشْ في قوقعة الحذر ، وامنعْ أيّ أحدٍ من الاقتِراب

– إذا نسيتَ نصفَ الحِكَم الّتي قلتُها لك والّتي سجّلْتُها خلال ستّة أشهر من المراقبة والمتابعة الدّقيقة والحذر الشّديد ، فلا تنس شيئًا واحِدًا : لا تُصدّقْ أحدًا ، بمن فيهم أنا الّذي قلتُ لكَ كلّ ذلك!!

كان ناصِحًا أمينًا ، ولكنّني قرأتُ كثيرًا من هذه النّصائح في كتب

المتشائمين ، فلم يُعجبْني ذلك ، أنا أعرف أنّ جزاء الإحسان هو الإحسان ، وأنّ بذرة الخير مدفونةٌ في قلب الإنسان ، فقط ساعدْه على أنْ يبحثْ عنها ، واسمحْ لها بأنْ ترى النّور ، واسقِها بالكلمة الطّيّبة تُثمر . هكذا ظننت .

جاءني في الأيّام الأولى لوفودي إلى هنا أحد النّزلاء ، سلّم عليّ بحرارة ، عرّف بأنّه صديقٌ قديم لأحد أقاربي (ابن خالي) ، وأنّ العمليّة الّتي نفّذْتُها ترفع الرّأس . وأنّه يتمنّى لو أنّني أُنقَل إلى مهجعهم ، وعرّفني ببعض ما في هذا السّجن من عالَم : المطبخ ، والعيادة ، والمهاجع ، وكلّ مهجع ماذا يحتوي ، والدُّكّان ، وقال إنّني أتشرّف بأنْ آتيك بما تريده من أغراض في أيّ لحظة ، واعتبرْني خادمك الأمين وشكرتُه بدوري ، وسألتُه إنْ كان معه سيجارة ، فأنا أحتاج أنْ أدخّن واحدة ، فاعتذر أنّه لا يُدخّن ، لكنّه مُستعدٌ أنْ يشتري لي كروزًا على حِسابه من الدُّكّان . بالطّبع تعفّفتُ ، فلقد خُلِقتُ أنِفًا ، فلم أرض ذلك ، وأخرجتُ من جيبي عشرين دينارًا ، وهي تُساوي قيمةً كبيرةً آنذاك ، وطلبتُ منه أنْ يشتري له باكيتًا . وبالفعل ، أخذ العشرين دينارًا ، وغاب كأنّه ذهب إلى البرازيل أو الأرجنتين أيّام ما كان أجدادُنا يذهبونَ ولا يعودون ، وإنْ عادُوا فإلى القبر ، وطالَ به العهد أيّامًا ولم أسمع له حسًا ولا عنه خبرًا ، فهُرِعتُ إلى المهندس الحكيم ، ابتسم ابتسامةً عريضةً ، وقدّم لي سيجارة ، وقال لي «في المرّة القادمة كُنْ حَذِرًا حتّى منّي وأنا أُعطيكَ هذه السّيجارة ، ربّما تكون سنّارة صيدٍ مُعدّةً» بعد شهرٍ من ذلك اليوم ، رأيتُ الّذي احتفى بي حتّى أنساني نفسي مُصادفةً في إحدى الممرّات ، كان يُدخّن ويتحادث مع نزيلٍ آخَر ، هجمتُ عليه ، سألتُه «أين العشرون دينارًا الّتي أعطيتُها لك؟»

نظرَ إليَّ نظرةَ استِغراب شديد ، ثُمَّ تحولت نظرة الاستِغراب إلى نظرة اشمِئزاز ، قال لي بطريقة يعجز عن إتقانها أمهر المُمثّلين : «هل أعرفَك؟» أجبتُه بلهفة : «أنتَ صديق ابن خالي ، وأنا أعطيتُك عشرين دينارًا لتشتري لي علبة سجائر من الدُكّان قبل شهر» . أدار رأسه إلى الجهة الأخرى كأنّه يُديرها عن كلب ، وقال للّذي يُحادثه «يبدو أنَّ السّجن يُفقِد بعضَ النّاس عقولهم . اللهمّ عافِنا» . وتابعا طريقهما!!

(٤٣)
أنا الغَريقُ فما خوفي مِنَ البلَلِ؟!

أنا مع القتلة . فهل زاد القتلةُ واحِدًا!! كانت الغرفة الّتي صُنِّفْتُ فيها تضمّ خمسة عشر سجينًا وكنتُ السّادس عشر ، وكانوا من المحكومين بقضايا قتل كانت الغرفة أشبه بمكتب مُخابرات ، كلّ الّذين يُشاركونني هنا مُخبرين بطريقةٍ أو أخرى . يراقِبون تحرّكاتي ، يُحصون عليّ خُطُواتي ، ويعدّون أنفاسي ، ويسجّلون مواعيد نومي وصحوي ، ويسألون عمّنْ يزورني أو يسأل عنّي . . . لقد تحوّلتُ إلى بقعة الضّوء عندهم من جديد .

وفي مكتب الأمن الوقائيّ بدوتُ مكشوفًا تمامًا ، يسألني الضّابط : «لماذا خرجتَ من المهجع في السّاعة كذا . . .؟ مَنْ هو هذا السّجين الّذي استقبلتَه وكان يلبسُ خاتمًا في خنصر يده اليُسرى . . .؟ لماذا تكثر القراءة في كتاب جاهليّة القرن العشرين .؟ كنتُ أتفاجأ مع كلّ سؤال ، كيفَ تصل إليه كلّ هذه المعلومات بهذه الدّقّة ، أيّة عصفورةٍ تلك الّتي تنقل أخباري إليهم بالتّفصيل؟!

(أبو خلف) هو الاسم الحركيّ لهذا السّجين ، ليس اسمه الحقيقيّ ، يجلس في الزّاوية ، اتّخذها نُقطة مراقبة . واتّخذ من عينَيه عدسةً تُخزّن الصّور ، حتّى إذا هبطَ اللّيلُ وأوى المهجع إلى النّوم ، استلّ قلمه وقِرطاسه وكتب كلّ شيءٍ فعلتُه في ذلك اليوم . لم أكنْ أصدّقُ أنّ مثلَ هذا يحدث ، ولم أكنْ أدرك أنّ لدى السّجناء كلّ هذا الوقت

الفائض حتّى يصرفه أحدهم كلّه في مراقبتي ومتابعة تحرّكاتي

البَرْش هنا هو المرادف للسّرير الّذي ينام عليه السّجين ، والبَرش مكوّن من طبقتَين ، يحتلّ الطبقة الأرضيّة السّجين الأقدم غالبًا ، والطَبقة العلويّة للسّجين الأحدث ، أو الأصغر في السّنّ ، لأنّه يحتاج إلى صعود ، وقد لا يناسب ذلك كِبار السّن ، في البرش الّذي كان ينام فيه أبو خلف ، كان هناك سجين آخَر قليل النّوم ، كثير القلق يحتلّ الجزء العلويّ ، قال لي مرّة : «أتعرف أبا خلف؟» . أجبتُه مستغرِبًا سؤاله «أعرفه ، لماذا تسأل؟» «إنّه هو الّذي يكتب عنك التّقارير ، إنّ مكتب الأمن الوقائيّ كلّفه بكتابة تقرير أسبوعيّ عنك ، وهو يفعل ذلك ليلة كلّ أحدٍ ، بعد أنْ ينام المهجع بأكمله» . أجبتُه بحذر : «هل أنتَ متأكّدٌ من ذلك؟» ، كنتُ أشغّل واحدةً من قواعد المهندس الحكيم : «لا تثقْ بأحد» . فيُجيبني : «لقد قلتُ لكَ وأنتَ حرّ» . أنتظر حتّى يوم السّبت ، أظلّ على شوقٍ وفضولٍ لأعرف . في اللّيل ، يأوي الجميع إلى الأبراش ، ينامون ، إنّهم يبدون كما لو كان النّوم يهبهم عمرًا جديدًا ، وحياةً جديدةً ، كلّ يوم يمرّ يقرّبهم من لحظة الإفراج ، إنّهم يستعجلون اللّيالي أنْ تمرّ ليعدوّا أيّامهم ، فتقلّ مدّة محكوميّتهم ، فيفرحون ، إنّهم يغتبطون بالنّوم لأنّ يومًا قد نقص من هذه الأيّام الّتي يعدّونها وهي تمشي ببطءٍ ثقيلٍ نحو بوّابة الفرج ، ولكنّهم لا يعلمون أنّ أعمارهم هي الّتي تنقص ، حتّى إذا فُتحَ لهم الباب ودُعوا إلى الخروج ، رأوا أنّ ما قَضوه قرّبهم من الموت لا من الحياة ، وأنّ الّذي كانوا يحلمون به كان سرابًا ، يخرجون فلا يجدون إلاّ الصّحراء ، أنكرهم الجميع ، وتجاوزهم الزّمن ، وكبر أبناء جيلهم حتى صاروا شِيبًا ، ولم يعدْ أحدٌ لديه الرّغبة في أنْ يراهم ، يتمنّون أنْ يعودوا إلى السّجن فيقتلوا الأمل

الكاذب ، ويخنقوا أعمارهم بَرّ الأيّام ، لكنّ بوّابة السّجن تُغلَق خلفهم فلا عودة ، حتّى السّجن الّذي كانتْ جدرانه الأربعة تضغط على صدورهم لم يعدْ يتقبّلهم ، رضُوا به على عذاباته ولم يرض بهم ، فينهبون ما تبقّى لهم من الخُطا في الحياة ، يتمنّون لو أنّهم يغيبون عن أنفسهم ، أو يُغيّبهم الواقع فلا يعودون يعرفون مَن هم ، أو ينامون فلا يستيقظون إلاّ في الآخرة . . . هكذا كانتْ تبدو وجوههم السّاكنة ، المُستسلمة لسُلطان النّوم ، الآملة في غدٍ يكونُ خيرًا من أمسٍ .

حينَ أووا إلى النّوم ، تظاهرتُ مثلهم بالنّوم ، وظللتُ أراقبُ برش (أبو خلف) دون أنْ يشعر ، وبالفعل ، بعد مرور نصف ساعةٍ كانتْ أنفاسُ السّجناء قد انتظمتْ ، فتأكّد من أنّهم غرقوا في نوم عميق ، أخرج من أغراضه ورقةً ، وبدأ يكتب ، تركتُه يفعل ذلك براحته ، كان قلبي يخفق ، أمعقولٌ أنّ ما يكتبه في الورقة هو تقريرٌ عنّي؟ ماذا لو كانَ يكتب رسالةً لزوجته ، أو أبنائه؟ ماذا لو كان يكتب مذكّراته كما أفعل أنا كثيرًا؟ لماذا عليّ أنْ أعتقد أنّني محور الكون ، وأنّ كلّ مَنْ يكتب فإنّما يكتب عنّي ، أو يتكلّم فإنّما يتكلّم عنّي ، أو يُشير فإنّما يُشيرُ إليّ؟ لماذا هذه العقدة من الأنا تحتلّني؟ أفكارٌ كثيرة طرقتْ ذهني آنئذٍ ، ماذا لو هجمتُ عليه واستلبتُ الورقة منه ووجدتُ أنّه يكتبُ فيها مصروفه اليوميّ أو خواطره؟ كيف سيكون وجهي أمامه؟ وكيف سأبرّر له موقفي الشّائن؟ لا . لن أُقدم على خُطوةٍ حمقاء مثل هذه! ولكنْ ماذا لو كان بالفعل يكتب تقريرًا مليئًا بالافتراءات عنّي ويُقدّمه إلى مكتب الأمن الوقائي ؛ ألا يُلحق ذلك بي الضّرر ، ويجعلهم يُعاملونني معاملةً سيّئة؟ وإذًا فمن يستطيعُ إيقاف ذلك سِواي؟ لا أحد . وبين أنْ أهجم عليه وأستلّ منه الورقة وبين أنْ أتركه وشأنه تأرجحتُ كثيرًا

حتّى كدتُ أسقطُ في اللاقرار . لكنّ صوتَ المهندس الحكيم ساعدني لحظتَها ، غزا أذنيّ قوله «القلوب للضّعفاء ، والعقول للفلاسفة ، والأيدي للرّجال ، لا بقاء عندنا هنا إلاّ للرّجال» . فآثرتُ أنْ أحيّد عقلي وقلبي ، وأستخدم يَدَيَّ ، قمتُ من برشي ، وهجمتُ عليه ، خطفتُ الورقة منه ، وبدأتُ أقرؤها ، فإذا هي بالفعل تقريرٌ مُفصّلٌ عن تحرّكاتي خلال الأسبوع الفائت ، وإذا فيها كَمٌّ من المعلومات لو أردتُ أنْ أكتبه لما استطعتُ أنْ أكتبه بهذه الدّقّة ، وددتُ لحظتَها أنْ أُنشبَ أنيابي في رقبته ، إنّها رغبةٌ مُؤجّلة في العَضّ منذ زمنٍ بعيد ، استعضتُ عنها بضربه في بطنه ، فصرخ ، بدأ القَتَلَةُ الآخَرون يتململون في أبراشهم ، أفسدتِ الصّرخة عليهم هدأتهم ، إنّهم يريدون لليلة أنْ تمر سريعًا ليربحوا يومًا فائتًا! سألتُه : «لماذا تكتب هذا التّقرير عنّي وماذا تستفيد؟» . فأجابني وهو خائف : «إنّ ضبّاط الأمن الوقائيّ هم الّذين أجبروني على ذلك ، من أجل بعضِ الامتِيازات ، مثل السّماح لي بالاتّصال هاتفيًا مع أسرتي ، أو إدخال بعض الأشياء من الخارج كالثّياب» . فأمسكتُه من عنقه ، وراودتْني الرّغبة في عَضّه مرّة ثانية ، لكنّني كتمْتُها ، وصرختُ في وجهه : «أتقبل على نفسك يا خسيس أنْ تكون جاسوسًا على زميلك الّذي يُشاركك الطّعام والشّراب مقابل هذه الأشياء التّافهة ، أين مروءتك يا رجل؟» كان صوتي يخفت في العبارة الأخيرة ، نطقتُها كأنّني أتراجع عنها ، لقد علا لحظتَها صوتُ المهندس الحكيم : «الشّرف كذبة ، المروءة خدعة ، الصّداقة خُرافة ، التّعاون سذاجة ، والصّدق أسطورة ، الإنسانيّة بلاهة ؛ كُنْ واقِعيًا لتعيش» . تبًا لك أيّها المُهندس ، هل عليك أنْ تكون صادِقًا في كلّ عبارة؟ ما هذا المجتمع الّذي نتقاسم معه العيش هنا؟!!

كان وجه (أبو خلف) قد تحوّل إلى ليمونة كان الخوف يملأ عينَيه . أعدتُ له الورقة ، قلتُ له : «أكملْ ما كُنتَ تريدُ كتابته ، وقدّمْها إلى مكتب الأمن الوقائيّ» . ظنّ أنّني أسخر منه ، أكّدتُ له قولي ، وأردفتُ : «ولكنْ قبلَ أنْ تُقدّمها لهم أطْلِعْني عليها ، حتّى أعرف بِمَ أردّ عليهم إذا حقّقوا معي أو سألوني» . لم يستوعب المشهد ، هذا المشهد لا يحدث في مجتمع الغابة ، مجتمع الغابة يأكل كلّ فردٍ فيه الآخَر . بالنّسبة لي سأعيشُ ولو بوجداني خارج هذا المجتمع ، اعذرني أيّها المهندس الحكيم ؛ قد تكون صادقًا في رَسْم المشهد عن الآخرين ، لكنْ ماذا عنّي؟ ماذا عن مشاعري؟ ماذا عن قِيَمي الّتي تُعطي لوجودي معنًى ، اعذرني أيّها المهندس الحكيم ، سأسمح لهم أنْ يعيشوا بقوانينهم وسأعيشُ أنا بقوانيني ، ليسَ لديّ الوقت ، ولا العمر يتّسع لكي أظلّ على حذرٍ من كلّ أحدٍ ، أو أنْ أتوجّس خيفةً من كلّ مخلوق ، أو أن أتوقّع الشّرّ في كلّ عملٍ يقومون به ، قد يكون ذلك الأمر يحمي صنفًا من النّاس ، لكنّه ليس أنا ، أنا يحميني أنْ أتغاضَى ، أنْ أدَعَها تمرّ ، أنْ أُسامح ، أنْ أُطنّش ، أن أعيش بلا أيّ رقابةٍ ، وأنْ أقول ما قال الشّافعيّ :

دَعِ المقادير تَجري في أعنّتها
ولا تَبيتنّ إلاّ خاليَ البالِ

أعطيتُه التقرير ، وعدّلتُ له بعض المعلومات ، واتّفقتُ معه كما قلتُ على أنْ يُطلعني على تقريره الأسبوعيّ لكي أعرف ما أردّ به إذا واجهوني ببعض المعلومات كان بالفعل يُقدّم لي تقريره مساء كلّ سبت ، ذلك التّقرير الّذي سيُقدّمه هو بدوره صباح الأحد لمكتب الأمن الوقائيّ . ومرّت الأيّام ، واكتشفتُ أنّه كان يخدعني حتّى بهذه ،

أخمدتُ صوتَ المهندس الحكيم حتّى لا أسمعه . نعم ، كان يُقدّم لي تقريرًا لا يتضمّن كلّ ما يكتبه ، كان تقريرًا ناقصًا ، هو تمضيةٌ للحال لكي يظلّ يكتب تقاريره بأمان ، ثُمّ بعد شهر أو أكثر ، قلتُ له اكتبْ ما تشاء ولا تعرضْ عليّ شيئًا ، فماذا ستفعل تقاريرك لي ، بِمَ ستضرّني؟ أنا المقضيّ عليّ بالسّجن المُؤبّد ماذا ستزيدُ على المُؤبّد من زمن ، هل بعدَ الأبد شيء؟ وأسعفني قول المتنبّي :

والهَجر أقتلُ لي ممّا أراقِبُهُ
أنا الغَريقُ فما خوفي مِنَ البلَلِ؟!

تعرّفتُ على أمين مكتبة السّجن (ربحي) ، كان من مادبا ، ودودٌ بَشوش ، كان يُقيم كلّ وقته في المكتبة يقرأ ، وقد رحّب بي ، ودعاني إلى الكنوز المدفونة في رفوف هذه المكتبة ، وكان يدرّس كذلك في مدرسة السّجن ، المدرسة الّتي يتلقّى فيها المساجينُ الدّروسَ لمن أراد منهم أنْ يُكملَ تعليمه حتّى الثّانويّة العامّة كان ذلك أوّل عهدي بمكتبة سواقة ، كانت تقع في الطّابق الثّاني من السّجن ، في منتصف المهاجع ، وبالطّبع كانت قليلاً ما تُزار ، مع أنّها أثمن من كثير من المكتبات الّتي تتمتّع بالحرّيّة خارج السّجن ، أنا أعرفُ ما أقول بدا أنّ الكتابَ هو النّقيض للسّجن ، ففي حين أنْ السّجن يُغلِق ، ويُضيّق ، ويحبِس ، كان الكتاب يفتح ويُوسّع ، ويُفرِج . . . بدأتْ علاقتي تتوثّق مع ربحي

تفتح المكتبة أبوابها من التّاسعة صباحًا حتّى الثّانية ظهرًا ، وغالبًا ما يكون لكلّ مهجع وقتٌ مُحدّد ، يأتي بعضُ أفراده ، يستعير كتابًا واحِدًا في الأسبوع ، ويعود إلى مهجعه مباشرةً ، ويُسجّل اسمه في دفتر الاستِعارة . بعض الّذين أدمنوا حُبّ الكتاب كان السّجّانون

يسمحون لهم بالإقامة ساعات في المكتبة للقراءة ، المهندس الحكيم كان واحدًا من هؤلاء ، لم يكن الحرس يعترضون على إقامته شبه الدّائمة في المكتبة ، وكنتُ أرى برفقته سجينًا آخَر تعرّفتُ عليه لاحقًا

كان هذا السّجين الآخَر هو (هلال) ، معه ماجيستير من إحدى جامعات الهند ، محكوم بسبب قتله لأحد الجواسيس من أبناء قريته في طولكرم ، وكان هذا الجاسوس يعمل لصالح (الشّين بيت) ، وقد حُكِمَ هلال بالإعدام ، ولأنّ أهل الجاسوس أسقطوا حقّهم الشّخصيّ ، فقد خُفّضت العقوبة من إعدام إلى المؤبّد . كُنّا متشابهين في أشياء كثيرة ، قتلتُ أنا صهاينة ، وقتلَ هو مُتصهينين ، حُكِمنا معًا بالمؤبّد ، وجمعنا حُبّ القراءة والثقافة ، والرّكون إلى الكتاب . نصحني هو وربحي أنْ أُكمِلَ دراستي بعد الصّفّ الثّالث الإعداديّ ، وأنّ الفرصةَ أمامي وعليّ أنْ أستثمرها . فوعدتهما بذلك ، وسيكون لهما أثرٌ كبيرٌ عليّ طوال سنواتِ منفاي هنا

ساعدَني المهندس الحكيم في القراءة المنهجيّة ، ولبّى ربحي لي كلّ ما أريد ، فكان يُعطيني ما أشاء من الكتب في أيّ وقت . وكانت السّنوات الثّلاث الأولى لي في سجن سواقة من سنوات الخصب القرائيّ ، إذ إنّني قرأتُ ما يزيد عن مئتَي كتاب ، بعضُها من الأمّهات . غير الكتب الّتي كانتْ تأتيني مع فاطمة أو أمّي في الزّيارات ، وهربتُ منّي ومن الغابة ووحوشها إلى القراءة ، وساعدَني ذلك على أنْ أرى بعيون كثيرة ، كنتُ أحتاجها في اللّيالي المُدلجات .

اتّجهتُ في قراءاتي الأولى إلى الكتب الفقهيّة ، كنتُ أعلم أنّها الأصعب ، لكنّها الأمكن ، إذ كنتُ محتاجًا إلى قاعدةٍ متينةٍ أقفُ

عليها ، وتكون منطلقي إلى العلوم الأخرى ، وإلى الاتّجاهات كافّة ، قرأتُ ما وقع تحت يدي لابن تيمية ، وللغزالي القديم والحديث ، ولابن العربي . . وكنتُ قد تدرّبتُ بشكلٍ جيّد على القراءة المُثمرة ، فكنتُ أضع ملاحظاتي على دفترٍ خاصّ عن كلّ كتاب ، وألخّص أهمّ ما جاء فيه ، وأناقش - وهذا أهمّ شيءٍ - أفكاره مع الآخَرين ، وكوّنتُ لي أصدقاء يحبّون القراءة مثلي ، حتّى إذا ضاقَ بي حبلُ الكتاب ، فردتُ آراءَه على عقول الآخَرين فأنتج تثاقفًا عظيمًا ذا فائدة عميمة ثُمّ توجّهتُ بعد الكتب الفقهيّة إلى كتب التّاريخ ، فلم أتركْ كتابًا في التّاريخ مثل تاريخ الطّبري أو الكامل أو البداية أو النّهاية إلاّ قرأتُه ، ولم أدعْ كتابًا في المُذكّرات لعربيّ أو غربيّ إلا أتيتُ عليه ، ومِمّا أذكره من ذلك ، مذكّرات هتلر المُسمّاة بـ (كفاحي) ، ومذكّرات تشرشل ، وأعمدة الحكمة السّبعة للورنس ، ومذكّرات رؤساء وزراء الصّهاينة مثل غولدمائير ، ومذكّرات موشيه دايان المعنون بـ (أيبقى السّيفُ الحَكَم؟) ، وقرأتُ كذلك مذكّرات ثعلب الصّحراء رومل . ثُمّ توجّهتُ إلى الكتب السياسيّة ، وركّزتُ في ذلك على الكتب الّتي تختصّ بالقضيّة الفلسطينيّة ، وبالصّراع العربيّ الصّهيونيّ ، لقد قرأتُ في هذا المجال أكثر من خمسة عشر كتابًا ، وكان من أبرزها كتاب (تكوين الصّهيونيّة) ، وكتاب آخر لكارل الصّبّاغ لم أعدْ أذكر اسمه اليوم بشكلٍ دقيق .

(٤٤)
العُزلة لا تُؤتي ثمارها إلاّ إذا تنكرتَ لرغباتِك

كان يعدو نحو الأجل ، ولكلّ أجلٍ كتابٍ ، ظلّ هادئًا كأنّه رأى أنّ الحلم العربيّ بأنْ تُستعاد فلسطين قد تبخّر ، أدركَ مُبكّرًا حجم الخيانات والمُؤامرات فانكمش على نفسه ، خروجه إلى بعض دول الخليج لم يكنْ من أجل العمل كما كان يقول ، بل كان ذلك هروبًا ، كان يتستّر على هروبه بالغياب الطّوعيّ الطّويل في مجاهل الصّحراء ، المدن الّتي تلفّها الرّمال من كلّ جهة ، كان يجد في ذلك راحةً ، مَنْ كان يُصدّق أنّ الّذين كانوا يهتفون بالموت لإسرائيل ، ويهدر صوتهم من المشرق العربيّ إلى مغربه ، تبيّن أنّهم أوّل مَنْ خانوا وباعوا ومهّدوا للباعة الصّغار من بعدهم ، كان يلعن الكرسيّ في كلّ مرّة ، لكنّ لعناته لم تُصبْ أيّ كرسيٍّ بأذى وظلّت الكراسي تغوص في لحم الشّعوب حتّى ماتت هذه الشّعوب!!

عاد أكثرَ غربةً ، لم يعرفْ نفسه ، وأنكرَ كلّ شيءٍ ، تضحياته في سبيل مبادئه بدتْ تسخر منه وهو يغذّ خُطاه نحو القاع . القاع النّفسيّ الّذي يريد لروحه المُتعَبة أنْ تغوص فيه . لكنّ العقل يُشقِي . لم يتركه عقله وشأنه ، ظلّ يُؤنّبه ، ويُعيده إلى ما قبل عام ١٩٤٨ حيثُ الجيوش الحاشِدة الّتي كانتْ تتهيأ للمعركة ، كلّ جيوش العرب تُعدّ العُدّة ، فلماذا لا يكون ذلك مُقدّمة للنّصر ، ومَنْ هي إسرائيل ؛ إنّها مجموعةً

من العصابات تُحاول أنْ تُؤسّس دولةً لقيطةً فوقَ أطهر أرض ؛ وهذه الجيوش بكلّ مُعدّاتها ، وبتاريخها الممتدّ إلى الصّحابة والفاتحين الأوائل ، والّتي تناسلتْ من ظهور القادة العِظام لن تسمح لهذه الدُّويلة اللّقيطة انْ تقوم لها قائِمة كان هذا ما يجول في خاطر أبي ، لكنّه اكتشف أنّ القيادات كاذبة ، وخائنة ، وخسيسة ، وقبضت الثّمن مُبكّرًا ، وأنّ الجنود مساكين وبُلَهاء ومخدوعون تلقّوا بنادق فاسدة ، تُطلق الرّصاصةَ إلى الخلف ، فكانوا يقتلون أنفسهم!! فغرقَ في حُزنٍ لا نهائيّ . وفقدتُ بذلك وجهه إلى الأبد!!

ومرّ زمنٌ مقدورٌ ، عقدان ، وهم يقولون إنّ العرب تجمع العتاد ، وترصّ الصّفوف ، وتتّحد ، لتضربَ إسرائيل ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيتفرّق دمها بين القبائل ، فيكتشف أبي المسكين أنّ دمَ الكرامة والوطن هو الّذي تفرّق بين القبائل ، وأمّا أولئك الّذين لم نسمع إلاّ جعجعاتهم ، وتبشير السّمك الجائع في الماء بلحم الصّهاينة اللّذيذ ، فكانوا يسكرون ليلة المعركة ، ويقبضون ثمن خياناتهم من أولياء أمورهم ، وما زالوا مستمرّين في تلك الجعجعات والعنتريّات مع كلّ زعيم جديد اكتشف أبي ذو القلب الشّديد الطّيبة أنّ الّذين كانوا يُنادون بالوحدة كانوا يتّفقون مع الصّهاينة على تسهيل احتلال بلدان أشقّائهم لتنتفخ دُولُهم الكرتونيّة على حساب الدّم العربيّ والحلم العربيّ والأخوّة العربيّة!!

سامحَ عقلَه ، لكنّ عقله لم يُسامحه ، ظلّ ينقر هدأته ، ويَشغَل باله ، ويقضّ عليه مضجعه ، ويُوقعه فريسةً للهمّ تتناهشه أنيابه حتّى يَذهَل عن نفسه ، كان يريد أنْ ينسَى لكنّه فشل ، كان يريد أنْ يمحو العار العربيّ الّذي شهده بأمّ عينَيه من ذاكرته لكنّه لم يستطع ، كان

يريد أنْ يصرخ في وجه الذّكرى الأليمة الفاجعة ارحلي عنّي أيّتها القاتلة واتركيني بسلام ، لكنّه كان يقع في فخّ التّذكّر من جديد . وظلّتْ دوّامات التّفكّر فيما حصل تنهشُ عقله ، وتأكلُ قلبه ، حتّى أسلمه عقله إلى الهاوية ، فأُصيب بجلطةٍ حادّةٍ في الدّماغ!!!! كان ذلك حدثًا مُؤلمًا للغاية ، ولكنّه كان السّبيل الوحيد ليوقف سيّالات التّفكير في الأمر ، كان يريد لعقله أنْ يأخذ استراحةً يأتيه الله بها على أيّة صورةٍ يقدّرها ، فكانتْ على شكلِ جلطةٍ نعم شُلّ عقلُ أبي فشُلّتْ معه أركانه ، فأصيب بعدها على الفور بشللٍ نِصفيّ أقعده في الفراش ، كان حجم الخيانة أكبر من أن يستوعبه عقله ، فأراح عقله بين يدَي ربّه ، وكان حجم الخديعة أكبر من أنْ تحتمله جوارحه فأراح يديه ورجلَيه إلى السّكون التّامّ . صار طريح الفِراش ، لكنّ عقله - رغم كلّ ما حصل - لم يرحمه حتّى بعد أنْ أقعده على هذا النّحو المأساويّ ، وظلّ يُلهِب مواجعه ، ويتقاذفه في وادي الكآبة مثلما تتقاذف الرّيح ورقةً يابسةً في وادٍ أجرد!!

كنتُ ألتقيه في المسجد . كان ضُبّاط الأمن الوقائيّ يمنعونه من أنْ يأتي إلى مهجعي ، ويمنعونني من أنْ آتي إلى مهجعه . فلم نجدْ غير المسجد نلتقي فيه ونتسامر ، كانتْ لقاءاتنا غالِبًا ما تستمر نحو ثلاث ساعاتٍ ما بين صلاتَي الظّهر والعصر ، وكانت العيون في هذه الفترة تخفّ عن تصويبِ سهامها إلينا ، فوجدتُ في الجلوسِ إليه راحةً ، وتعلّمتُ منه الكثير كان قد بدأ يُحدّثني عن العزلة ، العزلة الاجتماعيّة الّتي تُنتج خصوبةً فكريّة ، نصحني بأنّه إذا أردتَ أنْ تُصبحَ غيرَك ، فعليك أنْ تُخلّصَ أناك من رغبتك ، العُزلة لا تُؤتي ثِمارها إلاّ إذا تنكرّتَ لرغباتك تنكُّرًا تامًّا . وأنّ انفتاح العقل لا يحدث

إلاّ بعد انكماش الجسد . فتركتُ الجسد لما أريد . ورحتُ أنهل من موطن السّرّ في الفِكرة ، وأشرب من مورد الفكرة في الخَطْرة ، والتمسُ الخطرة في الخلوة ، وهذا ما كان .

قال لي الحكيم : لا يسلم الحَمَلُ في الغابة إلاّ إذا انكمش . تعالَ بنا ننكمشْ ساعة . وكان انكماشُنا غيبتُنا عن غابتنا في حضرةِ أرواح الكتب ، كُنّا نأتيها أحيانًا قبل الظّهر ، فنطوفُ بها كتابًا كتابًا ، نختار كتاب الأسبوع ، فنستعيره ، ونذهب إلى صلاة الظّهر ، ثُمّ نجلس بعد الصّلاة فنتذاكر ما فيه إلى العصر ، ونبقَى على هذه الحال أسبوعًا حتّى ينتهي الكتاب الّذي بين أيدينا ، ثُمّ إذا عرضتْ لنا سوانح في معانيه ، وآراءٌ في مجاليه ، بسطْنا فيها النّقاش ، وعلا صوتُنا من الحماس حتّى يدخل النّاس لصلاة العصر ، فإذا بنا توقّ للعودة إلى مماحكة الرأي من جديد ، فنجلس من العصر حتّى يحينَ وقتُ العَدّ ، الوقتُ الّذي نتحوّل فيه إلى أرقام ، وكنّا نعرفُ أنّ البشر في حكم الرّعاة الذّئاب ليسوا إلا أرقامًا ، فنصعد إلى مهاجعنا كأنّنا نعودُ إلى قبورنا ، فلم نكنْ نجدْ حياةً أجمل من تلك الّتي كُنّا نقضيها في أفياء الكتاب ، ويأتي الشّاويش فيعدّ كلّ واحدٍ منّا في جهةٍ غير جهة صاحبه ، فأسبقه أنا بالرّقم مرّة ، ويسبقني هو به مرّة ، فإذا أنا أحد عشر مرّة وإذا هو تسعةَ عشر مرّة ، ثُمّ نتبادل الأدوار في اليوم الثّاني كُنّا أرقامًا لم تُفلح السّجون في أنْ تفهم إنسانيّتنا ، وكُنّا نُعدّ كما تُعدّ البهائم الّتي تدخل إلى الزّرائب ، وما كان من أحدٍ يملك أنْ يثور على القطيع ، أو حتّى يغيّر عشوائيّة رقمه الّذي يُعدّ به ، ولم نكنْ نملك حينَ نُصبح على باب المهجع ، ونأخذ رقمنا الّذي نُصادفه ويُصادفنا في تلك اللّحظة ، لم نكنْ نملك أكثر من أنْ نخفض رؤوسنا ، ونقول : ماااع . ثُمّ ندخل لنأوي بعدها إلى أبراشنا!!

في شهر أيلول من عام ١٩٩٧ حُكِم على أخي عبد الله وأحد أقاربي بالسّجن لمدّة شهرَين بتهمة إطالة اللّسان ، وحُشِروا كما حُشِرنا من قبلهم إلى سجن سواقة ، ومع أنّ لِقاء أخي في السّجن أزاحَ عنّي بعض الهمّ من جهة ، إلاّ أنّه وسّع ذلك الهمّ من جهة أخرى ، كان ذلك الهمّ الواسع سببه والدي ، إذْ إنّه بسجن أخي لن يكونَ هناك مَنْ يرعَى أبي المُصاب بالشّلل النّصفيّ ، والّذي يحتاج إلى رعاية تامّة ، وأمّا أخي الأكبر باسم فكان يعمل بعيدًا عن (إبدر) ، كان موظّفًا في الزّرقاء ، ولا يتمكّن من الذّهاب إلى قريتنا إلاّ في نهاية الأسبوع ، وأمّا شقيقاتي فكانت لكلّ واحدةٍ منهنّ أسرتها وشأنها العائليّ الخاصّ ، وأمّا أمّي فيكفيها أبناؤها المسجونون وزوجها المشلول ، وهمومها الّتي لا تنتهي

كان القانون يسمح لمن يُسجن ثلاثة أشهر أو أقلّ أنْ يستبدل فترة سجنه بالغرامة الماليّة ، يدفعها في المحكمة ، ويخرج . وهذا ما أردْنا لأخي عبد الله ، ولكنّ المحكمة رفضتْ الاستبدال ، دون أنْ نعرف الأسباب . ومكثَ أخي عبد الله معي شهرَيه ، كان فيهما يُحاول أنْ يخدمني بكلّ ما يستطيع ، وطلبتُ منه بأنْ يحذو حذوي في القراءة والذّهاب إلى مكتبة السّجن ، وخرجَ قبل أنْ يُنبِتَ ماءُ القراءة في قلبه شجرةَ اليقين!!

وإذًا فهي العُزلة . اقتصرتْ علاقتي في تلك الفترة بالمهندس الحكيم لنناقش معًا ما نقرأ ، وبربحي أمين المكتبة لنستعير من المكتبة ما نريد ، وبهلال الّذي جمعتْني فيه تُشابه الصّفات وتلاقي الأرواح كان المهندس خبيرًا بالكتب ، ومنهجه معي كان صارمًا ، كنتُ أناديه معلّمي ، وكان يقول لي : ثكلتْني أمّي إذا لم تُصبح أفضل منّي ، أيّ

معلّم فاشل ذلك الّذي يكون تلميذه أقلّ منه!! ونستمرّ في النّقاش الجادّ. حِكَمُه الّتي ألقاها في رُوعي أوّل لقائي به هنا ، بدأتْ تأخذ لها مكانًا جانبيًا ، فبعد أنْ كانتْ تتسيّد ، أصبح هنا إحلالٌ لغيرها مكانها ، كان الكتاب هو الوحيد القادر على أنْ يفعل ذلك ؛ كان المهنس يريدني أنْ أفهم ذلك ، يريد أنْ يقول إنّ ما تؤمن به اليوم قد يُصبح إيمانك به هامشيًا غدًا ، وأنّ ما تُدافع عنه اليوم بشدّة قد تتركه لنفسه يُدافع عن نفسه إذا وجد حُجّة يتمكّن بها من أنْ يظلّ قائمًا غدًا ، ما أؤمن به اليوم ليس بالضّرورة أنْ أكفر به غدًا ، لكنْ بالضّرورة لن تكون له درجة الحرارة من الاعتقاد في المُستقبل . هذا ما قاله لي دون أنْ يقوله ، قاله عنه الكتاب ، وقالتْه سنواتُ حياتي الّتي قضيتُها هنا

استغرقَ منّا كتاب (تكوين الصّهيونيّة) أسبوعَين ، تعلّمتُ منه الكثير ، تعلّمنا من الكتاب الّذي يتحدّث في ظاهره عن تاريخ الصّهيونيّة منذُ العبور قبل ثلاثة آلاف سنة وإلى اليوم ، تعلّمْنا أنّ التّاريخ له قانون ، وقانونه ليس مكتوبًا ، إنّه مثل حركة النّهر ، يتحرّك في سيرورةٍ مُحدّدة ضمن ظروفٍ وقوانين صارمة ، كان التّاريخ يعلّمنا الأدب ، الأدب مع الحدث ، الأدب مع الحالة ، فلا نُسارع إلى إطلاقِ أحكامنا ما لم نعرضْها على سَنَن التّاريخ ، ثُمّ تحليلها على ضوء مقارناتٍ متعدّدة وحَيَوات الأمم الغابرة ، ولا يتمكّن من ذلك إلاّ قارئٌ عميقٌ لحركة المُجتمعات في بطون الكتب التّاريخيّة كان أفضل ما تعلّمتُه من هذا الكتاب هو أسوأ ما كنتُ أقوم به قبلَ قراءته ، أي أنْ أقيسَ الأحداث وأفسّرها بمقياسٍ واحدٍ أو على مسطرةٍ واحدة أو على تيرموميتر واحدٍ أو على رأيي أو هواي الشّخصيّ ، تلك فضيلةٌ أخرى

تعلّمْتُها من الكتاب ، هو ألاّ أجعل هواي الشّخصيّ ضمن استنتاجاتي أو أحكامي ، ولا في ذيلها ، بل أنْ أحيّده تمامًا . ويأتي في النّهاية لُبّ الكتاب ، وهو فهم الجذور ، هل لشجرةٍ يُمكن أنْ تعيشَ دون جذور ، كان الكتاب يجعلني أتتبّع الصّهيونيّة من الجذور إلى الثّمار ، وأدركتُ غباءنا كشعوب واستغفالنا في مواجهة ما يُخطّطون له ، وما يتدارسونه في مثْناهِهم بشكلٍ حثيثٍ ودقيق . أمّا مَنْ يحكموننا فلم يكونوا في الحِساب ، لأنّهم ليسوا أكثر من حجارةٍ على رقعة الشّطرنج

بدأت الآفاق في فضاء العقل تتّسع ، تتماهَى ، تمتدّ ، وتشكّل حالةً من الإشعاع الرّوحي لم أعهدْه من قبل ، كان عليّ أنْ أكتشف أنّ الخير كلّه في العُزلة ، كُنتُ أجد حلاوةً في العزلة مع الكتاب لا تُقاس بملذّات الدّنيا كلّها ؛ لأنّها ببساطة لا تنتمي إلى الدّنيا ، ولن أقول إنّها تنتمي إلى الآخرة ؛ فشأن الآخرة شأن الرّاحة بعد التّعب ، والجزاء بعد العمل ، ولكنْ أقول تنتمي إلى عالَم عُلويّ قد يُلامس أرواحنا الحيّة الّتي تنتظرنا في عالَم الغيب بشوقٍ جارف ، ولا تنتمي إلى وجودنا المُخاتل ، ولا حياتنا المُزيّفة

كان الاختلاط بالسّجناء يعني أمراضًا روحيّةً مُزمنة من تلك الّتي إذا داهمتْكَ فإنّها تعلق بك علوق الشّوك في الصّوف . كان السّجناء يُمثّلون فُسيفساء مُذهلة من التّنوع بين تناقضات السّلوك البشريّ ، لم تكنْ مفهومة ، وبالطّبع لم تكنْ مُتخيّلة ، كانتْ لهم أمزجة غير مُتوقّعة ، وأنا لا أستثني نفسي ، وكان التّصادم بين هذه الأمزجة يُنتج شِجارات يوميّة ، تبدأ ولا تنتهي ، وكان في اختيار العزلة حلٌّ معقول ، إنّه يحمي ، ويُجدّد ، ويُنبِتُ من جديد

كانتْ أهواء السّجناء تمثّل طيفًا من الألوان اللاّمُتناهية ، وكان

الانحراف درجةً واحدةً على محيط الدّائرة أو أقلّ من ذلك يُحدِث الفوضى ، ويجعل من الوقوع في المشاكل أمرًا حتميًا ، ومع كلّ ذلك كان الاضطِرار إلى مُعايشة هذا الواقع يبدو نوعًا من الحِفاظ على الحياة ، أعني الحياة الفيولوجيّة ، فإنّه من دونها كان يُمكن أنْ تفقدها . وليس هذا تنظيرًا ، فإنّ مسايرة بعض القتَلة المُتمرّسين في فرض الضّرائب على المهجع الّذي كنتُ أتقاسمه معهم كان لا يُمكن تفاديه ، لأنّ تفاديه يعني أنْ تنتهي ، والشّكل الّذي يُمكن أنْ تنتهي به لا يُمكنك تصوّره ، لأنّه لا يقع في تصوّر إبليس نفسه ، فيُلجئك ذلك إلى أنْ تتظاهر بالاتّخاذ من العدوّ اللّدود صديقًا حميمًا ، وتذكّرتُ بيت المتنبّي :

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا على المَرْءِ أنْ يرى
عَدُوًّا له ما من صداقتِهِ بُدُّ

كُنّا نسير أنا وأخي عبد الله في إحدى السّاحات ، ذاتَ تقاطع بينَ مهجعَيْنا ، وكُنّا معروفين لضُبّاط السّجن ، كنتُ أنا أقيم في مهجعِ القتلة كما قلتُ لكم ، وكان أخي يُقيم مع السّياسيّين ، ومن مصائب بعض الضّبّاط الصّغار أنّ الحياة الّتي لم تعركهم جيّدًا تُوقعهم في حماقاتٍ باردة ، حصلتْ مُشادّةٌ بيني وبين ضابطٍ من هذا الصّنف اعترض على اجتماعي بأخي ، وظنّ أنّ السّلطة - الّتي لا تتمثّل بأكثر من لباسٍ - تُتيح له أنْ يعتدي على المساجين ، وأنّ المساجين ليسوا إلاّ بهائم تتحرّك في زرائب ، وعليه أنْ يَهُشّها بالعصا! تطوّرتْ المُشادّة الكلاميّة بيننا ، فقام بشتْمي أمام أخي ، فلم أجدْ طريقةً لتأديبه إلاّ بضربه ، وكنتُ مغلولاً إلى الحدّ الّذي لم تُفلح فيه كلّ قراءاتي السّابقة في سيطرتي على أعصابي وضبطي لنفسي ، فأخذتُ أضربه ، وأفرّغ

فيه طاقتي ، تدخّل أخي فتوقّفتُ . اجتمع الضُّبّاط والحَرَس على المشهد ، قيّدوني بسرعة ، وتمّ رميي في الحجز الانفِرادي أسبوعًا كامِلاً

قبل أنْ يزجّوا بي في الزنزانة ، طلبتُ مقابلة المهندس الحكيم لمدّة خمس دقائق فقط ، وافقوا على مضض . جاء يهرول . سألتُه عن كتاب الأسبوع المُقترَح ، فحدّده لي ، واتّفقتُ معه على المنهجيّة في نقاشه ، في اليوم الثّاني من الحجز الانفراديّ كنتُ قد أنهيتُه كامِلاً ، مكثتُ بقيّة أيّام الأسبوع أحفظ الفقرات الّتي أعجبتْني فيه

بعد خروجي بفترةٍ قصيرة ، غادرنا أخي عبد الله ، طلبْتُ منه أنْ يُلازم أبي ، ويُطمئنه عنّي ، ولا ينقل له كلّ ما رأى منّي هنا كان أبي في هذه الفترة يُمعن في الدّخول إلى لجّة الغياب ، كانتْ حياته تنفلت انفلات الماء من بين فُرُوج الأصابع ، كان يبدو أنّه يُمعن في الرّحيل بعيدًا عن عالَمنا ، لم يكنْ يقول شيئًا ، ولا يطلبُ شيئًا ، يبقَى صامِتًا ، تُحدّق عيناه المفتوحتان في أغلب الأوقات على اتّساعهما في الفراغ ، كأنّه يرى ما لا نرى!!

في ٢٥-٩-١٩٩٧ تعرّض خالد مشعل رئيس المكتب السّياسيّ لحركة حماس إلى محاولة اغتيال من مجهولَين لا أحدَ يدري كيفَ دخلا إلى الأردنّ؟! يُقال : إنّهما كانا يحملان الجنسيّة الكنديّة ، وليسا في الحقيقة إلاّ عنصرين من عناصر الكوماندوز المكلّفة بالاغتِيال في جهاز الموساد الإسرائيليّ . وحَقَنا خالد مشعل بحقنة سامّة مُميتة كادتْ تُودي بحياته ، تعاملت الحكومة مع الأمر على أنّه مُشاجرة في البداية ، وهذا ليس سذاجةً منها ، بل محاولةً للتّغطية على الأمر وتمريره كأنّه لم يحدث ، فلمّا استطاع الحارس الشّخصيّ لخالد مشعل وهو صائم الإمساك بأحد العنصرَين ، وسلّمه للمركز الأمنيّ ، وبدأت

الأمور تتفاقم لم يكنْ من مجالٍ للتّغطية على الحدث على أنّه مجرّد مشاجرة ، وكان يُمكن أنْ يُحدث بلبلةً لا تُحمَد عُقباها

في تلك الأثناء تفاءل بعضُ العارفين معي في المهجع وفي المهاجع الأخرى ، أنْ يتمّ الإفراج عنّي مُقابل إعطاء التّرياق من قبل الحكومة الإسرائيليّة لعلاج خالد مشعل ، والإفراج عن العُنصرَين لكنّني كنتُ أعرفُ أنّ علاقة الحكومة الأردنيّة مع حكومة الصّهاينة دافئة جِداً ، فلمْ أتفاءل كثيرًا . انتهت المشكلة على الوجه الّذي أفرحني ؛ فقد اشترط الملك حسين على نتنياهو إعطاءه دواء السّمّ الّذي لم يهتدِ الأطبّاء إلى معرفته ، والإفراج عن الشّيخ أحمد ياسين من سجون الاحتِلال مُقابل تسليمه عنصرَي الموساد ، وقد تمّ له ما أراد .

(٤٥)
أنا مُنشغلٌ بزَرع الحدائق لا بإطفاء الحرائق

في أواخر عام ١٩٩٧ جاء إليّ أحدُ السّجناء يقول : إنّ سجينًا آخَر ، يسأل عنك ، وإنّه بلهفة إلى لقائك ، فسألته «هذا الّذي يسأل عنّي أينَ هو؟» . فأجابني : «في غرفة الاستِقبال» . فضحكتُ وقلت : «في غرفة النّصّابين تعني!» كانت هذه الغرفة هي غرفة الاستِغفال كما كنتُ أسمّيها ، وليس غرفة الاستقبال ، ففيها يتمّ استغفال السّجناء الجدد وتشليحهم أموالهم ، ولقد مررتُ بهذه التّجربة من قبلُ ، وأكلتُها وأنا أحمد الله أنّها وقفتْ على عشرين دينارًا ، ولم تتجاوزْها المهمّ أنّني اليوم أصبحتُ أمرّ عودًا وأصلبَ مكسرًا ، ولن يخدعني أحدٌ كما حدث في السّابق ، ولديّ مناعةٌ من التّجربة ، وحصانةٌ من استخدام قواعد المهندس الحكيم الّتي تظلّ صالحةً وممكنةً مع المجتمع الّذي أعيشه هنا

ذهبتُ إلى غرفة الاستِقبال بصحبة السّجين ، فلمّا وصلنا إليها أشارَ إلى شابّ أسمر ، كان يجلسُ في رُكنٍ قصيّ كأنّه لا يريد أنْ يتلوّث بالعالَم الّذي ولج إليه للتّوّ ، وقال لي : «هو ذاك الّذي في الزّاوية» . اقتربتُ منه ، بشرته بَدويّة تُخبِر بالطّيبة والمروءة ، سقطتْ من أوّل نظرة بعضُ حكَم المُهندس ، يبدو أنّها موسميّة ونوعيّة ، اقتربتُ أكثر ، كان مُنعزلاً عن الآخرين ولكنّه لم يبدُ يائسًا ، كان بعضُ البِشر والسّماحة تُغطّي وجهه نظرَ إليّ ولم يعرفْني . بدأْتُه القول : «هل

سألتَ عنّي ، أنا أحمد الدّقامسة» . ففزّ من مكانه كأنّه كان نائمًا وأيقظه أحدٌ من نومه مفزوعًا ، ووقف على قدمَيه فبدا لي نحوله ، هتف : «أهلاً بالحبيب» كان صوته البدويّ يحمل في ذبذباته حقيقة المودّة ، ثُمّ عانقني عِناق الشّقيق الّذي غاب طويلاً عن شقيقه ، وأجلسني إلى جانبه ، وبدأ يطمئنّ على أخباري كأنّه ليس سجينًا مثلي ، وراح يُراجع معي تفاصيل العمليّة ، ويقول لي : «لم يرفعْ أحدٌ رأسًا في الأردنّ مثلما فعلت . . . أتدري أنّني حلمتُ وأنا في سجن الجويدة أنّني سأقابلك وأعددتُ لك مجموعةً من الأسئلة أطرحها عليك حين ألتقيك ، وها أنا ألتقيك فيتحقّق الحلم وتفرّ الأسئلة» كان هذا السّجين هو (علي السّنيد) . رجلٌ بمعنى الكلمة ، وقف معي في قضيّتي وقوف الأسود في الشّرى ، ودافع عنها بكلّ ما يستطيع ، وحينَ صارَ نائبًا في البرلمان بعد سنواتٍ طويلة في عام ٢٠١٣ ، وكان السّجن قد قضم من عمري ١٦ عامًا بين جُدرانه ، أقول حين صار نائبًا لم ينسَني وحمل قضيّتي تحت القُبّة ، ولكنّه كان يعلم كما كنتُ أعلم وكما كان يعلم الكثيرون أنّ مجلس النّوّاب لا يملك من أمره شيئًا ، ولكنّه صوتٌ ، صوتٌ يصدح صاحبُ الرأي فيه بالحقّ .

حُكِم علي السّنيد على تهمة (إطالة اللّسان) سنةً ونصف ، وهي التّهمة الجاهزة لكلّ مَنْ يقول : (لا) في وجه ساسة لم يعهدوا أنْ يسمعوا من القطيع غير (نعم) . صار الجلوس إليه فرضًا يوميًا ، كانتْ تجربته مع لجنة مقاومة الصّهيونية والتّطبيع الّتي أسّسها ليث شبيلات ثريّة ، فأفادني منها ، مِمّا ثقفه خلال عمله في هذه اللّجنة من الوثائق والكتب والحقائق الّتي تتحدّث عن الصّهيونيّة

جَمَعنا كُره اليهود الغاصبين ، ووحّدنا حُبّ الوطن على حقيقة

المُستعدّين أنْ يُضحّوا بأرواحهم من أجله ، لا أولئك الّذين يهتفون باسمه وهم يبيعون أراضيه ، ويرهنون مُقدّراته للعدوّ والمحتلّ ، ويفكّكون نسيجه ، وينهشون لحمه ، ويتناهبون خيراته ، وكان أكثر هؤلاء يجلسون على كراسيّ دوّارة ، مصنوعة من جِلد الشّعوب ومدبوغة بدمائهم .

وصُمنا رمضان في السّجن معًا ، كان الصّقيع يُغلّف كلّ شيء ، ومع ذلك لم نمنع أنفسنا من اللّقاء ، اللّقاء الّذي كان قادرًا على أنْ يُذيب الثّلج ، ويُحيل البرد إلى دِفء ، ويمكّن زهور كانون من أنْ تفوح أشذاؤها العاطرة حتّى في غير موسمها . كُنّا نلتقي أكثر ما نلتقي ظهرًا في المسجد أو في السّاحات العامّة . أو بعد السّحور ، كان هذا يحدث نادِرًا ، لم يكنْ مسموحًا للسّجناء أنْ يُؤدّوا صلاة الفجر في المسجد إلاّ في حالاتٍ استثنائيّة

كان يحدث أنْ نبدو عطشى إلى اللّقاء وإنْ لم يكنْ قد مرّ عليه ليلةٌ ، مثل الطّيور الهائمة تهفو إلى مورد الماء العذب ، نتعانق ، ونبدأ الحديث ، كان الحديث في هموم الأمّة وبؤسِ واقعها لا يفلّ من عزيمتنا ، ولا يُوقعنا في شَرَك اليأس ، بل كان يدفعنا إلى المزيد من العطاء ، كُنّا نعرف أنّ حركة الأمم والشّعوب الّتي قالها ابن خلدون في مقدّمته تُبشّر بخير ، إذ ليس بعد هذا الهبوط المُريع إلاّ صعودٌ ، وكُنّا نعيش على هذا الأمل ، لكنّ الأمل هو الآخَر فَخٌّ يُوقع غير المُنتبه في الرّكون ، والاكتفاء بالمراقبة والانتظار ، وبالنّسبة لنا أولئك الّذين كُنّا واعين لحال مجتمعاتنا ، كان الأمل يُحفّزنا على الثّبات وعلى الاستمرار ، وعلى الصّمود على المبادئ في وجه طوفان التّمييع والتّخضيع والتّطبيع والتّركيع والتّجويع .

حلّ عيد الفِطر في آخر الشّهر الأوّل من عام ١٩٩٨م . كان عيدًا

بارِدًا . العيد الّذي تقضيه دون حبيبٍ هو مأتم . يذبحك العيد الّذي يمرّ عليكَ في السّجن ، لا لفداحة الانحِباس ، لكنْ لبُعد الأحبّة ؛ تذكّرتُ سيف الدّين ونور الدّين والبتول ، هل يختلف العيد إذا كان الأبُ بعيدًا عن أطفاله؟ وهل يختلف بالنّسبة للأطفال أم بالنّسبة للآباء؟ أم لكليهما؟! لقد كان أبي يغيب بعيدًا عنّا في عمله ، ويمرّ علينا العيد دونه ، لكنّني ما كنتُ أعتقدُ أنّنا نأسى لفقده أكثر مِمّا كان يأسى هو لفقدنا . ها أنذا يا فاطِمة ، ألبسُ أفضل ما عندي من الثّياب ، أتزيّن كما لو كنتُ بينكم ، أضحك كما لو أنّ فلذات الأكباد يتقافزون حولي ، أنتعل حذائي مسرورًا كما لو كنتُ سأغذّ الخُطا إلى بيت أهلي ، أهوي على رأس أمّي أقبّله ، وأجثو بين يديها ، أطلبُ منها أنْ تُسامحني ، أنْ تغفر لي بُعدي ، وأنْ تسقي شجيرات الورد في ساحة الدّار عنّي

تقول لي فاطمة في الزّيارة الأخيرة عن سيف الدّين ونور الدّين في العيد ، بعذ أنْ ألبستُهما ثياب العيد ، رأوا وهم خارِجون من البيت أولادًا يضعون أيديهم في أيدي آبائهم ، فحزنوا ، راح نور يبكي ، جلس على قارعة الطّريق ، وخلع قميصه الجديد ، وهتف بغضبٍ وحزنٍ : أنا لا أريد أنْ أُعيّد ، أبي ليس موجودًا معنا لكي يأخذ بأيدينا مثل بقيّة الأطفال ، وشاركه سيف حُزنه . ثُمّ عُدنا إلى البيت ولزمْناه طَوال فترة العيد .

ظلّ مدير السّجن يخترع الوسائل ليُبعدني عن المُهندس ، وعن عليّ لا أدري ما الّذي كان يَغيظُه في اجتِماعنا معًا ، هل كُنّا نُشكّل تهديدًا لسُلطته نحن المساجين المُجرّدين من كلّ شيءٍ؟! ما الّذي كُنّا نفعله أكثر من أنْ نُذيب الهمّ الّذي في صدورنا من خلال ما نقرأ ، ما

نناقش، ما نتجادل فيه، كُنّا نجد في ذلك لذّةً، تُنسينا مرارة السّجن، أفكان يحسدُنا على تلك اللّذّة ولا يريد لنا إلاّ أنْ نتجرّع مزيدًا من المرارات!!

بعد العيد نُقِل مدير السّجن إلى موقع آخَر، وخفّت الرّقابة علينا، ففرحتُ، كان ذلك إيذانًا بأنّ اللّقاءاتَ ستتابع، والكتب الّتي سنناقشها ونطوف حول كعبةِ الآراء فيها ستزيد، وهذا ما حدث. لكنْ لم يمرّ على نقْلِ مدير السّجن أسبوعٌ، حتّى كان صوتُ السّماعة في السّجن يُنادي على علي السّنيد، وسمعتُ اسمه فظننتُها زيارةً له في غير موعدها كأنْ تكون من مُحاميه، وكُنّا في مهجعَين مُنفصلَين، لكنّ الأمر لم يكنْ على ما توقّعت، إذ إنّ إدارة السّجن طلبتْه لتُبلّغه بأنّ محكمة أمن الدّولة أمرتْ بالإفراج عنه بعد أنْ خُفّضتْ مُدّة حُكمه إلى ستّة أشهر من قِبَل محكمة التّمييز. طلبَ آنذاك من العساكر أنْ يراني، كان يريد أنْ يودّعني قبل أنْ يخرج، وأتيتُ إليه، تعانقنا وبكَينا، بكينا الأيّام القصيرة الجميلة، بكينا الجلسات الرّائعة، وبكَيْنا ما في القلب من إخاء، قال لي: «لن أنسى قضيّتك، سأحمل راية الدّفاع عنها حتّى يأذن الله بالفرج إنْ شاء الله». ومضى يشقّ طريقه إلى بوّابة الحريّة

ترك خروجه من السّجن فراغًا كبيرًا في قلبي، وثُقبًا أكبر في روحي عانيتُ منه كثيرًا. حاول المهندس الحكيم أنْ يسدّ الفراغ، قال لي: «من أجلك لا تتعلّق بأحدٍ، القلب المُظلِم هو الّذي يرى النّور في الآخَرين، إنّهم كائنات تتحرّك، تغيّر أماكنها، تُشعّ حينًا، وتنطفئ أحيانًا كثيرة، فلا تجعلْ مصابيحهم وحدها هي الّتي تُضيء لك العَتَمات». فهززتُ رأسي، فتابع: «التخلّي عن صوت القلب أعلى

مراتب التّحرّر ، مَنْ كان أسيرَ نداءات قلبه عاشَ في عُبوديّة مَقيتة»
وأهزّ رأسي من جديد دون أنْ أُحرّكَ شِفاهي بكلمة! قد أكون آمنتُ بما قال ، أدركتُ أنّه حقيقيٌّ وواقعيّ ، ولكنّ الّذي شعرتُ به بعد ذلك أنّ الثّقبَ قد ازدادَ اتّساعًا

واظبْتُ على الذّهاب إلى المكتبة ، كان ربحي ينتظرني في كلّ مرّة وقد أعدَّ قائمةً بالكتب الّتي قرأها ، أو اطّلع على مضمونها لكي يلخّصها لي ، ويسألني أيّها تريد لهذا الأسبوع . لم تكن المكتبة كبيرة ، ولم تكنْ صغيرة ، كانتْ قوامًا بين ذلك ، ليسَ فيها إلاّ ثلاث أو أربع طاولات يتيمة ، تتبعثر على أرضيّةٍ حزينةٍ ، كلّ ما في المكتبة كان يبعثُ على الرّهبة ، فإنْ لم يبعث عليها فهو يبعثُ على السّأم ، وما لم يكنْ لديك دافعٌ في أعماقك يحثّك على أنْ تلجَ اللّجة ، فإنّ أكثر ما كان فيها كان طارِدًا

كانت نوافذ المكتبة تفتح على السّاحة الرّئيسيّة الّتي تقع في مدخل السّجن ، السّاحة الّتي غالِبًا ما ينتظر فيها دفعات المحكومين القادمين من سجونٍ أخرى قبل أنْ يتمّ ترحيلهم إلى غرفة الاستِقبال ، أو تصنيف بعضهم بشكلٍ مباشر وترحيلهم إلى مهاجعهم المُحدّدة كانت المكتبة تتمتّع بإضاءةٍ جيّدة من هذه النّاحية . أمّا رفوفها فكانت من الحديد المطليّ ، الحديد الّذي شاع في الثّمانينات للمكاتب الرّخيصة ، وحينَ كنتُ أعرض أمنيتي بأنّها لو كانت مصنوعةً من الخشب لكانَ أفضل كان ربحي يقول : «إنّ مهمّة الرّفوف أنّ تحمل الكتب فوقها ، وإنّ هذه الرّفوف تقوم بهذه المهمّة بشكلٍ جيّد» . لقد فات صديقي ربحي أنّ هذه الرّفوف لا تحمل كتبًا من أوراق ، ولكنّها تحمل كُتُبًا من أرواح ، وأنّ هذه الأرواح الّتي قضتْ في أزمنةٍ غابرة

سحيقة ، وتعبتْ في أنْ تسكب عُصارة تجربتها وحياتها على هذه الأوراق المجموعة بين جلدَتي كتاب تستحقّ رفوفًا أفضل من هذه ، تستحقّ رفوفًا تحتفي بهذه العظمة الّتي وصلتْ إلينا . فات صديقي أنْ يتعامل مع الكتب كما يتعامل مع العُظماء ، لا أنْ يتعامل معها كأنّها رزمةٌ من الأوراق الصّفراء مجموعٌ بعضُها إلى بعض

تركَ رحيل علي في قلبي فراغًا كما قلتُ لكم ، لكنْ سرعان ما طرأ عنصر جديدٌ على المعادلة ، معادلة الأخوّة السّماويّة . فوفد إلى السّجن المهندس ليث شبيلات ، كان ذلك في أيّار من عام ١٩٩٨م . هذا الرّجل الرّائع الّذي كان يقف إلى جانبي في قضيّتي ، وواظبَ على حضور جلسات المحاكمة كلّها ، هذا الرّجل الشّهم الّذي كان يُقلّ أبي وأمّي وزوجتي وأبنائي بسيّارته ويأتي بهم جميعًا ليزروني في السّجن ، صار سجينًا هو الآخر ، وزُجّ به إلى هنا بتهمة التّحريض على أعمال الشّغب ، وحُكِم بتسعة أشهر . وتساءلت أمثل هذا الرّجل المُحبّ لوطنه المُقدّس لترابه ، يُحرّض على أعمال شغب؟! أيّ عصر إذًا نعيش ، وفي أيّ بُقعةٍ من الحضيض رمانا التّاريخ . وإذًا فليث شبيلات أصبح سجينًا مثلي . ولم تعدْ زيارته لي تتمّ من خلف القُضبان بل تتمّ بالأحضان!!

صرتُ أحرصُ على أنْ ألتقي به معظم الأيّام وأجلس معه كل الأوقات المتاحة ، إلاّ وقت النّوم لأنّه كان في مهجع آخر غير المهجع الّذي أنا فيه أنا كنتُ في مهجع القتل ، وهو كان في مهجع السّياسيين . لمستُ أثناء وجودنا معًا في السجن أنّه إنسان متواضع على الرّغم من مكانته العالية ، صرتُ أعتبره مثل أبي ، كان يمسح بيده على شعرِ رأسي كما لو كنتُ ابنه على الحقيقة ، ويقول لي : «كلّنا أيتام ،

الشّرفاء يا أحمد في زماننا أيتام ، وإنْ لم يمسح بعضُنا على شَعر بَعضٍ فسنزدادُ يُتمًا» . كانتْ عباراته تُمثّل النّقيض في المضمون والفلسفة للعبارات الّتي يقولها الحكيم . يقول : «تأمّلْ علائق الكون ، الكونُ قائمٌ على الحبّ ، الحبّ يجعل الحياةَ سهلة ، يحمل أحدُنا في سَعَته الآخَرَ في ضِيقه ، وحدهم الّذين لا يملكون قلوبًا هم الّذين يجعلون الحياةَ قاسِية ، قليلٌ من الحبّ يا أحمد ، وقليلٌ من الصّبر يا بُنيّ يحوّلان الحياة إلى نعيم ، النّعيم لا يتحقّق بلا قلب ، والقلبُ لا يتفتّح ولا يُزهر إلاّ إذا نظّفْتَه من البُغضِ والحسد والشّحناء والجَفاء والتّكبُّر ، لا أدري كيفَ يعيش أولئك الّذين لا يتراحمون فيما بينهم ، إنّ حياتهم لا شكّ جحيمٌ مُطلَق ، فلا يغرنّك كثرةُ أموالهم ، ولا انتفاخ جيوبهم ، إنّها ورمٌ والورمُ قاتل ، وإنّها عَرَضٌ والعَرَضُ زائل

كان ليث قريبًا إلى كلّ السّجناء ، يلبس مثلهم ، ويأكل مثلهم ، ويُجالِسهم ، ويدعوهم إلى طعام يُنفِق عليه من ماله ، وكان يلبس بيجامةً عاديّة ، وكان معتادًا علىً الطّواف في الممرّات بين المهاجع ، كأنّه يعرضُ نفسه على المحتاجين ، وكان لا يُخيّب أحدًا ، يُعطي هذا ويُنفِق على ذاك . ومَنْ لم يعرفْه بشكلٍ شخصيّ لا يمكن أنْ يفرّق في المظهر بينه وبين بقيّة السّجناء

كان رجلاً طُوالاً ، وسيمًا ، أبيضَ تشوبُ وجهه في حالات الصّفاء حُمرةٌ ، وكانتْ لحيته خفيفة ، وشعر رأسه ناعمًا ، وكلاهما وَخَطَهما الشّيب ، لكنّ الشّيب أضافَ لمسةً جديدةً إلى وسامته . صوتُه صوتُ أبي ، لا في النّبرة ، فقد كانا مُختلفَين ، ولكنْ في المعنى ، إذا تحدّث فعن الكرامة والمروءة ، وإذا نصحَ نصحَ بأبوّة ، وكانَ يغضب ، ولكنْ في الثّوابت الّتي يرى في التّنازل عنها ضعةً وخِسّة

كان يخرج معنا في يومِ مهجعه أو في غيره، فيلعب معنا كرة قدم، وقليلاً ما كان يلعب كَرة السّلّة، وعرفتُ أنّه كان أحد أعضاء فريق كرة القدم في الجامعة الأمريكيّة في بيروت أيّام كان طالِبًا في السّتينيّات. كان الرّجل الخمسينيّ يحاول أنْ يجارينا نحن الشّباب العشرينيّ في اللّعب، وأحيانًا يطلب منّا أنْ نُسابقه، فنُقيم مسابقات الجري، ونخجل من أنفسنا أمامه، لكنّه كان يستمتع بمشاركتنا، لقد كان يملك روحًا شبابيّة مرحة

جالسْتُه ما استطعتُ، وتعلّمْتُ منه ما قَدِرت، وكان أغلب حديثنا حول الأحداث السّياسيّة الكُبرى الّتي تحدث في الأردنّ، وكُنّا على أبواب القرن العشرين، القرن الّذي بشّر رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيرس بتغيير المنطقة فيه من خلال كتابه: «الشّرق الأوسط الجديد» كان الكتاب قد تُرجِمَ إلى العربيّة مؤخّرًا، وقرأه ليث، وكثيرًا ما كان يُطلعني على فحواه، ليقول لي: «انظر كيفَ يفكّرون، مع كرهنا الشّديد لهم واستعدادنا في كلّ لحظةٍ لقتالهم، إلاّ أنّ الواحد يقفُ مَلِيًا مُتعجّبًا أمام شخصيّةٍ مثل هذه، زعيم يهبَ عمره وروحه وحياته من أجل أنْ تقوم دولته الغاصبة وأنْ تستمرّ، ولا يرهن وطنه بشخصه، فهو لا يعدّ نفسه أكثر من مواطن إسرائيليّ، لكنّ القدر شرّفه بأنْ يكون أكثرهم خدمةً لشعبه ولوطنه، أمّا زعماؤنا فالواحد منهم يقضي عمره وحياته وهو يسرق أموال الشّعب والأمّة ليُكدّسها باسمه كأنّها أموال الّذين خلّفوه في سويسرا، وحينَ ينهشه الموت لا يُحصّل ورثته من هذه الأموال فَلسًا، وتذهب في شربة ماء لخدمة الصّهيونيّة العالَميّة، ثُمّ إنّه بجشعه لا يترك في وطنه شيئًا قابِلاً للبيع إلاّ باعه، ولا تجد أكثرَ شعبه إلاّ فقيرًا يأكله الجوع والعوز، ويتكفّف النّاس في الطّرقات

فليحْكمْني مَنْ شاء أنْ يحكمني ، ولكنْ ليكنْ مُخلصًا لي ولوطني ولقضاياه المصيريّة ، ولا يبيعني في أسواق المزاد ، ولا يشحد عليّ»

كان مدير السّجن الجديد شديدًا ، كلّ مدير يأتي ينسف ما حاولنا الحصول عليه من حقوق من المدير السّابق ، يُلغي كلّ شيءٍ صنعه سَلَفُه ، فكأنّ لسانَ حالهمِ : «كلّما دخلتْ أمّةٌ لعنتْ أُختَها» . ويبدأ الجديد متحمّسًا ، شادًا على نفسه كأنّه يريد أنْ يُؤدّب بضرباته الاستباقيّة كلّ السّجن ، فيُقدِم على أفعال تبدو غايةً في الحماقة ، من ذلك أنّني كنتُ ألبس (دشداشةً) في إحدى المرّات ، جالِسًا بأمان الله في مهجعي ، وكان يمرّ بالمهاجع وقتها يريد أنْ يفرض هيبتَه ، وحينَ رآني على هذه الحالة ، أمر الحرس بإلقاء القبض عليّ كأنّني مُجرِم ، وصادر الدّشداشة الّتي اعتبرها مخالفةً للزّيّ الرّسميّ!! نعم كان لنا زيّ رسميّ يُشيع في قلوبنا الوهن والذّلّ ، وكان أقربَ إلى أكياس الخيش منه إلى اللّباس الآدميّ ، وكُنّا نُرغَم على لبسه!

كان المرض قد تفاقم في تلك الأيّام مع أبي ، أصبح لا يقوم من فراشه إلى الحمّام إلاّ بمساعدة اثنَين يتوكأ عليهما ، أو يحملانه حملاً شعر بعجزه فازدادتْ نفسيّته سوءًا ، أبي الّذي كان في العسكريّة شعلةً من النّار في الحركة وأداء الواجب ، والّذي طافَ بلدانًا عربيّة كثيرةً ، والّذي حرثَ الأرض ، وزرع وقلع ، وصنعَ لأبنائه ما صنع ، يتهاوَى الآن أمام العجز ، غير قادرٍ أنْ تكون له سُلطةٌ على يدَيه اللّتَين حمل بهما البندقيّة ، ولا على رجلَيه اللّتَين مشى بهما في ساحات الحُلم والمجد لقد أدركنا أنّ شلله هذا سيقتله ، وأنّ النّتائج الّتي تنبني عليها مشاعره ستكون كارثيّة

قدّمتُ استِدعاءً لمدير السّجن كي أرى أبي ، في

١٩٩٨/٣/١٨ . شرحتُ له أنّ أبي مريضٌ وعاجزٌ، ولا يستطيع أنْ يأتي إلى السّجن ليزورني . . . كنتُ في الاستدعاء أكتبُ كأنّما أكتب لأبي ، أو عن أبي ، كان الاستدعاء يفيض بعاطفة الحبّ له والحُزن لأجله ، كنتُ أريد أنْ أراه قبل أنْ يفاجئنا الرّحيل ، الرّحيل الّذي سيكون أبديًا لو حدث لا قدّر الله ، كنتُ أبكي وأنا أكتبه ، أبثّ أبي كلّ أحزاني ، كأنّه كان ينقصه رضي الله عنه أنْ أقول له ذلك . . . جاءني الرّدّ برفض الطّلب . . . احتفظتُ بالاستدعاء وجلّدْتُه بغلاف شفّاف كان يعني لي الكثير . . . ظلّ معي أكثر من عشر سنوات ، ثُمّ أعطيته لأحد المحامين ، وقلتُ له لا تُفرّطْ فيه ، أريد أنْ أصوّره وأحتفظ به في مُذكّراتي .

كانت المُضايقات تُطلّ بعنقها البغيض مع كلّ ذي سُلطة ، حاول ليث أنْ يُخفّف عن المساجين ، كان يجلس مع الإدارة ويطلب منهم أنْ يُعاملوا السّجناء بالرّفق ، وكانوا يسمعون له ولكنّهم لا يُطبّقون من الاتّفاق معه شيئًا ، ولم ييأس من المحاولة في كلّ مرّة ، ويومًا كُنتَ أجالسه في ساحة مهجعة ، وقد كادت الشّمس تميل إلى الأفق لتستأذن الكائنات الّتي تفهم لغتها بالوداع ، وكُنّا من ضمن هذه الكائنات ، سألته يومَها : «لماذا تُصرّ على أنْ تُطالب للمساجين بتحسين ظروفهم في كلّ مرّة ، لقد جرّبتَ العسكر إنّهم يعدون ولا يَفون ، لو كنتُ مكانكَ لقلبتُ الطّاولة على رؤوسهم ولأسمعتهم كلامًا شديدًا يستحقّونه ، وإذا كنتَ لا تريدُ ذلك ، لا تريد أنْ تشتمهم على كذبهم ومماطلتهم فكُفّ عن اللّقاء بهم ، والمطالبة بحقوق لنْ يُحقّقوا منها شيئًا» . يومَها نظر إليّ وابتسم ، قال لي : «يا بنيّ ، إنّ افتعال المشاكل مثل افتِعال الحرائق ، وحتّى ننجو منها سننشغل بإطفائها ، وهذا ما

يريدونه ، يريدون أنْ نقضي عمرنا كلّه في إطفائها ولا نفعل شيئًا آخر مُفيدًا ، ومن مصلحتهم أنْ تظلّ هذه الحرائق مُشتعلةً ، وإذا ما خبتْ زادوها سعيرًا ، وصبّوا فوقَها الزّيت لتلتهب ، ونحن ماذا سنفعل؟ سنحاول إطفاءَها حتّى لا تلتهمنا ، وهذا هو الفَخّ ؛ لن نكون مُنتجين إذا ما وقعنا في هذا الفخّ ، وستجد كثيرًا من النّاس يفرح وهو واقعٌ في الفخّ أنّه أطفأ نارًا هنا ، وقدر على إخماد أخرى هناك ، وهو في الحقيقة كان منشغلاً باللاشيء وباللاجدوى في كلّ حين ، صدّقني يا أحمد ، أريدكَ أنْ تكون مثلي ، أنا مُنشغلٌ بزرع الحدائق لا بإطفاء الحرائق»

غاظتْني مثاليّته يومَها ، كما أغاظتْني واقعيّة المهندس الحكيم من قبلها ، فسألتُه غاضِبًا «وهل ستظلّ كذلك لو خرجتَ من السّجن» ابتسم وسكت ، ولم يقلْ كلمةً واحدةً من بعدُ .

لم يطل ليث المكوث ، كان بقاؤه معنا يُشبه بقاء الشّهاب اللامع في قُبّة السّماء الدّاجية ، رحل كأنّه كان طيفًا تجوّل لزمنٍ مقدور بين مهاجع الأيتام والمساكين ، مسح على رؤوسهم كما يفعل القدّيسون ، وحثّهم على الصّبر والتّمسّك بالأمل ثُمّ غاب . مسحتُ دمعتَين حارّتَين سالَتا على خدّي يومَ فراقِه ، لقد انطفأ من بعده نورٌ آخر في قلبي ، تخيّلتُ الحكيم يقف فوق رأسي ، كان الموقف لا يحتمل التّوبيخ ، لكنّه يحتمل الهمس في الأذن ، لقد قلتُ لك من قبلُ : «لا تُعلّق قلبكَ بأحدٍ» . شعرتُ بيده على كتفي ، أزحتُها برفق ، وخاطبتُ صوته القادم من هناك : «وبمن أعلّقه إذًا؟ بالله؟!» . ردّ ولم أره : «جِدِ الله أوّلاً!!»

(٤٦)
كان ميتًا ثمّ عادَ إلى الحياة

«أريدُ أنْ أكلّم أبي ، إنّه يموت ، صـــرختُ في وجـــه المدير» ، وتحفّزتُ . أحاطَ بي عددٌ كبيرٌ من الشّرطة ، كانوا مستعدّين للقبضِ عليّ وإيداعي في الزّنازين الانفراديّة . تابعتُ وأنا أغلي : «إنّها مُكالمة هاتفيّة ولن تكلّفكَ كثيرًا» . ردّ عليّ ببرود واستخفاف : «القوانين لا تسمح ، وما يجري عليكَ هو الّذي يجري على كلّ المساجين هنا» أعترض مع خفوت صوتي العالي : «لكنّها حالةٌ إنسانيّة» يردّ بذات الأسلوب وهو ينظر إلى قلم يحركه بين أصابعه «القانون فوق الجميع ، ولا استثناءات» . أقتربُ من شتيمته ، لكنّني أهدّئ المسير : «لو كان أباك فهل ستتعامل مع الموقف بالطّريقة نفسِها؟!» . يردّ وهو ما زال يحرّك القلم بين أصابعه ويدور على كرسيّه الدّوّار : «نعم ؛ حتّى لو كان أبي . أخرجوه من هنا» . دُفعتُ بشدّة إلى الخارج ، التصقتْ بظهري أكفٌّ كثيرة وهي تطردني بقسوة ، نظرتُ في عيونهم : «لقد سرقَ الرّحمة من قلوبكم أنتم أيضًا . وا أسفاه على حالي وحالكم»

لا أدري لماذا كان وجهه مختلفًا ذلك اليوم ، كان لونه مخطوفًا ، مُصفرًّا ، وباردًا ، سألتُه «هل تعاني من شيءٍ؟» . ردّ عليّ : «لا أدري ، قبل سنوات طويلة أُجريتْ لي عمليّة قلب مفتوح . وأشعر باختناقٍ في الصّدر في بعض الأحيان» . رددتُ : «حتّى أنتَ تعاني من ثقبٍ في القلب . لا عليكَ يا صديقي . إنْ شئت أوصيتُ لك على بعضِ

الأعشاب ، والأدوية من الخارج . المهندس ليث مستعدٌّ تمامًا . عليكَ أنْ ترتاح أيضًا» . أجابني : «كلّ شيء سينتهي فلماذا أكترث! أينَ وصلْنا في الكتاب الّذي بين أيدينا؟» . كنّا يومها نقرأ كتاب الدّكتور خليل الشّيخ : (الانتِحار في الأدب العربيّ) . وكان قد صدر قبل أشهر ، وحصلنا عليه من صحفيّة ظلّتْ وفيّة لقضيّتنا زمنًا طويلاً . خلال الشّهر الفائت ، كُنّا قد قرأنا ناقشنا ثلاثة كتب هي (الجماعات هل هي قُوة فعّالة لهنري تيري مُترجمًا) ، و (مع الله في السّماء للدّكتور أحمد زكي) ، و (الحرب الصّليبيّة الثّامنة للفريق سعد الدّين الشّاذليّ) ، وقرأناها من مكتبة السّجن باستثناء الكتاب الأخير ، فقد حصلنا عليه من الصّحفيّة إيّاها

بالعودة إلى كتاب (الانتحار في الأدب العربيّ) ، كان العنوان لافِتًا ، وكان المضمون دَسِمًا ، ومع أنّني لستُ مع قصص الانتِحار ، ولا من هُواة قراءة الأعمال النّقديّة ، فقد استهواني هذه المرّة في هذا الكتاب الّذي عرض لأبرز الشّعراء والكُتّاب الّذي سقطوا في هوّة الواقع الّذي تعيشه الأمّة ، وأرادوا ألاّ يستمرّ سقوطهم المُريع فاستعجلوا ذلك بالانتحار . لستُ أناقش هنا القضيّة من زاوية دينيّة ، فالإسلام - بلا شكّ - حرّم ذلك حُرمةً قاطِعة ، لكنّني أودّ أنْ أعرض شيئًا من الأسباب الّتي دفعتْ مشاهير في الأدب والإعلام على أنْ يُقدِموا على خطوةٍ غير متوقّعة ؛ الانتحار هكذا ببساطة!! ولكنْ هل فعلاً كانوا ينتحرون هكذا ببساطةٍ مثلما أقول أنا هنا؟! الدّكتور خليل استطاع أنْ يجمع من فُتات الأحداث ما يُمكن تقديمه كتفسير لهذه الظّاهرة الّتي تتبّعها من العصر الجاهليّ إلى العصر الحديث ، وقد مرّ على ستّة من هؤلاء في عصرنا ، وهو يُحاول أنْ يُقدّم هذا التّفسير ، فقد انتحر كُلٌّ

من : (أحمد العاصي ١٩٣٠) ، و (إسماعيل أدهم ١٩٤٠) ، و (عبد الباسط الصّوفيّ ١٩٦٠) ، و (تيسير سبول ١٩٧٣) ، و(خليل حاوي ١٩٨٤) . وبلغة نقديّة راقية استطاع أنْ يضع يده على بعض هذه الأسباب ، نقلَها في حالة (تيسير سبول) على لسان أحد أصدقائه «إحساسه بأنّ غدير شاعريّته قد جفّ ، وشعوره الدّفين بأنّ نسْره ومَثَلَه الأعلى على الأرض قد هوى في وحل الواقع ، تجربته المُرّة مع حزب نذرَ له عُمره وطاقته ليراه قد تشتّت وتشرذم ، الكوابيس الّتي كانتْ تنتابه بسبب أمراض الأمّة المُزمنة . . . الغربة عن الوطن والأصدقاء والنّفس . . مع إحساس بالعجز وقناعةٍ بعدم جدوى الثّقافة ومحاولات التّغيير» . حين قرأنا هذه الفقرة من الكتاب قال لي المُهندس : «ها هو سقط لأنّه تعلّق بمَثَلٍ أعلى فلم يجدْه عند حدود توقّعاته ، واتّكأ على جدار الحزب فانهار ذلك الجِدار ، وشغلَ عقله في ما تتعرّض له الأمّة من نكبات فجُنّ فهوى ، يا صديقي خُذْ من العلم ما يكفي لكي لا تتكئ على سِواك» . تجاهلتُ نصيحته الجديدة ، وإنْ رأيتُ فيها ما فيها من الوجاهة ، وعرضتُ له سؤال المستزيد : «أتدري ما قاله تيسير سبول من قبلُ في إحدى قصائده وهو يُشير إلى غيابه؟» . ولم أنتظر أنْ يطلب منّي ذلك ، فقرأتُ له

أنا يا صديقي
أسير مع الوهم - أدري
أيَمم نحو تخوم النّهايَةْ
نبيّاً غريبَ الملامح أمضي إلى غيرِ غايَةْ
سأسقطُ لا بُدّ يملأ جوفي الظّلامْ . . .
عذيرُكَ بعدُ إذا ما التقيْنا بذاتِ مَنامْ

تروحُ الغداة وتنسَى
لَكَمْ أنتَ تَنْسَى
عليكَ السّلامْ» .

سعل ، كان سُعاله جافًا . «الدُّخَان» . قال وهو يسعل من جديد ، وتابع : «لعنة الله عليه ، هو سبب كلّ هذه المصائب . نحن أعداء أنفسنا» . أتوارى خجلاً فِيّ . أعرفُ أنّه يعنيني قبلَ أنْ يعني نفسه ، أحاول أنْ أداري الحرج الّذي أوقعني فيه بالسّؤال عن الموضوع الّذي كان يدور حوله كتاب الحرب الصّليبيّة الثّامنة . عنوانٌ جذّاب هو الآخَر ، يبدو أنّ العنوان في النّهاية هو الباب الّذي يفتح على الحديقة الخلفيّة ، يجعلنا نشتهي أنْ نقرأ

قال لي : «الحروب لن تنتهي» . أعرفُ أنّه مُتشائم ، «لكنْ ما مناسبة هذه العبارة؟» سألتُه . ردّ عليّ بمزيدٍ من السُّعال . وتناول سيجارةً جديدةً أشعلها ، سحبَ نفَسًا عميقًا ، ونفثَ : «نحن نحترق مثلها ، لسنا في النّهاية إلاّ رمادًا ، أو دُخانًا يتلاشَى» . لم أُعقّبْ . مدّ علبة سجائره نحوي : «احترقْ مثلي» . خجلت . بدأتُ أفكّر في أنْ . تراجعتُ ، ما أصعبَ أنْ تتركَ ما تشتهي!!

تلقّينا في أوائل عام ١٩٩٨ ثمرةً كبيرةً من ثمار السّلام مع الصّهاينة ، أرادوا أنْ يُبرهنوا على مدى حُبّهم لنا ، وعلى أنّنا أبناء عمّ ، مصيرنا واحد ، فقاموا بضخّ مياهٍ مُلوّثة بالخراء من طبريّة إلى محطّة زي ، ووصلتْنا المياه بكمّيات كبيرة ، وكان ذلك جزءًا من الاتّفاقيّة المائيّة بيننا ، كان خراء ممتازًا فلقد جاء من حبائب القلب ، فلماذا علينا أنْ نعترض ، وترنّمتُ يومها ببيتٍ انتشر في السّجن انتشار النّار في الهشيم ، ولا أدري مَنْ قائله

اشــربْ خــراكَ فلسـتَ أوّلَ خــارِي
في مَـوْطِني ذِي الـسّـبـعـةِ الأنهـارِ

وكانت الحكومة قد دأبتْ منذ أنْ وقّعنا الاتّفاقيّة المشؤومة ، اتّفاقيّة العار والشّنار مع العدوّ الصّهيوني تُقنعنا بأنّ المستقبل سيكون ورديًا ، وأنّ حجم الوظائف الّتي ستوفّرها الاتّفاقيّة ستشغّل كلّ العاطلين عن العمل في البلد ، وسنتنزّه على شواطئ حيفا ويافا وعكّا ، وسيكون بإمكاننا الصّلاة في القدس من عمّان في ساعة ، وستنفتح أبواب الرّزق والسّعادة بشكلٍ لا يُمكن تخيّله ، وستتّسع التّجارة حتّى يُصبح لكلّ محروم مشروعه الّذي سيعتاش منه ، وأنّنا سنتمتّع بمزايا لم يتمتّع بها مواطنو سويسرا ، وصدّق بعضُنا ، فنحن شعبٌ بسيطٌ ، يُحسن الظّنّ حتّى بالكلاب ، وقالت الحكومة : السّمن والعسل قادمٌ!! وبعد أنْ أكلْنا كلّ هذا الخراء تبيّن لنا أنّ الحكومة كانتْ صادقةً في مقولتها ، فهي لا تفرّق بين السّمن والعسل وبين الغائط والبول ، فالْمُنتن يرى العِطر مؤذيًا ، والقذر يشمئزّ من النّظافة!

وكتبتُ على إثْرها مقدّمةَ كتابٍ بعنوان : (أوهام السّلام العربيّ الصّهيونيّ) ، ونسختُ منها نُسخًا لأوزّعها على المساجين ، ولكنّ عساكر الأمن الوقائيّ صادروها ، وصادروا ثلاث دفاتر كنتُ أكتبُ فيها مذكّراتي . وحاولتُ أنْ أستعيد منها شيئًا ، ولكنّ الغزال الشّارد كان قد غاب في الأيكة المُلتفّة . ثُمّ رحتُ أحاول أنْ أكتبَ ما أتذكّر ، كان عليّ أنْ أتذكّر جيّدًا ، أن أحظَى بوقتٍ من الصّفاء الذّهني لكي أستعيد ما سُرِق . لكنْ هل يُمكنك أنْ تستعيد الماء الّذي انسكبَ في الرّمل ، أو أنْ تستخرج الإبرة من كومة القشّ!

أنا أعرف أنّ العمليّة الّتي نفّذتُها لم تكنْ لتُعجِب الجميع ، بل إنّ

شاعِر المرأة ذاته ، الشّاعر نزار قبّاني اعترض على ما قمتُ به ، وتباكى على أرواح القتيلات ، هذا شأنه ؛ لقد عاش في لندن سنوات طويلة جدًا ، وساعدتْه الحياة الغربيّة على هذه اللّوثة ، لوثة الرّقّة تُجاه الأنثى دون أنْ يضع المُعطيات كلّها في الحُسبان ، نُعاني نحن العرب والمثقّفين على وجه التّحديد من عقدة الشّعور بالذّنب تُجاه الآخَر ، وخاصّة إذا عشنا في الغرب ، مع أنّ الغرب نفسه لا يشعر بهذه العُقدة ، إنّه مُستعدٌ أنْ يسحقَ شعبًا بأكمله ، ملايين من النّاس يُبيدها من أجل وهم ، من أجل كذبة ، كذبةٍ لم يسْمعْها بل اختلقها هو بنفسه وصدّقها ، إنّه مُستعدّ لأنْ يُشعل الحرائق في كلّ الأمكنة بدعوى محاربة الإرهاب ، ويَشغل كلّ العرب في إطفائها أو إشعال المزيد منها ، إنّه لا يشعر بالذّنب أبدًا وهو يهدم البيوت على مئات الآلاف من ساكنيها دون أنْ يطرف له جفن ، أو ترمش له عين ، إنّه بسهولةٍ مستعدٌ لأنْ يُغيّر خارطة دُولٍ بأكملها ويلعب بنا كما يشاء ، ويُعيد ترسيم الحدود ، ويُسلّم بلادًا لبلاد وينهبَ بلادًا من بلاد ، ولو سالتْ من تحت قدمَيه الدّماءُ أنهارًا وتكدّست الجُثث أكوامًا ، فإنّه لن يشعر بأيّ ذنب ، بل إنّه ينتظر منّا أنْ نعتذر له لأنّنا (كَرْمشْنا) مشاعره بلون دمائنا المُقزّز الّذي يسيل على حدّ سيفه!!

تتابعتْ لقاءاتي بالمهندس الحكيم في ظهريّات الأيّام ، أطلعْتُه مرّة على مقالةٍ كتبْتُها بعنوان : «زراعة الأمس حصدْتَها اليوم» . رفع حاجبَيه المُتعبَين بعد أنْ أنهاها ، سألْتُه رأيَه ، قال : «لا بُدّ أنْ تقرأ أكثر ، القراءة فيوضٌ والكتابة ثمر ، ولا ثمر بدون فيوض» . سعل . أتيتُه بكوبِ ماء . سألْتُه : «مُتعَب؟» . ضحك ضحكةً واهنة : «مَنْ منّا ليس مُتعبًا! هل نحنُ إلاّ من تعب» . أسأله وقد بدأتْ لهجته تُخيفني

«لماذا كلّ هذا التّشاؤم؟» . «التّفاؤل كذبة ، مُصطلحٌ اخترعه الإنسان ليخدع عقله كي يستريح قليلاً من حجارة التّشاؤم الّتي تطحن قلبه» «إنّ ربّي لطيف» . «ولهذا جعل التّشاؤم حالةً والتّفاؤل عرضًا ، إنّ بشرًا يُساكنونك هذه الأرض لا يمكن أنْ يدعوك لتعيش بسلام . نحن ذئاب جائعة يا صديقي» . حاولتُ أنْ أحرف دفّة الحديث باتّجاهٍ آخَر ، فسألته عن الكتاب الّذي سنقرؤه هذا الأسبوع ، كان يحمله بين يديه ، رفعه في وجهي ، كأنّه يُعلن صافرةَ البداية أو النّهاية لا أدري ، خفضه ، فتحه وقرأ :

«مُبارَكٌ أنا بالإيمان ، وملعونٌ بالنّسيان
واضحٌ ، لكنْ مُغطّى بالطّينْ
راشدٌ ، أهرمُ ، ولا أزالُ طفلاً صغيرًا
حينَ أموت ،
لا تقلْ هو ميّتٌ
قُلْ كان ميّتًا ثُمّ عادَ إلى الحياة
وأخذَه أصدقاؤه إلى الصّحبة مرّةً أخرى» .

كان يقرأ من ديوان جلال الدّين الرّومي ، قال لي : «منذ ثلاثة أيّام وهو بين يدَيّ ، أقرؤه وأشعر بكلّ حرفٍ فيه ، إنّه الوقوف على حرف الحرف ، إنّه سِحر الرّوح ، شعر الرّومي لا يُقرأ إلاّ بالقلب ، تتلذّذُ بالتّرنّم فيه ، وتطربُ لسماعه ، لكنّه لا يُسمع إلاّ بالوجدان . ظَلَلْنا نرشفُ من كأس الرّوميّ عشرةَ أيّام متتابعات . كان الشّعر إمساكًا بلحظة اتّقاد الرّوح ، كُنّا نحاول أنْ نلتقي تلك اللّحظة ، أن نتحيّن لها فتسنح لنا ، من أجل أنْ نتخلّص قليلاً من دناءات هذا العالَم .

أمس جاءني ، من بعيدٍ وهو يدخل بوّابة المسجد ، بدا مع سقوط

أشعّة الشّمس عليه، كأنّه يُشعّ، الفضاء خلفه مُتخَمٌ بالفراغ وهو يملؤه بالنّور، بالفَيء، وبالظّلال الّتي تسمعُ موسيقاها، كان يبدو أنّ روحه تتسامَى، صافِيًا كنهر، ونقيًا كغمام، حينَ جلس إليّ لم يكنْ يحمل كتابًا، تعجّبتُ، قال لي، وهو يُولّي وجهه بعيدًا عنّي: «لا يُمكن زحزحة الزّمن إلى الأمام أو الوراء ثانيةً واحدة لحساب الموت، الموت انقطاع الحياة فجأة، لا أدري مَنْ سيرثيني إذا متّ... الّذين يعيشون في غابة يكون فيها البقاء للأقوى يموتون مُبكّرًا، أنا لستُ قويًا بما يكفي، أعرف ذلك، وسأرحل سريعًا...». لم أقلْ شيئًا، قمتُ إلى الخابية، ملأتُ له كأسًا من الماء، سعل، بدا سُعاله سِهامًا ناشِبةً في حلقه، شرب بصعوبة، قال لي: «مَنْ كانتْ آخرُ حياته شربةَ ماءٍ من يد حبيبٍ فهنيئًا له». هدّأتُ من تشاؤمه، قلتُ له لأبشّره بقرب الإفراج عنه «إنّها أيّامٌ معدودةٌ وتخرجُ من السّجن وتعود إلى أطفالك وأهل بيتك وتهنأ بهم» نظر إليّ يائِسًا وهو يشدّ على صدره من الألم، وقال: «صدقت؛ إنّها أيّامٌ معدودة وسأخرج من السّجن لكنّني لن أعودَ إلى أطفالي». صمت، فسمعتُ أنينًا خافتًا آتِيًا من وراء ظهورنا، التفتُّ لأعرفَ مَنْ يبكي، لم يكنْ ثمّةَ إلاّ الفراغ. وجدار تعلوه رفوفٌ خشبيّة قديمة تحمل بعض المصاحف. قام مثل طيف. غادر، وهو يرتجّ من السّعال.

الخروج، هو الخروج، كلّنا سنعبر يومًا ما تلك البوّابة الّتي تُفضي إلى خارجنا، تُفضي إلى الحقيقة، الحياة وهم، وهمٌ جارحٌ، إنّها راقِصةٌ تبدّل كلّ يوم حذاءً. لسنا شُجعانًا بما يكفي لنواجه أنفسنا، والجحيم لا يتزيّن لصنفٍ من النّاس أكثر مِمّا يتزيّن للجبناء، سيجعلهم يرتعون في الطّبقة السّابعة منه

في اللّيل سعل أكثر ، قام يتلمّس باب المهجع كالأعمى ، البابُ مُغلَق ، مُوصَدٌ لا تفتحه إلاّ السّلطة ، التمسَ الهروب من الموت بانفِتاح الباب ، لكنَّ الباب لم يُفتَح . هل كان سينجو من الموت لو فُتِحَ الباب!! أم أنَّ الموت استبطأ الحرس ليُتمَّ مهمّته المُقدّسة معه!!

نادى المساجين الّذين يُشاركونه المهجع على العساكر ، لم يسمعوا ، طرقوا الباب بكلِّ أياديهم ، وهم يستغيثون : «إنّه يموت» كان الألم في صدره يصعد بروحه ، جاؤوا بعد ساعة ، رأوه مُلقى على الأرض ، كان هو قد بدأ سفره إلى الغاية ، الغاية البعيدة تارِكًا لهم جسده ، «الجسدُ قشرة» قال الموت . حملوه إلى المُستشفى ، عيناه نطقتْ بكلِّ شيء ، وصل إلى هناك بجسده ، كانتْ روحه قد التحفتْ بالسّماء . قال لهم الطّبيب الشّرعيّ : «إنّه ميّتٌ منذ ثلاث ساعات!»

(٤٧)
صارتْ فاطمةُ وطني

كان الطّابون قد أُغلقَ منذ زمنٍ سحيق ، وتحوّل إلى أطلالٍ دارسة ، لو لحق بها امرؤ القيس لوقف مع صاحبه وبكى عليها ، أو لو لحقها زهير بن أبي سُلمى لغنّى : «أثافِيَّ سُفْعًا» . صارتْ تخبز خبز (الشّراك) على الصّاج ، كان إدامنا مع الزّيت والشّاي الحُلو . قبل أنْ أتزوّج كانتْ أمّي تُعطيني بعض أرغفة الخبز آخذها معي إلى العسكريّة ، أُقبّل يدها وأعلم أنّ خُبزَها هو خُبز الحياة ، وأنّ المسيح لو كان حيًّا لطلبَ منها أنْ تكسر له من خُبزها كما كان يفعل هو مع حواريّيه

توقّفتْ أمّي عن إعطائي أرغفة الخُبز الثلاثة حين صار لي وطن ؛ حين صارتْ فاطمة وطني ، ولمّا اغتربتُ عن هذا الوطن في المنفى ، في سجن سواقة الصّحراوي ، عادتْ أمّي إلى خبز الأرغفة الثّلاثة ، تنتظرني من السّابعة صباحًا حتّى العاشرة ، تتوقّع بعد كلّ طرقةٍ على الباب أنْ أكون أنا الطّارق ، تنظر إلى فرجة الباب في كلّ لحظة ، تقول في نفسها : «سيأتي ولن يطول غيابه أنا متأكّدة من ذلك» . يراها أبي ، يُشفِق عليها ، يقول لها بكلماتٍ تخرج ثقيلةً من بين شفتَيه : «الولد في حِفظ الله فلا تقلقي» . تصيح بوجهه : «أنتَ لا تُدرك ما أنا فيه ، أنا أحسّ بأنفاسه تقترب ، أجد رِيحه في كلّ صوتٍ ، فدعْني وشأني» . لا يقول أبي بعدها شيئًا ، بالكاد يحرّك طرفَ أصابعه مُستسلِمًا ، المرض نهش جسده كلّه ، يتطلّع إلى أمّي ، يُدرك أنّ

الأمّهات لَسْنَ آدميّين بالمعنى الحقيقيّ، لا ينتمينَ إلى البشر، إنّهنّ رحمةٌ إلهيّة ليسَت موجودةً إلاّ في السّماء، يُفكّر أبي وهو يبتسم: «هل الأمّهات ملائكةٌ ضلّتْ طريقها إلى عالَمنا؟!».

لم تبتِ الأرغفة الثّلاثة يومًا واحِدًا عند أمّي، كانتْ بعد العاشرة تهبهنّ لأيّ مسكينٍ أو طارقٍ يطرق باب بيتنا، تقول له: «هي لك، كأنّه أكل»

في أيّام البرد من عام ١٩٩٩ مات الملك حسين، وعمّ الحزن الدّولة، واتّشحتْ بالسّواد، إنّها له منذ ما يقرب من نصف قرنٍ، كان فتًى يافِعًا حينَ جاءَها وغادرها عجوزًا، وارتبط اسمه بها في كلّ محفلٍ. زعلتْ أمّي على موته، الموتُ لا يُبقي على أحدٍ. كانتْ تقول: «إنّه حذّر كلّ الضُّبّاط والعسكريّين والقادة ومُديري المخابرات وغيرهم؛ كلّ شيءٍ إلاّ أمّه، دعوها تفعل ما تشاء، وتقول ما تشاء، ولبّوا لها كلّ ما تطلب، ولا تمسّوها بسوء»

في السّجن، عمّ سوادٌ كذلك، لكنّ غمامته انقشعتْ. كانوا قد بدؤوا يتحدّثون عن العفو العامّ وتبييض السّجون، كان الملك عبد الله الثّاني يستعدّ بعد أنْ صار ملكًا هو والحكومة على استصدار عفوٍ عامّ عن السّجناء، يُفرِح به ذويهم، عن روحِ الرّاحل الكبير، لعلّ بعض الدّعوات تصل إلى أبيه الّذي صار في رحمة الله. حينها انقلب السّجن بكلّ مَنْ فيه مِن مساجين وسجّانين إلى خليّة نحل، وتحوّل إلى معاهد للدّراسات والتّحليلات، وانداح طوفان الأمل حتّى مسّ كلّ أحدٍ، وما بقي من سجينٍ إلاّ وأَمِلَ أنْ يكون الإفراج عنه قريبًا

تكركبَ السّجن، صار السّجناء مجانين، يذرعون ساحات المهاجع بخطوات سعيدة وهم يُفكّرون في القوائم الّتي ستتضمّن

أسماء المشمولين بالعفو ، لم يعدْ أحدٌ ينام ، وإذا نام غفوةً بسيطةً يصحو منها فَزعًا وهو يهذي : «اسمي مكتوب» . تحوّل الأمر إلى هلوسة حقيقيّة ، بلغتْ منتهاها مع تباطؤ الحكومة في إعداد القوائم ، راحَ بعضهم يُخطّط للمشاريع الكُبرى الّتي سيقوم بها بعد الإفراج عنه ، كانت سنوات السّجن الصّعبة الّتي عاشها أكثر النّزلاء ترسم في مخيّلاتهم أحلامًا لا يُمكن التكهّن بها كلّهم أدخلوا في حسابات خيالهم العمل الفوريَ وجني الكثير من الأموال ، كأنّ الأموال والوظائف كانت تنتظرهم على بوّابة السّجن الخارجيّة ، فما إنْ تُفتَح لهم حتّى تنهال عليهم خيرات الدُّنيا من كلّ صوب ، بعضُهم تخيّل نفسه وقد صار مديرًا ، آخَر وقد صار يملك شركة استيرادٍ وتصدير ، حتّى أولئك الّذين يعرفون الواقع تمامًا راح يتخيّل نفسه عضو مجلس إدارة في شركة وندوز ، وأنّه يجلس على نفس الطّاولة الّتي يجلس عليها بيل غيتس!! هل السّجن يفعل بالإنسان كلّ هذا؟ هل كان الانحِباس لغمًا يزداد الضّغط عليه في الوِجدان ، ويظلّ كظيمًا حتّى لحظة الإفراج ، فإذا حدثت انفجر ذلك اللّغم فتحوّل إلى شظايا مُضيئة ، فظنّها الإنسان نجومًا ، وما هي إلاّ أشلاء أحلامه الأسطوريّة وإذا فقد سافرنا بأحلامنا فوق ظهور النّجوم والكواكب واخترقنا السّماوات والآفاق .

لم يشملْني العفو . لم أكنْ مِمّن وقعوا في فخّ الأمل ، كنتُ أعرفُ أنّني يُمكن أنْ أقع فيه بعد عشر سنوات من السّجن ، ربّما ، أمّا الآن فلا أعتقد ذلك . أُفرج عن ثلاثة أرباع مَنْ كان في السّجن ، (ربحي) أمين المكتبة شمله العفو ، ومع أنّني فرحتُ لخروجه إلى شمس الحرّيّة ، إلاّ أنّني حزنتُ لفِراقه ، فقد كان هو والمهندس الحكيم رحمه

الله أكثر مَنْ أنارا لي دروب المعرفة . في مهجعي أُفرِج عن نصف زملائي ، عن ثمانية ، وبقينا ثمانيةً ، كان الجاسوس الّذي يكتب التّقارير عنّي لمكتب الأمن الوقائيِّ (أبو خلف) أحدَ المُفرَج عنهم ، لم أشعرْ تُجاهه بشيءٍ ، كان ذلك الشّعور قد مات منذ زمنٍ .

أصبح مهجعنا خالِيًا ، حدث ذلك في المهاجع الأخرى ، بعضُها أغلقَ بالكامل ، لم يبقَ فيه مِن ديّار . كانت سنة ١٩٩٩ بالفعل سنة تبييض ، لقد صار السّجن موحِشًا ، تتجوّل فيه أشباح العتمة فقط!! وهل كان يومًا غير ذلك؟ بلى ؛ كلّ مكانٍ عامرٌ بأهله ولو كان الجحيم!!

(٤٨)
انهدَ عمَود البيت

مات أبي!! سكنَ كلّ شيء . صمتٌ مُطبِق . لم أعدْ أسمع شيئًا ، أحسّ أنّني سقطتُ في فراغ ، لا وزنَ لي ، أبدو مثل ريشة تتأرجح بلا قرار ، فقط أواصل السّقوط دون شيءٍ يجذبني ، كأنّني أسبح في هواء ، هدوء في أذنَيّ ، مثل ليلةٍ ثلجيّة نامتْ فيها الرّيح ، وامتصّ الثّلج كلّ صوتٍ فلا تكاد تسمع نأمة ، فقط ندفات كثيرة من الثّلج تهبط بهدوءٍ لتنضمّ إلى الأرض المكسوّة بالثّلج في كلّ ناحية وتضيع في هذا البساط الأبيض الممتدّ . الأشياء تبدأ بالاختفاء ، السّجناء يسيحون حولي عيونهم مُطفأة وأفواههم مُغلَقة كأنّهم في فلمٍ صامتٍ ، لا زمان ولا مكان ، ينقطع كلّ شيء ، كلّ شيءٍ يضمحلّ ، ويغور في ثقب الصّمت ، بعد ثوانٍ قليلة هديرٌ خافتٌ مثل هدير القِطار يأتي من مكانٍ بعيدٍ جدًا ، يمرّ القطار دون ضجيج ، فقط بُخارٌ أزرق يتصاعد من خلفه مثل الضّباب في أيّام الشّتاء . كلّ شيءٍ حزينٌ وباهت ، الرّماد يُغطّي الطّرقات ، وآثار بشر كثيرين تبدو فوق الرّماد متّجهة إلى حافّةٍ ليس بعدها شيء سوى الهاوية!!

مات أبي ؛ انهدّ عَمود البيت . لم يعدْ بيتٌ لنا ، أصبحنا أيتامًا من جديد!! وارحمة الله على روحكَ يا أبي . انطفأ الضّياء الّذي كُنّا نُبصر به . وسقطْنا في الفقد فجأةً ، وتمزّقت الخيمة الّتي كُنّا نحتمي تحتها من الرّيح والمطر ، وأصبحنا بلا معنى . توضّأتُ بالبكاء وصلّيتُ على روحه

الطّاهرة ، كنتُ أرتجفُ ، البـرد يُغطّي أضلعي يا أبي ، أينَ هو مـعطفك الّذي كُنت تلقيه على كتفيّ ليُشيع فِيَّ الدّفء

قال لي علي السّنيد ، إنّه توفّي ليلة الخميس ، وكان يضحك .
سألتُه : أينَ أمّي؟ لم أكنْ أقصد أنْ أراها ، كنتُ أريدُ أنَّ أقول إنّها صارتْ لنا كلّ شيء . كنتُ أريد أنْ أبكي معها ، أنْ أسقط تحت قدمَيها ، مَنْ يحمينا يا أمّي الآن . لعنةُ الله على القيد ، صرختُ من الفجيعة ، لعنة الله على السّجن ، لعنة الله على القلوب القاسِية ، ما ضرّهم لو أخرجوني لألقي عليه نظرة الوداع الأخير ، سأهوي على جُثمانه ، أحتضنه كما لو كان حيًا ، وأبوح له بكلّ شيءٍ ، وأطلبُ منه أن يُسامحني ، أنْ يغفر لي كلّ شيءٍ ، أنْ يقول لي للمرّة الأخيرة : الله معك يا بُنّي ، لم أحبّ في حياتي غير وطني وأنتم ، ولقد ضاع الوطن ونحن نحلم ، واللهُ أرحم من أنْ يجمع عليّ ضياعَين ، كونوا كما أُحبّ لكم ، أسرةً واحدةً ، وعلّموا أبناءكم حُبّ الوطن ، حتّى يأتي اليوم الّذي ينهضُ بهم وبأمثالهم .

مات أبي ، قالها عليّ ، وهو يُدير صفحة وجهه ، لا يُريد أنْ يقولها في وجهي ، قُلها يا عليّ ، قُلْها في وجهي وبفخر ، قُلها فما عاشَ أحدٌ مثل أبي ، ولا مات مثله . لقد نام على حلم البندقيّة الّتي كانتْ رفيقته يوم تطوّع في الجيش ، الجيش الّذي دخله ليكون مُجاهِدًا ، وظلّ أمينًا لها ولحلمه حتّى ثوى . قُلْها يا عليّ : لقد أقعدتْه روحه الثّائرة ، وتوقه إلى الشّهادة : «أماتَ أبوكَ؟ ضلالٌ . . . أنا لا يموتُ أبي»

لماذا يا أبي تُغادرنا هكذا دون أنْ تقول!! لقد تعبْتَ من هذه الدّنيا ، أعلم ، لقد رأيتَ فيها ما يجعل الولدان شيبًا أعلم ، وأعلم أنّك صبرتَ صبر الجبال الرّاسيات ، وقد آنَ لك أنْ ترتاح ، آن أنْ تُلقي عن كاهلَيك

أثقال السّنين القاصمات ، ورحلتَ لتُجيبَ نداءَ مَنْ ناداك ، أفكان أقربَ إليكَ منّا ، وجِواره أحبّ إليكَ من جِوارنا ، فآثرتَه علينا وارحمتاه لروحك الطّاهرة يا أبي!!

قلتُ لعليّ ، أريدُ أنْ أكتبَ استدعاءً أطلب فيه من إدارة السّجون أنْ تخرجني لكي أراه ، ردّ علي : «تراه!!» . ومدّ يده ، كانت من خلف الزّجاج ، لقد توهّم المسكين أنّه يستطيع أنْ يربّت بها على رأسي ويُداريني . وتابع : «لقد دُفِن أمس . ادعُ له» . انفجرتُ من جديد بالبُكاء ، وتابعتُ وأنا أنشج : «ومع ذلك سأكتب استدعاء أطلبُ فيه أنْ يخرجوني» «يخرجوك؟ إلى أين يا أحمد؟» «إلى قبره . أريد أن أجلس على شاهدة قبره وأكلّمه ، أريدُ أنْ أُريح جبيني عليها لأُحسّ بروحه تتسرب من التّراب إلى تلك الشّاهدة فتسري فِيّ روحُه ؛ روحه الثّائرة الهادئة ، الصّامتة الضّاجّة . أريد أنْ أتمدّد إلى جانب قبره ونُشاهد معًا نجوم (إبدر) في ليلةٍ من ليالي الشّوق ، لديّ أسئلة كثيرةً أريدُ أنْ أسألها له ، لا أحد يستطيع أنْ يجيبني عنها غيره ، ولديّ حكايات كنتُ أريد أنْ أقولها له ، له وحده ، كُنتُ أريدُ أنْ أقول له أشياء كثيرة ، أنْ أُثرثر معه ، ولكنّه رحل . . . هل هكذا ببساطة رحل أبي يا عليّ!!» ينظر في عينَيّ ويبكي هو الآخَر : «لقد رحل بالفعل يا أحمد . . . رحل» . أصرخ مُستنكرًا : «لا لم يرحل . أنتَ تكذب ، وأنتَ مثلهم لا تريدُني أنْ أراه» . أنهارُ على شبك الزّيارة ، يتجمّع حولي المساجين والعسكر ، يحملونني إلى العيادة ، تمرّ ساعاتٌ ، يحلّ الظّلام على الكون كلّه ، أصحو على السّرير فجأة ، وأصرخ : «أبي . . يااااا أبي»

مات أبي كأنّه ما عاش ، كأنّنا ما ألِفْناه وهو يحملنا صغارًا نبكي بين يدَيه ، ويحتمل صخبَنا وضوضاءَنا وطلباتنا الدّائمة كأنّنا ما رأينا

جبينه وهو يرشح بالعرق عائدًا من الثكنة يحمل بين يديه أكياس اللّحم والخُضار كأنّه ما كان يُلاعبِنا ، ولا يأتينا بالهدايا في كلّ عيد . كأنّه كان حلمًا . الحياة حلم يسهو فيه الإنسان عميقًا ، والموت صحوةُ الغافل . فجأةً تمتدّ يدٌ إلى كتفك تهزّك بعنفٍ ، تصرخ في وجهك : «استيقظْ لقد مات أبوك» . ولْيكنْ . . . فمَنْ يستطيع ألاّ يموت!! ستبدو الحياة يومًا ما لنا جميعًا كأنّها لم تُوجد من الأساس .

كان أبي شَغوفًا ، يُحبّ الحياة ، يحبّ النّاس ، مليئًا بحيويّة مُفرِطة . . . أصدقاؤه عدد النّجوم ، وكان حاضِرًا في كلّ مكانٍ ، وجزءًا من حياة الكثيرين . . . ما الّذي حطّمَ جناحَي النّسر فجأةً؟! لا أحد يدري ، ما الّذي خنق الصّوت الصّادح في البراري؟ لا أحد يدري . في سنواته العشر الأخيرة اختار أنْ يختفي عن النّاس ، بل حتّى عن نفسه ، كان يحلم بأشياء كثيرة ، لكنّه لم يقلْ لنا شيئًا ، كان قليل الكلام ، وصمتُه غامضًا

كان عالَمي معه ساحرًا حينَ كُنّا أطفالاً ، كان يأخذ بيدي إلى الحقول ، أتشرّبُ معه حُبّ الوطن ، وتتلمّس أصابع قدَمَيّ ذَهَبَ تُرابه ، وحين كبرنا تحوّل ذلك التّوقّد في عينيه إلى انطِفاء ، وذلك البِشْر في وجهه إلى غلالاتِ أسى ، ليتنا يا أبي بقينا صغارًا ولم نكبر

كبرتُ ودخلتُ العسكريّة ، كنتُ أعود منها مساءات الخميس مُنهكًا ، يكون جالِسًا على عتبة البيت ينتظرني كما لو أنّني لا أزال ذلك الصّبيّ الصّغير ، يسألني عن حالي ، فأجيب بكلمةٍ واحدةٍ : «بخير» ، يريد أبي أنْ يُطيل أمدَ الحديث معي ، وأنا أهمّ بتجاوزه تارِكًا إيّاه جالِسًا وحده على العتبة وأدخل إلى الدّار لأوي إلى غرفتي أغيّر ثيابي وأرتاح بعد طول تعب ، يطرح ثلاثة أسئلة أو أربعة معًا

ليستبطِئني ، أشعر بالضّيق كما لو أنّني في جلسة تحقيق ، أدخل ، وأتركه ورائي دون أنْ ألتفتَ إليه . .!! كم كنتُ عاقًا يا أبي ، كم كنتُ جاهلاً حين ظننتُ أنّني كبرتُ وصار لي عالَمي الخاصّ ، اليوم يأكل قلبي النّدم ، ماذا عليّ لو جلستُ معك في تلك الأيّام على العتبة ، وقبّلتُ رأسك ، وحدّثتُكَ مُطوّلاً ، وارتشفْنا معًا كأس شاي تُساوي العمر ، لماذا كان على الأولاد ألاّ يُدركوا قيمة آبائهم إلاّ بعد أنْ يرحلوا!!

قلبُ أبي قارورةُ عِطر ، وروحه جَرّة أغانٍ ، وعيناه شتلة ياسمين ، بسيطٌ حدّ الرّقّة ، وأسيفٌ حدّ الوجع ، وحالمٌ حدّ الفناء ، وسهلٌ كَماء ، تُحزنه وردةٌ عطشى على جانب الطّريق ، وتُفرحه غمامةٌ ريّا تعبر السّماء ذات خريف ، يأكل ما يَجِد ، ويطرب لما يسمع ، وتكفيه كسرةُ خبزٍ ، يشكر إذا وجدها ، ويصبر إذا لم يجدْها ، لم يرتفعْ صوتُه بالغضب في وجه أحدٍ منّا ، كان دائمًا رقيق الحواشي كربيع تُحرّك نسماتُ آذار زهورَه فيفوح بالعطر في كلّ حين . ينامُ حينَ يضعُ رأسه على الوسادة كطفل لأنّه لا يحمل في قلبه ضغينةً تُجاه أحدٍ . لكنّ كلّ ذلك مات اليوم . . . وصار ذكرى ، فأيّ صبرٍ نحتاج حتّى نعبر طوفان الأسى!

ما أصعبَ أنْ تُفتّش أغراض رجلٍ ميّتٍ ، كلّ شيءٍ يقع بين يديكَ من أغراضه تلمسُ فيه حضوره التّخيّلي في غيابه الفعليّ . في خزانته الّتي رافقتْه - مثل أمّي - خمسين عامًا ، وجدوا ألبومَ صورٍ عتيق ، كان يحتفظ فيه بلقطاتٍ نادرةٍ له مع رفاق السّلاح . في إحدى هذه اللّقطات صورةٌ له مع زملاء له ، ستّةٌ يقفون في صفّين ، جميعهم يلبس اللّباس العسكريّ الكاكيّ اللون ، ويضعون شماغاتٍ مُهدّبة على

رؤوسهم ، وشعار الجيش العربيّ ذو التّاج والسّيفين مُثبَّتٌ فوق جبينهم في وسط العقال الأسود ، كانوا جميعًا يضحكون ، كأنّهم ذاهبون في نُزهة ، أبي كان الّذي في الوسط لكنْ في الصّفّ الثّاني ، كان يمدّ عنقه حتّى يبدو وجهه كاملاً في الصّورة ، وتبدو ضحكته المُشرقة كضحكة طفل ، وأحد أسنانه الأماميّة يبرز قليلاً إلى الخارج فيُعطي ضحكته نكهةً مُختلفةً عن الآخَرين ، كانوا جميعًا وسيمين بهذا اللّباس والضّحكة المرسومة بعفويّة فوق وجوههم ، أكثر ما جعلهم يبدون بهذا الجَمال ، هو شيءٌ ما في روُحهم ؛ لا أحدَ يعرفه ، لكنْ يُمكن لمْسُه بسهولة

تعلّمتُ من أبي هذا الشّيء ، كان يرافقه دائمًا دفتر مُذكّرات أينما ذهب ، وخاصّة في سنوات عمله الأولى في العسكريّة ، يُسجّل فيه ما يحصل معه ومع رفقائه ، كان دفترًا يسجّل فيه ما يُشاهده ، وأحيانًا ما يستحسنه من الحِكَم والأمثال ، كانت لغة أبي بسيطة ، لكنّها بليغة ، كان يحفظ آلاف الأبيات والآيات والأحاديث ، كان الكُتّاب في القرية يُعلّم أكثر من جامعة في هذه الأيّام ، وبالشّفاه عنه وقر في ذهني عددٌ كبيرٌ من أبيات الشّعر الّتي كان غالبًا ما يترنّم بها .

دفتر مذكّرات أبي وثيقة تاريخيّة يُمكن أنْ تكون شاهدةً على عصره وعصر زملائه ، وعلى جزء من تاريخ الجيش العربيّ ، لكنّني أعلم أنّ كثيرين لا يريدون لهذه المُذكّرات أنْ تُنشَر ، التّاريخ الّذي نقرؤه فيه فراغات كثيرة ، وإزاحات ، وتحريف للكلم عن مواضعه ، وتزييف ، الحقيقة الكاملة ليستْ عند أحدٍ غير الله . يُمكن أنْ أختصر مذكّرات أبي ، في عبارةٍ كتبها في ذيل وصفه لأحد اقتحامات قواعد العدوّ في فلسطين ، كان يتحدّث بمرارة كيف يُمكن أنْ يُقاتل العسكريّ دون

أوامر ، لأنّ الأوامر من القيادات العُليا لا تصدر إلاّ بعد أنْ تنتهي المعركة في أغلب الأحيان ، العبارة الّتي ختم بها إحدى أوراق مذكّراته تقول : «كان لدينا حلم ، ولكنّهم داسوا عليه» . لقد اختصر بها مرارات الدّهور الّتي كان يُمنَى بها هو وزملاؤه طوال انتسابهم إلى وحدات الجيش .

في اللّيل أويتُ إلى فراشي ، كنت مثقوب الفؤاد ، حلقي مشدودٌ إلى كرةِ حُزنٍ نُحاسيّة . أجرّ أقدام الفجيعة حافِيًا في غابةٍ من شوك الأسى ، كلّ شيءٍ فِيّ يبكي ، نمتُ ، في المنام ، رأيت الشّيخ عبد الرّزّاق ، كان جالِسًا على حافّة وادٍ يُعطيني ظهره ، عرفتُه من عمامته الّتي بدتْ على ضوء النّجوم المتلالِئة ، وقفتُ على مبعدةٍ منه مُندهِشًا لا أدري ماذا أفعل ، أشار لي بيده دون أنْ يلتفت إلى الوراء كي أجلس بجانبه ، أطعتُه ، اتّخذتُ مكاني إلى جانبه على دكّةٍ حجريّة يقع تحتها وادٍ لا يُرى له قرار لعُمقه ، وأمامنا الفضاء الرّحب متّشحًا بقمم مبعثرة في المدى . قال لي دون أنْ ينظر نحوي : «أبوك بخير» . شهقتُ . سألته «وهل تدري بموته؟» . ردّ باستغراب : «نعم ، ألم يقلْ لكم!!» سألتُه وأنا أخفض بصري وأنظر إلى يديّ : «لا ، لم يقلْ لنا ، ولكنْ كيفَ عرفت؟» . سألني . «عرفتُ ماذا؟» . «أنّه مات» . أجابني بفرح «لقد زارنا أمس» . سألته لأعرف أين زارهم : «وأنتم أينَ تسكنون؟» «هناك» . وأشار بُعكّازه إلى السّماء ، وتابع : «انظر إلى النّجوم ، كلّ واحدٍ منّا له نجمة ، انظر إلى تلك الأكثر بريقًا إنّها نجمة أبيك ، إنّها ما زالتْ خضراء ، حين تعيش نجومنا أزمنةً طويلةً تبدأ بالخفوت لتسمح لنجمة جديدة بالظّهور ، هناك . . . انظر . . . إنّها نجمةُ أبيك» «ولكنّ أبي دُفِنَ في القبر سيّدي الشّيخ وليس في السّماء» . أجابني بشيءٍ

من الحزم كأنَّ عبارتي جرحتْ كبرياءَه : «لا تكنْ أحمق ، هل رأيتَه وهو يُدفَن في التّراب؟» . «كلاّ» . «إذًا لا تحكم على ما لم ترَ» . سألتُه : «وأنتَ؟» . ردّ كأنّه تهلّل : «أنا رأيتُه ؛ كان يصعد إلى الأعالي ليتّخذ مكانه الّذي يليق به»

استيقظتُ مرتاحًا . علوءاً باليقين . اليقين بَردٌ ، حمايةٌ من العَتَه ، ودوحةٌ يجد المرء في ظلّها الرّاحة بعد الشّكّ . الشّكّ الّذي يظلّ يحومُ حولي مثل طائرٍ فقد صِغاره .

فتحتُ بيتَ عزاءٍ في السّجن ، تلقّيتُ التّعازي من السّجناء ، وزارني في اليوم التّالي عددٌ كبيرٌ من الشّخصيّات الوطنيّة وقدّموا لي تعازيهم . لم يتركوني وحيدًا ؛ بالقلوب المُحِبّة يُمكن للإنسان أنْ يتجاوز المِحنة

(٤٩)
واللهِ ما كتبتُ استِرحامًا لأحدٍ يا أمّي!!

زارتني أمّي بعد شهرٍ من موت أبي ، كانتْ تبدو غاضبة ، حاولتُ أنْ أواسيها على فَقْدِ أبي قبلَ أنْ أفتتح معها أيّ حوارٍ من أيّ نوع ، لكنّها قطعتْ عليّ الطَّريق ، هتفتْ بصوتٍ عالٍ : «سمعتُ أنّكَ قدّمْتَ استرحامًا لتخرج من السّجن ، هل تريد أنْ تُنكّس رؤوسنا يا ولد!! تطلب عفوًا!!! لماذا ، هل نحن صغار في عيونهم لنفعل ذلك؟! يا ولد العفو لا يُطلَب إلاّ من الله . وطّيت راسنا . . . هل على هذا رَبّيتُك؟!» لم تتركْ لي فرصةً كي أردّ ، كانتْ كلماتها تهبطُ فوقَ رأسي كحجارةٍ من لهب ، قلتُ لها بعد أنْ سكتتْ من غضبها : «مَنْ قال لك إنّني قدّمتُ استِرحامًا؟» . «هم يقولون ذلك ، أحد ضبّاط المُخابرات أوصل لأحد أقاربنا أنّك كتبتَ استِرحامًا ليُفرِجوا عنك . . . تكتب استرحامًا!!! ألهذا الحدّ هُنتَ على نفسك!!» . أجبتُها مثل متّهم يُدافع عن نفسه «والله ما كتبتُ استِرحامًا لأحدٍ يا أمّي ، وهذه إشاعة تريدُ النّيل من عزيمتي وتشويه صورتي . ثقي يا أمّي أنّني لن أطلب العفو إلاّ من الله ، ولن ألجأ إلاّ إليه» . أمالتْ رأسَها وهي تلهثُ من غضبها السّابق ، كأنّها هدأتْ قليلاً : «هكذا تكون ابني ، ابني لا يهون ولا يذلّ ، ابني عليه أنْ يعرف أنّ الحفاظ على المبادئ أهمّ من الحفاظ على الرّوح» . «حاضرْ يا أمّي . ولكنْ كيفَ أبي؟» . صمتتْ ، كأنّ السّؤال فاجأها : «إنّه في رحمة الله» . «ولكنْ كيف؟» «كيف!!» . «كيفَ

مات؟» . «مثلما يموت البشر . لقد كان صابِرًا ، والصّابرون يرون ملائكة الرّحمة وهي تنزل من السّماء لتعود ومعها أرواحهم . لقد ارتاح . آلامه في الشّهر الأخير من حياته كانتْ فوق احتِمال البشر . الله أرحم به منّا يا بُنيّ» . وسكتتْ كأنّ دمعةً أوقفت الكلام في حلقها ، فغصّتْ . تركتُها براحتها ، لتتابع : «كان يُحبّكم جميعًا ، البيت الّذي ليس في أبٌ بيتٌ خَرِب ، بلا معنى ، باهتٌ ، مُوحش يا بنيّ» «لماذا رحل سريعًا يا أمّي؟» . «الطّيّبون لا يمكثون طويلاً يا بُنيّ» .

عُدت إلى القراءة أداري بها أحزاني ، وأعبر بها قنطرة الأسى إلى ضفّة الحياة ، الفرح ربّما إذا زارَنا ، أو الأمل إذا تفضّل علينا بالإقامة بيننا قليلاً كتبْتُ مقالةً بعنوان : «وامعتصماه» كنُت بالطّبع أحفظ بعض أبيات قصيدة عمر أبي ريشة :

ربّ وامعتصماه انطلقتْ

مِلْءَ أفواه الصّبايا اليُتّمِ

لامَستْ أسماعَهم ، لكنّها

لم تُلامِسْ نخوةَ المُعتصمِ

على هَدْيِ من القصيدة ، ومن قراءاتي في الصّراع العربيّ الإسرائيليّ ، وما تُعانيه أمّتنا يومئذ كتبْتُ المقال ، ونُشِر المقال في جريدة العرب اليوم . ناداني مدير السّجن في اليوم الذي نُشِر فيه المقال ، قال لي : «كيفَ خرجَ المقال من السّجن؟» . أجبتُه : «مع أحد السّجناء الّذي أُفرج عنهم» . «إنّه لم يُفرَج عن أحدٍ أمس» . «لقد خرج قبل ثلاثة أيّام . اليوم فقط نُشِر» . لم تُقنِعْه إجابتي ، قال لي وهو يحاول أنْ يجد منفذًا : «أنا أكافِئ الّذين يقولون الحقيقة يا أحمد» . «لا أريدُ مكافأةً من أحدٍ» . «قُل الحقيقةَ إذًا» . «هي ما أخبرتُك» . تركني

لم تكنْ تلك الحقيقة ولا بعضُها ، المقال أخرجه أحد عناصر الشّرطة ، دفعتُ له ١٠ دنانير ليُوصله إلى عليّ السّنيد . كنتُ فَرِحًا بنشره . كانتْ قراءاتي تُثمر أحيانًا . أفكّر في أن أكتب كلّما شعرتُ بحاجة إلى ذلك . الكتابة تحمي هي الأخرى ، تحمي من الحُزن أحيانًا ، ومن الجنون أحيانًا أخرى ، ويُمكن أنْ تُصيبك بالنّشوة ، النّشوة لا تأتي إلاّ بعد احتِراق .

المهندس غالبٌ وفد إلى السّجن بتهمة حيازة أسلحة ومُتفجّرات ، حُكِمَ بسبع سنوات ونصف ، كان بالفعل يحوي مُتفجّرات ولكنْ في عقله ، كان مثقّفًا موسوعيًا ، أفرح بقدوم هذا الصّنف من البشر ، إنّهم قادرون في جلسةٍ واحدةٍ أنْ يفتحوا لك ألفَ بابٍ على ألفِ كتابٍ ، في سجنٍ يعجّ بالقتَلَة وعديمي الشّرف وأرباب السّوابق الّذين يُحيطونَ بك من كلِّ جانبٍ ، ويسدّون عليكَ كلّ طريق ، يكون انبثاق واحدٍ مثل غالب يُشبه انبثاق وردةٍ من بين صخورٍ ناتئة في أرضٍ قاحلة

تاريخ التّضييق عليّ في الزّيارات ، بدأ منذ أوئل أيّامي هنا في سجن سواقة ، كان علي السّنيد أهمّ نافذة أُطلّ بها من منفاي هنا على العالَم الفسيح ، في عام ٢٠٠٠ منعوه من زيارتي ، تحجّجوا بأنّه ليس من أقاربي ، كان أخًا ثالثًا لي ولكنّهم لا يعرفون ذلك ، أضربتُ عن الطّعام حتّى يسمحوا له بالزّيارة . حدث أنْ زارتْني أمّي في تلك الفترة . يُفترَض بالمُضرِب عن الطّعام أنْ يلبس أفرهول السّجن الخاصّ بالإضراب ، ويُودَع في الزّنازين الانفراديّة ، ولا يُدخَل له أيّ نوع من الطّعام والشّراب . كان قد مرّ عليّ عشرة أيّام وأنا مُضرِب . كنتُ أقطع الوقتَ بالقراءة في الزّنزانة ، قرأتُ كتابَين لسيّد قطب ، ورواية لماركيز ، وديوان الشّافعيّ . أخرجوني من تلك الزّنازين لملاقاة أمّي ، أخبروها أنّ

ابنها العنيد في حالة صحيّة سيّئة بسبب الإضراب ، إنّه يُصاب بالإغماء كثيرًا ، ويتقيأ دمًا أحيانًا . طلبوا منها أنْ تُقنعني بالعدول عن الإضراب لمصلحتي . أعرفُ كيفَ يكون قلب الأمّ ، أبي يعرفُ كم هي حنونةً ، لقد قال ذلك لها من قبل : «لكِ قلبُ مَلاك» . لكنّها لم تقل له : «إنّني أملك أيضًا قلبَ مُحارب عنيد» . أُخرجتُ عبر ممرّ خاصّ لملاقاة أمّي ، نظرتْ إليّ ، كنتُ أبدو هزيلاً وشاحِبًا ، ونحيلاً كعود مذراة ، خفق قلبُها حينَ رأتني على هذه الحال ، العاطفة جارفة ، تعني أنْ تجرفها إلى منطقةٍ لا تُريدها ، كان يلزمها أنْ تُشيح قليلاً بوجهها ، لتتدبّر أمرها ريثما تحاول ترتيب ما ستقوله ، لم تسألني عن حالي ، ولم تطمئنّ على أخباري ، نظرتْ في عينَيّ بشكلٍ مُباشر ، كانت عيناها تحملان إصرارها القديم ، قالتْ لي : «لا تفكّ إضرابَك ، اثبتْ عليه حتّى يتمّ تلبية مطالبك» . وخرجتْ . عدتُ إلى زنزانتي جائعًا أكثر ، جائعًا إلى الحديث معها ، كنتُ أريدُ أنْ أبثّها همومي هنا ، لكنّها تركتْني لوحدتي وغابتْ ، ثَبَتُّ على ما قالتْ ، وكسبتُ الجولة ، الجولة الّتي كسبتْها هي قبلي ، إنّها مدرسةٌ في الصّبر والثّبات .

حينَ رحلتْ إسرائيل من جنوب لبنان في أيّار من عام ٢٠٠٠ تفاءلتُ بأنّ المقاومة ستكسب الرّهان ، وأنّها ستنتصر مهما طال زمن المعركة كسب المعركة يقع لأولئك الّذين حافظوا على أنْ تخفق رايات الصّبر في قلوبهم إلى آخر لحظة . نحن نحمل هذه العقيدة ، عقيدة قتال اليهود ، ليس لهم مكانٌ بيننا ، المُفاوضات ومعاهدات الصّلح قد تخدع النّاس يومًا أو شهرًا أو سنةً أو حتّى عقودًا ، ولكنّ زيفَها سينكشف في النّهاية ، لأنّها ببساطةٍ قامتْ على باطل ، والباطل زاهقٌ لا محالة . وأمّا الحقّ فلا يُلغيه تقادُم الأزمنة عليه . نحن نعمل في

غابةٍ من الحِراب ، نغرس في قلوب أبنائنا وأبناء الجيل القادم أنّ أيدينا لن تمتدّ إلى أيدي الذّئاب مهما أحاطتْ بنا النّوائب وأرهقتْنا الخطوب . نحن من طينةٍ لا يُمكنها أنْ تجلس مع غاصبٍ ولو طالَ ذلك عهوداً سحيقة ، ولو انفضّ عنّا النّاس وبقينا وحدنا ، سوف تُزهِر من طينتنا ظُبا السّيوف المُشهَرة وأسِنّة الرّماح المُشرَعة ، ولسوف نُغمِدها في قلوب الغاصبين وعيونهم .

استلم إدارة السّجن مديرٌ جديد ، كان سَلَفُه قد ألغى عنّي الزّيارات الخاصّة ، كانت الزّيارات الخاصّة تتمّ في كلّ شهرٍ مرّة ، أتمكّن فيها من الجلوس مع عائلتي المُصغّرة ؛ أمّي وزوجتي وأطفالي مواجهةً ، بدل أنْ أراهم من خلف الزّجاج . قابلْتُ مدير السّجن الجديد ، وطلبتُ منه أنْ يُعيد لي الزّيارة الخاصّة ، فقال لي سأفعل بشرطٍ واحدٍ ، هو أنْ تكفّ عن مهاجمتنا أنتَ وصديقك عليّ الّذي ينشر كلّ شيءٍ في الصّحف ، الصّحف غالبًا ما تكذب ، وتُهوّل الموضوع ، لو كنتَ تريدُ بالفعل أنْ تعود لكَ الزّيارة الخاصّة ، فاكففْ عنّا لسانك . قلت له : «تريدُ مساومتي إذًا» . فردّ : «أنا أريدُ مصلحتك ، وأنتَ رجلٌ محترم ولكنّك أهوج ، متحمّس بطريقة غير صحيحة» . قلتُ له «تريدُني أنْ أرى الخطأ وأسكتَ عليه ، لن يكون ذلك أبدًا ، فلتنقعْ ورقة الزّيارة الخاصّة واشربْ ماءَها ، لا أريدُ منكم شيئًا»

في شهر أيلول من عام ٢٠٠٠ تجرّأ السّفّاح شارون على تدنيس المسجد الأقصى ، كان يُدرك أنّ العربَ في سُباتٍ عميق ، وأنّ قادتهم في شخيرٍ عالٍ ، وأنّ بعضهم سيُؤيّده على اقتحام الأقصى لو علم بالأمر ، فمنهم من هو صديقه الحميم ، ومنهم مَنْ يرتبط به بعلاقاتٍ أخويّة أو عائليّة وثيقة . ومنهم مَنْ باع أمّته وشعبه ودِينه من أجل

الكرسيّ!! ولسان حاله يقول : وماذا يعني الأقصى للمسلمين؟! ولولا بقيّة من حياء تمنعه ، أو مُزعة من خجل تردعه لأنكر أيّ صلة للمسلمين بالأقصى ، وطالبَ أنْ يعودَ إلى مالكيه الأصليّين ، فنحن الّذين اعتدينا على حقّهم التّاريخيّ فيه ، وبنيناه فوق هيكلهم!!

لم يكنْ شارون يومها في الحكومة كان في المُعارَضة ، ولكنّه أخذ الضّوء الأخضر من حكومته حتّى يقوم بفعلته . السّفّاح الطّاغية ، قاتل الأطفال والشّباب والنّساء والشّيوخ في صبرا وشاتيلا ، يعود إلى الواجهة من جديد ، تصدّى له الشّباب في المسجد الأقصى بصدورهم العارية ، وبأجذيتهم الّتي راحوا يقذفونه بها هو وألفَين من رجال أمنه ، واندلعت المواجهات ، وتوسّعت الاحتجاجات ، وكانت انتفاضةً ثانية ، قدح شرارتَها هذا اللّعين وسرتْ نارُها في جسد فلسطين كلّها

هل يُمكن للزّعماء العرب الّذين وقّعوا اتّفاقيّات علنيّة مَشينة مع العدوّ الصّهيونيّ ، دَعْكَ من الّذين وقّعوا في السّرّ ، أقصد الاتّفاقيّات المُعلنَة ، هل يُمكن أنْ يُلغوا تلك الاتّفاقيّة بذريعة نَقضِها وعدم احتِرام بنودها ، وأقلّها سيادتُنا على أقصانا؟ هل يُمكن أنْ يتحرّكَ الدّم في عروق الزّعماء العرب الكِبار فيدفعوا بهذا الاتّجاه ، أم أنّ هذا من الأحلام البريئة الّتي ما زالت الشّعوب السّاذجة تُعلّقها على زُعمائِها؟!!

لكنّ الأمل في المُقابل كان يُزهر على أيدي فتيةٍ يحملون الحجارة ويُشعلون الإطارات ، ويقودون المسيرات ، ويقفون بشجاعةٍ قلّ مثيلها أمام الدّبّابات والمُدرّعات وناقِلات الجُند . إنّ الأرضَ تثور ، وإذا ثارت الأرضُ على شُذّاذها ، فستدفع بطاهريها لكي يُدافِعوا عنها ، إنّ نداء الأرض النبويّة إذا سرى في أرواح الشّباب المُؤمن بقضيّته العاشق لوطنه فلن تُوقفه لا الدّبّابات ولا الطّائرات ولا الصّواريخ . . . وسالتِ

الدّماء ، وارتقى الشّهداء مُكرّمين ، كان منظر الدّم يُثير الحميّة في العروق ، فيتسابق نفرٌ من الصّادقين إلى الشّهادة ، وكان عُرسًا وطنيا جعل القيادات الإسرائيليّة تتساءل عن السّرّ وراء استماتة المُقاومين على هذه الصّورة المُذهلة ، وراحوا يحاولون الولوج إلى عقليّة العربيّ المُسلم الّذي يسهل عنده أنْ يُقدّم روحه في سبيل بلاده كما لو كان يُقدّم لها وردة ، كان كلّ شيءٍ يُمكن إيقافه ، يُمكن القضاء أو الاحتِيال عليه ، أو خداعه أو إغراؤه أو حتّى شراؤه إلاّ ذلك النّفر العجيب من الشّهداء ، إنّه لا سُلطان عليهم إلاّ لله ، فكيفَ يُمكن أنْ تشتريهم بلعاعةٍ من الدُّنيا وقد اشترى الله منهم أرواحهم بأنّ لهم الجنّة ، وكيفَ يُمكن أنْ توقفهم والبائع روحه لا يُوقفه إلاّ أنْ يعبر إلى الضّفّة الأخرى حيثُ الغاية والأمنية!!

رحتُ أجول في الممرّات كالمجنون ، وأتقافز بين المهاجع كالملسوع ، لم أدرِ ماذا أفعل ، ماذا أقدّم لهؤلاء الثّائرين ، كنتُ أتمنّى أنْ أهدّم أسوار السّجن ، أنْ أخلع بوّاباته ، أنْ أكسّر جدرانه ، أنْ افتح منافذه ، وأسمع لطوفانٍ من البشر يسيل خلفي إلى منطقة الأغوار ، إلى الحدود ، نحمل البنادقَ ، ونُقاتل ، كنتُ أتخيّل أنّ كلّ مَنْ سيتبعني سيكون قنّاصًا ، وأنّنا في الحدود الفاصلة ، نقبع كالأسود النّافرة ، نتربّص كالفهود النّاقمة ، ننتظر السّيّارات بمن فيها لنصطادهم واحِدًا واحدًا . . .!! ماذا سيفعلون لنا ، سيقتلوننا!! وهل كُنّا نتوقّع غير ذلك ، لقد خرجنا من أجل ألاّ نعود!! ثُمّ ماذا؟! سيُرسِلون لنا الطّائرات لكي يقذفونا بالصّواريخ؟! ولْيكنْ ؛ ذلك أمرٌ طبيعيّ ، سنقاتل حتّى آخر رصاصةٍ في بنادقنا ، وحتّى آخر قطرةٍ في عروقنا؟! نحن لن نعود ، لأنّ مَن يفعل ما نفعل لا يعود إلى أهله ولا إلى وطنه ، ولا إلى سجنه ، نحن نريد

ذلك ، نريدُ أنْ نعبر مثل هؤلاء الشّهداء إلى الضّفّة الأخرى ، حيثُ النعيم الأبديّ :

حتّى يُقالَ إذا مَرّوا على جَدَثي
أَرْشَدَهُ اللهُ مِن غازٍ وقد رَشَدَا

لم يهنأ لي بال ، في اللّيل سمعتُ استغاثات الجرحى ، إنّهم إخوتي ، كيفَ أجلسُ هنا عاجزًا دون أنْ أكون قادرًا على فِعل أيّ شيء . لم أستطع النّوم بشكلٍ طبيعيّ ، تقلّبتُ في الفراش مئة مرّة ، في الفجر رأيتُ أحدهم ينزفُ دمًا حتّى يفقد الوعي ، رأيتُ نفسي أحمله في سيّارة الإسعاف ذاتها من فلسطين وأعبر بها الحدود إلى المدينة الطّبّيّة في عمّان ، نزف حتّى صفّت الجراحُ دمه ، لم يكنْ بإمكانه أنْ يصمد ، طويلاً ، استشهد في الطّريق ، وسمعتُ الطّبيب يهمسُ في أذن مُساعده ، لو أُعطي وحدة دم واحدةً لربّما نجا ، فصحوتُ كأنّ أحدًا أيقظني . صلّيتُ الفجر وانتظرتُ فورة طعام الفطور بفارغ الصّبر ، جاء الشّرطيّ المُكلّف بفتح المهاجع ، سألتُه : «هل جرحى الانتفاضة يُسعَفون في الأردنّ؟» . أجابني : «نعم ، في المدينة الطّبّيّة» لقد أعطاني الحلّ إذًا . هُرِعتُ إلى مدير السّجن ، قلتُ له : «نستطيع أنْ نفعل شيئًا» . استغرب من دخولي عليه ومن هيأتي ومن كلماتي ، تابعتُ : «يُمكن أنْ نتبرّع لهم بالدّم ، السّجناء سيتبرّعون بالدّم ، آنَ الأوان لدمائهم أنْ تتجدّد» . سألني وقد أثاره الموضوع : «وكيفَ ستتبرّعون؟» «سأجمع منهم تواقيع لمن أراد أنْ يتبرّع الدّم ، وأُحصيهم لك ، ثُمّ أقدّم لك قائمة بالأسماء ، وما عليكم إلاّ أنْ تأتوا بثلاثةٍ أو أربعةٍ من الممرّضين مع أدواتٍ بسيطة ، وتسحبون منهم وحدات الدّم وتبعثون بها إلى المدينة الطّبّيّة حيثُ يرقد عددٌ من جرحى الانتفاضة

هناك على سرير الشّفاء» . قدّر أنّها فِكرةٌ جبّارةٌ وإنسانيّة ، لكنّها في الوقت ذاته خطيرة ، لأنّها تدخل في الجدل السّياسيّ ، ولربّما يفوق ذلك صلاحيّاته . بعد تفكيرٍ قال لي : «يُمكن أنْ تجمع التّواقيع ، وأنا سانقل طلبكَ هذا إلى المسؤولين وسنرى» .

خرجتُ من عنده أهرول ، أبحثُ عن الدّفاتر والأقلام ، وتحوّلتُ إلى مَشّاءٍ لا يعرفُ القعود ، حزّمتُ وسطي بثلاثة دفاتر وأربعة أقلام حتّى لا تخذلني في تجوالي ، طُفتُ على المهاجع كلّها ، أُثير فيهم الحميّة والنّخوة لوطنهم وعِرضهم وإخوتهم ، وأحثّهم على التّبرّع على أنّه أقلّ ما يُمكن أنْ نقدّمه أمام تضحيات الأبطال الصّامدين هُناك كان أكثر المهاجع تبرّعًا بالدّم هو مهجع القَتَلة ، وأقلّهم تبرُّعًا به هو مهجع السّياسيّين!!

مكثتُ أُسعّر المشاعر أربعةَ أيّام ، كان عليّ أنْ أتكلّم مع كلّ فردٍ ، وفي السّجن يومها ما يقرب من ألفَي نزيل ، أجلسُ مع كلّ واحدٍ ، أكلّمه كأنّه أوّل واحدٍ أفعل معه ذلك ، وقد يدخل معي في نِقاشات وحوارات عقيمة حولَ مشروعيّة ذلك ، وكان أكثر ما يغصني أولئك الّذين يُناقِشون الأمر من وجهة نظر شرعيّة ، فقد عرقلوا مسيرتي ، وجعلوني أشتمهم لكنْ بالسّرّ ، أمّا الّذين شاطروني مهجع القَتْل فكانوا أسهل النّاس وأسرعهم إلى تلبية النّداء ، والتّوقيع على العريضة . المهمّ في النّهاية جمعتُ ما يقرب من (٧٥٠) توقيعًا ، وكنتُ قد صنّفتُهم حسبَ مهاجعهم وقضاياهم ، ليسهل على ضُبّاط السّجن مُناداتهم . كنتُ قد تعبتُ ، لكنّني كنتُ أعيش غِبطةً من نوعٍ خاصّ ، إنّها غبطةُ القدرة على الفِعْل الحسن ، حملتُ العريضة وكلّي انتشاء ، وهرولتُ إلى مدير السّجن ، كانتْ آمالي وسيعةً بوسع الأفق ، وظلّتْ كذلك

حتّى تحطّمتْ على باب المُدير ، قال لي بلا مبالاة : «لقد جاءني الرّدّ من المسؤولين بالمَنْع» . سألتُه وأنا أكادُ أسقط من الإعياء والغضب : «ولماذا؟» . قال : «لأنّ السّجن لا يُوجد به أجهزة طبّيّة من أجل هذه الغاية» . أعرفُ أنّهم يكذبون ، وأعرفُ أنّ الأمر لا يحتاج إلى أجهزة مُعقّدة وأنّ الأمر بسيطٌ جداً فأنا عملتُ في هذا المجال وأعرفه جيّدًا ، لكنّ الّذي أعرفه أكثر أنّ قرارَهم ليس بأيديهم ، وأنّ تبعيّتهم للصّهيونيّة - بشكلٍ مُباشر أو غير مُباشر على ضوء تفاهماتهم - ضاربةٌ جذورها في قلوبهم إلى الحدّ الّذي أُشرِبوها فيه!!

(٥٠)
للأردنَ رَبٌّ يَحميه

مرّ عامٌ ، كأنّ الأعوام تركضُ في لا اتّجاه وأنا لا أدري!! ما الّذي يحدث؟! تتشابه الأيّام كأنّ ما فات هو ما سيجيء غدًا . لولا الكتاب لكُنتُ قد سقطتُ في ألفِ مرضٍ نفسيّ . لولا مراجعة ما أحفظ لكنتُ اليومَ في عداد الّذين فقدوا عقولَهم ، إنّها حياة لا كأيّ حياة ، تسير مثلَ رجلٍ عجوز في أرضٍ بلا شجرٍ ولا ماءٍ ولا جبلٍ ، أرضٍ تتوازى مع الأفق ؛ لا بداية ولا نهاية كلّما قَطع العجوز جزءًا منها ظنّ أنّه ما زال في مكانه ، وإذا نظرَ خلفه رأى أنّ ما خلفه يُشبه ما أمامه ، فكأنّما يمشي في فراغ ، وكأنّه كلّما تحرّك ذراعًا إلى الأمام تحرّكتِ الأرضُ من تحته ذراعًا إلى الوراء ، ثُمّ يستيقظُ من ذهوله ليرى أنّها أعوامٌ طويلةٌ ، وأنّه إنّما مرّ عامٌ مثل ذلك الّذي مرّ من قبل ، فيُصيبه الفزَع من أنْ تكون كلّ أعوامه مُتماثلة ، ثُمّ لا يدري ماذا يفعل ، فيبكي بصمت ، ويستسلم لقدرٍ ماضٍ فيها لا يملك أنْ يدفعه عنه!

كان عليّ أنْ أخترع في كلّ مرّةٍ شيئًا يقضي على الرّتابة الّتي أمقتها كما أمقت الكُفر . قُلتُ في نفسي كما قال الإسكندريّ لعيسى بن هشام : «لنا في هذا السّواد نَخْلة ، وفي هذا القطيع سخْلة» . كانتْ قد لمعتْ في ذهني فِكرةٌ لطيفة . حدث ذلك في ٢٠-٢-٢٠٠١ ، دخلتُ على مدير السّجن ، وقدّمتُ له استدعاءً . قرأه بحضوري ، فقطّب حاجبَيه ، أراد أنْ يضربني ، أو أنْ يمزّق الكتاب ، أو على الأقلّ

يبصقَ فيه ، ولكنّه لم يفعل شيئًا من ذلك ، واكتفى بأنْ صفّر تصفيرةً طويلةً تنمّ عن دهشته : «تريد مقابلة مدير المخابرات شخصيًا . هل أنتَ تحلم؟! أمْ أنّ السّجن أثّر على عقلك؟! مدير المخابرات مرّة واحدة؟ هل تعرف ما معنى أنْ تُقابل مدير المُخابرات؟!!» . أجبتُه وأنا أهزّ رأسي بالإيجاب : «نعم ، لقد كنتُ في الجيش ، وأنا أعرف ما معنى مدير المخابرات» . سألني : «وماذا تريدُ منه؟» . «الأمر سرّي بيني وبينه» . «سرّي ، إذًا دَعْ سرّك معك ، أنا لا أقدّم استدعاءً لمدير المخابرات في أمرٍ لا أعرفه» . اقتربتُ منه ، ركزتُ ذراعَيّ على سطح مكتبه ، ودنوتُ منه أكثر ، وألقمتُ فمي أذنه ، وقلتُ بصوتٍ هامسٍ : «الأمر يتعلّق بمصلحة البلد» . التفتَ حوله وقد شعر بخطورة المُوقف من خلال طريقة نُطقي بالكلمات . وسألني بذات اللّهجة الّتي وشوشتُه بها : «هل أنتَ جادّ» هززتُ رأسي مثل عصفورٍ ينقر من جُرن ماء بشكلٍ متتابع : «نعم» أخفى الاستدعاء في درج مكتبه ، وقال : «خير إنْ شاء الله» .

بعدَ أسبوع تمامًا من ذللك اليوم ، قال لي المدير : «جهّزْ نفسكَ لمقابلة الباشا» . لم يكنْ لتجهيز نفسي أيّ معنى ، فأنا جاهزٌ في كلّ لحظة ، لن يتغيّر شيءٌ على ثيابي ولا على هندامي ولا على الشّبشب الّذي أنتعله في قدمي . رافقني عددٌ من سيّارت الحِراسة من سجن سواقة الّذي يبعد (٧٠) كم عن عمّان إلى دائرة المُخابرات . كانت نُزهةً رائعة ، استعدتُ صورةَ الحياةِ الخارجيّة بنَهم ، كنتُ أنظر إلى كلّ ما ينتشر على جانِبَي الطّريق وأملأ عيني منه كعَطِشٍ حيلَ شهرٌ من القيظ بينه وبين الماء ، ثُمّ تدفّق الماء إلى فيه دفعةً واحدةً فراح يعبّ منه كالمهووس . كانتْ عمّان ترفل بثوب العزّ والحياة ، الشّوارع مليئة بالنّاس ، وطريق المطار صار آهِلاً بالعمارات السّكنيّة ، ومن الدّوار

الثّامن إلى ناصية شارع الشّعب كانت الحياة تتكلّم بلسانٍ ثرثار ، كنتُ أحبّ أنْ نمرّ بأزماتٍ حتّى نُبطِئ من سرعتنا وأستمتع برؤية النّاس والكائنات ، حدث ذلك في مكانَين ، عند إشارة المدينة الصّناعيّة ، وعند مبنى (فاست لينك) الّذي أُقيم حديثًا على الشّارع الرّئيسيّ

لم نقفْ على المنافذ المُؤدّية إلى مبنى المُخابرات . كان لدى الحرس المعلومات الكافية الّتي تسمح بتأدية التّحيّة لنا ، وإفساح الطّريق كي نواصل إلى هدفنا . دخلتُ في النّهاية على مكتب أحد مساعدي المدير ، جلستُ قُبالته في جوّ من الفخامة ، قال لي ، وهو ينظر في وجهي مُتفحّصًا : «لماذا تريد مقابلة الباشا ، فالاستدعاء ليس مكتوبًا فيه الأسباب» . أجبتُه : «الأمر بيني وبينه ، ولا أستطيع أنْ أقول الأسباب إلاّ لمدير المخابرات شخصيًا» . صَعّد نظره باتّجاهي يريد أنْ يقول لي أنتَ وقح ، لكنّه قال بدلاً منها : «الباشا مشغولٌ ولنْ تتمكّن من مقابلته ، ولكن اشرح لي الموضوع ، وسأقوم بنقل الأمر إليه حينَ التقيه» . أجبتُه : «إذا كان الباشا مشغولاً في هذا الوقت ، فمن الممكن أنْ تستدعوني في وقتٍ آخَر ، أنا لستُ مستعجِلاً» . وتأهّبتُ للقيام من الكرسيّ الوثير الّذي يرشح راحةً ، والّذي تمنّيتُ أنْ يطول الحوار بيني وبين المُساعد حتّى أهنأ به زمنًا أطول ، وضعتُ ذراعيّ على رُكبتَيّ ، ربّتُّ عليهما كمن يشعر بالأسف لعدم تحقّق المُراد ، ونهضتُ . لم أكدْ أُتمّ نهوضي حتّى رفع السّمّاعة الّتي على المكتب ، وسمعتُه يقول : «سيّدي ؛ أحمد الدّقامسة مُصِرّ على مُقابلتكَ شخصيًا» .

دخلتُ على الباشا ، قام من مكانه وسلّمَ عليّ ، وأشار لي بالجلوس فجلست . قال : «أمامك ٤٥ دقيقة لتشرح الموضوع الّذي جِئتَ من أجله» . قلتُ له : «لقد خدمتُ في الجيش بكامل طاقتي

لمدة أحد عشر عامًا ، وتعرّضتُ لحادث سيرٍ سبّبَ لي إعاقةً في يدي اليُسرى ، وتقدّمتُ للجهات المختصّة من أجل الحصول على معلوليّة ، فرُفِض طلبي ولا أعلم السّبب رغم أنّ القانون يسمح لي بالحصول عليها ، هذا هو الطّلب الأوّل . أمّا الطّلب الثّاني فمن حقّي كسجينٍ محكومٍ بالمُؤبّد أنْ أحصل على زيارةٍ خاصّة لأسرتي ، وهذا هو كلّ شيءٍ» . غضب ، كان يتوقّع أن أتحدّث بعد كلّ هذه السّنين عن الجهة الّتي دفعتْني لأقوم بعمليّة الباقورة ، لكنّ توقّعاته انفثأتْ كفُقاعة صابون ، بدا على وجهه الضّيق الشّديد ، حرّك بعض الأدوات على مكتبه ، قبل أنْ يقول بنبرة استهزاء : «ألهذا طلبْتَ مُقابلتي؟» . طرقتْ في ذهني قِصّة عبد المُطّلب في عام الفيل ، سُؤال الباشا الأخير يُشبه سؤال أبرهة لعبد المُطّلب : «ألهذا جِئْتَني ، تُكلّمني في مِئتَي بعيرٍ أصبْتُها لك وتترُك بيتًا هو دينُك ودين آبائك» . فردّ عليه عبد المُطّلب : «أنا ربّ الإبل وأمّا الكعبة فللبيتِ رَبٌّ يحميه» . وأنا أردّ على استغرابه : «نعم أنا ربّ البيت ، أكلّمك في أُسرتي وما يخصّني ، أمّا الوطن فللأردنّ ربٌّ يحميه» كان يظنّ أنّ الأمر يتعلّق بمصائر البلد الكُبرى ، قال لي بعد أنْ وجد أنّ الأمر دون ما فرّغ نفسه له : «أنا حاضر ، سألبّي لك هذه الطّلبات ، إنّها بسيطة . لكنْ لها مقابل . . . أنْ تبتعد عن المُعارضة والمُتطرّفين والّذين يريدون شرًّا بالبلد ، وإذا التزمْتَ بما نقوله لك فسأسعى للإفراج عنك خلال فترة قصيرة» . قلتُ له «إنّها المُساومة إذًا ، إنّه البيع ، والثّمن يجب أنْ يُقبَض سلفًا؟!» . صمَتُّ قليلاً قبل أنْ أكمِل : «تريدُني إذًا أنْ أتخلّى عن هؤلاء الّذين وقفوا معي وناصروني ، وساعدوني على أنْ أظلّ قويًا . . . المُشكلة في أيّ سُلطة أنّها تعتقد أنّ كلّ مَنْ لا يقف معها هو ضدّها ، ليس

بالضّرورة يا أخي ، اعتبرني من التّيّار الثّالث ، الّذي ليس معك ، وهو ليس بالضّرورة ضِدّك ، لماذا تريد من كلّ النّاس أنْ يكونوا نسخةً طبق الأصل عنك!!» . ردّ عليَّ : «لأنّك لا تعرف مَنْ هم ولا مَع من تتعامل ، أنتَ إنسانٌ بسيطٌ ، هؤلاء الّذين يدّعون مقاومة التّطبيع مع اليهود هم أنفسهم الّذين يُقيمون معهم مشاريع مُشتركة ، مثل . . .» قلتُ له : «إذا كنتم تعرفون ذلك ، ولديكم هذه الأسماء ، فلماذا لا تُعلنون عنها عبر الإذاعة والتّلفاز من أجل أنْ يعرفهم النّاس ويبتعدوا عن التّعامل معهم أو مُساندتهم من أجل الوطن» . قال : «لأنّنا لا نريد التّشهير بأحدٍ ، ولا نريد أنْ نفضحهم ، والسّتر مطلوبٌ من الله» . قلتُ له «إذا كان ما تقوله صحيحًا ، فأعطِني وثائق تُثبِت ذلك وأنا أتعهّد لك بالابتِعاد عنهم ، والتّبرُّؤ منهم علنًا وأمام النّاس» تململ على كرسيّه ، خفض بصره ثُمّ رفعه ، قال : «لماذا لا تُقدّم استِرحامًا للملك من أجل الإفراج عنك؟» . أجبتُه «ربّي أرحم بي» . وقف فجأةً ، قال لي بحزم : «انتهت المُقابلة» . ضغط على الجرس ، الملاعين أخرجوني مع أنّ الـ ٤٥ دقيقة لم تنتهِ ؛ كانتْ هناك ملفّات أخرى يُمكننا التّحدّث فيها معًا من أجل البلد ، لكنْ لا أدري مَنْ منّا تَهُمّه مصلحة هذا البلد حقًّا؟!!

في الحادي عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١ اخترقتْ طائرتان بُرجَي التّجارة العالمَيّة في أمريكا ، دخلت إحداهما في الثّلث الأعلى من البرج الأوّل وانفجرت داخله ، كان الّذي اختار نقطة الاصطِدام مُهندسٌ ذكيّ ، يعرف أنّه لو لم ينزلْ إلى هذا المستوى لربّما يُصيب الطّوابق العلويّة فقط ، ويبقى بقيّة المبنى سليمًا ، لكنّه اختار نقطة لينفجر فيها بحيث إنّه إذا سقط ركام البرج الّذي يعلو نقطة الانفجار

فوق البرج فإنّه سيُشكّل ثِقلاً كبيرًا قادِرًا على أنْ يجعل ما تبقّى من البرج ينهار تحت ذلك الثّقل ويحترق ، وهذا ما كان ، وإن كانت النّقطة الّتي أصابتْها الطّائرة الثّانية في البرج الثّاني أقلّ دقّة من البرج الأوّل ، وكان منظرًا مُروعًا ، وحدثًا تاريخيًا ، ومشهدًا دراميًا يعجز عنه خيال أعظم المُخرجين السّينمائيّين في هوليود . اندلع الحريق في الطّوابق العليا ، وكان الثّلثان الأوّلان ما زالا قائمَين ، وجزء من الثّلث الثّالث ، ولأنّ النّار كانتْ تُحاصر من استوعب الحدث ، راحوا يهربون من الموت بحثًا عن فُرَصٍ للنّجاة ، لكنّها كانت تبدو ضيئلة بل ومستحيلة ، وكان على بعضهم في الطّوابق العُليا أنْ يقف في مواجهة الموت حرقًا أو رَدْمًا تحت الرّكام ، أو تجربة خيار ثالث نسبة النّجاة فيه أقل من واحد في الألف ، وهو القفز من علوّ ١١٠ طوابق إلى الأرض ، وهي فرصةُ حياةٍ لا تكاد تدخل العقل ، لكنّها أمام الموت حرقًا أو ردمًا تبدو فرصة ، والغريق الّذي يبحث عن قشّة في طوفان هو يعرفُ أنّها لن تحميه ، لكنّ أمل النّجاة من الموت يُضخّم له القشّة حتّى تبدو قارِبًا فيُهرَع إليها ، وكان هذا مشهدًا آخر من السّينمائيّة المُفجِعة ، راح عددٌ من النّاس يقفز في الهواء من ذلك العلوّ الشّاهق جدًا ، ليجد أنّ الموت لم يُمهله حتّى يُتمّ سقوطه الحرّ

حينَ رأيتُ المنظر على شاشات التّلفاز لم أتمالك نفسي من الفرحة ، ورحتُ أهتف ، وأردّد كلمات التّحيّة لمن قالم بالعمليّة ، كانتْ ردّة فِعلي كردّة فِعل أيّ مواطن عربيّ يشعر بالظّلم والقَهْر ، ويرى أطفاله وأبناءه المُسلمين يُذبَحون في أكثر من دولةٍ ، وخاصّة على يد اليهود الغاصبين ، وهو يعلم أيضًا أنّ برجَي التّجارة هما عَصَبُ الاقتصاد في أمريكا ، والاقتِصاد في العالَم يقبضُ عليه اليهود ، وإنّ إصابتهم في

عصبهم لَهي بمثابةِ ردٍّ قويٍّ على ما يفعلونه بنا ، هكذا كنتُ أنظر إلى الأمر ، كان شعوري بالسّعادة غامرًا بالفعل ، فتّشتُ في جيوبي عمّا أملك من نقود ، فوجدتُ في جيبي ما يقرب من ٤٠ دينارًا ، فاشتريتُ بها كلّ ما في دُكّان السّجن من حلوى ، (هريسة) و (وربات بالجُبنة) ، وقُمتُ بتوزيع الحلوى على السّجناء وحتّى الضُّبّاط قبل أنْ أعرفَ مَنْ قام بالعمليّة كنتُ أطوف على المهاجع كأنّ ابني تزوّج أو تخرّج من الجامعة ، وأنا أصيح بصوتٍ مبتهج «تَحَلّوا تَحَلّوا اليوم عيد» كانت كاميرات السّجن تلتقطني ، في كلّ شبرٍ أتحرّك به ، من غرفة المراقبة عرف المدير بالأمر فناداني ، لكنّني كنتُ قد وزّعتُ نصف الأطباق ، النّصف الثّاني سيبقى في مهجع القتلة أكثر من أسبوع ونحن نفطر عليه ونتغدّى ونتعشّى ، قال لي المدير : «هذا أمرٌ لا يجوز» . لم يكنْ عندي لفرحتي وقتٌ كي أناقشه ، هززتُ رأسي بالموافقة على التّوقّف عن توزيع الحلوى وخرجتُ وأنا اشعر بأنّني شاركتُ على مقدار ما أستطيع بقتل هؤلاء الصّهاينة الغادرين

ذهبتِ السّكرةُ كما يقولون ، وجاءت الفكرة ، جلستُ بعد مشوار التّوزيع على برشي أفكّر فيمن يُمكن أنْ يكون قد نفّذ العمليّة الجبّارة المُتقنة إلى حدّ لا يستوعبه العقل ، ظننتُ أنّ الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين قد فعلتْ ذلك ، لها خبرة قديمة بالمطارات وتنفيذ العمليّات فيها ، ولكنّ ذلك قد مضى ، أفيكون قد تجدّدَ لها شبابُها!! الّذي دفعني إلى هذا التّفكير ، هو اغتيال الأمين العام لها (أبو علي مُصطفى) بتفجير صاروخي من قبل سلاح الجوّ الإسرائيليّ على مكتبه في رام الله قبل حوالي أسبوعَين من تنفيذ العمليّة ، فقدّرتُ أنّ جماعته قاموا بالثّأر له ، لكنّني رجعتُ في تفكيري السّاذج ؛ فهل يُمكن أنْ يخطّطوا

للعمليّة ، ويختاروا منفّذيها ، ويقوموا بها بهذه البراعة ، وكلّ ذلك في أقلّ من أسبوعَين؟! ثُمّ ازداد المشهد ضبابيّة حين أعلن أسامة بن لادن مُباركته للعمليّة ، وإنْ لم يعلن قيام القاعدة بها بشكلٍ صريح ، ثُمّ توالتْ أنباء عن أنّ البرجَين حين اصطدام الطّائرتَين بهما لم يكنْ فيهم يهوديّ واحدٌ ، وكانوا جميعًا قد تلقّوا تحذيراتٍ بعدم الدّوام في ذلك اليوم ، ثُمّ توالت المشاهد المُصوّرة الّتي صوّرت المشهد بدقّة عالية وباحترافيّة سينمائيّة حقيقيّة ، وكأنّ بعض مَنْ يريد لهذه العمليّة أنْ تشيع في العالَم كان يعرف بها مُسبَقًا وجهّز لها كاميراته ، وانتظر في أماكن متعدّدة من البرجَين لحظة الصّفر ليقوم بتصوير المشهد من زوايا مختلفة ، فيجيء المشهد فِلمًا مُعدًا لا عمليّة عدائيّة . . . . والغرض من كلّ ذلك؟ الإرهاب . . . نعم ؛ الإرهاب . . . الإرهاب ذلك المُصطلح الّذي لم يكنْ شائعًا ولا مطروقًا من قبل ، ولم يردّده زعيمٌ في حياته بقدْر ما ردّده الرّئيس الأمريكيّ (بوش) الابن ، والّذي قال في أحد تصريحاته : «إنّها حربٌ صليبيّة جديدةٌ» ، وعلى كلمة الإرهاب المزعوم علّق كلّ فجوره وكلّ حروبه وكلّ هجماته من بعدُ على الإسلام والمسلمين ، سرق أفغانستان ، ودمّر العراق ونهبها ، وأعاد الصّومال إلى ما قبل التّاريخ ، وأعلنها حربًا لا هوادة فيها كان من أبرز تجلّياتها المُرعبة والمُقزّزة في آنٍ معًا سجن أبو غريب في بغداد ، والتّعذيب الوحشيّ والسّادي واللاّ إنسانيّ الّذي يُمارسه جنوده المُضطربين عقليًا مثل المُجنّدة الأمريكيّة . . . . الّتي كانت تتلذّذ بتصوير المعتقلين العراقيّين في السّجن وهم عُراة بشكلٍ تامّ ، الكلاب تنهشُ أجسادهم ، وتلغ في أعضائهم الحسّاسة ، وهي تأخذ لها صورًا بشارة النّصر ؛ إنّه عصر الكاوبوي الأقذر في تاريخه ، والّذي لم يكنْ يومًا من الأيّام نظيفًا

وإذًا فهي ليست القاعدة كما أعتقد ، وإنْ كانت القاعدة قد غُرِّر بها ، واستُخدمت أداةً من أجل تنفيذ مُخطّطات أكبر منها ومن كلّ الجماعات الجهاديّة والدّول ، من أجل كسر شوكة الإسلام وإيقاف زحفه وانتشاره ، لأنّه يُشكّل خطرًا عليهم فيما سمّوه سابقًا بـ (الخطر الأخضر)!!

ولماذا أفغانستان؟ لماذا تقطع أساطيل أمريكا وبوارجها وطائراتها كلّ هذه المسافات المَهولة لتحارب أفغانستان؟ ما الخطر الّذي يتهدّدها قادمًا من هناك؟ هل هي القاعدة؟ هل هم الجهاديّون؟ هل هم الأفغان؟ هل هي طالِبان؟ كلاّ ، هذه كلّها ذرائع ، وإنْ كانت جميعها أشواكًا في حلق أمريكا ، لكنّ هذه الشّوكة لا تستدعي كلّ هذه الحشود العسكريّة ، وكلّ هذه الآلاف من الأطنان من المُتفجّرات تُلقَى على شعوبها؟! إذًا فالأمر أكبر من ذلك وأبعد؟ وما عساه يكون؟ إنّه النّفط والمُخدّرات .

النّفطُ والمخدّرات؟ بلى . النّفط وفهمناه ، فهم أولياؤه وأوصياؤه وهم يستخرجونه من أرضنا ويبيعونه لنا ، وقد يمنعونه يومًا ما عنّا ، لنعود إلى حجريّتنا الأولى ، ويُساعدهم في ذلك حُكّامنا . فهمْنا ذلك يا أحمد ، ولكن المُخدّرات؟ ما شأنُ أمريكا بالمُخدّرات؟ إنّها قصّة طويلةٌ يا عزيزي ، ولكنْ لا بأس من الإطلالة على شيءٍ منها ، إنّ اقتصاد أمريكا يقوم في جزءٍ كبير منه على المُخدّرات ، بل إنّ مافيات المُخدّرات هناك تتحكّم بالأسواق ، وتُغيّر أنماط النّاس ، وتفرز مرشّحين لمجلس الشّيوخ ، وعددٌ من السناتورات وصل إلى برلمانهم عن طريق مافيات المُخدّرات . فهو إذًا سلاحٌ اقتصاديّ سياسيّ ، أمّا جانبه الاجتِماعي ؛ فهو الأخطر ، لقد كان مظهرًا من مظاهر عنصريّة أمريكا

الّتي تدّعي الحريّة ، كانت المُخدّرات الوسيلة الأقوى في وَقْف تفوّق السّود في أمريكا ، وعدم وصولهم إلى مراكز قياديّة ، وهذا ما دفعهم إلى إغراقهم أكثر من غيرهم بالجنس والمُخدّرات ، ولذلك ترى أنّ انتشار المُخدّرات في أحياء السّود أكثر بكثيرٍ من أحياء البيض ، والمُخدّرات هي الضّمانة لعرقٍ أسود يُوغِل بسببها في التّيه والضّياع والدّيون وقلّة الإنتاج والأمراض النّفسيّة الّتي تؤدّي إلى القتل . ولكنْ ما علاقة كلّ ذلك بأفغانستان ، الأمر بسيطٌ يا صديق ؛ أفغانستان تعتبر المُنتج الأوّل أو الثّاني عالميًا لزهرة الخشخاش الّتي تُصنع منها أجود أصناف المُخدّرات ، ولا بُدّ من السّيطرة عليها ، احتلالُها أوّلاً عسكريًا ، ثُمّ تعيين حاكم من أهلها يكون عميلاً بالكامل لأمريكا ، ثُمّ الاستيلاء عن طريقه على كلّ شبرٍ من أفغانستان تُزرع فيه المُخدّرات ، فالمُخدّرات هي نفط أمريكا الأهمّ من أجل تمرير مشاريعها وسياساتها ، وأمّا طالبان والقاعدة فهما لاعبان صغيران ، وبعمالةٍ بسيطةٍ واختراقٍ بسيطٍ لهما يُمكن القضاء عليهما ، أو إبقائهما مثل الجزرة الّتي تقود الحمار إلى مصرعه

مَنْ يُصدّق في أحداث سبتمبر أنّ الصّندوقَين الأسودَين للطّائرتَين قد صُهِرا بسبب شدّة الحريق ، مع أنّهما لا ينصهران ولا يحترقان تحت آلاف الدّرجات السّيليزيّة ، وأنّ ورقةً أو وصيّة من ميّتٍ في البرجَين ظلّتْ سليمة ولم تُحرَق ؛ ألا يقول ذلك إنّنا نتعرّض لخديعةٍ غير مسبوقة ، نحن الشّعوب المسكينة الّتي تنجرّ وراء عاطفتها دون بصيرة؟! ولا أحد يدري كم خديعةٍ انطلتْ علينا منذ وجود المستعمر فينا إلى اليوم ونحن نظنّ أنّنا واعون ومُدرِكون ، فإذا بنا بُلهاء وساذجون ومُغيّبون!!

سنصحو يومًا من هذه السّذاجة وهذا التّغييب ، ولكنْ حين يكون قد غاص الرّمح في الحلقوم . العالَم يتّجه إلى الجنون ، والجنون يقود إلى الفوضى ، والفوضى تستجلب الطّوفان ، والطّوفان هو الحلّ الأمثل لتنظيف هذا الكوكب المُتداعي من الحُكّام والشّعوب .

(٥١)
يجب أنْ يتجدَّد الهواء الدّاخل إلى أرواح العُظماء الرّاقدين هنا

في عام ٢٠٠٢ أصبحتُ أمينًا للمكتبة في سجن سواقة ، كان هذا هو حلمي الثّاني بعد حلم العسكريّة . في سنوات فتوّتي الأولى ، وقُبَيل أنْ أنتسب إلى الجيش ، كنتُ موزّعًا بينهما ، أنْ أكون أمينًا على الحدود ، أو أمينًا على الكتاب . وتحقّقا اليوم معًا ، وإنْ جاء الثّاني بعد انحباسٍ بسبب الأوّل . قلتُ وأنا في السّادسة عشرة من عمري ، سأُنشِئ مُكتبتي الخاصّة ، لكنّ سنوات العمل وتقلّباتها كانتْ مرهقة ، وقيادة السّيّارة بالموتى كان أشدّ إرهاقًا ، فتأجّل الحلم إلى أمدٍ إلى حدّ أنّني نسيتُ كيفَ كنت أتخيّل شكلَ مكتبتي الخاصّة

اليوم أنا هنا ، محبوسٌ نعم ، لكنّني أمتلكُ فضاءً . أدور في حلقاتٍ مُفرغة لكنّني لستُ حزينًا ، سنوات عمري تمرّ لكنّني لستُ يائِسًا ما دامت ستمرّ في هذا . ستّ سنوات وأنا في النّعيم ، أنتقل من دوحة إلى دوحة ، كان عملي هذا قد أعاد لي الثّقة بجدوى الحياة . كنتُ قد بدأتُ به أستعيد عافيتي النّفسيّة بعد سلسلةٍ من الانهِيارات . أنْ تعمل أمينًا لمكتبة يعني أنْ يكون الله والسّماوات والأرضون كلّهم راضون عنك .

كانتْ مكتبة السّجن تحوي ما يقرب من أربعة آلاف كتاب ، وهي وإنْ كانتْ متواضعة من حيثُ العدد إلاّ أنّها لسجنٍ لا يقرأ أهلُه تبدو

ممتازة، وخاصّة أنّها تحوي كُتُبًا نوعيّة، والسّبب في نوعيّة الكتب أنّها كانتْ تدخل إلى هنا بإشراف الصّليب الأحمر، ولو تُرِكَ الأمر لإدارة السّجن لما أدخلت كتابًا واحِدًا إليها، ولكانتْ ربّما سعتْ إلى إغلاقها حتّى لا تأتي منها المشاكل!!

من أهمّ الكتب النّوعيّة المُترجَمة الّتي وجدتُها في السّجن، كتاب: (تعليم المقهورين) لباولو فريري، وكتاب (المؤمن الصّادق) لإيريك هوفر، وكتاب (الطّاعون) لألبير كامو. وهي كتب تُقدّم أفكارًا ثوريّة، ورؤى تقدّميّة، وتهتمّ بالحركات الجماهيريّة وعقائدها، ولو أنّ الأمر بغير يد الصّليب الأحمر لما دخلتْ هذه النّوعيّة من الكتب!

كنتُ أغدو في الصّباح، منذ شروق الشّمس، حينَ ينفلتُ العدّ من اليد، وتنفتح أبواب المهجع من أجل وجبة الفطور، مرحًا أقطع المردوانات، حتّى أصل إلى المكتبة في الطّابق الثّاني، معي مفتاحها، أفتح الباب كأنّني افتحه على عالَم آخَر يُفضي بي إلى الحرّيّة، المكتبة في السّجن هي الحرّيّة، القيد ليس أنْ تضغط على صدرك أربعة جُدران، بل أنْ تعيش جاهِلاً، أنْ ترى كلّ هذه الفيوض أمامك وتقف مكتوفًا لا حيلةَ لك. كنتُ أنظر إلى الكتب المُستقرّة بأمان فوق الرّفوف، أطوف عليها بنظراتِ عاشق، وأتلمّس أغلفتها كأنّني أتلمّس جيدَ الحبيبة، وأبتسم، إنّها آلاف الكتب، وأعلم أنّني سأخرج من هنا عاجِلاً أم آجِلاً، وأنّهم ربّما سينقلونني من هذا السّجن إلى سجن آخَر، وعليه فإنّه كان من الضّروريّ أنْ أقرأ كلّ هذه الكتب قبل أنْ تمتدّ يدٌ إليّ فتدفعني إلى زنزانةٍ مُتحركة لتنقلني إلى منفًى آخَر، إنّه سِباقٌ مع الزّمن إذًا

كان لي مكتبٌ صغيرٌ، أجلسُ إليه، وعندي دفترٌ من إدارة

السّجن أسجّل فيه أسماء المستعيرين ، ودفاتر خاصّة بي أسجّل فيها ملاحظاتي واقتباساتي ، وكان يحقّ لكلّ سجين أنْ يستعير كتابًا واحدًا في الأسبوع ، وكنتُ أحفظُ أسماء المستعيرين وأسماء الكتب وكم تبقّى لهم من الوقت ، وإذا تجاوز أحدهم الأسبوع بيوم واحد ، كنتُ أبعثُ له نزيلاً آخر يعمل معي وهو (نشوان) ، شابٌّ في أوائل العشرين محكوم سنتَين على سرقة ، أغلبُ وقته يدور مثل القِطّ في المكتبة ، لا يفعل شيئا سوى التّحرّك بلا معنى ، يبدو أنّه قبل بالعمل معي من أجل أنْ يتخلّص من رفقائه في المهجع أو يحظَى بمساحة من الحرّيّة تُتيح له أنْ يمشي بضعة مئات من الأمتار بشكلٍ قانوني من مهجعه إلى هنا ، أو أنّ الدّنانير العشرة الّتي يتقاضاها تُوفّر له حاجته من شراء علب السّجائر بالنّسبة لي كنتُ أتقاضى ضعف مُرتّب مُساعدي ؛ إذْ خصّصتِ الإدارة لي عشرين دينارًا في الشّهر كمُرتّب لقاء حِفاظي على المكتبة وكتبها وتنظيم أوقات الاستِعارة ، كان مبلغًا زهيدًا جِدًا لكنّني لم أكنْ أهتمّ بذلك ، ولو عُيّنْتُ هنا بلا مُرتّب لقبلت ، ذلك أنّ الكنز الّذي بين يديّ لا يُقدّر بثمن .

أبعثُ (نشوان) للمتأخّر في الاستعارة إلى مهجعه ، يقف أمام النّزيل الّذي استعار الكتاب ، يأخذه منه ويعود به إليّ دون أنْ يُحادثه بكلمة ، أُقبّل الكتاب ، أتفحّص غلافه ، وأفتّش أوراقه من الدّاخل لأتأكّد أنّها سليمة ، وأنّه لا ضرر قد لحق به ، ثُمّ أعيده إلى مكانه مثلما يُعيدُ تاجرٌ سبيكة ذهبٍ إلى أخواتها ، ثُمّ أحرم صاحبه الّذي تأخّر أسبوعًا كاملاً من الإعارة . لكنّني كنتُ بحدسي أعرفُ مَنْ يقرأ مِمّن لا يقرأ ، فأتغاضى عن بعضِ الّذين يتأخّرون لأنّني أعلم أنّهم منهمكون في قراءته ولا أريد أنْ أقطع ذلك عليهم ، لم تكنْ قوانيني

صارمة وإنْ كانت جادّة ، فقد كنتُ أسمع لبعض القُرّاء أنْ يستعيروا أكثر من كتاب في الأسبوع ، اثنين أو ثلاثةً أو أربعة لعلمي المُسبَق بأنّهم يقرؤونها أو يُعِدّون بحثًا من خلالها . وكان لدينا عددٌ من الباحثين في السّجن جيّدٌ بالنّسبة للظّروف الّتي نعيشها هناك .

بعد ستّة أشهر من العمل أمينًا للمكتبة حفظتُ أسماء الكتب كلّها ، وأسماء مؤلّفيها . وفكّرتُ في أنْ أفعل شيئًا للأرواح الرّاقدة هنا ، أظنّ أنّهم ملّوا أماكنهم القديمة ، وأحسّوا بشيءٍ من الرّتابة الّتي يشتركون معي في كرهها ، ليس من المعقول مثلاً أنْ ترقد روح الجاحظ بجانب روح ابن القيّم ، ولا روح شكسبير بجانب روح المتنبّي ، مع احترامي للأرواح جميعها ، وتقديري لهم قدّس الله سِرّهم أجمعين ، ولكنّ مجالسة الجاحظ لابن القيّم لا تجلب المُجانسة ، ابن القيّم مُتحفّظ في بعض المسائل والجاحظ منفتح ، ولديه بعض الألفاظ الوسخة ، ومتحرّر من أيّ قيد ، وفكاهته لا تستسيغها جِدّيّة ابن القيّم . كما أنّ الأعمال المسرحيّة عند شكسبير يرى فيها المتنبّي ترفًا وميوعةً ، ربّما يجد الأمر طريفًا في البداية ، في أوّل سنةٍ أو سنتَين ، أمّا أنْ يطول الزّمن أكثر من ذلك ، فإنّني أشعر بتنافر الاثنَين ، قد يلتقيان في السّيف والحِكمة ، ولكنّ أنّى لشكسبير أنْ يصبر على تفلّتات المتنبّي في تضخّم الأنا!! من أجل ذلك صار لزامًا عليّ أنْ أعيد ترتيب الكتب ، وأتخلّص من هذه الرّتابة القاتلة

حدث ذلك في أوائل عام ٢٠٠٤ ، يجب أنْ يتجدّد الهواء الدّاخل إلى أرواح العُظماء الرّاقدين هنا ، كتبتُ استِدعاءً إلى مدير السّجن ، بفكرتي في تغيير ديكور المكتبة ، وإعادة تصنيفها ، وإصلاح أعطابها ، والميزانيّة الّتي تُكلّف الإصلاحات . وافق على إعادة التّصنيف ، ورفض

دفع التّكاليف ، قال وهو يضحك : «أنتَ تحتاج إلى ميزانيّة ضخمة ، نحن هنا في السّجن فقراء ومنفيّون مثلكم في قلب الصّحراء ، ولا يأتينا دعمٌ من أيّ نوع» كانت الميزانيّة لإصلاح الأعطاب وتزيين المكان بحيثُ تشعر أرواح الكُتّاب بالهناءة لا تزيد عن مئتَي دينار . قلتُ له وأنا أقف أمامه واضِعًا يديّ خلف ظهري وأحرّك جذعي باهتِزازٍ بسيط جهة اليمين والشّمال : «الميزانيّة سأدفعها أنا ، ما هو مطلوبٌ منكم توفير حركة النّقل من المكتبة إلى أماكن الإصلاح والعودة بها إلى هنا» . أجابني وقد حاصرتُه : «حتّى هذه لا نستطيعها!!» . سألتُه : «تقصد من ناحية ماليّة؟» . أجابني ساخِرًا : «بالطّبع من ناحية ماليّة ، من أجل المال يقتتل البشر ليحظوا بالحياة» . أردفتُ : «الحياة الخاسرة» لم يسمعْ ما قلتُه ، لكنّني أشرتُ بيدي أنّه لا مُشكلةَ عندي في هذا ، لم يكنْ لديّ وقتٌ لأناقشه ، قلتُ : «سأزيد عليها خمسين دينارًا من أجل المواصلات . هل هذا يكفي؟» . أجابني ببطء مع انطِعاجةٍ في زاوية فمه : «يكفي» .

عددتُ ما كنتُ أملكه يومئذٍ بعد أنْ أخذتُه من صندوق الأمانات في السّجن ، فكان حوالي (٨٦) دينارًا ، في أوّل زيارةٍ لعلي السّنيد طلبتُ منه أنْ يوفّر لي (١٠٠) دينار ، وحينَ سألني ، أطلعتُه على المشروعِ كاملاً ، فانهلّتْ أساريره ، وقال إنّه سيوفّر المبلغ المتبقّي كامِلاً ، وهو الّذي سيُتابع الأمور خارج السّجن بالاتّفاق مع المدير . وكان ما أردتُ!

قلبتُ المكتبة رأسًا على عقب ، استعنتُ بالقطّ المتجوّل (نشوان) ، واثنين من قطط مهجعه على تنظيفها ، اشتريتُ المنظّفات من دكان السّجن ، أخرجْنا كلّ الكتب في كراتين (السيرف) الّتي جلبْناها من

الدّكان أيضًا فتكوّمت في الممرّ الّذي ينفتح باب المكتبة عليه، قلتُ للقطط الثلاثة إذا تابعتم معي المهمّة حتّى تنتهي فأبشِروا بعشرة دنانير لكلّ واحدٍ منكم، يشهد الله أنّهم عملوا بجدّ وإخلاص حتّى تعجّبْتُ أنا منهم، لقد كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة متواصلة في اليوم دون التوقّف إلاّ لالتهام الطّعام الّذي يُعينهم على مواصلة العمل. لم أفهم سرّ هذا التوقّد في قدرتهم، كانوا يعملون بصبر الحمير، وجَلَد البِغال، وقوّة الثّيران. لقد كنتُ أشعرُ بالمسيح يخرج من بين الكتب يُشفِق عليهم، ويطلب منهم أنْ يستريحوا قليلاً ولكنّهم لم يكترثوا، بل إنّني سمعتُ أرواح عددٍ من المؤلّفين تستصرخني أنْ أرحمهم، فقلتُ: «إنّهم يعملون لأجلكم وهم مستمتعون، فلا تخافوا عليهم». هل كانوا فِعلاً يفرّغون طاقاتٍ مُخزّنةً لسنواتٍ من الخمول والجلوس في السّجن وهم ما زالوا في ريعان الشّباب، هل كانوا يريدون بذلك أنْ ينسَوا واقعهم ويذهبوا في ذلك النّسيان بعيدًا حتّى يرتاحوا من عناء هموم الأيّام الّتي لا تزيدُ قلوبهم إلاّ قسوةً، وصدورهم إلاّ ضيقًا لا أدري. ربّما

صارت المكتبة تلمع، عادتْ بهيجةً، لم يتركوا ذرّة غُبارٍ واحدة، حتّى حوافَّ الشّبابيك، وبلاط الأرضيّات، والرّفوف، والجُدران، والسّقوف، ومقابض الأبواب، كلّ شيءٍ صار يلمع. قلتُ لهم: «بقي شيءٌ واحدٌ علينا أنْ نفعله». تنبّهوا برؤوس وعيونٍ قططيّة على الحقيقة، ليسمعوا. قلت: «سنفرز التّالف من الكتب من أجل العمل على إصلاحه هنا، والكتب غير المُغلّفة هنا، والكتب المغلّفة هنا» استغرق الأمر أكثر من ثلاث ساعاتٍ. كان الإنهاك قد بدأ يظهر عليهم. لم أكنْ أتركهم ليضعفوا أمامي. صار وقت النّوم، هجع

النّازلون هنا وهم ما زالوا معي ، أشرتُ لهم بالذّهاب . تَهادَوا على ضوء المصباح الخافت المُعلّق في سقوف الممرّ ، كانتْ ظلالهم تأتيني شاحبة ، حتّى غابوا ، أووا إلى أبراشهم ، شعروا أنّهم صنعوا شيئًا مفيدًا ، قيمة الإنسانُ بما يُعطي ، أهدأ ذلك الشّعور أرواحهم فناموا ليلاً عميقًا

غادرتُ بعدهم بقليلٍ ، أويتُ إلى الفراش وأنا مُنهَك ، لم أستطع النّوم ، كنتُ أفكّر في التّصنيف المُناسب ، إنّ التّصنيف أهمّ خطوة في العمليّة كلّها . هل أصنّف الكتب حسب التّرتيب الهجائي ، وإذا رأيتُ ذلك مُمكنًا ، فهل يكون التّرتيب الهجائي لأسماء المؤلّفين أم لأسماء الكتب ذاتها ، وإذا وقع اختياري على أسماء المؤلّفين ، فهل آخذ الاسم الأوّل أم اسم العائلة ، وإذا رأيتُ أنّ الأفضل التّرتيب على الاسم الأوّل فكيف سأصنّف الأسماء الّتي تبدأ بالهمزة مثلاً ، وإذا كان ذلك ممكنًا ، فكيف يُمكن التّغلّب على الأسماء الّتي تبدأ بالهمزة وتشترك في الاسم نفسه ، كأنّ يكون هناك خمسون مؤلّفًا كلّهم تبدأ أسماؤهم بـ (إبراهيم) ، ثُمّ ستكون الأسماء الّتي تبدأ بالياء مثل (يزن) قليلةً أو نادرة ، فكيف سأوفّق بين حجم الأرفف وعدد الكتب ، قد يكون عندي مئة كتاب يبدأ اسم مؤلّفه بالهمزة ، ولكن لا يكون لديّ إلاّ كتابٌ واحدٌ يبدأ بالياء ، ثمّ إنّ هذا التّرتيب يعني المعرفة المُسبقة باسم المؤلّف ، وهذا ما لا يتحقّق في مجتمع السّجن ، وعليه فقد استبعدتُ طريقة التّصنيف هذه ، وذهبتُ إلى الطّريقة الّتي تليها . قلتُ حسب تاريخ نشرها ، لكنّني سرعان ما استبعدتُ هذه الفكرة حينَ تذكّرتُ أنّ بعض الكتب ليستْ مؤرّخة بتاريخ نشر ، ففكّرتُ إذًا بتاريخ تسجيلها في السّجن ، أي في التّاريخ الّذي سُجِنت فيه هنا ، لكنّني استبعدتُ

ذلك ايضًا ، فلقد تركَ هنا نُزلاءُ كتبهم هديّة للمكتبة حين غادروا إلى فضاء الحرّيّة ، ولم تمرّ كتبهم على الصّليب الأحمر فلم تأخذ تاريخًا ولا رقمًا . قلتُ إذًا لجرّب أنْ نبدأ من السّماويّات إلى الأرضيّات ، بمعنى من الكتب السّماوية وبما يتعلّق بها من علوم ثُمّ إلى الكتب الأرضيّة ، لكنّ ذلك متداخلٌ بشكلٍ مُزعج ؛ إنّه غير ممكنٍ هو الآخَر . لكنْ ماذا لو جرّبنا التّصنيف حسب الموضوع ، نبدأ بالموسوعات ، ثمّ الطّبيعيّات ، ثُمّ بالمعاجم ، ثمّ بعلوم اللّغة وهكذا . . . جيّد ولكنْ مَنْ يقرّر ما يأتي من هذه المواضيع قبل الآخر ؛ إنّها حقًا مُعضلة . دارتْ ليلتها في ذهني آلاف التّخيّلات لموضوع التّصنيف ، لكنّني نمتُ دون أنْ أهتدي لأيٍّ منها ، في المنام جاءني ابن النّديم وقال لي : «المعرفةُ ما أيقنتَ ، وإذا شرعتَ شيئًا على علمٍ سار النّاس خلفك ، فاصنع ما صنعتُ» وغاب . كان اسمه أوّل مرّةٍ يظهر لي ، وشكله يُشبه صورة الأب لويس شيخو الّذي رأيتُ صورته على غلاف كتابٍ من كتبه في المكتبة ، لكنّني لا أدري لماذا ظننتُ هذا ذاك ، لقد غاب ، وصحوتُ وقد اهتديتُ إلى طريقته

بقينا شهرًا كاملاً من بعد ذلك اليوم المشهود ، ونحن نبوّب ونُصنّف ، كُنّا نبعثُ بالمهترئ كي تقصّ المطابع الأجزاء المُهترئة منه بشكلٍ مُتناسق ، وتقوم بتجليده بغلافٍ من الجلد ، وتُعيده إلينا ، وكنتُ قد حدّدتُ لكلّ موضوعٍ لونًا للغلاف حتّى يتمّ تمييزه كذلك من لونه

غيّرتُ ستائر المكتبة ، ولوّنتُ جدرانها ، وسمحتُ للشّمس أنْ تتسلّل طيلة النّهار إلى غرفاتها ، ووضعتُ أوراقًا مطبوعةً تدلّ على مواضيعها ، واشتريتُ لوحاتٍ تتوزّع على الجدارن ، نختار خطّاطًا من

خطّاطي السّجن ليكتب عبارات مُقتبسةً من آيات القرآن أو الحديث أو الأمثال أو الحِكَم . وطبعتُ تعريفًا موجزًا بكلّ كتابٍ قرأتُه ، ووضعتُه تحت تصرّف المُستعيرين ، وفكّرتُ في أنْ أعقد ندوةً ولو شهريّة حول كتاب ، أو أنْ أستثمر وجود المرشد الدّينيّ الّذي تُجمَع له مهاجع مختلفة كلّ عدّة أشهرٍ في التّعريف بأهمّيّة الكتاب أو القراءة ، يقولها هو أو أقولها أنا . وعرفتُ أنّني مع عملي هذا قد سمحتُ أيضًا للهواء الدّاخل إلى قلبي أنْ يتجدّد .

(٥٢)
يا محبوسي الأرض تعالوا لِنقرأ ساعة!

كان من الجميل أنْ تفتح كتابًا، فتجد فيه بطاقةً وضعها نزيلٌ قديمٌ في هذا السّجن، أو ربّما من سجنٍ آخر، وانتقل الكتاب من ذلك السّجن إلى هنا بعد تغييرات ما، إنّه نوعٌ من العبور الزّمني إلى الماضي يُشعرك بالحنين، إنّ لذلك لمسةً شفيفةً في قلبي، أتذكّر أنّني فتحتُ ذات مرّةٍ كتابًا، وقلّبتُ صفحاته فوجدتُ فيه ورقةً صغيرةً بحجم الكفّ، كان الكتاب يحمل عنوان: (الحياة بعد الموت)، ولم يكن الكتاب يُناقش المسألة من ناحية فلسفيّة أو وجوديّة، بل من ناحية عقديّة، ويبدو أنّ السّجين الّذي قرأ الكتاب تأثّر بما فيه، فكتب بخطٍّ بدا أنّه اعتنى به بشكلٍ جيّد، هذه الفقرة: «سأمضي، مثلما مضى الأوائل. الموت لا يُشكّلُ النّهاية، إنّها بدايةٌ للأبديّة. يُمكن للإنسان أنْ يعدّ الموتَ فرجًا، لأنّه يقضي على الهموم، ويُخلّص من الدّيون، ويقي من الفتن. الفتن كثيرةٌ في هذه الأيّام وأنا لا أريد أنْ أُفتنَ في ديني. أتمنّى أن ترتاح روحي من عناء الحياة، وأنْ تحلّ لي الشّفاعة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم»

في كتابٍ آخر وجدتُ رسالةً من سجينٍ إلى أمّه يطلبُ منها أنْ تسامحه، وأنّه سيعود ليرعاها، ويرعَى إخوته، ويبدو أنّه لم يتمكّن من إخراجها، فأودعها في الكتاب، ثُمّ نسي بعد سنين حينَ حان موعد خروجه من السّجن أنّه فعل ذلك فبقيت الرّسالة شاهدةً على ما يفعله

السّجن بالسّجناء ، إنّه كفيلٌ مع تقادم الأيّام بأنْ يرقّق قلوب أقسى المُجرمين ، فهم في النّهاية آدميّون تعود إليهم آدميّتهم حين يتحرّك فيهم ذلك الدّفق الإنسانيّ المُسمّى بالعاطفة اللاواعية

الكتب كالنّاس ؛ تبكي وتضحك ، وتُبكِي وتُضحِك ، وتنزل بها المصائب ، وتنتظر أخبارًا مُفرِحة ، وتخضع للأقدار المكتوبة ، وأنا أفرح حينَ أحمل كتابًا لأنّني بمجرّد النّظر إليه أشعر بتحسّن في مزاجي وصِحّتي . ووجود الكتاب إلى جانبي يعني أنّني قلّلتُ من نسبة الإصابة بمرض الوحدة أو الاكتِئاب ، إنّه يملأ عليّ حياتي

والمكتبة ليستْ مكانًا تستضيف فيه مجموعةً من الأوراق المُكدّسة ، أو الأغلفة المُنضدّة ، إنّها ليستْ نُزلاً ولا فُندقًا ، إنّها ساحة الحياة ، مُعتركها ، ووجهها الأصدق بكلّ ما فيها من تنافر وتقارب ، الّذين يقرؤون فيها يجعلونه حيّة بالنّاس ، بالتّوافد إلى هُنا ، بالنّقاشات الثّريّة ، بالضجّة اللّذيذة في الحِوار حول فكرةٍ ما تستيقظ أرواح الرّاقدين هنا ، يسمعونَ صوتًا حبيبًا يُناديهم من سُباتهم العميق ، يُزيل عن عيونهم غبار التّاريخ ، وأتربة الماضي السّحيق ويدعوهم إلى النّهوض ومشاركة الجالسين هنا حَيَواتهم . لو كنتُ أستطيع ، لجعلتُ من كلّ مكتبةٍ ندوةً دون ترتيبٍ ولا إعداد ، كلّ مَنْ يأتي هنا يشتبك مع كتاب ، يناقش مُؤلّفه ، يتركُ من خلفه قُصاصةً مُختصرةً تكشف عمّا دار بينهما ، تُجمَع القُصاصات ، يُعاد إنتاجها دون التدخّل في مضمونها ، ثُمّ تُعرَض على كلّ داخلٍ من جديد ، مَنْ أراد أنْ يُضيف أو يُحاور أو يشتبك مرّة أخرى ، فها نحن ، كُلّنا ، نحمل هذه الشّعلة لنضيء لعناتِ الظّلام في حياةٍ فانية . الكتاب ليس ما فيه ، ولا مؤلّفه ، الكتاب يتعدّد بتعدّد قارئيه ، والصّفحات تقوم من الموت بقراءة

ما تناثر فوق مساحتها من رذاذ الحروف

أنا من جيل ما قبل انتشار الفضائيّات، الجيل الّذي كان في (إبدر) لا يُشاهد إلاّ التفلزيون الأردنيّ، أو تلفزيون الشّرق الأوسط، وأحيانًا، حينَ نصعد إلى السّطوح نلفّ (الأنتين) من أجل الحصول على صورة واضحة للتّلفزيون السّوري. لم يكنْ جيلُنا مُلوّثًا بصريًا، من أجل ذلك كانت الوردة تهبه لمسةً فاتنة، ويستطيع أنْ يشعر بروحها وعِطرها، والمرأة كانتْ سِرًا غامِضًا ولذيذًا في آنٍ، لم تكنْ تتكشّف كأنّها أرضٌ رطبةٌ بلا ورق، ومن أجل هذا كانتْ نظرة واحدة من طرفِ عينَيها تُدوّخنا، كنّا نعيش هذا الحبّ المتخيّل البريء، كان جميلاً، ربّما يدفعنا إلى ارتِكاب حماقاتٍ أو أفعالاً خارقة أحيانًا من أجل أنْ يُثبت الواحد منّا في الحارة لبنت الجيران أنّه هو الأجدر بها دون سِواه، كان الحبّ العفويّ هذا أيضًا يدفعنا إلى أنْ نترفّع في أخلاقنا ونبدو مُهذّبين في حضرة الجَمال، أمّا جيل اليوم فلكثرة ما تلوّث بصره بالمشاهد العارية، ولكثرة ما انكشف أمامه مِمّا يجب أنْ يكون مستورًا، فإنّه لم تعدْ تُحركه أيّ عاطفة، ولا يدفعه إلى الخير أيّ شعورٍ، صار بارِدًا مثل صخرةٍ ملساء، لَبِطًا مثل حلزونة، ولزجًا مثل بَصقة!!

كان هذا النّقاء البصريّ النّسبيّ يدفعنا إلى أنْ نقرأ، لم يكنْ هناك كثيرٌ من الحواجز الّتي ترتفع في وجوهنا أو بيننا وبين الكتاب، وإنْ كان الحصول في أيّامنا على الكتاب عزيزًا لقلّة ذات اليد ولأسباب أخرى، لكنّ ذلك دَفَعنا أيضًا إلى أنْ نُقدّر قيمته، اليوم ترى الكتب مُلقاة في الطّرقات، يستجدي صاحبها النّاس أنْ يشتروها فلا يعبؤون، فإذا كسدتْ راح يبذلها لهم هديّة فإذا هم منه يستسخرون!! هذه الفروق ليستْ تفضيلاً لجيلٍ على جيلٍ، ولا إنقاصًا من وزن جيلٍ على

حساب جيل آخَر ، وإنّما هي توصيفٌ لما رأيتُه وعايشتُه ، والأمر يبقى محصورًا في المساحة الّتي ذهبتُ إليها ، وهي الشّغف بالقراءة ، وتقدير الكتاب!!

السّجن لا يمنع أحدًا من أنْ يتحرّر ، فليقرأ ويجرّب الحريّة المُطلقة في القراءة ، السّجن للّذين لا يقرؤون هو سجنٌ لا مُتناهٍ ، كلّ يوم يتوالد حتّى يشعر الإنسان بمرور الأيّام أنّه ينحبسُ في ألف سجن ، لاّ يفكّ القيد عنك ويُخلّصك من تعدّد السّجون إلاّ الكتاب ، كلّما قرأتَ كتابًا فتحتَ نافذةً على الحُرّيّة ، أيّها المعتقلون هنا في سواقة وفي كلّ سجون العالَم ، يا مَحبوسي الأرض تعالوا لِنقرأ ساعة!

في المعتقلات الكبيرة الرّهيبة ، قد تُحاصَر الحريّة أكثر بمحاصرة الكتاب ، لكنّ الكتاب كالماء الّذي ينداح من تحت بوّابات الزّنازين ويدخل إلى عاشقيه ، إنّه يُحاصَر نعم ، ولكنّه لا يُقتَل ، إنّ أكثر الكتب الّتي حُظِرت خارج السّجن كانتْ تتربّع بدلالٍ على رفوف المكتبة داخله ، المنع فكرةٌ غبيّة مجوجة ، واختراع مَنْ حولّه الحقدُ إلى إنسان أعمى ، إنّه سذاجة في زمنٍ لا يستطيع أحدٌ فيه أنْ يضع ستارةً أمام الشّمس ليُغطّيها . الحياة في حركةٍ دائمة ، والكائنات ، والنّجوم ، والكتب ، والأيّام ، ونحن ، . . . ولولا ذلك لمتنا

المساجين أناسٌ طيّبون وبُسطاء ، لقد فرحوا بالتّغيير الجديد الّذي صنعتُه في المكتبة ، هُرِعوا من المهاجع أفواجًا يريدون أنْ يستعيروا كُتُبًا ، لقد انتشرتْ بينهم عدوى القراءة ، إنّ الّذي كان يقف في وجوههم هي تلك الحصاة الصّغيرة الّتي وقفتْ أمام سدّ مأرب ، لم أفعل شيئًا كثيرًا من أجل أنْ ينداح الطّوفان ؛ فقط أزلتُ تلك الحصاة ، فجاءني السّجناء من كلّ مكانٍ . رأيتُهم يتهافتون على دواوين نزار

قبّاني ، لا أدري لماذا؟ ربّما لأنّ الحُبَّ في السّجن يخضرّ ويُزهر أكثر منه خارج هذه البوّابات ، الحرمان يُوسّع دائرته ويجعله حالةً محوريّة يدور حولها القلب . هل كان السّجين يأوي إلى أشعار نزار الرّقيقة ليستحضر من خلالها الحبيبةَ الغائبة الحاضرة؟ هل كانتْ قراءة أبيات الغزل الّتي تعجّ بها دواوينه تُطفِئُ أُوام الشّوق عندهم أمْ تزيده؟!

ديوان أبي نواس كان هو الآخَر من أكثر الكتب استِعارةً ، لا أدري لماذا تهافتوا عليه بهذا الشّكل؟ هل لأنّ الخمريّات فيه تجعلهم يسكرون بالوصف حين أعجزهم السّكر في الواقع ، امْ هو الكبت الجنسيّ؟ أم هو عشق الآخَر؟ عِشق المثيل الّذي كان - من خلال علاقةٍ خفيّة غير ظاهرةٍ للعيان - يُفرّغ فيه عُقَده الجنسيّة؟ هل كان يحدث هذا بالفعل؟ ربّما ؛ السّجن حرمانٌ ، حرمانٌ على ألف صعيد ، والحرمان يُفقد الإنسان معناه ، ويُحوّله إلى آلة ٍ، أو شبح مُصابٍ بألف ثقبٍ في الرّوح يبحث عن شفاء ، لديه اندِياح ولا يجد مَخرجًا ، الطّوفان يضغط على تلك المخارج في كلّ حين ، وإنْ لم يَجدْ تفريغًا فإنّه سينفجر

كتب تفسير الأحلام ، وبالأخصّ كتاب ابن سيرين الشّهير في ذلك ، كان أيضًا من أكثر الكتب استِعارةً ، كان لا يعود إلى رفوف المكتبات ، وكنتُ أسجّل الّذين ينوون استعارته في قائمة الاحتِياط ، وبعضهم كان دوره في استعارة الكتاب لا يأتي إلاّ بعد أربعة أشهر ، ولم يكنْ لدينا إلاّ كتابٌ واحدٌ ، طلبتُ من الإدارة أنْ تُؤمّن لنا نُسخًا أخرى منه ، وانتظرنا سنةً ، لكنّهم لم يفعلوا ، اضطُررتُ أنْ أشتري نسختَين على حسابي يأتيني بهما زُوّاري من الخارج ، لأُضيفهما إلى مكتبة السّجن ، وعانت النّسختان زمنًا طويلاً قبل أنْ تدخلا إلينا كانت نُسخ ابن سيرين من تفسير الأحلام هذا تتناقلها الأيدي

والقلوب ، وكنتُ أنبّه المُستعير ألاّ يطوي صفحةً من الكتاب ، ولا يُمزّق شيئًا ، ولا يُخربش فوق أيّ جزءٍ منه ، ومع كلّ هذه التّنبيهات لم يسلم الكتابِ من بعض العبث ، وحاولتُ أنا بطريقتي أنْ أعيد إليه بعضَ بهائه ، معتذرًا منه أشدّ الاعتذار . ولكنْ لماذا كتاب ابن سيرين ، إنّه كتاب الأحلام يا سيّدي ، والسّجناء قومٌ حالِمون ، تُداهمهم الأحلام في كلّ لحظةٍ حتّى في لحظات صحوهم ، الأحلام تُطاردهم وتستحوذ على عقولهم وتُعشّش في وِجدانهم . ما إنْ يستيقظ الواحد منهم في الصّباح حتّى يبدأ بسرد حلمه على جاره في البَرْش ، وما يكاد ينتهي حتّى يقول له جاره الّذي كان يستمع إلى حلمه «الآن دوري ، أتعرف بما حلمت؟» . ويقصّ عليه حُلمه ، ثُمّ يسأل أحدهم الآخَر عن تفسيره ، ويتجادلان ، ويتصايَحان ، ثُمّ يُحكّمان ثالِثًا في المهجع يظنّونه قادِرًا على تفسير أحلامهما ، وحسم النّزاع الدّائر ، فإذا بالنّزاع ينشب من جديد ، وهكذا في دائرةٍ لا تنتهي ، يقع الجميع هنا في فَخّ الأحلام!

أحد السّجناء لفت انتباهي كان يُكثر من استعارة دواوين نزار قبّاني ، ولعشقه لشعره حفظَ كثيرًا من أبياته ، وكان يترنّم بها في المردوانات ، ويتغنّى بها إذا جلس إلى طاولة الطّعام في اللّحظة الّتي كان يهمّ فيها بتناول طعامه . لقد حوّله شِعر الغزل إلى إنسان إيجابيّ ، مُقبلٍ على الحياة ، يشغل نفسه بما يعود عليه بالنّفع ولو كان ترنُّمًا

سجناء التّنظيمات الإسلاميّة كانوا يستعيرون الكتب الدّينيّة ، وكتب التّفسير ، وكتب العقيدة ، ويبحثون عن كتب التّشدّد . لم تكنْ كتب ابن تيمية موجودة ، ربّما كتاب أو اثنين ، لكنْ كتب سيّد قطب كانتْ موجودة ، وبعض كتب السّلف .

كنتُ أتعامل مع الكتب كأنّها أبنائي، حتّى إنّني كنتُ أنزعجُ جِدًا إذا طوى أحدهم صفحةً من صفحات الكتاب ليعرف أينَ وصلَ في قراءته، هناك أكثر من طريقة لتذكّر المكان الّذي وصلتَ إليه لتعود إليه في مرّاتٍ لاحِقة، ورقة مطويّة، أو طرفًا من كرتونةٍ ما حتّى لو كان طرفًا من علبةِ سجائر، لم أكنْ أحبّذ أيضًا أولئك الّذين يضعون قلمًا عند الصّفحة الّتي وصلوا في قراءتها، كان ذلك يُشعرني بأنّ القلم يبعج قلب الكتاب، يجعله يتلوّى، كما لو كان جسد إنسانٍ طريّ يُشبَح على عمودٍ قاسٍ. كنتُ أتسامح في كلّ شيء؛ في التّأخير، أو في استعارة أكثر من كتاب، أو في إعارة الكتاب المُعار إلى آخر، لكنّني لم أكنْ لأتسامَح مع من يطوي صفحة الكتاب على حرفٍ كأنّه يحزّ قلبي بأداةٍ حادّة، كنتُ أتفقّد الكتب المُعادة كتابًا كتابًا، وكنتُ أعيدُ الصّفحاتِ المطويّة إلى وضعها الطّبيعيّ، وأعتذر منها على فظاظة البشر، وعلى لا أخلاقيّتهم، كان صريرها وأنا أُعيدها مثل سكّين يحزّ بحدّه الجارح قلبي قبل إصبعي

كنتُ أقرأ وأكتب في كلّ مراحل حياتي في السّجن، لكن في تلك الفترة الّتي عملتُ فيها أمينًا لمكتبة السّجن، كتبتُ مسوّدة كتاب (أوهام السلام العربيّ الصّهيونيّ). لم يُكتَب له أنْ يرى النّور، وحينَ يتقادم الزّمن، تتراكم على فِكرته الأتربة والغُبار، الفكرة إذا لم تُحيِها بالشّروع في العمل فيها فإنّها ستموت، ولو كان لك قلبٌ فستموتُ بعدها!

لم تقمْ إدارة السّجن وزنًا لما فعلتُ، كلّ التّحسينات، والتّشجيع على القراءة لم يكنْ يُشكّل عندها فرقًا، كانت الإدارة تتجاهل المكتبة، وربّما عدّتها جزءًا زائدًا على حاجتها، وأنّها تحجز مكانًا من

السّجن الأولى فيها بدلاً من أنْ تسجن الكتب فيه أنْ تسجن المجرمين!!
والحقيقة أنّهم ربّما مُحقّون من وجهة نظرهم، لأنّهم قلّما عثروا على سجين مهتمٍّ بالقراءة، ولكنّ الزّاوية الّتي أخطؤوا النّظر من خلالها أو تقديرها، هو لماذا لا تقوم الإدارة نفسها بتشجيع السّجناء على القراءة، لماذا لا تُحفّزهم على ذلك، وتُقيم مُسابقات وتحدّد جوائز. السّجناء لديهم فراغٌ مُذهِل، وإنْ لم يقضوه بشيءٍ نافع فإنّه سيقتلهم، أنا حاولتُ، ومحاولاتي أثمرتْ خيرًا كثيرًا، فلماذا لا تحذو الإدارة حذوي، أو تقف إلى جانبي؟ الأمر لا يهمّهما، هي تتبع سياسة (وأنا ما لي؟!) وهي سياسة التجهيل الّتي يكون أثرها على نفسيّة السّجين أشدّ وطأةً من أثر الانحباس ذاته مهما طال زمنه

ومع أنّني قدّمتُ للسّجن وللسّجناء خدمات جليلةً بما فعلتُه من إعادة الرّوح إلى المكتبة، إلاّ أنّ كتبي الّتي كانتْ تأتيني من الخارج لم تسلم من المداهمة في فترات مُتباعِدة ومن المُصادرة، وبعضُها كان يُحتَجَز في الإدارة قبل أنْ يصل إليّ لسنوات، وقد يعود إلى المصدر الّذي جاء منه، أو يبقى عندهم حتّى يأكله العثّ أو تنمو فوقه الطّحالب!!

(٥٣)
أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثّورُ الأبيض

سقطتْ بغداد ، سقطتْ في يد البرابرة ، ليستْ أوّل مرّة ، قَدَر هذه العاصمة الّتي تقف سورًا منيعًا عن العروبة جهة الشّرق أنْ تُختَطف ، وأنْ تُحرَق ، وأنْ يدمّرها المغول في كلّ عصرٍ

بلادٌ بأكملها تُستباح لكذبة ، صنعوا الكذبة ، أخرجوها ، وصدّقوها ، ثُمّ فرّغوا حقدهم الدّفين في جسد أمّتنا المنخور ، لا أحدَ يستطيع من الزّعماء أنْ يقف في وجه هذا المدّ الصّهيوأمريكيّ ، ببساطة لأنّ المرء لا يقف ضِدّ نفسه ، أو لأنّ العبد لا يرفع صوته في حضرة سيّده ، وسيكون عليهم بعد سنين أنْ يُردّدوا العبارة الّتي يحفظونها جيّدًا ، ولربّما يُدركون حتميّة وقوعها ، لكنّهم لا يفعلون شيئًا سوى انتظار دورهم يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام : «أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثّورُ الأبيض»

لم يكنْ سُقوط بغداد وحده هو المُدوّي يومئذٍ ، بل كان سقوط الأخلاق ، وسقوط العرب ، وسقوط القوميّات ، وسقوط الهتافات الفارغة ، وبدونا كمنسأَة سليمان تنخرها الأرَضة من تحتها ولا أحدَ يدري أو يشعر

المُستعمر يعود بثوبٍ صنعه بنفسه وفصّله على مقاس الأنظمة ، إنّه ثوب : «محاربة الإرهاب» . وباسمه دخل بغداد فقتل مَنْ قتل من علمائها وأعلامها ، ولأنّه بلا حضارةٍ فقد دمّر كلّ ما يمتّ إلى الحضارة

بِصِلة ، أو سلبه ليدّعيه لنفسه ، إنّه أسلوب الصّهاينة ذاته في انتحال الإرث العربيّ الإسلاميّ لأنفسهم . سُرِقتْ آثار بغداد ، وتاريخها ، نُهِبت المتاحف ، ونُقِلتْ إلى الخارج ، وفُرّغ العراق العظيم من تُراثه

لقد أهلكَ التّتار بغداد حين اجتاحوها سنة ٦٥٦ هجريّة ، وعاثوا فيها فسادًا ، قتلوا مَنْ قدروا عليه من الرّجال والنّساء والأطفال والشّيوخ والفتيان في الشّوارع ، فهربَ النّاس من البطش فاختبؤوا في الآبار والقنوات والمزارع والخانات ، فخلعوا أبواب الخانات واقتحموها على أهلها ، ومَنْ أغلق عليه باب بيته كسروه عليه ، فلمّا هربَ إلى السّطح لحقوه ، وقتلوه ، وقتلوا أهل بيته حتّى سالت ميازيب البيوت بالدّماء ، وقيل إنّ التّتار قتلوا ما يقرب من مليونَي مسلم . ثُمّ لمّا فرغوا من قتل الإنسان تفرّغوا لقتل الفِكر فأحرقوا مكتبتها ، وحيَن لم تَشْفِ النّار أعداء الحضارة والإنسانيّة بالإتيان على كلّ ما في المكتبة من تُراثٍ ، راحوا يرمون ما لم تطلْه النّيران من كتبها في نهر دجلة ، وتلقّاها النّهر حزينًا باكِيًا ، وبكى على ما يحدث يومئذٍ ، وسالتْ دموعه «حتّى ماء دجلةَ أشكلُ» ، كانتْ دموعه سوداء قاتمةً جرّاء ما يرى ، وبنى هولاكو من الكتب جسرًا يعبر فوقه جنوده المُحمّلون بالموت إلى الضّفّة الأخرى .

فرغتْ بغداد من أهلها ، وبقيتْ أربعين يومًا خاويةً على عروشها ليس في شوراعها إلا القتلى ، وأنتنتْ أجسادهم فسرى الوباء فيها ، ووصل الطّاعون إلى مَنْ كان مُختبِئًا في الحشوش والمقابر فهلك .

ولكنّ هذه الصّورة لم تكنْ فريدةً ولا وحيدةً ، لقد أعادها إلى الأذهان هولاكو العصر الجديد (بوش) ، فاعتدى مُدّعو الحضارة وحاملو شعلة الحرّيّة على مكتبة بغداد ، حدث ذلك تحت سمع الجيش الأمريكي (المُحرّر) وبصره ، كان الأرشيف الوطنيّ ومتحف الآثار

والمكتبة الوطنيّة في بغداد تتعرّض لعمليّة سطو ونهب مُمَنهجَين . سُرِقت كتاباتٌ عمرها ستّة آلاف سنة ، ونُهِبت الكتب التّاريخيّة المحفوظة منذ القرون الوُسطَى ، واختفتْ نسخٌ عثمانيّة من المصاحف النّادرة ، ولوحات لخطّاطين عمرها مئات السّنين ، كانتْ أكبر عمليّة محو حضاريّ وسطو بربريّ يشهدها العالَم في بداية القرن الواحد والعشرين ، قرن ادّعاء المدنيّة الزّائف .

لكنّ أمريكا عدوّة الحضارة لم تصنع صنيع هولاكو والبرابرة في بغداد فحسب ، لقد فعلوا ذلك في كابول بعد عام واحد حين قصفوها بالصّواريخ الّتي تزن زنة جبال كابول مجتمعةً!!! وحرقوا كلّ ما فيها مكتباتها ومدارسها ليمحوا كلّ ما ينتسب إلى الحضارة ، لأنّهم أعداء الحضارة الأبرز في العصر المُظلِم الّذي نعيشه!! إنّهم يُشبِهون قطيعًا من البشر العُراة يُهاجِمون في البرد مكتبةً ضخمة ، وينهبون كتبها ويُضرِمون فيها النّيران من أجل أنْ يستدفِئوا!!!

كُنتُ أيّامها أتسمّر أمام التّلفاز في المهجع أنا والقَتَلة ، نراقب الأحداث ونسمع الأخبار ، وأعلن الأمريكان بداية الحرب ، وبثّوا حينها خِطابًا لصدّام حسين ، كان خِطابًا مُؤثّرًا ، فبكيتُ وبكى مَنْ كان معي في المهجع . هل نحنُ قومٌ عاطفيّون حقًّا؟ أمْ أنّ هذا أثر السّجن الطّويل فينا ؛ يُبكي مَنْ لم يكنْ له قلبٌ ، فكيف بمن كان قلبه أخضر قبل أنْ يَفِد إلى هنا؟ أم أنّنا وحدنا الّذين بكَيْنا ، أمّا الّذين هم خارج السّجن فلا يدرون إنْ سقطتْ بغداد ، ولا يدرون إنْ ألقى صدّام خِطابًا أم لا ، ولو حضروه لقالوا ماذا يقول هذا الّذي ما زال يعيشُ في الماضي؟!

عرفتُ يومها أنّ العربَ لن تقوم لهم بعد اليوم قائمة ، وأنّهم سيأكلون أنفسهم ، وسينتفشُ قومٌ يظنّون أنّ علاقتهم العتيقة جدًّا

بأمريكا وإسرائيل سوف تحميهم من الطّوفان ، ثمّ يحين الحَين فيكونون أوّل مَنْ تُضحّي بهم أمريكا ، وسيُسحَلون ، ويأتي بعدهم مَنْ يجلس على كراسيّهم وسيحين دور الجدد في السّحل ، وهكذا . . . يستمرّ مسلسل السّحل الّذي لا يعرفُ أحدٌ عدد حلقاته ولا متى ينتهي

ترك احتلال العراق في نفسي ذكرى أليمة لا أظنّ أنّها ستُمحَى يومًا ، لقد بدتْ مُصيبة المُؤبّد أمامها ضئيلةً عاديّةً ، كانتْ طعنتُنا في خاصرة الأمّة في العراق طعنةً لن يتوقّف نزيفُها

لاحِقًا التحقَ بنا في سجن سواقة شابٌ كان قد رُحِّل من السّجن العسكريّ ، كنتُ أتسقّط أخبار هؤلاء القادمين من السّجن العسكريّ لأعرف قضاياهم ، فهم في النّهاية كانوا رفقاء الدّرب وزملاء السّلاح كان الشّابّ قد حُكِمَ عليه بالسّجن لمدّة خمس سنوات بتهمة التّجسّس ، وقلتُ في البداية «بل يستحقّ المؤبّد أو الإعدام» ، وكنتُ أظنّ أنّ تجسّسه لصالح إسرائيل ، فلمّا تبيّنتْ لي الحقيقة أشفقتُ عليه ، وخفّفتُ عنه ، وثمّنتُ موقفه ، كان تجسّسه لصالح المخابرات العراقيّة ، إذ إنّ هذا الشّابّ كان يخدم في إحدى قواعد سلاح الجوّ الأردنيّ في المنطقة الشّرقيّة ، فرأى بأمّ عينَيه أنّ هذه القواعد الّتي يخدم بها قد تحوّلتْ إلى قاعدة أمريكيّة تعجّ بالطّيّارين الأمريكيّين ، وبالطّيّارات الأمريكيّة ، وأنّ قواعدنا وأراضينا كانتْ تُستَخدَم للانطلاق منها لضرب العراق ، فثارتْ ثائرته ، أنْ يُقصَفَ بلدٌ عربيّ من قواعد بلد عربيّ آخَر وبمُقاتِلات أمريكيّة ، فهُرِعَ إلى السّفارة العراقيّة وأخبرهم بما شاهد ، ولم يكنْ يدري أنّ مأساة (قلوبهم معك وسيوفهم عليك) يُمكن أنْ تتكرّر في أزمنة عديدة . فألقي القبض عليه وحُوكِم وسُجِن ، لأنّ عليه ألاّ يُذيع أسرارًا كَفيلةً بأنْ تكشفَ الأقنعة المتلوّنة!

(٥٤)
القراءةُ بصوتٍ عالٍ

جالسًا إلى مكتبي في المساء ، إنّه ضوء الانبلاج ، انبلاج الفكرة ، الفكرة الّتي تصنع ثورة ، ثورةً في كلّ شيء . أعرفُ أنّ طولَ علاقتي بهذه الكتب ، وطول مكثي بين رفوفها سيُبقي روحي زمنًا طويلاً هنا ، حتّى بعد أنْ أغادرها إلى سجنٍ آخر أو حتّى بعد أنْ تُضيء شمسي . ستظلّ قراءاتي الّتي أحييتُ بها مَنْ كان ميتًا في السّطور تسبح فراشاتها في فضاء هذه الغرفة ، الغرفة الّتي جهدتُ بكلّ ما أملك أنْ أجعلها لائقةً بالعظماء .

المكان الّذي كتب فيه الجاحظ كتبه ، وكان يقرأ فيه ، وفيه انهارتْ عليه وطُمِرَ تحتها لن يموت ، إنّه إلى اليوم يتنفّس بصوتِ الجاحظ ، بروحه ، بكلماته الّتي كان يخطّها ، وبِصرير القلم فوق خدّ الورقة ، لن يموت لأنّه ليس مادّة ، حتّى ولو تراكبتْ فوقه عشرات الطّبقات من الصّخور أو الحجارة أو الأتربة . الخالِدون لا يموتون ، إنّهم حتّى في يوم الهول يبرزون ليُلجَأ إليهم ، يُنادَى عليهم من أجلِ بقيّة حماية من وجع الدُّنيا

لم تكن القراءة شيئًا مُفرحًا أبدًا لي في الصّغر ، نشأتُ في قريةٍ وادعةٍ ، وبين أهلٍ بسيطي الثّقافة ، عميقي الحبّ للوطن والنّاس والحياة ، وليس لديهم أيّ تعقيدات من أيّ نوع كُنّا نقرأ كتاب التّراب والطّبيعة في البداية ، هذا ما كُنّا نُتقنه . لكنّ أوّل لقائي بالكتاب ، كان

مع الشّيخ عبد الرزّاق ، ومع القرآن ، فتح القرآن النّافذة ، فشممتُ شيئًا من الهواء المُنعِش ، ودلّ على الطّريق ، فشعرتُ بمتعة وأنا أستكشفه وحدي شيئًا فشيئًا   لا تُصدّقوا مَنْ قال : إنّ القارئ يولد مُحبًا للقراءة . العلاقة بينك وبين الكتاب مثل العلاقة بينكَ وبين الطّرَف الآخَر ، لا يُمكن أنْ تُحبّه دون أنْ تُعايِشه . دون أنْ ترضى منه ساعة وتغضب منه ساعات ، دون أنْ تحضنه بين يديك مرّة ، وتقذفه بعيدًا عنك مرّات . القراءة حُسنُ معاشرةٍ كما هي مع الرّفيق والحبيب تمامًا بعضُ الكتب كانت تُشكّل لي رعبًا حقيقيًا في البدايات .   يبدو الكتاب سميكًا وثخينًا إلى حدّ لا يُطاق ، إنّه لا يُقرأ ، الوقت يَعْلِك قلبي وما زلتُ في الصّفحة العشرين ، ثمّ هو يمتصّ دمائي وأنا ما زلت في الصّفحة الأربعين ، ولا أكاد أصل إلى الصّفحة الخمسين إلاّ وأنا أختنق ، وأنفاسي تتقطّع ، والكتاب أكثر من ٤٠٠ صفحة ، يا ويلتى ، إنّه لا يُمكن أنْ تلتهمه حتّى النّيران .

أسّستُ مكتبتي الخاصّة في السّجن . تضخّمتِ الكتب الّتي دخلتْ إليّ هنا من فاطمة وأمّي وبقيّة الأصدقاء ، صار من غير الممكن تكديسها فوقَ برشي أو تحته ، أو في صناديق بلاستيكيّة ، اختلطتْ أحيانًا مع بعض الخُضار ، وبقايا من الطّعام . لُمتُ نفسي ، للكتب قداستُها ، وعليّ أنْ أفعلَ شيئًا من أجل ذلك . طلبْتُ من إدارة السّجن أنْ يصنعوا لي مكتبة ، قال لي المدير : «أنتَ جئتَ ببدعة ؛ ما من أحد من السّجناء عبر خدمتي الطّويلة في السّجون طلبَ شيئًا كهذا!!» أجبتُه «اعتبرها بدعةً حميدة» . لم أنتظر أنْ يُوافق أو لا ، ووصفتُ له ما أريد : «مكتبة خشبيّة ، أحبّ الخشب أكثر من الحديد ، الخشب يحمل روح الغابة ، الغابة وطن الغموض ، وذات لون بُنّي غامق ، لا

أحبّ الألوان الفاتحة» . ابتسم ، أردفتُ : «يُمكنني أنْ أعطي المواصفات بشكلٍ أدقّ للمنجرة ، وثمنها جاهز» . لم يُحرِ جوابًا ، ابتسم ، وطلبَ النّجارين في منجرة السّجن .

بعد شهرٍ كنتُ على موعدٍ مع الفرح ، حملها اثنان من الزّملاء النّجارين الّذين يعملون هنا ، تزيّن المهجع بها ، إنّها المكتبة الأولى من نوعها ، أوقفتُها إلى يمين برشي ، برشي هو الأوّل الّذي يقع إلى يسار الدّاخل ، ضمّتْ مكتبتي الخاصّة كتب التّفاسير والصّحاح وأصول الحديث ، وبعض الموسوعات ، وعدد من المعاجم العربيّة والإنجليزيّة شعرتُ بروحي تحلّق في السّماوات ، كان قلبي يضحك ، شيءٌ من الحياء منعني من أن أرقص ، تراجع المنفى قليلاً ، شحبتْ رمالُه ، صار لديّ هنا وطن!!

حتّى عام ٢٠٠٥ كتبتُ كثيرًا من الحوادث الّتي شهدتُها في السّنوات الثّماني الغابرة ، لا أذكر إنْ كان ذلك في أواخر عام ٢٠٠٥ أو في أوائل عام ٢٠٠٦ حينَ وفد إلى السّجن صحفيٌّ ذكيٌّ ، الصّحفيّون طعامٌ جيّد للسّجن ، إنّهم يزجّون أنفسهم في المناطق السّاخنة ، أو المحرّمات فينالهم من عقاب السلطة ما ينالهم . لا أدري ما هي المقالة الّتي رمتْ به إلى هنا ، ولا ما مضمونها ، ولكنّه كان مثقفًا ، وصحبني زمنًا طويلاً ، وكان من أنشط الّذين تردّدوا على المكتبة ، قال لي مرّة : «إنّ قصّتك يجب أنْ تُروى ، على الأقلّ إذا لم تُردْ أنْ يطّلع عليها أحدٌ فاكتبْها لنفسك ، غدًا سيأتي من أبنائك أو من أبناء جيلهم مَنْ يتوق أنْ يعرف قصّة هذا الّذي رفع البندقيّة في زمن الزّيتون والحَمام ، وربّما سُيسمّى شارعٌ أو قاعةٌ كُبرى من قاعات وزارة الثّقافة باسمك إنْ تبدّلت الأنظمة والحكومات ، ومَنْ يدري ، فالدّنيا دوّارة كما يقولون» .

استطاع بحذلقته أنْ ينفخ (الأنا) القارّة في أعماق كلّ واحدٍ منّا ، ماشيْتُه في البداية ، ثُمّ ما زال بي يلحّ حتّى وافقتُ .

كُنّا نجلس في المكتبة ما يزيد عن أربع ساعاتٍ في كلّ يوم ، أتذكّر الأحداث وهو يدوّنها في دفاتر جِئنا بها خصّيصًا لهذه الفكرةً . بقينا على هذه الحالة ما يقرب من شهرٍ ، لا أدري كم دفترًا ملأنا ، لكنّني أفرغتُ كلّ ما في جعبتي . استمرّت علاقتي به إلى يوم الإفراج عنه أنا مُقيمٌ هنا ما أقام عسيب كما يقول امرؤ القيس ، أعرف كم يمرّ بي من بشر ، وكم تمرّ بي من محطّات ، تعبرني وتواصل سيرها إلى النّهاية وأنا ما أزال في موقعي أنظر إليها وهي تختفي أمام ناظريّ . هو خرج ، أُفرج عنه دون أنْ أدري ، كان الاتّفاق من قبلُ أنْ يُسلّم نسخةً من هذه الدّفاتر إلى محاميّ ، وأن يقوم هو بنشرها في الصّحف تِباعًا . لكنّه اختفى ، ولم يُعطِ نسخةً لأيّ محامٍ من محاميّ ، ولم ينشر صفحةً من هذه المذكّرات في أيّ صحيفة ولا حتّى على حبل غسيل ، ولا أدري ما الّذي حدث ، قلتُ ربّما خاف أنْ ينشرها فتسبّب له أذًى ، أو قلتُ ربّما هو مبعوثٌ من الدّولة كي يسمع منّي لعلّي أبوح له بما لم أبحْ به لهم وخاصّة ما يتعلّق بالجهات الّتي دفعتْني إلى تنفيذ عمليّتي . أو ربّما مات .. ربّما ، لكنّه شكّكني في النّهاية أنّني كنتُ أحلم أو أتخيّل ، وأنّه لا يوجد صحفيّ ، وأنّني لم أعطِ مذكّراتي لأحد ، وأنّ ما كنتُ أقوله له ، كنتُ أقوله لنفسي . وما كان يكتبه هو في دفاتره ، هو ما كتبْتُه أنا في دفاتري . لم يَعُدْ للصّحفيّ وجود كأنّ أمّه لم تلدْه .

دأبتُ في الأمسيات وأنا جالسٌ في المكتبة أن أقرأ من الكتاب الّذي بين يديّ بصوتٍ عالٍ ، لم أكنْ أجد الفكرة في الصّباحات ممكنة ، لكنّها في المساءات كانتْ مُدهشة ، أعتقد أنّ نوعًا من استدعاء

روح الكاتب وصورته هو أنْ تقرأ ما كتبَ بصوتٍ مرتفع . إنّها تؤدّي إلى حالةٍ من العشق مع الكتاب لا تنفصم عُراها ، يتحوّل صوتُكَ الّذي ترفع به عقيرتك وأنتَ تقرأ حروفه إلى صوته ، هو يتكلّم الآن ، يأتي صوته من الأزمنة السّحيقة ، ربّما آلاف السّنوات ، يعبر تلك الآماد الغابرة ليصل إليك ، تنهض به وينهض بك ، ثم يتداخل الصّوتان فلا تدري مَن منكما الآخر!

كان أجدادُنا يقرؤون بصوتٍ عالٍ ، كانوا يُعطون الإجازةَ في الكتب كما يُعطون الإجازة في القرآن ، القرآن يُرتّل أمام الشّيخ ليأخذ فيه السّند ، وكذلك الكتاب ، يُقرأ أمام الشّيخ بصوتٍ عالٍ فيصحّح الإمام للقارئ ويُضيف إلى علمه ، وينقّح ، ويُزيل ما علق به من الشّوائب ، ثُمّ لمّا ينتهي يقول له «أجزتُك» كان أجدادُنا يفهمون ويثقفون خيرًا منّا أمّا الأمالي تلك الجاميع من الكتب الّتي تنمّ عن ثقافةٍ موسوعيّة ، فقد كُتِبَت هي بإملائها من قبل أصحابها كأبي علي القالي على التّلاميذ وهو يتلوها في دروسه بصوتٍ مرتفع . نحن فقط الّذين نستهجن ذلك اليوم ، لكنّه كان يُنتج حالةً من المعرفة واسعة ، ويشكّل ثراءً علميًا ، ودقيقًا لأنّه أُخِذ من أعلى سند .

القراءةُ بصوتٍ عالٍ مُنعشة ، تذكّرتُ مظفّر النّواب حين قال : «يا مُشْمِسَ أيّامِ الله بِضِحْكَةِ عَيْنَيْكَ تَرَنَّمْ مِنْ لُغَةِ القُرْآنِ فَرُوحِي عَرَبِيَّةْ» . لكنّ بعضها يحتاج إلى خلوة ، تبدو أمام النّاس أحيانًا مُخجلة ، لكنّها مع الذّات ، مع هذه الفَرادة ، تحافظ على طزاجتها كأنّما قيلت اليوم أو أمس ، وعلى إدهاشها كأنّ الحبر الّذي كُتِبتْ به لم يجفّ بعد . تعلّمتُ ذلك من (ميكافلّي) ، أعني قرأتُ أنا والمهندس الحكيم رحمه الله ، لميكافلي كتابه الأشهر (الأمير) ، قال المُترجم في مقدّمته ، إنّ ميكافلي

كان يعرف أنَّ النَّصَّ الَّذي كتبه ينتمي إليه أو لا عن طريق قراءته بصوتٍ عالٍ، كان يمسك النَّصَّ بين يديه يقف في أوّل الغرفة ثُمَّ يذرعها ماشِيًا يقرأ ما كتبَ بصوتٍ عالٍ فإذا أحسَّ بالحميميّة مع النصّ، وإذا شعر بأنّه دفّقَ الدمَ في عروقه، يخبط سطح مكتبه بقبضة يده ويصيح: «هذا النّصّ لي» ثمّ يُثبته في الكتاب، وإذا شعر ببرودة نحو الحرف، بنوعٍ من الفتور، فإنّه يُسارع إلى تمزيقه، فهو ليس له ولم يكنْ أبدًا!!

كان السّجنُ موتًا بطيئًا، ووحشًا يُمزّق بأنيابه جسدي، كنتُ أدفع الموت بالكتاب، وأبعد الوحش بمرافقته، نحنُ هنا تماثيل مُحنّطة، يتبلّد شعورنا مع الزّمن، أو نُبلّده نحن، لأنّنا لا نملك أفقًا، وليس أمامنا ما يُشير إلى أنَّ خيوط الشّمس يُمكن أنْ تتسلّل في يوم قريبٍ عبر نوافذ السّجن. قلوبنا هي الأخرى تتحجّر حينَ يولّي لنا الحُبّ ظهره. كُنّا نبحثُ عن حُبٍّ ضائع، تغيم الحبيبة، يتستّر الوطن، وحينها لا نجد غير الكتاب، نبحثُ فيه عن الحُبّ، أو نتّخذه هو نفسه حبيبًا!

الكتاب الّذي تُحبّه هو الكتاب الّذي شاركتَ أنتَ بتأليفه ولو لم تكتبْ فيه حرفًا واحدًا، أعني بعضُ الكتب تقول عنكَ ما لم تستطعْ أنتَ أنْ تقوله عن نفسك، تُصاحبك في أمزجتك كلّها، وتدفع بها إلى السّطح فتُخلّصك مِمّا كان سلبيًا منها، وتُثبّت فيك ما كان إيجابيًا. إنّها ثيرموميتر المزاج كنتُ أقول عن كتابٍ جيّد هو ذلك الكتاب الّذي يتعدّد بتعدّد الأشخاص الّذي يقرؤونه، والأَجْودُ منه أنْ يتعدّد بتعدّد القراءات الّتي يقرؤها الشّخص الواحد، على الكتاب أنْ يكون منجمًا، في كلّ مرّةٍ تحفر في زاويةٍ منه تستخرج ذهبًا جديدًا

(٥٥)
أريد أنْ أُسابِقَ الزّمن

انتظمْتُ في الدّراسة ، وصيّة المهندس المرحوم ظلّتْ عالقةً في ذهني ، كان في السّجن مدرسة ، وجودي بين الكتب ، وتطويع نفسي للمكوث بينها ساعاتٍ طويلة هوّن عليّ الالتِحاق بتلك المدرسة ، وإنْ كنتُ أنا بطبعي لا أحبّ الالتِزام ، ولا قيود الدّراسة منذ أنْ كنتُ تلميذًا في (إبدر) أيّام الابتِدائيّة كانتْ هناك لجنةٌ تأتي إلى السّجن في نهاية السّنة مُبتَعثَةً من وزارة التّربية والتّعليم لعَقْد الامتحانات لنا في قاعاتٍ هي مهاجع بالأساس ، رُكِنت فيها بعضُ المقاعد من أجل إنجاز المهمّة كُنّا ثلاثة عشر مُتقدّمًا في تلك السّنة لاجتياز الصّفّ العاشر ، وقد نجحتُ بسهولة ، مع قرفي من المناهج ، أعني من رتابتها وتهيّأتُ في السّنة الّتي تليها لاجتياز الصّفّ الحادي عشر ، وكانتْ عيني على الحصول على الثّانويّة العامّة ، ومن بعدها إكمال مسيرتي التّعليميّة ، ومع أنّني لستُ مؤمنًا بأنّ الشّهادة يُمكن أنْ تُقدّم أو تُؤخّر ، ولكنّني تماشيتُ مع التّيّار الّذي يردّد العبارة البلهاء كثيرًا : «الشّهادة سلاح» .

كانتْ حماستي شديدة ، كنتُ أريد أنْ أسابق الزّمن للحصول على الثّانويّة ، ولكنّني ما إنْ أتممتُ اجتياز الأوّل الثّانوي بنجاح حتّى فترتْ هِمّتي فجأة ، كانتْ ضغوط إدارة السّجن عليّ تستفزّني ، وتُلقي بي في خليطٍ من الأمزجة السّلبيّة المتنافرة . أثّر فيّ كثيرًا منعُ الزّيارات

المُتكرِّر ، كان يُوجعني مساومتهم لي على ألاّ أبعثَ بمقالاتي الّتي أكتبها هنا إلى الصّحف مقابل الحصول على زيارات خاصّة هي من حقّي . كذلك الإضرابات الكثيرة عن الطّعام الّتي خُضتها شتّتتْ تركيزي ، وثقبتْ ذاكرتي . أضفْ إلى ذلك تدخيني الشّرِه .

المُؤبّد يبدو طويلاً إلى الحدّ الّذي تشعر فيه أنّكَ لا تتقدّم بالزّمن إلى الأمام ، بل ترجع به إلى الوراء ، وأنّ اليأس يرافقك مثل إبليس في كلّ خطوة . المُؤبّد هو المُؤبّد ، المؤبّد هو الأبد . ومن جديد تُفلح الكتب بالسّيطرة عليّ ، وهزيمة اليأس ، كانتْ تطرد شياطين الأوهام الّتي تعيش في عقلي كنتُ أعرف تمامًا أنّ الابتعاد شِبرًا عن الكتاب يُقرّبني ذراعًا من اليأس والجنون ، فجاهدتُ كي أُبقي على عقلي سليمًا

لا أدري متى حدث ذلك على وجه التّحديد ، فقد تتشابه عليّ الأيّام والسّنوات أحيانًا ، لكنّه بعد ٢٠٠٢ ، الحقائق تُصارعني هي الأخرى ، تنفر منّي ، وتتفلّت من بين تلافيف عقلي . أحبّ المديرُ مرّة أنْ يأتي بابنه الصّغير إلى السّجن ، ولا أدري لماذا فعل ذلك ، أستطيع أنْ أتخيّل عشرة أسباب ، لكنْ ما الفائدة في أنْ أسردها لكم كلّها ما دام السّبب الحقيقيّ لذلك هو الحادي عشر!!

عُدتُ في ذلك اليوم من المكتبة إلى المهجع ، لأوّل مرّة أرى زُوّارًا جُدُدًا للقتلة ، غرفتي تضمّ بالمتوسّط اثنَي عشر نزيلاً ، يومها رأيتُ أنّ الغرفة يجتمع بها حوالي ثلاثين نزيلاً من مهاجع مختلفة وقضايا مُتعدّدة ، كانوا يتحلّقون حول (عماد) وهو محكومٌ ١٥ عامًا بتهمة القتل ، حينَ رآني ، تهلّل وجهه ، ناداني ، اتّسعت الحلقة ، انفرجتْ حتّى دخلتُ وجلستُ إلى جانبه ، ثُمّ عادت الحلقة إلى الالتِئام ، قال لهم مُؤكّدًا : «أحمد منّا وفِينا ، وهو ناقمٌ على الشّرطة أكثرَ منّا ، وسيُعزّز

وجوده إلى جانبنا موقفنا» . فأجبتُه دون أنْ أدري عن الأمر شيئًا «تعلم أنّني معكم على الحُلوة والمُرّة» . فكبّر بعضُهم . استغربتُ أنّ القتلة يُكبّرون ، صار الفأر يلعب في عُبّي كما يقولون . سألتُه بجدّيّة «ماذا هنالك يا عماد؟» . أجاب : «لقد نسّقْنا خُطّة الاختطاف جيّدًا ، وسنعرضها عليكَ إذا أردتَ أنْ تُجري عليها بعض التّعديل ، فخبرتك أحسن من خبرتنا» . سألته مُتوجّسًا : «اختطاف مَنْ يا عماد ، لقد أخفْتَني؟» . «اختطاف ابن مدير السّجن . إنّه معه هنا ، سنختطفه ، ونهدّد أباه بذَبحه إلى أنْ يخضع لشروطنا ، ويفتح لنا أبواب السّجن ، ونهرب» . فصرختُ مذهولاً : «الله أكبر ، وما علاقة ابنه بالموضوع» «نحنُ مسجونون هنا ظُلمًا ، وأقلّنا أخذ ١٥ سنة ، وإذا لم نفعل ذلك سوف نعفّن ونحن في السّجن» . «يا شباب مُشكلتكم مع القضاء وليست مع مدير السّجن ، ثُمّ افرضوا أنّها مع مدير السّجن ، فلماذا يُؤخذ الابن بذنب الأب . ثُمّ كم عمره يا شباب؟» ، سألتُهم : «الابن كم عمره؟» . ردّ أحدهم : «ثماني سنوات» . صرختُ من جديد : «هل فقدتم عقولكم ، هل الخيانة والغدر هي وسيلتكم؟ أليس عندكم أبناء في مثل سِنّه؟» قفزتْ إلى ذهني صورة ابنَيّ سيف الدّين ونور الدّين فدُخت ، لكنّني تمالكْتُ نفسي لأُكمل «ألَمْ تُفكّروا بالعواقب؟ ماذا دهاكم يا شباب؟» . قال أحدهم : «لن نتراجع ، وقُلْ ما شئت ، إذا كنتَ لا تريد الاشتِراك معنا ، فبالنّاقص عن واحد» . أجبتُه : «أنا بالطّبع لا أريد الاشتِراك معك ، وبالطّبع بالنّاقص عنّي ، لكنّني لا أناقش معكم موضوعي ، بل أناقش موضوعكم ، أنتَ . . . أنتَ الّذي تكلّمتَ الآن ، لو فشلت الخُطّة ، فستكون أوّل الهاربين لأنّني أعرفك جبانًا نذلاً خسيسًا وبلا شرف» وقُمتُ لأبصق في وجهه ، لولا منعي

من بعض الشّباب ، وعلتْ أصواتنا ، وكادت الشّرطة تنقضّ على المكان ويحدث ما لا تُحمد عقباه ، ثُمّ عُدت فغيّرتُ أسلوبي ، وذكّرتُهم بالله ، وبحكم هذا الفعل من ناحية الشّرع ، وبأنّه حرام ، ومن ناحية المروءة فهو يخرقها خرقًا ، إذ يُعدّ اعتداءً على مَنْ لا حَول له ولا طَول ، ولا ذنبَ ولا جَريرة . ثُمّ هو جُبنٌ واضحٌ ، إذ الشّجاعة أنْ يواجه الأسدُ أسدًا لا أنْ يواجه قِطًا ، وما زلتُ بهم آتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم حتّى اقتنعوا بما قلتُ ، وانفضّ سامرهم ، ورأيتُ أقفية الّذين جاؤوا من خارج مهجعنا كأقفية السّعادين وهم يُغادرون المكان مخذولين .

السّجناء هنا مساكين بالفعل ، لهم الله ، حينَ يمرض أحدهم يُفضّل أنْ يظلّ في برشه يتوجّع ، ويئنّ على أنْ يذهبَ إلى عيادة السّجن ، لأنّ الذّهابَ إلى العيادة لا يعود عليكَ بالنّفع أبدًا ، فالطّبيب ليس موجودًا دائمًا ، والدّواء شبه مفقود ، وإذا حصلتَ على حبّة (ريفانين) فستكون محظوظًا ، كانتْ هذه الحبّة تُستَخدم لعلاج الأمراض جميعًا بلا استثناء ، كان الطّبيب أو الممرّض يصرفها لأوجاع الأسنان والمعدة ، وأعراض القولون العصبيّ ، والسّعال ، والزّكام ، والجُذام ، والسّخام ، وحتّى الهُيام .. ما من مرضٍ يُطيفُ بك إلاّ وتصحبك فيه حبّة (الرّيفانين) هذه ، وكانتْ أعزّ مفقود ، وسعيدٌ من حصل عليها ولو بعد عشر زياراتٍ للعيادة .

طالبْتُ عبر ستّ سنواتٍ قضيتُها أمينًا لمكتبة سجن سواقة بتزويد المكتبة بالكتب ، وقدّمتُ ما لا يقلّ عن ثمانين استدعاءً ، وواظبْتُ على تقديمها طَوال عشر سنواتٍ مثل عسكريّ يُواظب على تقديم التّحيّة لقائد الجيش كلّما مرّ بجانبه ، ولم أيأس أو أملّ ، واجتهدتُ أنْ أغيّر صيغة الاستدعاء في كلّ مرّة حتّى يكون جذّابًا ، وكنتُ أقول عسى

وعلّ هذه الصّيغةُ تناسب مقاماتهم أفضل من الصّيَغ السّابقة! وللأسف لم يُلبَّ إلاّ النّزر اليسير ، وبنسبة أقلّ من العُشر . لكنّني عوّضتُ شيئًا من ذلك النّقص ، والشّحّ في الموارد ، برفد المكتبة بالكتب الّتي تأتيني من الخارج . كانتْ أمّي وفاطمة هما بطلَتَي هذا الأمر كُنتُ في كلّ زيارة أحمّلهما قائمةً بالكتب الّتي أحتاجها ، ويشهد الله أنّ الظّرف المادّيّ كان صعبًا ، ولكنّهما لم يتوانيا مرّة واحدةً عن تلبية طلباتي ، كانتْ فاطمة تقول : «الكتاب الّذي تقرؤه يُقرّبك منّي ، إنّه تعويذة الحُبّ بيننا» . وتجتهد ما استطاعت أنْ تقرأ الكتاب نفسه قبل أنْ تُدخله إليّ هنا ، هذه القراءة المُشتركة كانت تُوجِد بحسب رأيها نوعًا من التّواصل الرّوحي والمعرفيّ والمادّيّ أحيانًا ؛ ألم تقع عيوننا على الكلمات نفسِها ، ألم تقلّب أصابعنا الصّفحات ذاتها؟ فذلك الّذي يُدنينا إلينا

لم يكن المحامون والمهندسون والنقابيّون الّذين دأب بعضهم على زيارتي يبخل بذلك أيضًا ، ولا صديقي التّاريخيّ علي السّنيد ، ولكنّني كنتُ أقتصدُ في الطّلب منهم خجلاً . وهل في المعرفة خجل ، لكنّ ذلّ السّؤال يبقى ذُلاً على الرّغم من القوّة الدّافعة المُشجّعة عليه ، والهدف السّامي الّذي يُبتغَى الوصول إليه بسببه!!

(٥٦)
مَنْ راقبَ النّاس ماتَ همّاً

استقبلتُ الوفد النّيابيّ الّذي جاء ليزورنا في السّجن ، كنتُ أعرفُ أنّ كلّ ما سأقوله لهم لن يتحقّق ، سيستمعون لي وأنا أشرح لهم وسيَطيرون بما قلتُه لهم ليُطالِبوا به ، وسيرتفع به صوتُهم تحتَ القُبّة ، وستتناقله وسائل الإعلام ، وستنشره بعض الصُّحُف بخطوط عريضة في صباحاتها ، ولكنّ شيئًا منه لن يتحقّق ، لأنّنا نُحبّ التّخلّف ، نحبّ أنْ نظلّ في الذّيل ، نحبّ أنْ يظلّ الإنسان في بلادنا ضائعًا تائِهًا ، تدوسه الأرجل ، وتركله الأقدام!! وماذا يُمكن أنْ تكون مُطالباتي للوفد النّيابيّ ، إنّها تنحصر في شيئَين اثنين فقط ، وهما شفاء الجسم والعقل ؛ الأدوية والكتب . بعد سنين من تلك المُطالَبات ؛ ظلّت الأدوية تُباع للمساجين الفقراء الّذين لا يملك أحدهم في السّجن فلسًا واحِدًا ، وظلّت الكتب بينها وبين السّجن حِجاب ، بل وصُودِر ما كان بحوزة بعض المساجين!! إنّنا ننحدر يا سادة ، ننحدر على الأصعدة كافّة

أطلعتُ الوفد النّيابيّ على المصائب الّتي تحدث هنا ، أردتُ لهم أنْ يعرفوا أنّ العالم ليس القبّة الّتي يجلسون على كراسيّ وثيرة تحتها ، ولا السّيّارة ذات النّمرة الحمراء الّتي يقودونها ، ولا المناسبات والدّعوات والمؤتمرات الّتي يحضرونها ، ولا المناسف ذات الدّسم الّتي يأكلونها ، هناك عالَمٌ آخر موجودٌ وهو أكثر واقعيّة ، ويُمثّل كثيرًا من الشّعب

المُغيَّب عن كلّ شيءٍ . ولا يُوجد تمثيل للواقع أصدق منه في السّجن ، ذلك أنّ السّجين يخلع قناع الزّيف الّذي كان يلبسه خارج السّجن ، ويظهر على طبيعته داخله ، فهو لا يستحي مِمّا قام به ولا يتستّر خلف غلالةٍ سوداء ، لأنّه سجين محكومٌ في القضيّة ويريد أنْ يعيش ما تبقّى له في مجتمع السّجن ويخرج

كان بعضُ رجال الشّرطة يومها يقومون بتهريب المُخدّرات إلى داخل السّجن ، وبيعها بأسعار خياليّة كان رجال الشّرطة يُفتَّشون مثل النّزلاء في بداية دوامهم قبل أنْ يدخلوا إلى السّجن ليستلموا مواقعهم في الحراسة وغيرها ، لكنّهم مع ذلك كانتْ لديهم طرق لإدخال حبوب المُخدّرات لا تخطر ببال أحدٍ ، وكانت الحبّة الواحدة يصل سعرها إلى (١٠) أو (١٢) دينار ، فيما الشّرطيّ يشتريها من الخارج بنصف دينار ، وخلال أسبوع واحدٍ يكون الشّرطيّ قد ربح من وراء تجارته هذه أكثر من راتبه . السّؤال الأهمّ ليس كيف أدخلت الشّرطة المُخدّرات إلى السّجن ، بل السّوال الأهمّ هو : لماذا تُدخل الشّرطة هذه المُخدّرات إلى السّجن؟ لماذا يُغامر شرطيّ هذه المغامرة الّتي يعرف أنّ نتائجها لو اكتُشفت ستكون كارثيّة؟ سيُسجَن ، وسيُطرد من الخدمة ، ولن يحصل على أيّة تعويضات . هل هو الطّمع والرّغبة في الحصول على المال بأسرع الطّرق؟ هل هو قلّة الأمانة؟ هل هو الوضع المادّيّ الصّعب الّذي كان يعيشه الشّرطيّ يومئذ؟ ثُمّ السّؤال الّذي يُسأل هنا أيضًا : لماذا يُريد المساجين الحصول على المُخدّرات ، وقد جاءتهم فرصةٌ ذهبيّة لكي يتركوها ويتخفّفوا من تبعاتها ومن أعراض الانسحاب فيها ولو بالألم وبالتّدريج؟ لماذا كان يشتري المُخدّرات في السّجن يومئذٍ مَنْ لم يُجرّبها من قبل؟ هل هي الرّفقة السّيّئة؟ أمْ أنّ السّجين كان يهرب من واقعه ،

ومن همومه ، ومن قيوده بأنْ يرمي نفسه في وادي الموت؟!

لم تكن المُخدّرات يومئذٍ مُصيبة السّجناء والشّرطة وحدها ، كان هناك تهريب الموادّ الحادّة ، مثل السّكاكين والشّفرات ، وإنْ كان بدرجةٍ أقلّ ، وسيظهر أنّ ذلك كان يجري من تحت الغِطاء وأنّ السّجن على مدى سنوات سيكون قد امتلأ به حين تقع الاضطرابات الكبيرة الّتي شهدتْها السّجون كلّها في أواخر مكوثي في سجن سواقة . كان الحصول على شفرات الحلاقة يتمّ عن طريق الشّرطة وبالعَدّ وباسم كلّ نزيلٍ يريد أنْ يحلق ذقنه أو أيّ شيءٍ آخَر ، لكنّها فيما بعد توسّعت إلى الحدّ الّذي صارت الشّفرات بتعدّد أحجامها وأنواعها تُستَخدم للابتِزاز وللتّهديد للحصول على المال بين السّجناء أنفسهم ، وتأتي من الخارج . لدينا تجارة رابحة هنا يا سادة!! لدينا سوق سوداء ضخمة أيّها الطّيّبون!! هل أتاكم نبأ حجم الاستثمارات هنا ، وحجم حركة الشّراء والبيع والمُقايضة يا قوم؟!

انتشر الخبران في الصّحف ، وتحت القُبّة ، ووجّهتْ تحذيرات خفيّة إلى الشّرطة من قادتهم ، وبدأتْ حملات التّفتيش عليهم ، ومراقبة من يُشكّ فيه ، وبالفعل ضُبِط بعضُهم ، وخاف بعضهم الآخَر ، وحقد عليّ قسمٌ غير قليلٍ منهم ، فأنا بتصريحاتي للوفد النّيابي أكون قد رفعتُ عنهم الغِطاء ، وقطعتُ أرزاقهم ، وهم يحفظون العبارة الّتي لا يهمّ في أيّ رزقٍ سيقتْ فيه حتّى ولو كان حشيشًا من صنفٍ جيّد : «قَطْع الأعناق ولا قَطْع الأرزاق»

كان يومًا كانونيًا باردً ، حينَ كنتُ أجلسُ في المكتبة ، كنتُ أغلق النّوافذ اتّقاء البرد القارس ، وعلى النّوافذ تتناهَى إليّ أصواتُ حبّات المطر تطرق الزّجاج مع كلّ هُبوبٍ للرّيح . لم يكنْ هناك من شمسٍ

تُدفِئ القاعة أو تُنيرها ، كان شيءٌ من العتمة الهادئة ، والضّبابيّة المُحزنة يلفّ المكان ، ويُغلّف روحي بقشرةٍ حريريّةٍ من الأسى ، لم يكنْ لي من صديقٍ يومَها ، لا علي ، ولا ليث ، ولا ربحي ، ولا المهندس الحكيم ، ولا غالب ، كثيرٌ منهم كان قد أُفرج عنه ، وغادر هذا المكان إلى فضاء الحرّيّة ، وبعضُهم غادر إلى القبر ، رحمات الله عليه ، ومع ذلك لم أكنْ وحدي ؛ كنتُ بصحبة كتاب ، وكانت رواية (القرين) لدستويفسكي ، كنتُ منهمِكًا في قراءتها ، بل وبكيتُ في المقطع الّذي يقول فيه بطلها المُصاب بالانفِصام (جوليا دكين) لطبيبه النّفسيّ الّذي يجلس قُبالته مُصغيًا بروح مريضةٍ هو الآخَر : «نعم لي أعداء ، أعداء عُتاة آلَوا على أنفسهم أنْ يُضيّعوني» حينما دلفَ إليّ شرطيٌّ لم أره من قبلُ في السّجن ، يبدو أنّه من العناصر الجديدة الّتي أوكلتْ لها مهامّ مكان القديمة . سلّم ، فظننتُ أنّه يريد أنْ يستعير كتابًا ففرحتُ . لكنّه لم يقلْ شيئًا ، دار من أمام المكتب نحوي ، وهو يلتفتُ يمنةً ويسرةً ، وخلفه مُستريبًا ، فأرابني معه ، واقترب منّي أكثر حتّى شعرتُ بلَفحِ أنفاسه ، همسَ في أذني ولم يكنْ معنا أحدٌ في المكتبة ليسمع : «هُناكَ مُؤامرة تُحاك ضِدّك» . لوهلة تخيّلتُ أنّني (دكين) نفسه ، وأنّ هذا الّذي يُحدّثني هو الطّبيب ، اختلط عليّ الصّوتُ والفهم ، فهززتُ رأسي علامةً على أنّني لم أفهم ما يقصد ، فتابع «إنّ عددًا من الشّرطة قرّر توريطك بقضيّة» فهتفتُ بلا وعي : «لي أعداء» . فظنّ أنّني أسأله فأجاب بصوتٍ خفيض : «نعم» ، فتابعتُ : « أعداء عُتاة آلَوا على أنفسهم أنْ يُضيّعوني» فهزّ رأسه بالإيجاب ، لم أكنْ أدري أنّني عِشتُ دور بطل القرين من الورق إلى الواقع في لحظةٍ واحدة . سألتُه : «وما القضيّة الّتي يريدون توريطي فيها؟» . أجابني : «أريدُ منكَ أوّلاً أنْ

تُقسِمَ على المُصحف بألاّ تذكُرني إذا سُئِلتَ ، أو أنْ تقول لأيّ أحدٍ أنّني أخبرتُك بالأمر» . تناولتُ المُصحف الموجود على طاولة المكتب أمامي ، رفعتُه حتّى صار بيني وبينه ، أدنيتُه من شفتَيّ ، قبّلتُه قبلةً عميقة ، ثُمّ وضعته على سطح المكتب ، وبسطتُ يدي فوقه ، وأقسمت . أخذ الشّرطيّ نفسًا عميقًا ، ونظر حوله مرّتين ليتأكّد من جديدٍ أنّنا وحدنا ، وقال : «إنّ عددًا من الضّبّاط مستاؤون جدًا من تصريحاتك للوفد النّيابيّ ، إنّهم يعتقدون أنّكَ أغلقتَ الطّريق في وجههم ، وخرّبتَ عليهم تجارتهم . لقد كانوا يجلسون في مكتب رئيس القسم ، وقالوا : إنّ أحمد فضحنا ، ويجب أنْ نورّطه بقضيّة من أجل إسكاته والتّخلّص من نطنطاته ، فاقترح أحدهم بأنْ يُرسِلوا لك سجينًا يقوم بضربِكَ بواسطة مِشرط في وجهك ، فيترك فيه أثرًا إلى الأبد ويبقى يُذكّرك كلّما نظرتَ في المرآة عاقبة مَنْ يقف في وجه سادته ، ثُمّ عند المثول أمام لجنة التّحقيق في الأمر يقول ذلك السّجين إنّه قامَ بضربك بالمشرط في وجهك لأنّكَ تحرّشْتَ به جِنسيًا وقُمتَ بمراودته عن نفسه . وبهذا يُشوّهون سمعتك ، ويتركون على وجهك علامةً لن تزول . لكنّ أحد الضّبّاط اعترض على هذه الطّريقة ، ليس رحمةً أو تعقّلاً ، ولكنْ لحساسيّة قضيّتك ، فقضيّتك مرتبطة بالأمن القومي ، وإذا ما حدث لك شيءٌ فستقوم المخابرات نفسها بالتّحقيق فيها ، وهذه فيها مُحاولة قتل ، ومحكومٌ عليها بالفشل . فعدلوا عن قضيّة المِشرط وتشويه الوجه ، إلى تشويه السّمعة ، فقالوا يقوم السّجين الّذي سنختاره لتمثيل هذا الدّور بتقديم شكوى تحرّش جنسيّ ضدّك . ثُمّ اقترحَ ثالثٌ اقتراحًا أنفعَ لهم من هذين الاقتراحَين ، وهو أنْ يدسّوا كمّيّةً من المُخدّرات في بَرْشِك وبين أغراضك ، ثُمّ يقومون بعمليّة مُداهمة

لمهجعك ، ويستخرجون المُخدّرات ، ويعرضونها أمام الملأ ، وتُلفّق لك قضيّة الاتّجار بالمُخدّرات وتعاطيها ، ويشيعون في السّجن وخارجه أنِ انظروا إلى هذا الّذي يدّعي مكافحة المُخدّرات هو أوّل مَنْ يتناولها ويبيعها ، وانظروا إلى مَنْ صدّع رؤوسنا بالمقاومة ، والنّضال من أجل فلسطين ، إذا بهذا المناضل ينكشف في النّهاية ويتبيّن أنّه حشّاش ، وصاحب كيف ، ويتعاطى» . قال الكلمة الأخيرة ، وخرج . جذبتُه من ذراعه قبلَ أنْ يُغادِر ، قبّلتُه على رأسه ، وتركتُه ينسرب من الباب كأنّه ألقى بأثقاله بين يديّ وغادَر .

بهدوء ، وعلى سطح مكتبي الّذي أجلس إليه ، والشّمسُ غائمة ، والبرد يذبح ، والرّؤى تختلط ، تناولتُ الورقة والقلم ، وكتبتُ تقريرًا بالّذي سمعتُه إلى مدير السّجن ، حاولتُ أنْ أجوّد خطّي ما استطعت ، استغرقَ الأمرُ منّي ساعةً ، ثُمّ نسختُ منه نُسخةً أخرى لرئيس فرع الأمن الوقائيّ في السّجن . خرجتُ من المكتبة ، ونزلتُ إلى الإدارة ، سلّمتُ النّسختَين كأنّني أسلّم مفاتيح الكعبة للسّدَنة ، وغادرتُ إلى مهجعي . قضيتُ اللّيل بأكمله وأنا أنسخ منه عشرات النّسخ حتّى الصّباح ، في الصّباح طُفتُ على المهاجع ، وزّعتُ على شاويش كلّ مهجع نُسخة ، اقرؤوا ، أنا في حِلٍّ من كلّ شيء إذا حدث لي شيءٌ ، وأنا أحمّل المسؤوليّة لضُبّاط الأمن هنا ، ولحُرّاس السّجن ، كانت خُطوةً استباقيّة ، جرّبتُ فيها كيف يكونُ ألم الأصابع من طول الكتابة ، وجَمال الرّاحة بعد الضّيق من الكرب الشّديد ، وتبرِئة ساحتي ، وتسييجها من أنْ يطأها أيّ نَذْل أو جبان ، أو يمسّها بسوء .

في الظّهر ناداني مدير السّجن ، كان مُتعاطِفًا معي ، المُديرون الطّيّبون يتغيّرون بسرعة ، قال لي : «لن يحدث لكَ أيّ مكروه ما دمتُ

أنا هنا ، سأجمع الضُّبّاط وأحذّرهم ، وإنْ حدث لا سمح الله لك شيءٌ فسأعرف كيفَ أحاسبهم ، أمّا أنتَ فُكنْ ما تشاء لا يهمّني ما تكون ، ولكنْ كُنْ عادِلاً مع نفسك وصادقًا ، تحفظْ لها هيبتَها ، وربّك خيرٌ حافِظًا» . لم أعقّبْ بكلمة ، وددتُ أنْ أشكره ، لكنّ الكلمات وقفتْ في حلقي . أدرتُ ظهري بحركةٍ عسكريّة ، وخرجتُ .

بعد تسعة أشهر من تلك الحادثة ، كنتُ قد عرفتُ حركة التّنقّلات في السّجن ، مراقباتي المُستمرّة ، والنّظر في كُنه الأمور ، طول العهد بالشّيء يُورث عُمق العلم به ، كانت عبارة الشّاعر القديم : «مَنْ راقبَ النّاس مات همّا» ليستْ صحيحةً تمامًا في حالتي ، وإنْ كان شطرُها الثّاني أصحّ ، حينَ قال : «وفازَ باللّذّةِ الجَسورُ» . لكنّني لم أفزْ باللّذّة ، بل بثمرة النّصيحة ، أنْ تقول الحقّ يعني أنْ تصنع لكَ مزيدًا من الأعداء ، وأنْ تسير في طريقه يعني أنْ تُقلّل عدد السّائرين فيه معك . ولكنّ سنّة الله أنّ القلّة المُؤمنة أيًا كان نوع إيمانها تغلبُ الكثرة الكافرة أيًا كان مستوى كُفرها

كان الشّرطة القُدماء يتحوّلون إلى أصدقاء للمُجرمين العُتاة ، كان بعضُ هؤلاء المُجرمين يملك مالاً ، وخاصّة تُجّار المُخدّرات ، وكانوا قادرين إلى التّسلّل إلى بعض النّفوس المريضة من الضُّبّاط ، يُغرونهم بالمال ، والمال ما سُمّي كذلك إلاّ لأنه يُميل القلوبَ ، وتذكّرتُ مَنْ قال : «رأيتُ النّاسَ قد مالوا .. إلى مَنْ عندَهُ مالُ» ، وبالمُعاشرة الطّويلة ، وبالوعد بالنّقود اللاّمعة يبيع بعضُ مِراض النّفوس أنفسهم ، مِن هُنا كان المُجرمون يتسلّلون إلى جِدار الأمن ، ويثقبونه ، ثُمّ تنهال من بعد الحبوب المُخدّرة وكلّ الممنوعات . ضُبِطَ أحدُ الضّبّاط مرّة متلبّسًا ومعه كمّيّة كبيرة من الحبوب المُخدّرة ، وكمّيّة من الحشيش ،

ومجلّة إباحيّة!! دخلتُ إلى مدير السّجن، قلتُ له «إنّ ضُبّاطكَ وعناصرك يقعون في تجاوزات خطيرة». فاجأته عبارتي التّقريريّة، هزّ كتفيه مُتضايقًا، سألني وقد اعتاد على صراحتي: «مثل ماذا؟». أجبتُه كأنّني أعددتُ له الإجابة: «تهريب المُخدّرات، والعلاقات المشبوهة، والرّشاوي، والحشيش، وحبوب الهلوسة، ومجلاّت الجنس». سألني بنوع من السّخرية: «وماذا تقترح؟». أجبتُه بمزيدٍ من الثّقة: «إجابتك هذه تعني اعترافك بالمُشكلة، واعترافك بوجود المشكلة أوّل خطوات حلّها، فأقترح أنْ تغيّر ضُبّاط السّجن وشرطته كلّ ثلاثة أشهر، ولا تبقيهم هنا أكثر من ستّة أشهر في أسوأ الظّروف، إنّ التّجديد أولاً يعني الحيوية، وبثّ دماء جديدة في كلّ مرّة، وثانيًا يمنع التّجاوزات الّتي حدّثْتُكَ عنها».

بعد أقلّ من شهرَين على تلك الحادثة، وجدتْ كلماتي الّتي ألقيتُها على مسامع مدير السّجن صدًى؛ تمّ تغيير ٩٠٪ من ضُبّاط السّجن وأفراد شُرطته. وانبثقتْ دماءٌ حارّة في قلبي، سيظلّ الأمرُ جيّدًا على الأقلّ لستّة شهور، قبل أنْ تُكرّر المآسي السّابقة دورتها!

(٥٧)
حُمّى القراءة

في أواخر عام ٢٠٠٤ بعثتُ برسالة إلى رئيس الوزراء، لكنّها لم تصله، للبيروقراطيّة الّتي تتّسم بها معاملاتُنا وروح العرب بشكلٍ عامّ. ظلّتْ نُسخةٌ منها مخطوطةً عندي خمسةَ أشهر، حينَ سنحت الفرصة لإيصالها إلى صاحبها في أيّار من عام ٢٠٠٥، كان رئيس الوزراء قد تغيّر، وجاء رئيس وزراء جديد، لكنّني وجدتُ أنّها صالحة حتّى لهذا الجديد، واكتشفتُ أنّ التّركة الّتي يستلمها الجديد من القديم لا تتغيّر، ذات المآسي، والمشاكل، والترهّلات، إذًا فماذا يفعل رؤساء الوزراء الجدد؟! إنّهم يستمتعون بعضَ الوقت ويُرفّهون عن أنفسهم، ويملؤون جيوبهم باللّوز، ريثما يأتي قرار بترحيلهم إلى مجلس الأعيان، أو إلى إدارة شركاتٍ كُبرَى، الدّورة الوزاريّة عندنا في الأردنّ تكاد تكون محفوظةً لكلّ النّاس، حتّى لطالبٍ في الصّفّ الثّالث الابتِدائيّ

«دولة رئيس الوزراء المُفخّم..

فإنّني أبعثُ برسالتي هذه وأنا أقبع في ليالي الظُّلم والظّلام، وفي غياهب الحقد والانتِقام.. وكلّ ذلك لِماذا؟ ألأنّني أعلنتُ غضبي وسَخَطي على مَنْ دنّسَ الأرض والعِرض، وعلى مَن استهان بالعِباد والبلاد، وعلى مَنْ ليسَ له عهدٌ ولا مِيثاق، وليس يحكمه وعدٌ ولا اتّفاق.. كلّ ذلك لماذا؟ ألأنّني تمرّدتُ على عجزكم فتكلّمْتُ بالرّصاص والقصاص، في زمن صمتكم المُخزي الّذي تقوده الشّعارات

الغاوية ، والمعاني الخاوية ، والحناجر العاوية . ومن الصّلافة أنْ يُطلَبَ منّي أنْ أُقدّم استرحامًا واعتذارًا من أجل الإفراج عنّي؟ فأيُّ طلبٍ هذا؟! وأتساءَل وكُلّي عجبٌ ؛ أُقدّم اعتذراي على ماذا ولماذا؟ الأنّني انتصرتُ للدّم العربيّ النّازف في فلسطين ، ولدمعةٍ ثكلى يحرقها الأنين ، ولصرخةِ عانٍ سحقتْه رحى السّنين ، وللوعةِ منفيٍّ يُمزّقه الحنين . . أُقدّم اعتذاريَ على ماذا ولماذا يا مُدمني التّبعيّة والرّقّ . . .»

والرّسالة طويلة ، وسيُتاح لكم يومًا أنْ تقرؤوها ، وأنْ تُدرِكوا مراميها إذا ظلّتْ بوصلة القلبُ تنبضُ في اتّجاهها الصّحيح

لا بُدّ من خلوةٍ وإنْ طال السّجن ، ولا بُدّ من تأمُّلٍ وإنْ وقفتْ في وجهك الجُدران ، كنتُ لا أزال أعيشُ اللّذّة بمحاورة العظماء في كتبهم ، عامًا كامِلاً هو عام ٢٠٠٥ صرفتُه كلّه في قراءة التّاريخ والسّير الذّاتيّة ، قرأتُ كتاب (أعلام من الأردنّ) ، وفيه تعرّفتُ عن قربٍ على وصفي التّلّ ، وهزّاع المجالي ، وسليمان النّابلسيّ . وقرأتُ بعده مذكّرات الحاجّ أمين الحُسيني ، غيّر الكتاب فِكرتي عن هِتلر ، فصرتُ أحترمه كنتُ جالِسًا في المكتبة عندما وجدُتني أقوم برسمِ صورةٍ له ، شاربه الذّبابيّ ، وعيناه الحادّتان ، وشعره الكثّ المُسبَل ، ووجهه البارد كأنّه قِطعةٌ من الشّمع . بعدَ ساعتَين من إعمال قلم الرّصاص في لوحة الرّسم ، خرجتُ بصورةٍ لا بأس بها ، حملتُها بين يديّ بعد أنْ أغلقتُ المكتبة ، وعدتُ إلى مهجعي ، في الطّريق كنتُ أفكّر على أيّ حائطٍ سأضعها هناك ، قلتُ : على الحائط خلفَ برشي حتّى لا يحتجّ أحدٌ ، حين صرتُ في مواجهة الحائط إيّاه ، عنّ ببالي أنْ أؤجّل الموضوع حتّى أسأل المرشد الدّينيّ في حُكم تعليق صورته ، أو أنْ أسأل أهل العلم ، فإنْ وجدتُ مخرجًا شرعيًا لتعليق صورة شخصٍ لا للتّعظيم بل

للذّكرى فـسأُبادر إلى ذلك ، كان احترامي لهتلر منبعه أنّه عرف كيف يتعامل مع اليهود من جهة ، وفَهِمَ نفسيّة العرب من جهة أخرى ، قال عنهم : «العرب لن أقاتلهم ، سأدعهم للزّمن كي يقتل بعضُهم بعضًا»

من بعده فرغتُ أسبوعَين كاملَين لأقرأ كتاب (ثورة ١٤ تموز في العراق) ، استغربْتُ في البداية أنْ يكون كتابٌ كهذا فوق رفوف السّجن ، لكنّني تذكّرتُ أعمال الصّليب الأحمر فعرفت . وقرأتُ من بعده بشكلٍ مُتتابع كتاب (كفاحي) لهتلر ، ساقتْني إليه مذكّرات الحاجّ أمين الحُسيني ، ثُمّ قرأتُ سيرة نابليون ، وعطفتُ على العبقريات للعقّاد فلم أُبقِ منها عبقريّة دون أنْ أقرأها من أوّلها إلى آخرها ، ثُمّ ذهبتُ إلى كتب التّاريخ المُقسّمة حسب الفترات السّياسيّة ، فقرأتُ التّاريخ الأمويّ ، ومن بعده ذهبتُ إلى التّاريخ العبّاسي ، وعرفتُ أنّ التّاريخ لا يُعيد نفسه ، بل التّاريخ هو التّاريخ وأنّ البشر هم الّذين يُعيدون أنفسهم .

واستمرّ شغفي بالتّاريخ على نحو مجنون ، فقرأتُ في ثلاثة أشهر تاريخ ابن كثير المعروف بـ (البداية والنّهاية) وأتيتُ على أجزائه الثلاثة عشر ، وأحزنني أنّه مات في ٧٧٤ هجريّة ، وتمنّيتُ لو أنّه جاء في عصرٍ متأخّرٍ أكثر لأقرأ مزيدًا من الأحداث ، وخاصّة أنّ أحداث الدّولة العثمانيّة وتاريخها لم يكنْ له نصيبٌ من كتب السّجن . في البداية والنّهاية ، عرفتُ أنّ المآسي لا حدودَ لتخيّلها ، وأنّ النّوائب ليس لها وجه واحدٌ ، بل هي بألفِ ألفِ وجه ، وقرأتُ من فظائع البشر ما جعلني في لحظاتٍ أخجل من انتمائي إليهم ، وأصيح : هل هؤلاء آدميّون؟ قراءة التّاريخ هي قراءة الطّبائع البشريّة في حيوانيّتها ، بل إنّني أؤمن أنّ البشر ينحطّون إلى دركات لا تبلغها الحيوانات ، وأنّ من

الحيوانات ما هو أرحم وأعقل وأصوبُ فِعلاً من بعض البشر كان التّاريخ يقول عبارةً واحدةً : (لا مهربَ من الحرب) كأنَّ الحرب قدر الإنسان الّذي هبط إلى الأرض . والإنسان الّذي يتغنّى بأنّه صانع الحضارة ، هو ذاته الّذي ينسى أنّه صانع الموت ، وأنّ حضارته قادتْ إلى هلاكه أكثر ممّا قادته إلى حياته ، وأنّ أحقاده الطّاغية الموروثة عن قابيل تتغلّب في نهاية المطاف على تسامحه الّذي يظهر خجولاً في محطّاتٍ نادرة . ولولا أنّ غريزة الجنس تُعوّض ما فُقِد من البشر في الحروب والمجاعات والأوبئة الّتي هي جميعها من صنعهم لهلكوا منذ فجر التّاريخ!

ثُمّ لم يتوقّف نهمي عن قراءة التّاريخ ، فرحتُ إلى كتاب (تاريخ بلاد ما بين الرّافدَين) فقرأتُ فيه حضارات الشّعوب البابليّة والأكاديّة والسّومريّة والآشوريّة . . . وغيرها . ثُمّ قرأت كتاب الدّكتور غازي الرّبابعة (الإستراتيجيّة الإسرائيليّة) ، ومنه عرفتُ كيفَ بعنا نحن العرب الضّفّة الغربيّة والقدس والجولان وغزّة ، وفتح الكتاب الباب لي على مذكّرات عبد الله التّلّ ، وإنْ لم أجدْها في السّجن ، وسعيتُ جاهِدًا أنْ أحصل عليها عن طريق أمّي أو فاطمة .

ثُمّ حننتُ في السّنة الّتي تليها في عام ٢٠٠٦ إلى ما بدأتُ به قراءاتي في العقيدة والفقه والدّراسات الدّينيّة ، فقرأت كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزيّ ، وفيه تأكّدتُ من وحشيّة البشر ، ومن ضلالهم وانحرافاتهم حينَ لا تكون هناك رسالةٌ سماويّة تُنقذهم من الجحيم الّذي يقودون أنفسهم إليه ، ولعلّ أكثر الفصول الّتي أمتعتْني هي الفصول الّتي يتحدّث فيها عن تلبيس إبليس على الفلاسفة ، وفيه يتحدّث عن أقوامٍ يعبدون «الكواكب السّبعة وهي زُحل ، والمُشتري ،

والمرّيخ ، والشّمس ، والزّهرة ، وعُطارد ، والقمر . هي المُدبّرات لهذا العالَم وهي تصدر عن أمر الملأ الأعلى . ونصبوا لها الأصنام على صورتها ، وقرّبوا لكلّ واحد ما يُشبهه من الحيوان . فجعلوا لزحل جِسْمًا عظيمًا من الآنك أعمى يُقرّب إليه بثور حسن يُؤتَى به إلى بيت تحته محفور وفوقه الدّرابزين من حديد على تلك الحفرة ، فيُضرب الثّور حتّى يدخل البيت ويمشي على ذلك الدّرابزين من الحديد فتغوص رِجلاه ويداه هنالك ، ثُمّ توقد تحته النّار حتّى يحترق ، ويقول له المُقرّبون : مُقدّسٌ أنتَ أيّها الإله الأعمى المطبوع على الشّرّ الّذي لا يفعل خيرًا ، قرّبنا لكَ ما يُشبِهك فتقبّلْ منّا واكفِنا شرّك وشرّ أرواحك الخبيثة . ويُقرّبون للمُشتري صبيًا طِفلاً ، وذلك أنّهم يشترون جاريةً ليطأها السّدَنة للأصنام السّبعة فتحمل ، وتُترَك حتّى تضع ، ويأتون بها والصّبيّ على يدها ابن ثمانية أيّام فينخسونه بالمِسَلّ والإبر وهو يبكي على يد أُمّه فيقولون له : أيّها الرّبّ الخير الّذي لا يعرف الشّرّ قد قرّبنا لك مَنْ لا يعرف الشّرّ يُجانِسك في الطّبيعة ، فتقبّل قُربانَنا وارزقنا خيرك وخير أرواحك الخيّرة . ويُقرّبون للمرّيخ رجلاً أشقر أغش أبيض الرّأس من الشُّقرة ، يأتون به فيدخلون في حوضٍ عظيم ، ويشدّون قُيوده إلى أوتادٍ في قعر الحوض ، ويملؤون الحوض زيتًا حتّى يبقى الرّجل قائمًا فيه إلى حلقه ، ويخلطون بالزّيت الأدويةَ المُقوّيةَ للعصب والمُعفّنة للّحم ، حتّى إذا دار عليه الحول بعد أنْ يُغذّى بالأغذية المُعفّنة للّحم والجلد ، قبضوا على رأسه فملخوا عصبه من جلده ولفّوه تحت رأسه وأتوا به إلى صنمهم الّذي هو على صورة المرّيخ ، فقالوا : أيّها الإله الشّرّير ذو الفتن والجوائح قرّبنا إليكَ ما يُشبهك فتقبّل قُرباننا ، واكفِنا شرّكَ وشرّ أرواحك الخبيثة الشّرّيرة . يزعمون أنّ الرّأس تبقى فيه الحياة سبعة أيّام

وتُكلّمهم بعِلم ما يُصيبهم تلك السّنة من خيرٍ وشرّ .» . وتستمرّ مآسي البشريّة . وتقرأ فتحمد الله على العقيدة الواضحة النّقيّة الصّافية المُوحّدة . وتتساءل من أينَ جاء هذا الشّرّ كلّه ، وكيف استطاع الإنسان أنْ يخترع أساليبه الفظيعة هذه!!

ثُمّ عرّجتُ نحو سيرة ابن هشام ، وعلى ضخامة ما فيها من المعلومات ، وشساعة ما فيها من القصص الّتي يُمكن أنْ تُبنى على كلّ قصّة منها دراسةً قائمةً بذاتها ، وتُؤلّف في فقهها المُجلّدات ، فإنّ أكثر قصّة نفذت إلى سويداء قلبي ، وظلّتْ عالقةً في ذهني هي قصّة قُتَيلة بنت النّضر في أوّل الجزء الثّالث من السّيرة ، الّتي أُسِرَ أبوها النّضر في معركة بدر ، وكان مِمّن لم يُفادَ ، فأمر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بقتْله ، وكانت قُتيلة شاعرة ، فرثتْه بقصيدةٍ مُفجعة ، وقالتْها أمام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ومعه أبو بكرٍ يسمع ، ومِمّا قالتْ :

هل يَسْمَعَنّي النّضر إنْ ناديتُهُ
أمْ كيفَ يسمعُ مَيّتٌ لا ينطِقُ
أمحمّدُ يا خير ضنْءِ كريمة
في قومِها ، والفحل فَحْلٌ مُعرِقُ
ما كانَ ضَرّكَ لو مَنَنْتَ وربّما
مَنّ الفَتى وَهْوَ المَغيظُ المُحنَقُ
فالنّضْرُ أقربُ مَنْ أسَرْتَ قرابةً
وأحقّهم إنْ كانَ عتْقٌ يُعتَقُ
ظلّتْ سُيُوفُ بني أبيه تَنُوشُهُ
للهِ أرحامٌ هُناكَ تُشَقّقُ

فيُقال إنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، رقّ قلبُه لِما سمع ،

وبكى ، ثُمَّ التفتَ إلى أبي بكر وقال : «يا أبا بكر ؛ لو بلغني هذا قبلَ قتله لَمَنَنْتُ عليه» . ويُقال إنَّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم نهى عن قتل أسرى قُريشٍ بعدما سمع القصيدة .

ثُمَّ ذهبتُ إلى التّفسير ، فأتيتُ على تفسير ابن كثير وكان يُعجبني تفسيرُه القرآنَ بالقرآن أو بالمأثور ، وساعدني ذلك على ربطٍ متينٍ في المعنى بين الآيات ، وقد اندهشتُ من كثرةِ الآيات الّتي تُفسّرها آياتٌ أخرى . ثُمَّ وقفتُ طويلاً عند (في ظلال القرآن) لسيّد قطب ، فأعطيتُه قلبي كلّه ، كان موجودًا داخل مكتبة السّجن ، أخذتْ منّي قراءته ما يقرب من سبعة أشهر ، قرأته كاملاً ، ثُمَّ حصلتُ على نُسختي الخاصّة منه بعد ذلك بشهر . ظلّ رفيقي حتّى رحلتُ من سجن سواقة إلى ما تبقّى من عمري في السّجون الأخرى . ولاحقًا في عام ٢٠١٠ سأكون قد قرأتُه مرّة ثانية ، ثُمَّ ختمتُ قراءته للمرّة الثّالثة في عام ٢٠١٢ ، هو تفسير ممتع ، وأفضل ما فيه أنّه يأخذ بيدك حتّى تعيش الحدث ، ولا يترك لك مجالاً لكي تشتّ أو تسرح . أفكاره كانتْ متسلسلة ، وكنتُ أنسى نفسي معه ؛ ما ميّزه عن سواه أنّكَ إذا قرأتَ تفسير آية ، فإنّه يُعيشُكَ في ظلالها ، ويُسبِل عليك بأسلوبه الفذّ من فيء الكلمات العِذاب ، وعليكَ حتّى تثقف ما يقول أنْ تسمح لنفسك بالغوص في مفرداته ، مترابط لا يسمح لك بأنْ تخرج عن سياقه ، وتشعر أنّ مؤلّفه جالسٌ إلى جوارك يُحدّثك حديثه!!

في الحقيقة لم أكنْ مُغرمًا بقراءة الرّوايات كثيرًا ، وإنْ كنتُ قد قرأتُ بعضها في السّجن ، كانت هناك روايات ديستويفسكي ، وأندروفيتش ، ونجيب محفوظ ، وجرجي زيدان . ديستويفسكي كان مُميّزًا ، وكانتْ كلّ رواياته قد ترجمها سامي الدّروبي إلى العربيّة ،

وسامي ساعدني على أنْ أقرأ له أكثر من رواية ، وأنْ أتعرّف قليلاً على الأدب الرّوسيّ

سيّد قطب قادني إلى أخيه ، فقرأت لمحمّد قطب أكثر من عشرة كتب ، أذكر منها جاهليّة القرن العشرين وشُبُهات حول الإسلام . ثُمّ قرأتُ (الشهيد الحيّ) وهو عن سيّد كتبه الدكتور صلاح الخالديّ ، وقرأتُ كتابَ (الدّين أفيون الشّعوب) ، ثُمّ قرأتُ كلّ كتب ابن قيّم الجوزيّة ؛ كانت الرّوحانيّة العالية الّتي تتسّم بها المواضيع الّتي يطرحها تُساعدني في أنْ أصمد وفي أنْ أستمرّ ، كان الجمال الّذي يُخاطب العالَم غير المنظور المتمثّل في سطوره تجعلني أعشقُه وأعشق ما يكتب ، أتذكّر من كتبه الّتي ظلّتْ رفيقةً لي حتّى بعد أنْ أنهيتُها كتاب (زاد المعاد) ، وكتاب (حادي الأرواح) . ولم ينتهِ جوعي إلى القراءة يومًا واحدًا

ثُمّ عنّ ببالي أنْ أعود إلى التّاريخ والسّياسة ، فقرأتُ كتاب (الماسونيّة في العراء) لمحمّد الزّعبي ، وقادني المُؤلّف إلى كُتيّب آخر له هو (الماسونيّة مُنشِئة مُلْك إسرائيل) ، ثُمّ قادني من بعدُ إلى أنْ أقرأ كل ما أستطيع عن الماسونيّة ، وأذكر أنّني قرأتُ كتابًا آخر عن الماسونيّة لبطريرك مسيحيّ لم أعدْ أذكر اسمه لتقادم العهد كان ماسونيًا ثُمّ انقلبَ عليهم وعرّاهم . أمّا كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) فقد حفظتُ بعضَ فقراته لكثرة ما قرأته . ورأيتُ كيفَ كان المجانين والمعاتيه يحكمون العالَم في مذكّرات (مناحيم بيغن) الزّعيم الأشهر لفرق الموت والاغتيالات يُصبح الرّجل السّياسيّ الأول في دولة الكيان الإسرائيليّ الغاصب ، فهو يقول إنّ إنشاءه لمنظمة الأرغون السّفّاحة لم يكنْ قرارًا شخصيًا ، فقد جاء إليه الوحي ذات ليلةٍ بعد ساعاتٍ من

التّفكير على شكل غيمة ساطعة جدّاً أطلّ منها رأس طائر يُشبه تلك الطّيور الّتي تحدّثتْ عنها التّوراة ، ثُمّ ما لبثت الغيمة أنْ تحولّتْ إلى قطيع من النّسور ذات المناقير الفولاذيّة . . وممّا قاله له الطّائر التّوراتيّ : «لتكنْ على رأسِ هذه الطّيور ، ولْتبنِ بيتًا لبني إسرائيل» . وعندما أمر بيغن بتفجير فندق الملك داود في القُدس ، كان يشغل باله هاجسٌ واحدٌ فقط ؛ كيفَ ينسفُ فندقًا يحمل اسم نبيٍّ يهوديّ؟ وظهرتْ على وجهه آثارٌ مَرَضيّة وظلّ حائرًا أيّامًا لا يدري ما يفعل ، حتّى جاء ذات يوم وقد تهلّل وجهه ، وراح يردّد : «لقد شاهدتُ النّبيّ داود هذه اللّيلة وقال لي : «لا تتردّد في صُنع مجد إسرائيل . إنّ اسمي لا يعرف الطّمأنينة إلاّ إذا كانتْ قلوبكم مُطمئنّة» . وكانتْ هذه كلمةَ السّرّ الّتي جعلتْ فندق الملك داود ينهار بعد أقلّ من أربع ساعات فوق مئة نزيل!! وكان بيغن يعتقد أنّه أحد أنبياء اليهود الجُدُد ، أنّه لم يكنْ يتصرّف في أمور القتل والذّبح والإعدام والمجازر إلاّ بوحي . ثُمّ هو يُرغم زعماء العرب على أنْ يذلّوا بين يديه ، ويدخلوا بيتَ طاعته ، وتُمهّد مفاوضاته السّرّيّة معهم إلى العلنيّة ، فكيفَ لجيلٍ عربيٍّ مُسلم واعٍ أنْ يقبل بأنظمةٍ مثل هذه تضع رقبتها ورقبة شعوبها تحت مقصلة هذا السّفّاح الصّهيونيّ وأضرابه!! ثُمّ ها هو مسلسل المهازل يستمرّ ، فمنْ يوقفه!!

(٥٨)
كُنْ سَيفاً ضِدَّ الجَوْرِ

القراءة تُحيي ، وتُسعد ، لكنّها أيضاً تُمرِض ، أنّى لقلبِ عاشقٍ أن تكون له القدرة على أنْ يستوعب كلّ هذه الصّدمات ويتآلف معها ، أنّى له - وهو يرى ما تقع فيه أمّته من ذلٍ وهوان ، وانجرار خلف الأعداء بلا ثمن ، وانصِياع للقاتل في استسلام تامّ - أنْ يعيش هانئ البال أو مرتاحًا ، لقد صار «فؤادي في غِشاء من نِبال»

المرتحل يظلّ مستعداً للحظة الّتي يُنادَى فيها بالرّحيل ، يتخفّف من الأمتعة حتّى لا تُثقله ولا تُبطئه عن الغاية ، ثُمّ هو لا يحمل إلاّ ما يُبلّغه المَقيل ، هكذا كنتُ في سفرٍ دائم ، سفرٍ بيني وبيني في ابتعادي عنّي ، من صحرائي إلى جنّتي ، ومنهاً إلى صحرائي مرّة أخرى ، لا أستقرّ على حال ، ولا أنام على أيّ جنبٍ

صحوتُ كأنّ كلّ تماسيح أفريقيا تسبح على جلدي ، نهضتُ متثاقلاً ، رحتُ أهرشُ جسدي بشكلٍ هستيريّ ، كانتْ كلّ بوصةٍ في بطني وظهري تدعوني بشكلٍ وَقِحٍ إلى أنْ أحكّها . رفعتُ قميصي لأكتشف أنّه مليءٌ بالبُقع الطّافحة ، وبالغدد ، وبالفطريّات ، خضراء ، وحمراء ، وآثار الهرش الهستيريّ واضحة ، هُرِعتُ إلى الطّبيب ، الّذي حملقَ بعينَين مدهوشتَين لما رأى ، كان طبيب السّجن بسيطًا ، ليس لديه ما يقدّمه للمرضى ، ربّما كُنّا نحن نقدّم لأنفسنا أكثر ممّا تُقدّمه لنا عيادة السّجن ، كُنّا نشتري بعضَ الدّواء من الخارج ونعرف

استعمالاته أكثر من طبيب السّجن ، ونبيع ونشتري به لأنّ العيادة لم تكنْ توفّر لنا شيئًا منه ، والّذي يتوافر لا تُقدّمه لنا بل تبيعه ، وأحيانًا نتداوَى بالكلمة الطّيّبة ، فلا يبخل أحدُنا في استعمالها للآخَر لأنّ تأثيرها قد يكون أدوم من تأثير الأدوية والحبوب ، وأرقّ وأسلس . الشّفاء راحةُ بالٍ قبل أنْ يكونَ راحةَ جسد .

ضيّق الطّبيب عينيه ، وقال بلهجة العاجز نافضًا يدَيه : «لا أدري ما الّذي أصابك ، لكنْ يبدو أنّك بحاجةٍ للتّحويل إلى المستشفى بصورةٍ عاجلة» . سألتُه «هل تشتبه بشيء؟» . أجابني بلا مقدّمات : «خلايا سرطانيّة» . أنزلتُ قميصي . قلتُ له : «وماذا أنتَ فاعل؟» . «سأكتب كتابًا بتحويلك إلى المدينة الطّبّيّة في عمّان ، ليس لدينا مختبر لأخذ عيّنة من هذه الغدد لنفحصها» . أجبتُه مغتاظًا : «وماذا تملكون غير حبوب الرّيفانين وميزانًا مُعطّلاً؟» . هزّ رأسه محاولاً تفادي الدّخول في نقاشٍ عقيم معي ، وتابع بأسى : «هل أكتبُ لك على نقلٍ إلى المستشفى؟» . أجبتُه «كلاّ . أفضّل أنْ أموت هنا» . وخرجْتُ . كانت إجراءات النّقل مُهينة بشكلٍ لا يُوصَف ، إذ يتمّ تقييد السّجين الّذي يخرج للمستشفى من يدَيه ورجلَيه ، والمحكومون بالمُؤبّد مثلي يُرغَمون على ارتداء قناعٍ أسودَ على الرّأس كي لا يتمكّن من رؤية شيء ، وإذا كان الجوّ حارًا سبّب اختناقًا لا يُمكن الصّمود أمامه طويلاً قبل الوقوع في غيبوبة ، وبسبب حادثٍ قديمٍ فإنّ تقييد يدَي مع رجليّ يسبّب آلامًا في الظّهر والرّقبة ، إذ إنّني منذ تلك الأيّام أعاني من انزلاق غضروفيّ (دسك) ، كما أنّ رحلة العذاب عبر طريق الآلام من سواقة إلى عمّان ، تستغرق أكثر من ستّ ساعاتٍ ذهابًا وإيابا ، خلالها لا تحصل على كأس ماءٍ واحدٍ ، وتُنقَل في زنزانةٍ متحرّكة لا في سيّارة

إسعاف ، ولا يُسمَح للهواء بالدّخول إليك إلاّ عبر طاقة علويّة صغيرة لا تسمح للكفّ أنْ تعبرها لضيقها ، وقد تجلس على أرضيّة الزّنزانة حيثُ البول والفضلات لأولئك الّذين لم يملكوا قدرتهم في تحكّمهم ببولهم!!

قبل انتشار التّماسيح الأفريقيّة على جلدي ، كان الطّبيب قد أخبرني أنّني مُصابٌ بالسّكّريّ ، لم يكن الأمر جديدًا عليّ ، فأنا أعرف ذلك ، لكنّ الطّريف أنّه راح ينصحني بعدم الزّعل وألاّ أكون عصبيًا ، لأنّ ذلك كلّه يؤثّر على صحّتي ، لم أكنْ أعرف إذا كان الموقف يتطلّب منّي أن أضحك أو أبكي ، أعيشُ في غابةٍ من الوحوش ، وجيشٍ من المتربّصين ، والأعداء ، وأتعرّض لعشرات المُضايقات المقصودة في الشّهر ، ثُمّ يريد منّي أنْ أكون هادئًا ، أنْ أضحك للصّفعة ، وأبتسم للطّعنة ، مجتمع الذّئاب هذا لم يكنْ سهلاً أنْ تعيشَ فيه ما لم تُكشّر عن أنيابك ، ليتني كنتُ في مجتمع سليم ولم أكنْ في هذا المستنقع المريض الّذي نغرق فيه جميعًا لأكون قادرًا على الابتسام ولو مرّة واحدةً ، إنّني لن أتحوّل إلى وحشٍ كاسرٍ مثلهم ، ولكنّني أريدُ أنْ أسيّج حماي بالأشواك وبالرّماح حتّى لا يطأه أحدٌ من الجاهلين أو الحاقدين!!

لقد بدأ مسلسل الأمراض إذًا . لم استمع لنصيحة الطّبيب بشأن الغدد ، بقيتُ في السّجن ، عانيتُ ربّما شهرًا من الحكّة ، ومن نزيف الدّماء من الجروح والصّديد من القيوح ، لكنّني تماثلتُ للشّفاء من بعد ، ولليومِ لا أدري ما نوع المرض الّذي أصابني وقتها ، ولا مدى خطورته

الأعوام تمضي ، دولابها يدور ، تطحن ، ونحن قمحُها ، يد القدر تخبزنا ، وفم الموت يأكلنا . ها نحن ، ها أنا ، تسع سنوات من عمري تنقضي فيما أدري وفيما لا أدري . . . الأولاد يكبرون ، كلّهم دخلوا

المدارس ، لا أدري كيفَ تتحمّل أمّهم عناء تربيتهم وحدها ، إنّها جبّارة ، عليها أنْ تسهر على رعاية الثّلاثة في كلّ حينٍ ، الطّعام ، واللّباس ، والاستيقاظ إلى المدرسة ، وانتظارهم آنَ رجوعهم منها ، ومتابعتهم في دروسهم ، وإشعارهم أنّ لهم أبًا ينتظر يوم عودته إليهم . متى عرفوا أوّل مرّةٍ أنّ أباهم يغيبُ وراء القُضبان يا فاطمة؟ وأنّه ما فعل ذلك لأنّه لا يريد أنْ يكون معهم ، بل فعله لأنّه يُحبّهم . متى عرفوا أنّ أباهم كان لا يرضى الدّنيّة في دينه ، ولا يقبلُ الخيانة في وطنه ، ولا البيعَ ، وأنّه غير قابلٍ للمُساومة ، وأنّه غيرُ قابلٍ للتّطبيع أمام الأمواج الّتي تبتلع أبناء هذا الجِيل المسكين ، الّذي أرادوا له أنْ ينظر إلى القاتل على أنّه شريكٌ في الأرض وفي الماء وفي الهواء ، وإلى السّفّاح على أنّه ابنُ عمٍّ ويُمكن التّعايش معه؟! هل يُمكن أنْ تُبقي جذوة الحِقد في قلوبهم على اليهود ومَنْ يسير في ركابهم مُشتعلة؟! إنّني لا أريدُ لهم أنْ يكبروا دون أنْ يُدرِكوا أنّ التّفاوض مع الصّهاينة والمُتصهينين خيانةٌ ، وأنّ القَبول بهم طعنةٌ للعروبة ، وأنّ الرّضى بالعيش معهم وأنيابهم لم تجفّ بعدُ من دمائنا هو خروجٌ من ديننا الإسلاميّ العظيم . هل تُربّينهم على ذلك يا فاطمة؟! هل يقرؤون ما يقول الله عنهم ، والرّسول ، والشّعراء المُناضِلون؟ هل يحفظون مثلنا أيّام كُنّا في أعمارهم : «فلسطين داري . ودرب انتصاري . . .» ، أم أنّ مناهجهم مهّدت الطّريق للنّظر إلى اليهود على أنّهم أحبابُنا ، وأنّ مصيرنا واحدٌ ، وقدرَنا مُشترك ، كلاّ يا فاطمة ، لم يكنْ مصيرنا واحدًا نحن وهم أبدًا ، ولم تكنْ أقدارُنا مُشتركة يومًا واحدًا ، دعيهم يقرؤون من السيرة ما فعل بنو النّضير وبنو قينقاع وبنو قُريظة ، دعيهم يقرؤون ما صنعتْ خيبر ، دعيهم يقرؤون ما قالتْ غولدمائير ، إنّني أعرفُ أنّ شيئًا من هذا لن

يقرؤوه في كتبهم المدرسيّة ، ولن يجدوا شيئًا منه في مناهجهم ، ولكنّنا يُمكن أنْ نصنع لهم مناهجهم ، وأنْ نُقرِئهم التّاريخ الحقيقيّ ، الّذي يظلّ شاهِدًا علينا وعليهم ، ومن بعدها ، فليحكموا هم بأنفسهم . . . لقد كبروا يا فاطمة أليسوا كذلك ، لقد صار سيف ونور غلامَين يافِعَين ، وصارت بتول صبيّة حُلوة ، أليسَ كذلك؟ هل تنظرين في عيونهم فتُدركين أنّ الهلال لا بُدّ أنْ يصير بدرًا . . . ها هم يا فاطمة ، إنّهم يُغافِلوننا ، نحن العاشِقَين في غفلةٍ منّا ، ويكبرون ، يكبرون من خلفنا ، يدورون حولنا دورةً واحدةً ، فنراهم قد صاروا شبابًا ، إنّني أتوقُ إلى أنْ أراكِ وأراهم ، لقد ملأتْ أيّام السّجن روحي بالشوق الجارح ، ولم أعدْ أحتمل أكثر :

ابني سيف الدّين . . . ابني نور الدّين . . . ابنتي البتول . . .

أكتبُ لكم من وحي الكلمة الصّارخة ، في ضمير أمّتنا المقهورة . . . أكتبُ لكم من جروح بلادنا المغدورة . . .

مِنْ لَيلٍ قاسٍ يَصفعُها . . مِن تيه الحُزنِ
السّاكنِ فيها ودُجَى الأفكارِ المَأسُورَةْ
وطُبولُ النّصرِ الأروع تُقرَعُ في شتّى أنحاءِ فِلسطينَ الحُرّةِ . . .
رغمَ قُيودِ الغَدرِ المَذعُورَةْ
وبَشائرُ أمَلٍ تُولَدُ مِنْ رَحِمِ المَأساةِ المُرّةِ
رَغمَ لَيالي الكَبْتِ المَسعُورَةْ
أَكْتُبُ . . مِنْ أوْجاعٍ فِي دِجْلَةَ . . مِنْ كَشْمير . مِنْ كابُولِ
مِنْ لِيبْيا والشّيشان مِنَ الهِرْسك . . مِنْ صَبْرا والصّومال
مِنَ السُّودانِ مِنَ الجُولانِ . . وَمِنْ شَهَقاتِ بِلادي المَنْحُورَةْ
من بَرٍّ مِنْ بَحْرٍ مِنْ سَهْلٍ مِنْ تَلٍّ

مِنْ غَرْبٍ مِنْ شَرْقٍ
وَشَمال وَجَنُوبٍ
مِنْ أَيَّة ذَرَّةِ تُربٍ فَوقَ ثَرَى الإسْلام مَنْثُورَةْ
أَكْتُبُ وَأَرى أَصْوَاتَ العِزَّةِ فِي وَطَنِي بَدَأَتْ تَتعالَى
ثَائِرَةً تَتَحدَّى أَلَمَ الجُرْحِ الدَّامِي
وَسِيَاطَ الظُّلْمِ المَأْجُورَةْ
بِدُمُوعِ جُفُونِي المُشتاقَةْ
وَعُروقِ دمائي الدَّفَّاقَةْ
وَأَخُطُّ لَكُمْ ، بَلْ أَنْقُشُ فِي عُمْقِ الذِّكْرَى
كَلِمات تَتَحدَّى الطُّغيانَ وَتُعلِنُ ثورةَ نِقْمَتِها
ضِدَّ اسْتِعْمارِ شَهامَتِنا
ضِدَّ اسْتِيطانِ كَرامَتِنا
ضِدَّ اسْتِعبادِ إرادَتِنا
ضِدَّ البُهْتانْ
كَلِمات تَتَراقَصُ فِيها أَنْفاسُ الوَعْدِ الحَالِمْ
بِغَدٍ زاهٍ تُشرقُ فِي شُبّاكِ أمانيهِ شَمْسُ الأَوْطانْ
وَيُبَشِّرُ بِالمُسْتَقْبَلِ وَالفَرَحِ الآتِي المَوعُودْ
وَبِحُلْمِ الأَحْرارِ المَنْشُودْ
وَيُعيدُ البَسمةَ وَالبُشْرَى لِوُجوهٍ عانَقَها الحِرْمانْ
وَيُحَرِّرُ أَسْرَ أَغانينا
مِنْ سِجْنٍ يَغْرَقُ بِالأَحْزانْ

***

ابْني الغَالي سَيْفَ الدّين :

كُنْ سَيفًا ضِدَّ الجَوْرِ وضِدَّ الضَّيْمْ

وَنَصيرَ العَدْلِ التّائه في صَحْراءِ تَرَدِّينا

وأَزِيزَ الحَقِّ الصّارِخِ في لَيْلِ الجُبَنَاءْ

والمُقْلِقَ راحاتِ الدُّخَلاءْ

كُنْ سَيْفَ الدّينِ السّاطعِ في ظُلُماتِ غَياهِبِنا

في ظُلُماتِ حِصارِ الظُّلْمِ الجاثِمِ فَوْقَ كَرامَتِنا

كُنْ سَيْفًا :

يَمْقُتُ غِمْدَهْ

يُنْجِزُ وَعدَهْ

بَتّارًا في العَصْرِ الخانعِ ؛ عَصْرِ الرِّدَّةْ

***

ابني الغالي نور الدّين :

كُنْ نُورًا يَفْتِكُ بِالظُّلْمَةِ

وَيُضِيءُ دَياجِي المَحْزُونِينَ المَقْمُوعِينَ المَجْلُودِينْ

بِسِياطِ القَهْرْ

وَيُنيرُ طَرِيقَ الحُرِّيّةِ وَدُرُوبَ النَّصْرْ

كُنْ نِبْراسًا يَنْبُعُ مِنْ صَدْرِ الإيمانْ

وَهّاجًا مِثْلَ شُعاعِ الشَّمْسِ السّابحِ في الأَكْوانْ

لِتُتَرْجِمَ آهاتِ الغُرَباءِ المَكْتُوبَةْ

بِمِداد الوَجَعِ الأَسْوَدْ

وَتُعيدَ صِياغَةَ مَعْناها بِحُرُوفِ النُّورِ الأَبَدِيَّةْ

***

ابنتي الحبيبة البتول :

كُوني كَاسْمِك ؛ طَائعَةً قانتَةً لله مُنِيبَةً
مُصْغِيَةً لِلْحَقِّ بلا اسْتِكْبارْ
كُونِي قَلْبًا يَتَدَفَّقُ بِالرَّحْمَةْ
نَبْعًا شَلَالاً مِنْ إِحْسَانْ
وَسَمَاءً تُمْطِرُ فَوْقَ رُبُوعِ الخَيْرِ
أَمَانًا وَاطْمِئْنَانْ

(٥٩)
الغَرَقُ في المُستنقَع

السُّجناء يُلوّثون هذه الكتب، إنّهم يبولون على مقربةٍ منها، نوعٌ من الرّعاع لا يُمكن احتِماله، يأكلون البندورة فَغْشًا، وتندلقُ من أشداقهم مَرَقتُها، وقد يتطاير بعضُها على كتابٍ مُلقًى على برشي هنا أو هناك فيُدنّسون قداسته. نبّهتُهم، لكنّني كأنّما نبهتُ حجارةً صمّاء بكماء في قعر وادٍ. ثُمّ حذّرتُهم، فكأنّني حذّرتُ صخرةً تحاتّتْ حوافّها لطول عهد الزّمن بها. إنّهم لا يفهمون قيمة الكتاب، لا يعرفون أنّ أرواحًا تسكنه، ولا يُدركون أنّني أتضايق من هذا التّعامل المُهين.

قلتُ للمدير: «لم أعدْ أطيق العيشَ مع هؤلاء». رفع نظره باتّجاهي، كان يعرفُ كلّ شيءٍ. «يُمكنك أنْ تجعلهم أفضل. مهمّة المُصلحين». «أنا لم أُصلحْ نفسي، ولستُ راضيًا عنّي حتى أُصلحهم». «تهربُ بسرعة». «أريد أنْ أهدأ من نُباحهم المتواصل، المهجع بهم يتحوّل إلى جحيم» «وهل تظنّ أنّكَ تسكن في الجنّة؟!». «إذا ساعدْتَني» «كيف؟» «تنقلني إلى مهجع جديد، ليس فيه أحدٌ، وأنا أختار مَنْ يُساكنني فيه». «تطلبُ شيئًا كبيرًا» «لا شيء كبيرًا على مَنْ أراد». ضحك. قال وهو لم يُنه ضحكته: «سأفعل»

اخترتُ أبعدَ مهجع في السّجن، وانتقيتُ قليلاً من القَتَلَة على ما أهوى، وكثيرًا من القضايا الأُخرى. السّجناء صورة الحقيقة بلا مساحيق، لا يهمّني ماذا كانوا خارج السّجن، يهمّني ما هم الآن

وكيف يتصرّفون ، حاولتُ أنْ أُقرّب المُثقّفين منّي ، أو الّذين عندهم استعدادٌ للثّقافة ، أولئك الّذين يتوقون إلى تغيير أنفسهم ، يعرفون أنّ العالَم لا يتغيّر إنْ لم يتغيّروا هم . ولم نكنْ أكثرَ من ثمانية ، عادَ الوضع إلى الهُدوء ، وعادتْ مكتبتي الّتي تشمخ إلى جانب برشي تُبعد عنّي أشباح الكآبة والرّتابة

شيئًا فشيئًا بدأتُ أحثّهم على القراءة ، أحدّثهم عن الكتب الّتي قرأتُها ، أشرح لهم كيف كانتْ شِفاء ، استجاب اثنان أو ثلاثة ، الآخَرون كانوا على خُلُق وبساطة ، لكنّ الكتاب لم يكنْ مُغرِيًا بالنّسبة لهم . بعد أقلّ من شهرٍ ، صار مهجعي مزارًا للسّجناء الرّاغبين في القراءة ، كانتْ في مكتبتي الخاصّة كتبٌ ليستْ موجودة في مكتبة السّجن ، فالخُبراء بالقراءة كان نهمهم يقودهم إليّ ، لا تشتطّوا في التّفكير بعيدًا ، لم يكنْ هؤلاء يُشكّلون كثرةً ولا نسبة ، لكنّهم مع ذلك ليسوا قلّة فلو قُلت إنّ نسبة القُرّاء في السّجن لا تتجاوز ٥٪ ، فمعنى ذلك أنّ لديكَ (١٠٠) قارئ ، وهؤلاء يُشكّلون وجه السّجن ، وقادرون على تغيير ملامحه ، وإذا استمرّوا في إقناع مَن حولهم فلربّما نحظى بالمزيد منهم .

في أوائل عام ٢٠٠٦ كنتُ قد قطعتُ شوطًا في كتابة مُذكّراتي بعد تلك الّتي سرقها الصّحفيّ الّذي ادّعى أنّه سينشرها ، ملأتُ دفترًا واحِدًا بعد أنِ استدركتُ ما فاتني ، وكنتُ أعودُ إليها بين فترةٍ وأخرى ، ولم تكنْ للتّصرّف ، لم أكنْ أعيرُها كبقيّة الكتب . مكتبتي الخاصّة هنا فيها ما يقرب من مئة وخمسين كتابًا ، أعير منها في الأسبوع الواحد أكثر من خمسين كتابًا ، بعضهم يعيد الكتاب بعد يوم واحد ، أسأله «قرأتَه؟» . يُجيبني : «نعم» . أعيد السّؤال مسرورًا : «في يومٍ واحدٍ؟!» .

يهزّ رأسه بالإيجاب ، أقول في سرّي : «هؤلاء اهتدَوا إلى ثمرة القراءة ، إنّها حُلوة ، ولا يُشبَع منها ، ويطلب الإنسانُ بعد أنْ يتذوّقها المزيد» .
نحن في السّجن إمّا أنْ نقرأ أو نفتعل شيئًا نملأ به فراغنا ، كالصّياح بلا سبب ، والدّخول في مشاجرات بلا مُقدّمات ، أو الغرق في مستنقع المُخدّرات ، أو الوقوع في براثن الكآبة ؛ ذهولٌ دائمٌ ، وصمتٌ أبكم ، وانعِزالٌ في البرش عن الوجوه ، واجتنابُ الطّعام ، والانسِحاب من الواقع بكثرة النّوم .

كوّنتُ بسبب عملي أمينًا للمكتبتَين صداقاتٍ جمّة ، طلبَ منّي أحدهم أنْ يستعير دفتر مذكّراتي ليقرأه ، تردّدت ، كان قد استعار منّي ما لا يقلّ عن عشرة كتبٍ خلال الفترة السّابقة ، شجّعني ذلك لأستجيبَ لطلبه ، استجبْتُ . كان هناك شيءٌ آخَر ، أعرْتُه فيما مضى كتاب (من مفكّرة إسحق رابين) عادَ إليّ بغير الوجه ، كان قد لخّصه ، قال لي وهو في قمّة اندِهاشه يُشير إلى إحدى صفحات الكتاب : «اقرأْ هنا» . تظاهرتُ أنّني لا أدري عمّ يتحدّث ، طلبتُ منه أنْ يقرأ هو بصوتٍ عالٍ . كانت الفقرة تتحدّث عن اليوم الأوّل من حرب الأيّام السّتّة في عام ١٩٦٧ ، قرأ : «ففي اليوم الأوّل تمّ تدمير جميع أسلحة الجوّ العربيّة ، وفي الجبهة الجنوبيّة تمّ تحطيم الجيش المصريّ وأمرت قوّاته بالانسِحاب نحو القناة تحت غطاء الفرقة المُدرّعة الرّابعة ، وأصبح مُعظَم أراضي الضّفّة الغربيّة بأيدينا ، وتمّ احتِلال القدس . . . توجّهنا إلى بوّابة الأسباط ، ودخلنا عن طريق بوّابة مندلباوم المُدمّرة ، ومن ثَمّ دخلنا عن طريق الشّوارع الضّيّقة في البلدة القديمة ، وكانت البلدة وكأنّها ميّتة ؛ النّوافذ مُحطّمة ، والأبواب مُغلَقة» . قلتُ له وأنا أُعطيه الدّفتر : «من أجل هذا أتذكرُ؟ من أجل أن تعرف ، الدّفتر بين يديك» .

يحدث أنْ يتذكّر مدير السّجن أنه صاحبُ سلطة ، ويحدث أنْ تصحو في أعماقه غريزة البَطش ، أثرُ الانغِرار بالقُوّة على صاحبه مُدمّر . رأى المدير في ذلك العام أنْ يكبس على النّزلاء في مهاجعهم فيُصادر كلّ شيء .

جَمَعهم المدير ؛ الضُبّاط والأفراد والعساكر ، وأوعز إلى لواء الأمن انْ يكون على أُهبة الاستِعداد ، وطلبَ من عناصره أنْ يُباغِتوا المهاجع ، ويُصادروا ما يقع تحت أيديهم من المتاع ، دون تمييز ، كان يريد بذلك إذلال المساجين ، وكَسْرَ شوكتهم ، وإثبات قدراته الخاصّة الّتي يتميّز بها عن أيّ مديرٍ سابق ، وكان مصير كلّ مَنْ يرفع رأسه أنْ يُقصَف .

دخلت مجموعات التّفتيش مثلما تدخل قوّات مكافحة الشّغب ، كانوا يصيحون بصوتٍ مُفزع : «تفتيش . . . تفتيش» كان معنى ذلك أنْ تفزّ من بَرْشِكَ مثل القِرد ، وتتنحّى جانبًا على وجه السّرعة ، وتتجمّع مع الآخَرين في الزّاوية البعيدة مثل كومةٍ من المُهمَلات ، وتخرس وتنتظر عمّ يُسفر التّفتيش . لم يكن هدف الحملة مُصادرة أغراض السّجناء ، فهي أتفه من أنْ تُصادر ، ولكنّ الهدف الأساسيّ كان إشاعة الخوف في الصّدور ، وحقنَ الهواء الّذي يتنفّسه السُّجناء بالذُّعر ، كانت الرّسالة للمتنمّرين من السّجناء ، أمّا البُسطاء فإنّهم بالإضافة إلى التزامهم السّابق ، كان يُخيفهم مجرّد مرور عسكريّ بجانبهم ، لكنّ هذه الحركة أيضًا زادتْ منسوب الخوف عندهم ، ولذا فإنّهم سيُواصِلون انخِمادهم ، وعدم دخولهم في أيّ معركةٍ صغيرةٍ أو كبيرة . لكنّ هذه الحسابات لا تصدق دائمًا ، الإنسان عجيب ، يُفاجِئك بما لا تتوقّع ، كائنٌ غير قابلٍ للتقنين ولا للحسابات ، ويعيشُ في داخله ألفُ سِرٍّ وألف غموض .

كان المدير قد كلّف من ضمن الضبّاط ضابطًا غايةً في الاحترام هو (عبد الكريم الحوراني) ، قصد مهجعي دون سواه من أجل أنْ يحميه ويحميني ، كانتْ حملة التّفتيش مسعورةً ، تعني أنْ تُجرّد السّجين من كلّ ما هو موجودٌ تحتَ برشه أو رأسه أو في أيّ مكانٍ . صُودِرت الملابس ، والأغطية ، والأواني ، والطّعام ، والكراتين ، والأوراق ، وموادّ التّنظيف ، والكاسات ، وأوراق اللّعب ، وأشياء لا حصر لها بالنّسبة لمهجعي جاء الضّابط الحوراني ، وتعاونَ معي ؛ قال لي «سُنخرج بعضَ الأغراض الّتي لا تُريدها هنا في أكياسٍ سوداء ، حتّى لا يُقال إنّنا ميّزناك عن الآخرين ، هاتِ أغراضًا لا تحتاجها أو نُفايات ، نضعها في هذه الأكياس السّوداء ، وأمام الضُبّاط والمدير نقول إنّنا عاملْناك بالمثل . . . هذا المدير لا يرحم» قال الجملة الأخيرة بصوتٍ خافت . وبالفعل ، وضعتُ له في أكياسٍ سوداء ما لا حاجةَ لي به ، ودفعتُ بها إليه . رمقني بودّ ، أخذ عناصره الأكياس ، وخرج دون أنْ يُمسّ أحدٌ بسوء . قرّبني ذلك منه ، وبدأتُ أحبّه

بقي التّفتيش قائمًا فترةٍ طويلة ، وكنتَ تسمع أصوات العساكر وهي تأمر بإخراج كلّ شيءٍ يتردّد صداها في الممرّات في المهاجع البعيدة . أمر المدير بتجميع الأغراض المُصادرة كلّها في مكانٍ واحد خارج السّجن ، فتكوّنتْ منها تلالٌ تراكبَ بعضُها فوق بعض ، ثُمّ أشهدَ على الأمر عددًا من الضُبّاط وعددًا من شُوّاش المهاجع وقام بإحراقها ، ظلّت النّار مشتعلةً في تلك التّلال أكثر من خمس ساعات . تذكّرتُ دفتر مذكّراتي الّذي أعرتُه لأحد السّجناء ، فأصابني الذّعر والهلع ، تخيّلتُ للحظة أنّه أُلقِمَ النّار ، وأنّه صار طعامًا هنيئًا في بطنها . لم أنمْ تلك اللّيلة وأنا أتخيّل أوراقه تذوي بينْ الألسنة المُلتهبة ،

ولم أسامح نفسي بإعارته لذلك السّجين ، وندمتُ ندمًا شديدًا ، وأصابني جزعٌ كبير

فقد السُّجناء أكثر ما كانوا يحرصون عليه ، وازدادتْ بذلك نقمتهم ، كان يريد أنْ يهزمهم فصاروا يُفكّرون كيفَ يهزمونه ، وكيفَ ينتقمون . القوّة للكلمة الطّيّبة وللمعاملة الحسنة ، وليست للعصا الغليظة ، العصا الغليظة تتكسر أوّل ما تتكسر على رأسِ صاحبها

بعد يومَين جاءني الضّابط الحورانيّ ومعه دفتر مُذكّراتي ، وضعه بينَ يديَّ وهو يبتسم : «أنقذتُه لكَ من النّار» . فرحتُ فرحًا شديدًا بعد سنةٍ ونصف من هذه الحادثة سيُصبح الحوراني مديرًا لهذا السّجن بأكمله

واصل المدير حملته الشّعواء . لم تُشبع النّار نهمه إلى إظهار أسوأ مظاهر السُّلطة لديه ، فأمر بتقليل المُشتريات من دُكّان السّجن ، ولم يُبقِ فيها إلاّ على أقلّ القليل ، ولم يستطع السّجناء أنْ يُعوّضوا ما فقدوه ولو كان كأسًا من البلاستيك ليشربوا فيها ، أو صحنَ طعامٍ ليأكلوا . حتّى الملابس الدّاخليّة مُنعتْ من الدُّكّان ، وصار علينا أنْ نغسل ملابسنا القديمة كلّ يوم ، وننشرها على قُضبان النّافذة الوحيدة العالية تلك الّتي تنفتح بتجهّمٍ قريبًا من سقف المهجع ، وكان بإمكانك أنْ ترى تلك الرّايات البيضاء والسّوداء وهي ترفرف على تلك القضبان بزهوٍ كأنّما تشتاق للحرّيّة مثلنا

كان هذا الضّابط الألوف خَدومًا ومُتفانِيًا على الوجه الحقيقيّ ، وكنتَ لا تشعر معه بحاجز السُّلطة الّذي كان يتعمّد الآخرون إظهاره معك ولو كان عريفًا صغيرًا ، رأيتُ هذا الحورانيّ بأمّ عينَي يقوم بمساعدة السّجناء ، والطّاعنين في السّنّ ، والمرضى ، ويسير مع الكبار يأخذ

بأيديهم حتّى يوصلهم إلى الشّبك في أيّام الزّيارة ، ويسمح لهم بتكرارها ، أو بالحديث مع ذويهم دون انقطاع ، وكان يحمي السّجناء من الإهانات الّتي تتمثّل بالضّرب والشّتم يقوم بها أفراد الأمن الآخَرون . لكنّه كان واحِدًا في محيطٍ لا يعترف بغير القوة سبيلاً للضّبط ، كان وردةً في مزبلة ، وقارورة عِطرٍ في مُستنقع آسن ، فلم يُعره المدير انتِباهًا ، واستمرّ الأخير في سياساته القاسية دونَ توقّف .

جاءتْ ردّةَ فِعل السّجناء على أعمال المدير بشكلٍ سريع . استغلّ سجناء التّنظيمات الّذين يُعرَفون بـ (التّكفيريّين) مرّة وبـ (الجهاديّين) مرّة أخرى ، النّقمةَ العامّة الّتي تضطرم في الصّدور من أجل أنْ يقوموا بإشعال موجةٍ من الاضطرابات تعمّ كافّة السّجون ، كما أنّ ذلك ترافقَ مع صدور أحكامٍ بالإعدام ضدّ مجموعةٍ منهم ، كانوا قد أُدينوا بعمليّات تفجير سابقة .

كانت الموجة قد بدأتْ في شهر نيسان من عام ٢٠٠٦م . تقرّرتْ ساعةُ تنفيذ الأحكام ، وجاءت الشّرطة لإخراج المحكومين من المهاجع ، كانوا يُساقُون إلى قَدَرهم من هناك ، يُلبَسون لباس الإعدام الأحمر ، ويوضَعون في زنازين خاصّة ليلة التّنفيذ ، ويُمنع اختلاطهم بأيّ أحد ، حتى تحين ساعتُهم الأخيرة .

إنّهم أربعة ؛ أولئك الّذين سيلتفّ الحبل حول رِقابهم ، وصلتْ إليهم أخبارٌ مدفوعة الثّمن بأنّه لم يبقَ بينهم وبين الإعدام إلاّ يومٌ واحدٌ ، وأنّ الخطوات نحو النّهاية صارتْ معدودة . حين عرفوا ذلك أحاطتْ بهم جماعتهم ، وعقدوا اجتِماعًا في المهجع من أجل التّعامل مع الأمر . للجهاديّين أنصارٌ في السّجن حتّى وإنْ لم يكونوا منهم ، لقد عملوا فيما مضى بكلّ طاقتهم لإمالة القلوب إليهم ، كانوا

يستخدمون اللّغة الثّنائيّة الحادّة، هؤلاء - يعنون الشّرطة والعاملين في الدّولة - كُفّار، وتجب محاربتهم، ولا توبةَ لهم، فإمّا أنْ تبرأ إلى الله منهم بمحاربتهم أو تكون راكِنًا إليهم فتمسّك النّار، بهذه الحِدّيّة كانوا يستميلون قلوب أولئك النّاقمين على الشّرطة بسبب سوء المعاملة، وما أكثرهم! لم تجد دعوة الجهاديّين قلوبًا تتّسع لهم أكثر من قلوب المُجرمين أصحاب السّوابق، لقد اشتركوا في نزعة القُوّة والبطش الّتي تستوطن غرائزهم. فالإيمان بأفكارهم يتطلّب جرأةً في استخدام القُوّة ضِدّ أعداء الله الكفرة، ما أسهل القتل إنْ كان مَنْ أقدمَ عليه يظنّه في سبيل الله!!

حينَ تقرّرتْ ساعة التّنفيذ فيهم، فتحت الشّرطة الباب لإخراج المحكومين بالإعدام من مهاجع التّنظيمات الإسلاميّة، تلقّاهم هؤلاء بقضبان من الحديد، وبعصيّ، وهراوات، وأحذية، فضربوا عددًا منهم، وكانتْ تلك الشّرارة بابًا للشّرّ، أصيب عددٌ كبيرٌ من الشّرطة، وبالمقابل أُصيب عددٌ أكبر من أصحاب التّنظيمات، وتفاقم الوضع إلى الحدّ الّذي صعبَ معه إنهاؤه بسرعة؛ كان بمثابة عودِ ثقابٍ صغير شُعلتُه إذا هبّتْ عليه ريحٌ خفيفٌ أطفأته، لكنّهم ألقوه في بيدرٍ كاملٍ من القشّ فسرعان ما انتشرتْ فيه النّار أسرع من انتشارها في أرضٍ مرشوشةٍ بالبارود. اضطرّتْ إدارة السّجن إلى طلب تعزيزات من الشّرطة الخاصّة ومكافحة الشّغب ولواء الأمن للسّيطرة على الوضع. وامتدّت الاضطرابات لتشمل السّجن كلّه، وهاج السّجن وماج. وخرج الأمر بالفِعل عن السّيطرة. وبدا أنّ كثيرين مِمّن لا علاقةَ لهم بالتّنظيمات الإسلاميّة، ولا بالمحكومين بالإعدام لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ قد جاءتهم فرصةٌ ذهبيّةٌ لإظهار نقمتهم، واستخراج عملاق

التَمرّد النّائم فيهم ، وصنعت الفوضى من الجُبناء شُجعانًا ، وحينَ يجد الثّور معه قطيعًا من الثّيران تُشاركه المصير نفسه فإنّه لا يتمرّد على السّلطة أو القانون فحسب ، بل إنّه يقوم بتدميرهما معًا . وانفلت الكثيرون من عقالهم ، وراحوا يُكسّرون الأواني ، ويخلعون الأبواب ، ويرمون الأغراض ، ويزأرون كأنّ شجاعةَ أسدٍ واحدٍ كافية لكي تملأ الغابة كلّها بالزّئير . لقد كانوا يعوّضون أيّام الصّمتَ بالصّراخ ، وأيّام الهدوء والرّضوخ والخنوع بالنّقمة والثّورة والاندِياح والانقِلاب على كلّ شيء .

وتوسّعت الدّائرة ، واختلطَ مِئاتٌ من الشّرطة بمئاتٍ من السّجناء ، وانتقل الأمر عبر الاتّصالات الخفيّة إلى سجن الجويدة ، وسجن (قفقفا) ، فاشتعلا هما الآخران ، وحاول المدير الأكبر في سجن الجُويدة أنْ يُسيطر على الوضع بالحوار ، وأنْ يُجادلهم بالّتي هي أحسن ، ولكنّ ذلك لم يُجدِ نفعًا ، واستطاع السّجناء الإمساك بهذا المُدير ، وأسروه ، ووضعوه في برميلٍ وصوّروه في وضع مُذلٍ ، وما كان ذلك ليكون لو أنّ لديهم أخلاقًا . وحدّثتهم أنفسُهمْ بقتله وقتلِ عدد من الضّبّاطِ الآخرين الّذين أوقعوا بهم .

أمّا في سجن (قفقفا) ، فقام عددٌ من السّجناء بصبّ الزّيت المغلي على سجينٍ آخر ، فأصابتْه حروقٌ خطيرة ، ولم يكن الوضع يسمح بسبب الاضطرابات إلى نقله على وجه السّرعة إلى المُستشفى ففارق الحياة ، ووصلتِ الأمور إلى مستويات لم يتوقّعها أحدٌ ، فتطلّب ذلك مزيدًا من التّعزيزات ، واستُنفرتْ كافّة الأجهزة الأمنيّة المعنيّة بالسّجون ، ورُشّت السّجون الثّلاثة بالغاز ، ونزلت الهراوات على الرّؤوس ، واستُخدِمت القُوّة بشكلٍ مُفرِط ، وكان ذلك اضطِرارًا من

أجل السّيطرة على الوضع الهائج ، وسقط كثيرون مغمًى عليهم ، ونُقِلَ عددٌ مِمّن كانوا من المهاجع القريبة من بوّابة السّجن إلى مستشفى (الكرك) و(البشير) ، وبقي بعضهم أيامًا حتّى يتعافى . واستمرّت الفوضى إلى اللّيل ، وحُسِمَت بعدَ صراع وتجاذبٍ بالقوّة ، وتمكّنت الشّرطة من إخماد التّمرّد ، وأُخذ المطلوب تنفيذ حكمَ الإعدام فيهم ، وأُعدِموا في الصّباح

بعدها ، تعلّمتِ السّلطة أنّ استخدام القوّة يؤدّي إلى نتائج كارثيّة ، مع الاضطِرار إليها في بعض الحالات ، ولكنّ الأسلم هو أنْ تمنع المقدّمات حتّى لا تحدث النّتائج ، وأنّ المظاهر خادعة ، فمن كان وادِعًا لم تلتقط له كاميرات السّجن أيّ حركةٍ مريبةٍ ولو كانتْ رفعًا للصّوت صار في يوم الاحتجاج يصول ويجول ويُهدّد ويتوعّد ، وأنّ الحِوار إذا لم يكنْ في أوانه لم ينفعْ . وكان على الإدارة بعد مرور العاصفة أنْ يأتوا بعلماء نفس وبأطبّاء نفسيّين ليدرسوا ظاهرة التّمرّد عند السّجناء ، ويستفيدوا من نتائج تلك الدّراسة في إداراتهم .

في سواقة . صار أعضاء الشّرطة يمشون بحذر ، يأخذون كلّ سؤال على أنّه تهديد ، ويشكّون بأيّة حركة ، ويتوجّسون من أيّ تجمّع ، وفُرِضتْ قوانين جديدة تُشبه في الدّولة ما يُسمّى بقانون الطّوارئ لإحكام القبضة على المهاجع ؛ كان كلّ شيءٍ يبعثُ على الخوف للواقفِين على الجانبَين ، الشّرطة والسّجناء ، كلّ شيءٍ قابلٌ إلى أنْ ينفجر في أيّة لحظة ، ومن أجل ذلك مُنِعت الزّيارات فترةً ، ثُمّ سُمِحتْ للأقربين من الأصول ، وطالنا المنع جميعًا . فمرّتْ أيّام وأسابيع وأشهُر دون أنْ يسقي قلبي الظّمآنَ أحدٌ بالسّؤال عنّي ، فالإدارة كانتْ تُعيد الزّائرين بعد أنْ يكونوا قد وقفوا على البّوابة الخارجيّة للسّجن ،

وشعرتُ بعد منعِ الزّيارات أنّني أعيشُ في كوكبٍ آخَر ، وأنّني صرتُ معزولاً عن العالَم ، وكان ما شاهدْته - ولم أكنْ موافِقًا عليه - من الأذى الّذي لحقَ ببعض السّجناء ، من أولئك الّذين لم يكنْ لهم ناقةٌ ولا جملٌ في الموضوع ، لكنّهم وجدوا أنفسهم قَدَرًا في الميدان ، كلّ ذلك سبّب لي شعورًا طاغيًا بالأسى ، وتحوّل من بعدُ إلى سلسلةٍ من الأمراض المُميتة الّتي بدأتْ تفتكُ بي .

(٦٠)
أنا أحبُكَ يا أبِي

صباح هذا اليوم شعرتُ بضيقٍ شديدٍ في التّنفس ، وبوجع في الصّدر ، وخزةً قاسية مثل وخزة المِخرز في بطن البعير ، وقعتُ على الأرض ، سارع السّجناء إلى أخذي إلى العيادة ، كان سقف المهاجع يبدو لي مثل منظر من نافذة قِطارٍ يمرّ سريعًا ، لم أكنْ أسمع سوى صيحات النّاس : «بسرعة . . . بسرعة» . في العيادة حولني طبيب السّجن إلى مستشفى الكرك ، المستشفى الأقرب إلى سجن سواقة ، رافقني ليُحافِظ على خيط الحياة فِيّ ألاّ ينقطع . وصلنا إلى المستشفى بعد ساعتَين ، كنُت أقف على الحدّ الفاصل ، لم أكنْ أوّل مَنْ يقفُ عليه ، ولا وحدي ، جميعنا نقف على ذلك الحدّ ، وحَدَثٌ واحدٌ يُمكن أنْ يودي بنا إلى الوادي ، إلى الموت .

استعدتُ وعيي ، أخذوا عينات الدّم ، وقاسوا الضّغط والسّكّريّ ، قالت التّقارير إنّني مُصابٌ بتصلُّبٍ في الشّرايين وجلطةٍ في القلب . كان هذا أوّل عهدي بالجلطات ، وكان ذلك في منتصف عام ٢٠٠٦م أُحِلتُ إلى غرفة العناية المُشدّدة . قُيّدتْ يداي ورِجلاي إلى أطراف السّرير ، وتحولت الغرفة إلى ثكنةٍ عسكريّة ، كان عددٌ كبيرٌ من الجنود يروح ويجيء في حركةٍ دائبةٍ كنتُ أشعر بمزيدٍ من الاختِناق لوجودهم ، أريدُ فضاءً فسيحًا مثل فضاء (إبدر) لكي أستعيد عافيتي ولكنْ هيهات! هنا كلّ شيءٍ خانقٌ ، أنّى لي أنْ أتعافى وهم يسدّون

الأبواب ، ويهبطون بالأسقف ، وينهضون بالجدار في الوجه ، وأنا أرسف في القيود ، كنتُ أتحرّك بصعوبةٍ فوق السّرير ، ولا يُسمَح لي بالذّهاب إلى الحمّام إلاّ بحراسة .

بعدَ يومَين طلبتُ منهم أنْ يُعيدوني إلى السّجن ، قلتُ لهم : «هو أرحم بي من هذا المكان» . رفضوا في البداية فأصررتُ : «أنا تعافيتُ ولا أشكو من شيءٍ» . أجابوني : «على مسؤوليّتك الشّخصيّة؟» . «نعم» . وقّعتُ على تعهدٍ أمروني بالتّوقيع عليه يُعفيهم من المسؤوليّة ويُلقيها فوق ظهري .

عُدتُ إلى السّجن ، كنتُ في وضع صحّيّ ونفسيّ مُتردٍّ ، همدتُ على البرش مثلَ كيسٍ من الخيش ، لم أقم من البرش حتّى في ساعة التّشميس الّتي يتوقُ لها كلّ سجين ، لم يكنْ يُحزنني غير حال المكتبة ، كيفَ تركتُ الكُتّاب فيها للوحدة والعتمة ، تُرى مَنْ يُجالِسهم أثناء غِيابي!!

بعد أسبوع عاودتْني ذات الأعراض ، ونشب المِخرز في صدري ، نقلوني إلى مستشفى الكرك ، ثُمّ حوّلوني من هناك إلى مستشفى البشير ، كانت الطّريق طويلةً جعلت الموتَ يتراءى لي مئة مرّة ، وبدا مرضي إلى جانبه هيّنًا . تلقّاني ممّرضٌ ببرود في الطّوارئ ، وأحالني إلى غرفةٍ غير نظيفة ، وطلبَ منّي أنْ أستلقي ريثما يأتي الطّبيب لمعاينتي ، ألقيتُ بجسدي الّذي نخره التّعب على السّرير فصرّتْ قوائمه كأنّها تصرخ غاضبة ، مرّتْ نصف ساعة دون أنْ يأتي أحدٌ ، من فتحة الباب كنتُ أرى العساكر وهم يذرعون الممرّ الطويل جيئةً وذُهوبًا ينتظرون أن تنتهي مأساتهم بي هم الآخَرون . بعد ساعة شعرتُ أنّ السرير صار مرجوحةً تتمايل بي فوق غماماتٍ عالية ، يبدو أنّني في طَريقي إلى أنْ

أفقد وعيي ، حاولتُ أنْ أقوم فوجدتُ قُوايَ منهارةً تمامًا ، صرختُ فخرج صوتي واهِنًا ، لم يسمعني أحدٌ في البداية ، لكنّ عسكريًا انتبه إليّ وعلى صوتي الّذي لم يكدْ يسمعه ، سألني إنْ كنتُ محتاجًا لشيءٍ . قلتُ له وأنا أشير إلى فمي : «أيَ شيء حلو» . غابَ فترةً ثُمّ عادَ إليّ مع ممّرضٍ آخر ، قطروا في فمي محلولاً حلوًا ، قبل أنْ يفتكَ بي السّكّريَ بلحظاتٍ . سألتُ الممرّض إنْ كان الطّبيب سيأتي أم لا ، أجابني : «هو عنده عمليّة ، وسيفرغ منها قريبا جدًا» . وذهب . انتظرتُ ثلاث ساعات أخرى حتّى كحّلتُ عينَيَّ برؤية الطّبيب ، كان يبدو هو الآخر مذهولاً أو مصدومًا أو مُنهكًا ، لا أدري على وجه الدّقّة ، طلبَ من الممّرضين الّذين رافقوه أنْ يُجروا لي تخطيطًا للقلب ، ويأخذوا عينة من الدّم . بعد وقتٍ قصير ، جاءه التّخطيط ، رفعه أمام عينَيه ، ومن خلف نظّارته الّتي سقطتْ قليلاً على أنفه قرّر إدخالي إلى غرفة العمليّات لعمل قسطرة للقلب . رفضتُ . كنتُ لا أريد أنْ أعملها في مستشفًى مثل هذا فيه من الإهمال واللامُبالاة ما فيه . لم يكترث الطّبيب كثيرًا لرفضي ، ولم يُحاول أنْ يثنيني عن ذلك ، ولا أنْ يُطلعني على وضعي بلغةٍ أفهمها أو يُقنعني بضرورة إجراء العمليّة ، طلبَ بعد أنْ رفع نظّارته إلى عينَيه أنْ أكتب على تعهّدٍ بإخلاء مسؤوليّتهم ، كتبْتُه بلا مبالاة أيضًا ، وخرجت

عُدتُ وأنا أجرّ أثقال الألم ، وأحزان الدّهور كلّها ، في السّجن عاتبني المدير لرفضي إجراء العمليّة ، لم تكنْ عندي رغبةٌ بالكلام معه ، أعطيتُه ظهري ، وولّيتُ وجهي جِهة مهجعي . جلستُ أسبوعًا آخر في برشي مرميًا . قرأتُ فيه كتاب (مكاشفة القلوب) للغزالي ، ساعدني الكتاب على أنْ أستخف الكون والحياة والنّاس ،

وأستسخف نفسي ، بدا أنّ الحياة عبثيّة إلى الحدّ المُقرّز ، وأنّنا البشر عبارة عن لزّاقيّات تدوسها أقدام الموت دون اكتراث . كنتُ بحاجةٍ إلى جرعةٍ من مثل هذا النّوع ، إلى صدمةٍ تجعلني أستهينُ بكلّ شيءٍ .

استمرّ مسلسل المنع في دُكّان السّجن ، منع المدير الخُضار والفواكه والتّمر على وجه الخُصوص ، وحينَ سأله أحدنا ، أجابه : «لأنّكم تقومون بتخمير الفاكهة بوضعها ساعاتٍ طويلةٍ في الشّمس بعد هرسها ، وإضافة شيءٍ من ماء الجلي إليها لتصنعوا منها خمرًا وتسكروا» . كان مُحقًّا ، السُّجناء هنا ملاعين ، أنا رأيتُ بعض زجاجات الخمر هذه تُباع بأثمانٍ باهظة

بدأتُ أفكّر فعليًا بترك الدُّخان ، كان طبيب السّجن يقول : «ما زلتَ شابًا ، وتصلّب في الشّرايين في هذا العُمر سينقلك إلى عالَم الآخرة بقفزةٍ واحدة ، السبب معروف ، لا يحتاج إلى طبيب مثلي ، اترك التّدخين وسترى الفرق» . كنتُ أعرف ذلك ، ولكنّه العِناد ، كنتُ أدخّن لأنسى ، كان يُمكن لا سمح الله أنْ أذهب إلى أشياء أخرى لأنسى ، ربّما الدّخان أخفّها ، هكذا كان إبليس يُلبّس عليّ على رأيِ ابن الجوزي ، ولربّما كان هناك في داخلي مَنْ يريد أنْ يأخذ بيدي إلى العالَم الآخَر ، يريد أنْ يرتاح ، يقول لي : «سنعبر النّهر معًا إلى الضّفّة الأخرى . إنّها ليستْ سيّئة إلى هذا الحدّ ، حين ينتهي العبور سينتهي كلّ شيء» .

بدأتُ أقرأ عن التّدخين طبّيًا ، ثُمّ قرأتُ أحكام الفقهاء فيه ، كان إبليس يقول لي : إنّهم فقهاء عصريّون ، إنّهم فقهاء لا يفقهون ؛ فالتّدخين لم يكنْ موجودًا على زمن النّبي صلّى الله عليه وسلّم فكيف يكون مُحرّمًا ، ولم يردْ في تحريمه نصٌّ من كتابٍ أو سُنّة ، واجتهادات

الفقهاء باطلة ، بل كان إبليس الّذي يجري في دمي يعدّه من الطّيّبات ، وهو يحثّني على ألاّ أسمع لكلّ مَن هبّ ودبّ ، وأستمرّ في استمتاعي به ، ويستشهد بقوله تعالى : «كُلُوا من طيّبات ما رزقناكم» . وقرأتُ مَنْ قال :

كم في الدُّخَانِ مصائبٌ ومكارِهٌ
دلّتْ رذائلُه على إنكارِه
عمّتْ بليّته البريّة كلّها
حتّى الفقير يلينُ مع إعسارِهِ
إنْ غاب عنكَ سويعةً لم تصطبرْ
وتودّ بَذْلَ الرُّوحِ في إحضارِهِ

ومضيتُ ، عسى الله أنْ يتوب عليّ . لن يهدأ القلب ، ولن يستقرّ ذلك الّذي في الرأس . العمل يجعل للحياة قيمة ، ولنا كذلك ، نحن نُساوي ما ننتج ، فلْنُنتجْ طيّبًا . عُدتُ إلى عملي في المكتبة ، كانتْ عودةَ الحبيبِ إلى الحبيب ، حينَ فتحتُ الباب داهمتْني روائحُ شذيّة قادمة من الأرفف ، لقد كان عِطر الرّاحلين مِمّن تركوا خلفهم آثارهم ، خطوتُ خطوات أخرى ، ابتدأتُ أتلمّس الكتب ، «لِمَ لها كلّ هذا السّحر؟!» تساءلتُ وأنا أتابع السّير مُوغِلاً في البعيد ، شعرتُ بقبلاتٍ على الخدّ ، إنّهم هم ، أصدقائي هُرِعوا إليّ يسألون عنّي ، صوتُ أوراقٍ تُفتَح ، وروائح عصورٍ سحيقةٍ تفوح ، وأغلفةٌ تمدّ أيديها تريدُ أنْ تُسلّمَ عليّ .

مرّ عام ٢٠٠٦ ، في آخره ، شعرتُ بما شعرتُ به في المرّتين الأولَيَين ، كان الخرز الّذي ينخز بطن البعير هذه المرّة أشدّ ممّا سبق ، بدا أنّ الوقت قد حان لأستجيب لكلّ ما يطلبه الأطبّاء منّي ، وإلاّ

فقدْتُني!! حُوِّلتُ إلى مستشفى الكرك ، أرادوا أنْ يعملوا لي العمليّة هناك ، فرفضت ، أجابوني : «التّعهّد أمامك ، وقّعه واخرجْ» . فرفضتُ أيضًا . سألوني : «وماذا تريد؟» . أجبتُهم : «حوّلوني إلى المدينة الطّبيّة ، فهي مُجهّزة بشكلٍ جيّد من أجل هذا» . قال الطّبيب : «سأكتب كتابًا بتحويلك إلى هناك ، تهمّنا سلامتك» . أعادوني إلى السّجن ، كنتُ كمن خرج من القبر إلى قبرٍ آخر ، قال الضّابط لمدير السّجن : «الطّبيب حوّله إلى المدينة الطّبيّة لإجراء عمليّة القسطرة بأسرع وقتٍ ، إنّ أزمته القلبيّة الأخيرة كادتْ تُنهيه» . ردّ المدير «خُذْه إلى مهجعه ، لن أحوّله إلى المستشفى لا اليوم ولا غدًا ولا في أيّ يوم» . لم أعترض على غير عادتي ، عُدْتُ إلى برشي ، أبحثُ عن كتابٍ يتحدّث عن الموت ، أريد أنْ أعرف على أيّ جنبٍ يموتُ النّاس ، ماذا يرَون حينَ تُغرغِرُ أرواحهم ، كيفَ تكون السّكرة ، كيف تصعد الرّوح ، عروجًا أم اندفاعًا ، تسبح في الفضاء أم تواصل مسيرها إلى طبقات السّماء ، كيف هي الحياة هناك في الضّفّة الأخرى؟! مشغوفٌ أنا بالموت ، مسكونٌ بهواجسه ، وعليّ أنْ أقرأ ما يبرّد روحي التّائقة إلى المعرفة ، قرأتُ بيان آية : «كلّ نَفسٍ ذائقةُ الموت» من عدّة تفاسير ، لم أطمئنّ كثيرًا . من الأحياء من هم أموات ، يموتون في عمرٍ مُبكّرٍ ، ويدفنون في سنّ الهرم . تذكرت قول شوقي :

والنّاسُ صِنْفانِ مَوْتَى في حياتهمُ
وآخَرون ببطنِ الأرضِ أحياءُ

في اليوم التّالي حضر الصّليب الأحمر ، طوال إقامتي لعشر سنواتٍ هنا ، كان يزورنا الصّليب الأحمر وحده ، لماذا لا يزورنا الهلال الأحمرُ مثلاً؟ لماذا يكون الصّليبُ هو المُبادر ، هل هي اتّفاقيّة عالميّة بتولّي الصّليب الأحمر شؤون المسجونين في كلّ أرجاء الأرض والدّفاع

عن قضاياهم والمَنّح على جراحهم؟ هل غياب الهلال الأحمر سببه عدم السّماح لهم بالدّخول إلى هنا؟ لا أدري . ولكنّني في مقابلتي لهم ، شرحتُ لهم وضعي الصّحّيّ ، وأنّ الطّبيب المعنيّ في مستشفى الكرك أمر بتحويلي إلى المدينة الطّبّيّة في عمّان والمدير رفض . هزّوا رؤوسهم أكثر من عشرين مرّة في ثلاث دقائق وخرجوا . ظننتُ أنّ المدير سيُهرَع إليّ حال خروجهم ، ويقول لي : «استرْ علينا يا أحمد ، استرْ على ولايانا يا رجل ، لم أكنْ أقصد منعك من العلاج ، غدًا سأرسلك في أحسن سيّارة إسعاف موجودة في الجنوب الأردنيّ كلّه إلى المدينة الطّبّيّة مُعززًا مُكرّمًا» . يبدو أنّ خيالي واسعٌ ، لم يأتِ المدير لا مُهرولاً ولا مُتبطّلاً ، لا على السّريع ولا على البطيء!! مرّتْ أيّام ولم يحدثْ شيء ، ولم أسمعْ خبرًا عن الصّليب الأحمر ، الوهمُ مَزْلقة ، وقوفٌ برجلَين مُرتعشتَين على بُقعة لزجة ، أيّة حركة توقعك في المحذور . لا أدري لماذا أهملوني بهذه الطّريقة ؛ أكان ذلك بسبب موقفي السّياسيّ المعروف ، أم بسبب مناداتي بسحق إسرائيل في كلّ مناسبة ، أم بسبب معرفتهم بتاريخي بأنّني قاتل اليهود ، أم هو النّفاق للسّلطة حتّى يسمحوا لهم بالدّخول إلى السّجون متى شاؤوا؟! لا أدري ، لكنّ الّذي أدريه أنّه

لقد ذهبَ الحِمارُ بأمّ عَمْرو
فلا رَجَعَتْ ولا رَجَعَ الحمارُ!!

بعدها بأيّام زارني علي السّنيد ، أخبرته بالّذي جرى . في مساء اليوم ذاته كانت قناة الجزيرة وقناة المنار تُذيعان الأمر ، وتنشران الخبر في أرجاء المعمورة . في الصّباح حضر مندوبٌ من المركز الوطنيّ لحقوق الإنسان ، ومدير مكتب المظالم في مديريّة الأمن العامّ . كان يبدو أنّهم

بعثوه على صاروخ ، لأنّني لم أكنْ قد صحوتُ من النّوم ، عندما وقف شرطيٌّ فوق رأسي ، وهو يهزّني من كتفي : «قُمْ ، لك زيارة خاصّة» . كانا يحملان كتابًا مُوقّعًا من رئيس الوزراء بتحويلي إلى المدينة الطّبّيّة ، هكذا هي الحقوق ؛ لا تُؤخذ إلا انتزاعًا ، ولو أنّني سكتُّ على الأمر ، لظللتُ أعاني حتّى الهلاك ، وذلك الواقف على الضّفّة الأخرى ، لا يُلقي لكَ بالاً إلاّ إذا أطلقتَ من فوق رأسه رصاصةً تجعله يستفيق من إغفاله . في اللّحظة نفسِها حُوّلتُ ، وحفّني موكبٌ في مسيري من سواقة في الجنوب إلى عمّان ، واسْتقبِلتُ كما لو كنتُ مدير المدينة الطّبّيّة نفسها ، ونُقِلتُ في اليوم إيّاه بعد استراحةٍ خفيفةٍ إلى غرفة العمليّات ، ورافقني الضّابط المسؤول عن الحَرَس ، وظلّ ينتظر في الباب حتّى خرجتُ من العمليّة ، مع أنّ ورديّته كانتْ قد انتهتْ ، ولم يقبلْ بأنْ يستريح وأنْ يُكلّف بالأمر ضابطٌ آخر في الورديّة التّالية حتّى يطمئنّ عليّ . كانتْ عمليّةً مُيسّرة ، ومرّ فصلٌ من حياتي بهدوء ، على أمل أنْ تمرّ باقي الفصول . على الباب وأنا خارجٌ عانقني هذا الضّابط المُحتَرم ، وبكى كما لو كنتُ ابنه ، ثُمّ رافقني إلى غرفة النّقاهة ، واشترى لي عصيرًا وماءً وبعض الحاجيات الأخرى ، وظلّ جالسًا في الغرفة ، تنهمل عيناه بالدّموع دون أنْ يقول حرفًا واحِدًا ، وحينَ أخبرني الطّبيب بأنّ عليّ أنْ أخلد إلى الرّاحة ، قبّلني وخرج .

في اليوم التّالي صحوتُ على يَدَين تمسحان على جبيني ، وتعبثان بشعري ، فركتُ عيوني لأرى جيّدًا ، عليّ أنْ أُحدّق جيّدًا لأستوعب المشهد الجميل ؛ كانتْ أمّي ، وعلى الجانب الآخر من السّرير كانتْ كلّ عائلتي ، فاطمة النّبويّة ، وابني سيف ، وابني نور ، وابنتي البتول ، وأخواي باسم وعبد الله ، حبستُ أنفاسي ، ودقّقتُ النّظر لأعرف إنْ

كنتُ أحلم أم لا ، لكنَّ رؤية الأمّ حقّ كما قلتُ لكم من قبل ، ولا يمكن أنْ تكون هذه الّتي تمسح بيدَين من رحمةٍ على جبيني غيرها ابتسمتُ رغم الدّموع الّتي راحتْ تنهمر على خدّي سريعًا ، أشرتُ للبتول أنْ تقترب ، اقتربتْ كغزالٍ مُدلَّل ، أمسكتُ بيدها الصّغيرة ، ابنتي الّتي كان عمرها شهرَين حينَ دخلتُ إلى هذا المنفى ، صار الآن عمرها عشر سنوات ، إنّ عمري هنا يا صغيرتي يساوي عمرك ، نحن أبناء جيلٍ واحدٍ يا حبيبتي ، أبناء الجيل الّذي لن يُساوم على حقّ ، ولن يتنازل عن أرضٍ ، ولن يقبلَ بمغتصب . ضممتُ كفّي المرتعشة على يدها النّحيلة ، ها أنذا يا أبي ، اقتربي لكي أقبّل يدك أيّتها الغالية ، ها أنذا أهبُ عمري كلّه من أجلِ أنْ تعيشي كالبتول فاطمة ومريم ، وككلّ الصّالحات الطّيّبات الطّاهرات . بكتْ هي الأخرى ، هل الصّغار يسمعون صوت الرّحمة ، هل يفهمون وجع الآباء ، هل يتحسّون آلامهم في بُعدهم عنهم . . . هوتْ عليّ وعانقتني ، وانفلتُّ أنا بالبكاء ، قالتْ وهي تمسح دموعي : «أنا أحبّكَ يا أبي» ، كانتْ تريدُ أنْ تُجفّف دموعي أو تخفّف من انفلاتها ، ولكنّها لا تعلم ماذا فعلتْ بي ؛ كان جسدي يرتجّ من شدّة النّحيب .



(٦١)
شَجرةُ الفاسِدين

احتجتُ إلى أيّام لأتعافَى ، رمقني الطّبيب بذات النّظرة الّتي نصحني فيها بترك التّدخين ، أردتُ أنْ أشرحَ له المسافة الشّاسعة بين الإدراك وبين الفِعل ، أدركُ تمامًا أنّني آخذُ بيدي إلى هاويةٍ بسبب اقتراف خطيئة الدُّخان ، لكنّني لا املك الجرأة على أنْ أتركه ، أنا ضعيفٌ أمام اتّخاذ فِعْلٍ صالح كهذا ، أعجبني في صُحبتي الطّويلة هنا في السّجن موقف أحدِ السّجّناء ، كان يحمل دكتوراة في الشّريعة الإسلاميّة ، ومُتّهم بقضيّة سياسيّة ، وكان مُدخّنًا يمجّ على السّيجارة كأنّ ثلاثةَ أرباع سعادة الدُّنيا فيها ، قلتُ : «يا شيخ أريد أنْ أسألك عن حُكم التدّخين» . نفثَ في وجهي غمامة داكنة من سيجارته ، وقال كلمةً واحدةً : «حرام» ، أجبتُه ووجهي لا يزال مُضبّبًا خلف ستارة النّفثة : «ولكنّكَ تُدخّن!» . فأجابني : يا بُنيَّ أنتَ سألْتَني عن حكم التّدخين ، ولم تسألْ عن تدخيني أنا ، لك بالأولى ، وليسَ لك بالثّانية ، يا بُنيّ ؛ إنّما هو ضعفٌ منّي ، ولقد بلغ بي مبلغًا لا أظنّ أنّني قادرٌ معه على الإقلاع عنه ، يا بُنيّ أترى إلى الزّرع في حقلٍ مُمرع هجمتْ عليه النّار فأحرقته ، هل تستطيع أنْ تُعيد إلى الحقلِ زَرْعَهُ الّذي صار هشيمًا تحتَ ألسنة اللّهب ، يا بُنيّ إنّما أنا ذلك الحقل» .

في عام ٢٠٠٧ جاء إليّ المُدير ، وقال لي : «إنّني أضع ثقتي فيك» . يحتاجُ الثّعلبُ أحيانًا إلى المشورة ، شكرته ، قال : «أريدُكَ أنْ

تُشرِفَ على أمور الدّكّان ؛ أنا أشعر أنّ هناك تجاوزات فيها ، وأرى فيكَ رجلاً صالحًا ، وأنتَ ابنُ العسكريّة ، فهل لك أنْ تضبط الأمور» سألته «وأمور المكتبة؟» . أجابني : «يُمكنك أنْ تعمل في الأمرين ، وسأضع لك مُساعَدين في المكتبة ، ما عليكَ إلاّ أن توجّههما ، ثُمّ أنتَ أدرى منّي بحال السّجناء ، إنّهم لا يقرؤون ، فلا تتعب نفسكَ معهم كثيرًا» . لم تُعجبني عباراته الأخيرة ، نظرتُ إليه لأشرح «وجودي في المكتبة من أجلي لا من أجل السّجناء ، أنا أستمتع بعملي ، وأريدُ أنْ أظلّ رفيقًا للكتب فيها» . ردّ : «وطلبي الجديد لا يمنع ما أنتَ عليه» قلتُ له «إذًا لا تضعني مراقِبًا للمشتريات دون التّدخّل في الأمور الأخرى ، أريدُ صلاحيّات كاملة» . سألني : «مثل ماذا؟» . أجبتُه : «صلاحيّة بأنْ أطلب ما يحتاجه السّجناء ، فأنا أعرفهم أكثر منكم لأنّني واحدٌ منهم ، وأنْ أمنع ما أشاء ، وأنْ أتصرّف في موجودات الدُّكّان بالطّريقة الّتي أراها مُناسِبة» . فأجابني : «لك ذلك ، خذ الصّلاحيات الّتي تُريد»

لم يمرّ أسبوع على عملي الجديد ، حتّى لاحظتُ الخلل ، الخلل الّذي كان مُستمرًا لسنوات ، اكتشفتُ أنّ هناكَ تلاعُبًا بالأسعار ، تُشترى السّلعةُ بثمنٍ والمفروض أنْ تُباع للسّجين بهامش ربح ، هذا الهامش كان يتضاعفُ في ظلّ غيابِ الرّقابة ، والفرق يأخذه القائمون على تصريف أمور الدكّان . لقد ضبطتُهم ، لي عشرُ عيون . أمرٌ آخر لاحظتُه ، وهو إدخال موادّ إلى الدُّكّان دون أنْ تدخل في الفواتير بتواطؤٍ ما بين المُورِّد والمُستلِم من عناصر الشّرطة ، وتُباع هذه الموادّ لحساب القسم الماليّ في السّجن والّذي يؤول في النّهاية إلى جيوب الفاسِدين من الشّرطة!! واكتشفتُ كذلك أنّ هناك موادّ تالفة تُباع ،

ومواد منتهية الصّلاحية تُباع ، طبعًا تُؤخذ من المُورّد بسعر التّراب أو بدون مقابل ، وتُباع بالسّعر الدّارج ، وهذا يُشكّل ربحًا كبيرًا وهائلاً يذهب من جديد إلى جيوب الفَسَدة ، كان المُورّد ، وهو من خارج السّلك العسكريّ ، مدنيًا متواطِئًا معهم ، يبيع ذمّته وذمّتهم مقابل أنْ يظلّ عطاء توريد البضائع للسّجن راسِيًا عليه ، وكان يتستّر على سرقات الشّرطة وعلى خيانتهم ، ويغيّر بالفواتير ويتلاعب بالأرقام . انتظرتُ ثلاثة اسابيع حتّى أضبط كافّة التّجاوزات ، ثُمّ قدّمتُ تقريرًا مُفصّلاً إلى مدير السّجن . قرأه هذه المرّة بإخلاص ، واتّخذ على الفور إجراءات حاسمة ، شكّل لجنة تحقيق ، ولجنة جَرْدٍ لموجودات الدُّكّان ، فاكتشفت لجنة الجرد بأنّ هناك موادّ تالفة لا تصلح للاستِهلاك البشريّ دخلتْ بطرق غير قانونيّة تُقدّر بآلاف الدّنانير ، وكانت هذه طامّة بالنّسبة لميزانيّة السّجن وسمعته أمام ديوان المُحاسبة لو وصل الأمر إليهم ، أو وصل إلى الأهالي ، واكتشفوا أنّ حالات التّسمّم والتلبّك المعوي ، والإسهال وغيرها هي بسبب الأطعمة الفاسدة الموجودة في السّجن ، لا بسبب الجوّ ، أو بسبب أمرٍ عارضٍ . وحينَ قورنتْ الفواتير المُقدّمة من قبل المُورّد المدنيّ بموجودات الدُّكّان وُجِدَ هنالك فرق في القيمة بمقدار ثلاثة آلاف وثمانمئة دينار ، وأدرك المدير أنّ هذا الفرق هو الموادّ الّتي وُرّدتْ إلى السّجن بدون أنْ تدخل في الفواتير ، وأنّها تذهب إلى جيوب المُشرفين على القسم الماليّ من الشّرطة ، وغالبًا لا يتجاوز عددهم ثلاثة ، فيقتسمونها بينهم على أغلب الظّنّ . عند ذلك ازدادتْ ثقة بالمدير بي ، وأوكل إليّ أمر الدُّكّان كاملاً ، وشجّعني على أنْ أظلّ مراقِبًا للوضع وألاّ أتأخّر في التّبليغ عن أيّ جريمةٍ تقع . وشعرتُ بأنّني قدّمتُ خدمةً لنفسي ولمبادئي بهذا العمل ، وأنّني أتابع مسيرتي في

القضاء على الفاسدين واقتلاعهم من جذورهم . ثُمّ اكتشفتُ بعد فترة أنّ شجرةَ الفاسدين متجذّرة في الأرض ، وأنّها عامّة طامّة ، وأنّه لم يُفلت من أنْ يأكل من ورقها من المسؤولين إلا أقلّ القليل ، وعرفتُ أنّ النّيّات الصّادقة وحدها لا تُصلح الفساد إلاّ إذا وجدتْ على الحقّ أعوانًا ، وأدركتُ كذلك الوهم الّذي يعيشه المُصلِحون في القضاء على الشّرّ ، وهو منزرعٌ بين أرجلهم ، ويتسلّق كالأفاعي على أجسادهم يريد أنْ يقضي عليهم ، وإذا لم يجد هؤلاء المُصلِحون رِدْءًا من قُوّة ، ونصيرًا من أُمّة ، فإنّ الفساد أقدر منهم على التّغوّل والقضاء على كلّ خير أقول هذا لأنّني استمررتُ - مُتحمّسًا - أتتبّع الخطايا في سير العمليّة ، فاكتشفتُ بعد طول متابعةٍ وتدقيق ، أنّ هناكَ تزويرًا في العلامة التّجاريّة لمادّة زيت الزّيتون ، وأنا فلاّح وأعرف ما هو الزّيت البلديّ ، بل أستطيع أنْ أميّز أنواعه ، وأماكن زراعته إنْ كان في السّهل أمْ في الجبال أم في الصّحراء ، وأستطيع أنْ أميّز عمره ، وهل عُصِر حديثًا أم مرّتْ عليه أشهر أم سنوات . الّذي حدث أنّ المُورّد لهذه المادّة كان يقوم بتعبئة العبوات بزيت نباتيّ (زيت قلي) يُضيف له بطريقةٍ فنّيّةٍ دقيقة بعض الأصباغ ، ويبيعه على أنّه زيت زيتون بلديّ ، ورائحته تفضحه قبل لونه . فتقدّمتُ ببيان ذلك إلى المدير ، ولكنّ هذا المدير الّذي اتّخذ إجراءات صارمة في المرّة الأولى ، لم يتّخذ أيّ إجراءٍ هذه المرّة ، وتناسى الموضوع ، وشككتُ أنّ هناك علاقةً بينه وبين المُورّد ، لأنّه لم يفعل شيئًا له ، واستمرّ بشراء عبوات الزّيت منه ، فلمّا يئستُ من المدير ، هرّبتُ ورقةً مع علي السّنيد أطلب فيها مقابلة رئيس هيئة مُكافحة الفساد ، ومدير مؤسّسة المواصفات والمقاييس لأشرح لهم الكارثة ، وخيانة الأمانة الّتي تُدار في السّجن ، فلمّا علم مدير السّجن

بأنّني طلبتُ مقابلة هذين الشّخصين ، سارع إلى مناداتي ، وراح يُطمئنني ، ويقول إنّه وجّه إنذارًا خطيًا للمتعهّد ، فقلتُ له إنّ ذلك لا يكفي ، وإنّه يجب أنْ يُقدّم للقضاء ، والقضاء يأخذ مجراه في حقّه لينال العقابَ الرّادع ، لكنّه قال لي : «لا نُريد أنْ نُكبّر الموضوع» فسألتُه : «لماذا ترفض تقديم الشّكوى ضِدّه» ، فأجابني : «الحالات إنسانيّة» ، لكنّني لم أقتنع بهذا الرّدّ ، فأيّ حالات إنسانيّة هذه الّتي تحدث مع تاجرٍ غشّاشٍ كبير يجني أرباحًا طائلة من وراء فعلته الشّنعاء ، وتساءلت إذا كان يتحدّث عن حالاتٍ إنسانيّة لهذا التّاجر الغشّاش ، فمن يتحدّث عن الحالات الإنسانيّة لمئات السّجناء الّذين سيُصابون بالأمراض نتيجة أكلهم لهذا الزّيت ، ومَنْ يدري أيّ زيتٍ هو ؛ ألا يجوز أنْ يكون زيتًا مُكرّرًا لعبَ فيه المُتلاعِبون أكثر من مرّة!!

في أواخر سنة ٢٠٠٧م صار السّجن شوربة ، انتشرتْ فيه العصابات المُتخصّصة بالسّرقات ، وبالاتّجار بالمُخدّرات ، وانقسم السّجن إلى ولاءات عجيبة ، على أساسات عنصريّة وإجراميّة ، وانقلبَ الهدوء فيه إلى هوسٍ بافتعال كلّ مشكلة كان المدير شديدًا ، لكنّه إنْ غفل لحظةً عمّا يجري ، وألهاه أمر جمع المال من الدّكّان ، ومن المساجين ، فإنّ الفوضى هي النّتيجة الطّبيعيّة لذلك ، أمّا السّجناء فلا أدري ما الّذي حدث لهم في هذه السّنة بالذّات ، وماذا كانوا يأكلون حتّى لا تكاد تمرّ بمهجع إلاّ وترى مُشاجرةً بالأيدي ، وباللّكمات ، وبالعصيّ ، وبالهراوات . هل الفراغ هو السّبب؟! أم الطّاقة الزّائدة عن حدّها والّتي لم تجدْ منفذًا إلاّ هذا هي السّبب؟! أم قلّة الوازع الدّيني ، أم انتشار الجهل ، أم العصبيّات هي السّبب؟ أم كلّ ذلك مُجتمعًا؟! وانتشرتْ تجارة المُخدّرات بشكلٍ فظيع ، وارتفعتْ أسعار الحُبوب المُخدّرة

إلى ١٥ دينارًا للحبّة الواحدة ، ودخلتْ أنواعٌ لا حصرَ لها . ثُمّ شاعت الأدوات الحادّة في أيدي السّجناء ، وسالتْ دماءٌ من الوجوه والأعناق ، ونُقِل عددٌ منهم إلى المشافي ، وعمّتْ حالةٌ من الهياج غير مسبوقة ، وتحوّل رجال الأمن إلى بوّابين ، وتكلّم عن هذه التّجاوزات تقرير منظّمة العفو الدّوليّة ، وحفظُ الأمن لا يعنِي أنْ تتركَ الأمور على غواربها ، ولا تتّخذ أيّ إجراء ، بل قد يكون الحلّ أحيانًا أنْ تضرب بيدٍ من حديد ، وللحقيقة فإنّني رأيتُ أصنافًا من السّجناء إنْ لم تستخدمْ معهم القوّة فإنّهم سيُحيلون حياتك وحياة السّجن إلى جحيم فوق جحيمه الطّبيعيّ . وإنّ بعضَهم لو احترمْته لَركِبك ، ولو خاطبْتَه بالودّ لَشَتمك ، وهو على حاله هذه لا يُغيّرها مهما تبدّلت الأيّام والسّنون ، وتذكّرتُ المتنبّي حين قال بيته الشّهير :

إذا أنتَ أكرمْتَ الكريمَ مَلَكْتَهُ

وإنْ أنتَ أكرمْتَ اللّئيمَ تمرّدا

واقترحتُ على الإدارة أنْ تُخصّص مهاجع مُحدّدة لذوي الميول الإجراميّة والعُنفيّة ، وأنْ تضعهم فيها وتعزلهم عن بقيّة المساجين المساكين الّذين يدخلون السّجن لأوّل مرّة ويصدمهم الواقع الفظيع الّذي يرونه ويُعايِشونه ، أمّا الّذين قضوا ثلاثة أرباع عُمرهم في الإجرام وفي بيئة سيّئة وفي إهمال تربويّ صارخ ، ومن سجنٍ في جريمةٍ إلى سجنٍ آخَر في جريمةٍ أخرى ، فلن يصلحوا سريعًا ، ولن ينفع معهم في بعض الأحيان إلاّ العزل ، وشدّة الحذر . وإنّ مَنْ شبّ على شيءٍ شاب عليه . وكالعادة كنتُ كمن ينفخ في قربة مخزوقة!!

وشاع أنّ السّجن كبرميل من البارود تتّقد تحته شمعة ، وأنّه في أيّ لحظةٍ قد ينفجر بكلّ مَنْ فيه من السّجناء والسّجّانين ، فعمدت

الدّولة إلى تغيير المدير، لتأتي بمدير جديد قادر على ضبطِ الأمور، هكذا ظنّتْ؛ فجاءنا مُديرٌ قاسٍ غليظُ القلب مُتجبّر مُتكبّر، ولم يُفرّق بين القُوّة وبين القسوة، وكانتْ تنقصه الحِكمة. وكان يظنّ أنّ القُوّة وحدها تحلّ كلّ شيءٍ، ولم يدرِ أنّه كان بحاجةٍ معها إلى عدل ورأيٍ ومشورةٍ وحساباتٍ أخرى.

(٦٢)
طُقوس التّطهير

تزلَ بكَ قدمٌ فتنهض ، ينبحك كلبٌ في الطّريق فتَخْسأه ، تُباغتك رائحة الذكريات الجميلة فتبكي ، يعلق بِرجلكَ ألفُ شَرَكٍ فتقلعها وتمشي مُدمّى القدمين ؛ نتصرّف كما تُسيّرنا الفطرة الّتي فُطِرنا عليها ؛ نحن لا نحتمل إلاّ ما خُلِقنا لاحتماله ، فلا نوقّر ذا السّلطة لقوّة سلطته بل لقوّة أخلاقه ، فإنّ غلبت سلطتُه أخلاقه احتقرناه في قلوبنا ولو لم نَقدر على إظهار ذلك .

هبط علينا المُدير الجديد وفي نيّته أنْ يُؤدّب السّجن ؛ لأنّه مُتنمّرٌ يحتاج إلى ترويض ، مُهلهَلٌ يحتاج إلى تمتين . أطلقَ يده في المساجين دون أنْ يُفرّق بين مَنْ يستحقّ العقاب ومَن لا يستحقّه ؛ (الصّالح راح بعُروى الطّالح) من أجل العدالة كما كان يدّعي . فكلّ من في السّجن تعرّض للأذى بطريقة أو بأخرى ثُمّ أراد أنْ يُذلّهم ، فأوصى بحلق شعورهم كلّها على الصّفر دون استثناء ، ووصل الدّور عندي ، فطلبوا رأسي أنْ ينصاع ، كانوا يريدون أنْ يحلقوا شعر رأسي وشعر لحيتي ، تحلّق حولي ستّة ضُبّاط لتنفيذ المهمّة ، لم أَدخل ضمن جزّ الرّؤوس في الممرّات بين المهاجع بشكلٍ جماعيّ ، ولكنّهم استفردوا بي ، فقلتُ لهم : تستطيعون أنْ تفعلوا ذلك في حالة واحدة ؛ هي أن تبطحوني على الأرض وتُقيّدوني وتقوموا بذلك رغمًا عنّي ، أمّا أنْ أُسلّم رأسي هكذا بدون أيّ مقاومة وبإرادتي وطوعي فلا يُمكن أبدًا . بعثَ أحدهم

إلى المدير يُخبره : «الدّقامسة يرفض الأوامر سيّدي» ، فاستشاط غضبًا ، وجاءني يغذّ الخُطا ومعه نفرٌ غير قليلٍ من العساكر ، وقف قُبالتي : «لماذا لا تريدُ أنْ تحلقَ رأسَك؟» . أجبتُه : «ببساطة ؛ لأنّه ما من سببٍ يدعو لذلك» . فردّ عليّ : «ولكنّ كلّ مَنْ في السّجن انصاع للأمر سواك» . «وما شأني بهم؟ هم أحرار ؛ أمّا أنا فلن أحلق» . ردّ مغضبًا : «أنتَ لا تنتمي لهذا الوطن» . فاجأني كلامه لا من حيثُ نبرته الغاضبة ، ولكنْ من حيثُ علاقته بالأمر ، فلم أكنْ لأستبين العلاقة بين حلق شعر الرأس والوطنيّة ، هل الّذي يهبط برأسه تحت موسى الحلاقّ يأخذ صكًا مدموغًا بالوطنيّة ، والّذي لا يفعل يكون قد شرد من حِمى هذه الوطنيّة؟! لكنّني آثرتُ أنْ أُجيبه بطريقتي ، فقلت : «إنْ وصلت الأمور إلى الانتماء للوطن ، فأنا أكثر وطنيّةً منك ، وأنا دفعتُ ولا زلتُ أدفع ثمن الانتماء إلى الوطن ، ووجودي هنا أكبر دليل ، أمّا أنتَ فانتماؤك مدفوع الأجر ، والثّمن هو وظيفتك ، منصبك ، وراتبك» . زفر المدير زفرةً طويلة ، وخرج وهو يتوعّد .

قال لي رئيس القسم راجيًا : «من أجلنا يا أحمد» . فأجبتُه وأنا أهزّ أكتافي : «افعلوها ولكنْ بالطّريقة الّتي قُلتُها لكم» . ردّ : «أنْ نبطحك فلا تحلم ، لن نفعل ذلك ، ربّما تستخدمها ضِدّنا غدًا في وسائل الإعلام وتصنع منها قضيّة تتناقلها أفواه الإذاعات ، لكنْ أنتَ ستحلق بخاطرك» . أجبتُه «بخاطري ، والله ما بحلق ، إلاّ إذا كان رغمًا عنّي ، بأنْ يهجم عليّ ستّة عناصر من الأمن أو سبعة ويقوموا ببطحي وإلقائي أرضًا ، ويُقيّدوا يديّ خلفَ ظهري ، ويفعلوا ما جاؤوا من أجله . لكنّ رأسي لن أسلّمه لكم» كان أذان الفجر قد اقترب ، وراح صوتُ المؤذّن يعلو من مئذنة مسجد السّجن . بأذان الفجر كانوا قد

حلقوا لكلّ السّجن . كان فيه ما يزيد عن (١٥٠٠) سجين قد أصبحوا صُلعانًا ، وذهبتْ شعور رؤوسهم إلى مكبّ النّفايات . منظرهم وهم يصطفّون في صفوف طويلة تزيد عن مئة متر في الممرّات الفاصلة بين المهاجع على جانبَيها لا يُمكن أن أنساه ، لقد كان ممتعًا بشكل خُرافيّ .
كان الحلاّقون هم من السّجناء أنفسهم الّذين يعملون براتب عشرين دينارًا في الشّهر لحلاقة مَنْ تطول رُؤُوسهم ، الغريب أنّهم كانوا يُفرّغون كَبْتهم في رؤوس مَنْ يحلقون لهم ، مع أنّهم زملاؤهم ، كانوا يهجمون على فروة الرّأس بوحشيّة ، أزيز الماكينات المتحفّزة كان يعلو فوق رؤوس المساجين المُصطفّين في صفّ طويل ، متوزّعين على ما يقرب من ثلاثين حلاّقًا ، كأنّهم ماعز في بطن جبل رابضة في الظّلّ ، غير أنّ الحلاّقين في تلك اللّحظات كانوا يمارسون دور الذّئاب ، كان دورًا جميلاً بالنّسبة لهم واستمتعوا وهم يؤدّونه ، نهشوا بعض الأطراف ، وقرَصوا بعض الأعضاء ، وضحكوا ، وبرقتْ عيونهم من التّشفّي ، مع أنّ الدّور كان سيحين لهم بعد أنْ يُنهوا مهمّتهم مع الرّؤوس المُصطفّة أمامهم ، وستبدأ الذّئاب بنهش أنفسها ، سيقوم كلّ ذئب بالهجوم على فروة ذئب آخر ، حتّى تقضي الذّئاب على رؤوس بعضها بعضًا كانوا يضحكون في لحظات خاطفة «بطّيخة!!» يصرخون ، يُلَخْمس أحدهم على رأس أحد ضحاياه ، يفركها بالماء ليتوزّع ما سال من دم على تلك البطّيخة ، قبل أنْ يزول تمامًا ، يتندّرون : «من يشتري . .؟» ، وما كانوا يدرون أنّ الدّور قادمٌ عليهم ، وأنّ تأجيل الضّربة لا يعني عدم وقوعها
ذهبتُ إلى مُصلّى المسجد ، صلّيتُ الفجر ورجعتُ ، فإذا بهم ينتظرونني ، يريدونني أنْ أحلق : «قلتُ لكم مستحيل إلاّ بالطّريقة الّتي قلتُها لكم» . اتّصل رئيس القسم بالمدير ، وكان المدير منتفشًا ، ولا يزال

مُزبِدًا ، قال له على السّماعة في الطّرف الآخَر «احلقوا له غَصْبًا عنه ، والله لَيِنْحلِقْ له غصبًا عنه» . أنزل رئيس القسم السّمّاعة ، ونظر في وجهي متوقّعًا انفجار أزمة في أيّة لحظة ، كانت السّماعة لا تزال في يده ، وهو يضغط على زرّ انقطاع الاتّصال قبل أنْ يقول لي ، وعيناه تتحاشيان النّظر في وجهي : «ها هو المدير يا أحمد يقول لي احلقوا له غصبًا عنه» . فأجبتُه بكلّ هدوء : «طيّب ، احلقوا لي غصبًا عنّي ، ثلاثةٌ منكم لا تكفي ، ولا أربعة ، أريد ستّة أو سبعة ليبطحوني أرضًا ، ثُمّ ليفعلوا ذلك» . فردّ رئيس القسم : «والله ما لي حاجةٌ في أنْ أفعل ذلك ، وأنتَ عندنا من المُكرّمين ، لكنْ من أجل يمين المدير ، سنتوصّل إلى حدّ معقول يُرضيه» . نظرتُ إليه بطرف عيني دون أنْ أرفع رأسي ، ويداي مُسجّيتان على بطني : «هاه!!» قال : «نحلق لك من طرفي رأسكَ قليلاً هنا ، وقليلاً هنا ، وبذلك نبرّ بقسَم المدير ، وبقسمك أيضًا» . فأجبتُه باستهتار ، واستخفاف : «والله لن يكون . لن أفعل ذلك» . فردّ بهدوء : «خذ أنتَ الماكينة ، واحلق لنفسك ما تراه مناسِبًا ولو كان قليلاً» . فرددتُ عليه «كلاّ» . نفثَ من صدره نفثة المهزوم الّذي لا حيلةَ له ، وأحسستُ بضعفه ، وشعرتُ أنّه هو المأزوم لا أنا ، وأنّ الضّرر سيقع عليه هو لا عليّ ، فقلتُ له : «هاتِ الماكينة ، ألستَ تريدُ أنْ أحلق شعرتَين من هنا وشعرتَين من هنا .. أنا سأفعل ذلك» وبالفعل أخذتُ الماكينة ، وحلقتُ شيئًا بسيطًا ، لا يظهر ذلك عليّ أبدًا كان ذلك يوم الأربعاء . يوم الخميس قام المدير بجولة على السّجن ، راح يلفّ هنا وهناك . كان المساجين إذا رأوا مدير السّجن قادِمًا وخلفه ضُبّاط يتبعونه لاهثين لا يتقدّمونه كأنّه سُلطان زمانه ، بلباسهم العسكريّ النظيف المكويّ ، ومن ورائهم كذلك عددٌ غير قليل

من العساكر يُشبهون الحرس ؛ كان هذا المنظر المهيب يلقي الرّوع في قلوب المساجين ، فيبدؤون بالتّعييش ، وبالهتاف ، وبالغناء للملك . بالنّسبة لي لم أكنْ أفعل من ذلك شيئًا . جاء أحدهم صار يُعيّش عندي في الغرفة الّتي أسكنها ، فطردْتُه من الغرفة ، وركلْتُه بقدمي على قفاه : «اخرجْ يا عَرْص» . لمّا وصل إليّ مدير السّجن ، لم أُعيّش ، وأبرزتُ نفسي أمامه كيِ يعرفَ أنّني لم أفعل . لم يتكلّم بحرفٍ لحظتَها لكنّ ذلك جرح كبرياءه على ما يبدو ، راح إلى المشاغل ، غرفتي هي على باب المشاغل ، كنتُ جالسًا لحظتها جلسة القرفصاء ، وإذا به يقف على الباب ويقول لي : «لماذا لا تقف حين أكون موجودًا . . .؟» . فقلتُ له : «لا أستطيع الوقوف ، عندي دسك في ظهري ، هكذا نُصحتُ بألاّ أقفَ لأحد؟ هل أنتَ تستحقّ أنْ يزداد مرضي لأجل أنْ أقف له؟» . هزّ جسده بعصبيّة كرفّاس وهو يعقد يديْه خلفَ ظهره ، كان يبدو أنّ الأمور تسير إلى التّعقيد ، في تلك اللّحظة الّتي بدأتْ فيها الأمور تتأزّم ، قام أحد أفراد غرفتي بالتّعييش . لقد مرّتْ لحظات عصيبة ، قطعها تعييش عدد آخر من المساجين بالحماسة نفسها كانوا بذلك يستدرّون عطف المدير ، ويستبعدون نقمته . بعد هذه الحادثة سيزداد حقد المساجين عليّ ، وسيبدؤون بعمليّة تحجيم وتقييد لي ، بل ونبذي في بعض الأحيان ، بدعوى أنّني أسبّب لهم المشاكل . هتف المدير كمن يبحثُ عن حلّ لكبريائه المُراقة على الأرض : «معك دسك بالنّسبة للوقوف ، لكنْ لماذا لا تُعيّش؟» . فأجبْته «لكَ لنْ أُعيّش» . فردّ : «وللملك؟» .
فأجبتُه : «على كلّ حال الولاء والانتماء في القلب ، لا في اللّسان»
فقال – وجسمه يرتجّ من الغضب – للعسكر «ابعثوا به إلى الزّنازين الانفراديّة حالاً» . فرددتُ بهدوء وأنا أنظر في عينيه بتحدٍّ : «ولكنْ

هذه كبيرة ، أتظنَ أن تمرّ هكذا؟» . لم يكترث لما قلتُ ، وصرخ بوجه العسكر والضبّاط مرّة أخرى : «ابعثوه إلى الزّنازين خلّيه يتأدّب» . تقدّمَ أحد الضبّاط الّذين يعرفون عِنادي من المدير ، وقال له بهدوء ، محاوِلاً ثني المدير عن قراره : «يا سيّدي هذا أحمد الدّقامسة!!» كان المدير بالطّبع يعرفني ، ولكنّه أنكرني استكبارًا ، فردّ عليهم : «كائنًا من كان ، ليس عندي فلان أو علّان ، مثله مثل بقيّة المساجين ، عليه أن يخضع للأمر» . ثُمّ كرّر قولته : خذوه إلى الزّنازين» . لم يسلم يومذاك في السّجن من جزّ الرّؤوس غير ثلاثة : أنا ، وإمام المسجد ، والمُؤذّن .

دُفعتُ إلى الزنازين ، كان السّجن كلّه في حالة ارتِباك وترقّب ، في الطّريق إلى الزّنازين لقيني طبيب السّجن ، فسأل : «إلى أين؟» . فقلتُ له : المدير الغبيّ بعث بي إلى الزّنازين ، لأنّي لم أُعيّش له» . فردّ مبتسمًا : «المسكين لا يعرف أنه معك جلطة في القلب ، وسُكّري ، وأنّ وضعك في الزّنازين الانفراديّة أمر خطير ، انتظرْ هنا ، سأتصل بالمدير فورًا» . وطلب من العسكر الّذين يقتادونني أن يتوقّفوا عن تنفيذ الأمر ريثما يتّصل المدير .

في الاتّصال قال له : «يا سيّدي قد يكون يستحقّ الزّنازين بنظرك لأنّه خالف الأوامر ، لكنّه مُصاب بالقلب والسّكري ، وتصلّب في الشّرايين ، ولا يمكن وضعه هناك من النّاحية الصّحيّة» . ردّ المدير بلا مبالاة : «سيدخل الزّنازين يعني سيدخلها» كان الطّبيب مناورًا جيّدًا فقال له : «يا سيّدي وضعه في الزّنازين لا يتسبّب بمشكلة له فحسب ، بل بمشكلة لنا قانونيّة ، مغلّفة بما يُدعى الإهمال الطّبّي ، وستكبر القصّة إلى حدٍّ لا يمكن معه احتمالها أو احتِمال تَبِعاتها» فصرخ هذه المرّة وقد فقد أعصابه «أنا قلت يجب أن يذهب إلى

الزّنازين ، يعني يجب أن يذهب إلى الزّنازين» . وأقسم أغلظَ الأيمان .

كنتُ قد كتبتُ حينها بضعة أرقام مثل تلفون ميسرة وعلي ، وقلت للشّباب الّذين معي في المهجع : «اتّصلوا بهذه الأرقام وقولوا لهم : إن أحمد الدّقامسة في الزّنازين كي يتصرّفوا» كانت الهواتف الخلويّة تنتشر في تلك الأيام ، لكن انتشارها لم يكن كبيرًا بسبب تضييق المدير . كان ذلك يوم الخميس الّذي يسبق يوم الجمعة ، والذي هو موعد الزّيارات ، وكنت قد فكّرت بتبليغ القوى الوطنية في الخارج بطريقة مختلفة ؛ إذ وزّعتُ أرقام هؤلاء الناشطين على أصدقائي في المهجع الذين يتوقّعون زيارات لهم في اليوم التّالي ، وأخبرتهم أن يخبروا ذويهم ليتّصلوا بالنّاشطين ويُعلِموهم أنّني في الزّنازين بسبب حماقة المدير ، وأنني سأبدأ إضرابًا عن الطّعام . أُودِعتُ الزّنازين في الساعة الحادية عشرة والنّصف ونصف ليلاً ، وبعد محاولات مع المدير ، أخرجت منها في السّاعة الواحدة والنّصف ، ولم يكنْ قدْ مرّ عليّ في الزّنزانة أكثر من ساعتَين ، لكنّ ذلك يعني أيضًا أنّني قطعتُ منتصف اللّيل الفاصل بين يومَين فيها . قابَلوني بالمُدير ، اعتذر منّي وهو مُطرِقٌ دون أنْ ينظر في وجهي ، ولكنّني لم أقبل اعتذاره لأنّه قال كلمته تخلّصًا ، واستِعلاءً

في صباح يوم الجمعة سألني زملائي في المهجع الّذين يتوقّعون الزيارة : «ماذا بالنّسبة للأرقام الّتي أعطيتنا إياها؟ هل نوصلها؟ أم أنّ الأمر انتهى باعتذار المدير لك؟» . فقلتُ لهم : «حتى لو أني لم أقضِ إلا ساعتين ، إلا أنّه يجب أن يصل تصرّف المدير بإلقائي في الزّنازين إلى الرأي العام ، وعليه أنْ يُحاسَب على ما فعله بكم» . وطلبتُ منهم أن يُتِمّوا الأمر . وصلت الحكاية إلى عليّ الّذي لم يكن ليقصّر أبداً ،

فبعث بها إلى بعض القنوات الفضائيّة والصُّحُف ، وصارت عليها ضجّة كبيرة ، فهُرِع إليّ المدير مُستنكرًا : «لقد أخرجتك من الزنازين ، ولم تقضِ غير ساعتَين» . «بل قضيتُ ليلة» . «وتُحرِجني بهذه الطَّريقة؟» . «أنتَ أحرجْتَ نفسَك» . «لقد قالوا لي إنك (تِنح) وإنك (دِقِن) ، لكنْ لم أكنْ أدري أنّك وقح أيضًا»

لم يمضِ أقلّ من أسبوع على حادثة الحَلق الشّهيرة ، حتّى وقعتْ حادثة أُخرى مرعبة في السّجن ، لم يكنْ ليتصوّرها عقل ؛ قام حوالي (١٦٠) نزيلًا بإعمال الشّفرات الحادّة في قشرة رؤوسهم المحلوقة ، وراحوا يحفرون الرأس حفرًا في طقوس غرائبيّة ذكّرَتْني مع بشاعتها بطقوس التّطهير في القرون الوُسطَى حينما اجتاح الطّاعون أوروبّا ، يوم أنْ أمر القساوسةُ النّاسَ - ظنًّا منهم أنّ الطّاعون بسبب الشّيطان وغضب الرّبّ على خطاياهم - أنْ يسيروا على شكلِ جماعاتٍ وأفواج في الشّوارع شبه عُراةٍ ويقوموا بتطهير أنفسهم عن طَريق ضربِها بالسّيوف والخناجر والسّلاسل الحديديّة ، لقد تذكّرتُ ذلك لمّا رأيتُ هذا العدد الّذي لم أدرِ إلى اليوم كيفَ اتّفق على أنْ يصنع بنفسه هذه المجزرة وعلى مرأى من بقيّة النّزلاء والشّرطة في وقت الفَورة!! كانوا قد تجمّعوا في تكتّلاتٍ دائريّة في الممرّات ، وفي أيديهم كلّ ما يُمكن أنْ يغوص في قشرة الرّأس على صلابتها ، ورأيتُ كيف نفر الدّم من بعضِ الرّؤوس ، وكيف راحت هذه الدّماء تسيل على وجوههم في خطوط مُتعرّجة ، كانت حفلة صارخة ، وجد فيها بعضهم من اللّذة ما لم يجد في سواها . ولم تكنْ كلّ نظريّات علم النّفس تُسعِفُ في فهم سِرّ هذه اللّذّة الغريبة ، واستمرّتْ حفلتُهم ساعاتٍ لم يستطع عسكريٌّ واحدٌ خلالها من الاقتِراب منهم ، حينها طلب مُدير السّجن مساعدة الأمن لإنهاء هذه

المذبحة . ثُمَّ طلبَ مساعدة وزارة الصّحة لعلاج الجرحى ، وأُحضر إلى السّجن مستشفى ميداني بكامل طاقمه ، وانهمك الأطبّاء في خياطة الجروح النّازفة الّتي لم ينفع معها إلا العمليات الجراحيّة ، فنُقلوا من أجل ذلك إلى المُستشفيات الخارجيّة ، وتوزّعوا على أكثر من مستشفًى ، كانت سيارة الإسعاف تطلق زعيقها وهي تروح وتغدو بشكل مستمرّ لتنقل الذين لم ينفع معهم العلاج الميداني!

لِمَ يُقدِم الإنسان على إيذاء نفسه بهذا الشّكل الصّارخ؟ ما الّذي يدفعه إلى ابتكار الوسائل لتعذيب نفسه؟ مع أنّه ينبغي في الوضع الطّبيعيّ أنْ يكون أحرصَ النّاس على نفسه ، يحميها من كلّ خطر يداهمها أو أذًى يُصيبها ، بل هو لا يقبل عليها أنْ تُشاك بشوكة ؛ فما الّذي حدثَ إذًا؟ لقد كانت هذه الحركة تعبيرًا عن احتجاج السّجناء على معاملة المدير الجديد ، وطريقة يرونها هي الأمثل في إيصال صوتهم إلى العالَم الخارجيّ . وقد وصل بالفعل لكنّ ثمنه كان سيلاً من الدّماء

تمّ نقل المدير نقلاً تأديبيًا ، وحُوّل إلى محاكمة عسكريّة ، وحلّ محلّه مديرٌ جديد على الفور . وتنفّس السّجن الصّعداء .

في السّاعة الأولى لعمله جاء إليّ المدير في المهجع ، وسلّم عليّ بحرارة ، وقال لي : «ألَمْ تعرفْني؟» . فنظرتُ في وجهه وقلتُ له «لا والله بلا زُغرة» . فضحك وقال : «تمعّن فِيّ جيّدًا ، صحيحٌ أنّني تغيّرتُ قليلاً ، ولكنْ ليس إلى الحدّ الّذي لا تعرفني فيه» . فقلتُ له متذمّرًا «أنا مُصابٌ بفقدان الذّاكرة ، اعذرني» ، حينها عرّف على نفسه : «أنا عبد الكريم الحوراني» . وصَحَتِ الذّاكرة فجأة ، إنّه الرّجل الّذي أنقذ حياتي بإنقاذ دفتر مذكّراتي من الحرق قبل أكثر من سنة ونصف في

هذا السّجن أيّام المُداهمات والتّفتيشات ، عانقتُه بحرارة ، وسألتُه عن أخباره . قال لي : «لقد انتدبني مدير الأمن العام لكي أكون مديرًا لهذا السّجن ، وأريد منك مساعدتي في تهدئة الأمور ، فأنا أتيتُ بعدَ مجزرتَين ، ووضعي صعبٌ إنْ لم أجدْ تعاونًا من السُّجناء ، وأريدُكَ أنْ تكون في مُقدّمتهم لرهاني على وعيك وسداد رأيك» . فأجبته : «أنا مستعد لمساعدتك بشرط احترام النّاس لأنّ لهم ذواتهم المستقلّة وإنسانيتهم الخاصّة ، وهم ليسوا هنا عُلبًا مُكدّسة تتحكّم فيها كما تشاء ، ولا أواني نُحاسيّة تطرقها كما تريد» فردّ علي ، وهو يضع يده فوق كتفي كصديق : «أنا معك ، وسأتعاون فيما تراه مناسبًا بكلّ الوسائل المُمكنة» .

طُفْتُ على الّذين أتوسّم فيهم الخير من أهل العقل ، انضمّتْ إليّ في إصلاح ما فسدَ مجموعة من السّجناء المثقّفين ، وأصحاب الأخلاق العالية ، وتَساعدْنا جميعًا في الارتقاء بحال السّجن ، وإبعاد شبح الفوضى المُرعب الّذي كان يطوف في ممرّاته ، وأعدْنا إلى السّجناء ثقتهم بأنفسهم ، وبقدرتهم على نيل حقوقهم إذا ما طالبوا بها بحكمة ودون حماقةٍ أو افتعالٍ للمشاكل .

(٦٣)
رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليسَ له عُمْرُ

مكتبة الرمحي أحمد ١٨

اتّخذني صديقًا ومُستشارًا ، وكان على قدر كلمته ، فتعامل بكل أبوية وأخلاقيّة مع المساجين . وهو أفضل مدير سجن على الإطلاق في السّنوات العشرين الّتي قضيتُها في منافِيَّ الواسعة ، وأنا أعني ما أقول .

عامَلَ السّجناء كأنّهم إخوته ، ومسح على قلوبهم ، وعرفَ أنّ بذرة الخير في أعماقهم موجودة فحاول أنْ يسقيها بماء المودّة ، ودرس أحوال السّجناء من ملفّاتهم ، وأثر بيئاتهم عليهم ، وانسحب ذلك على تعامله معهم ، وتفاعله مع قضاياهم ، فلم يُسِئْ لأحد ، ولم يشتم ، ولم يضربْ ، ولمْ يُهِنْ أحدًا ، وبثّ روح الصّبر في السّجناء حتّى كأنّه سجينٌ في مهاجعهم يُعاني ما يُعانون ، وطلب منهم احتساب الأجر في ذلك حتّى عند أولئك الّذين لم يعرفوا الله من قبل ، ولم يركعوا له ركعة . وعمل على الوعي ، فاستضافَ عددًا من أصحاب الرأي والفهم والثّقافة من خارج السّجن ، وعقد لهم ندوات حقيقيّة ، يُشارك فيها السّجين برأيه ، ووقف إلى جانبي في أمر المكتبة ، ودعاني إلى ابتكار الوسائل لتحبيب النّاس بالقراءة ، وكان يمرّ بي في المكتبة كلّ يوم تقريبًا ، ويسأل عمّا قرأت ، ويسترشدني فيما يقرأ

ثُمّ حسّن أوضاع النّزلاء ، وتفهّم همومهم ومشاكلهم وساعدهم بطرقٍ عرفتُ بعضَها وخفي عنّي غيرُها ، واتّصل بجمعيّات خيريّة عديدةً بحسب سلطته وموقعه الأمنيّ ، وأمّن بعض المُساعدات الماليّة

والعينيّة للسّجناء داخل سجنه ولأسرهم في الخارج، وطلبَ من مديريّة الأمن العام شراء جهاز ليزر لمساعدة السّجناء الرّاغبين في التّخلّص من الوشوم الّتي تدبغ جلودهم، تلك الأوشام الّتي لطّختْ أجسادهم منذ المراهقة، ولوّثتْ جمال الخِلقة الّتي خلقهم الله عليها، فندموا على عملها لقلّة وعيهم آنئذٍ، وعدم وجود مَنْ يُرشدهم، وها هو يُتيح لهم الفرصة لكي يعيشوا بلا أوساخ، وتنتهي عقدة الشّعور بالذّنب أو النّقص الّتي ترافقهم كلّما نظروا إلى جزءٍ ظاهرٍ أو مخفيٍّ من أجسادهم.

ولم تقفْ إصلاحاته عند هذا، بل عقد ورشاتٍ تدريبيّة مِهْنيّة في النّجارة والحِدادة والدّهان والميكانيك، وكانتْ مجّانيّة، وأحضر لها خُبراء، ودفع لهم من ميزانيّة القسم الماليّ في السّجن، وكان يُدرك أكثر من غيره أنّ هؤلاء إنْ خرجوا بلا مهنة من هنا سيعودون إلى الجريمة، وقلّل هو بهذا نسبة ارتكابها، بل وخلّص بعضهم منها إلى الأبد.

وسمح بإدخال الملابس أيًا كانتْ من الخارج بأيّ لونٍ، فقد كانت في السّابق لا تدخل إلاّ بدلات الرّياضة والدّاخليّ دون سواهما، وكان يجب أنْ تكون سوداء أو زرقاء. وفي عهده لم يضع شرطًا على نوع أو لونٍ، ولم يُؤخّر في الأمانات شيئًا منها، فكانت تأتي هذه الملابس مَن ذوي السّجناء إلى السّجن وتُوزّع في اليوم نفسه على مُستحقّيها، وصار بإمكانك أنْ ترى جاكيتات الجلد أشكالاً وألوانًا، ودبّت الحياة الّتي تُشبه الحياة في السّجن، وشعر النّاس أنّ عهدًا شديد الخُضرة قد غمرهم.

ودخلتْ أنواعٌ من الأطعمة والحلويّات، لم يعهد له أحدٌ مثيلاً من

قبل ، دخلت (الكنافة) ، فقامت الأعراس ، وصرنا نتدلّل في طلب الخشنة والنّاعمة منها ، ودخلت (البقلاوة) فهنّأنا النّاجحين في الثّانويّة من السّجناء بالنّجاح ، ودخلت (الوَرْبات) الفاخرة ، وتجرأنا أنْ نطلب الأنواع الّتي نريد ، فلم تعدْ أيّ (هريسة) تُعجبنا . ودخل اللّحم ، والخُضار ، ودخل من الفاكهة ما لم نحلم بأنْ نراه ، دخل الأناناس ، والأفوكادو ، والعنب بكلّ أصنافه ، وراح بعضُ مَنْ يملكون أكثر من غيرهم من المال ، يشترون للمهجع كلّه فيَطعَمون ويُطعِمون ، وازداد العهد يناعةً وخُضرة!

وأمر بتحسين وجبات الطّعام ، فبعد أنْ كانتْ هناك قُدورٌ عظيمة يزيد قُطر القدر الواحد منها عن مترٍ أو مترٍ ونصف ، وتُلقَى فيها أكياس البطاطا والزّهرة والباذنجان دون أدنى مراعاة للنّظافة ، صار كلّ شيءٍ يُغسَل ، ويُنضَج بتأنٍّ ، ويُراعَى فيه النّظافة والمِهنيّة ، وصار المدير بنفسه يزور المطبخ ، ويطمئنّ على صلاحيّة اللّحوم ، وإذا شكّ ولو بنسبةٍ ضئيلةٍ بأيّ نوعٍ من اللّحوم كان يُخرجه من السّجن مباشرةً ويُرجعه إلى المتعهّد ، ويحذّره من أنْ يُكرّر ذلك ، وقد يُلغي الاتّفاق معه ، ويتّفق مع آخر يكون أمينًا وصادقًا ، وكان المدير يقول لمتعهّد الطّعام : أدخِلْ إلى السّجن ذات البضاعة الّتي تُدخلها إلى بيتك . وذهبَ المُدير إلى أبعدَ من ذلك ، فشارك السّجناء طعامهم ، وجلسَ إلى موائدهم ، ومازَحهم ، وتحدّث معهم كرفيق ، وسمع قِصصهم ، وأسمعهم قِصصه ، وعلى هَدْي مودّته وحُسن تعامله ، خجل أكابر المُجرمين من أنْ ينكثوا عهدهم معه ، فيفتعلوا المشاكل ، مع أنّها من قبلُ كانت لا يمرّ يومٌ دون أنْ يكون لها هياج!

ثُمّ إنّه أوصل صوتَ المساجين إلى العالَم الخارجيّ ، إلى

السّلطات ، إلى الجهات القادرة على المُساعدة ، حتّى إلى المحاكم الّتي لا علاقةَ له بها كونها جهة قضائيّة ، ولكنّه كان يلتزم حدوده ، وعينُه على : «لأنْ يسعى أحدُكم في حاجة أخيه خيرٌ له من عبادة الله ستّين عامًا» . وكان على قدْر ذلك . وسأله السّجناء مرّة أنْ يُقدّم لهم عريضةً إلى الملك للإفراج عنهم ، فقام هو بصياغتها ، وأعطاها لشرطته تدور على المهاجع ، ويكتب فيها كلّ مَنْ أرادَ اسمه ، ويوقّع ، وقام بالفعل برفعها إلى الدّيوان ، وكان يضع نفسه مكان السّجين ، ويُفكّر بتفكيره ، ويشعر بشعوره .

ورأى عجوزًا تبكي لفرط شوقها إلى ابنها ، وقد دخلتْ إلى ميعة الزّيارات ولم تهتدِ إليه ، وهي تبحثُ بلهفةٍ وقد انحنى ظهرها . ولمّا لمحها بكى لبُكائها ، وقبّل رأسها ، وسألها عن اسم ابنها ، ثُمّ أخذ بيدها ، وأدخلها إلى غرفةٍ تزور ابنها زيارةً خاصّة وتحتضنه بدلاً من أنْ تُخاطبه من وراء الشّبك . وكانتْ لفتةً إنسانيّة لا يقوم بها إلاّ ذو قلبٍ مُفرطٍ في الإنسانيّة

لكنْ ، هل كان السّجناء يستحقّون ذلك؟ هل كان السّجن بمن فيه من العساكر والشّرطة والضّبّاط يقبلون بذلك ، هل يصبرون على هذا العدل والضّبط الّذي يمنعهم من ممارسة تجارتهم في الخفاء ، فإنّ هناكَ سلَعًا مُربحةً أوقفها هذا المدير ، ولم تعدْ سوقها رائجة ، أينَ المُخدّرات ، أين الحبوب ، أين الهواتف الخلويّة ، أين الملابس الّتي كانتْ لا تدخل إلاّ برشوة ، فصارتْ تدخل بلا مقابل؟! إنّ هذا المُدير يُصادر صلاحيّاتهم ، ويُحاصرهم ، وسيجدون أنفسهم على الحديدة إنْ لم يُبعِدوه ، وجيوبهم فارغة

ولي مع المدير قصصٌ كثيرةٌ ، فذات يوم كنت واقفًا في الممرّ ،

فرآني ، فأقبل نحوي وسألني : «أتذكر دفتر مذكّراتك الّذي أنقذتُه لكَ من النّار؟» فسألته وقد توجّسْتُ قليلاً : «لم تسأل عنه؟ أنت الآن مدير سجن ولم تعد ضابطًا كما كنت في السّابق» . فضحك ، وقال لي وقد رأى الرّيبة في عينَيّ : «اطمئنّ ، لا تظنّ بي سوءاً ، ليس الأمر كما خطر ببالك ، ولكنّ أم سائد وهي زوجتي حفرت راسي وهي تريد أن تعرف قصّة أحمد الدّقامسة ، ومن هو هذا الرّجل ، ولما صرت مديرًا للسجن ، قالتْ بأنّ الفرصة قد حانتْ لأحصل على الدّفتر بحكم سلطتي ، فوعدتها بذلك بعد طول إلحاح ، فهي تريدُ أنْ تقرأ قصّتك ، وسأعيده لك حالًما تنتهي منه» . قلتُ له «إذا أمّ سائد دخلتْ بالموضوع فلم يعدْ لنا كلامٌ ، لكنّ الدّفتر تضخّم كثيرًا عن السّابق» «أعطِني إيّاه على أيّة حال» . أخذه منّي ، ولم يمكث عنده أكثر من يومَين ، قال لي : «إنّها لم تنم لليلتَين حتّى تقرأ كلّ ما كتبت» . وأعاده إليّ شاكِرًا ، حينها تعرّفتُ صدقه ، وأنّه يمكن الوثوق به

في إحدى الزّيارات ، زارني علي السّنيد ، فقلت له «إن هذا المدير الجديد رجل محترم ، ويستحق الإشادة ، فلو أنك كتبت مقالة عنه في الصّحافة تعطيه حقّه من تعامله الإنسانيّ الجميل ، فالرّجل كريم ، والكريمُ يُكرم الكريم» . فكتب علي آنذاك في جريدة الأنباط مقالة عنه ، لعلّها تدفع غيره من مديري السّجون الأخرى أنْ يحذوا حذوه .

لقد أحبّه أغلب السّجناء ، فقد عمل المُعجِزات من أجلهم . لكنّ الطّعنة القاتلة لم تأتِ من هؤلاء السّجناء ، بل أتت من زملائه في الأمن الوقائي داخل السّجن ، الّذين لم يحبّوا لمدير السّجن أن ينجح في مهمّته ، أو أن يتعامل بهذا الرّقي مع السّجناء ، وكانوا يعتقدون أن

السّجين بهيمة يجب ضربها والدّوس عليها ، فكانوا يسيئون للنّاس من ورائه . ثُمّ إنّ مصالحهم مُهدّدة ، وإنّ الصّبر عليه طويلاً سيُفاقم أوضاعهم سوءًا ، ولا بُدّ من اقتلاعه ، فكتبوا فيه تقريرًا بأنّه قام بإخراج أحد سجناء التنظيمات المُتشدّدين ليعيش في مهجع التنظيمات الأقل تشددًا والمعتدلين . واستُدعي المدير نفسه إلى التّحقيق ، واعتبروا ذلك تعاطفًا من قِبَله مع التّكفيريّين . وكانت إدارة السجن قبل أنْ يتولّى الحورانيّ آنذاك قد عزلت المهجعين ، وفرّقتْ بينهما كانتْ غُرَف مهجع المعتدلين مُهوّاة بشكلٍ جيّد ومُعرّضة للشّمس ، ولديهم حرية الحركة والتّنقّل ، بخلاف مهاجِع المُتشددين . وفي التّحقيق دافع المدير عن نفسه بقوله : نعم لقد نقلتُ السّجين المُتشدّد إلى مهجع المُعتدلين ؛ لأنّني متعاطفٌ معه كما تتّهمونني ، ولكنْ ليس بسبب فِكره أو مُعتقده ، فهذا شأنه الخاصّ ولا علاقة لي بما يعتقد ، ولكنّني نقلتُه لدواعٍ إنسانيّة ، فهذا السّجين مُصابٌ بداء القلب ، وغرفة المُعتدلين أوسعُ وتهويتها أفضل ، فلربّما ساعده ذلك على التّخفيف من آلامه وأسقامه ، لقد نظرتُ إلى الجانب الإنسانيّ في المسألة ، أمّا قناعاته وأفعاله فهو يُحاسب عليها أمام القانون ، فأين الخطأ فيما فعلت» . لكنّ ذلك اعتُبِر من قِبَل المخابرات (وكانت المخابرات هي المسؤولة عن قضايا التّنظيمات بشكل مباشر) تواطُؤًا معه ، وتجاوزًا للصّلاحيّات ، واستجابت في النّهاية لرأي بعض زملائه فيه وقامتْ بنقله من ذلك السّجن ، وبهذا نكون قد خسرنا أحد أهمّ أركان التّوازن في السّجن ، حزنتُ جِدًا لما حصل كنتُ أعرفُ أنّ عمر الكريم قصير ، وتذكّرتُ قول أبي تمّام :

عليكَ سـلامُ الله وَقْـفًـا فـإنَّني
رأيتُ الكريمَ الحُـرَّ ليسَ له عُـمْـرُ

ووضعتُ يدي على قلبي من مدير قادم يرتكب الحماقات ، ويهدم السّجن على رأسه ورؤوسنا . وحدثتْ مِنْ بعدُ أمورٌ دلّتْ على أنّ الانفلات سيكون ردّة فعلٍ طبيعيّة على انفلاتٍ أخلاقيّ عند الشّرطة قبل المساجين . وعندي قصص من تهريب المُخدّرات يشيب لها رأس الوليد ، أتورّع عن ذِكر بعضها ، وسأذكر بعضها الآخر لاحقًا

في نهاية هذه السّنة كان تهريب التّليفونات يعيش عصره الذّهبيّ ، كانت هذه نقلة نوعيّة . انتشرتْ أنواعٌ مختلفة ، وواكبَ السّجن الحياةَ المدنيّة ، والتّطورَ الّذي يحدث في الخارج ، ودخلتْ مع الزّمن الأنواع الحديثة ، وكان ذلك كلّه بالمال الفاسد أو الصّالح ، وبدا أنّ المال في مجتمع السّجن يشتري كلّ شيءٍ ابتداءً من الذّمم ، وانتهاءً بالشّرف .

في أوائل عام ٢٠٠٩ كان تهريب الهواتف الخلويّة قد بلغ أوجه ، لدرجة أنّني ظننتُ أنّهم سيسمحون بتداولها في السّجن بشكل اعتِياديّ ، وأنّهم سيخصّصون لكلّ نزيلٍ هاتِفًا ، للعدد المَهول الّذي دخل منها ، وصارت المُجاهرة بحمله ظاهرةً ، ومع أنّ كاميرات المراقبة تلتقط كلّ بعوضةٍ تطير إلاّ أنّ كثيرين غامروا بالظّهور وهم يحملون هاتِفًا يستقرّ على آذانهم ويذرعون ممرّات السّجن ومهاجعه ، ويتحدّثون بطلاقة مع الطّرف الآخر ، ويضحكون ، وربّما يُقهقهون ، ويتبادلون أسعار البورصة أو الخُضار مع مُحدّثيهم أو آخر النّكات . هل كان ذلك محاولةً للتّمرّد على القيود بشكلٍ خادع من أشكال الحرّيّة؟ هل كان محاولةً لإبراز الذّات في مُحيطٍ يحترفُ دَوْسَها والتّفنّن في إهانتها؟

كلّ شيءٍ هنا مُحتمل . السّجن يعني أن تتوقّع كلّ شيء ، وألاّ تتوقّع شيئًا!

اشتريتُ هاتفًا آنذاك كان ثمنه في السّوق حوالي (٣٠) دينارًا من نوع (موتورولا) / (الشّحّاطة) ، كان يُطلَق عليه هذه التّسمية لكبر حجمه فهو يُشبّه الشّحّاطة حتّى في لونها ، اشتريتُه آنذاك بـ (٣٥٠) دينارًا ، يعني بأكثر من عشرة أضعاف سعره الحقيقيّ . هكذا كانت أسعاره هذه التليفونات داخل السّجن كان الرّقم (٣٠ دينارًا) خارج السّجن لهذا النّوع من الهواتف كبيرًا ومرتفعًا ، لكنّه داخل السّجن بدا معقولاً ، مع أنّ (٣٥) دينارًا كانتْ تُعدّ في مجتمع السّجن ثروةً .

كُنّا بحاجةٍ إلى كلمة نسمعها على الطّرف الآخر من حبيبٍ أو زوجٍ أو ابنةٍ . من قلبٍ نتوقُ إليه نُزيل فيه عتمات السّجن الطّاغية ، كانتْ هذه الكلمة تساوي الدّنيا وما فيها ، وكنّا مُستعدّين لأنْ ندفع مقابل أنْ نسمعها نصف عمرنا وما تبقى من فُتاتِ قلوبنا

(٦٤)
المالُ في مُواجهةِ الأخلاق

نحن عالَمٌ مُتكاملٌ ، لدينا حياتُنا الّتي تُشبه أو تفوق في التّنوّع الحياةَ في الخارج ، لنا أفراحنا وأتراحنا ، ونجاحاتنا وإخفاقاتُنا كلّ السّجناء النّازلين في أوطانهم المُختلفة يمتلكون ذات القدرة من الوضوح والشّفافيّة ربّما إليها تنقاس الشّفافيّة الّتي يُنادي بها ديوان المحاسبة صباحَ مساء . غير أنّنا أيضًا لسنا بهائم يُمكن أنْ تأوي إلى زرائبها في المساء على أنْ تجد شيئًا من الشّعير في الصّباح ، فإذا ما عاملنا مديرٌ أو رئيسٌ بهذه الصّفة عاملناه بالمثل . وإذا ما الجرفَ صاحبُ سلطة إلى هذا الجرف الخطير ؛ فإنّ قدمه تزلّ به إلى الوادي قبل أقدامنا ، أفرأيتَ إلى مَثَلِ أصحاب السّفينة ، فإنْ أعملتِ السّلطة الخرق أو سكتتْ عنه هلكتْ وهلكْنا ، وإنْ أخذتْ على يد فاعليه نَجَتْ ونجونا

كان ذلك في السّنوات الأخيرة من العقد الأوّل من الألفيّة الثّالثة ، أظنّه في منتصف عام ٢٠٠٨ حينَ حدث هَيَجان في سجن المُوقّر ، لم يكنْ أحدٌ يدري السّبب ، الصّباحات الّتي تبدأ بالشّروق الّذي يحمل الحياة والأمل الجديد للبشريّة ، هو ذاته الصّباح الّذي قد يحمل الموت والفجيعة . أدّى الهِياج إلى افتعال حريق ، أحرق عددٌ من السّجناء الغاضبين أكثر من سبع غرفٍ ، ومات ثلاثة مساجين ، كان ذلك يوم اثنين ، قامَ السّجن ولم يقعد ، وتواترت الأنباء إلى زملاء آخرين لهم في سجون أخرى ، فاهتاجتْ من أجلهم ، وبدا أنّ كلمة سِرّ

بين السّجناء في كلّ السّجون هي الّتي صنعتْ كلّ هذه المآسي .

نمتُ ليلة الاثنين دون أنْ أدري أنّ أحداثًا كبيرةً قد حدثتْ في سجن المُوقّر ، كنتُ احلم بالنّجوم ، وبالحرّيّة ، وبأنّني أجتاز وادي الغفر مشيًا ، وبأنّني عُدتُ في الرّبيع إلى عادتي في مطاردة الفراشات ، ونمتُ وأنا أستغرب تلك الأحلام الّتي داهمتْني فملأتْني بالحبّ والرّضا .

صباح يوم الثّلاثاء ، صحوتُ وأنا أسعل ، ظننتُ أنّه بأثر من تدخيني المتواصل ، لكنّ الأمر كان على غير ما توقّعت كان هناك دُخانٌ كثيفٌ ، استيقظَ معي المهجع كلّه ، تناهتْ إلينا أصواتٌ غاضِبة ، لقد انتقلت العدوى إلينا إذًا ، كانت الهواتف الخلويّة تنقل كلّ شيءٍ من السّجون الأخرى ، وتصوّر الحرائق الّتي اشتعلتْ في العقول قبل أنْ تشتعل في المهاجع . وهاجَ السّجن وماج ، واستغلّ عددٌ من النّاقمين الجاهلين الفوضى الّتي دبّتْ فأحرقوا عشرة مهاجع كاملةٍ بكلّ ما فيها من أغراض ، وظنّوا أنّهم بهذا يضغطون على الإدارة لكي تُخرجهم من السّجن ، فما خرج منهم أحدٌ وأنّى له أنْ يخرج ، وما خسر غيرُهم ، مِمّا أكلتْه النّيران من أدواتهم الخاصّة ، وأغراضهم ، وملابسهم . وهدأتِ الفوضى بعد يومَين ، وانجلى الغُبار عن خسائر فادحة ، وصار على الجميع أنْ يُفكّر كيف يحمي نفسه ، لقد كان كلّ واحدٍ فينا مُعرّضًا للخطر ، وأشبهنا الحيوانات في الغابة ، كُلّ وحشٍ يتربّص بفريسته ، وكلّ ثعلبٍ يمكر لأخيه ، وكلّ هامّة تبحثُ عن الأمان بالاختباء أو الانزواء عن طريق الوحوش والصّيّادين

لكنْ كيفَ أُشعلت النّار إذًا؟ كان القانون السّابق ينصّ على ألاّ تكون القدّاحة أو الكبريتة إلاّ مع شاويش المهجع ، مع بعض الانفلاتات ، صار الحصول على القدّاحة مُمكنًا لأيّ أحد ، لكنْ بثمنٍ

باهظ ؛ مثلاً إذا كانت القدّاحة في تلك الأيّام ثمنها (١٥) قرشًا ، فإنّها تُباع داخل السّجن بـ (٥) دنانير . وبالمال تستطيع أنْ تشتري مَنْ لا أخلاق له . وحصل عددٌ من الميسورين من زعران سجن سواقة على تلك القدّاحات وارتكبوا تلك الفظائع .

واستمرّ المال يشتري ما تريد ، حينَ كانتْ بعض مقالاتي الّتي أكتبها في السّجن تُنشَر في الصّحف اليوميّة ، ولم يكن من السّهل الحصول عليها ، فإنّني كنتُ أضطرّ إلى شراء بعض هذه الجرائد بـ (١٠) دنانير للجريدة الواحدة من شرطةٍ قاموا بتهريبها إليّ ، وثمنها كان في تلك الأيّام (١٠) قروش . لكنْ أيّنا كان فعله هو اللاأخلاقيّ : أنا أم الشّرطيّ؟ أنا مُضطرّ من أجل الحصول على مقالتي إذْ كان ذلك يُفرحني جداً ، أمّا هو فيستغلّ ذلك وينتظره ؛ إذ إنّ بعضهم كان يأتيني ويقول لقد نشروا لك المقالة الفلانيّة أو نشروا عنك الخبر الفلاني ؛ فما رأيك بالحصول عليه؟ أيّنا كان عمله أخلاقيًا وأيّنا غير ذلك؟ هل كنا مُخطئَين أم مُصيبَين؟ أيّنا أصاب الحرام وأيّنا تجنّبه؟ أم انّ السّوق القائمة يكون فيها البيّعان بالخيار ما ليفترقا ، وأيّ سوقٍ أعظم وأكثر تنوّعًا من أسواق السّجن!!

غير المقالات كانتْ تُنشَر عنّي أخبارٌ كثيرة وكنتُ أحرصُ على الحصول عليها وأرشفتها في دفترٍ خاصٍّ ليُضاف إلى مذكّراتي ، إلى هذا وذاك ، زارني في السّجن صحفيّون مشهورون وآخرون مغمورون ، قليلون هم الّذين استطاعوا أنْ يدخلوا إلى السّجن ويُقابلونني فيه ، لكنّ عددًا منهم كان يأتي كزائرٍ عاديّ ولا يُفصحُ عن هويّته ، ويقوم بطرح الأسئلة عليّ من وراء الشّبك ، أو من خلف الزّجاج الحاجز ، بالطّبع لم يكنْ يستطيع أن يسجّل كلمةً واحدةً ، أو يكتبها في أوارقه ، إذ الأقلام

والأوراق والهواتف والمفاتيح وغيرها ، كلّها تُسحَب من الزّائر عند دخوله ، ولكنّه كان يحفظ السّؤال ويحفظ الإجابة ما استطاع ، فإذا عاد إلى مكان عمله استظهر من ذاكرته ما استطاع من المقابلة .

كثيرٌ من الممنوعات ؛ كانتْ مسموحاتٌ في السّجن بشرط المال . مَنْ يستطيع أنْ يُقنعك بالفضيلة إذا لمع الذّهب ، ومَنْ يستطيع أنْ يُقنع الدّبّ بعدم الدّخول إلى الزّرع إذا خُلعَ السّياج!!

كانت السّوق السّوداء في السّجن ربّما تتمتّع بمزايا لا تتمتّع بها ذات السّوق في الخارج ، وكانت التّجارة تتمّ لكلّ شيءٍ ، حتّى للأحذية المُستعمَلة ، والألبسة ، والأطعمة ، والخواتم ، والأساور ، والهواتف ، والخُضرة ، والحلوى ، والفَرْشات ، والأغطية ، والسّمّاعات ، والسّكاكين ، والأقلام ، والدّفاتر ، وكثيرٌ من الأشياء الّتي لا تكون موجودةً في الدّكّان .

وأمّا الرّهن ، فكان كلّ شيءٍ يُرهَن بما في ذلك الجسد ، وكان ثمن الرّهن أحيانًا – إذا مرّ وقتُ السّداد ولم تُؤدِّ ما اقترضْته من مال – أنْ تخلع لباسك وتكشفَ عن ظهرك ، لتنال مئة جلدة يجلدها لك صاحب المال بتلذّذٍ عجيبٍ ، وكان المُرتهَن يتلذّذ بجسده المُعذّب ، ولا أدري كيف اتّفقتْ الرّغبتان ، ولربّما كان عنده مالٌ يسدّ به قيمة الرّهن ، ولكنّه لا يدفعه لأنّه يستعذب الجلد ، ولم يكنْ ذلك إلاّ مرضًا أصاب نفسيّات عددٍ من السّجناء!!

وأمّا القمار فكانتْ له سوقٌ مُزدهرة لكنّها غريبة ، لم أكنْ لأصدّق أنّهم كانوا يُقامِرون على نملة!! المُقامرة على نملة هي – برأيي – أصعب أنواع المُقامرة وفيها من المُخاطرة ما ليس في غيرها إذ إنّها لا تخضع للتّوقّع أبدًا ، ولا لأيّ قانون أو عقلٍ بشريّ ، فكيفَ كانتْ تتمّ؟! كان

اثنان من السّجناء يجلسان في ساحة التّشميس، فيُشاهدان نملةً عابرةً بين البلاطات، أحدهما يقول: «إنّها لن تدخل في الشّقوق الصّغيرة جدًّا الفاصلة بين البلاطات». والآخر يقول: «إنّها ستدخل». فيتبعانها بنظراتهما، ويتقامران عليها إنْ دخلت أو لا، وتُدفَع أموالٌ وألبسةٌ وعلب سجائر من نوع فاخرٍ للمُقامِر الفائز!!

نحن لا نعيشَ اللّحظةَ الواحدة مرّتين، ها نحن تطحننا عجلةُ الحياة، كلّما أخذتْ دورتها في اليوم الواحد صنعتْ لنا قلوبًا جديدةً، ورمتْ بنا إلى مجاهل بعيدة، وطعَنتْنا بالبُعد فأثارتْ فينا الشّوق، وجَرَّحتْنا بالهجر فأثارتْ فينا البُكاء

ها أنا بعد أكثر من أحدَ عشرَ عامًا، لا أزال أحاور المنافي، وأجاور المجاهل، على أيّ منفًى سأُلقي رِحالي وقد بَعُدت الغايات، وقلّ الصّديق، واستُوحشت الدّروب، وكثُرُ النّاعِقون، وملأت الأفاعي كلّ شبرٍ من الأرض حتّى تسلّقتْ أجسادَنا، ونفذت إلى عيوننا... فيا ربّ الحكمة، إلاّ قرّبتنا إليك. ويا ربّ المشيئة إلاّ شِئت لنا الفيْءَ إلى ظِلالك. ويا ربّ القُرب إلاّ فرّحْتَ قلوبنا بالأنس بك؛ فقد طال بنا عهد الوحشة

حملتُ أمتعتي، قبّلتُ كتب المكتبة كِتابًا كتابًا، ورجوتُ كاتبيها أنْ يُسامحوني كاتبًا كاتبًا، وقرأتُ الفاتحة على روحي وأنا أخرج منها، ثُمّ سمعتُ حفيف أرواحهم وأنا أغلق الباب وقد ضجّوا بالبُكاء. أمّا كتبي الّتي إلى جانب برشي، فقد تبرّعتُ ببعضها لمن أثق بجِدّيّتهم في القراءة، وحزمتُ بعضَها في أمتعتي، ورحلتُ من سجني الصّحراوي، سجن سواقة في ١٥-١١-٢٠٠٨ إلى سجني الجبليّ، سجن قفقفا

(٦٥)
إنّي لا أحتجبُ إلاّ عمّن احتجبَ عنّي

على جبلٍ من الجبال الّتى تشدّ عرانينها نحو السّماء ، وفوق ذُرًا تجد الله فيها قريبًا ، وعند آكام يرافقك فيها الزّيتون وأنتَ تصعدُ إليها كأنّه يُرحّب بالقادمين المُتعَبينَ من طول الارتِحال ، وشمال أحد أهمّ مدن الدّيكابولس الرّومانيّة جرش ، وإلى فضاء يمدّ بصره إلى الشّام حيثُ جبل الشّيخ ، وتحته تتلوّى الطّريق العامّة من وطء الرّائحين والغادين بلا توقّف ، وفوقه أسرابٌ من الطّيور الّتي لا تتعبُ من التّحليق ، وبينه عن يمينٍ وشِمال شواهد على الّذين أحبّوا التّراب فزرعوا فيه أرواحهم غضّةً على أنْ تُزهِر ذات وجد ، عند هذا الّذي قلتُه لك كامِلاً يقع سجن (قفقفا) ؛ منفاي الكبير الثّاني!

كان اسمي قد سبقني إلى هنا ، استقبلني مدير السّجن ، ووطّأ لي أكناف البيت ، وقال قد انتهى إليّ أمرُك ، فلا أجدكَ عندي إلاّ هانئ البال . وكان أحد النّوّاب قد وصّاه بي ، وهو عليّ مُشفِق ، فأنزلني في المنزلة الّتي أُحبّ .

صارتْ زيارة أهلي لي بعد أكثر من أحد عشر عامًا من التّعب في مسافة تقرب من ٤٠٠ كم ذهابًا وإيابًا أسهل ، إنّ (قفقفا) قريبةٌ من (إبدر) ، وعناء السّنوات العجاف السّابقات صار أخفّ وطأةً ، إنّ أمّي الّتي ظلّتْ تُحافِظ على خيط الحياة في روحي ألاّ ينقطع طَوال عهدي في سواقة ، صارت المسافة لها تختزل من كدّها وضنك رحلتها الكثير ،

وهي على هذا الضّنك وهذا الكدّ لم تكنْ لتتركني للرّياح العاوية ولا للذّئاب العادية ، ولم أكنْ قد كبرتُ كثيرًا في عينَيها ، وبقيتُ ابنَها المُدلّل ، وأنا أبو عيلة وعيال ، وقد شبَبْتُ عن الطّوق منذ عهدٍ بعيدٍ .

في عام ٢٠٠٩ صرتُ مؤذّنًا لمسجد السّجن . كان سجننا يتربّع على القمّة الّتي ترى النّجوم من طاقاتها في اللّيل البهيم ، غير المُلوّث بضوضاء البشر من مصابيحهم المُتعَبة المنثورة كغرباء على جانبي الطّرقات . صار بإمكاني بعد أنْ أصبحتُ مؤذّنًا أنْ أخرج من مهجعي وقت كلّ صلاة لأرفع النّداء الخالد في سمّاعة المسجد خمس مرّات ، وكانوا قد صنعوا لي بطاقةً خاصّة هي بطاقة المُؤذّن ، تتيح لي أنْ أخرج من المهجع وقتما أشاء . كانتْ هذه أوّل مرّة أشغل فيها هذه الوظيفة ؛ فبعد أنْ كنتُ طوال السّنوات الماضية أمينًا للمكتبة في سواقة ، ومراقبًا للشّؤون الماليّة في دُكّانه ، وشاويشًا لمهجع القتلة في بعض المرّات ، صِرتُ هنا مُؤذّنا

كان صوتي يصدح من السّماعة الّتي تقفُ في المحراب كأنّها تشتاق إلى أنْ تستقبلَ مثل كلّ التّائقين نداءً يُعظّم الله من أوّل كلماته تعظيمًا لا يفوقه تعظيم!!

الله أكبر . . . الله أكبر . . . أشهدُ ألاّ إله إلاّ الله . . . كنتُ أرفع الأذان من قلبي قبل أنْ يكون حروفًا ذات تصويتات تلوّنها شفاهي ويزفر بها لِساني . . . بمرور الأيّام صارتْ هناك علاقةٌ من نوع غريبٍ بيني وبين هذه الكلمات . . في السّجن تأخذ الكلمات العاديّة مستوًى من الطّاقة غير عاديّ ، فكيفَ إذا كانت الكلماتُ نفسها غير عاديّة ، إنّها تحلّق بنفسها وبك إلى سُبُحات السّماء العالية لتُريكَ ما لم ترَ الخلائق ، وتُشهدك ما لم يشهده الأنام ، وتجد روحًا ترافقك إلى كلماتٍ نورانيّة

قيلتْ من نبيّ قبل آلاف السّنين : «أرِني أنظُرْ إليكَ» كان مجرّد الاستيقاظ وخاصّة في ليالي الصّقيع يُشكّل كارثةً بالنّسبة لي ، وكان الصّقيع عندنا في سجن (قفقفا) له معنًى مختلف عن الصّقيع في أيّ بقعةٍ أخرى من المنافى المبثوثة فوق تراب وطني الحبيب ، كان الصّقيع هنا يُجمّد كلّ شيءٍ حتّى الدّم في العروق ، كان يحزّ الأطراف كأنّما يجرحها بسكّين ، وينفتح الجرح فلا يسيل الدّمّ لشدّة البرودة ، بل يتجمّد على حوافّ الجرح ، ويأبى أنْ يخطو عن تلك الحافّة خطوةً واحدةً . . . كنتُ أصحو في هذه اللّيالي الحالكة القارِسة ، وألفُ نداء يتدافع نحوي إليّ يدعوني أنْ أظلّ مُستدفئًا بأغطيتي الّتي أتدثّر بها تدثّر الخائف أوى إلى ركنٍ شديد من الليالي المُرعِبات . وأغالبُ الدّفء ، فأستقبل البرد باستعاذة ، ويتراجع الإحساس بالبرودة لصالح الإحساس بالطّمأنينة ، وأتثاقل ، وأتمايل ، وأتهادَى في الممرّ المُؤدّي إلى الوضوء ، وأفتح الماء فلا ينزل إلاّ شحيحًا ، وتُوقِظك برودته الشّديدة مِمّا تبقّى فيك من النّوم ، فتطير آخر حَجَلات النّعاس من عينَيك . وتُنادِي على الأسماء كلّها في المهجع ، وتهتف : «ففرّوا إلى الله إنّي لكم منه نذيرٌ مُبين» ، إنّه الفرار منه إليه ، ولا يكون ذلك إلاّ له ، فلا يفرّ الإنسان إلاّ من مَخُوف يفارقه غير آسف ، ولكنّنا نفرّ لنعود له ، ونهرب لنلتجئ إليه ، فهل كان ثمّة فرار أعذب من ذلك! وهل كان ثمّة عودة أشدّ عذوبةً من تلك!! ولا أدري مَنْ يستيقظ مِن بعدي ، أمْ يبقَى النّوم يحجبهم عن الجلال . وأنادي على الشّرطيّ ، وأبرز له من طاقة الباب بطاقتي ، فيفتح لي ، وأخرج ، وتتلقّاني السّاحة أوّل خروجي ، فتلفحني نسمات الفجر الذّابحة ، فأعبّ من نقائها أنفاسًا أملأ بها رِئتَيّ ، وأخطو بخطًا سريعةً إلى المسجد ، وأحمل معي شوقي إلى النّداء ، وأدخل ،

العتمة تُغطّي كلَ شيءٍ هنا ، وأنا سأطلبُ من النّور أنْ يعمّ المكان ، كلّ شيءٍ هادئٌ وساكنٌ ، لا شيء غيري والبرد ؛ البرد الّذي له ألفُ صورة من صور الألم والقسوة . وأسترقُ خطواتي إلى السّمّاعة ، وأقف مُهتابًا خاشِعًا ، وأنا أتهيّأ لرفع النّداء . وتتلعثمُ روحي ، وتنقبضُ أطرافي ، وترتعشُ جوارحي ، وتكادُ دمعةٌ عجلى تنفلتُ من مآقِيّ ، وصوتٌ هامسٌ فِيّ لا يسمعه سِواي : «أبهذه السّهولة تُنادي على الله ، أما تخجل من نفسكَ يا فتى؟! أما لكَ قلبٌ لتعرفَ كيفَ تتأدّبُ في حضرته؟! أتظنّ أنّ مجرّد وقوفك هذا الموقف يُعطيكَ الحقّ في أنْ تُخاطبه؟!» . وأكادُ أهوي ، تنسربُ دمعتان أخريَان ، وأمسحهما برداء الرّجاء : «مولاي ؛ إنّني أستأذنك في أنْ أناديك ؛ يا سامع الصّوت قبل الصّوت ، ويا مُدركَ الحال قبل الحال ، ويا عارف المآل قبل المآل ؛ أتأذنُ لي؟!» . ويأتي صوتُه كأنّه رفيفُ أجنحة الحمام : «يا عبدي إنّي لأحبُّ مَنْ يُناديني ، وإنّي لأجيبُ مَنْ ناجاني ، وإنّي لا أحتجب إلاّ عمّن احتجبَ عنّي ، يا عبدي قدّم لنفسك ، وستجد عندي ما يُرضيك» وأتنحنح وقد أطربني الرّضا ، ودعاني الرّضا إلى البدء ، وأضع كَفّيّ على أذنَي ، ويبدأ النّداء من القلب ، يُعلن في كلّ مكانٍ في الدّنيا ، في هذه الفضاءات السّابحة ، في هذه الذّرّات المُسافرة في كلّ العوالم ، أنّ : «الله أكبر .» أكبر من كلّ كبير ، وأعظم من كلّ عظيم . . . وأجد اللّذّة في النّداء كأنّني أنادي مَنْ هو أقربُ إليّ من حبل الوتين ، لقد ظلّلني جلاله ، غمرتْني رحمتُه ، فانطلق لساني لاهِجًا طَروبًا «حَيّ على الفلاح . حيّ على الفلاح» . ولم يكن الفلاح غير تلك الشّهوة الّتي غلبْتَها وأنتَ تُجادلها في لحظات المُفارقة ؛ المفارقة بين الغفلة والانتِباه ، وبين الاضطراب والطّمأنينة ، وبين الخوف والرّضا

عملتُ بعض الحلقات في المسجد في قراءة السِّيرة ، كنتُ أقرأ من سيرة ابن هشام ، كان أمرًا مُمتِعًا ، وإنْ لم يرقْ للإدارة كثيرًا . قرأتُ على مسامع المصلِّين جزءًا واحِدًا ، استغرق الجزء حوالي خمسة أشهر ، كان ذلك محاولةً لتعويض العيش بين الكتب في الفترة الذّهبيّة الّتي قضيتُها في سواقة . في السِّيرة ما يُمكن أنْ يكون نموذجًا مُلهِمًا للتّائهين . أغلبنا نحن هنا في سجن قفقفا ضائعون ، ليس لنا بُوصلةٌ واحدةٌ ترشدنا ، كانت السِّيرة بوصلتَنا ، سمحتْ للقلوب أنْ تفكِّر قليلاً بشيءٍ من عظمة هذا الفقير اليتيم الأمّي الّذي لو ترك نفسه للظّروف لما أنتجَ شيئًا ، وكان هذا النّموذج حتّى في الجانب البشريّ منه مُلهِمًا لهم . ولعلّ ما قرأناه من سيرته صلّى الله عليه وسلّم فتح الباب للضّائعين كي يجدوا أنفسهم ، ويعثروا على قُدوتهم

كان المسجد يتّسع لحوالي (١٥٠) سجينًا ، يمتلئ يوم الجمعة والنّاس تُصلّي خارجه بسبب الاكتِظاظ . وكنتُ أستثمر الوقت الّذي يلي الصّلاة لكثرة النّاس ، فأعظهم بما لديّ ، وما لديّ قليلٌ ، ولكنّني لا أبخل به ، وكنتُ أرجعُ في قولي إلى مراجع ذات شأنٍ كتفسير ابن كثير ، وككتب ابن القيّم ، وبعض كتب ابن تيمية ، والتفَّ حولي عددٌ من النّاس ، وكان الخطيب يُشاهدهم وهو خارجٌ يرتدي جُبّته الكُحليّة المُميّزة لضُبّاط الأمن ، وكان يغتاظُ لالتِفافهم حولي . وبلغ من ثقة بعضِ النّاس أنْ كانوا يستفتونني في بعض المسائل ، فأجيبهم إنْ كنتُ أعلم المسالة ، وأؤخّرهم إنْ كنتُ لا أعلمها حتّى أرجع إلى كتابٍ يُرشدني . وساعدَ لجوء النّاس إلى أخذ الفتوى في بعض المسائل الفقهيّة منّي إلى اشتداد غيظه وحده ، ولم أكنْ أعلم أنّ هذا الأمر يعتملُ في صدره ، فأنا كنتُ أفعل ما أفعله وأمام عيني قوله صلّى الله عليه وسلّم : «بَلِّغوا عنّي ولو آية»

لم يُطقِ الخطيب الصّبر طويلاً عليّ، ولا أدري إنْ كان ذلك منه أم بدافع من إدارة السّجن؛ فلقد أعدّ خُطبةً من خُطبه عنّي، وقال فيها: إنّني مُتشدّد، وإنّ الآراء الّتي أقول بها شاذّة، وأنّني إن استمررتُ في فِعلي فسأُضلّل المساجين وأُصيبهم بداهيةٍ دهياء بالرّغم من أنّني أرى نفسي مُعتدلاً بل أقلّ من ذلك. وفي السّجن يومئذٍ عددٌ غير قليلٍ من أولئك المُتشرّبين للفكر الجهاديّ، ولم أكنْ معهم، ولا مع آرائهم، وكان يُمكن أنْ يتوجّه بخطبته إليهم إنْ أراد، لكنّه تركهم واستفردَ بي

بعد أنْ أنهى الخطيبُ خُطبته، وصلّى بنا، وهمّ بالخروج، وقفتُ له في الطّريق، وجذبْتُه من ذراعه: «ما هذا الكلام الّذي تقوله؟ أتُشهّر بي على المنبر، وعلى مسمع من هؤلاء المُصلّين جميعًا؟!» فقال لي: «إنّني لا أقصدك، ولا أعرفُ مَنْ أنت». فقلتُ له: «دَعكَ من التغابي، أنتَ تعرفني أكثر واحدٍ في السّجن، فأنا المؤذّن وأنتَ الأمام، فكيفَ لا تعرفني». تلكأ قبل أنْ يقول: «ولكنّ الخُطبةَ لم تكنْ عنك». فأجبته «أنا أعرف مثلما أنتَ تعرف أنّها عنّي، ولكنّني أعرفُ كيفَ أتصرّف»

بعدَ يومَين، بلّغت علي السّنيد أنّني سأُضرب عن الطّعام، لسوء المعاملة. وبسبب خُطبة هذا الأفّاق، وأنّه إذا لم يُحاسَب على فِعلته فسأظلّ على إضرابي كان من المُفترَض أنْ أُقدّم استدعاء الإضراب قبل الفَطور، ولكنّني قدّمتُه لإدارة السّجن السّاعة العاشرة صباحًا، وفطور السّجن في السّابعة. فقالت لي إدارة السجّن: «ما هذا؟ يجب أنْ تُقدّمه قبل الإفطار في الصّباح». فأجبتُهم: «أنتم ما شأنكم؟ خُذوا استدعاء الإضراب، وبعد قليل سيكون قد وصل الفضائيّات». وكان ذلك إيذانًا منّي بالتّحدّي. ولم أكذبْ فيما قلتُ؛ ففي عصر ذلك اليوم، كان عليّ السّنيد قد أوصله إلى كثيرٍ من وسائل الإعلام.

(٦٦)
ما أكثر الجَهَلةَ الّذين يَملكون رقابَ النّاس!

عصرًا كان مدير السّجن قد طلبني واستدعاني من زنزانة الإضراب ، قال لي : «يا رجل ، صار خبر إضرابك واصل للجزيرة على الشّريط الإخباري! من قد أبلغهم بذلك وأنتَ اليوم بدأتَ الإضراب؟ فأجبته «أنا ، لقد تحدّثتُ مع أخي وهو الّذي أبلغهم بذلك» . فذُهل ، سألته أنا : «وماذا كان صدى ذلك؟»

في نفس اليوم وقت المغرب ، جاء مدير إدارة السّجون ، كان الإعلام قد دفعه لاحتِواء الموقف بنفسه ، لا يأتي إلاّ للضّرورة . قال لي : «من حقّك أن تُضرب ، لكن من حقّنا أن نعرف لماذا» . أجبْتُه : «السّبب هو شيخ المسجد ، خطيب الجمعة . لقد ألقى خطبة عنّي ، وكل من في المسجد فهم أنني أنا المقصود ، أصلًا هذا الشّيخ تافه ، ورجل شوارع ، وكان يدور قبل أن يربّي ذقنه في الحارات من حانة إلى حانة ، ومثله مثل الكثيرين كان يُخبئ الموسى في ثيابه ليبدأ حفلة التّشطيب بعد حفلة السّكر ، ولا أدري كيف استأمَنْتموه ليصبح خطيبًا يهدر بخطبته أمام النّاس وهو لا يفقه لا من الدّين ولا من العربيّة شيئًا ؛ أنا أريد أن أعرف من وظّفه إمامًا وخطيبًا؟!» . ظلّ ساكتًا لأنّه لا يعرف الجواب . تلفّت حوله ، رأى مدير السّجن ، غضّ المُدير طرفَه ، بادرتُهما بالجواب : «أنا أعرف مَنْ وظّفه ولا أريدك أن تجيب ، أنا سأجيب : وظّفه مفتي الأمن العام لأنّه ابن أخيه ، وهو جاهل وليس

لديه علم . وغاظَه أن النّاس صاروا يأتون إليّ ويتوجّهون إليّ بالسّؤال بدلًا منه ، فغارَ منّي وخان فيما يقول . فكانوا حين يسألون عن مسألة ويُفتي لهم بها ، يقولون له : لقد سألنا الدقامسة ، وقال لنا غير هذا الكلام ، وحين يحدث بيننا خلاف ، أقول للشّيخ : الحكم هو كذا وكذا ، وتعال لنرجع إلى المراجع ، ونرى مَنْ منّا على صواب ، والحكم الشّرعي في هذه المراجع غير ما تقول ، ومن هنا نشأت هذه العداوة بيني وبينه ، فصار يُخرج عنّي دعايات أنني متشدد وأنني من التكفيريين ؛ ومن أجل ذلك اضطررت إلى الإضراب ، مشكلتي أنني لستُ متكلّمًا ، وهو ذو لسان ذرِب وكلمته عند المدير وعند الأمن الوقائي مسموعة ، يقولون هذا شيخ ، ولجهلهم هم الآخرون ، يظنّون أنّ كلامه صواب . ما أكثر الجهلةَ الّذين يملكون رقابَ النّاس!» . لم يُحِر المديران جوابًا . أعاداني إلى الزّنزانة ، وتلاوَما كان عليهما بالفعل أنْ يتدارَكا الأمر . تدخّل أحد النّوّاب في حلّ المُعضِلة . جاءني إلى الزّنزانة بعد أنْ وسّطه المدير لعلاقته القويّة بي . قال لي : «أنه إضرابَك ، وأنا سأجعله يعتذر لك» . استجبتُ للنّائب المحترم . أنهيتُ الإضراب . وتمّ استدعاء الشّيخ من بيته ، وجلسنا جلسة مصالحة في السّجن ، اعتذر ، لم أكنْ لأحقدَ على مسلِم . شهّر بي ، ورماني بالضّلالة ، وألّب عليّ القلوب ، ولكنّني قلتُ له في الجلسة : «لا بأس أنا سامحتك»

عُدتُ إلى كتاب في تاريخ الصّهيونيّة ، لم يكنْ كتاب عبد الوهّاب المسيري في الموسوعة الصّهيونيّة ليدخل إلى هنا ، كان من العسير جدًا أنْ يتمّ ذلك ، ولكنّني كلّفتُ به أحد الأصدقاء ، أنْ يأتيني بالموسوعة كاملةً ، أريدُ أنْ أعرفَ كلّ شيءٍ عن هذا العدوّ الّذي أُدرِكُ

تمامًا، وآمل أنْ يدركه جيلي، وجيل أبنائي أنّه لن يتحوّل إلى صديقٍ ولا إلى شريكٍ ولا إلى جارٍ في يومٍ من الأيّام مهما تبدّل الزّمن وتغيّرت القناعات ما دام يحتلّ أرضي، ويخنقني على ثرى وطني.
كنتُ أريد أنْ أقرأ أكثر عن الصّهيونيّة وعن المذابح الّتي قاموا بها في فلسطين، إنّهم يريدون لنا أنْ ننسى، وأنا أريد للأجيال أنْ تتذكّر، لا أريد للسّيف أنْ يُغمَد، ولا للرّمح أنْ ينكسر، ولا للرّاية أنْ تُمزّق، حتّى إذا خرجوا من دُورنا، ومن رملنا، ومن بحرنا، وأقلعوا عن سمائنا، فليتبعْهم الشّيطان إلى الجحيم.
إنّ تاريخهم من المجازر في أوطاننا لا يُمكن إحصاؤه أبدًا، لأنّ عدد المجازر فيه ينفلتُ من الحصر لكثرته، فهم منذ مطلع القرن العشرين وهم يُعمِلون فينا قتلاً وذبحًا، ونسفًا وسلخًا، فجّروا أسواقنا في حيفا وفي القدس، وجعلوا الأشلاء تتناثر على الطّرقات في الشّوارع للآمنين العُزّل، وما كانوا يقدرون على المواجهة، كانوا يأتون متخفّين بلباس الجنود الإنجليز، أو يضعون قنبلةً في صندوق في سوق خُضارٍ مُكتظّة بالنّاس ويهربون، أو يركنون سيّارةً مليئةً بالمُتفجّرات في أمكنة تجمّع النّاس ويغيبون، إنّهم أصل الإرهاب ومنبته وجذوره، ونحن ما زلنا نؤمن بالوردة الّتي يضعونها على طاولة المُفاوضات ونكفر بالخنجر المسموم الّذي يُخفونه تحت تلك الطّاولة، أو رواء ظهورهم.
صنعوا الموت في الهولوكست ليبيعوا ذمّ العالَم، وليشتروا دولتهم اللّقيطة، ويستدرّوا عطف القُوى الاستِعماريّة من أجل كيانهم الغاصب: «إنّ بريطانيا تنظر بعين العطف...» كما قال بلفور. لقد حوّلوا الموت إلى أسطورة من أجل أنْ تذلّ أعناق الدّول ويظلّوا لها خاضعين. ويتمّ من بعد تسويغ كلّ جريمةٍ يقومون بها، وتصبح

الهولوكست علكة البغيّ تمضغها متى شاءتْ ، وتبصقها في وجه مَنْ شاءت!

كان سجن قفقفا قد بدأ يضيق عليّ ، كنتُ ما زلتُ لا أرتاح لنظرات خطيب المسجد ، لقد اعتذر لسانه ، وظلّ قلبُه على عدائه لي ، ففكّرتُ أنْ أغادر هذا المنفى إلى منفى آخر إنِ استطعت . لجأتُ لأعزّي نفسي إلى المختارات الشّعريّة ، طُفتُ بكتاب الحماسةِ لأبي تمّام ، وكتاب التذكرة السّعديّة تعجّبْتُ من قُدرة الشّعر على صُنع هذا العزاء ، يُضحكنا إنْ أردْنا ، ويُبكينا حين نحتاج للبكاء ، ويبعثُ فينا الأمل إنْ رفَّ في قلوبنا ، ويُوئِسُنا إنْ شاء ، ويدفعنا إلى صُنع المكرمات ، ويحثّنا على المعالي من الأمور .

كنتُ قد بدأتُ أحفظ ما أستطيع من حِكَم الشّعر ، وأدوّنها في دفترِ أسود ، من دفاتر الأجندة ، ملأتُ به مُختاراتي الخاصّة ، الّتي جمعْتُها من بطون الكتب ، وخطر على بالي موقف الإمام منّي فتذكّرتُ القائل

ما ضَرّني حَسدُ اللّئام ولَمْ يَزَلْ
ذُو الفَضْلِ يَحسُدُه ذَوُو التّقصيرِ

لم أُكمل شهوري السّتّة في سجن قفقفا كنتُ أريد أنْ أغترب من جديد ، ووجدْتُني أردّد مع أبي تمّام :

وطُولُ مُقامِ المَرْءِ في الحيّ مُخلِقٌ
لِدِيْباجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

آنذاك ، كان سجن أم اللولو في محافظة (المفرق) قد افتُتح ، فقدّمتُ استدعاءً لأنتقل إليه ، وتمّ لي ما أردتُ ، وكان ذلك في ٢٠٠٩/٥/٩

(٦٧)
أنا سمكةٌ صغيرةٌ جِداً تسبح في مُحيطٍ هائلٍ مليءٍ بالحيتان

ها أنذا أحزمُ أمتعتي من جديد ، أغادر الجبل إلى الصّحراء مرّةً ثانيةٍ ، إلى الرّمال الصّفراء ، إلى الحِكمة ، فما من شِعرٍ خالد إلاّ أنجبتْه الصّحراء . هُناك سأبدأ رحلةً جديدةً ، مع سجنٍ جديدٍ ، إنَّ السّجون في بلدي مثل المشافي ، لا تفتأ الدّولة تُقدّم لكلّ مُحافظةٍ سجنًا ومَشفى ، كأنّما أحدهما صورة الآخَر ، فإنّ في السجن مرضَى ، كما أنّ في المشفى مساجين . مرضى السّجن لا يحتاجون إلى دواء ، ومساجين المشافَى لا تُعوزهم الحرّيّة

كان ذلك في مساء يوم دافِئ ، وصلْنا إلى السّجن في السّاعة السّادسة مساءً ، نسماتٌ منعّشاتٌ يعبثْن بوجهي ، وأرضٌ منبسِطة تتوزّع فوقها مضارب بني حسن الكِرام ، ورفقةٌ سهلةٌ على طول الطّريق ، وزنزانةٌ مُتحرّكة حديثةٌ لا تفوح منها رائحة البول ، كلّ شيءٍ يبعثُ على التّفاؤل ، باستثناء الجدار العالي المُصمَت الّذي استقبلنا أوّل وصولنا إلى هنا ، والشّيك الّذي يعلو أمتاره الخمسة كان الجدار أبكم ، أجرد ، لا شيءَ فيه ينطق ولو همسًا ، حتّى إنّهم أبقوا على إسمنته الرّماديّ المصقول كأنّه قطعةُ فولاذ دون أنْ يلوّنوه بأيّ لونٍ . بهذه الصّدمة البصريّة استقبلتُ السّجن ، وإنْ كان لم يمرّ على الانتهاء من بنائه إلاّ أسابيعُ قليلة

حملتُ متاعي القليل، مثل غريب يدخل بلدًا غريبًا، في يدي حقيبتي، وفي قلبي هواجسي، وفوق كاهليّ جبالٌ من الحُزن. وضعوني في مهجع في غرفة في طابق علويّ، ممتلئة بالزّعران، كانت الألفاظ البذيئة لا تتوقّف على ألسنتهم لحظةً، كان أمرًا في غاية الإزعاج، سألتُهم أنْ يكفّوا فاعتبروني دودةً اقتحمتْ عليهم مزرعتهم، نظروا إليّ بازدراء، ولولا أنّني كنتُ أحافظُ على مسافةٍ بيني وبينهم لداسوني، واستسهلوا سحقي.

لم أتجرّأ في البداية أنْ أطلبَ برشًا أرضيًا، فهذا لا يكون إلاّ لمن حلّ في المكان أوّلاً، والمحاصصة تتمّ للّذي يفد قبل غيره ولو بيوم واحد. ومع أنّ السّجن حديث، وفيه مُتّسع إلاّ أنّني آثرتُ الانسحابَ من السّباق قليلاً في البداية. استمرّ مُسلسل الشّتائم الّتي يندى لها الجبين، ولم أعشْ لحظةَ استقرارٍ نفسيّ واحدة. إلى أنْ جاء اليومُ الّذي كان يتشاتَم فيه اثنان كما لو كانا يُمارسان حياتهما الطّبيعيّة وانفلتَ أحدهم فقام بسبّ الدّين، فلم أتمالك نفسي، وثبتُ مثل ملدوغ، ومشيتُ نحوه بخُطًا عصبيّة، ومددتُ يدي عاليًا ولطمْتُه على وجههِ، لم يستوعب السّجين أنّني فعلتُها، تحسّس وجهه ليتأكّد من أنّني فعلتُها، فلطمْتُه مرّةً ثانيةً ليُدرك الحقيقة الّتي يحاول البحثَ عنها، واعترتْني رجفةٌ في جسدي، وأنا أقول: «لو سمعتُك تسبّ الدّين مرّةً ثانيةً فسأشطبُ وجهكَ بالمشرط». هجمَ الزّعران الآخَرون وكان عددهم ستّة لينتصروا له، وبدؤوا يضربونني ويلكمونني وأنا أدافع عن نفسي، وعلتْ أصواتهم بشتمي وشتم عائلتي، وأنا أتوعّدهم وأنفلتُ ما استطعتُ من تحت لكماتهم الّتي كادتْ إحداهنّ أنْ تُفقدني بصري لولا لُطفُ الله، ولم أهنْ لهم، فلمّا رأى أحد الصّامتين الّذين آثروا ألاّ

يتدخّلوا في العِراك صمودي ورأى أنّ الكثرة اجتمعتْ عليّ ، فزّ من مكانه ، وأخذ يُدافع عنّي ، ويضربُهم ، مُعينًا لي عليهم في بلواي هذه . وتفاقمت المُشاجرة حتّى علتْ أصواتُنا فوصلتْ إلى خارج المهجع ، وهُرعت الشّرطة إلى المكان ، وقامت بفضّ الاشتباك ، وتهدئة الأمور الّتي لم تهدأ . وتقدّم الزّعران بشكوى ضدّي ، وتقدّمت أنا بشكوى ضدّهم ، وكانت النّتيجة أن حُكمت أسبوعًا منع زيارة على أساس أنّني خالفتُ القوانين بضربي لأحد السّجناء ، أمّا الّذي سبّ الدّين فحُكم أسبوعين منع زيارة ، والّذين انتصروا له حُكم كل واحد منهم أسبوع منع زيارة مثلي ، ثُمّ ارتأى رئيس القسم درءًا لتفاقم الأوضاع أنْ ينقلني من مهجعهم إلى مهجع آخر ، كان ذلك سيُريحني ، بل هو ما أسعى إليه ، فناداني إلى مكتبه وأخبرني بذلك ، ولكنّني رفضتُ ، وقلتُ له : «لن أجعل ساقِطًا يتسبّب بنقلي من غرفتي ، ولن أجعل (الزعران) يقولون : إنّ هذا السّاقط قد اضطرني إلى الانتقال بسببه إلى غرفة أخرى» ، وقلت له : «لن يتمّ ذلك إلا عنوة ، إلاّ إذا حملتموني حملًا أنا وأغراضي ، وقذفتم بي إلى الغرفة الأخرى» . وخفتُ إضافةً إلى ذلك أنْ يستفردوا بالسّجين الّذي انتصر لي ، فيقوموا بضربه ضربًا شديدًا

عند ذلك أحسّ رئيس القسم أنّ مشكلة سوف تحدث ، وقال للعسكر : «اتركوه الآن . . . سنرى كيف نُطوّق المُشكلة» . ثمّ تحدّث معه مدير السّجن وقال له : «إن الدّقامسة لا يريد أن ينتقل إلا إذا نقلتم معه السّجين الّذي انتصر له» ، فقال مدير السجن لرئيس القسم : «أنا أعرف عناده ، ولا أريد للقضيّة أن تتفاقم أكثر من ذلك ، ولكي ندرأ عنّا شرّه انقلوه كما أراد» . فتمّ نقلي أنا والسّجين الآخر إلى مهجع آخر في الطّابق الأرضي .

عندما دخلتُ إلى الغرفة ، كانت الغرفة لم يمرّ عليها أكثر من أسبوع من تاريخ تسكين النّزلاء فيها ، فالسّجن كلّه بناؤه جديد ، لكن عندما كنت في الطابق العلوي ، لم تكن تظهر لي العيوب الّتي في الطابق السفلي

دخلت إلى الحمّامات في مهجعي الجديد فوجدت أن هناك تسرّبًا من الحمّامات الّتي في الطّابق العلوي إلى الطّابق السّفلي ، واستغربتُ كيف استطاع نزلاء هذه الغرفة أن يتعايشوا مع هذه الرائحة الكريهة الفظيعة ، وتأكّدْتُ أنهم كانوا يعانون ، ولكنْ لم تكن لديهم الجرأة الكافية ليشتكوا فهذا طبعًا كلّه فساد . في فترة الطّعام حينَ خرجْنا إلى المطبخ من أجل الحصول على وجباتنا ، عبرنا مهاجعنا إليه في ممرّ طويل ، ولاحظتُ كذلك أنّ الممرّ فيه طلوع ونزول ، وفي كلّ حياتي لم أعرف أنّ ممرًا يمكن أن يكون فيه هذا المَيلان الواضح للعيان ؛ كان الممرّ طوله حوالي (٣٠٠) متر ، وتخيّلتُ أنّني لو كنتُ أركب سيارة فإنني في بداية الطلوع سأقوم بعكس الغيارات حتّى أحافظ على (لنس) السّيّارة ، فهل هذا ممرّ؟!!

الأمر واضحٌ إذًا ، يبدو أنّ عملهم كان كله فسادًا في فساد ، وأنّ المتعهّد الّذي بنى السّجن متواطِئٌ مع جهة مُتنفّذة ما في الدّولة حتّى استطاع أنْ يحصل على العطاء ، ويُنفّذه بهذه الطّريقة المُتهالِكة . من أجل ذلك قمت بتقديم شكوى إلى مكافحة الفساد ، كان مدير السّجن آنذاك محترمًا ونائبه كذلك . جاء نائب المدير هذا وكشف عن المكان فقال لي : «معك حق!! والله إنّك مواطن صالح ، أنا لا أدري كيف احتمل هؤلاء أوساخ الّذين فوقهم» . فقلتُ له ممازِحًا : «هذه عادة الّذين فوقنَا دائمًا ؛ يركبوننا ، ثُمّ يبولون علينا» . فضحك . وأثنى عليّ من

جديدٍ ، فقلت في نفسي : «والله هذا مسؤول حشم ، وسأعتمد عليه في توصيل صوتي بعدم السّكوت على الخطأ» . وقبل الشّكوى منّي وقام برفعها إلى مكافحة الفساد ، ولم يكن المدير آنذاك على رأس عمله . وتوالتْ وفود المدح لهذا المُواطن الصّالح الّذي هو أنا ، وجاء أيضًا رئيس القسم وقال لي : «والله إنك أعجبتني لأنّ البناء غير صحيح فعلًا»

كانت الشّكوى تتضمّن أنّه وجد تسرّبًا في الحمامات ، وتشقّقًا في الأسطح والجدران . كانت التّشقّقات مخيفة ، وطلبتُ لجنة هندسيّة لتقوم بالكشف عن البناء وتُعدّ تقريرًا لتقويم الوضع وحساب العمر الافتراضي لهذا البناء . أنا أعرف أن العمر الافتراضي يجب أن يكون على الأقل (٤٥) عامًا لكنني حين رأيتُ هذه التّشققات قلت إن هذا البناء لن يصمد أكثر من (١٠) سنوات ، وسينهار .

جاء في ذلك الوقت مساعد مدير الأمن العام للشرطة القضائيّة ، كان نائب المدير قد أعطاه الشكوى قائلًا له «يا سيّدي هذه الشّكوى مقدّمة من أحمد الدّقامسة» ، فردّ عليه : «والله هذا مثال المواطن الشّريف» . عند ذلك ، فرحت ، وشعرت بأنّ الشّكوى ستصل وستأخذ مجراها الحقيقيّ ، وأنّ دائرة مكافحة الفساد ستقبض على المُتسبّبين بهذه الأخطاء الشّنيعة وستُحاسبهم . ونمتُ على هذا الحُلم ، والأحلام فِخاخٌ كما قلتُ ، فلعلّي وقعتُ في فخٍّ قرّبتُه منّي دون أنْ أدري . بعد ذلك حدث ما لم أتوقّعه ؛ لقد انقلبوا جميعًا ضدّي ، نائب المدير انتقل . والمدير كان جيّدًا لكنّه قال لي : «الأمر يا أحمد أكبر منّي ، ونحن لسنا على قدر ذلك ، ولا هي من اختصاصي» ، فأجبته غاضبًا : «بالنّسبة لي سوف أتابع الشّكوى مع مَنْ أعرفهم في الخارج» . بعد

تقديم الشكوى بفترة جاء إليّ مهندس ، بالطّبع كان معه فريق كامل من الخبراء من الشّركة الّتي قامت ببناء السّجن . كانت الشّركة لم تكن قد سلّمت العمل بشكل رسميّ فالبناء حديثٌ جدًا ، ولو أنّ المُحاسبة تمّتْ لما قبضَ المتعهّد ما تبقّى له من مال ، ولكنّ الّذي يحدث عكس الّذي تتمنّى أو تريده لخير بلدك وأمّتك . جاء المهندس إلى غرفتنا وسأل عن شخص اسمه أحمد الدقامسة ، وقال : «أريد أن أتعرّف عليه» ، قلتُ له «ها أنا ذا» وعرّضْتُ أكتافي على أنّ قُوّة الحقّ معي ، وهي تغلب كلّ قوّة . طلب منّي أن يرى التّسرّب ، فأخذته إلى نموذج من نماذج التّسرّبات ، فرأى العَجَب العُجاب ، ولربّما أنكر أنّ شركته (العريقة) ترتكب مثل هذه الكوارث في البِناء . بعدها أخذني من يدي بشكل فرديّ ، قال لي : «أريد أن أمشي معك قليلاً في السّاحة» . نظرتُ إليه مُتشكّكًا : «لماذا في السّاحة ، فليكنْ ما تريدُ قولَه هنا» . أجابني بلهجة يقصدُ من ورائها أنْ يُطمْئِنني : «أريد أنْ نكون وحدنا ، لأسمعكَ بكلّ جوارحي» . استجبْتُ له . خطونا معًا خارج المهجع ، ولمّا صِرْنا خالين من أحدٍ إلاّ مِنّا سألني : «ما الذي حدث؟» استغربْتُ سؤاله ، لكنّني قلت له «لقد رأيتَ بأمّ عينَيك» . شدّ على يدي اليُمنى الّتي يحتضنها بكفّه ، وغمزني بطرف عينَيه ، وقال : «سمعتُ أنّ حالتك الماديّة ليست جيّدة» . قلت له مُتجاهِلاً ما يرمي إليه من وراء هذه العبارة الحمّالة للأوجُه : «الحمد لله مستورة» . تابع هو بشدّة أخرى على يميني «سمعت أن لك ابنًا في التّوجيهي؟» . (يقصد سيفًا) فأجبته : «نعم!!» . فقال لي : «أبو العبد يسلّم عليك ويريد أن يدرّس ابنك في الجامعة على حساب الشّركة» . فقلتُ له ساخرًا : «بارك الله به ؛ والثّمن؟» . فتجاهل ملاحظتي وأكمل :

«سمعنا أن عند زوجتك سيارة هونداي ، وهذه السّيارة لا تليق بمقامك ، ولا بمقام أهلك ، ومدير الشّركة يحبّ أن يحدّث لك السّيارة بما يتناسب مع وضعك الاجتماعي العالي» . عندئذ صعد الدّم إلى رأسي ، وقلت له وأنا أضيّق عيني : «وما المقابل لذلك؟» . فقال لي : «أن تسحب الشّكوى» وَهَزّ كتفيه ، وتابع : «فقط!!» كانتْ كلّ يد فِيّ تُريد أن تصفعه ، لكنني تمالكتُ نفسي ، وأجبتُه بحزم : « تريدُ أنْ تشتريني يا قليلَ الذمّة ، لن أفعل ذلك ، ولو ساومتموني على حياتي أيّها الأنذال!!» . فقال لي يسترضيني عندما رأى غضبتي «هناك حلٌّ وسط ؛ اترك متابعة الشكوى فقط ، لا تتابعها ، ولا نريد منك أكثر من ذلك» . فطردتُه ، وحدّثتني نفسي أن ألكمه لكمة قبل أن يخرج ، أو ألطمه على وجهه لطمة قبل أنْ يُولّي ، وحين رأيتُه مدبرًا تمنّيت لو أني أستطيع أن أتبعه بالشلاليت ، وقررت باللحظة نفسها أن أطلع النّواب الّذين لي بهم صلة على الموضوع . وفعلتُ . وانهالت بعدها عليّ المضايقات التي لا تصدّق ، كان يبدو أنّني سمكةٌ صغيرةٌ جِدًا تسبح في مُحيطٍ هائلٍ من الحيتان ، وبدأ عمل الحِيتان لتلفيق التّهم ضِدّي وإفراغ هذه القضيّة من مضمونها

كان مدير الأمن العام قد تغيّر ، وجاء بعده مَنْ أهملَ الموضوع ، واعتبرني مجنونًا ، وأنّ ما أفعله ضربٌ من الهذيان ، ولربّما كان كذلك في منطق هؤلاء الحيتان ، وأصابني غَمٌّ كبيرٌ لما يحدث ، وانتكستُ وأنا أفكّر في الفساد الّذي يستشري في جسد وطني ، يقبضُ دراهمه الكبار ، ويذوق مرارته الصّغار ، ودخلتُ في نوبةِ تفكيرٍ ولم يكن لديّ من وسيلة حينها إلا أن أعلن إضرابي ، ففعلت . لم يُصدّقْ أحدٌ أنّ سجينًا لا يدري أحدٌ عنه يُمكن أنْ يُحاسبَ فاسِدًا تتضخّم ملايينه

في الأرصدة على حساب مصلحة العامّة ، وينتفع برذاذ ملايينه مراض النّفوس من المسؤولين . تفاقمَ سوء حالتي الصّحّيّة ، سُحِبَتِ الشّكوى بقليلٍ من الرّشوة ، وبقيتُ مُصِرًا على الإضراب ، كنتُ في الزّنزانة أذرع أمتارها الثّلاثة محتارًا ، لم أكنْ لأهدأ ولا لأستقرّ على حالٍ ، وأنا أخاطب نفسي : «إنّ المسؤول لو غشّ في فلس فإنّه سيكون بمثابة النّقب الّذي يُنقَب في جدار الأمّة ، وسيتدفّق من بعده الفسدة والجشعون وأولاد الحرام كما ستتدفّق يأجوج ومأجوج من السّدّ المنيع» ولم أستطع النّوم لثلاث ليالٍ ، ونحلتُ حتّى صِرتُ لا أعرفني ، ولم أجدْ ما أتسلّى به في مشاعري غير البُكاء ، وبكيتُ من القهر ، وكنتُ أقول لنفسي : «إنّهم بدلاً من أنْ يُكافِئوني بكشفي لبُؤَر الفساد ها هم يُعاقبونني» . وشعرتُ أنْ لا عدالةَ في الدّنيا كلّها ، وأظلمت الدّنيا في عينَيّ ، وسقطتُ على الأرض ، وبقيتُ ساعاتٍ فاقِدًا للوعي ، قبل أنْ ينتبه الحُرّاس لي ، ويقوموا بنقلي إلى المستشفى ، كانت مشاكل القلب آنذاك قد بدأت تتفاقم ، وكان هناك اشتباه بجلطة في القلب ، ولم يردعْني ذلك عن أنْ أتمادَى ، وصرتُ أدخّن بشراهة دون أن آكل شيئًا ، وبقيتُ في العناية المركّزة أربعة أيام .

(٦٨)
إنّما النّومُ حِجاب

دخلتُ مستشفى المفرق بعدها مرارًا ، كان القلب لا يهدأ ، يشغلني التّفكير في كلّ شيءٍ ، فيجرّ ذلك عليّ الويلات ، كنتُ فيما مضى أُساق إلى المستشفى مُقيّد اليدين وأحيانًا الرجلين ، لكن فيما بعد صرت أذهب إلى المستشفى دون قيود ، لكن بحراسة مُشدّدة ، حين خرجتُ من الزّنازين كانتْ حالتي الصّحّيّة مُترديّة ، عاودتُ الذّهاب إلى المستشفى غير مرّة ، وكُنتُ أُوضَع في غرفة خاصّة ، غرفة نظيفة مرتّبة ، وكنتُ أُقابَل من قبل مدير المُستشفى والأطبّاء والمُمرّضين بترحابٍ كبير ، ويبدو أنّهم كانوا مُتعاطفين معي ومع قضيّتي

غرفتي في المهجع تتحوّل مع طول الزّمن إلى وطن ، ودَوام العِشرة إلى بيتٍ ، ولا أدري كم من الأوطان تسكنني ، وكم من المنافي تعيش فِيّ . وسُكّان المهجع يشبهون سُكّان أيّ وطن ، يُشبهون البشر كما لو أنّ الأمر يختلف باختلاف الجغرافيا فحسب ، فهم يأملون وييأسون ، يفرحون ويحزنون ، تمرّ عليهم أوقاتٌ عصيبة ، يتطلّعون إلى الأفضل حتّى ولو كان على مستوى مِفرشٍ أو وسادةٍ جديدة ، إنّنا نعيشُ العالَم الّذي يعيشه كلّ واحدٍ في أيّ مكانٍ ، فقط نختلف عنهم بفقداننا لحريّتنا ؛ وأيّ مفقودٍ عظيمٍ هو!!

كان أحدُ النّزلاء معيّ في الغرفة له أخٌ آخَر في مهجع آخَر ، وقد حاول غير مرّة أنْ ينقله إلى مهجعنا لكنّه لم يتمكّن من ذلكَ ، لم يكنْ

من السّهل السّماح لسجين أنْ ينتقلَ من مكانٍ إلى آخَر ، ولو كان جَمْعًا لأشقّاء ، وكُنّا نعيشُ في سجن (أمّ اللّولو) في مهاجع معزولة تمامًا ، على العكس من مهاجع سجن سواقة أو سجن قفقفا ، كان سجن سواقة عبارة عن ممرّ طويل متتابع تربض على طرفَيه المهاجع ، ويلتقي النّزلاء ببعضهم في أوقات الطّعام ، وكان سجن قفقفا أكثر حميميّة ، إذ هو ساحةٌ مفتوحةٌ على السّماء على شكل دائرة مُكتملة تتوزّع على محيطها الدّائريّ المهاجع ، وكان بإمكان مَنْ يُطلّ برأسه من طاقة أحد الأبواب أنْ يرى كلّ المهاجع تستقرّ أمامه بوداعة متناهية .
المهمّ أنّ زميلنا السّجين هذا عَيِيَ لكثرة ما راجع من أجل أنْ ينتقل أخوه إليه ولم يلتفتْ أحدٌ من المسؤولين إلى طلبه ، وما كان بإمكانه أنْ يراه لا على طعامٍ ولا على ساحة تشميس ، فكلّ مهجع كان له وقتُ طعامٍ وساعة تشميسٍ تختلف عن المهجع الآخر . ولقدْ حاولتُ أنا بدوريّ أنْ أساعد في نقلهِ إلى هنا ، فما استطعتُ .

في مساءِ خميسٍ أرجوانيّ هادئ من الخميسات الّتي تتابع كأنّها لا تهتمّ بالأيّام الرّاكضة رَكْضَ الوحوش النّافرة ، كنتُ جالسًا على برشي ، بعد أنْ صلّيتُ العشاء ، أراجع محفوظي من بعضِ الآيات والأبيات ، وأخطّ على الدّفتر الأسود بعضَ المختارات الجديدةِ سواءً من النّثر أو الشّعر ، حينَ فتح أحدُ العساكر الباب ، ونادَى على اثنَين من المساجين السّاكنين معي في المهجع ذاته ، وذهبا ، كانت وجوههم تقول إنّهم يعرفون بأنّهم سيُطلَبون في هذه اللّحظات ، نظرَ أحدهم إليّ مُرتبِكًا ، وقالتْ عيناه كثيرًا من الكلام ، وخرج .

مرّ ما يزيد عن ساعةٍ قبلَ أنْ يعودا ، سألتهم : «آه يا شباب ، أين كنتم؟» . فقالا : «كُنّا في زيارة نزيل» . وولج كلٌّ منهما إلى برشه كما

يلج الخُلد إلى نفقه المحفور. تساءلتُ بيني وبين نفسي: «كيف تكون زيارة نزيل، والسجون مُغلَقة، وليس هذا وقتَ زيارة، والعشاء أذّن من زمنٍ، والمساجين القاطِنون في الغرف الأخرى عليهم أن يكتبوا استدعاءً قبل ذلك. وتتمّ مقابلة السّجين عند ضابط الجناح حتى ولو كان هذا الذي يزوره أخاه»

لم يمرّ أكثر من ربع ساعة على دخول هذين السجينين إلى المهجع حتّى جاءني تبليغ من أحد العساكر بأن رئيس القسم يريد مقابلتي، فذهبتُ إليه، وفوجئتُ أن بحضرته المدعي العام، ومدير الأمن الوقائي ومدير السجن، وكل واحد من هؤلاء قد شحذ قلمه، وهيّأ يراعه، وبسطَ قِرطاسَه، وبرقتْ عيناه، واستعدّ لما هُو آتٍ. لم يُمهلْني أحدٌ أنْ أسأل ما الّذي يحدث، حين واجهني المدعي العامّ بقوله: «عليك شكوى لأنك شتمتَ الملك ووليّ العهد». ضَيّقْتُ عينَيّ في محاولة لفهم ما يجري، قلتُ لعلّ السّجينَين لهما علاقةٌ بالأمر، سارعتُ بالقول لأتدارَك التّهمة المُوجّهةَ لي: «أنا على الناس العاديّين لا أسبّ، فكيف على الملك ووليّ عهده؟ كيف سأفعل ذلك وأنتَ تُدرِكُ أنّه ليس من شأني السّباب ولا اللّعان؟!». فقال لي «الشّكوى بين يدي تقول ذلك، وهي مُثبتةٌ عندي». فتأكّدْتُ حينها من أنّني وقعتُ في فخٍّ جديد، ومن أنّهم يريدون تلفيق تهمة لي، وربطتُ بين خروج هذين السجينين وهذه الشكوى. فسألته: «مِن حقّي أن أعرف من هو المُشتكِي عليّ؟». أجابني وهو يهزّ كتفَيه بلا مبالاة: «الشّكوى من السجناء». فسألتُه مُستوضِحًا: «تعني أنّ عليّ قضيّة الآن؟» فأجابني: «نعم قضيّة، وقد سُجّلتْ في المحكمة». فقلتُ له: «إذن أنا أريد محاميًا، ولن أتكلّم كلمة واحدة إلا بوجوده». فقال لي: «من أين

نأتي لك بمحام؟» فأجبته وأنا أرتجّ من الغضب والقهر «مشكلتك . تُلفّقون لي التّهمّة ، وتبحثون عن شهودٍ لتُثبِتوها عليّ ، ثُمّ تحرمونني من حقّي في تعيين محامٍ ؛ أيّ وقاحةٍ هذه!!» . فأمر المدّعي العامّ دون أنْ يُجادلَ بكلمةٍ حينئذٍ بإلقائي في الزنازين الانفرادية ، وبالفعل جاء العسكر لكي يقتادوني إلى هناك . فكرّرتُ طلبي هذه المرّة بهدوء : «أنا أريد محاميًا» . قال المُدّعي العامّ : «لا نستطيع الآن» . فرددتُ : «أنا أريد محاميًا قبل كلّ شيء» . فقالوا لي : «عند محكمة أمن الدولة تطلب محاميًا» وأكمل بازدراءٍ للعسكر «خُذوه إلى الزّنازين» . واقتادوني كخروفٍ يُعدّ للذّبح كانتْ دموع القهر وأنا أُساق عبر المرّ الطّويل إلى تلك الزّنازين تنهمر على خدّي ، لم يسمحوا لي حتّى بأخذِ بعضِ أوراقي أو كتبي معي ولا أيّ شيءٍ ، كان ذلك في الهزيع الأخير من ليل الخميس ، وكان يتوجّب عليّ أنْ أظلّ في الزّنازين حتّى صباح الأحد حيثُ أُساق من جديدٍ إلى محكمة أمن الدّولة ، في زمنٍ يُخوّن فيه الأمين ، ويُصدّق فيه الكاذب .

تلمّسْتُ الجُدران فقد عميتْ عيناي من الدّمع ، كانتْ مُعتمة باردة . مع أنّنا في شهر تمّوز . موحِشة . مليئة بالخوف . والحُزن والأسى . وأنا مذبوحٌ لا أدري إنْ كانتْ معتمةً على الحقيقة أمْ أنّني رأيتُها كذلك لأنّ روحي مُعتِمة ، لأنّ روحي انطفأتْ ذُبالتُها مع كلّ ما أتعرّض له ، كان عليّ حتّى لا أفقدني أنْ أستحضر من أُحبّ فأحاوره ، حضرتْ أمّي ، كانتْ قد هرمتْ ، هرمتْ على الحقيقة ، إنّها أكثر من ثلاثةَ عشر عامًا من المنافي المُتتابِعة ، ومن الغياب الطّويل ، وهي تعاني في كلّ يوم ما تعانيه أمّ ألقوا بفلذة كبدها في الرّمضاء على الرّمل اللاّهب لأنّه أراد يومًا ما أنْ يكون حُرًا ، وأنْ يتخلّص من تبعيّة مَقيتة

يكادُ لا ينجو منها إلاّ القليل . كانتْ صامِتة ، بسمةٌ خفيفةٌ ترتسم على وجهها الّذي يختصر كلَّ رحمات الأرض ، قلتُ لها : «لقد بالغوا في إيذائي يا أمّاه» . وطفرتْ دمعةٌ سخينةٌ على خدّي ، مَسَحَتْها وبسمتُها تزداد سِحرًا : «معلش يا ابني معلش . أترى ثلاث عشرة خطوةً من الطّريق مضتْ ، لم يبقَ إلاّ بضع خطوات قلائل . صبرٌ جميلٌ يورث رضًا أجمل» . ثُمّ غابتْ في سدفات الظّلام ، تمدّدتُ على الأرض الإسمنتيّة ، لم يكنْ من شيءٍ ليقي عظامي صلادةَ الأرض . لكنّني شعرتُ بأنَّ كلمات أمّي كانتْ وسادتي ، بعد لحظات هجَمَ عليّ النّعاس ، جاءني الشّيخ عبد الرّزّاق ، مدّ يده ، لم أفهم ماذا كان يريدني أنْ أفعل ، هبط من وقفته ، قرفص فوق رأسي ، مسح على جبيني ، وقال : «هيّا يابني ، اتبعْني» . دائمًا يسألني أنْ أتبعه ، فتبعتُه ، انفتح له ولي باب الزّنزانة ، لم يكنْ من شرطيٌّ ولا عسكريٌّ يعترضُ طريقنا ، مشى بثقة تعجّبْتُ منها ، كان الفجر ينشر نسماته على فضاء السّجن ، وبعضُ الأشجار المزروعة في الباحة تُلقِي بأوراقها النّاعة على أغصانها اللّيّنة في حالة استسلام وخشوع . على البوّابة الخارجيّة كان هناك بعضُ الحرس ، تعجّبْتُ مِمّا فعلوا ، لقد أومؤوا برؤوسهم للشّيخ ، وانحنوا وهم يُحيّونه ، وفتحوا له ولي البوّابة الكبيرة وخرجْنا ، مشيْنا حتّى وصلْنا إلى مكانٍ في عمقِ الصّحراء ، كان خاليًا من كلّ شيءٍ ، ليس من حولنا ولا في الأفق ما يُنبِئ بأنّ هناكَ مَنْ يُشارِكنا هذه الخلوة . كانت النّجوم في درب الحليب تسيلُ بالنّغم ، سمعتُ دقّاتِها وهي تُطوفُ حولَ مركزها في وَلَه الصّوفيّين القُدامَى

جلسَ الشّيخُ فجلست ، عدّل عمامته إيذانًا ببدء الكلام ، هتف : «يا بُنيّ إنّ طريق الفوز صعبةٌ ، وإنّ الصّبر عليها أصعب ، ولكنّ ثمرتها

حُلوة ، فإذا أردْتَ أنْ تبلغ الغاية ، فعليكَ أنْ تحمد الله على البلوى قبل النّعمة ، يا بُنيّ إنّ طريقًا ارتضيتَ أنْ تمشي فيه ، وعلمْتَ عواقبه ليس طريقًا محفوفًا بالورود ، فلا تيأسنّ ممّا يُصيبُكَ فيه ؛ فلن يُصيبَك إلاّ ما كُتِب لك ، ولا تجزعنّ من أنْ تُتمّه ، فإنّ النّصر مع الصّبر . يا بُنيّ إنّما نحن عوارٍ وعمّا قريبٍ مُستَردُّون ، وإنّما نحن على سفرٍ وعمّا قريبٍ مُرتحِلون ، وإنّما نحن موتَى وعمّا قليلٍ سنحيا ، وإنّما نحنُ في غفلةٍ وعمّا قريب سننتبه ، فإذا أردتَ أنْ تردَّ إلى الله عاريته فردَّ أطيبَ ما فيك ، وإذا أردتَ أنْ ترتحل فخُذْ أخفَ ما لديك ، وإذا أردتَ أنْ تحيا فاملأْ قلبكَ بحقيقته ، وإذا أردتَ أنْ تنتبه فلا تنمْ فإنّما النّوم حِجاب ؛ والّذي على سَفَرٍ لا ينام» ثُمّ قال : «يا بُنيّ إنّما نبلغ منازل الأوّابين بطول البُكاء ، فإذا خلوتَ إليه فلا تمنع قلبَك من أنْ يبكي ؛ أفرأيتَ إلى النبع لا يصفو إلاّ بعدَ عَكَر ، إنّما قلوبنا ينابيع ، ودموعنا مصافيها . يا بُنيّ إذا أحاطَ بكَ الكرب ، فاعلمْ أنّ ذلك ما كان إلاّ بترك القُرب ، وإنّما يُدرَك القُرب بأنْ تهبَه كُلّك ولا تُسمعَه إلاّ ما يُرضيه ، فلا تقل أصابني وأصابني ، وأوّاه وليتاه ، بل احمد الله ، وقل : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»

(٦٩)
لا تكونوا حجارةً بَكماءَ ولا صُخوراً صَمّاء!!

يوم الأحد اقتادوني في الزّنزانة المُتحرّكة إلى أمن الدّولة ، إنّ عذاب الارتحال من السّجن في (المفرق) إلى محكمة أمن الدّولة في (ماركا) ليساوي ضِعفَ عذابِ المثول بين يَدَيها هنا . انتظار العقوبة أشدّ من العقوبة نفسها ، كما أنّ انتظار الموت يُحيل الموتَ نفسه إلى آلاف الموتات المُتتابِعة   دخلت على المدّعي العامّ في مكتبه الّذي يبعثُ على الضّجر ، لم يكنْ فيه من وردٍ ولا لوحاتٍ ، ولا أيّ شيءٍ يُمكن أنْ يكون مُسلّيًا للفؤاد أو العين ، كان بلا رائحة ، فقط رائحة الأوراق والحبر المُنبعثة من انكباب الكاتب الّذي إلى جانبه في نقل ما يقوله سيّده ، أيّ بلاهةٍ هذه؟! شيئًا من المرونة أيّتها الدّولة ، لماذا أدخل إلى مكتبٍ مُضجِرٍ كهذا؟ لماذا لا تقع عيني إلاّ على هياكل تتحرّك كأنّها آلات ، ترسم كلّ خطوةٍ كأنّها تخافُ أنْ تُحاسب على سواها؟ لماذا لا أرى لوحةً لفان كوخ مثلاً ، أو لوحةً للمتنبّي مخطوطًا بالنّسخ فوقها أحدُ أبياته السّائرات ، أو آيةً من آيات الله الخالدات؟ لماذا لا تُعطّرون هذا المكان بعطرٍ فوّاح؟ أو على الأقلّ بكلمةٍ طيّبة ، فإنْ لم تستطيعوا فببسمةٍ صافيةٍ ، فإنْ لم تستطيعوا فبنظرةٍ وَدُودة ، فإنْ لم تستطيعوا فلا تصرخوا كأنّ صريخكم اقتُطعَ جزءً من لحمه ، فإنْ لم تستطيعوا فاصرفوا عنّا عيونكم ، وأميلوا عنّا وجوهكم ، وكُفّوا عنّا ألسنتكم ، حتّى لا يُصيبنا ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالح . أيّها النّاس كونوا ما شِئتم ،

لكنْ لا تكونوا حجارةً بكماء ولا صخورًا صَمّاء!!

لم يُكلّف المُدّعي العامّ نفسَه النّظر إليّ ، كان مُنهمِكًا في الأوراق الّتي بين يديه يُطالِعها ، ويختار الجملة المُناسبة ليرميها في وجهي ، قال بعد أنْ أنهى تقليب الأوراق : «عليك شكوى من فلان وفلان : فعرفتُ على الفور أنّهما السّجينان اللّذان خرجا ذلك اليوم من الغرفة ، والشكوى تقول :» إنك شتمت الملك والملكة وولي العهد ، ومعنى ذلك أنّك متّهم حسب القانون بإطالة اللّسان» فقلتُ له : «الله أكبر ، أمعقول هذا؟» . ولم أكنْ بالفعل قد تلفّظتُ بأيّ كلمةٍ عن أيّ مسؤول أو أحدٍ من أفراد العائلة المالِكة ، لكنّه لم يُعِرْ دهشتي أيّ اهتِمام ، وسألني السّؤال التقليدي : «هل أنت مذنب أم غير مذنب؟» . فأجبته «أنا أريد محاميًا» . فقال لي : «لماذا لم تأتِ بالمحامي معك؟» . فأجبتُه : «اسألْ مُدّعي عام السجن لقد رفض ذلك ، واليوم في الصباح رفضوا أن أتّصل بمحام كي يأتي معي إلى هنا» . فقال لي : «لا بأس ، أنا سوف أحكي مع إدارة السّجون لكي تتكلّم لك مع محام ، واجعل محاميك يطلب جلسة لكي تنعقد غدًا» . فوافقتُ على ذلك ، وطوى الملفّ ، وانتظر المُتّهم الّذي بعدي ، في سلسلةٍ من المُتّهمين لا تنتهي ، وسلسلة أخرى من القضايا المُتراكِمة ، وسلسلة من الأسئلة الّتي تفقد لكثرةِ تكرارها بريقَها ، وتتخلّى عن معناها لصالح الشّكل الفارغ . أعادوني من بعدها إلى السجن ، فقمت بطلب توكيل الأستاذ صالح العرموطي ، وأخبرته أن يقابلني صباح الاثنين ١٩-٧-٢٠١٠ في محكمة أمن الدولة . وبالفعل قابلني صباح اليوم التالي في المحكمة ، وجلسنا أنا وهو عند المدعي العام وتجادل معه حتى علتْ أصواتهما ، كان همّ المدعي العام أن يأخذ إفادتي ويأخذ قرارًا بشأن واقعة شتمي للملك . فقلتُ

للمدّعي العامّ : «إنّ هذه الشكوى المرفوعة ضدّي لها جذور قديمة تمتدّ إلى ما قبل أكثر من عام ، وأنا أريد أن أقول ما حدث معي ، ولماذا أُلصِقتْ بي تهمة إطالة اللسان» . قال المدعي العام : «لا لن أسمع منك ، أنا لي فقط بالشكوى المقدّمة إليّ» . فأجبته : «لا كلام لديّ ، ولن أقول شيئًا» . فلم يهتمّ لذلك ، وتلا عليّ ما نُسبَ إليّ من تلفّظٍ بحقّ الملك والملِكة ، وكانتْ ألفاظًا بذيئةً لم أتوقّع أنْ يصل حِقدُهم بتلفيقها على لِساني إلى هذا الحدّ ، وفي لحظةٍ ما بين تصديق أنّ مثل هذه الألفاظ وُضِعَتْ على لساني وبين استيعاب المشهد وتبعاته ، نزل ضغطي ، وارتفع السّكّر معي ، تمايلْتُ قليلاً من القهر ، غامت الدّنيا في عينَيّ ، شعرتُ بأنّ هناكَ غلالاتٍ كثيفةً تتجمّع أمامي ، سمعتُ صوتَ المدّعي العامّ : «هل أنتَ صاحٍ أم . . .» ، لم أسمع بقيّة سُؤاله ، كنتُ أواصل تأرجُحي ، قلتُ له قبْل أنْ أسقط : «أنا . .» . ولم أكمل الجملة ، وقعتُ على الأرض ، كنتُ قد فقدتُ وعيي ، رشّوا فوق وجهي الماء ، فصحوتُ ، هزّوني من كتفَيّ ، ففتحتُ عينَيّ ، كانتْ مروحة السّقف تدور ، فدارت معها عيناي ، كاد يُغمَى عليّ من جديد مع دوران المروحة ، أشرتُ إليها لكي يُطفِئوها من أجل أنْ أتماثل للصّحو ، لكنّهم لم يفهموا إشارتي ، رشّوا مزيدًا من الماء ومسحوا به جبيني ، قلتُ لهم : «أنا أعرفُ نفسي ؛ هذا هو السّكّريّ ، هاتوا لي شيئًا حُلوًا» هُرِعَ بعضهم ، فجاء بحبّة (تُوفِي) ، لم أستطعْ أنْ أمضغها ، كان حلقي جافًا ، كنتُ منذ الصّباح لم آكلْ لقمةً واحدة ، أنهضوني من الأرض ، وأجلسوني على الكرسيّ ، وراح الأستاذ صالح يمسح بالماء على وجهي ، كان غاضبًا ومنزعِجًا تمامًا مِمّا يحدث ، قلتُ له ، ووجهه يدور مثل مِغزل أمامي : «لو أذابوا ملعقة من السّكّر في أنبوبةٍ وقاموا بتنقيطها في

حلقي» . فعلوا ما طلبْتُ ، وبالفعل عدتُ إلى الحياة .

رقّ قلبُ المُدّعي العامّ لي ، وسمح لي بعدها بالحديث ، وشرحتُ له ما حدث معي قبل سنةٍ تقريبًا عندما قدّمتُ شكوى إلى المدّعي العامّ ، وإلى دائرة مكافحة الفساد ، ضِدّ متعهّد البِناء على التّصدّعات والتّشقّقات الّتي ملأتْ مهاجع السّجن ، وفصّلتُ له القصّة ، وبيّنْتُ له جوانِبَها ، وكيفَ حاول المهندس المُبتَعَث من الشّركةِ أنْ يُغريني برشوةٍ كبيرة . واستمع المدّعي العامّ بقلبه لي ، وتأثّر بما قُلت ، ورأيتُ عينَيه تَدْمَعان ، وضغط بأصابع كفّه اليُمنى على جبينه ، ثُمّ خلع نظارته وقال : «لا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبنا الله ونعم الوكيل» . وعرفَ أنّ رجل القانون أحيانًا يجرحه القانون ، وأحيانًا ربّما لا يستطيع أنْ يُفلِتَ من منشاره تمام الإفلات ، فيصيبُه أو يُصيب بعضَ ثِيابه . نظر إليّ وقال : «حُكمُك هو سنة ، وأنا سأجعلك موقوفًا لسنة كاملة حتى لا تضاف إلى مدة سجنك الأصليّة ، وتحتسب ضمن المدّة الكبرى ، وبالتالي لا تقضي أيّ مُدّة فوقَ مُدّتك . . . وفي الحقيقة لو أنّني دفعتُ بك إلى المُحاكمة ، وخطوات المحاكمة تمّت ، فأنتَ وحظّك ؛ يُمكن أنْ يحكم القاضي عليكَ بالبراءة ، ويُمكن أنْ تكون سنة ، وهو الأغلب ، وأنا أرى أنْ تظلّ موقوفًا أفضل ، وتُحتَسَب لك من مدّتك الكاملة ، وهذه الطّريقة لها منفذ قانونيّ ، وأنا أريدُ أنْ أُساعِدَك لأنّني علمتُ صِدقك . قبلَ الحُكم بأسبوع سأكفّلك من هذه القضيّة وأنتَ في السّجن ، وينتهي الأمر هنا»

فيما بعد عرفتُ أنّ الشّرطة هي الّتي قامت باستغلال السّجين الّذي في غرفتي وأراد الانتقال عند أخيه ، أو انتقال أخيه إليه ؛ فقد ساومته على نقله إلى غرفة أخيه إذا قدّم هذه الشّكوى ضِدّي!!

بعد القضيّة نُقلتُ من الغرفة الّتي كنتُ فيها ، وأودِعتُ في غرفةٍ ثانية ، كنتُ في غرفة (١ ب) فنُقلتُ إلى غرفة (٦ ب) ، و هذه الغرفة الجديدة لم تكنْ جيّدة ، وغير مُهيّأة . . وهي طابق ثانٍ ، وأنا لا أحبّ أن أصعد درجًا ، وبرفضي هذا حُكِمَ عليّ من قِبل إدارة السّجن بالزّنزانة أسبوعًا عقوبةً على (رَفْض تصنيف) . ثُمّ امتنعتُ عن الطّعام ، وهو يختلف عن الإضراب . . . بأنّ المُضرِب يكون مُضرِبًا فحسب ، لكن المُمتنع يكون موجودًا في الزّنازين لعقوبةٍ أخرى ، فيقرّر أنْ يُضيفَ إليها الإضراب عن الطّعام ، ولكنّهم يُسمّون ذلك حينئذٍ الامتناع عن الطّعام ، وقد امتنعتُ عن الطّعام لثلاثة أيّام . وتعبتُ في نهايتها وأخذوني إلى المُستَشفى ، فرفضتُ الدّخول إلى المُستَشْفَى . . . أنا كنتُ أريدُ أنْ أتعب أكثر بصراحة ، وأجوع أكثر ، وتحدث معي مشاكل أكثر لأرفع صوتي عالِيًا بالاحتجاج على هذه القضيّة الّتي لُفّقتْ لي داخل السّجن ، ومن أجل ألاّ أنْ أنتقل من غرفتي الأرضيّة (١ ب) إلى الغرفة العلويّة (٦ ب)

وتوصّلوا معي إلى تسوية : أفكّ أنا إضرابي ، ويتمّ نقلي من غرفة (١ ب) إلى غرفةٍ أخرى غير (٦ ب) ، ووافقتُ . كان حَلاً وسطًا ، وأحيانًا يُساعدك في حفظ ماء وجهك وماء وجوههم ، وعليه أنْ تكون مرنًا وتقبل به حتّى لا تبوء بسوءة ، وتذكّرتُ ما قاله زهير :

وَمَنْ لم يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ
يُضَرّسْ بأنيابٍ ويُوطَأ بِمنسمِ

السّجن عجيبٌ ، وكلّ ما فيه عجيبٌ ، والقادمون إليه أعجب ، وشخصيّاته مُتفرّدون على المستويات كافّة ، وإنّكَ إنْ ذهبْتَ تبحثُ عن نظائرهم خارج السّجن فلن تنجح ، إنّ أمثلتهم هنا نادرةٌ هناك ، وإنّ

الحظَ إذا كان صديقًا لك فسيجعلك تلتقي بنماذج عبقريّة . حدث ذلك حينَ ضمّتْني غرفةً واحدةً من عام ٢٠١٠ مع مُختلِس ،لم يكن مُختلسًا عاديًا ، كان قد اختلس من وزارة الزّراعة (٣٥٠) ألف دينار ، وساقتْه الأقدار إليّ . كان حُفَظَة ، ادّعى أنّه يحفظ مئة ألف بيت من الشّعر وإنْ كُنتُ أشكّ في ذلك ، إلاّ أنّني سمعتُ منه خلال صُحبتي له الّتي استمرّتْ ستّة أشهر ما يزيد عن ألف بيت ، وكان مُتقنًا حقًا

كانتْ صُحبته ممتعة ، وأتاح لنا ذلك أنْ نتاقش في أمور أدبيّة شتّى ، وأنْ نتذاكر من الأشعار السّائرة ما يُعين على مواصلة المسير في الطّريق الّتي لا تكاد تبدو لها نهاية ، ولقد كُنّا نتحدّث عن اختلاسه ، فقال دَعْكَ ممّا يُقال ويُشاع ، ما أخذتُ فلْسًا لجيبي على شدّة حاجتي ؛ لقد أطعمْتُ بالمال أفواهًا جائعة ، وأسكتّ بالإطعام مِعَدًا خاوية ، وراح يتغنّى بأبيات لم أسمعْ بهنّ من قبل ، فقال : ألمْ تسمعْ بقول الشّاعر :

وإنْ أكُ ذا مال قليلٍ أجُدْ به

وإنْ يُهتَصَرْ عُودي على الحَمْدِ يُحمَدِ

فلا المالُ يُنْسِيني حَيائي وعِفّتي

ولا واقِعاتُ الدّهرِ يَفْلُلْن مِبْرَدِي

وإنّي لَمُعْط ما وجدْتُ ، وقائلٌ

لَموقِدِ ناري ليلةَ الرّيح أوْقِدِ

فطربْتُ لما قال ، واستأذنتُه في أنْ أكتبَ هذه الأشعار في دفتري الأسود ، وكانتْ تلك البداية ، وللتّاريخ فقد ملأتُ أكثر من خمسين صفحةً في الدّفتر بأكثر من مِئتَي بيت مِمّا سمعتُه منه

قال لي مرّة : «ماذا تعرفُ عن عِرار؟» . فأجبْتُه بما أعرفه عنه ،

وقلتُ له إنّني قرأتُ كتاب البدويّ الملثّم (عِرار شاعر الأردنّ) ، وتلوتُ على مسامعه بعضَ أشعاره ، فقال لي : «ما تعرفُ إلاّ نزرًا قليلاً ، لولا أردنيّته لكان أميرَ الشّعراء» . فهتفتُ مُستنكِرًا : «هذه عصبيّة» . فردّ : «احسبْها كما تشاء ، أنا أقول ما أنا مؤمنٌ به ، وليس يهمّني أنْ تُخالِفني ، وإنْ كنتُ أؤمن بحقّكَ في ذلك» . فسألتُ : «وكيفَ تراه على عِلاّته؟» . فأجابني : «أعتقد أنّ عِرارًا ظُلِم عندما صوّروه بأنه ماجن وأنّه كان يدوّر على النّوريّات ، عرار كان يُطالب بحقوق للنَّور ، ورغم أنّه في ذلك الوقت كان الشّركس يُعتَقدون بأنّهم نور ، وكان عرار يعتقد أنّ النّور مُهمّشون ، وحقوقهم مهضومة ، وأنّه كان يجب أنْ يُعامَلوا مثل بقيّة النّاس ، فقال :

نَوَرٌ نُسمّيهم ، ونحنُ بِعُرْفِهِمْ
منهم ، وفي عُرْفِ الحقيقةِ أنْوَرُ

وكان الهَبر شيخ النّور غنيًا ، وكان عِرار طفران ، ولمّا كان يحتاج نقودًا يذهب إلى الهبر ويقترض منه النّقود . حتّى لمّا نَفَوا عرارًا إلى (باير) جاءه الهبر وأعطاه أموالاً كثيرةً ، لكي يستعين بها على قضاء حوائجه ، ولمّا وُضِع في معتقل يعجّ بالقوارض والفئران والعقارب ، زاره الهبر وأعطاه من جديدٍ نقودًا ووقف إلى جانبه ، وهو مُرَحّل بالقطار – ربّما – إلى المعتقل ، جاءه الهبر واستوقفه ووضع في يده كمّيّةً من النقود ، وشدّ من عزيمته لِيُشعره بأنّه إلى جانبه . الهبر كان عنده مروءة ، وكرم ، ورجولة ، أكثر بكثير من الآخرين ، ولذلك وقف عرار إلى جانبه وجانب مَنْ يُمثّلهم من النَّوَر . فالقصّة دائمًا لها جوانب كثيرة ، وليس شرطًا أنْ يكون الجانب الّذي أخذْتَه منها هو الصّواب الوحيد ، وهذا ينطبق كذلك على رأيي هذا» .

(٧٠)
شَمسُكَ أمْ شمسُ الكون؟

زارني أحدُ المحامين المُكَلّفين بالدّفاع عنّي ، بعد القضيّة بعدّة أيّام ، وكنتُ أجلس معه ويُحيطُ بنا عددٌ من ضُبّاط الأمن الوقائيّ ، كنتُ قد تعبتُ كثيرًا من القضيّة الّتي لُفّقتْ لي ، ووجدتُ أنّ هذا السّجن بوجود هذين الأخوَين وهذه الوشايات لن يكون لي ، فطلبتُ من المحامي أنْ يسعى بإرجاعي إلى سجن قفقفا ، التقطَ ضُبّاط الأمن الوقائيّ الحاضرين المحادثة ، وأضمروا في أنفسهم شيئًا . وبعد أن خرج المُحامي من عندي ، قال لي ضُبّاط الأمن الوقائي : «إذا أردتَ أنْ تنتقل إلى سجن قفقفا فاكتبْ استِدْعاءً في ذلك ، ولا تُحدّد فيه اسم السّجن ، حتّى لا تُفهَم أنّك تشترط السّجن على هواك ، وعليه فإنّ المدير سيوافق ، ولنا طريقتنا في إقناعه بذلك» . أخذتُ الأمر على الظّاهر ، وشكرتُهم على تعاونهم معي ، وأنّهم دلّوني على الطّريقة المُثلى للموافقة على الانتِقال . وافق المدير على الاستِدعاء مُباشرةً ، وشعرتُ أنّ عودتي إلى سجن قفقفا ستُنسيني كثيرًا من الأحداث المُؤلِمة الّتي مرّتْ بي هنا ، لم أكتبْ اسم السّجن الّذي أودّ الانتقال إليه حتّى لا يشعر المُدير بأنّني أُرغِمه على ما أريد ، وفعلتُ ما طُلِبَ منّي بشكل تامّ . في الصّباح كانتْ زنزانة التّرحيلات تنتظرني ، صعدتُ بعدَ أنْ شكرتُ ضُبّاط الأمن الوقائيّ الّذين تبادلوا فيما بينهم نظرةً خاصّة . لم يكنْ بإمكاني أنْ أعرف الطّريق الّتي تسلكها الزّنزانة المُتحركة ، إذ إنّها مُغلقة

بالكامل ، ظلّت الزّنزانة تتحرّك ساعات هي أطول من المسافة الّتي توقّعتها بين سجني أمّ اللّولو وقفقفا ، إذ إنّها لا تتجاوز (٣٥) كم في تقديري . وبدأتْ فئران كثيرةٌ تتراكضُ فوق صدري ، لم أكنْ أريدُ أنْ أفكّر بالأمر كثيرًا لأنّه ربّما يدفعني إلى الجنون . تجاهلتُ هواجسي ، أو قُلْ إنّني حاولتُ ذلك . بعد زمنٍ يقربُ من ثلاث ساعاتٍ توقّفت الزّنزانة ، نزلتُ منها ، ونظرتُ حولي ، لم يكن سجن قفقفا الّذي قضيتُ فيه ستّة أشهرٍ سابقاتٍ ، في أيّ سجنٍ رمى بي هؤلاء الملاعين . سألتُ أحد العساكر الواقفين كالتّماثيل أمام البوّابة ، لكنّه لم يُجبْني ؛ ربّما لأنّه أطرش ، أو ربّما لم يسمعني ، أو ربّما لأنّه يلعب دوره كتمثال بشكلٍ حقيقيّ . خُطُواتٌ أخرى إلى الدّاخل ، وقفتُ أمام مكتب الأمن الوقائي ، ضابطٌ نحيلٌ جدًا ، أشفقتُ عليه لشدّة نحوله ، صفيق الوجه ، تبرز عظمتا وجنتَيه ، بلا رُواء أبدًا ، أحسستُ أنّه هو الّذي عنَوه بقولهم : «البِسّة بتوكل عَشاه» . سألتُه : «في أيّ سجنٍ نحن؟» . أجابني مُستغربًا ربّما لأنّه توقّع أنّني نُقلتُ هنا بناءً على طلبي كما في الإضبارة الّتي استلمها للتّوّ من أحد العساكر : «في سجن المُوقّر» . قالها بصوتٍ رفيعٍ يُناسب تمامًا جسده البالغ النّحول ، شعرتُ أنّ صفير كلماتها قد ضربني بما يُشبِه الخرز في أُذنيّ ، شيءٌ ما في أذني الوُسطَى أصيب ، شعرتُ بدُوار ، تمايلت ، حملقَ فِيَ الشّرطيّ مُتعجّبًا ، ثُمّ تحوّل تعجّبه إلى نداء استغاثة ، ضربتُ وجهي بباطن كفّي كي أصحو قبل أنْ يأتي أحدٌ منهم ، تماثلتُ لأقف ، حاولتُ أنْ أتعافى بنفسي من الصّدمة ، كان إحساسًا فظيعًا بأنّني وقعتُ في الخُدعة ، وأنّهم استغفلوني واستهبلوني ، كان ذلك يعني أنّ زيارة أهلي لي ستكونُ صعبةً للغاية ، وفيما بعد ساعرفُ أنّهم منعوها بالكامل كنتُ في حالة

نفسيّة يُرثى لها، وراودتني أفكار جنونيّة، من بينها الانتحار، أو العِصيان؛ أنْ أقف مثل الثّور التّنح في مكاني دون انْ أتحرّك شبرًا واحِدًا ولو تعرّضتُ للضّرب، أو الاحتِجاج على ما حدث بأيّ وسيلة، فكّرتُ بعمل جنونيّ، حينَ وصلتُ إلى المهجع المُقرّر انْ يكون مهجعي، عرجوا بي إلى الزّنازين، فاستغربتُ، وأدركتُ أنّهم يريدون المبالغة في إذلالي، قبل أنْ أخطو إليها خُطوةً واحدة تناولتُ أكثر من (٦٠) حبّةً من الدّواء، ما بين دواء السُكّريّ، والضّغط، والمُسكّنات، وغيرها... صارتْ عندي صدمة؛ لم أعدْ أستطيع السّيطرة على نفسي منها، ولذلك أقدمتُ على هذا الفعل الّذي لو كنتُ بكامل عقلي ووعيي ما فعلتُه. وكان أمر نقلي، لا يحتوي على نقلي إلى سجن المُوقّر فحسب، بل كان يتضمّن أمرًا بتسكيني، أي بإيداعي في الزّنازين الانفراديّة. سقطتُ على الأرض وهم يُحاولون الزّج بي في الزّنازين، كنتُ قد سِرتُ بنفسي إلى الهاوية، كان ذلك اختِيارًا، أنْ تسلك الطّريق إلى الموت بهذه الإرادة، هو أمرٌ ممتعٌ، أو يُزيّنه لك الهوى كذلك، أو الشّيطان. لقد فعلتُ. وها أنا في طريقي إلى الموت. الموت الّذي لم يعدْ أحدٌ منه ليخبرنا ماذا حدث معه، إنّه التّجربة الوحيدة الّتي لا يُمكن أنْ تُروَى كاملةً؛ إلاّ لأولئك الّذين سلكوا الطّريق نفسه، وسبقوكَ إلى ذات الوادي، هل يجتمع الموتَى هناك في ذلك الوادي ويتبادَلون خبراتهم؟ بلى. لكنّ المشكلة أنّ الوادي بعيد الغَور جِدًا، الوصول إلى القاع فيه لا يستغرقُ إلاّ سويعات معدودة، في حين الصّعود منه إلى الأعلى لكي تُخبر النّاس الّذين ما زالوا أحياء بما حدث معك يستغرق آلاف السّنين، وبالطّبع حتّى لو أتيحتْ لك فرصة العودة بعد هذه الآلاف من السّنين فلن تجد النّاس ذاتهم الّذين غادرتَهم لتُخبرهم بما حدث، سيتغيّر عليك

أناسٌ تغيّرتْ أجيالٌ ممتدّة من أناسٍ قبلهم سبقهم مَنْ قبلهم كذلك ، وحينَ تبدأ بالحديث لن يُصدّقوك ، وبالتّالي تُفضّل أنْ تعود إلى الوادي دون أنْ تقول شيئًا . في انحداري الطّوعي السّريع في الوادي ، التقيتُ بشجرة سنديان عتيقة جِدًا ، كانت الشّجرة تُشبه كثيرًا الشّجرة الّتي سمّيتُها باسم امرأة عمّي ، أحببتُ أنْ أستريح قليلاً ، فجلستُ وظهري إلى جذعها ، لكنّني كنتُ ما أزال مأخوذًا بلذّة الهُبوط إلى قعر الوادي ، أخذتْني غفوةٌ ، فقلتُ أنام قليلاً ، وأواصل مسيري ، لم أكدْ أُغمِضُ عينَيّ حتّى أيقظني رجلٌ غريب ، كان الظّلام يُغطّيه فلم أتعرّفه ، ناداني : «قُمْ يا بُنيّ . . .» فارتجفْتُ ؛ سألتُه «هل أنتَ الشّيخ عبد الرّزاق؟» . أجابني : «ومن أكونُ سِواه!! هيّا بنا» . وقفتُ ، أخذ بيدي ، وصعدتُ معه إلى حيثُ جئت ، في الطّريق قال لي : «يا بُنيّ ، أفي اختبارٍ بسيطٍ مثل هذا تسقط؟!» . خجلتُ ولم أدرِ ما أقول له . تابع : «يا بُنيّ ؛ كيفَ أطعْتَ هواك ، وطاعةُ الهوى ضَلالٌ : والنّفسُ تعلمُ أنّي لا أُصادِقُها . . . ولستُ أرشدُ إلاّ حينَ أعصيها» . أجبتُه بصوتٍ خفيض خَجول : «ولكنّني تعبْتُ يا سيّدي» . ردّ : «يا بُنيّ ؛ ألَمْ تسمعْ قولَ العارف : تَطْلُبُ الرّاحَةَ فِي دار العَنا . . . خَابَ مَنْ يَطْلُبُ شَيْئًا لا يَكُونْ» . قلتُ وأنا مُطرِقٌ : «فلماذا خُلقنا لها؟» . ردّ بحزم : «يا بُنيّ لم تُخلَق لها ، بل له ، ولن تكونَ له إلاّ إذا أدركْتَ حقيقةَ الحَقيقة» كان الشّيخ لا يزال يصعدُ خفيفًا مثلَ نسمةٍ مُسافِرة لا يُتعبه في الجبل شيءٌ ، وكنتُ أنا لا أزال ألهثُ خلفه ، وأكادُ أستمهله قليلاً لألتقطَ أنفاسي وراءه : «يا شيخ ما حقيقةُ الحقيقة؟» «لو مَحّضْتَ نفسَكَ له لعرفتَ ، لكنّ شيئًا من طِباع اللّهو غلبَ عليك ، وعلى الفَتى لِطباعه ؛ سِمَةٌ تَلُوحُ على جَبِيْنِهْ» . تحسستُ جبيني ، كان بارِدًا ، ظلّ الشّيخ

يصعد ، وما زلتُ ألهثُ ، منذ نصفِ ساعةٍ وهو يصعد دون أنْ يتوقّف ودون أنْ يقول شيئًا ، وأنا أخاف أنْ يغيبَ عن ناظرَيَ ، قلتُ وقد كادتْ أنفاسي تختنق : «لقد تعبْتُ يا مولاي» . «لو كنتَ خالِصًا لما تعبْتُ ، أيّ خَبَثٍ فيكَ قد أثقَلَك؟!» . قالَها واستمرّ يصعدُ أسرعَ من ذِي قبل ، لحقتُ به ، كان يبتعد رغم مُجاهدتي على أنْ أظلّ على مرأىً منه ، بعد وقتٍ كان يبتعد أكثر ، وكنتُ أنا أزدادُ تعبًا ، لم استطعْ أنْ أصمد أكثر ، عثرتْ رِجلي فسقطْتُ ، ارتطم رأسي بصخرةٍ وأنا أتدحرجُ من عليائي فصحوتُ ، كنتُ في المشفَى ، كانوا قد عملوا لي غسيل معدة ، في اليوم التّالي أعادوني إلى الزّنازين ، لم أُقاومْ ولم أشكُ ، ولم أعترض ، تقبّلتُ الأمر بالتّرحاب ، ودخلتُ كأنّني أدخل إلى جنّتي ، كان صوتُ الشّيخ عبد الرّزّاق لا يزال يرنّ في أذني ، خشيتُ أنْ يعرفَ من حالي ما خفي عنّي ، فآثرتُ أنْ أصمت في حضرته!

كانت المُخابرات هي الّتي أوصتْ بإيداعي في الزّنازين إلى أجلٍ لم يُسمَّ ، ويتوقّف خروجي على أمرٍ منهم . هل كان ذلك عقوبةً قاسيةً على أنّني فتحتُ ملفَّ فسادٍ خشُوا أنْ يُصيبَ كثيرًا من الّذين لهم جلودٌ حريريّة ، وملامس مُخمليّة؟!

الزّنازين الانفراديّة عالَمٌ خالٍ من البشر ، كان يُمكن أنْ يكون رائعًا لو أنّ لصوتِكَ صدًى ، كلّ شيءٍ هنا يموت ، الصّوت ، والحركة ، والرّائحة ، والنّوم ، والاستيقاظ ، فلا تدري أهو نهارٌ أم ليلٌ ذلك الّذي أنتَ فيه ، لا معنى للزّمن غير ما تُفرّغ فيه مثانتك ، أو تتخلّص فيه من غائطك . يتداخل اللّيل بالنّهار ، والظّلام بالضّياء ، والموتُ بالحياة ، والرّحيل بالبقاء ،وأنتَ بِك ؛ الضّفّتان تشتبكان فلا تدري على أيّ طرفٍ منهما تقف .

الزّنازين الانفراديّة تقف على الحِياد ، إقبالُها إدبار ، وإدبارُها إقبال ، منطقةٌ ليستْ للشّمس ، وليستْ للّيل . حدوديّةٌ يتنازَعُ عليها الوجود واللاّوجود . تنتهي حينما تبدأ ، وتبدأ حينما تنتهي . لا هي لك ولا عليك ، ولا هي بَين بين . ولا تعرفُ إنْ كانتْ بغيًا أم طاهرة . تتظاهر بالاكتِراث وهي غارقةٌ في اللاّمُبالاة . تصحو حينما تنام ، وتنام حينما تصحو . تتمنّى لو تطعنها وألاّ تمسّها بسوء

جسدي كان أكثر ما يُعذّبني ، هذه القشرة تُثقل روحي ، إنّها مُستنقعٌ تجدُ فيه العوارض الخبيثة مسكنها ، تجوع وتعرى ، وتظمأ وتضحى ، وتتقارب وتتباعد . كان جسدي يستقطب المرض كما تستقطب النّارُ الفَراش ، فلا هي صِحّة فتهنأ ، ولا هو سَقامٌ واحدٌ فتنتظر أنْ يزول ، مرض الجسد مُزمِنٌ ، إنّه عذابٌ لا ينتهي

كانوا يُدخِلون لي الطّعام من طاقة ، من ثقبٍ في الباب ، كما لو كان ثُقبًا في القلب ، آكُلُ بلا أيّ شعورٍ بلذّة للأكل ولا حتّى للحياة ، أمضغُ مثل ماعزٍ في الجبل تنظر إلى القمر قبل أنْ تنام ، كُنتُ مثل تمساحٍ صغيرٍ فقد مُحيطه المائيّ فأسبلَ على فُتور جفنَيه المُتورّمَين . لا شيءَ يَحثّ حجر الرّغبة في أيّ شيءٍ الرّاكد في الأعماق

قضيتُ الأيّام الثّلاثة الأولى أُحادِث أمّي ، أبثّها همومي ، وأطلبُ منها أنْ تزورني ، تقول لي «إنّهم صدّوني على الباب ، فلم يسمحوا لي بالدّخول» . أعرفُ أنّ الأوغاد قد يرتكبون حماقةً مثل هذه ، أطلبُ منها أنْ تُطمئنني عن أمّي الثّانية ، عن (إبدر) ، عن سمائها هل ازدادتْ صفاءً ، عن نجومها هل ازدادتْ لمعانًا ، عن أشجارها هل ازدادتْ شُمُوقًا؟! تُحدّثني عن كلّ شيْء ، ثلاثة أيّام وهي تُخبرني أخبار القرية الّتي ظلّتْ قطعةً من فؤادي أحملها معي أنّى ذهبْتُ . سألتُها عن أبي ،

قـالتْ إنّه زارهم وتعـشّى عندهم ذات ليلةٍ من اللّيـالي الأواخـر من رمضان السّنة الماضية . سألتُها كيف زاركم وهو ميّتٌ منذ أكثر من عشر سنوات ، قالتْ لي لقد زارنا وكفى!!

«هل تطلع الشّمس الآن أم تغيب؟» . سـألتُ الشّيخ ، فأجاب عن سـؤالي بسؤال : «شمـسُكَ أمْ شمسُ الكون؟» . أجبتُـه : «شمس الكون» . قال لي : «اسْألْ عن شمسك ، فإذا طلعتْ فقد طلعتْ ، وإذا غابتْ فقد غابتْ» . أقول له يا شيخ : «هل ينتهي الألم؟» . يقول : «حينَ تصرفُ عنه قلبكَ إليهِ بذكرك»

حـضـرتْ زوجـتي ، قـالوا لهـا على البـاب : «إنّه في الزّنازين الانفراديّة ، ويقضي عقوبته» . لم يفهموا أنّ المؤبّد هو الآخَر عقوبة ، ظنّوا أنّني في وطنٍ حرّ لا سِجنٍ أبِد ، وأنّهم يُعاقبـون مـواطنًا حُـرًا قالتْ : «الأولاد أصبحوا أقمارًا . سيف دخل الجامعة» . فبكيتُ . مسحتْ دمعتي بطرف إصبعها ، وتابعت : «ونور يعمل ليُعيلنا» فبكيتُ من جديد . بكتْ معي هذه المرّة . حبستْ دموعها قليلاً قبل أنْ تتابع «وبتول صارتْ عَروسًا» . فانتحبْتُ . ضمّتْني وهي تنتحبُ معي . هدأنا قليلاً . ركنتُ ظهري إلى جدار الزّنزانة المكشوط ، وركنتْ ظهرها إلى جانبي ، قلتُ لها : «أترين تلك النّجوم؟» . قالتْ لي وهي تبكي : «نعم أراها» . لم يكنْ إلاّ ثمّة نقاطٌ صغيرةٌ جدًا من الضّوء تتسرب من شقوق الطّاقة قادمةٌ من مهجع بعيد . تابعتُ : «إنّها تُشبه نجوم إبدر» . ضحكتْ وهي تمسح نُثار دموعها : «هل أُعدّ لك الشّايَ كما كُنّا نفعل؟» . أجبتُها «سنصعد أوّلاً إلى السّطوح» . وقمتُ ، خطوتُ في الظّلام إلى العمق ، أرحتُ وجهي على الجدار المكشوط ، تحسّسْتُه ، أريدُ أنْ أكتبَ عليه شيئًا ، أنْ أرسمَ بإظفري فوقه ،

وكالأطفال رسمتُ قلبَ حُبٍّ، وأنفذتُ فيه سهمًا، وعلى طرفي السّهم حفرتُ الحرفَ الأوّلَ من اسمينا. مَنْ قال إنّنا كبُرنا، والحُبّ يُعيد إلينا براءَتنا! سقطتُ على الأرض من الإعياء غتُّ بجانب الفرشة البالية كانتْ ليلةً بلا أحلام.

في اليوم الخمسين طلبتُ منهم أنْ يأتوني ببعض الكتب، قال لي العسكريّ: «ما نفعُ ذلك، وأنتَ لا تستطيع أنْ تقرأ من الظّلام؟». لم يكنْ يدري علاقتي مع الكتب، أجبْتُه: «أريدُ أنْ أحضنها؛ منذ زمنٍ لم أحضنْ كتابًا» كان شوقي إلى أنْ تلمس راحة كفّي ورقةً من كتابٍ شوقًا قاتلاً. لم يشكّ للحظةٍ بأنّني مجنون. حدّث الضّابط المسؤول عنه بما سمع منّي. رقّ قلبُ الضّابط لي، أدخل لي كتاب (المُنقِذ من الضّلال) للغزالي، كان يُضيءُ الممرّ القريب من الزّنزانة، ليسمح لبعض الضّوء أنْ يتسلّل عبر الطّاقة، كان رائعًا، وودتُ لو أشكره وأقبّل جبينه، لكنّه غاب في الظّلام، قال لي الشّيخ: «نُونُ الهوانِ مِنَ الهوى مَسْرُوقةٌ . . . وصَرِيْعُ كُلِّ هوىً صَرِيعُ هوانِ»

كان الهوان قد بلغَ منّي كلَّ مبلغ، فأضربْتُ عن الطّعام في اليوم الثّاني والخمسين، وبقيتُ لا آكل حتّى اليوم السّادس والسّتين، كان ذلك على أمل أنْ يُخرجوني من هذا القبر، لكنّهم لم يفعلوا. ولم أكنْ أعلم ما بدا لهم، ولا أيّ يومٍ سيكون فيه خروجي

صباحاتٌ كثيرةٌ مرّتْ ومساءاتٌ كنتُ ذاهلاً فيها عن كلّ شيءٍ. كنتُ أستيقظُ في الصّباح فأجد على يَدِي حبرًا، عرفتُ أنّهم كانوا يُعطونني حبوبًا منوّمة أو حبوب هلوسة، ويكتبون الاستدعاءات بأنفسهم ويقومون بتبصيمي عليها. ولم أعرفْ ما هي الاستدعاءات الّتي كُتّبْتُها ولا ما هو مضمونها، وما زلتُ أجهل ذلك إلى اليوم. وقد

لاحظتُ وجود حبر أزرق في ثلاث مرّات متباعِدات على الأقلّ ومضى أكثر الزّمن ولا أدري ما يُفعَل بي .

في اليوم السّبعين ، تحولتُ إلى كائنٍ يتنفّس ، لم أكنْ أدري ما أنا على وجه الخصوص ، كنتُ كتلةً من العظم مُلقاةً في قَبوٍ ، يُؤتى لها بالطّعام كي لا تُفارق الحياة . في اليوم الواحد والسّبعين ذهبتُ في طريق اللاّعودة ، بشريّتي صارتْ موضع تساؤل . انفصلتُ عنّي ، وارتدتُ فضاءات في العالَم الآخَر . في اليوم الثّاني والسّبعين بقيتُ طوال اليوم أحاول أنْ أتذكّر ما أنا ، وأتعرّف وسيلةً للكلام لكنّني فشلت . في اليوم الثّالث والسّبعين خرجتُ من الزّنزانة!!

(٧١)
يا أصدقاءَ الزّمنِ الجميل

نعم ، بعد ثلاثةِ وسبعين يومًا خرجتُ من الزّنازين ، كنتُ شبحًا ، أحتاجُ إلى رعايةٍ صحّيّة ، انتقَوا لي أوسخ غرفةٍ بالسّجن ، أكثر النّاسِ شراسةً ، البشر وحوشٌ في الأساسُ ، بعثَ الله لهم ألف ملّة من أجل أنْ يُهذّبهم ، استجابوا مرّة وكفروا مرّات ، إنّ الوحش الكامن فيهم ينهضُ أكثرَ بكثيرٍ من ذلك الطّفل الّذي فُطِروا عليه . نحن لا إبليسَ يُغوينا أكثر من ذلكَ الإبليس الّذي نريده والّذي هو جزءٌ منّا

أخرِجت من الزّنازين السّاعة ١١ ليلاً ، كانوا يريدون أنْ تظلّ لياليّ متواصلة ، لا نهارات لها كان الظّلام الّذي استمرّ ثلاثةً وسبعين يومًا قد أثّر على عينَيّ ، فصرتُ أجدُ ألمًا في رؤية النّور دفقةً واحدةً ، تغبّشتْ عيناي ، وملأتهما اللّيالي السّود الطّوال المُتتابِعات بغشاوةٍ لا تنتهي لا أستطيعُ أنْ أفتحهما كثيرًا ، ولا أنْ أحدّق في الأشياء طويلاً

دخلتُ إلى المهجع الّذي سيكون وطني الجديد ، كأنّني الآن وصلتُ إلى السّجن ، لقد كانت الأيّام الفائتة بمثابة ترحيب وتهيئة لي كي أتقبّل هذا الوطن ، ومن أجل أنْ يُروّض روحي المتمرّدة . حملتُ فرشتي كمُهاجِرٍ من منفى إلى منفى ، ولم يكنْ معي سوى جسدي ؛ جسدي الّذي يُصرّ على أنْ يظلّ عقبةً في طريق تحرّري منّي . حينَ دخلتُ إلى المهجع كان عليّ أنْ ألتقي بغرباء ، ما يقربُ من خمسةَ عشر عامًا في السّجون جعلتْني أتعرّف إلى آلاف النّاس الّذين يقطنون

هذا الكوكب ، ولكنَ هؤلاء العشرين القاطِنين هنا كانوا جميعًا غُرباء باستثناء واحدٍ ، التقيْتُه في سجن سواقة قبل ستَ سنين ، كان بعضُهم يغطّ في نومٍ عميق ، وقد ركل الدُنيا وما فيها بقدمَيه ، وأرخى لأحلامه العِنان ، وأسبل على جفنَيه غِطاءً يقيه من تعاسةٍ تتربّص به في كلّ حينٍ . وكان عددٌ آخَر يلعبون الورق ، وهم يُحاولون ألاّ يُصدِروا صوتًا عالِيًا حتّى في هياجهم من أجل ألاّ يُعاقَبوا من قِبَل الشّرطة الّتي تفترض أنّ كلّ مواطني كوكبهم في هذه اللّحظة يكونون قد استسلموا للنّوم . رفعتُ يدي بالتّحيّة ، لم يُعِرْني أحدٌ انتِباهًا . تجاوزتهم إلى العمق ، قلتُ : «يا أصدقاءَ الزّمنِ الجَميل .» هممتُ أنْ أكمِل لكنّ أحدًا لم يلتفتْ نحوي ، فرفعتُ صوتي : «أيّها الأوغادُ الجميلون . . .» فانتبهوا ، فأكملتُ : «أنا رجلٌ مُسِنّ ، أكلتُ السّنون قلبي ، وحنتْ ظهري ، وامتصّتْ رحيقَ عمري ، ولا أستطيع بناءً على هذه الظّروف السّابقة أنْ أنام على بَرْشٍ علويّ» تبادلوا فيما بينهم نظراتٍ تدلّ على بلاهةٍ ، توقّف احدهم ، وضع ما في يده من أوراق ، ألقى نظرةً على جميع الأبراش الموجودة في المهجع ، هزّ كتفَيه ، وقال : «كما ترى ، لا يوجد برشٌ أرضيّ . على الجدد أنْ يصعدوا إلى الأعلى . القُدامَى هم الّذين يستطيعون النّوم في الأسفل» . ذكّرني ذلك بالموتَى . لا أدري إنْ كان عليّ أنْ أكون من الموتَى من أجل أنْ أنزل إلى الأسفل ولا أظلّ عالِيًا . قلتُ : «العالي يُصلَب» . لم يفهم عليّ ، كان يبدو أنّه شاويش المهجع أو هكذا بدا لي من تصدّره للحديث معي دون الآخَرين ، قال : «انظر» وأدار إصبعه على الأبراش ، وتابع «هنا . . أو هنا . . . أو هنا . . تستطيع أنْ تختار» . أشرتُ له إلى ظهري : «ولكنّني لا أستطيع أنْ أقفز مثل الشّباب» . مطّ شفتَيه دلالة الامتِعاض من

تضييعي لوقته ، وعاد إلى اللّعب . قلتُ ولا أدري إنْ كان قد سمعني : «سأضع فرشتي على البلاط هنا ، وأنام» ، رميْتهَا وكنتُ لا أزال طوال هذا الحِوار أشدّ عليها تحتَ إبطي . كنتُ دُنيا من التّعب ، رميتُ جسدي المُنهَك فوقها ، وغطستُ في النّوم . مرّ اللّيل الطّويل سريعًا ، في الصّباح جاءني أحدهم على الفرشة غاضبًا هائجًا وهو لا يعرفني ، ركلني برِجله ، أحسستُ يتأفّف من هذا الكائن الّذي أُضيف إلى قاذورات المهجع : «أبو الشّباب قُمْ ، قُمْ نريد أنْ نشطف» . فتحتُ عيني من نوم طويلٍ ونظرتُ إليه والصّباح باكرٌ وما زال أثر الزّنازين الانفراديّة في روحي ، وضحكت . قلتُ : «تِكرَم» . نهضتُ بتثاقُل ، وتابعتُ : «هل أنتَ الشّاويش؟» . ردّ عليّ مُغضبًا : «نعم ، وما دخلك؟» كنتُ اريدُ أنْ أمتصّ غضبه ، وأنْ أكسبه إلى جانبي . وقفتُ وقفةً عسكريّة ، وأكملتُ : «من أجل أنْ أؤدّي لك التّحيّة» . حملتُ الفرشة ، وقمتُ من المكان مُمْتثِلاً . رأيتُ السّجين الّذي يعرفني يقتربُ منه ، ويهمسُ في أذنيه بصوتٍ مسموع : «يا رجل هذا أحمد الدّقامسة ، إنتا جاي تتصرّف معه هذا التّصرّف بهذه الطّريقة الفَظّة!!» . فتفاجأ الشّاويش ، وقال مندهشًا : «حَقًا؟!!!» . ثُمّ هُرِعَ إليّ ، واحتضنني ، واعتذر منّي . قال وهو يأخذ بيدي : «تعال أريدُ أنْ أخبرك بهذه القِصّة أوّلاً هذا برشي على حِسابك» كان برشه أرضِيًا وفي أحسن مكان في الغرفة : «خُذه . ضَعْ فرشتك وأغراضكَ فوقه» . فأجبته : «برشُك لا يُمكن أنْ آخذه ، يكفي استقبالك الحارّ لي» ، وضحكتُ . فردّ : «إذًا سأتدبّر لك برشًا خاصًا لك من الشّباب الّذين أعرفهم ، لكنّني أريد أنْ أخبرك بهذه القصّة . . . نحن طلبنا الأمن الوقائيّ ورئيس القسم ، وكنّا ثلاثةً ؛ فلانًا وفلانًا وفلانًا . . . ثلاثة أو أربعة . . . وقالوا لنا : بمجرّد أنْ يدخل

عليكم أحمد الدّقامسة تضعون على رأسه بطّانية وتقومون بضربه ضربًا مُبرّحًا ، ولكمْ ما تريدون من الاتّصال بأهلكم أو تكرار الزّيارة في أيّام الزّيارات» . فضحكتُ مِلْء شِدقَيّ ، وقلتُ له : «طيّب اضربوني . . . ها هو أحمد بين أيديكم ، وها أنذا أفتح لكم ذراعَيّ لتفعلوا ما طُلِبَ منكم» . فردّ مُستنكِرًا : «وأينَ المروءة؟ وأين الرّجولة؟ أتوقعنا الشّرطة في خِسّةٍ ونذالةٍ كهذه؟! لا والله يا رجل ؛ صحيحٌ أنّنا زُعران لكنّنا نحترم النّاس ، ونقدّر واجبهم» . قلتُ له «يا رجل أخاف أنْ تتعرّضوا لمساءلة بسبب عدم تنفيذكم أوامرهم ، تعالَوا واضربوني واحمُوا أنفسكم من المساءلة أو العقاب» . فقالوا : لا ، هل هذا معقول؟!» واحتُرِمت منذ ذلك اليوم ، وبدأتُ معهم علاقةً من أقوى العلاقات وأوطدها ، استمرّت ستّة أشهر

كان مجتمع الزّعران في هذه الغرفة مجتمعًا خاليًا من الحسد ، عابِقًا بالتّعاون ، يحملُ صغيرُهم كبيرَهم ، ويتكاتفون فيما بينهم ، حتّى إذا جاع أحدهم أطعمه الآخَر من فُضول ما عنده ، وكانوا إخوةً يتقاسمون ، منبتهم طيّب ، ولكنّ ظروفهم الّتي لم تحملهم على التّعلّم أضرّتْ بهم ، وكان لا يُقطَع بأمرٍ دون شاويشهم ، ولا يُنفّذ هو بدوره أمرًا إلاّ بعد استشارتهم .

تبعثني بعضُ الكتب إلى هُنا ، فرأيتُ أنْ أقرأ عليهم ، وإنْ كانوا لا يقرؤون . خصّصْتُ لهم أماسِيّ الجمعة بعد أنْ تكون زيارة الأهل قد أمدّتهم بالطّاقة الإيجابيّة ، ودعتْ عقولهم وقلوبهم إلى استقبال الحِوار ، أقول خصّصْتُ تلك الأماسيّ ، لأقرأ عليهم من كتاب نور اليقين في السّيرة ، كُنّا نقرأ في كلّ جمعةٍ ثلاث صفحات .

ومن كتاب فِقه السّنة لسيّد سابق ، كنتُ أستلّ بعض المواضيع

لأطرحها عليهم ، وأناقشهم فيها ، في هذه الفترة الّتي مكثتُها عندهم وجّهتُهم إلى الصّلاة ؛ إنّ الصّلاةَ ليستْ هي المقصودة في ذاتها يا أصدقائي إنْ لم تصلْك بالله ، تصلْكَ بما أراد منك ، أعني بفعل الخير وترك الشّرّ ، فلولا أنّها تقول لك ذلك وأنتَ تقفُ بين يدَي ملك الملوك فما نفعُها إذًا ، إنّ صلاةً لا تُغيّرك من الدّاخل ، ولا تُحدثُ ثورةً في أعماقك ، ولا تنهاكَ وتأمرك ، هي حركاتٌ بلهاءُ لا معنى لها

كنتُ إمامهم في الصّلاة ، أقرأ في الجهريّة ما أحفظ ، في نهاية فترة مكوثي بينهم صار ثمانية عشر سجينًا من العشرين سجينًا يُحافِظون على الصّلاة . كنتُ أذكّرهم بالدّين ، وبالآخرة ، وبالجنّة ، وبالنّار ، وأنصحهم بما أعرف من معلومات . صاروا يُحبّون أنْ يجلسوا معي . لكنّ العيون الّتي تتحرّك في كلّ اتّجاه لا تجعل المياه الجارية صافية ، لا بُدّ أنْ تضع عودًا في وسط النّبع لكي يتعكّر . قال بعضُ الواشين : «إنّه مُضلّ للشّباب الجاهل ، يقرأ من كتاب ويحشو أدمغتهم بالهُراء ، ويجب إيقافه عند حدّه»

قبل وقتٍ ليس بالطّويل ، شكّل الملك حكومة معروف البخيت الثّانية ، وعُيّن حسين مجلّي في هذه الحكومة وزيرًا للعدل ، لما عرف أهلي أنّه صار وزيرًا للعدل تأمّلوا أن يساعدهم في الإفراج عنّي مادام قد أصبح في هذا المنصب ، وكان أهلي يُدركون أنّه لن يتمّ الإفراج عنّي لأنّ القضيّة أكبر من الحكومات ، وتتعلّق بدُول ؛ ولكنّهم قالوا إنّ صوت الوزير إنْ تحدّث في الموضوع فسيكون عاليًا ومسموعًا . أو على الأقل يتمّ نقلي من سجن الموقّر إلى سجن أمّ اللّولو ؛ لأنّ سجن الموقّر كان بعيدًا جدًا على أهلي ويصعب عليهم زيارتي فيه ، أو يتمّ نقلي إلى سجن قفقفا ؛ فعملوا اعتصامًا أمام وزارة العدل ، وخرج يومها وزير العدل

(حسين مجلّي) من مكتبه وانضمّ إلى المعتصمين ، وقال لهم : أنا مُعتصِمٌ معكم ، ومطلبكم هو مطلبي مثلما هُو مطلبكم ، ويومها احتجّ اليهود ، كيف لوزير العدل أن يعتصم لمصلحة مجرم وقاتل ، كنتُ ولا أزال في نظر اليهودِ مُجرِمًا ، فهل أنا كذلك في نظرِ أبناء وطني؟! قال له المعتصمون : على الأقلّ انقل ابننا من سجن الموقّر إلى سجن أم اللولو أو قفقفا . فقال لهم : سأفعل ، وبالفعل نُقلت إلى سجن أم اللولو

ذهبوا بي إلى غرفة فيها أذنابٌ للإدارة ، وواحدٌ منهم كان صادِقًا وواضِحًا ، قال لي «اسمعْ ، أنا طلبني رئيس القسم ، وقال لي : إذا كتبْتَ في أحمد الدّقامسة أنّك لا تريده في الغرفة ، والله لن يبقى فيها يومًا واحدًا . فبالله عليك لا تُحرجني ، ولا تداقرهم» . فقلت له أنا والله راجع وأنا قرفان ، ولا أريدُ أنْ أتدخّل في شيء ، وليس عندي مشكلة بالنّسبة لي ، لكنْ من أجل أمّي ؛ كانتْ أمّي في هذا السّجن تستطيع أنْ تزورني ، فلمّا نقلوني إلى سجن المُوقّر صارت لا تستطيع زيارتي . وكان يبدو عليها التّعب على وجهها حين تزورني ، لقد كبرتْ وتجاوزت السّبعين . فقلتُ في نفسي «يكفي» .

صار عفو عام ٢٠١١ وكان الوزير نفسه مُتشجّعًا ، وكان يُطمئن أهلي أنّ الإفراج عنّي سيتمّ بإذن الله ، وأنّني مروح كان عفوًا شكليًا ، وكان سببه تخفيف الاحتِقان في فترة الرّبيع العربيّ ، أخرجوا يومَها السّرقات والقضايا الصّغيرة ، والقتل المُصلح . المادّة الّتي أنا حُوكمتُ عليها مُصلحًا كنتُ أو غيرَ مُصلحٍ لم يشملها العفو من أجل ألاّ يشملني .

جاء عفوٌ في هذا العام عن قضيّة إطالة اللّسان ، فكلّ مَنْ كان

محكومًا بها في السّجون جميعها شمله العفو على هذه المادّة ، قلتُ هذا شيءٌ مُقدّر ، فانتهتْ قضيّة إطالة اللّسان الّتي لُفّقتْ لي والحمد لله .

كانت الشّوارع تغلي ، وكُنّا مُغيّبين ، لا نعرف ما يحدث إلاّ ما يرشح من خلال الزّيارات فقط . أو بعض الجرائد الّتي يُسمَح بها كلّ أسبوع أو أسبوعَين . بالنّسبة لي كنتُ مهتمًا بالموضوع ، وكنتُ أسأل الشّرطة ، وليس كلّ الشّرطة يُجيبون . وكانت لديهم سياسة في التّجهيل والتّعتيم كان التلفزيون يبثّ طوال اليوم على قناة (روتانا) أو (ميلودي) ، أو قناة الأفلام الّتي كانتْ تعرضُ أفلامًا شبهَ إباحيّة . لم يكنْ يهمّهم الأخلاق ، لكنّ ما يهمّهم هو ألاّ يفهم السّجين شيئًا ، ولا يُفكّر بأيّ شيء .

في نهاية هذا العام فكّرتُ أنْ أُكمل سنتي المدرسيّة الأخيرة ، وأن أتخرّج في الثّانويّة العامّة . هل يُمكن أنْ يحدث ذلك؟ لا شيء يمنع عندي ، لكنّ أوطاني تتعدّد ، والدّراسة تحتاج إلى استقرار ، حينَ أرحل من هنا سيكون لزامًا عليّ أنْ أفعل ذلك . ودّعتُ زملائي الرّائعين استعدادًا للرّحيل ، حملتُ ما تبقّى لي من أمل وحُلم وكتب ، وعُدتُ أدراجي إلى سجن (أمّ اللّولو) ؛ كان ذلك في آذار من عام ٢٠١١م .

(٧٢)
الحَقُّ أَحَقُّ أنْ يُتّبَع

عُدنا والعَودُ أحمد ، كما يقولون . كان سجن أمّ اللّولو قد فتح ذراعَيه هذه المرّة ، قال مُعاتِبًا : «لن تعرف خيري إلاّ عندما تجرّب غيري» . أجبتُه : «صدقت . لكنّ المنافي في النّهاية تتشابه يا صديقي» . زعق مُعترضًا «لستُ منفى ولن أكون» .

كان عليّ أنْ أبدأ ترتيب أموري هنا مُبكّرًا ، صار عليّ أنْ أرتاح بعد كلّ هذه السّنين ، ذهب عرام الشّباب ، ومضت الكهولة بي والأمراض إلى وادٍ غير ذي زرع ، وأكلت السّجون حُشاشة قلبي ، وجنحتُ إلى الحِكمة ، صار التِصاقي بالكتاب أكبر ، وبالبعد عن السّجناء والعسكر ، إنّ خمسةَ عشر عامًا تمرّ لهي صعبةٌ على امرئٍ تعوّد أنْ يُعانق الفضاء في إبدر بقلبه ، ويمدّ يدَيه للنّجوم فيقطفَ منها دررًا يصنعه عقدًا يُهديه لحبيبته ، ويُطارد الفراشات في فصل الرّبيع ، هذه الحرّيّة المُطلَقة خُطِفتْ بالكامل في هذه السّجون .

عاودتْني ذكرى أبي ، كان قد مرّ على رحيله اثنتا عشرة سنةً مُوغلةً في البُعد ، لم يعد لديّ كتفٌ أريحُ رأسي فوقه ، ولا كَفٌّ تأخذني من يدي إلى حدود إبدر لتقرأ على مسامعي قصيدة الوطن ، كنتُ أستعيده في الكتابة ، كتبتُ له بعد رحيله أكثر من عشر رسائل وبعثتُها مع أخي ، كنتُ أقول له : «اذهب إلى قبره ، وعلى شاهدته اقرأ لروحه الفاتحة عنّي ، ثُم أبلغه الرّسالة ، ستصله بلا شكّ ، وسيسمع

دموعي الصّامتة ، وسيُدرك مدى حُبّي وافتقادي له ، وسيُدرك أكثر قسوة الغربة ، إنّ روح أبي طاهرة ، ولذلك ستُصغي لكلّ حرفٍ كتبْتَه ، قُلْ له إنّ ابنه كَبُر كما أراد له ، أبيًا شامخًا ، لم تُزعزعه السّنون ، ولم تنلْ منه العادِيات ، وما زال طفلاً قُل له :

مــــا أبي إلاّ أخٌ فــــارقْــتُــهُ
وُدُّهُ الصّــدْقُ ، وَوُدُّ النّاسِ مَــيْنْ
طالَما قُــمْنــا إلى مــائدَةٍ
كــانت الكِسْرَةُ فيــهـا كِسْرَتَيْنْ
وشَــرِبْنا مِنْ إناءٍ واحــد
وغَسَلْنا بعدَ ذا فيــهِ اليَديْنْ
وَتَمَــشّيْنَا يَدِيْ في يَدِهِ
مَنْ رآنا قــالَ عَنّا أخَــوَيْنْ

قُلْ له : إنّ جوعي إلى لُقياه ولو في العالَم الآخَر لا يُوصَف ، إنّني أتخيّله في كلّ شيءٍ ، طيفُه يُجاورني ، يُلحّ عليّ ، يجلس معي ، يُقاسمني سخونة الطّعام ، وبرودة الكأس ، والوِساد المُمزّق . قُلْ له إنّ ما عذّبه وأقعده هو ما يُعذّبني ويُقعدني ، لكنّ الشّعوب لن تظلّ مُستكينةً يا أبي ، سمعتُ أنّها نهضتْ في تونس ، وأنّ شرارة الثّورة العارمة قد انطلقتْ ، وأنّ مصر ذهبتْ مذهبها ، فهل ستستيقظُ هذه الشّعوب ، وتنال حرّيّتها ؛ لقد قلتَ لي إنّ ثمن الحرّيّة غالٍ جدًا ، إنّ ثمنها الدّماءَ والأشلاء والضّحايا والسّجون والأقبية والزّنازين ، والتّعذيب ، والطّرد ، والنّفي ، والسّحل ، . . . أفلا يُمكن أنْ ينال شعبٌ ما حُرّيته دون يدٍ حمراء مُضرّجة يدقّ بها على الباب؟! أفلا يُمكن أنْ يتخلّى الباعة الجالِسون على كراسيهم ، والمُقامِرون بمصائر الشّعوب عن كراسيهم

طوعًا ولو لمرّة واحدة؟! لماذا كان لِزامًا علينا أنْ تسيل الدّماء مِنّا أنهارًا لكي تجرفهم وتجرف كراسيهم وتُغرِق بالطّوفان عروشهم؟! لو عِشْتَ يا أبي إلى هذا اليوم لربّما تخفّفتَ قليلاً من أوجاعك، وربّما ازدادتْ تلك الأوجاع لا أدري؟ ولكنّ شيئًا ما في المنطقة العربيّة يا أبي يحدث، ومصائر تتغيّر، ولا أحدَ يدري إلى أين ينتهي كلّ ذلك».

في عام ٢٠١٢ وفدَ إلى مهجعي رجلٌ اربعينيّ، (شُكري) هكذا قدّم نفسه لي، له عينا صَقْر، أشقر الشّعر، تنزلُ خُصلةٌ من شعره النّاعم على جبينه الأبيض، وله خدّان مُورّدان، وقامةٌ سامقة مشدودة السّبك، وكلّ ما فيه يدلّ على أنّه ابنُ نعمةٍ ودلال، ويُطمع فيما تحتَ ثيابه، إلاّ عيناه، فلقد كانتا تدوران بحركة دائمة، مُدوّرتان، مفتوحتان على اتّساعهما، مُخيفتان، تُلغيان كلّ فِكرةٍ أخرى قد تكون أخذْتَها عن هذا الرّجل كانتْ أمّه لبنانيّة وأبوه أردنيّ، ومُتّهم على قضيّة مُخدّرات، ولم يصدر في حقّه أيّ حُكم.

لزمني لزوم الصّديق صديقَه، ووجدْتُه على عِلْم ووعي، ولم يكنْ يتحدّث كثيرًا عن تهمته، وبدا أنّه واثقٌ من براءته فيها، وأنّ مُدّةَ بقائه هنا لن تطول. كان السّجن آنئذٍ يقول لي: إنّ مدرسته في التّعرّف إلى البشر، لن تجدها في أيّ بُقعة أخرى من العالَم، كانتْ معرفة الآخَرين على اختلاف النّسيج الّذي يُشكّلهم تُقرّبكَ من الحِكمة، وأنا باحثٌ عن الحِكمة، عاشِقٌ لها، ومُحبّ الحِكمة هو الفيلسوف في التّعريف، ولم يكنْ من مدرسةٍ لا الرّواقيّة، ولا الكلبيّة، ولا التجريبيّة، ولا السفسطائيّة، ولا العبثيّة، ولا الوجوديّة، لتعلّمكَ الحِكمةَ والفلسفة أكثر من مدرسة السّجن.

كانت الهواتف في تلك الأيّام قد أصبحتْ لمن يملك المال حقًّا

مُكتَسبًا ، وإنْ ظلّ ظهورها قليلاً ، والمجاهرة بحملها خطيرًا . الشّرطةُ تأتيكَ بما تريد ، فقط «ادفعْ بالّتي هي أحسن» . التّضييق الّذي حدث كان على الكتب ، مع بَدْء ما يُسمّى بالرّبيع العربيّ ، سُحِبَتْ كتبٌ كثيرةٌ من السّجن ، جمعوا المئات منها في كراتين كبيرة ، وذهبوا بها ، لا أدري ماذا كان مصيرها ، لا أدري إنْ حُرِقتْ أو أُتلِفتْ أو فُعِلَ بها شيءٌ آخَر ، كنتُ أقول لو أنّهم تبرّعوا بها لمكتبةٍ عامّة ؛ فإنّ ذلك سيُخفّف حزني ولوعتي ، وأنا أنظر إليها تتكدّس في تلك الكراتين مثل المُهجّرين ، وتُساقُ إلى مصيرٍ مجهول ، ويُذهَبُ بها وبأرواح كُتّابها إلى حيثُ الصّقيع والظّلام والخفافيش والهوامّ .

إنّه مساءٌ باردٌ ، برد الصّحراء سكّينٌ مشحوذة ، تدثّرتُ بالغطاء ، وأنا بين الصّحو والمنام ، قَطَراتُ مطرٍ خفيفةٍ يصلُ صوتُها إلينا من الخارج كأنّها تريد أنْ تقول إنّ البرد يُنذر بالدّفء ، وإنّ الموت يُنذر بالحياة ، وإنّ الماء يُنذِر بالرّبيع ، كنتُ غارقًا في تأمّلاتي ، أحاول أنْ أستعيد أحلامًا ركضتْ فوقها سنونٌ ثرّة ، فتداخلتْ ؛ فلم أعدْ أدري أيّها سبقَ الآخَر ، وأيّها تقدّمه ، حينَ رأيتُ (شكري) قد انزوى في طرف المهجع ، وبدتْ على وجه الأبيض المخمليّ جِدّيةٌ برزتْ من تقطيب جبينه ، ومن بحلقة عينيه ، لم أكنْ أدري مَنْ يُكلِّم في الهاتف الخلويّ على الطّرف الآخَر ، دفعني الفُضول إلى أنْ أُعيره أُذُنيّ ؛ وكان ما سمعتُه جللاً . ما فهمتُه أنّ صديقي (شُكري) هذا كان يُنسّق عمليّة بيعِ مخدّرات من لبنان إلى سوريّا إلى الأردن إلى السّعوديّة ، بقي مساءَ ذلك اليوم كلّه يدور في الزّاوية حتّى نسّق العمليّة كاملة وبكلّ احتراف .

أُسقِطَ في يدي ، إنّه صديقٌ عزيزٌ ، وقارئٌ جيّد ، وتعلّمْتُ منه ما

لم أتعلّم من سِواه ، وبيننا عيش ومِلح كما يقولون ، وتمنّيتُ لو أنّني لم أُزِخ له سمعي ، ولا عرفتُ ما ينوي فِعْله ، او لو أنّه أُفرِج عنه قبل أنْ يحدثَ ما حدث ، وقبل أنْ أسمع ما أسمع . غا صِراع شديدٌ في داخلي ؛ إنّه صاحبي وإذا بلّغتُ عنه فسيُصاب بالضّرر ، وربّما تتجدّد محاكمته ويُحكَم أحكامًا عالية ، وإنّه الأردنّ ؛ وطني الحبيب ، وإنّها مصلحة البلد أو المصلحة العامّة ؛ فالمُخدّرات في هدفها النّهائيّ ستصل إلى السّعوديّة ، وفي السّعوديّة مكّة المكرّمة والمدينة المُنوّرة ، وهناك حبيبي رسول الله ؛ فهل أسمح لهذه السّموم أنْ تصل إلى الثّرى الّذي ضمّ جسد أطهر الخلق لأكون شريكًا في تلويث تلك البقاع الشّريفة؟!

لم أستطعْ أنْ أنام ليلتي تلك ، واشتدّ الصّراع بين أنْ أُضحّي بصاحبي وبين أنْ أتغاضَى عن الموضوع . وسمعتُ هاتِفًا في داخلي يقول : «إنّه فقط تغاضِ عن الموضوع . . . اعتبر نفسكَ لم تسمعْ شيئًا . . . لن يضير مروءَتك ولا أخلاقَك أنْ تتغافل أو تتغابَى ، فالتّغافل نصف الحلّ ، والتّغابي كلّ الحلّ» . ويسكت الصّوت ، ثُمّ يرتفعُ صوتُ آخَر : «ولكنْ لا . . . ربّما في غير هذا الموقف القاتل ، ستكون شريكًا له في هذه المأساة ، ستكون بطريقةٍ أو بأخرى قد ساهمْتَ في نشر الموت ، والمرض ، والعفونة ، وزرعتَ مزيدًا من التّائهين في الفَلَوات» . وظللتُ أتقلّب اللّيل بطوله في الفِراش ، وتمنّيتُ بوجهٍ حقّ لو أنّ شكري لم يُصنّفْ في مهجعي ، أو أنّني لم أره في حياتي ، وتخيّلتُ نفسي في مواجهته بعد أنْ يعرفَ أنّني أنا الّذي بلّغتُ عنه ، وكيفَ سيكون موقفي ، وسيقول لي : «يا خائن ، تخون صاحبك الّذي وثق بك ، وتُلقيه إلى الكلاب يا كلب» . ظللتُ مُستيقظًا تتناهشني الهواجس حتّى الفجر ، سمعتُ الأذان الأوّل ،

وغفوتُ أقلّ من ربع ساعة ، وفي المنام جاءني الشّيخ عبد الرزّاق ، قال لي : «يا بنيّ ؛ إنّما يُعرَف المرءُ بالحقّ ، ولا يُعرَف الحقّ بالمرء ، فإن اختلفَ أخوكَ مع الحقّ ، فكنْ مع الحقّ ، فإنّ الحقّ أحقُّ أنْ يُتّبع» . انتبهتُ كأنّ يدًا خفيفةً نقرتْ كتفي ، قمتُ فصلّيتُ الفجر ، كان نصفُ الهمّ قد انزاح . ثُمّ صلّيتُ بعدها صلاةَ الاستِخارة ، ووقفتُ بينَ يدي الله ، وكانتْ أكفّي تبتهل ، وصاحبي الّذي يريد إتمام صفقة المُخدّرات على مقربةٍ منّي وقد نام ليله الطّويل مرتاحًا ، يُفكّر في الأرباح الّتي ستتدفّق إلى جيبه وجيوب عملائه ، كُنّا ضِدّين يجتمعان : الحقّ المُستيقظ والباطل النّائم . نظرتُ في أرجاء المهجع ، كان بعضُهم قد تململ ، ويبدو أنّه ينوي الصّلاة ، أمّا بعضهم الآخَر فكان النّوم يذهب به كلّ مذهب . وانجلى غَبَشُ اللّيل الهارب من نافذة المهجع ، وألقتْ ظِلال الانبلاج على القُضبان المتعامدة بعض الغموض ، كنتُ لا أزال أشعر ببعض الحاجة إلى النّوم ، استلقيتُ على البرش ، فمرّتْ بي سحابةُ النّوم خفيفةً ، فلمّا أشرقتِ الشّمس صحوتُ من جديد ، وكان النّصفُ الثّاني من الهمّ قد انزاح . سارعتُ إلى مدير السّجن أُخبره بالكارثة الّتي يُمكن أنْ تحلّ لعلّه يتداركها . وعلى الباب وقفتُ مثلَ جنديّ يقف على الحدود الفاصلة يحمي وطنه ، كنتُ أُدرِكُ أنّني على ثغرةٍ وأنّني إنْ سكتُّ فَلَيُؤتَينّ مِنْ قِبَلي ، وأنّ الأوطان أبقى من الأشخاص ، وأنّه لو نام كلّ واحدٍ عن واجبه لصار الوطن مزرعةً للعكاريت .

على مكتبه كان المُدير يرتشفُ فنجانًا من القهوة ، ويُطالع إحدى الصّحف اليوميّة ، قلتُ له : «سيّدي الواجبُ ينادينا» . لم يكترثْ للجملة الّتي حشدتُ فيها بلاغتي لكي ألفتَ انتباهه كما يجب ، ردّ :

«أنا أعرف أنّك كثير المشاكل، ماذا تريدُ هذه المرّة؟». قلّصتُ المسافة الفاصلةَ بيننا خُطوتَين، وتنحنحتُ لألقي بكلّ ما أحمله من معلومات أمامه، حدّثْتُه بكلّ ما سمعتُ، جذبني صمتُه إلى أنْ أكمل حديثي وأقدّم له بعض التّفاصيل، فلمّا أنهيتُ وقد توقّعتُ أنْ يُسارع إلى إبلاغ مديريّة الأمن العامّ، دوّتْ ضحكةٌ فرقعتْ في الهواء وكادتْ تثقبُ أذني، ظننتُ أنّ مُفرقَعات قد انفجرتْ في الخارج حتّى أسمع لها هذا الدّويّ، كان تكذيبي لما سمعتُ هو أنّه خالفَ تمامًا ما أنتظر، نظرتُ من أجل أنْ أتأكّد أنّ هذه ضحكة مُجلجلة وأنّ الّذي يقوم بها المدير، فرأيتُ أسنانه ما زالتْ مكشوفةً لم تُغطّها شفتاه لطول ضحكته، فذُهِلت، قال لي، وهو يُطلقُ ضحكةً جديدةً، ويجمع من نثارها كلماته المنفرطة من بين أسنانه: «هل هذه نكتةٌ أم ماذا؟». شعرتُ أنّني قالبٌ من الثّلج يهوي على أرضٍ ساخنة، فينساح الثّلج سريعًا كان إلى جانبه مدير الأمن الوقائيّ، تابعَ هو الآخَر فصول المأساة: «إنْ كنتَ تريدُ أن تمزح فلا تمزح مزحةً بايخة مثل هذه». فضحكتُ أنا الآخَر، بدأتُ بضحكةٍ خفيفة، سرعان ما ضخّمْتُها، سرعان ما تحوّلتْ من بعدُ إلى قهقهة، وضَحِكَ المُديران معي، كان مشهدًا عبثيًا تراجيديًا، سألني المدير وجوانبه ما زالتْ ترتجّ من أثر ضحكاته المُتتابِعات: «هل رأيتَه يتحدّث بالهاتف الخلويّ؟». ضحكتُ إلى الحدّ الّذي وضعتُ فيه يدي على بطني خوفَ أنْ أُخرجَ ريحًا أو أملأ الجوّ بغاز الميثان: «آه والله . لقد رأيتُه بعينَيّ هاتَين اللّتَين سيأكلهما الدّود». قال لي مدير السّجن، وهو يئزّ من آخر ضحكةٍ حاول أنْ يقف عندها وينفض رماد سيجارته في المنفضة: «الهاتف... ما يهمّنا هو الإمساك بالهاتف، ومصادرته». وأحكَما خُطّتهما لِيُوقِعا بالهاتف،

وخرجتُ أضربُ كفًا بكفَ كأنّني أبله ، أو أحمق لحق به الصّبيان ، وراحوا يرمونه بالحجارة ، تساءلتُ فيما بيني وبين نفسي : «هل كانا يعرفان بالأمر ، وأرادا أنْ يظلّ الأمر سرًا خاصًا بهما؟ أمْ أنّهما كانا مُتواطِئَين معه؟» . هممتُ أنْ أخبرهما أنّني أستطيع أن أعطيهم رقم الهاتف الّذي صدرتْ منه المكالَمات ، ويقومان هما بمخاطبة الجهات المُختصّة ليتوصّلوا إلى الاستِماع إلى المُكالمات الّتي أجراها . . . وتتبّع الأرقام الّتي هاتفَها خارج الأردنّ في لبنان وسوريّة والسّعوديّة لكنّني تراجعتُ ، لقد فات أوان كلام كهذا . قلتُ لهما قبل أنْ أخرج ، وضحكتي ينسحبُ دُخانها خلفي «الهاتف؟ إممم ؛ أنا أيضًا يهمّني الهاتف ، يهمّني ألاّ يُصادَر ، لأنّني أتحدّث من خلاله مع أمّي ، وعائلتي»

طبعًا العمليّة كانت تقتضي بيع (٢٥٠ كغم) من الحشيش تتوزّع على ثلاثة بلدانٍ عربيّة! ظلّتْ عبارة أحدهما يتجاوب صداها في عقلي شهرًا بعد ذلك حينَ قال : «اعتبر نفسكَ لم ترَ شيئًا»!! انسحبتُ إليّ طول ما تبقّى من ذلك العام ، لأداري لسعات المرارة الّتي أعملتْ سكّينَها أسفلَ بطني زمنًا طويلاً بعد تلك المُحادثة بليلَتَين كانت العمليّة قد تمّت ؛ (٢٥٠) كغم من الحشيش كانت تتقاذفها أفواه المذبوحين على قوارع الفراغ في عالَم الأحلام الكاذبة . وثلاثة أشهر بعد تلك الحادثة كان شُكري يستنشق هواء الحرّيّة خارج السّجن .

في نهاية ذلك العام ، وقبلَ أنْ ينصرمَ جارًا معه كثيرًا من الحوادث المُؤلمة ، كنتُ قد رفعتُ رسالةً إلى مدير الأمن العامّ ، أُخبره بما يجري في السّجون ، لخّصتُ فيها مُشاهداتي لأكثر من خمسة عشر عامًا :

«عطوفة مدير الأمن العامّ المُحترَم ؛ هذا نِداء مُواطنٍ غَيورٍ على

مصلحة الوطن . . . إنّنا في ما يُسمّى بمراكز الإصلاح نُعاني من إدخال الحُبوب المُخدِّرة بكافّة أنواعها ، وأحيانًا أنواعًا من المُخدِّرات مثل الهيروين ، والحشيش ، والماريجوانا ، وغيرها من هذه السّموم ؛ إذْ يتمّ إدخالُها من قِبَل معظم ضُبّاط الأمن وأفراده الّذين يخدمون في هذه المراكز ، وأعني ما أقول ؛ إنّ مُعظَم قوّات الأمن وليس قلّة منهم يأتون بها من خارج السّجن ويقومون بإعطائها لبعض السّجناء الّذين توجد لهم علاقاتٌ مشبوهة معِ هؤلاء الضُّبّاط والأفراد ، وبأضعاف سِعرها في الخارج . . . وقد تتساءل عن التّفتيش ، نعم هناك تفتيش ، ولكنّهم يُدخِلونها بطرقٍ مُلتوية ؛ مثل تعبئتها بعلب السّجائر الّتي تدخل دون رقابة ، أو كعبِ الحِذاء ، أو داخل الغيار الدّاخليّ ، أو وضعها في (بالون) وبَلْعِها ، فإذا دخل العسكريّ أو الضّابط السّجن يقوم بتقيُّئِها ، وبَيْعِها للسّجناء عن طريق سجينٍ وسيطٍ يروّج لهذه السّموم . . . لا أدري إنْ كنتَ تدري أم لا . . ولكنّني أحاول . . . وستقول : لماذا يحصل تمرّد في السّجون ، لماذا كَثُرتِ المُشاجرات في الآونة الأخيرة ، لماذا يقوم بعضُ النّزلاء بتشطيب رؤوسهم ، لماذا حدثتْ حرائق هنا وهناك؟! إنّني أقول لك إنّ كلّ هذا سببُه دخول هذه السّموم القاتلة إلى السّجون . . .»

(٧٣)
تَعْدُو الذّئابُ على مَنْ لا كِلابَ لَهُ

الوعـد مَطلٌ ، ولا أكـذب من الحُكومـة ، وإنْ بدا أنّهـا بريئـة وعلى نِيّاتها! والصّادقون الّذين يعملون بها لا بُدّ أنْ يتلوّثوا بأقذار السّياسة مهما كانوا نظيفين ، إنّها محرقة ، هكذا كانتْ وما زالتْ ، كذلك قال سفيان الثّوري لأبي جعفر المنصور حينَ وضع يده على كتفه وهو في الحج حينَ سأله الأخير : «أتعرفني؟» فأجابه «لا ، ولكنّكَ قبضْتَ عليّ قَبضةَ جَبّار» . قال أبو جعفر : «فما يمنعُكَ أنْ تأتينا؟» . فردّ سُفيان : «إنّ الله قد نهى عنكم» . فسأله أبو جعفر مُتعجّبًا : «وأين ذلك؟» . فردّ : «في قوله تعالى : ولا تركنوا إلى الّذين ظَلَموا فتمسّكمُ النّار»

كانت الحشود تنداح في الشّوارع ، بعضُ الحشود بلا عيون ، الثّورة تقوم على المثقّفين لا على الرّعاع ، هل امتلكتْ شعوبنا العربيّة الثّقافة حتّى تثور؟! أم هل كان قادتُها من المثقفين الّذين هم على قَدْرِ أنْ يقودوا ثورةً شاملةً؟! أنا أقول : إنّ الوقتَ لم يحنْ ، الّذي حان هو وقتُ الفوضى ، كان يُراد لدولنا أنْ تتمزّق ، وأنْ تبقَى متخلّفةً تابعةً ذليلةً ، يحكمها الغربيّ والشّرقيّ دون أنْ يكونَ لها وجود . وها هي بِلادُنا يا فاطمة تئنّ ، وهذه شعوبنا ملأتْ تراب أوطاننا بجثثها أكثر مِمّا تملؤه أشجارُها!!

لم يَنْسَني الشُّرفاءُ في وطني وما أكثرهم ، كانوا يُطالبون بالإفراج

عنّي بين فترةٍ وأخرَى ، لكنّ بعضهم اختار أنْ يكون ذَنَبًا في المُؤخّرة وذيلاً في القَفا ؛ أنْ يكون بوقًا للصّهاينة مقابل منصبٍ وضيع ، هل المناصب تدوم؟ هل الكراسيّ مُخلّدة؟! الإنسانُ نفسه إلى موت ، والكونُ كلّه إلى فناء ، ولا يوجَد أفظع من صُنع سفيرٍ من أبناء جلدتي يستقبل على الأرض المحتلّة وعلى ثرى فلسطين مَنْ ذبحها من اليهود ، ويتبادل معه الأنخاب ، ويُطمئنه بأنّني لن أخرج . لو كان المسكين يدري لعلم أنّه لا يملك من الأمر شيئًا لا هو ولا بيريز السّفّاح ؛ لقد دخلتُ بأمر الله ، وسأخرج بأمره إنْ شاء الله ، وسيبوء كلّ جبانٍ ورِعديدٍ بالخُسران .

لجانٌ شعبيّة ، ونقابيّة ، ووطنيّة كثيرة منذ أعوامٍ وهي تعتصمُ أمام مجلس النّوّاب تُطالب بالإفراج عنّي ، أمّي على كِبَر سنّها كانتْ تخرج معهم ، ولكنّها كانتْ تقول بثقة «لن يُطلعوه من السّجن حتّى يسمح لهم اليهود بذلك»

في آذار من عام ٢٠١٤ جاءني خبر عاجلٌ وهو مقتل القاضي رائد زعيتر على جسر الملك حسين من اليهود ، فقلتُ في نفسي : «لا بُدّ أنّ طاقة الفرج قد فُتِحتْ ، وأنّني سأروّح من هذا السّجن» . وظننتُ أنّهم سيجدون ثغرةً في القانون تُساعدهم بالإفراج عنّي ، كان مقتل زعيتر يوم الاثنين ، وهو اليوم الّذي يُسمَح لي باستخدام الهاتف لمدّة خمس دقائق للتّحدّث مع ابني في الخارج ، هم الّذين يطلبون الرّقم لي . غافلتُ الأمن الوقائي ، وطلبتُ بنفسي رقم علي السّنيد ، وكان نائبًا ، فردّ عليّ بأنّه مع مجموعة كبيرة من النّوّاب سيُقدّمون وثيقةً إلى الحكومة للمطالبة بالإفراج عني ، وأخبرني بأنّ النّوّاب الآن على قَدَمٍ وساقٍ يسعون من أجل الإفراج عنك وإلغاء معاهدة السّلام فيما يُسمّى

باتّفاقيّة وادي عربة ، فقلتُ له : «والله بالنّسبة لي إلغاء المُعاهدة أهمّ عندي من الإفراج عنّي ، لأنّ الإفراج عنّي يخصّني وحدي ، وأنتفع به وحدي ، في حين إلغاء المعاهدة يخصّ كلّ المُسلمين وينتفع به شعبٌ بأكمله» ، وتابعتُ : «أنتم شدّوا من عندكم ، وأنا أشدّ من عندي ، خُذْ بيدي اليوم آخُذْ بِرجلك غدًا» . وكنتُ أقصد من عندي ؛ أي الإعلان عن إضرابي عن الطّعام ، وبالفعل بلّغتُ إدارة السّجن بالأمر ، وكتبتُ أنّ سبب إضرابي عن الطّعام مستمرّ ، وهو من أجل الإفراج عنّي وتظاهر عددٌ من أهلي واعتصموا أمام مجلس النّوّاب بعد ذلك بيومَين لكي يكون لهم سندٌ شعبيٌّ في مطالباتهم ، وظننتُ أنّها : «زمجرةُ اللّيث قبل الافتِراس ، ونضنضة الصّلّ قبل الانتِهاس» ، فإذا بهم كمُجير أمّ عامر ، لمّا أَمِنوا افترسوا ، وتبيّن أنّه مجلس المصلحة لا مجلس النّوّاب ، ومجلس اللهمّ نفسي لا الشّعب ، وأنّ بعضهم كان تافِهًا ؛ إذ إنّه حين طُرِحت الثّقة بالحكومة ، حصل رئيس الوزراء (عبد الله النّسور) على أرقام أعلى من السّابق ، وجدّدوا به الثّقة ، مع أنّ (١١٠) نائبًا من أصل (١٥٠) نائبًا كانوا قد تقدّموا بمذكّرةٍ للإفراج عنّي .

بعد ثلاثة أيّام من الإضراب تعبتُ كثيرًا ، ولم تكنْ صحّتي لتتحمّل الضّغوط والوضع ، فنُقِلتُ إلى مستشفى المفرق . حين عاينني الدّكتور أوصى بدخولي إلى العناية المُركّزة ، لكنّ أَمْن المفرق لم يقبل ، بحجّة أنّه ليس عندهم كادرٌ أمنيّ يغطّي الحراسة على هذا السّجين ، وخافوا من توافد النّاس على المكان ، وخَشُوا أنْ يهجموا على المستشفى . فأُعِدتُ إلى السّجن كأنّني بِضاعةٌ تالفة ردّها المُشترون إلى أهلها : «هذه بِضاعتُكم رُدّتْ إليكم» كُنتُ قد خرجتُ من السّجن

بعد أنْ أدّيتُ صلاة العصر مباشرةً . وصلتُ مستشفى المفرق قبل المغرب . ثُمّ رُحّلتُ إلى مستشفى البشير في عمّان ، ووصلتُ إليه السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل . بِتُّ تلك اللّيلة في المُستشفى مع الصّراصير ، كانتْ هناك نظارة في المستشفى قِمّة في القذارة ؛ إذا كان السّجن نفسه غيرَ نظيف ، فكيفَ بنظارته ، ولو أنّكَ وضعتَ عنزًا في النّظارة لَنَفَقَتْ من الرّائحة ومن القاذورات ومن الحشرات الّتي تسبح في كلّ مكان ؛ صراصير بكلّ الأحجام ، بالمئات إنْ لم تكنْ بالآلاف . أمّا الحمّامات فكانت مُغلَقة ، فاختنقتُ من شدّة الرّائحة ، وكنتُ أتلوّى من انحباس البول في المثانة ، فصرختُ بهم : «أنا أريدُ أنْ تُخرجوني على مسؤوليّتي ، لا أريدُ أنْ أبقى هنا لحظةً واحِدة» . وبالفعل نُقِلتُ إلى مستشفى حمزة في الجهة الشّرقيّة من العاصمة ، وعندما فحصني الأطبّاء قالوا لي «أنتَ بِحاجة إلى قسطرة في القلب على وجه السّرعة» . فعملوا العمليّة لي مُباشرةً . كانت هذه هي المرّة الثّانية الّتي يعملون لي فيها قسطرة . حينَ أُدخِلْتُ غرفة العمليّات مرّ شريط الذّكريات كأنّه قطًا تدافعتْ من الحرّ إلى الوِرد ، أناروا الجهاز الّذي تسقطُ أشعّته على رأسي فَخلتُ أنّ النّجوم تتراقَصُ في المدى البعيد ، في ليالي الصّيف الصّافية في (إبدر) ، وكنتُ ذلك الصّبيَّ العاشق ، أنظرُ في النّجوم وأنتقي قَدَري من بينها ، وأختار أسمائي من بين مَنْ عرفت . ها أنذا أُحلّق ، أحلّق بعيدًا ، مثل صقرٍ في عين الشّمس ، يرتحل إلى الأعالي ، حيثُ يريد أن يرتاح ، أنْ يترك وراءه كلّ هذه الصّراعات التّافهة على الدّنيا ، واللّهاث وراء منافعها الخادعة ، وينتقي له مسكنًا على الغمام أو في السّماء ، حيثُ لا يجد وصبًا ولا نَصَبًا . مِنْ جديدٍ يعبثون بقلبي ، من جديدٍ تغزو الشّبكات قلبي ،

ويُحاولون بما ثَقفوا من علوم الدُّنيا أنْ يُعيدوا إلى نبضِ قلبي توازنه ، وما علموا أنّه لا يُعيد إليه توازنه إلاّ لمسةٌ حانيةٌ من أمّي ، ونظرةٌ ودودةٌ من فاطمة . كنتُ أتأرجح بين الموت والحياة ، بين الفناء والوجود ، بين أنْ أعود إلى عالَمي أو أُحلِّق بعيدًا في العالَم الآخَر ، حينَ لمستْ أمّي بيدها قلبي المُضطرب فسكن ، وحين نظرتْ إليّ فاطمة فاستيقظتُ بريئًا من علّتي .

أبقَوني في المستشفى يومَين آخرَين لأتعافَى ، وأعطوني عِلاجات كثيرة ، ولم يُقصّر معي الأطبّاء بتخصصّصاتهم كافّة ، لقد اهتمّوا بي اهتمامًا كبيرًا ، المشكلة كانت في الحراسة ، كان عندي في الغرفة أكثر من عشرة عساكر بلباسهم العسكريّ وبأسلحتهم ما بين جنود وضبّاط ، كانوا قلقين من أنْ يحدث لي شيءٌ لا سمح الله ، داخليًا تشعر أنّهم مُتعاطِفون معي ، لكنْ ليس بيدهم حيلة

في اليوم الثّاني زارني أخواي باسم وعبد الله فقط من عائلتي ، ولم يسمحوا لأمّي ولا لأولادي أو زوجتي بزيارتي كان أخي باسم وهو ينقل خُطاه المُتثاقِلة من رِجله العليلة قد ازدادتْ لحيته بياضًا ، بوجهه الملائكيّ أشعرني بقيمة الوجود في الفانية ، وببسمته الهادِئة وصوته الرّخيم : «الحمد لله على سلامتك يا حبيبي» قد أعادَ قلبي إلى مكانه ، أمّا أخي الأصغر عبد الله فقد صار سمينًا نوعًا ما ، كان حليقًا ، وشواربه كثّة ، ووجهه مُدوّرًا وممتلئًا ، مددتُ يدي وقرصتُه على خدّه ، ابتسم : «على الأقلّ ها أنتَ تجد شيئًا لتقرصه» . مَنْ عرفَ قبلي نِعمةَ الإخوة ، مَنْ أدرك أنّ الأخ هو الجِدار الّذي تميل الدُّنيا كلّها ولا يميل ، كان أخي الأكبر بعرجته قادِرًا على أنْ يطأ جنّةَ حُبّي ، كان يُقيم أودَ ما انفصمَ من العُرا بعد رحيل أبي ، ويجعل الحُبّ ممكنًا ، والفرح

ممكنًا ، والفرج ممكنًا ، والأمل ممكنًا . وأمّا أخي الأصغر فلم يرقص القلب يوم الغياب أكثر ممّا يرقص له حين يُطلّ بوجهه الممتلِئ وعينَيه الواسعتَين وابتسامته الطّفوليّة

بعد بالون الضّراط الّذي عمله المجلس ، ونفّس فملأ الدُّنيا بريحه ، قرّر عددٌ من أبناء عشيرة الدّقامسة أنْ يعتصموا أمام مجلس النّوّاب ، وظنّوا أنّهم في حماية ممثّلي الشّعب ، فإذا بالنّوّاب يكتفون بمشاركة خجولةٍ من أحدهم ، وبالنّظر من الشّرفات العالية على المعتصمين القلائلَ المُتناثرين في الشّارع نظرةَ إشفاقٍ ، أو نظرةَ اشمِئزاز ، وإذا بالمجلس يعودُ إلى حافرته

ثُمّ ما لبثتْ قوّات الدّرك أنْ هجمتْ على المُعتصمين ، وأعملتْ فيهم غِلْظتَها ، وفُضّ الاعتِصام بالقوّة ، وقمعوهم بالضّرب المُبرّح ، وبعضهم دخل المستشفى ، أحدهم كان مسكينًا ، وعلى باب الله ، نزلوا على رأسه بالهراوات . وابني نور الدّين ضُرِب حتّى فقد الوعي

خرجتُ من المستشفى لكي يُحسّنوا من معاملتي حينَ أعود إلى السّجن ، ولكنّ الّذي حدث هو العكس ، إذْ شدّوا عليّ أكثر ، واتّبعوا سياسة اليهود ؛ اليهود عندما يُضرِب السّجين عندهم عن الطّعام يشدّون عليه ، في الأعراف الدّوليّة من المفروض أنّ المُضرِب عن الطّعام تتحسّن معاملته ؛ لكنّ هؤلاء فعلوا العكس ؛ وازدادتْ معاملتي سوءًا ومرّتْ فتراتُ إضرابٍ طويلةٍ عن الطّعام عندي ، زادَ بعضُها عن شهرٍ ، وفي تموز من عام ٢٠١٤ وصبيحة يوم عيد الفطر ، جاءني وفدٌ كبيرٌ من الحركة الإسلاميّة الّذين دأبوا مع آخرين من النّقابات المِهنيّة والعُمّاليّة والرّجال الوطنيّين على زيارتي والاطمِئنان عليّ ، في ذلك اليوم الّذي يفرح فيه المُؤمنون ، مُنع الوفد من مقابلتي ، بحجّة أنّني في فترة

إضراب عن الطّعام ، ولا تجوز الزّيارة ، وأُضيف ذلك إلى سلسلة الحرمان الطّويلة الّتي مُورستْ ضِدّي ، وتصبّرتُ بما استطعتُ ، ورجوتُ الله الفضل ، والله لا يُخيّب راجيًا :

هِمّتي همّةُ المُلوكِ ، ونَفْسي
نَفْسُ حُرٍّ تَرَى المَذَلّةَ كُفْرَا

بقيت آخر ثلاث سنوات من سجني ممنوعًا من أنْ أُهاتف أحدًا إلاّ أمّي أو زوجتي ، وحُرِمت من أنْ أتّصل بسواهما كان يحقّ لنا إجراء المكالمة عن طريقهم مرّة واحدة في الأسبوع ، وإذا حدث أنْ أمّي أو زوجتي مغلقة للهاتف ؛ فمعنى ذلك أنّه لا اتّصال لي أبدًا كان التّلهّف لسماع صوت الأمّ على الطّرف الآخر أشدّ من تلهّف القائظ في وسط الصّحراء إلى كأس ماءٍ باردة ، وكمْ مرّ من النّهارات القائظة ، وكم عبرنا من الصّحارى الشّاسِعة ، ولم يكنْ بمقدورنا أنْ نشرب ذلك الكأس!!

(٧٤)
أَخِي أنتَ حُرٌ وراءَ السُدودْ

أعرفُ - وأنا العسكريّ العتيق - أنّ صواريخنا وطائراتنا يجب ألاّ تفقد بوصلَتها، وأنّها يجب أنْ تكون موجّهةً إلى العدوّ الصّهيونيّ، بالنّسبة لي فأنا لا أقبل بالصّلح مع اليهود حتّى ولو لم يبقَ في بندقيّتي رصاصةٌ واحدةٌ، ولا يُمكن أنْ أُصوّب فوهة هذه البندقيّة لغير الّذين احتلّوا البلاد، وأذلّوا العِباد، وأكثروا فيها الفساد. لكنّني أعرفُ أنّ التحالفات الدّوليّة أكبر من بعض الأفراد الّذين تكون مشاعرهم صادقةً تُجاه أوطانهم، ولا يستطيعون فِعل الكثير. اسألوا (بيجن) و(دايان) و(شارون) هل وجّهوا طائراتهم إلاّ لذبحنا نحن العرب باعتبارنا عدوّهم الأكبر، وهل رستْ طائراتهم على قواعد غير القواعد المحتلّة في كيانهم الدّخيل المُسمّى (إسرائيل)، واسألهم واسألْ مَنْ كان قبلهم من (غولدمائير) و(وايزمن) و(بن غوريون) هل قصفتْ طائراتهم أيّ مكان في العالَم يتواجد فيه يهوديٌّ واحد!! فلماذا تكون بوصلتهم بكلّ هذا الوضوح، وتكون بوصلتنا مُشوّشة

في أوائل عام ٢٠١٥ أحرقَ تنظيم الدّولة الّذي أُنشِئ على عين الرّئيس الأمريكيّ (أوباما) أحدَ أفراد قوّاتنا المُسلّحة الجميلين؛ الطّيّار معاذ الكساسبة رحمه الله، كان يومًا حزينًا بالنّسبة لي، ولكلّ الأردنيّين، لم يستطعْ أحدٌ في السّجن أنْ يحبس دموعه، ويترحّم عليه، كان موته فاجعةً حلّتْ بالأردنّ، وكان قتله بهذه الطّريقة البشعة

يُظهِر العقيدة الانتقاميّة الموجودة عند أفراد التّنظيم ، وهذا المدى من القسوة والوحشيّة . طلبْتُ من مدير السّجن أنْ تُقام على روحه صلاة الغائب وقراءة الفاتحة لكلّ مَنْ في السّجن ، فاستجاب . بعثتُ لأهله برسالة تعزية قلتُ فيها : «سلامُ الله على روحِكَ يا شهيدَ الأردنّ الحُرّ ، هنيئًا لك ولأبيكَ وأُمّك ، سلامي الحارّ لك يا أبا مُعاذ ؛ تمنّيتُ أنْ أكونَ بجانبك ، ولكنّ ظروفي أنتَ أعلم بها»

مرّ كثيرٌ من الدّهر ، ورسم فوق قلبي مشاهده بكلّ ألوانها ، ها أنذا أغذّ الخُطا إلى النّهايات ، كلّما شدّوا القيدَ على رُسْغَيّ أيقنْتُ بالفرج ، كلّما حاصروني من جهاتي السّتّ آمنتُ بالحرّيّة ، كانت الحرّيّة حُلْمَ التّائقين ، الّذين لا يعترفون بانحباس الأرواح وإن انحبست الأجساد ، فما الأجساد إلاّ ثوبٌ بالٍ .

أفقتُ صباح هذا اليوم من أيّام الشّتاء القارسة من عام ٢٠١٥ وأنا أترنّم بأبياتٍ خفيفةٍ طَروبةٍ كنتُ قد حفظتُها من أعوامٍ خلتْ ، رأيتُ فيها عزاءً ، وزادَتْ ثقتي وأنا أُردّدها بقرب الفرج :

أخي أنتَ حُرٌّ وراءَ السّدودْ

أخي أنتَ حُرٌّ بتلكَ القُيودْ

إذا كُنتَ بالله مُسْتَعْصِمًا

فماذا يَضيرُكَ كَيْدُ العبيدْ

في أواسط هذا العام ، وصلتْ إليّ رسالةٌ من عمّي ، كانتْ مليئة بالذّكريات ، قرأتُها وأنا أبكي ، لقد تغيّرنا كثيرًا يا عمّي ، ومن الّذي لا يتغيّر :

«يا ابن أخي ؛ وأنتَ فلذةُ الكبد ، وبضعةٌ منّي ، أيّها الحبيب ، كنتُ أراك وأنتَ تحبو بين يدَي أخي نبتةً طيّبةً ستتفتّح بعد حين ،

وتغدو وردةً تملأ بشذاها القلوب . . . وكبرتَ وكبُر الحُلم ، ورأينا في حماستك للعسكريّة ما أفرحَنا أنْ تكون ضِمن الّذين يفدون الأوطان بأرواحهم . . . فهل رأيتَ الحلمَ قد تحقّ ، وهل شعرتَ أنْ رفاقَ السّلاحِ كانوا على مستوى هذا الحلم؟ أنا مثلُكَ ومثلُ أبيك انتسبْتُ إلى العسكريّة لأحوز هذا الشّرف ، لكنّ الهُوّة يا ابن أخي بين ما نريد وما هو كائنٌ واسعة ، ولا نُحاسَب إلاّ على نِيّاتنا .

يا ابن أخي ؛ حينَ رأيتُكَ في المحكمة تقفُ وقد أحاطتْ بك القيود والقُضبان بكيتُ ، وعلى هيئتك الّتي يبدو أنّهم آذوك فيها حزنتُ ، كنتُ متأثّرًا جِدًّا ، وكنّا مع أبناء عمومتك نحن الرّجال مُعرّضين للانهِيار ، بخلاف أمّك وزوجتك ، لقد كانوا أكثر شجاعةً منّا ، وأشدّ جرأةً ، ولولا الله ، ووقفة الأخيار من أهل البلد معك ومعنا ، لكُنّا في حالةٍ لا تسرّ عدوًّا

يا ابن أخي ؛ أنا لستُ - فيما يخصّ ما قمتَ به- مع القتل . . لكنْ وجهة نظري أنّني من ناحية القُربَى وقفتُ معك . . . إذا صار خِصام بيننا وبينَ طرفٍ آخَر ، فأنا أقف معك ، أقفُ مع الحقّ ، وقد رأيتُ أنّكَ قد سعيتَ للحقّ فيما تراه حقًّا ، مع اختلافي في تعريفه ، وفي القيام به ، لكنّكَ تبقَى ابن أخي ، وتبقَى حبيبًا إلى نفسي ، وإنْ لم يكنْ عملكَ كذلك عندي .

في الفترة الّتي أعقبتْ معاهدة السّلام كنتُ ضِدّ التطبيع مع الكيان الصّهيونيّ ، في هذه الجُزئيّة أنا معك ، لكنْ في فِعْله ، وهو القتل فلستُ معك ، ولستُ راضِيًا عنه داخلِيًا ، إلاّ أنّ ما قُمتَ به كان بعد اتّفاقية وادي عربة بسنتين وخمسة شهور تقريبًا كان مُسوّغًا . كان السّائد عندنا في البلد أنّها منقسمة إلى قسمَين ، قسم مع عمليّة

السّلام من أجل البحث عن عمل في دولة اليهود ، وقسم ضِدّ ذلك ، أنا بفطرتي كنتُ أرفض التّطبيع مع اليهود لكنّني في الوقتِ ذاته لستُ مع العمليّة . وأنا مع مقاومة التّطبيع مع العدوّ اليهوديّ ، لكنْ مقاومة ذلك لها وجوهٌ عديدةٌ لم أرَ ما قمتَ به وجهًا منها ، وإنْ كنتُ أُكبِره ، وأرى أنّه لا يقدر عليه إلاّ الكبار . أنا حائرٌ يا ابن أخي بين العاطفة والواجب . حيرتي هذه دفعتْني إلى أنْ أُرسِلَ لك هذه الرّسالة ، واعتبرْ ما فيها مناجاةً بيني وبينك إنْ شئت ، أو بيني وبين ما أشعر به . أنا أعُدّ هذا السّلام هو سلامَ المُرغَم والمُضطرّ وليس سلام الشّجعان كما كانوا يقولون ، كنتُ أتابع مناقشة عمليّة السّلام في مجلس النّوّاب ، أحد النّوّاب على ما أذكر قال بما معناه : «إذا كانتْ هذه الاتّفاقية لمصلحة الأمّة فأنا أوافق عليها ، وأحمّل مسؤوليّة فحص توافقها مع مصلحة الأمّة والأردنّ لرقاب المسؤولين ، وإذا كانتْ ضِدّ ذلك فأنا ضِدّها كذلك» . كنتُ أشعر أنّه بذلك كان يعبّر عن موقفي .

يا ابن أخي ؛ أنا مع عمليّتك الّتي قمتَ بها كمخرَجات ؛ فهي أدّتْ رسالة إلى العالَم وإلى النّاس أنّنا نحن ضِدّ التّطبيع مع الكيان الصّهيونيّ وضِدّ اتّفاقيّات السّلام معه ، لكنّني مع أنّي مع هذا الموقف بهذه الصّورة ؛ فإنّني لستُ معكَ بما قمتَ به من قتل سبعة أرواح ستقول لي إنّ عمليّة السّلام دمّرتْنا ؛ وبأنّ السّيّاح اليهود كانوا يأتون إلى الأردنّ ، ومعهم أغراضهم من الماء والأدوات ولا يُفيدون اقتصاد الأردنّ السّياحيّ بشيء ، ولا يتركون هنا في الأردنّ إلاّ نفاياتهم ومخلّفات أجسادهم ، أعرفُ ذلك ، وأتّفق معكَ بشأنه ، ولكنْ كثيرٌ من الأمر ربّما التبسَ عليّ ، شعرتُ أنّ عاطفتي إليكَ انجذبتْ ، وفي الوقتِ نفسه تمنّيتُ لو أنّ ما حدثَ لم يحدثْ!

يا ابنَ أخي ؛ لقد عبّرت عنّا بهذه العمليّة بشكلٍ عامّ ، وعبّرْت عن فئةٍ عريضةٍ من الشّعبِ الّتي ترفض التّطبيع ، وعبّرْتَ عن ضمير فئةٍ من النّاس ترى السّبيل الوحيدة لإرجاع فلسطين هي المقاومة ، كثيرون يا ابن أخي اعتبروا ما قمتَ به بطولة ، لكنْ أنا في كينونة نفسي لا أعتبره كذلك ، لستَ على النّقيض تمامًا ، فأنا لا أعتبره بطولةً ولا جريمةً ، لكنّني حائرٌ في تصنيفه ، وستبقَى فعلتَ ما لم يستطعْ أحدٌ أنْ يفعله ، وما يتمنّاه الكثيرون لو استطاعوا

يا ابنَ أخي ؛ أعرفُ أنّكَ استُفْزِزْتَ في دينِك ، وسمعتَ ما تتزلزلُ له الجِبال ، ولو كنتُ مكانكَ في اللّحظة ذاتها لفعلتُ ما فعلتَ ، لكنّني الآنَ أنظر بعينِ الرّويّة إلى الأمر ، أنظر بقلب النّاقد البصير إلى الموقف ، وأقوّمه من هذه الزّاوية فأرى فيه ثقوبًا

يا ابْنَ أخي ؛ في الحكمة لم أرَ أعظمَ من أمّك ، وحدها وقفتْ في غيبوبة جُبْننا لترتقي بكَ إلى الذُّرا ، كنتُ أشعرُ أنك ستنهار بين لحظةٍ وأخرى ، جاء هذا الملاك ليحميك من الانهيار ، وجعلكَ تصمد صمودَ الأبطال ، إنّها لم تفعل ذلك بكَ فحسب ، لقد ارتقتْ بنا نحن الخائفين الّذين كُنّا ننزوي في مقاعدنا نترقّب ما سيحدث ، نكاد نغوص في المقاعد وَجِلين ، وهي تقف كرمح عربيّ شامخٍ ، وتلوّح بيدها كرايةٍ نبويّة منتصرة ، وتقول كلمتها كوحيٍ إلهيّ بليغ

يا ابن أخي ؛ محاكمة الأبطال ظُلْمٌ ، لكنّني أضع نفسي مكان الدّولة ماذا كانت لتفعل في ظروفها آنذاك أفضلَ مِمّا فعلتْ . لقد كانتْ تبلع سكّين المعاهدة وهي الّتي جرّتْ على نفسها ذلك ، وكما يقولون : «على نفسها جنتْ براقش»

يا ابن أخي ؛ أنتَ تعلم أنّ عملكَ كان فرديًا ، لقد أيقظَ شيئًا في

الأمّة ، وهو علامةٌ بارزةٌ وستظلّ كذلك في طريق الأمّة إلى التّحرير ، لكنّها على مستوى الأمّة ككلّ لم تصنعْ شيئًا عظيمًا ، لأنّ العمل الّذي يُمكن أنْ يُفيد الأمّة هو العمل الجماعيّ . دَعْني أضرِبْ لكَ مثالاً من خلال واقعي كمزارع : نحنُ إذا أردْنا أنْ نذهب إلى الحصيدة ، وواحد من أولادي عنده هَوَس ، وراح بيوم رطوبة لا تنفع فيه الحصيدة ، فإنّ ذهابه في هذا اليوم خرابٌ ودمارٌ للزّرع وإنْ كان من وجهة نظره مساعدةً كبيرةً ومحاولةً للنّفع ؛ لقد كان عليه أنْ ينتظر الوقت المُناسب ، ونذهب كلّنا معًا من أجل أنْ يكون إنجازنا كبيرًا وصحيحًا وفي مكانه ، وأنتَ ذهبْتَ وحدك ولم تنتظر . الأمر الآخَر ، ما دمتُ أنتَ قد قبلتَ أنْ تكون في سِلْكِ القُوّات المُسلّحة فيجب عليكَ أنْ تكون مُنضبِطًا بما يُمليه عليك الشّرف العسكريّ

يا ابن أخي ؛ لقد سبق العمليّة الّتي قُمتَ بها بأيّام أزمةٌ صامتة بيننا وبين اليهود ، بين الحكومة الأردنيّة واليهود ، مُلخّصها أنّ الملك حسين مُنعَ من دخول القُدس جوًا وهو بالطّائرة ، لقد قام سِلاح الجوّ الإسرائيليّ بتحويل طائرة الملك إلى مسارٍ آخَر ، فلمّا حدثت العمليّة تولّد لذهني أنّه قد أُشير لك من قِبَل أناسٍ في الجيش بطريقة غير مباشرة أنْ تقوم بما قمتَ به . لكنّ ذلك يبقى تحليلي الخاصّ . ولربّما يسقطُ هذا التّحليل حينَ علمتُ من أخيكَ أنّ العمليّة الّتي نفّذْتَها بقيتَ تُخطّط لها أكثر من ستّة أعوام!!

يا ابنَ أخي ؛ كنتُ أقرأ الحزن في عينَيك حين أزورك ، كنتُ أرى أنّك تشعر بأنّكَ في الميدان وحدك ، ولا أحدَ يدعمك ، ويقف إلى جانبك ؛ إنّه شعورٌ ولا أدري نسبته من الحقيقة ، مع أنّني أعلم أنّ كثيرين قد وقفوا إلى جانبك ، لكنّ محكومًا بالمُؤبّد مثلك سيظلّ نهر

التّوق والخوف والشّوق والتّرقّب عنده سيّالاً

يا ابن أخي ؛ قبل أعوامٍ قمتُ مع أولاد عمومتك الآخرين في (إبدر) وغيرها بعمل مهرجانات ومسيرات ووقفات لدعمك . أتذكر أنّني نظّمْتُ مهرجانًا بمناسبة مرور ثلاثة عشر عامًا على سَجْنك . أنا إنسان عاديّ ، دعوتُ في إحدى المرّات نائبًا عندي إلى البيت ، وفهمتُ منه أنّه يريد أنْ نذهب إلى بوّابة السّجن ونُخيّم هناك للمطالبة بالإفراج عنك ، وعدم التّزحزح من هناك حتّى تستجيب الدّولة لمطلبنا ، لكنّني كنتُ مدرِكًا أنّه لن يستطيع أحدٌ أنْ يفعل ذلك ، ولا الدّولة ؛ فهي مُراقَبة في تصرفاتها من قِبَل اليهود ولا تستطيع أنْ تعفو عنك ، ولربّما أرادتْ ولكنّها لا تقدر ، والمعلوم عند كلّ العالَم الّذي يُفكّر بعقله أنّ حكمك سيظلّ نافذًا إلى نهايته كلّ ما كان يهمّني أنْ تظلّ قضيّتك حيّة ، وأنْ تعرفَ أنّ خلفَكَ أناسًا يُطالِبون بالإفراج عنك والدّفاع عن عدالة قضيّتك .

يا ابن أخي ؛ لقد تعرّضتُ لُمساءلاتٍ كثيرة من المُخابرات ، ودُعِيت أكثر من مرّة واتُّصِل بي ، وقيل لي : شو بدّك بها الشّغلات . كان هناك حاجزُ خوف في البداية ، كلّنا يكون عندنا هذا الحاجز ، لكنّني كسرتُه وتمرّدتُ عليه فيما بعد . حاولوا أنْ يمنعوا أحد المهرجانات مرّة ، فقطعوا الكهرباء عن البلد كاملةً ، وطلبوا من أصحاب الكراسي أنْ يأتوا لكي يأخذوا كراسيهم ، وقال لي أحدهم إنّ المتصرّف أمرهم بذلك ، فقلتُ له : إذا كان المتصرّف رجلاً فليأتِ إليّ وليواجِهْني .

يا ابن أخي ؛ في اليوم الثّاني من العمليّة ، وهو يوم الجمعة ، طلب منّي المتصرّف ومن آخَرين أن نقومَ بالتّوقيع على عريضة تتضمّن استنكارًا للعمليّة الّتي قُمتَ بها ، لقد رفضتُ بالطّبع ، لم يكنْ ذلك

شجاعةً منّي ، ولكنّني رفضتُ بالفِطرة ؛ فأنا لا أتخلّى عمّنْ تجري في عُروقي دماؤه .

يا ابن أخي ؛ كم كنتُ أتألّم كثيرًا على أولادك الّذين تركتَهم من بعدكَ صِغارًا لا يفوهون بحرفٍ ، ولا مُعيلَ لهم ، أولادكَ الّذين حُرِموا من عطفكَ وحنانكَ ، وزُجّ بأبيهم في غياهب الظُّلُمات . بكيتُ في أحد المهرجانات الّتي طُلبَ من ابنكَ سيف الدّين ، وكان عمره (١٣) سنةً أنْ يُلقَي كلمةً ، ولّما رأيتُه يعتلي المنصّة كانتْ دموعي تملأ حجري ، ولّما خطبَ في الجموع وهو فتًى وابنُ أبيه انتحبْتُ ، كنتُ فخورًا به . بكيتُ لأنّه ذكّرني بك ، ولأنّ هذا الولد قُدِّرَ له أنْ يكون بعيدًا عنكَ وتحول بينكما الحوائل . وتقف بينكما السّدود .

يا ابن أخي ؛ لقد مرّ على ذلك زمنٌ طويلٌ ، ولكنّني أقوله للتّاريخ وللذّكرى ، وأنتَ أنتَ ؛ منذ اليوم الأوّل ، ستبقى منارةً هاديةً لأجيال لا يعلمها إلاّ الله ستأتي ، وستفخر بما صنعتَ ، وستكون رصاصاتُكَ الّتي صوّبتها نحو عمليّة السّلام الكاذبة قبل أنْ تُصوّبها إلى اليهوديّات هي رصاصاتهم للتّحرير بإذن الله . واسلم لعمّكَ الّذي يُحبّك ويدعو لك في كلّ حين» .

(٧٥)
بُوصلَةٌ لا تُشيرُ إلى القُدسِ مَشبوهةٌ

حطّتْ طيورٌ مُلوّنة في مساء ذلك اليوم من الأيّام الّتي ذَهلْتُ عن تَعدادها على قُضبان النّافذة، لم أرَ في هذه الصّحراء هنا في المفرق مثلها، هي علامة، كان ذلك إيذانًا بالفرج، شعرتُ أنّه قريبٌ، وأنّ زمانًا بهيجًا به ترفل السّعادة سيولّي وجهه شطرَنا! وأنّ كلّ مرارة ذُقتُها في السّنوات الطّوال، واللّيالي الأطول ستحلو، وصدقَ الحبيب: «تفاءَلوا بالخيرِ تَجِدوه»

كم من عيدٍ مرّ عليّ في هذه المنافي!! أكثر من ثلاثين عيدًا، كيفَ تكونُ بهجةُ العيدِ خلفَ القُضبان، كم من غَصّةٍ في الفؤاد كانتْ مثل عظم الشّجا في الحلق!! كيفَ للمرءِ أنْ يفرح والذّئاب تعدو عليه، وتُنشِبُ أظافرها في قلبه؟! تذكّرتُ القائل: «تَعْدُو الذّئابُ على مَنْ لا كِلابَ لَهُ». هكذا أنا هُنا؛ لا شيء يحميني من العذابات غيرُ حبلٍ موصولٍ بالله أحافظُ عليه ما استطعتُ ألاّ ينقطع، ولا شيءَ يُعيدُ إليّ توازني غير وجه أمّي يزروني في المُدلهمّات السّود فيُنير وحشة قلبي، ويُؤنس وحدةَ روحي:

أَقْبَلْتَ يا عِيْدُ والأَحْزانُ أَحْزَانُ
وَفِي ضَمِيْرِ القَوافِي ثارَ بُرْكَانُ
أَقْبَلْتَ يا عِيْدُ وَالأَحْزانُ نائِمَةٌ
عَلَى فِراشِي وَطَرْفُ الشَّوْقِ حَيْرَانُ

مِنْ أَيْنَ نَفْرَحُ يا عِيْدَ الجِراحِ وَفِي
قُلُوبِنا مِنْ صُنُوفِ الهَمِّ أَلْوَانُ

ويا فاطمة، كم مرّةً مرّ عيدُ زواجنا دون أنْ يجمعنا بيتٌ واحدٌ، إنّها سنوات العشق الّذي أبلى النّفوس، وعذّب بالذّكرى أكثر مِمّا يُعذّب بالبُعد، وها أنا، هنا خلفَ غاباتٍ من الجدران، وخلفَ كثيبٍ من القُضبان، وخلفَ صحارى تحجبها صحارَى أخرى أذوبُ توقًا إلى رؤية وجهك النّبويّ، أيّتها المُطهّرة العذبة؛ لا شيءَ يُعينُ على تجرّع المرارات غير أنْ تكوني لي، وأنْ أكونَ لكِ، هل يُمكن أنْ تُفرّقنا الدّروب يومًا ونحن قد مشيناها معًا، وتعبْنا فيها معًا، وعطشْنا فيها معا، ورجونا أنْ يطلع علينا الصّباح فيها بعد ليلٍ طويلٍ كأنّه لا نَهار يتلوه إلى يوم القيامة!

في سبتمبر من عام ٢٠١٦ ارتقى أحدُ شهدائنا الأبرار سعيد العمرو من الكرك، برصاص مُجنّدة إسرائيليّة على باب العمود في القدس. كانت القُدسُ عَروسَ دمه الّذي قدّمه لها مهرًا، فَقَبِلَتْ، القُدس فتاةُ جموح، عَروسٌ لا كأيّ عروس، لا تقبلُ إلاّ الطّاهرين، ولا يكونُ مهرها إلاّ الأرواح، والّذين ادّعَوا حُبّها عليهم أن يُثبِتوا ذلك أفعالاً في ساحاتها، لا أقوالاً على موائد المُتساقطين كان قد قِيل إنّ هذه الضّربة الّتي تتلقّاها الحكومة الأردنيّة دون إبداء أسبابٍ للقتل بهذه الصّورة سيكون منفذًا أخيرًا لها كي تُفرجَ عنّي دون إبطاء. لكنْ بعد ما يقربُ من عشرين عامًا ماذا ظلّ؟ الملاعين كان يُمكن أنْ أقبلَ بذلك لو لم يمرّ كلّ هذا الزّمن عليّ في هذه المنافي الّتي أكلتْ عُشْبَ قلبي، ورعتْ حدائق بهجتي حتّى أحالتْها هشيمًا تذروه الرّياح. الآن وقد ذقتُ كلّ هذا الاغتِراب تريدون الإفراج عنّي، كلاّ. لا أريد أنْ

يُفرجَ عنّي أحدٌ ، لن أدعَ لكم فرصةَ التّفضّل والتّمنّن عليّ بذلك وأنا لا يفصلني عن موعد انتهاء محكوميّتي إلاّ أشهرٌ معدودة . كلاّ ؛ إنّني اكبرُ من أن أستجدي ضُعفاءَ وجُبناءَ مثلكم ، سأخرج بلا مِنّةٍ من أحد ، ولْتُكْملِ المنافي فِيَ حُكمَها ، ولتأكلْ ما تبقّى من نضارة عُمري ، وسأردّد مع الباروديّ :

خُلِقتُ عَيوفًا لا أرى لابْنِ حُرّةٍ
لديّ يَدًا أُغضِي لها حينَ يغضَبُ

حينما قتلت اليهوديات قمت بواجبي الوطنيّ والدّينيّ ، لم أرتكب جرما ليُفرَجَ عني بعفو عامّ أو خاصّ . هل تظنّون أنّ الدّولة يهمّها أنْ تُنهي معاناة أحرار الوطن الذين لم يرتكبوا أيّ جرم يُذكَر ، هذه الدّولة كلّ ما يهمّها أنْ تُفرِجَ عن اللصوص والمجرمين الّذين نهبوا شركات الوطن وترابه ومُقدّراته

أيّها المُتسائلون بعد كلّ هذه السّنوات عن قلبي ، إنّه ما زالَ مملوءاً بحبّ فلسطين ، وحبّ الموت فِداءً لها ، وما زال ينبضُ بالكراهية لليهود ولمن والاهم ، ومكّن لهم في بِلادنَا ، وفاوضهم ، وعَزّى بقتلاهم ، ورضي لهم بذرةِ ترابٍ من أرضنا الطّهور . لم يأخذ الزّمن – على طوله – عواطفي لغير حبيبتي فلسطين ، ولم يحرفْ بوصلتي إلى أيّ جهة سِواها ، وأتذكّر قول مُظفّر «بُوصلَةً لا تُشيرُ إلى القُدْسِ مَشْبوهةٌ» . ولن يجد منّي الصّهاينة ولو كان ذلك آخرَ يومٍ في حياتي غير الرّصاص ؛ اللّغة الوحيدة الّتي يفهمونها

لقد استطاعوا أنْ يُغطُّوا وجهي في المرّات الّتي كنتُ أخرج فيها إلى المحكمة أو المستشفى لكنّهم لم يستطيعوا أنْ يُغطُّوا حقيقةَ ما قمتُ به ؛ كان ذلك انتِصارًا للمُقاومة ، وهزيمةً لأحلام السّلام الكاذبة . لقد

استطاعوا أنْ يُقيّدوا يديّ ورجلَيّ مِئات المرّات ، ولكنّهم لم يستطيعوا أنْ يُقيّدوا فكرة كُرهنا للصّهاينة الغاصبين مرّةً واحدة .

لم أكنْ مجنونًا عندما نَفذْتُ عمليّتي ، ولا مريضًا نفسيًا أو عقليًا كما أشاعوا ، ولم تدفعْني إلى ذلك أيّة جهة أو منظّمة داخليّة أو خارجيّة ، لقد قمتُ بما قُمتُ به وحدي ، وبدافع من إيماني وعقيدتي ، وبانطِلاق من مبادئي وثوابتي ، ولا يهمّني ما يفعله الصّهاينة باتّهام كلّ مَنْ يقوم بعمليّة قتلٍ للفلسطينيّين بأنّ مَنْ قام بها يُعاني من اضطرابات عقليّة ، إنّهم لا يخجلون من ذلك ، أمّا أنا فلا ؛ لقد قمتُ بهذه العمليّة الفذّة بكامل رغبتي وإرادتي ، بل وخطّطتُ لها منذ أوّل يومٍ دخلتُ فيه العسكريّة ، وما زلتُ أدفعُ باتّجاه أنْ أكون ضمن طاقم حرس الحدود في الباقورة حتى أصنعَ ما خَطّطْتُ له على مدى أكثر من عشر سنواتٍ حتّى كان لي ما أردتُ ، ولله الحمدُ في الأولى والآخرة .

لا يهمّني من قال عنّي إنّني بطلٌ ، ولا يهمّني من قال عنّي إنّني مُجرم . كلاهما لا يعنيان لي شيئًا ، ما يهمّني أنّني مرتاحٌ لما قُمتُ به ، ومؤمنٌ به تمام الإيمان . قناعاتي تهمّني وحدي ، إذا أردتَ أنْ تُشاركني فيها فعلى الرُّحب والسَّعَة ، وإنْ أردتَ أنْ تتنكّرَ لها فعلى الرّحب والسّعة كذلك ؛ «شكرًا لمن شكروا ، شكرًا لمن كفروا»

كلّ الأمراض الّتي نهشتْ عافيتي لم تكنْ من عدوّي ، كانتْ من أبناء جلدتي ، حينَ تتكالَبُ عليّ هذه الأدواء ، وتتهارشني في كلّ بوصةٍ من جسدي ، أتذكّر ما قمتُ به في صبيحة يومٍ آذاريّ من عام ١٩٩٧ فأبرأ من كلّ آلامي ، وأُشفَى من كلّ أسقامي

لا تهمّني بياناتكم الّتي تدبّجونها في الوقوف إلى جانبي ، أو تلك الّتي تُدبّجونها في شَجْبِ ما قمتُ به ، خبّئوها لأيّام البرد ، وألقموها

للنّار ، فلعلّها وهي تحترق تبعثُ الدّفءَ قليلاً في أوصالكم الباردة .

سيقول لكم إعلامُ الصّهاينة يومَ أنْ أخرجَ من هنا بإذن الله مرفوع الرّأس : «هذا الّذي قلتم لنا بأنّه مجنون ، لا يوجَد أعقل منه ، إنّه يُستقبَل من كافّة أطياف الشّعب ؛ لقد خدعتمونا» . وسأقول لهم : «نعم لقد خُدِعتم ؛ فأنا لستُ مجنونًا ولم أكنْ ، وأنا مُستعدٌّ لو أتيحتْ لي الفُرصة مرّةً أخرى لأطيحنّ برؤوس عشراتٍ منكم دون أنْ يرفّ لي جفن

سيقول عنّي إعلام العدوّ : «إنّني إرهابيّ» . ومَنْ قال لكم إنّني غير ذلك؟! هل جِئتُم بجديدٍ ، لقد وُلِدتُ من أجل أنْ أُرهِبَكم في كلّ مكان ، وسأبقى على العهد بإذن الله

إنْ تعاطفتم معي لأجلِ ما قمتُ به ، أو تعاطفتم معي نكايةً بإسرائيل ، وبدولتهم الطّارئة ؛ فالنّتيجة في الحالَين واحدة .

عمليّة السّلام الكاذبة مع إسرائيل مرّ عليها حتّى اليوم أكثر من ثلاثةٍ وعشرين عامًا ، أما آن لمن وقّعها أنْ يخجل من نفسه ، ويبلّ ورقها ويشربَ ماءَه ؛ ما زلنا بعد كلّ هذه السّنوات نعتبر اليهود مُحتلّين ، فموتوا بغيظكم أيّها السّاسة اللُّعناء!!

مكتبة الرمحي أحمد

(٧٦)
هل ينسى المُغنّي صوتَه!!

هل نسيتم جرائم الصّهاينة؟ هل نسيتم مجازرهم؟ أمْ تريدون منّي أنْ أذكّركم، لو قدّمْتُ لكم كشفَ حِسابٍ فستُذهَلون، هل نسيتم الحروب الثّلاث الّتي شنّتها على غزّة وقتلت المئات من أهلها العُزّل، هل نسيتم الأطفال الّذين تفحّمتْ جُثثهم وهو يلعبون على الشّواطِئ؟ هل نسيتم جثّة هُدى على شاطئ غزّة؟ هل نسيتم سفينة مرمرة الّتي قُتِلَ فيها الأتراك المُتضامِنون مع أهلنا المُحاصَرين في قِطاع غزّة؟ هل نسيتم الـ (٣١٣) طفلاً، والـ (١١٦) امرأة الّذين قُتِلوا في العدوان على غزة. هل حوكم وسُجِن مَنْ دهس الناشطة الأمريكيّة (رايتشيل كوري) بجرّافة تابعة للجيش الصهيونيّ في ٢٠٠٣/٣/١٦؟ هل حوكم وسجن الضابط الإسرائيلي الذي قتل المُخرج البريطانيّ جيمس ميللر في غزة بالرصاص ٢٠٠٣/٥/٢؟ هل نسيتمْ أنّ جنديًا صهيونيًا قتل امرأتين عربيّتَين فلسطينيّتَين تلوحان بعلم أبيض في حرب غزة في ٢٠١٠/٧/٦؟! هل نسيتم القنابل الفسفوريّة المُحرّمة دوليًا الّتي أذاقتْ شعبَنا في غزّةَ ويلاتٍ لم تذقْها شعوبٌ أخرى ولا في القنبلة النّوويّة الّتي أُطلِقتْ على هيروشيما؟ إذا كانتْ ذاكرتكم لا تُسعِفكم فأنا أحاول تنشيطَها بعضَ الشّيء، وما هذا إلاّ غيضٌ من فيض. أيّها المُتعاطِفون مع قتلَى اليهود أليسَ لكم ذات القلب لتتعاطفوا مع قتلانا؟ أم أنّ قتلاهم في الجنّة وقتلانا في النّار!!

في السّجن ، بأيّ لغة أم بأيِّ مشاعر يُمكن أنْ تعشقَ المكان الّذي لفّ قُضبانه عليكَ كلّ هذه السّنوات ، ألأنّه حدّثكَ عن قصص الّذين مرّوا من هنا ، وصبروا على الضّيم ، وخرجوا مرفوعي الهامات ، أم لأنّه اعتاد على صوتك ، وعلى خطواتك ، وعلى أشعارك الّتي صدحتَ بها بين جُدرانه ، أكان للسّجن أنْ يعشقَ وأنْ يُعشَقَ بهذه الطّريقة!!!

في الأيّام الأخيرة من عام ٢٠١٦ ، وفي آخر اتّصال هاتفني فيه ابني (نور الدّين) ، قال إنّه سيبعثُ لي برسالةٍ كتبها متذكّرًا مسيرته مع قصّتي ، بعد أربعةِ أيّام من الاتّصال جاءتْني مشفوعةً بالشّوق :

«أبي الحبيب ؛ أريدُ أنْ أذكرَ لك قِصّتي معك ، وأبواب الحرّيّة تكاد تنفتح لنا معًا ؛ لقد كنتُ في السّادسة حينما جلستُ على قارعة الطّريق في أحد الأعياد ، ولم أبرحْ مكاني حتّى تأتي وتأخذ بيدي ، كما يأتي بقيّة الآباء ويأخذون بأيدي أبنائهم فَرِحين . أمّي يومها بدأتْ تعي معنى أنْ يشعر طِفلٌ في مثل عُمري بسجن أبيه ، وبحرمانه منه لسنواتٍ طِوالٍ طوال .

أبي الحبيب ؛ كانتْ والدتي وجدّتي دائمتَي الحديث عنك ، تقول جدّتي : إنّ أباك يكره اليهود كرهًا شديدًا ، ولهذا سجنوه . وأنّكَ كلّما سمعتَ أخبارًا في الرّاديو أنّ الجنود الصّهاينة قتلوا أناسًا أو ذبحوا طِفلاً في فلسطين ، كُنتَ تثور وتغضب ، وكُنتَ تتوعّدهم بالانتقام منهم قريبًا . وها أنتَ يا أبي تفي بالوعد .

أبي الحبيب ؛ أنتَ بطلي ؛ يتّخذ الأطفال في هذه الأيّام من (سبايدر مان) أو (سوبرمان) أو (هالك) أبطالاً لهم ؛ أمّا أنا فلم يكنْ في حياتي بطلٌ سِواك ، ولم أتمنَّ أنْ أكون يومًا على شاكلة رجلٍ غيرك . أتعرفُ لماذا؟ لأنّ أبطال التّلفاز يقتلون أعداءً وهميّين ، يقتلون زيفًا ، أمّا

أنتَ فقد قتلتَ عدواً حقيقيًا ، قتلتَ مُحتلاً ، مُغتصِبًا لفلسطين ، وهذا شيءٌ نعتزّ نحن به أبناءك جميعًا ، وهو مصدر عِزّ وافتِخار لكلّ عربيّ حُرّ . وكلّ غَيور على دينه وأمّته كان يجب أنْ يقوم بما قام به أبي .

أبي الحبيب ؛ أنا الآن – وأنا أبعثُ لك هذه الرّسالة – في مثل عمرك عندما قُمتَ بعمليّتك البطوليّة ، ولو كنتُ مكانكَ لفعلتُ ما فعلتَ ، عشرون عامًا يا أبي ولم يتغيّر في المُعادلة شيءٌ سوى أنّ إيماننا باقتِلاع المُغتصِب من بلادنا قد ازداد .

أبي الحبيب ؛ أريد أنْ أقول لَكَ شيئًا : ذات يوم ذهبتُ إلى الدّرك لأسجّل فيه ، فسألني الّذي كان يُسجّل المُجنّدين : أنتَ ابن الدّقامسة؟ فأجبتُه وأنا أرفع رأسي نعم . فسألني وهل ستقوم بما قام به أبوك؟ فرددتُ عليه بشموخ أكبر : طبعًا . فصرخ بي : قُمْ ، قُم اقلبْ وجهك من هنا . وخرجتُ وأنا أضحكُ في داخلي ، كان ذلك نوعًا من الانتصار على خوفي أنْ أضعف ، ونوعًا من الانتِصار عليه ، بأنْ رميتُ الجواب الحقيقيّ في وجهه مِمّا جعله يُستَفزّ على نحوٍ واضح وكبير .

أبي الحبيب ؛ لقد تعرّضتُ لثلاث عمليّات خطفٍ من أناسٍ مجهولين!! أُناس بلباس مدنيّ يقومون بأخذي من باب البيت ، يضعون كيسًا أسودَ على رأسي ، ولا أعرف إلى أين يذهبون بي ، يقولون : «سَكّرْ تُمّك ، ما بدنا تطلع مظاهرات ولا مسيرات ، ولا اعتِصامات ، وقضيّة أبيك انسَها تمامًا!!» . هل ينسَى المُغنّي صوتَه!!

أبي الحبيب ؛ ظلّتْ جدّتي صامدةً رغم سنواتها الّتي اقتربتْ من الثّمانين ، لم تضعف للحظة ، ولم تقلْ كلامًا على لسانها يُظهر ذلك ، بل كانتْ دائمًا قويّة ، وكان صوتها دائمًا عاليًا ، بل أبعدَ من ذلك كانتْ تحثّ الشّباب من أحفادها ، وكلّ بيتٍ كانت تدخله من المعارف

أو الجيران على أنْ يقوموا بمثل ما قام بها ابنُها؟ وتوبّخهم وتقرّعهم على ذلك قائلة : أنتم رجال؟ خسئتم؟ لو كنتم رجالاً لفعلتُم مثلما فعل ابني ، هل أنتم أبطال؟ لا . من أين تأتيكم البطولة ، إنْ لم تصنعوا ما صنعه أحمد!!

أبي الحبيب ؛ سِرٌّ ربّما لا تعرفه ، ولكنّني في النّهايات سأقوله ؛ كنتُ أعمل ذات مرّة في محلّ لتعبئة قوارير الماء ، المخابرات بعثوا لي بنتًا ، وعملتْ معنا في المكان لمدّة أسبوعَين ، وأخذتْني بعد ذلك إلى شخصٍ مجهول قالتْ إنّه عرّاف في عمّان في جبل النّظيف . لخربطة مُخّي ، وبدأ العَرّاف يقول لي كلامًا غريبًا : أنتَ أبوك ليس أحمد الدّقامسة ، وأنت من مواليد ١٩٨٩م . وسرقتْ بعد ذلك هذه الفتاة هاتفي ، وصارتْ تبعث رسائل منه للأرقام المسجّلة عليه تقول مثلاً في تلك الرّسائل : أنا الآن على الحدود الأردنيّة الفلسطينيّة ، ونازل على فلسطين للقيام بعمليّات تفجيريّة ؛ كلّ ذلك لتوريطي ، وإيقاعي في جناية أو تُهمة كبيرة . واعتقلني الأمن الوقائي في الحيّ الشرقيّ ، ومكثتُ عندهم يومَين ، ذقتُ فيهما الأمرّين من التّعذيب والضرب والإهانات ، كلّ الأساليب القذرة والوسخة استعملوها معي . بعد أنْ انقشعتِ الغمامة الكبيرة ، عرفتُ أنّ البنت كانت متعاونة عن طريق عميل مع الموساد الإسرائيليّ ، وترتاد بيوتًا لا أخلاقيّة مشبوهة!!

أبي الحبيب ؛ في المدرسة كان زملائي الطّلاّب يُشيرونَ إليّ ويقولون : هذا ابن الدّقامسة؟ هذا الّذي أبوه فعل كذا وكذا؟ كنتُ إذا واجهتُ شخصًا ضدّ العمل الّذي قُمتَ به كان ذلك الأمر يزيدُ من قوّتي ، ومن حُبّي لك ، لأنّه إذا نظرتَ إلى هذا الّذي وقف ضدّ ما قمتَ به ستجد أنّ أباه يعمل في وظيفة في الدّولة أو الحكومة وخائف

على منصبه أو راتبه ، أمّا ابن الجيش وابن الحرّاث ، وابن المواطن البسيط فقد كان أبوه يُشجّعه على أنْ يظلّ رفيقًا لي وصديقًا

أبي الحبيب ؛ إنّهم يُحاصِرونني في الوظائف الّتي أعملُ فيها ؛ عملتُ في محلاّت ألبسة ، كنتُ أعمل لمدّة أسبوعَين على الأكثر ، وبعدها أُفصَل من الوظيفة ، آخر مرّة صارحَني صاحب العمل : وقال لي جماعة الأمن قد ضغطوا عليّ لفصلك . ولكنّ واحِدًا من هؤلاء الّذين وظّفوني لم يخضع لهم ، ولا لطلبهم طردي من الوظيفة ، وعانَدَهم ؛ فكانت النّتيجة أنْ حرقوا له محلّه بالكامل!! وأنا مع كلّ فعل يزداد حُبّي وإيماني بالله ، وحبّي لك يا أبي

أبي الحبيب ؛ سلامٌ الله عليكَ في الأوّلين والآخِرين ، سلامٌ على روحكَ الثّائرة ، وإلى فرج قريبٍ بإذن الله ، أضمّك فيه إلى صدري ، وأحكي لك عن كلّ شيءٍ

ابنك المُحبّ : «نور الدّين»

(٧٧)
لَنْ أَسمعَ صَوْتَ الزَرَدِ والسَلاسِلِ بَعدَ اليومِ

لم يعدْ يعنيني بعد الآن شيءٌ ، لقد بلغتُ السّادسة والأربعين ، ورأيتُ كُلّ شيءٍ ، وعاينْتُ أهوالاً وتجارب تجعل كلّ شيءٍ يبدو ضئيلاً وصغيرًا . ماذا يعني أنْ أعيش مئةَ سنةٍ أخرى ، أو أنْ أموتَ غدًا ، لئن جاءتْني منيّتي وأنا على هذه الحال ، فلن أندم ، ولن أرجو أنْ تتأخّر ساعةً ، أعظمُ عملٍ نويتُ أنْ أقوم به في حياتي تحقّق . العمل الآخَر الّذي طالمَا تمنّيتُ أنْ أفعله ، تحقّق هو الآخَر ، لقد حقّقه لي السّجن ، كأنّما السّجن نِعمة ، وهل كان غير ذلك!! لقد أدمنتُ صحبة الكتاب ، وفتحَ لي ذلك فتوحًا عظيمةً ، أراني حقائق الأشياء ، وعرّفني قِيمتها ، وجعلني أشعر أنّ عشرين عامًا في السّجن ربّما تُشبه عشرين عامًا أخرى في أيّ مكانٍ من العالَم ، ما دام عالَمكَ الدّاخليّ صالحًا فلا يهمّك خراب عالَمكَ الخارجيّ . ومتى كان العالَم الخارجيّ صالحًا في أيّ زمن!! إنّه غارقٌ في الخراب ، منذُ أُهبِطَ آدم على الأرض ، ومنذ أنْ سنّ قابيل شريعةَ القَتْل ، هذا العالَم الخارجيّ ظلّ طوال هذه الآلاف من السّنين يئنّ تحت شرور الإنسان ، ليس من مهمّتي أنْ أُخلّصه من شروره ، ولا أنْ أُصلحه ، مهمّتي الأولى والعظيمة أنْ أُصلح عالَمي الدّاخليّ ، لأعيش مُتصالحًا مع نفسي ، ولا أجد فرقًا في السّنوات إلاّ بمقدار ما تُعطيني من تجربة ، وبمقدار ما أحوّل هذه التّجربة نفعًا لي ولجنسي البشريّ .

العالَم ، في أيّ بقعة منه ، هو وطن ، صالحٌ لأنْ تعيشَ فوقه ، وأرضُ الله واسِعة ، وعلى أيّ جزءٍ منها يستطيع أنْ يكوّن البشريّ حياتَه الخاصّة ، شيءٌ ما في وطني جعلني أهبه كلّ شيءٍ ، وأقدّم روحي فِداءً له ، إنّه مُقدّس ، وطنٌ كلا وطن ، وترابٌ كلا تُراب ، وأنا منذ العاشرة من عمري أو قبلَ ذلك وأنا أشعرُ أنّني أمينٌ على قداسته ، ومسؤول على ألاّ يُدنّسَ ثراه .

إنّني أُتقن الموت كما أُتقن الحياة ، ظلّتْ شغلي الشّاغل في ليالي السّجن الدّاجية هو أنْ أعرفني ، أنْ أُنقّب في ذاتي ، أنْ أغوص عميقًا ، كما يغوص رأسُ اللّسان الصّخريّ في الخليج ، ألاّ أفقد بوصلتي ، أنْ أرى الأشياء على حقيقتها ، لطالَما صعدتُ إلى ذروة نفسي ، ونظرتُ إليّ من شاهق لأرى الصّورة بكامل جوانبها فلا أنكر منها شيئًا ، لقد حاولتُ ألاّ أضلّ ، وأنْ أظلّ مُتصالحًا مع نفسي طَوال الوقت ، وألاّ أقع في اليأس ، كنتُ أوقنُ أنّ اليأس كُفرٌ ، والكُفر هاوية . جاهدتُ أنْ أُبقي على شعلة الأمل مُتّقدة ، أعترف أنّني نجحتُ أحيانًا ، وأعترفُ بشكلٍ صريح أكثر أنّني فشلتُ أحيانًا أخرى

كانت الزّنازين الانفِراديّة أرحم بي من بعضِ البشر ، لو حذفتَ باء البشر لصاروا الشر ؛ ولو حذفتَ شينهم لكانوا البر ، لكنّ باءهم تسبق شينهم ؛ فشرهم يغلبُ برّهم ، هل كان هذا مُصادفةً!! البقعة الّتي تخلو منهم تظلّ أقلّ خطرًا ، وأنأى عن الأذى ، ورغم قساوة الأيّام الّتي تحتضنك فيها إلاّ أنّها تُعلّمكَ أشياء كثيرةً ، تعلّمك التّنقيب من جديد في ذاتك ، تعلّمكَ كيفَ تقرأ باطنك ، وكيفَ تتأمّل ما يأتي .

والآن ماذا يهمّ إنْ كانت سنواتي في هذه المنافي خمسًا أو خمسين ، لقد كان مُقدّرًا في الغيب أنْ أعيش عقدَين من الزّمان هنا ،

كما لو كنتُ مسافرًا لأتعلّم ، أو لأجمعَ كنزًا ثمينًا من المعرفة ، ما كانتْ حياةً أخرى في أيّ مكانٍ آخر لتتيحها مهما كانت الظّروف . اليوم أعترفُ بأنّني عشتُ كلَّ دقيقةٍ في السّجن بكاملِ ثوانيها السّتين ، وأنا أجد في كلّ ثانيةٍ تمرّ حياةً مختلفةً عن الحياة الّتي تمرّ في الثّانية الّتي تليها ، وكلّ تجربةٍ ، وكلّ فكرة ، وكلّ همسة ، وكلّ نظرة ، وكلّ لمسة ، وكلّ جوع ، وكلّ عطشٍ ، وكلّ حبٍ ، وكلّ شوقٍ ، وكلّ توقٍ ، وكلّ جنونٍ . . . ما أعظمَ الحياةَ هناكَ ، ما أعظمَ الحياة!!

سيحزنني . هل تُصدّقون ذلك ؛ سيحزنني بعدَ اليوم أنّني لن أرى الجُدران المكشوطة ، ولا الكتابات المراهقة فوقها ، ولا الرّموز الغريبة ، ولا الرّسومات الأغرب . . . سيُحزنني بعد اليوم أنّني لن أسمع صوتَ الزّرد والسّلاسل بعد اليوم ، لن أراها وهي تلتفّ كأفعى على جسدي قبل أنْ تسقط بثقلها على الأرض مُحدِثًا صوتُ ارتِطامها ثقبًا في طُمأنينتي . وسيُحزنني أيضًا بعد اليوم أنّني لن أسمع صرير الأبواب في الزّنازين الّتي كانت تُفتَح من أجل مفاوضتي في خياراتي النّادرة ، أو مساومتي على مواقفي . حقًا إنّ ذلك ليحزنني!!

لقد تعلّمتُ من السّجن ما لم أكنْ لأتعلّمه خارجه ؛ تعلّمتُ من السّجن أنْ أكتفي بالقليل ، وأعيش بالقليل ، وأموت على القليل ، فما دام القليل يكفي فأيّ حماقةٍ تلك الّتي ستسوقني إلى أنْ أسعى إلى الكثير؟! تعلّمتُ من السّجن أنْ أعمل بيديّ ، وألاّ أنتظَر من أحدٍ شيئًا ، وألاّ أرجو غير الله ، وألا أخافَ سواه ، وأنْ أوطّن نفسي على الرّضا بكلّ شيءٍ . تعلّمتُ من السّجن ألاّ أنشغل بسفاسف الأمور ، وألاّ أرهق ذهني في التّفكير بالوضيع من الأمور ، وألاّ أجادل إلاّ بخير ، وألاّ أنافق لأحدٍ ، وألاّ أسترضي أحدًا ، وألاّ أستجلبَ عداوةَ أحدٍ ، وأنْ

أقول ما أريد دون حساب لأحد ، وأنْ أصرفَ وقتي فيما يحرّك الماء الرّاكد في عقلي ، وأن أقرأ في كلّ يوم ، تعلّمتُ من السّجن أنّ خير الأصحاب ، وأوثق الأصدقاء ، وأنبل مَنْ يُمكنك أنْ تتعامل معه هو الكتاب ، فحرصتُ على ألاّ أخلي نفسي منه في يُسرٍ أو عُسر . تعلّمتُ من السّجن أنْ أسامح كلّ مَن أساء إليّ ، وأنْ أعفو عمّن ظلمني ، وألا أتتبّع أخطاء الآخرين ، وألاّ أنشغل بغير عيوبي ، فأنا لم أبرأ منها ، حتّى أفكّر في عيوب الآخرين . تعلّمتُ من السّجن أنْ أقبل الحياة كما هي ، فما من حياةٍ تُشكّلها كما تريد ، فذلك شأنُ الله ، ولكنّني أستقبل ما قُدِرَ لي فيها بالرّضى ، وآخذ من كلّ أمرٍ فيها بأحسنه تعلّمتُ من السّجن أنّ الأيّام دُول ، وأنّ الحالاتِ من الحزن والفرح دُول ، وأنّ الدّولَ دُوَل ، فما حزنتُ حتّى قضى الحُزنُ عليّ لِمحنة ، وما فرحتُ حتّى أخرجني الفرحِ عن الوقار لِمنحة ، ولكنّني سلكتُ وسطًا بين الحالَين ، ولم أكنْ حُلْوًا لأُبلَع ولا مُرًّا لأُلفَظ .

وها هي (إبدر) تكبُر وتكبُر وتكبُر حتّى تُصبح نجمةً لتنضمّ إلى النّجوم الخالِدات في السّماء ، ظلّتْ معلّقة بأهدابِ قلبي ، وظلّتْ حواريها وشوارعها ، وأشجارها ، ورملُها ، وجبالُها أنشودة الحُبّ ، ولحن الهُيام ؛ فهل غاب هذا الطّفل عنكِ كثيرًا أيّتها الجميلة الطّيّبة؟!

لقد أخذتُ من الحياة ما يكفي ، بلغتُ قبل ستّ سنواتٍ سنّ الأربعين ، السّنّ الّذي تكتمل فيه الرّؤى ، وتنضجُ فيه التّجربة ، وتشتعل فيه نار الحِكمة . النّار في قلبي وفي وِجداني ستظلّ تُضيءُ لي حتّى أبصر الطّريق ، سيّان عنديَ إقلالٌ وإكثارُ :

كَثِيرُ حَيَاةِ المَرْءِ مِثْلُ قَلِيْلِهَا
يَزُولُ وبَاقِي عُمْرِهِ مِثْلُ ذاهبِ

لنْ أسمع بعد اليوم في المساءات رقمي العشوائيّ في عدّ قطيعنا الّذي يُساق إلى زريبته ، ولن أسمع صيحات المحزونين من المساجين ، ولا صرخات المُتسلّطين من السّجّانين ، ها أنتم ترون ؛ كلّ شيءٍ إلى انتِهاء ، العَجَلَةُ تدور ، والسّاقية تدور ، والماء يدور ، والبشر يدورون ، وهناك في ثقبٍ ما سنسقطُ جميعًا

اليوم ما هي قِيمة الأيّام الّتي أضربْتُ فيها عن الطّعام ، والأيّام الّتي شبعتُ فيها؟ ما الفرقُ بين أيّامي الّتي كنتُ فيها صحيح الجسم قويّ البُنية وبين أيّامي الّتي كنتُ فيها مريضًا أعاني الوحدة والحزن والفراغ ؛ لقد ذهبَ كلّ شيء ، كلّ شيءٍ في السّجن ذهب ، بحلوه ومُرّه ، بطوله وقِصره ، بجماله وقُبحه ، ولم يبقَ إلاّ الغد ؛ الغد المُنتَظر ، إنّه لا يكاد يكونُ منتظرًا ، إنّني أشعر أنّه يُشبه كلّ شيءٍ مضى ، ويُشبه كلّ شيءٍ سيأتي!!

(٧٨)
أكانَ الأمرُ يَستحِقّ؟!

كان ذلك في شباط ، وكنتُ قد فرغتُ منذ الصّباح رغم البرودة الشّديدة من خَبْزِ الأرغفة الثّلاثة ، وانتظرتُ قادمًا لأهديها له كأنّك أكلتَ ، لكنّ أحدًا حتّى الآن لم يأتِ يا بُنيّ ؛ أفيكونون قد عرفوا أنّ خروجكَ قريبٌ فآثروا أنْ يُبقوا عليها من أجلك!

كان الهواء في اللّيالي القاتمة يُحرّك أبواب البيوت ، كلّما حرّك الهواء بابًا ظننتُ أنّه أنتَ يا بُنَيّ ، أنّكَ قادِمٌ من سجنك الطّويل ، لتقول لي : «كانتْ رحلةً طويلةً ، كان غيابًا طويلاً ، أنتَ لا تدري كم أحدثَ ذلك في قلبي من ندوب ، ولكنّني لم أُحدّث بها أحدًا ، وكم ملأ فمي بماءٍ مالح ولكنّني لم أُشعِر به أحدًا ، وكم تركني ورقةً وحيدةً في مهبّ رياح الحزن ، ولكنّني قاومتُ بالصّبر ، قاومتُ بالرّضى ، قاومتُ على أمل أنْ تنتهي هذه المأساة وتخرج لي كالبدر من عتمات اللّيالي الدّاجية . أتظنّ أنّها عشرون عامًا يا بُنيّ ، كلاّ ؛ إنّها عشرون موتًا ، وعشرون فقدًا ، وعشرون ألمًا ، وعشرون جرحًا ، وما زال النّزيف متدفّقًا . ولكنْ ها هو ينتهي . أسمعكَ تقول : ألا ترينني . هذا أنا يا أمّي بلحمي وعظمي ، هذا أنا ، تحسّسي ذراعي إنّها ما زالتْ ذات الذّراع الّتي ربّيتِني على ألاّ تستجدي بها أحدًا . تحسّسي شعر رأسي ، إنّه ذات الرأس الّذي علّمْتني ألا ينحني لأحد ، وألاّ يمسّ أحدٌ منه شعرةً بسوء ، إنّه ما زال كذلك يا أمّي ، صحيحٌ أنّه شاب ، لكنّ

الشّيب تغيّرٌ في اللون لا تغيّر في الموقف . إنّه ما زال مرفوعًا منذُ أنْ قلتِ في ذلك اليوم البعيد» «ارفَعْ راسَكْ يُمّه» . وها هو قلبي ، تحسّيه هو الآخر ، إنّه ما زال دافِئًا مذ قلتِ له قبل عشرين بُعدًا : (ولا يهمّك) ، رغم ما مرّ عليه من أعوام كانتْ كلّها صقيعًا لا ينتهي تحسّيه يا أُمّي ، إنّه ما زال ينبض بكِ رغمَ أنّه توقّف في هذه السّنوات الطّوال عن النّبض غير مرّة . وها أنذا من جديد ، ها هي حقيبتي ، ها أنذا أضعها على أرضِ الدّار الّتي ربّتْني ، حينَ غادرتُكِ من هنا كنتُ أحمل ذات الحقيبة ، ولكنّها اليوم امتلأتْ بالكرامة أكثر ، واتّسعتْ لأحلامي المجروحة أكثر ، وصار بإمكاني أنْ أقول لك : إنّها أيضًا اتّسعتْ لحُبّكِ أكثر ، للقِيم الّتي نَشّأْتِني عليها ، للبطولات الّتي صنعْتِها في داخلي ، وجعلتْ منّي ساريةً لا تنكسر . ها أنا يا أمّي أعود بعد كلّ هذا الغياب!! أكان الأمر يستحقّ؟! بلى يا أمّي كان يستحقّ هذا وأكثر كان يستحقّ لأنّ بريقَ عينَيك لم ينطفِئ رغم كرّ اللّيالي السّود على مدى عشرينَ عامًا كان يستحقّ يا أمّي نعم ، لأنّ دينَ الله لا يُقدّر بثمن ، وما الثّمن الّذي دفعْتُه؟ إنّه لا شيءَ أمام الله ، أمام ما طلبه الحقّ منّي في ذلك اليوم المشهود . كان يستحقّ لأنّ وطني الّذي خبّتْ عليه خُيول الصّحابة ، وارتفعتْ عليه رايات التّوحيد لا يُترَكُ عاريًا للسّماسرة والقَتلة . نعم كان الأمر يستحقّ ، لأنّي رأيتُ أبا عبيدةَ يشرب من نهر الأردنّ ، ومعاذ بن جبل ينام تحت زيتونه ، وعامر بن أبي وقّاص يستظلّ بسَعَفِه ، ورجاء بن حيوة يقصّ في ربوعه على القادمين حكايا المجد والبطولة ، وجيلاً لا يُمكن حصره ولا تَخيُّله لم يُنكِر فضل الأردنّ يا أمّي

تقولين : «من عشرين عامًا كنتُ كلّما طبختُ حضرَ طيفُك ،

فاجتزأتُ حُصّتك من الطّعام على أمل أنْ تأكلها . من عشرين عامًا في كلّ جمعةٍ أتخيّلك تطرق على الباب ، وأقول لك : «فوتْ يا أحمد . . . فوت» لتُفطِر عندي . من عشرين عامًا وأنا أنتقي الثّوب الجميل الّذي سأستقبلك به ، وآن اليوم أنْ ألبســه فرحًا بخروجك . من عشرين عامًا وأنا أتدرّب على الزّغاريد الّتي سأملأ بها سـماء (إبدر) حين أراك . من عشرين عامًا وأنا أنتظر هذا الحلم ليتحقّق ، هل ما زالتْ فاطمة على فضولها لتعرفَ الحلم ، قُلْ لها : إنّه تحقّق ، وإنّه يومُ الخلاص»

(٧٩)
أنا حربٌ لأعدائي سِلمٌ لأحبابي

في نهاية ٢٠١٦ أعلن وزير الإعلام الأردنيّ أنّ أحمد الدّقامسة سيخرج في موعده ، حينَ وُجّه للوزير سؤال عنّي ، فقال : أحمد الدّقامسة سيخرج في موعده في ١٢-٣-٢٠١٧م . بدون تأخير وغير مطلوب لأيّ جهة . بُلّغتُ بذلك ، فكانت النّهاية تبدو أمامي مثلَ فَلَقِ الصُّبح ، وصارتْ مرئيّة بعد عشرين عامًا . لن أعرفَ تمامًا كيفَ يشعر سجينٌ بطعم الحرّية بعد أنِ استُلبتْ منه عَقْدَين كاملَين . أغلبُ الظنّ أنّني أحتاج إلى وقتٍ كي أبتلع الحياة خارجَ السّجن ، الحياة المُزيّفة ، أعني أنّنا كُنّا نعيشُ في السّجن حياةً أقلّ زيفًا .

كان في السّجن ضابطٌ اتّخذني صديقًا ، أصدقاء السّجن بالمناسبة أكثر وفاءً من أولئك الّذين خارجه كانت مواقفه معي رائعة ، ولم يكنْ سائلاً بالعواقب ، لأنّه كان يتعامل معي بإنسانيّة ، قلتُ له : «يا رجل لقد اقتربَ موعد الإفراج عنّي ، وأحتاج مثل يونس إذْ خرج من بطن الحوت إلى فترة تهيئة وتهوين» . قال لي : «على طول ، أنا سأكتبُ فيها كتابًا ، وسأتابعه حتّى تأتيك المُوافقة» . وبالفعل كتب كتابًا باسمه إلى إدارة السّجون ، وجاء الرّدّ بعد أسبوعَين بالموافقة ، ووضعتُ على الفَور في غرفةٍ مُميّزة ، كانتْ جديدةً ، تهويتها ممتازة ، وطِلاؤها يلمع ، ونوافذها أكثر اتّساعًا ، والشّمسُ تغازِلها طَوال اليوم . ووضعوا معي أناسًا كذلك قد اقترب موعدُ الإفراج عنهم مثلي وكانوا أناسًا طيّبين ،

ولعلَّ تلك الفترة كانت أحسنَ فترةٍ في سجني ، من ناحية الخَدَمات ، وإذا كان يصدقُ المثل القائل بأنَّ الغريق يتعلّق بقشّة ، وأنَّ السّجين طفلٌ صغير أيَّ شيءٍ يُغضبه وأيَّ شيءٍ يُفرِحه ، فقد قُدّمتْ تسهيلاتٌ تبدو تافهةً ، لكنّها كانتْ بالنّسبة لنا عظيمة ؛ كان من ضمن هذه التّسهيلات أنّهم سمحوا لنا مثلاً بشراء القهوة على حسابنا ، كلَّ أسبوع وقيّة قهوة ، وكُنّا نغليها عندهم ليس في غرفتنا ، لأنّه بالطّبع لا يوجَد عندنا غاز ، الأفضليّة كانت في السّماح لنا باستِخدام غازِهم ، وتلك نعمةٌ كُبرَى ، وكُنّا نشرب القهوة في أيّ وقتٍ شِئنا ، وفي الحقية صار للقهوةِ طعمٌ آخَر ، وصِرنا نراه شرابًا مُلوكيًا . ومن التّسهيلات كذلك السّماح لنا باستخدام الهواتف بشكلٍ مُوسّع ، صرتُ أحكي كلَّ يوم تقريبًا ، لكنْ بقيتُ أتكلّم فقط مع رَقَمَي أمّي وزوجتي ، وهذا أمرٌ بالغُ الأهمّيّة ، لقد جلبوا لنا صوتَ الحرّيّة إلى هنا ، فتدثّرنا بدثارها ونحن نتمايل من السّعادة . الغرفة كذلك اختلفَ علينا فيها القطيع البشريّ القارّ فيها ، فمثلاً صارتْ بدل أنْ ينام فيها عشرون إلى خمسة وعشرين تقلّص هذا الرّقم إلى النّصف ، فصار ينام فيها حوالي عشرةِ سجناء . الأكل للأسف لم يتغيّر ، ظلّ مثلما هو ؛ لأنّها شركة ، وهذه الشّركة كلّها فساد بفساد .

في الأيّام الثّلاثة الأخيرة الّتي تسبقُ الإفراج عنّي لاحظتُ الاهتِمام بي كأنّني قِطعةٌ من الماس ، أو كأنّني (فازا) يخشون أنْ تنكسر كان وزير الدّاخليّة قد وقّع كتاب الإفراج هذا ، وأمر بمنعي من الخروج من الغرفة إلاّ برفقة حارس وضابِط ، لحماية أمني حسبَ تعبيرهم ، وخوفًا من الاعتداء عليَّ من أيِّ نزيلٍ آخر ، وكانوا يُلاحظون خُطُواتي خوفًا من أنْ أتعثّر أو أقع على الأرض بشكلٍ مُبالَغ حتّى لم أعدْ أعرفني!

قلتُ لفاطمة ، إنّها الحريّة أيّتها الحبيبة ، صار الحلم حقيقة ، والوعد صدقًا ، اشتري لي أجملَ بدلةٍ في السّوق ، لا أريدُ أنْ أغادر سجني مثل بقيّة السّجناء ، أريد أنْ أخرجَ شامخَ الرّأس ، عزيزًا ، أنيقًا أريدُ للنّاس حين تراني أنْ تعرفَ أنّ سنواتي العشرين لم تهزمني ، ولم تُبعثرني ، وأنّ شوقي إلى الحياة كبير ، وأنّ هذا الجنديّ الّذي قاتل بالبدلة العسكريّة ، قادرٌ على أنْ يواجه الفرح والنّاس بالبدلة المدنيّة ، كأنّ شيئًا لم يتغيّر . ما رأيُكِ يا فاطمة باللّون الكُحليّ؟ كلاّ ، كلاّ ، إنّه لونٌ تقليديّ ، وأكاد أرى فيه البُؤس والجِديّة أكثر من سِواه ، أريدُ لونًا فَرِحًا ، فاتِحًا ، مُبهِجًا . ما رأيكِ باللون الخمريّ؟ قد يكونُ مناسبًا ، لكنّني أرى أنْ يكون القميصُ خمريًا ، والبدلة رماديّة ، كأيّامي الّتي سأتركها خلفي .

يوم السّبت ١١-٣-٢٠١٧ في الصّباح قبل أنْ يُخرجوني من سجن (أمّ اللّولو) ، جاء مساعد مدير الأمن العامّ ومدير السّجون ووعددٌ آخَر من الضّبّاط . مساعد مدير الأمن العامّ كان لطيفًا ، وقال : «أنتَ يا أحمد سيُفرَج عنك اليوم أو غدًا . . . أو قريبًا جِدًا . . . وأنتَ عاقل وأنتَ تعرفُ أنّ كلمةً منك ستُهيّج النّاس ، وكلمة ستُهدّئهم ؛ وأنتَ تعرف البلد وأمر الاستقرار والأمان فيه» . فقاطعتُه لأقول : «أنا قبلكم أُحافِظُ على أمن البلد ، بل وأكثر منكم ، بالنّسبة لي استقرار البلد عندي خطٌ أحمر ، ولكنّ عدائي لليهود سيظلّ مثلما هو منذ أنْ وعيتُ . أنا حربٌ لأعدائي سِلْمٌ لأحبابي» . قال لي : «عداؤك لليهود شأنك ؛ يهمّني أمن البلد» .

في مساء ذلك اليوم كنتُ جالِسًا عند رئيس القسم ، كان قد أصبحَ معتادًا منذ فترةِ التّهيئة أنْ أُشاركهم مكاتبهم ، وأنْ أُجالِسهم في

الأيّام الأخيرة ، إذ إنّهم كانوا يتعاملون معي بأعلى درجات الرّقيّ والتّهذيب . وكنتُ كثيرًا ما أشاهد التّلفاز وحدي ، وبيدي (الرّيموت) أقلّب بين القنوات الّتي أريد ، حينَ ارتفعَ الأذان ، وكانتْ صلاة العشاء قد حلّتْ فقلتُ للمدير : «بعد إذنك أريد أنْ أصلّي ، سأذهبُ إلى الغرفة» . فقال لي : «لماذا لا تُصلّ هنا ، وأنا سآمر الضُّبّاط أنْ يأتوا بكلّ أغراضك من المهجع» . فلمّا سمعتُ ذلك أيقنتُ أنّ السّاعة قد أزفت ، فصلّيتُ عنده العشاء ، وإذا بالضّباط قد أتَوا بأغراضي الشّخصيّة : (دفتر الأشعار والمُختارات الأسود ، ودفتر الهاتف ، وملابسي ، وصحنَين بلاستيكيّين كانا قد رافقاني في السّنوات الأخيرة ؛ أحدهما مسطّح والآخر عميق ، وكأس بلاستيك مُقوّى كنتُ أتناول فيها الشّاي والقهوة) . أمّا دفتر المُذكّرات فكنتُ قد أخرجتُه من السّجن في عام ٢٠٠٥م . فلمّا أنهيتُ الصّلاة قال لي رئيس القسم : «هيّا بنا» . فسألتُه وأنا لا أكادُ أقوى على القول : «إلى أين؟» . فقال : «شيءٌ حَسَنٌ لك ؛ هيّا بنا» . وإذا بهم ينتظرونني ، خرجنا في ثلاثة زنازين متحرّكة ، وُضِعتُ في إحداها ، وبقيتْ الزّنزانتان الأُخريان خالِيتَين للتّمويه ، وأوصلوني إلى سجن (باب الهوى) في إربد السّاعة ٨:٣٠ مساء ١١-٣-٢٠١٧م . سألوني أوّل وصولي : «هل تريدُ عشاءً؟» . فأجبْتُهم : «ائتوني بأطيب ما عندكم» . وكنتُ أتضوّر جوعًا ، فأتوني بالعشاء ، وأتبعوه بالقهوة ، وتعاملوا معي بكلّ احتِرام . لم أكنْ مطمئنًا حتّى الآن ، وتساءلتُ لماذا نقلوني إلى سجن باب الهوى ؛ هل هذا هو الإفراج؟! لماذا لم يُفرِجوا عنّي من سجن (أمّ اللّولو) مباشرةً؟! هكذا صرتُ أفكّر ، وكان الخوف يملؤني حتّى آخر لحظة بأنْ يتمّ التّمويه على الأمر ، ولا يُفرَج عنّي . والخوفُ أقتلُ للإنسان ، والتّرقّب مَفسَدةٌ

للطُّمأنينة . فسألتُ ضابِطًا كان موجودًا هناك : «ما القصّة ، مادمتم قد نقلتموني إلى هنا فلماذا لا تُدخلونني إلى المهاجع؟!» . فقال لي : «لا ، دَعْكَ معنا هنا أحسنُ لك» . وغمزني ، ثمّ تابع : «هو أمرٌ جيّدٌ لك . وسينتهي على خير» . فاعتقدتُ أنّه في السّاعة الثّانية عشرة ليلاً قد يُفرجونَ عنّي ، عند السّاعة العاشرة والنّصف من مساء ذلك اليوم كان قد مرّ عليَّ وقتٌ طويلٌ لم أنمْ فيه ، وكنتُ متعبًا من طول الطّريق ، والإرهاق الجسديّ والنّفسيّ ، فطلبتُ منهم أنْ أنام ، فقالوا لي : «حُطْ هاتين الكنبايتَين بجانب بعضهما ونَمْ عليهما» . وبالفعل نمتُ حوالي السّاعة ، وإذا بهم يُوقِظونني ويقولون لي : «هل تريد أنْ تخرج بهذه الملابس ، أم تريد أنْ تلبس البدلة؟» ، فانتفضتُ ، إنّها اللّحظة الّتي مرّتْ عليها ملايين اللّحظات السّابقة كي أصلَ إليها ، وها هي تحين . قلتُ وأنا مُضطرب : «بل ألبس البدلة ، وربطة العنق ، وأزيّن شعري» . لم أكنْ أعرفُ كيفَ تُلبَس بدلة ، ولا كيفَ تُزرّر أزرار قميص ، ولا كيفَ تُعقَد ربطةُ عنق ، لقد فعلتُ ذلك مرّةً واحدةً من قبلُ كانتْ يوم زواجي قبل أكثر من ربع قرن . نعم لم ألبسْ بدلةً من قبلُ إلاّ يومَ العرس ، وهذا اليوم هو عرسٌ من نوعٍ آخَر ؛ فلماذا لا أفعلها؟

ارتديتُ ملابسي الجديدة ، هلْ يُمكن أنْ تُغيّر الملابسُ الإنسان ، شعرتُ أنّني وُلِدتُ من جديد . رافقتْني في الخروج من بوّابة السّجن أكثر من عشرين سيّارة أمن ، ما بين سيّارات عاديّة ، وما بين أربع زنازين متحركة أو خمسة ، وكانتْ كلّها للتّمويه ، ونُقِلتُ من هناك إلى مبنى محافظة إربد ، وإذا به استنفار أمنيّ هناك ، المخابرات والمُحافظ والشّرطة والأمن الوقائيّ وكلّهم من الضّبّاط ذوي الرّتب العالية . وإذا المُحافِظ يتكلّم معي بجلافة وبدأ يُلقي عليّ التّعليمات ؛ لا نريد أنْ

تفعل كذا وكذا ، و . . . لا أعرفُ بِمَ يُعلّبون عقول هؤلاء حتّى يتكلّموا مع النّاس بهذه الطّريقة الفظّة . عشرون عامًا انصرمتْ من عمري كي أسمع في اللّحظات الأخيرة هذا الهُراء!

خرجتُ من هناك بسيّارة الأمن الوقائيّ . راحت السّيّارة تشقّ طريقها إلى بني كنانة نحو قريتي (إبدر) ، وكان عشيرة الدّقامسة قد تسرّب لهم الخبر ، وإذا بعشرات السّيّارت قد اصطفّتْ تنتظر هذه اللّحظة لكي تتحرّك معي نحو بيتي في موكبٍ مهيب . صدحت الأغاني الوطنيّة من السّمّاعات الكبيرة المركوزة على الحافلات ، وغنّى الشّباب أهازيج البطولة كانتْ ليلةً لم ينمْ فيها أحدٌ من العشيرة . وشاركَ فيها مَنْ لم أتوقّع أنْ يُشارك ؛ كان هناك أطفال بعمر السّنتَين قد أخرجتْهم أمّهاتهم في الموكب ، كُنّ يَقُلْن لأطفالهنّ : «هذا هو البطل ، حينَ تكبر عليكَ أنْ تصير مثله» ، ثمّ ترفعه عاليًا ليُشاهدني . عشراتُ النّساء انطلقتْ حناجرهنّ بالزّغاريد والهلاهيل . والكبار في السّنّ أشهروا عكاكيزهم ولوّحوها في الهواء ترحيبًا بي . كنتُ ابتلع الحياة المُتدفّقة إليّ بكثافة ، وأنا أحاول أنْ أستوعبَ ما يجري ، بِمَ قد يشعر مَنْ كان مُغيّبًا عن الشّوارع والأزقّة والحارات والبيوت والنّاس كلّ هذه السّنوات؟ كيفَ لي أنْ أدرك حجم الحقيقة الّتي أُلقِيت ككرةٍ كبيرةٍ في وجهي دُفعةً واحدة . لم يكن لسجينٍ لم يعرفْ ما هو (السّيلفي) في الهواتف الذّكيّة أنْ يُدركَ هذا الكمّ من الشّباب المتشوّقين إلى التقاط صورٍ معي ولو كان ذلك من نافذة السّيّارة الّتي تُقلّني أيّ ورطةٍ لذيذةٍ هذه الّتي وقعتُ فيها!!

مالتِ السّيّارة بِنا إلى الشّارع المُؤدّي إلى بيتنا ، خفقَ قلبي كجناحِ قطاةٍ تتعلّم الطّيران ، وضعتُ يدي على صدري لأجعله يقرّ ، بعد قليلٍ

سأرى أيقونة الفخر والعزّ، سأرى النخلة الشّامخة، سأرى الوردة الّتي لم تذبُل، بعد قليل سأقبّل أكفّ الصّامدة الصّابرة الّتي لم تُسمِعني في منافِيّ كلّها كلمةَ ضعف واحدة، بعد لحظات سينتهي كلّ ألم سابق، وستنهار الجُدُر الّتي أُقيمتْ بيننا، وسأكون على موعدٍ مع الرّائعة أمّي

كانتْ تجلس في الغرفة الّتي جلسْنا فيها أنا وهي وأبي وإخواني وأخواتي، وتناولنا الطّعام، وضحكْنا ولعبْنا، تنتظرني في ذات الزّاوية، وهي تُخبّئ لي الأرغفة الثّلاثة إيّاها الّتي دأبتْ عشرين عامًا على تخبئتها، اليوم من يدَيها سآكُل لَقمةَ الخبز، ولن تقول لأوّل طارقٍ للباب: «خُذها، هي لك؛ كأنّه أكل»

على الدّرجات القلائل الّتي تسبق باب المنزل الّذي كان مفتوحًا، رأيتُها، كانت هِي هِي، خطوتُ ما تبقّى من تلك الدّرجات لأقفَ بالباب تمامًا، فلمّا رأتني صاحتْ: «أحمد.. أحمد...» ثُمّ شرقتْ بندائها الّذي لم تستطعْ أنْ تُكمِله، وغابتْ عن الوعي. ركضتُ إليها، قبّلتُ قدمَيها، وطلبتُ منهم أنْ يأتوا بالماء، مسحتُ به جبينها الشّامخ، وناديت: «يمّة . يَمّة... ها أنذا... ها أنذا». صحتْ على صوتي، احتضنْتُها بكلّ ما في العشرين عامًا من غيابٍ ولوعةٍ وشوق، وانهمرتْ دموعي ودموعها قطراتٍ من فرحٍ وحُبٍّ وشُكرٍ جلستُ عندها، وأعدّتْ لنا فاطمة الشّاي، ذاتَ الشّايَ الّذي كُنّا نشربه على السّطوح في اللّيالي الصّيفيّة الصّافية البعيدة. لم يكنْ أحدٌ من النّاس يدري أنّ كلمةً واحدةً من أمّي قد غيّرتْ تاريخي بأكمله، وصنعتْ منّي إنسانًا آخَر. ولم يكنْ احدٌ كذلك يدري أنّه لولا تلك الكلمة لما ظلّ رأسي مرفوعًا طوال تلك الدّهور!

أُقيمت الاحتِفالات من بعدُ في مضافة الدّقامــة ، توافد النّاس من كلّ صوبٍ وحدب . كانتْ تظاهرةً عظيمـةً . الاستِقبال كان عظيمًا ، هل جيلُ هؤلاء الشّباب المُتحمّسين أفضلُ من جيلنا؟ هل وعيُه متقدّمٌ على وعينا؟ هل يُنتِجُ هذا الوعي عملاً بطوليًا شُجاعًا ، أم أنّه لا يُنتِجُ إلاّ جُبنًا وتخاذلاً؟

فيما مضى ، كان المساجين الّذين يدخلون إلى السّجن يُخبرونني أنّ النّاس قد تغيّرتْ إلى الأسوأ ، ولم تعد لديهم الاهتِمامات الّتي كُنّا نهتمّ بها ، ويقولون إنّ مبدأ قِتال اليهود واعتبارهم مُحتلّين قد تراجع لصالح القَبول بالآخَر في فلسفات سفسطائيّة لا أحدَ يدري كيف قد استطاعوا أنْ يقنعوا النّاسَ بها؟! ولكنّني عندما خرجتُ ورأيتُ الشّباب بهذه الجرأة وبهذا العنفوان لم أرَ أنّ الصّورة قد تغيّرتْ كثيرًا عمّا حدث في ١٩٩٧م ، بل إنّني رأيتُ أنّ زخم التّفاعل مع قضيّتي بعد الخروج كان أكثر منه قبل الدّخول إلى السّجن .

من المفارقات واللّطائف ، أنّه ثاني يوم من خروجي من السّجن جاءني أحدُ المهنّئين من جرش ، كان قد نذر منذ زمنٍ أنّه إذا خرجتُ من السّجن فليأتِيَنّ لتهنئتي بالسّلامة مشيًا على الأقدام ، وقد فعل لقد مشى أكثر من (٥٠) كم ، واستغرقت المسافة نهارًا بأكمله حتّى وصل إلينا

أحدهم جاء من أريحا ليهنّئني . تحدّثتْ معي قاماتٌ وطنيّةٌ ونقابيّةٌ كثيرةٌ لتهنئتي ، أناسٌ من كلّ بلدان الوطن العربي ؛ من المغرب والجزائر وتونس وليبيا والسّعوديّة وقطر ، وغيرها . لقد شعرتُ أنّ النّاس يبحثون عن أملٍ مفقود ؛ عن بصيص نور لتبقى المبادِئُ محافظةً على وجودها . الشّيء الّذي لم يستطيعوا هم أنْ يقوموا به أو لم تتوفر لهمُ

الظّروف لفِعله ، قمتُ أنا به . . . هم لم يُحبّوا أحمد الدّقامسة كشخص ، هم أحبّوا عمله ، وحبّهم لعمله مرتبط بحبّ فلسطين . شعبُنا شعبٌ طيّب ، يحبّ فلسطين ، ويعشقها . دَعْ عنكَ بعض الزّوائد هنا وهناك ، لكنْ فكّر بالأعمّ الأغلب ؛ إنّنا نحبّ فلسطين ، ونسعَى لتحريرها ، وننتظر يوم خلاصها عسى أنْ يكون قريبًا بإذن الله تعالى .

(٨٠)
لا يستطيعون أنْ يسرقوا ابتِسامتي

قضيتُ في الزّنازين الانفراديّة وحدها أكثر من ألف يوم، ثلاث سنوات ونصف مجموع ما قضيته هناك؛ في العتمة، والرّطوبة، واللاشّيء. كانت الأوقات كلّها مُتشابهة، عتَمَاتٌ لا تنتهي، وانكِسَاراتٌ لا تتوقّف. أثّر ذلك على عينَيّ كثيرًا فصار أيّ ضوءٍ ولو كان بسيطا يُؤذيهما، فاضطررت إلى أنْ ألبس النّظارة في كلّ الأوقات.

أخذت عتمة الزّنازين من نور عينَيّ، وسرقتْ من ضيائهما ألقَ الشّباب!! فيمَ كان ذلك كلّه؟ ولِمَ؟ أمِنْ أجلك يا وطني ومن أجل الموتِ فيكَ حبًّا؟! إنْ كان الأمر كذلك فليكنْ، أنا مُستعدٌّ أنْ أهبَ لكَ اليوم بعد خروجي ما تبقّى في عينَيّ من نور؟! ليس قليلاً عليكَ شيء، روحي الأسيفة الّتي عشقتْكَ حتّى لم يعدْ فيها متّسعٌ لسواك، وضياء عينَيّ الّذي ذهبَ جُلّ نورهما بعد أنْ رأيتُ بهاءَك الّذي وهبني العزيمة والعشق، ثُمّ رافقني في السّنوات العِجاف إلى زمان العتق الجميل، والحرّيّة الأجمل. ونحول جسدي الّذي احترق فيكَ لكي يضيءَ للسّارين في المُدلِجات يومًا ما طريقَ الحقّ والحقيقة، لم أكنْ لأرضَى لقدمِ خنزير أنْ تطأك، ولا لنفسِ قِردٍ أنْ يشمّ هواءك، فهل كان كثيرًا عليَّ أنْ أقطع تلك الأقدام من فوقِ ترابك، وأنْ أخنقَ تلك الأنفاس عن أنْ تتنعّم بعبيرك؟ كلاّ، ولستُ نادِمًا؛ ليذهب نور عينيّ كلّه لك، ليحترق جسدي فلا يبقى منه إلاّ الرّماد لأجلك، لينهشني

السّكّري ، ليذبحني الضّغط ، لتمتلِئ رئتاي بالماء ، لأكنْ حُطامًا بعد كلّ هذه السّنين ولكنْ لتقفَ أنتَ وتبقى قويًا ، لأمتْ بعد كلّ هذه الخطوب ولكنْ لتحيا أنتَ ، وتبقَى عزيزًا مُنتصِرًا

نعم ، لستُ نادمًا ، صحيحٌ أنّها عشرون عامًا من زهرةِ شبابي ذهبتْ في غيابة الجُبّ ، لكنْ أعوذ بالله أنْ أندمَ على ما فعلت . هل أندمُ على أنّني لبّيتُ نِداء الله الّذي كان يضجّ في أعماقي؟ أنا نادمٌ على شيءٍ واحدٍ فقط ، أنّني لم أجدِ البندقيّة الّتي تتناغَم معي كما أريد ، مع أنّني احتطتُ لذلك ، اليوم لو عدتُ إلى ذلك الزّمن فسأفعلها بطريقة مُختلفة ، سأبحث عن بندقيّة عاشقة ، بندقيّة تتفاعل معي كما لو كُنّا حبيبَين ، فلا تخذلني في منتصف الطّلقات ، بل تستمرّ معي في الزّغردة إلى آخر طلقة

هل أندم على ما مضى؟ كلاّ ، لقد كنتُ أتضايق في السّجن أحيانًا بسبب موقفٍ هنا أو هناك ، ولكنّني حينَ أتذكّر أنّني محبوسٌ على قتل يهود ، أرتاح ويذهب ضِيقُ صدري ، وينشرحُ فؤادي ، وترتفع معنويّاتي ، وأحسّ بالنّشوة ، وأبدأ يومي نشيطًا .

لقد قالوا لي : «إنّ اليهود يتربّصون بك ، ويريدون حياتَك» . في الحقيقة قد أحسب حسابًا لبعوضة يمكن أن تلدغني ، لكنني والله لا أحسب لليهود أي حساب ، لماذا؟ لأنّي مؤمن أنّه إذا جاءت رصاصاتهم فستجيء في الوقت المناسب ، وسيكون حينها قد انتهى أجلي ، ولأنّي لا أضمن لنفسي أن أعيش للّحظة التّالية ، إذا جاء الموت فهذا يعني أنّه جاء دون تأخير ، قد يكون هذا الموت على هيئة ماء أشرق به ، أو لدغة أفعي أعثر بها ، أو علي أيّ شكلٍ آخَر ، فإذا كانت الميتة واحدة فلتكن برصاصة من اليهود ، أو بقذيفةٍ منهم ، فذلك شرف ما بعده

شرف . وإذا كان الخيار لي فإنني أفضّل أن أموت واقفًا لا راكعًا

وها أنذا مثل أيّ مواطنٍ ، أسير في الشّوارعِ وحدي مُترنّمًا ، واضعًا كَفَيّ في جَيبَي بِنطالي المُهترئ وراكِلاً كلّ شيءٍ بحذائي ، أسمعُ صوتَ طائراتٍ تُحلّق في السّماء ، أتخيّل أنّها جاءتْ من أجلي ، يزداد ترنّمي ، أُغنّي ، أتمايل في مشيتي ، وتتّسع ابتِسامتي ، أهتفُ في سِرّي : «إذا كان الموتُ يريدُ أنْ يُرافقني معه ، فلماذا لا أرافقه مُبتسِمًا؟ أكنتُ سأخسرُ شيئًا لو متّ مبتسمًا؟! كلاّ . أنا أريدُ للموتِ أنْ يأتيني وأنا أضحك!! مَنْ قال لكم إنّي أخشى الموت!! إنّ أخشى ما أخشاه أنْ يأتيني وأنا عابس مُتجّهم ، أو يأتيني وأنا نائمٌ ولا يُمهلني الوقتَ الكافي لأستعدّ له بابتسامة تهزمه!!!

ها أنذا أسمعُ صوتَ الطّائرة يُحلّق على ارتِفاعٍ مُنخفض ، أعرفُ أنّهم لن يبعثوا أحدًا ليغتالني بمسدّسٍ كاتمٍ للصّوت ؛ فهذه طرق المُبتدئين والأنذال . ولنْ يبعثوه على شكلِ سُمٍّ يدسّونه في الطّعام ، فهذه حِيلةُ العاجزين . لكنّني سأقبل به إذا كان على شكل طائرة ؛ لا اغتِيال يوازي عظمةَ ما قُمتُ به إلاّ أنْ يكونَ من السّماء العالِية وبأحدث الطّائرات المُقاتِلة . العظماء يجب أنْ يموتوا بطريقة عظيمة

ها هو صوتُ الطّائرة يقتربُ أكثرَ فأكثر ؛ هل صار الموتُ وشيكًا؟ ها أنذا أفتح ذراعَيّ على اتّساعهما وصدري على يقينه لأستقبله كما يليق . يستطيعون أنْ يسرقوا منّي حياتي ، ولكنّهم لا يستطيعون أنْ يسرقوا ابتِسامتي . أيّها العالي كما كُنتَ دائِمًا : إذا كان لا بُدّ من الموت فليكنْ وأنتَ تضحكُ بأعلى صوت .

لقد تخطّاني الموتُ كثيرًا قبل هذا ، وها أنا حُرٌّ طليق ، أملك إرادتي كاملةً ، لا أدري متى يستأثر بي الموت كما يستأثر بأيّ إنسان .

الّذي أدريه هو أنّ ملاك الموت الجميل سيأتيني في اللّحظة المُناسبة ، ربّما في مشهدٍ أكثر روعةً من مشهد البدايات في الثّاني عشر من آذار قبل أكثر من عشرين عامًا!

انتهتْ .

كتبتْ في الفترة
من ٢٣-٤-٢٠١٧
إلى ٦-٧-٢٠١٧

* ٢١-٣-١٩٦٨ معركة الكرامة وقعتْ حين حاولت قوات الجيش الإسرائيلي احتلال نهر الأردن لأسباب تعتبرها إسرائيل استراتيجية . وقد عبرت النهر فعلاً من عدة محاور مع عمليات تجسير وتحت غطاء جوي كثيف . فتصدى لها الجيش الأردني على طول جبهة القتال من أقصى شمال الأردن إلى جنوب البحر الميت بقوة . وفي قرية الكرامة اشتبك الجيش العربي مع الفدائيين في قتال شرس ضد الجيش الإسرائيلي في عملية استمرت قرابة الخمسين دقيقة . واستمرت بعدها المعركة بين الجيش الأردني والقوات الإسرائيلية أكثر من ١٦ ساعة ، مما اضطر الإسرائيليين إلى الانسحاب الكامل من أرض المعركة تاركين وراءهم ولأول مرة خسائرهم وقتلاهم دون أن يتمكنوا من سحبها معهم .

عمّ أحمد (جمال الدّقامسة) يُصاب بشظيّة في المعركة فتتعطّل يده

* ١٩٦٩ قرية (إبدر) تتعرّض لهجوم إسرائيليّ شديد ، في غارةٍ جويّة ، يُوقع عدداً كبيرًا من الضّحايا . لتتكرّر بعدها مثل هذه الغارات .

* ٥-٢-١٩٧١ وُلِدَ أحمد الدقامسة في عائلة من ثلاثة بنين : (باسم ، وأحمد ، وعبد الله) وستّ بنات : (بسمة ، ابتِسام ، أسماء ، رابعة ، إيمان ، فاطمة) في قريته (إبدر) التّابعة لمحافظة إربد في شمال الأردنّ . أبوه السّيّد (موسى مصطفى الدّقامسة) وأمّه السّيّدة (كاملة الدّقامسة)

* البرنامج النووي العراقي شهد التسلح العراقي تطوراً واسعاً في عهد الرئيس صدام حسين الذي أمر بإنجاز برنامج نووي سري في العراق بعد أشهر من العدوان الإسرائيلي الذي دمر مفاعل تموز في ٧ حزيران ١٩٨١
* مذبحة صبرا وشاتيلا هي مذبحة نفذت في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في ١٦ أيلول ١٩٨٢ واستمرت لمدة ثلاثة أيام على يد المجموعات الانعزالية اللبنانية المتمثلة بحزب الكتائب اللبناني وجيش لبنان الجنوبي والجيش الإسرائيلي. وصل عدد القتلى في المذبحة على وجه التّقريب إلى (٣٥٠٠) قتيل من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ المدنيين العُزّل من السلاح
صدر قرار المذبحة برئاسة (رفائيل إيتان) رئيس أركان الحرب الأسرائيلى و(آريل شارون) وزير الدفاع آنذاك. وكان (مناحيم بيغن) في منصب رئيس الوزراء، و(إسحق شامير) في منصب وزير الخارجية
* ٥-١٠-١٩٨٥ الجُندي المصريّ (سليمان خاطر) يُصيب ويقتل سبعة إسرائيليين تسللوا إلى نقطة حراسته على الحدود المصريّة
* ٢٢-٦-١٩٨٦ انتسبَ إلى القُوّات المُسلّحة الأردنيّة. وأصبح جنديًا في العسكريّة، ولم يتجاوز عمره (١٥) عامًا
* ٢-٨-١٩٩٠ اقتحام الجيش العراقيّ دولة الكويت، وإعلان القيادة العراقيّة أنّ الكويت هي المحافظة التّاسعة عشرة للعراق.
* ١٧ - ١- ١٩٩١ بدء حرب الخليج الثانية، وتسمى كذلك عملية عاصفة الصحراء أو حرب تحرير الكويت (١٧ كانون الثّاني إلى ٢٨ شباط ١٩٩١) هي حرب شنّتها قوات التحالف المكونة من ٣٤

دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق بعد أخذ الإذن من الأمم المتحدة لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي

* ١٠-٥-١٩٩١ تزوّج من أمّ سيف، السّيّدة (فاطمة حوامة)
* ٣٠-١٠-١٩٩١م عَقد مؤتمر مدريد في إسبانيا برعاية الولايات المتّحدة الأمريكي والاتّحاد السّوفييتي واستمرّ إلى ١-١١-١٩٩١م وهو مؤتمر مفاوضات لإحياء عمليّة السلام في الشّرق الأوسط بين إسرائيل والبلاد العربيّة وفي مقدّمتها فلسطين، وتشمل الأردنّ ولبنان وسوريّة
* ٢-٩-١٩٩٢ تعرّض لحادث سير كادَ أنْ يُفارق الحياةَ على إثره، لكنّه نجا
* ٢٨-١٢-١٩٩٢ رُزِقَ بابنه الأوّل (سيف الدّين)
* ١٣-٩-١٩٩٣ توقيع معاهدة السّلام الفلسطينيّة الإسرائيليّة، فيما عُرِف باتّفاقيّة أوسلو
* ٢٦-١٠-١٩٩٤ توقيع معاهدة السّلام الأردنيّة الإسرائيليّة، فيما عُرِف باتّفاقيّة وادي عربة

عمليّة السلام في وادي عربة بين الكيان الغاصب والأردنّ تمّت في وادي عربة عام ١٩٩٤ بمصافحة بين الملك حسين ورئيس وزراء إسرائيل آنذاك إسحق رابين وبحضور الرّئيس الأمريكيّ بيل كلينتون.

* ١٨-١-١٩٩٥ رُزِقَ بابنه الثّاني (نور الدّين).
* ١١-٢-١٩٩٧م رُزِق بابنته الأولى (بتول)
* ١٣-٣-١٩٩٧ يُنفِّذ عمليّته الّتي عُرِفتْ بـ (عمليّة الباقورة) وفيها قتل سبع يهوديّات وجرح ستّةٍ آخرين. وفي اليوم ذاته الملك حسين

يقطع زيارته لإسبانيا ويعود إلى الأردنّ لمتابعة القضيّة
الشهود اليهود أدلَوا بشهاداتهم أثناء المحاكمات.
طالب رئيس وزراء إسرائيل آنذاك نتنياهو بالسّرعة في التّحقيق في الحادث وتقديم المجرمين إلى العدالة ، واتّخاذ الإجراءات اللازمة لمنع تكرار حدوث ذلك .
وزير الدّفاع أسحق مردخاي يُطالب بإشراك محقّقين إسرائيليّين في المشاركة بالتّحقيق مع الجنديّ الدّقامسة
زار الملك حسين عائلات القتلى وقدّم التّعازي
دُفِعتْ تعويضات للعائلات ، قيل إنّها بلغتْ مليون دينار في عام ١٩٩٧م .
القتيلات السّبع يتبعن مدرسة عسكريّة
السّيّد عبد الكريم الكباريتي كان يشغل منصب رئيس الوزراء يومئذ ، واستقال بعد العمليّة
استقبلتْه أمّه وزوجته بالزّغاريد في أوّل مرّة يريْنه في المحكمة ، وهتفتْ أمّه وهي تلوّح بيدها إلى الأعلى بالكلمة الشّهيرة : ارفعْ راسك يَمّه لفوق . . ارفع راسك . واحنا بنرفع راسنا فيك .
حضر المحكمة عددٌ من ذوي القتلى من الرّجال والنّساء ، وكانوا يعتمرون القلنسوة اليهوديّة الدّينيّة على رؤوسهم .

* ١٩-تمّوز-١٩٩٧ صدر الحكم عليه بالمُؤبّد ، حُكمًا غير قابلٍ للاستِئناف . وصادق عليه رئيس هيئة الأركان المُشتركة بتاريخ ٢٤-٧-١٩٩٧م .
* ١-٨-١٩٩٧ اعتقال السّيّدة كاملة الدّقامسة أمّ أحمد ، بتهمة التّحريض على أعمال شغب .

* ٢٥-٨-١٩٩٧ رُحِّلَ من السّجن العسكري في مدينة الزّرقاء إلى سجن سواقة في محافظة الكرك جنوبًا
* ٢٥- ٩ - ١٩٩٧ محاولة جهاز الموساد الإسرائيليّ اغتيال خالد مشعل في عمّان من قِبَل اثنين من عناصر الكوماندوز الصّهاينة يحملان الجنسيّة الكنديّة . قايض الملك حسين تسليمهما إلى السّلطات الإسرائيليّة بالإفراج عن الشّيخ أحمد ياسين الأب الرّوحي لحركة حماس من سجون الاحتِلال ، والدّواء لخالد مشعل .
* ١٢-١٩٩٧ اعتقال عليّ السّنيد بتهم إطالة اللّسان . صار علي السّنيد عضوًا في مجلس النّوّاب الأردنيّ السّابع عشر (٢٠١٣-٢٠١٦)
* ٢٠-٢-١٩٩٨ اعتقال ليث شبيلات ، بتهمة التحريض على أعمال شغب ، رفض العفو عنه من قِبَل الملك حسين في ١٥-٥-١٩٩٨ . أُفرج عنه في ٨-١٠-١٩٩٨ بعد أنْ قضى مُدّة محكوميّته كاملةً
* أوائل عام ١٩٩٨م فضيحة المياه المُلوّثة والّتي ضُخّتْ من طبريّة إلى محطّة زي في الأردنّ . طلب رئيس الوزراء آنذاك عبد السّلام المجالي من وزير المياه منذر حدّادين الاستِقالة ، ففعل . واستقالتْ حكومة المجالي من بعد على إثر ذلك .
* ٧-٢-١٩٩٩ توفّي الملك حسين ، واستصدار عفو عامّ (تبييض السّجون) في آذار ١٩٩٩م يُستثنى منه أحمد الدّقامسة
* ١١-٨-١٩٩٩ وفاة السّيّد موسى مصطفى الدّقامسة والد (أحمد) ، رحمه الله تعالى

* ٢٥-٥-٢٠٠٠ انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان ، تحت تأثير ضربات المقاومة الإسلاميّة ، باستثناء مزارع شبعا
* ٢٨-٩-٢٠٠٠ اندلعت شرارة الانتفاضة الفلسطينية الثانية ، عقب اقتحام أرييل شارون باحات المسجد الأقصى ، تحت حماية نحو ألفين من الجنود والقوات الخاصة ، وبموافقة من رئيس الوزراء في حينه إيهود باراك ، فوقعت مواجهات بين المصلين وقوات الاحتلال . (شارون مات ١١-١-٢٠١٤ بعد غيبوبةٍ دامت ٨ سنوات)
* ٢٧-٨-٢٠٠١ اغتيال (أبو علي مصطفى) الأمين العامّ للجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين بقصف جوّيّ اسرائيلي استهدف مكتبه في مدينة رام الله
* ١١-٩-٢٠٠١ طائرتان تصطدمان ببرجَي التّجارة العالميّين في ولاية منهاتن الأمريكيّة ، وطائرة ثالثة تسقط في مقرّ وزارة الدّفاع الأمريكيّة (البنتاغون) ، وطائرة رابعة تسقط في ولاية بنسلفانيا ، فيما عرف بأحداث سبتمبر (باركت القاعدة العمليّة على لسان زعيمها أسامة بن لادن)
* ٢٠-٣-٢٠٠٣ خطاب صدّام حسين في يوم سقوط بغداد بعد الغزو الأمريكيّ للعراق . (أُعدِمَ صدّام شنقًا صبيحة عيد الأضحى في ٣٠-١٢-٢٠٠٦م)
* ٢٠٠٨ سبعون شخصيّة اعتباريّة تناشد الملك عبد الله الثّاني بالإفراج عن الجنديّ أحمد الدّقامسة
* ١٥-١١-٢٠٠٨ ينتقل السّجين أحمد الدّقامسة من سجن سواقة في جنوب الأردنّ إلى سجن قفقفا في الشّمال .

* ٩-٥-٢٠٠٩ نقل السجين أحمد الدقامسة من سجن قفقفا إلى سجن أم اللولو .
* ٣١-٧-٢٠١٠ الدّقامسة يُنقَل إلى سجن (المُوقّر) .
* ٢٠١٠ أصيبَ الدّقامسة بجلطة قلبيّة بعد إضراب عن الطّعام للمطالبة بحقّ توفير علاجه ، وبالسّماح لأهله ولمناصريه بزيارته ، ونُقِل إلى المستشفى
* شباط - ٢٠١١ وزير العدل الأسبق (حسين مجلّي) يصف الدّقامسة بانّه بطل ويُشارك مع المعتصمين أمام وزارته للمطالبة بالإفراج عنه (مجلّي توفّي في أكتوبر ٢٠١٤)
* آذار - ٢٠١١ مظاهرات شعبيّة تجتاح أكثر من بلدٍ عربيّ فيما سُمّي إعلاميًا بـ (الرّبيع العربيّ)
* نيسان ٢٠١٣ استقبل السّفير الأردني في مكتبه في تلّ أبيت عائلات القتلى ، وطمأن أهلهم بأنّه لن يُفرَج عن الدّقامسة ، وتبادل الأنخاب مع رئيس وزراء (أو رئيس الكيان الغاصب) شمعون بيريز . (حصل بيريز على جائزة نوبل للسّلام عام ١٩٩٤ ومات في ٢٨-٩-٢٠١٦)
* ١٨-١٢-٢٠١٣ اعتصام أمام مجلس النّواب والمطالبة بالإفراج عن الدّقامسة
* ١٠-٣-٢٠١٤ قتل الكيان الغاصب القاضي الأردنيّ رائد زعيتر ، حيثُ استُشهِد عند معبر جسر الملك حسين الواصل بين الأردنّ وفلسطين

وأحمد الدّقامسة يوجّه رسالة من سجنه تعزيةً باستشهاد القاضي الزّعيتر .

* ١٢-٣-٢٠١٤ على إثر استشهاد زعيتر (١١٠) نوّاب من مجموع (١٥٠) نائِبًا هم أعضاء مجلس النّوّاب يُطالِبون الملك عبد الله الثّاني بالإفراج عن الدّقامسة ، وإلغاء اتّفاقيّة وادي عربة مع الكيان الغاصب .
* ١٨-٣-٢٠١٤ اعتصام آخر أمام مجلس النّواب ، والاعتِصام يُفضّ من قوّات الدّرك .
* ٢٩-٧-٢٠١٤ إدارة سجن أم اللّولو تمنع وفدًا من الحركة الإسلاميّة من زيارة الدّقامسة صبيحة عيد الفطر ، عقابًا له على الإضراب عن الطّعام لمدّة تزيد عن شهر
* ٢٤-١٢-٢٠١٤ الطّيّار الأردنيّ الملازم أوّل معاذ الكساسبة يقع أسيرًا في أيدي تنظيم (داعش) بعد أنْ أُسقطتْ طائرته الـ F16 . وفي ٣-١-٢٠١٥ التّنظيم يقوم بقتله حَرقًا ، رحمه الله
* ١٦-٩-٢٠١٦ ارتقاء الشّهيد سعيد العمرو من مدينة الكرك في جنوب الأردنّ بعد مقتله برصاص مُجنّدة إسرائيليّة على باب العمود في القدس .
* ١٧-١٠-٢٠١٦ النّاطق باسم الحكومة الأردنيّة (محمّد المومني) يُعلِن في مؤتمرٍ صحفيّ أنّ الإفراج عن الدّقامسة سيكون في موعده بعد أنْ يكون قد قضى مدّة محكوميّته (٢٠ عامًا) كاملةً
* ١١-٣-٢٠١٧ يُنقَل إلى سجن باب الهوى تمهيدًا للإفراج عنه ، ويطلب بدلة رسميّة ليخرج بها
* ١٢-٣-٢٠١٧ صباحًا يتمّ الإفراج عنه

يا صانعَ المَجْدِ

أيمن العتوم

الإهداء:

إلى البطل الجنديّ أحمد الدّقامسة ، بطل عمليّة الباقورة في ١٩٩٧/٣/١٢
نكتبُ عنه لأنّه جُزءٌ مِن تاريخنا الوطنيّ المُشرّف ..

كَمْ عَذّبَ القَلْبَ في الذّكرَى جِراحَاتُ
فَدَعْ فُؤادي على ذِكْراكَ يَقْتَاتُ
وَقَفْتُ دُونَكَ مِنْ جِيلَينِ خاشِعَةً
رُوحِي ، وَيَغْمُرُني صَمْتٌ وَإخباتُ
لَعلّني لمْ أَجِدْ حَرفًا فَيُسعِفَني
فَاعْذُرْ إذا اخْتَنَقَتْ في الصّدرِ آبياتُ
خَرجْتُ نَحوكَ مِنْ حُزني ، فَأوْرِدَتي
مَذبُوحَةٌ ، وَأنا في الرّيحِ أشْتاتُ
لَوْ وُزّعَ الحُزْنُ في قَلبي على وَطَني
لَضَجّتِ الأرضُ منهُ وَالسّماواتُ
يا صانعَ المَجْدِ لولا المَجْدُ ما حَلمَتْ
بِكَ اللّيالي ولا حِيكَتْ حِكاياتُ
في طُهرِ قَريتِكَ الشّمّاءِ قَدْ نَبتَتْ
هَذي الغِراسُ الكَريماتُ الأَبِيّاتُ

فَــقُلْ : مَنْ تُرَى عَلَّمَ الإذلالَ أُمَّـــتَنا
وَسَـــامَـــهـــا فَكأَنَّ النَّاسَ أمْـــواتُ
إنّي رَأَيتُ حِـــمى الأُرْدُنّ قَـــدْ هُتِكَتْ
سُـتُـورُهُ ، وَعَلَتْ فِـيـهِ (النَّعـامـاتُ)
كَمْ مِنْ نَعِيقٍ على أَشْجـارِهِ حُـسِبَتْ
شَـدْوًا ، وَكَمْ في هَواهُ الـيَـوْمَ أَصْـواتُ
(كُلٌّ يُغَنّي على لَيـلاهُ مُـدَّعِـيًـا
وَصْـلاً بِلَيْلَى ، ولَيلى لا عَـلاقـاتُ)
أَحْـرارُهُ لَمْ يَكونوا مَـرَّ أَعْـصُرِهِ
عَـبِـيدَ قَـوْم بِهِمْ تَلْهُـو الـسِّـيـاسـاتُ
أَحْـرَارُهُ مِنْ ظُهُـورِ العِـزِّ قَـدْ نُتِجُـوا
بِمِـثْلِهِمْ خَـفَـقَتْ فِي السُّحْبِ راياتُ
يا صَـادِقَ الحُلْمِ والأَحْـلامُ كـاذِبَةٌ
وَثـابِتَ الـرَّأْيِ والآراءُ نَـزْعـــاتُ
قُلْ لـي بِـرَبِّكَ مَنْ يَبْكـي عَلَى وَطَنٍ
يُبـاعُ جَـهْـرًا بِمـا يُدْعَى لِقـاءَاتُ
قَـالُوا (الـسَّلامُ) خَـيـارٌ لا بَديلَ لَهُ
مِنْ بَعْـدِهِ سـوفَ تَنهـالُ الكَرامـاتُ
وَأَنَّنا قَـدْ مَلَلْنَا الحَـرْبَ مُـضْـرَمَـةً
وآنَ أَنْ تَنتَـهِي تِلكَ العَـداواتُ
سِلْمٌ لِمَنْ ؟ وَمَنِ العـادِي؟ وَقَـدْ وَضَـحَتْ
أَنَّ الحُـروبَ مَعَ الأَعْـداءِ (مَـزْحَـاتُ)

فَكِذْبَةُ الحَــرْبِ مــا زالتْ يُصَــدِّقُــهـــا
شَــعْبٌ تُؤَثِّرُ فــيــه (المَــسْـرَحِـيَّــاتُ)

مِنْ نِصْفِ قَــرْنٍ حَــمـــامـــاتٌ نُدَلِّلُهـــا
حَتَّى تَبِيْضَ وَمَـا بَاضَتْ (حَـمـامـاتُ)

وَأَلْفُ غُـــصْنٍ مِنَ الزَّيْتُـــونِ نَزْرَعُـــهُ
فَلَمْ (يُزَيِّتْ) وَلاسْـــرَائِيلَ (زيتـــاتُ)

وَأَرْضُنا أَلْفُ غَـــازٍ سَـــوْفَ يَحْـصُــدُها
وَسَــوْفَ يُطْعِـمُنا إِنْ ظَلَّ (قَـمْـحـاتُ)

لَـنا زَوَانٌ إِذا أُرْضُـــوا وَإِنْ غَـــضِـبُـــوا
تُصَبُّ فَـــوْقَ رُؤُوسِ الشَّـــعْبِ لَعْناتُ

قَـالوا السَّـلامُ لِخَيْـرات الشُّـعُوبِ غَـدًا
وَأَصْـبَـحُـوا فَـإِذا الخَـيْـراتُ خَـيْـبَـاتُ

يا شُـعْلَةَ الحُـزْنِ في الأَعْـمـاقِ يا وَطَنِي
يا مَنْ لِوَحْـــدَتِهِ تَسْـعى الخِـــلافـــاتُ

أَوطانُـنا كُلَّمــــــا مَـــــرَّتْ على وَجَعٍ
منهـا حُـروفِي بَكَتْ فِـيـهـا العِـبـاراتُ

أَوطانُنا نَـهْـبُ صُنَّاعِ السَّـــــلامِ وَكَـمْ
تُـقـــــــامُ مِـنْ أَجْـلِـهِ تـلـكَ المَزاداتُ

هَذا يَصِـــيحُ ، وَذَا يَخْـــتَـجُّ فِي نَزَقٍ
وَالسُّـوقُ تَكْسُــدُ ، وَالبَــيْــعـاتُ هَبَّـاتُ

يا مَنْ تُرَى يَشْـتَـرِي مُـسْـتَـعْـمَـلاً وَطَنِي!
فَــإِنَّنِي ضِـــقْتُ ذَرْعًـــا يا زَعَـــامَـــاتُ

كَـأْسِي تَجِفُّ وَكَـأْسُ الآخـرينَ نَدًى
وَلَيْسَ تَصْـفُـو بِغَـيْـرِ الخَـمْـرِ لَيـلاتُ

أَبِيْـعُـهُ بِقُـرُوش قَـالَ أَمْـثَلُهُمْ
فَـرَدَّ أَثْمَلُهُمْ تَكْفِـيْكَ فلْسَـاتُ

يا صَـانِعَ المَجْـدِ في الأُرْدُنِّ مُنفَـرِدًا
وَقَـدْ تَنُوءُ بِمَـا قُـمْتَ الجَمَـاعَـاتُ

إِنَّ اليَـهُـودَ خَنَازِيْرٌ مُـؤَصَّلَةٌ
طِبَـاعُـهُمْ وَاليَـهُـودِيَّاتُ حَـيَّـاتُ

فَـمَـا عَليكَ إِذَا قَـتَّلْتَـهُمْ بِدَدًا
وَمَـزَّقَـتْـهُمْ منَ الرَّشَّـاشِ (صَلْيـاتُ) ؟!

تَـأْبَى البُطولَةُ إِلاَّ أَنْ تُعَلِّمَـهَا
وَهَلْ تُعَلِّمُ كَـالنَّاسِ البُطولاتُ ؟

يا عِـزَّنا ... يا وِسَـامًا فَـوْقَ جَـبْـهَـتِنا
يا مَنْ بِهِ رُفِـعَتْ لِلنَّجْمِ جَـبْـهَـاتُ

ويا شِـعَـارًا تَغَنَّيْنَا بِهِ زَمَنًا
في عَـالَمٍ زُيِّفَتْ فِـيـهِ الشِّـعَـاراتُ

لنا بِمِـثْلِكَ في التَّـاريخِ مَـفْـخَـرَةٌ
وَسَوْفَ تَزْهُو بِهـذا الفَـخْـرِ صَـفْـحَـاتُ

يا وَجْـهَكَ السَّـمْحَ وَالأَحـزانُ تَغْـجِنُهُ
وفِـيـهِ مِنْ صَلَواتِ الفَـجْـرِ آياتُ

سِـجْنانِ سِـجْنُكَ : داءُ السُّكَّرِي ، وَيَدٌ
فِي القَـيْـدِ تَدْمَى وأحْـزانٌ ثَقِـيـلاتُ

فَـهـاتِ حُـزْنَكَ وَاسْـتَـخْلِصْـه لِي فَـأَنا
بِلادُ حُـزْنٍ وَلِي فـيـهـا مَـقـامـاتُ
كُلُّ الطُّـيُـورِ إِذا كـانَتْ مُـهـاجِـرَةً
تَؤُوبُ يومًـا وَأَطيـارِي غَـرِيـبـاتُ
أَنُـثُّ فـي وَطَـنٍ يَـدْعُـونَـهُ وَطَـنِـي
لَوْ كـانَ لِي وَطَنًا ، مـا كـان إِعْناتُ
ولا قَـضَـيْـتُ حـيـاتِي فِـيـهِ مُـغْـتَـرِبًا
وَلا سَـجِـيـنًا ولا عَـيْـشِي احْـتِـمالاتُ
لا لَـسْـتَ وَحْـدَكَ فِي سِـجْنٍ ، فَـأَكْـثَـرُنا
حُـرِّيَّةً مَنْ تَـشِي عَنْـهُ المَلَفَّـاتُ
سِـجْنٌ ، وَقَـيْـدٌ ، وَتَحْـقِـيقٌ بِلا تُهَـمٍ
وَمَـحْـكَمَـاتٌ ، وَقَـمْـعٌ ، واغْـتِـيالاتُ
حُـرِّيَّةُ الرَّأْيِ وَالتَّـعْـبِـيـرِ أَقْنِعَـةٌ
وَالأَمْنُ ثَوْبٌ تُوَشِّـيـهِ الدِّعـاياتُ

***

كَمْ مِنْ رِجـالٍ مَـدى التّـارِيخِ قَـدْ ظُلِمُـوا
وَاللّـهُ يُنْصِـفُـهُـمْ : خُـلْدٌ وَجَنّـاتُ
سَـيَـذْكُـرونَ غَـدًا بِالفَـخْـرِ قِـصَّـتَـهُ
وَيَسْـأَلُونَ : أَحَـقًّـا مِـثْلُهُ مَـاتُوا ؟!
غَـدًا تَجِيءُ مِنَ الأَجْـيـالِ مَنْ حَلمَتْ
بِأَنْ تَراهُ وَشَـاقَـتْـهـا النِّضـالاتُ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّهـا فِي بُنْدُقِـيَّـتِـهِ
مَـقَـابِضٌ ، أَو زِنادٌ ، أَو رَصـاصـاتُ

لِلّيلِ فَـــجْـــرٌ ، ولِلأَحْـــزانِ آخِـــرَةٌ
مَـــهْـــمَـــا تَطُولُ ولِلطَّاغِينَ مِـــيـــقَـــاتُ

كُتِبت في

في ٧-٣-٠٠

المَلاحِق

هذا المقال يصلح
للبلد والعرب اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم

(أوهام السلام العربي اليهودي)

" أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون " .

واهمٌ من ظن أنه سيكون هناك سلام مع العدو الصهيوني .

فإذا ما استعرضنا تاريخ اليهود في نقض العهود فإنه حافل منذ القدم ، فهاهم بنو النضير ينقضون عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاولوا قتله وهاهم بنو قريظة أيضاً ينقضوا عهدهم مع رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام وذلك أثناء حصار الأحزاب للمدينة المنورة في غزوة الخندق .

وفي هذه الأيام يُروَّج للسلام مع اليهود هؤلاء المرجفون هذا السلام الذي هو في حقيقته ليس إلا استسلام هؤلاء يجهلون أو يتجاهلون تاريخ اليهود ونقضهم للعهود ويريد هؤلاء المرجفون المتصهينون أن يفرضوا على شعوبهم هذا الاستسلام وذلك لمصالحهم الشخصية لكي يبقوا في مناصبهم ولكي يتسلطوا على شعوبهم لأنهم ولأنهم في الحقيقة عملاء لليهود ، وُضعوا في هذه المناصب خدمة لأسيادهم اليهود ، فهم الآن يردون الجميل لمن وضعهم في هذه المناصب لذا فاشتغلوا بفرض هذا الاستسلام على شعوبهم فهم يريدون فرضه من خلال القمع والاعتقال والتصفية والقتل وغيرها من الأنفس على مناصب زائلة ، هؤلاء الذين يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة ، فأصبحوا حكومة لدى مرضى الأنفس وعند من يريد منصباً ، فليخرسوا عن السلام مع اليهود !!!

وأتساءل هنا : كيف سيكون سلاماً مع من ينظر إلينا نظرة دونية ويعتبرنا عبيداً وخدماً لهم لأنهم يعتبرون أنفسهم أسياداً لنا (شعب الله المختار) كيف سيكون هناك سلام مع إخوة القردة والخنازير ، فهم [illegible] بشرية لا [illegible] ولا [illegible] العالم للخلاص من شرورهم وفسادهم فهم [illegible] إلا [illegible] .

أما هؤلاء الذين يروجون لهذا السلام المزعوم فما هم إلا خونة ، خانوا شعوبهم وتآمروا على الخلافة الإسلامية من قبل وتآمروا على الدول والأنظمة التي قالت لا للسلام والاستسلام مع اليهود ، وخير مثال نظام العراق السابق نظام صدام حسين حيث تآمر عليه اليهود والأمريكان ، والآن تتآمر عليهم وعلى [illegible] الاستسلام وكانت [illegible] في قتل [illegible] [illegible] ... وأخيراً أسره !!

فأما الذين خانوا دينهم وأوطانهم وأنفسهم من أجل إرضاء أسيادهم اليهود والأمريكان فما جزاؤهم إلا [illegible] حكاماً على بلدانهم لحماية اليهود ومصلحة لهم فهؤلاء باعوا دينهم بدنياهم ، فهم في الحقيقة عبيداً وخدماً لليهود والغرب ، فهم الذين تآمروا على العراق وعلى شعب العراق وقيادته ، إنهم يا إخوتي الأمريكيون أداة بطش وقمع

هذا مقال يصلح للسبيل
والعربي المصور

بسم الله الرحمن الرحيم

(الإسلام ومكافحة الجريمة)

"أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون"

إن الإسلام كافح الجريمة من خلال الكتاب والسنة والاجتهاد (اجتهاد الفقهاء
(فقهاء الإسلام وليس فقهاء القانون الوضعي) وعالج الأمر العلاج الوقائي.
ولو نظرنا بتمعن إلى الأحكام الشرعية الإسلامية وأحكام القوانين الوضعية لوجدنا
أن هنالك فرق شاسع، ولوجدنا أنه لا يوجد مقارنة. إذ أن الأحكام الشرعية الإسلامية
تمنع وقوع الجريمة من خلال العقوبة الرادعة، وبالمقابل فإن القوانين الوضعية تشجع على
ارتكاب الجرائم.

فقد سن الإسلام عقوبات رادعة قد تبدو قاسية لمن يأخذها أخذاً سطحياً
بلا تفكير، ولكن هذه العقوبات عادلة إذا ما فكرنا أو لم نتمكن من التأمل. فلقد وضع
حداً للجريمة قبل وقوعها، فمثلاً: إقامة حد السارق أن تقطع يده، وكذلك على الزاني
غير المحصن البكر مائة جلدة، والزاني المحصن الرجم حتى الموت! ووضع حداً لشارب
الخمر ثمانين جلدة. وإذا ما فكر شخص مثلاً بالسرقة وتذكر أن الحد سيقام عليه
(قطع يده) فإنه سيرتدع عن السرقة، وكذلك الزاني وشارب الخمر.

أما إذا اضطر الإنسان لكي يسد رمقه من أجل سد جوعه فإن الإسلام عفا عن العقوبة
فقد عرف بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم ينفذ حد السرقة في عام الرمادة (عام الجوع).
حيث كانت الشبهة قائمة في اضطرار الناس للسرقة بسبب الجوع!!

وقصة غلمان حاطب بن أبي بلتعة معروفة.. إذ أن غلماناً لابن حاطب سرقوا
ناقة لرجل من مزينة، فاشتكى الرجل فطلب عمر الغلمان فأتوه وأقروا بأنهم سرقوا
الناقة، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم، فلما ولى رده ثم قال: أما والله لولا
أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له
لقطعت أيديهم، ثم وجه القول لابن حاطب فقال: وأيم الله إذ لم أفعل ذلك
لأغرمنك غرامة توجعك، ثم قال: يا مزني (صاحب الناقة) بكم أريدت منك ناقتك؟
قال: بأربعمائة، فقال عمر لابن حاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة.

عطوفة مدير الأمن العام المحترم

هذا نداء مواطن غيور على مصلحة وسمعة الوطن

للمواطن أبداً وبغض النظر كنت سجيناً أم طليقاً فإنني

أولاً وأخيراً مواطن في هذا الوطن وبغض النظر عن القضية التي أقضي بسببها
هذه العقوبة وصحيح أن الحكم الذي أقضيه قاسٍ جداً إلا أنني لست نادماً
على ما فعلت لأنني أعتقد أنني فعلت الصواب وخدمت أمتي أولاً ووطني
ثانياً بتخلي عنها عن النزعات البشرية .

عطوفة الباشا هذا ليس الموضوع الذي أود شرحه في هذه الرسالة فالموضوع
الذي أريد لك الاطلاع عليه هو التجاوزات التي تحصل في ما يسمى بمركز الإصلاح
والتأهيل ... ؟! وخاصة مركز إصلاح سواقة

لمست ومن خلال تواجدي في هذا المركز لأكثر من سبعة سنوات أن هنالك
منهم من المفروض أنهم يحافظون على الأمن والنظام أي ضباط وأفراد الأمن العام
الذين يعملون في هذه المراكز وفي سواقة خاصة فإن هؤلاء الضباط والأفراد
العاملين بها يسيئون لسمعة هذا الوطن وذلك بسبب طمعهم وإرضاء شهواتهم
وبشتى الوسائل وبطرق رخيصة وعذراً على هذا التكلم ولكن غيرتي على سمعة
[illegible] وطني تدعوني لهذا القول ولكي أوضح لكم ما يجري في هذه المراكز لكي تتخذوا
ما ترونه مناسباً لكي نعيش بأمن وسلام داخل السجون وخارجها .

عطوفة الباشا ...

إن ما في ما يسمى بمراكز الإصلاح تعاني من عدة أمور أولاً وهي :
استعمال الحبوب المخدرة بكافة أنواعها وأحياناً أنواع من المخدرات مثل الهيروين والحشيش
والماريوانا وغيرها من هذه السموم إذ يتم إدخال هذه السموم من قبل معظم ضباط وأفراد
قوات الأمن الذين يعملون في هذه المراكز وأعني ما أقول أن معظم قوات الأمن وليس قلة ،
لأنهم يأتون بها من خارج المركز وإعطاءها لبعض السجناء الذين يوجد لهم علاقات
مشبوهة مع هؤلاء الضباط والأفراد وبأضعاف سعرها في الخارج أي في الصيدليات
إذ يتجاوز سعر حبة من هذه الحبوب الثلاث دنانير علماً أن سعرها في الصيدليات
[illegible] الذين يتعاطونها كعلاج نفسي أقل من عشرة قروش فيجمعون هؤلاء الضباط
والأفراد من هذه التجارة أي تجارة الحبوب المخدرة والمواد الأخرى تدر أرباحاً خيالية
وسريعة وكذلك تدر لشركائهم من السجناء مثل هذه الأرباح ... علماً بأن [illegible]
[illegible] من المشاكل والمشاجرات التي تحصل في هذا المركز بسبب هذه الحبوب وبسبب
تعاطيها بعد فقدان العقل ....



1427 - ١٤٢٧

«العمل الإسلامي» يطالب المجتمع الدولي بتحمل مسؤولياته تجاه الأسرى في سجون الاحتلال

١٨/٦/٢٠١٢

□ عمان - الدستور

أدان حزب جبهة العمل الإسلامي الاعتداءات على مقار الحركة الإسلامية والمؤسسات ذات النفع العام، والمسيرات السلمية التي شهدتها مدينة اربد والمفرق مؤخراً، وطالب الحزب بتحقيق نزيه والكشف عن الجهة خلف الترهيب الأردني في الأمن العام المرحوم ابراهيم محمد الجراح، والكشف عن ملابسات الحادث.

كما أدان المجتمعون التصريحات التي أدلى بها السفير الأردني في تل أبيب والتي سعى من خلالها إلى تطمين الصهاينة على عدم الإفراج عن الجندي الأردني البطل أحمد الدقامسة، وأكد الحزب على موقفه الداعي إلى الافراج الفوري عن الجندي أحمد الدقامسة، وعدم تجاهل مطالب الشعب بهذا الشأن. كما طالب أعضاء مجلس النواب الذين وقعوا على عريضة بالإفراج عنه بمتابعة عريضتهم.

واعتبر مجلس الحزب الرئيس بتمكين الشعب من أن يكون مصدر السلطات لينتخب سلطتيه التشريعية والتنفيذية، ويحاسب الفساد، ويستعيد الحقوق المسلوبة هو بداية الطريق للسير في الاتجاه الصحيح.

وحيا «العمل الإسلامي» الحركة الأسيرة في فلسطين، كما حيا الشعب الفلسطيني وجماهير الأمة العربية في إحيائها لذكرى يوم الأسير.

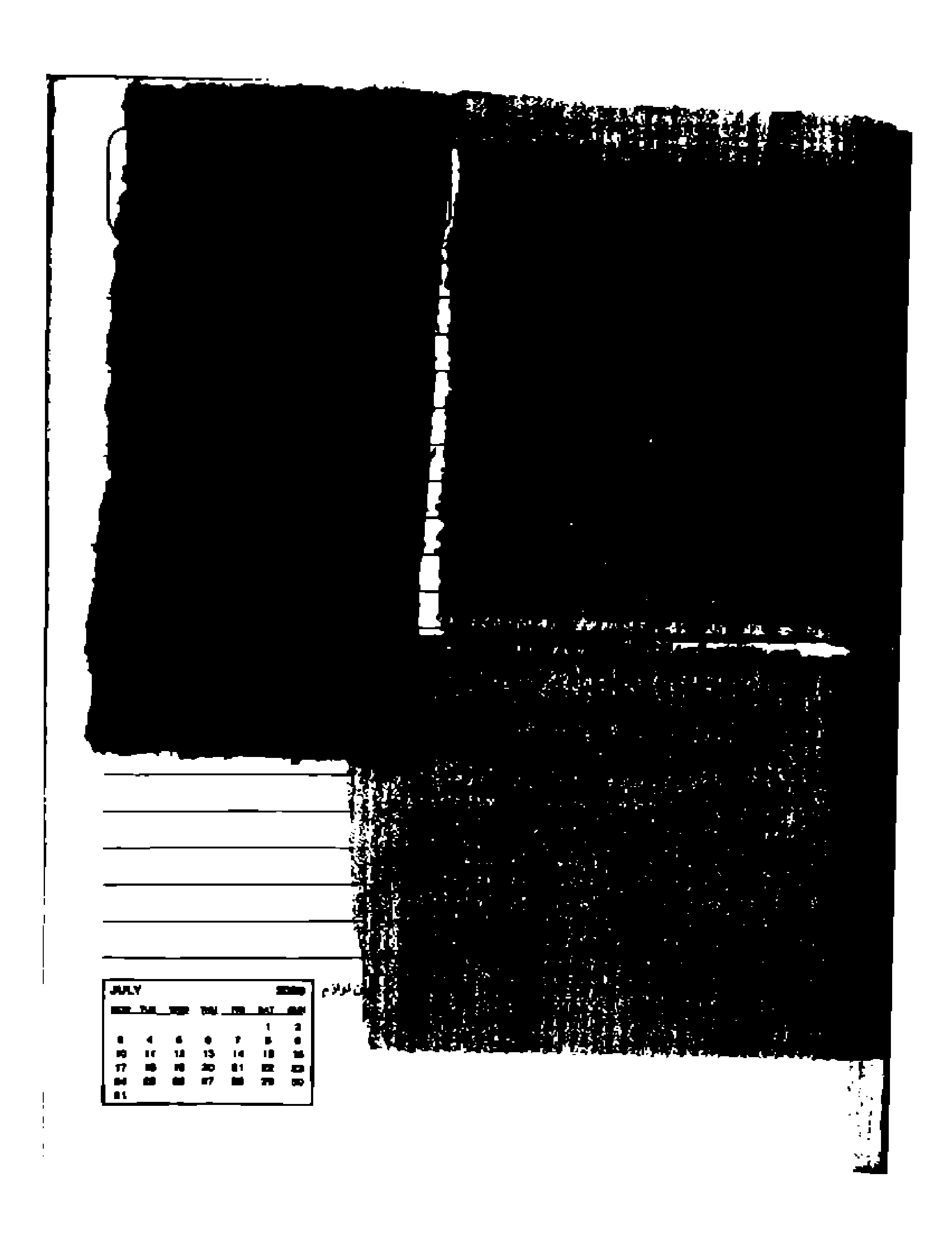
وطالب المجتمع الدولي الاضطلاع بمسؤولياته إزاء الأسرى الفلسطينيين والأردنيين والعرب، الذين يتعرضون لأبشع أشكال المعاملة على يد الصهاينة ما أدى لاستشهاد أعداد كبيرة من الأسرى جراء التعذيب النفسي والجسدي والإهمال الطبي.

وأكد أن أقصر الطرق لتحرير الأسرى، واستعادة الحقوق، هو «التقاء الإرادة الوطنية الفلسطينية على المقاومة المسلحة مدعومة من جماهير الأمة العربية والإسلامية لحمل العدو الصهيوني على النزول على مطالب الشعب الفلسطيني».

«المهندسين» تطالب بإطلاق سراح الدقامسة

□ عمان - الدستور ٢٨/٣/٢٠١٢م

زار وفد من نقابة المهندسين برئاسة نقيب المهندسين المهندس عبدالله عبيدات أسرة الجندي أحمد الدقامسة بالتزامن مع الذكرى السادسة عشرة لاعتقاله، وعبر الوفد عن تضامنه مع أسرة الجندي البطل وأكد ضرورة العمل من أجل إطلاق حرية الدقامسة لأن ما قام به في الباقورة كان عملاً بطولياً نابعاً من حبه لوطنه وشرفه ونظراً لبسالة الشهداء، وطالب عبيدات بـ«إطلاق الحكم الطليق ووالده وزوجته وأبنائه»، المجلس كالقضية بإطلاق سراح الجندي الدقامسة رداً على الممارسات الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني والأقصى والمسجد الأقصى الذي يتعرض لحملة صهيونية شرسة من أجل تهويده، ولقد أثر في مشروعات الجرائم التي ارتكبها العدو الصهيوني وكذلك مجزرة الأطفال الأبرياء دون أن يجرم صهيوني واحد على الفلسطينيين العرب. عبيدات من أجله بأن يعود الدقامسة إلى أسرته، منصور... موكلاً ... يحمل هذا اليوم.


JULY

2006 - 7 - 6

النقابات المهنية تستنكر تصريحات السفير الاردني بإسرائيل حول الدقامسة

١٨/٤/٢٠١٢

□ عمان - الدستور

استنكرت النقابات المهنية تصريحات سفير المملكة في اسرائيل وليد عبيدات حول الجندي أحمد الدقامسة لدى استقباله عددا من الطالبات والمعلمات من الكيان الصهيوني اللاتي تظاهرن للاحتجاج على عريضة تقدم بها ١١٠ نواب تطالب بإطلاق سراح الدقامسة الذي أمضى ١٦ عاما في السجن.

وكان السفير عبيدات قال في تصريحاته إنه توجد قوانين في المملكة، وان الجندي الاردني أحمد الدقامسة المحكوم بالسجن المؤبد سيقضي محكوميته الى نهايتها، وانه «لن يتم إطلاق سراح القاتل»، وفقا لبيان صادر عن رئيس مجلس النقباء نقيب المهندسين الزراعيين م. محمود ابوغنيمة.

وطالبت النقابات الحكومة بالاعتذار عن تلك التصريحات التي اعتبرت انها استفزت الشعب الاردني الذي ينظر بإكبار الى البطل احمد الدقامسة الذي رفض ان يكون دينه وعقيدته موضع سخرية من أحد، كما طالبتها كذلك بالافراج الفوري عنه.

واعتبر رئيس مجلس النقباء ان النقابات المهنية تعتبر هذه التصريحات «كمن صمت دهرا ونطق كفرا»، وقال «لو ان السيد العبيدات بقي صامتا لكان افضل، او لو انه تحدث عن معاناة اسرانا في سجون الكيان الصهيوني او زارهم ليسمع منهم او تواصل مع اهاليهم، الذين لم يقم السفير ووزارة الخارجية الاردنية ومنذ سنوات بترتيب زيارات لهم لأبنائهم المعتقلين».

واكد ابو غنيمة اعتزاز النقابات المهنية بعشيرة العبيدات وثقته بأن تصريحات السفير لا تمثلها، معتبرا ان هذه العشيرة هي جزء من العشائر الأردنية المنتمية لأمتها ووطنها وهي التي قدمت تضحيات على ثرى فلسطين.

وقال «يكفينا ويكفيهم شرفا وفخارا أن أول شهيد أردني روى بدمائه الزكية أرض فلسطين في طبريا عام ١٩٢٠ كان الشهيد كايد المفلح العبيدات».

JULY						2006
MON	TUE	WED	THU	FRI	SAT	SUN
					1	2
3	4	5	6	7	8	9
10	11	12	13	14	15	16
17	18	19	20	21	22	23
24	25	26	27	28	29	30
31						

قسطرة قلبية ناجحة للدقامسة

٢٠/٢/٢٠١٢

□ عمان - الدستور

قال المركز الإعلامي في مديرية الأمن العام انه تم امس نقل النزيل أحمد الدقامسة من مركز اصلاح وتأهيل أم اللولو إلى مستشفى الملك طلال العسكري بعد عارض صحي ألم به إثر إضرابه عن الطعام والعلاج حيث تلقى الإسعافات الأولية والفحوصات اللازمة.

وأضاف المركز الإعلامي انه وبالتنسيق مع وزارة الداخلية ووزارة الصحة جرى تحويل النزيل الدقامسة إلى مستشفى البشير لاستكمال علاجه حيث أنهى إضرابه عن الطعام والعلاج [illegible] ونقل بعد ذلك إلى مستشفى الأمير حمزة لينال أكبر قدر من الاهتمام والعناية الطبية اللازمة. وذكر الناطق الإعلامي في مستشفى الأمير حمزة الحكومي محمد ابو جلود أن الحالة الصحية للنزيل أحمد الدقامسة حسنة، وأنه تم إجراء عملية قسطرة قلبية وكانت النتيجة والفحوصات حسنة، وما يزال النزيل يرقد على سرير الشفاء في المستشفى المذكور.

وفد من «حريات المهندسين» يزور السجين الدقامسة

□ عمان - الدستور

زار وفد من لجنة الحريات في نقابة المهندسين أمس الاربعاء الجندي أحمد الدقامسة في مركز إصلاح وتأهيل سواقة للاطمئنان على صحته وأوضاعه.

وقال عضو مجلس نقابة المهندسين / رئيس شعبة هندسة المناجم والتعدين والهندسة الجيولوجية والبترول المهندس سمير الشيخ الذي ترأس الوفد أن الزيارة تمت بناء على موافقة خاصة من مدير مركز إصلاح وتأهيل سواقة وكانت سهلة وميسرة.

ويمضي الدقامسة حكماً بالسجن المؤبد على إثر قيامه في عام ١٩٩٧ بقتل وجرح عدد من الاسرائيليين في منطقة الباقورة شمال الأردن.

٢٩/١٠/٢٠٠٩ م

Naser Ingressarest@...com

الداخر ٥/٥/٢٠١٢ م

وفد من «المهندسين» يزور الدقامسة ويطالب باطلاق سراحه

□ عمان - الدستور

زار وفد من نقابة المهندسين برئاسة نقيب المهندسين م. عبدالله عبيدات الجندي احمد الدقامسة في سجن ام اللولو في المفرق.

وطالب عبيدات باطلاق سراح الجندي الدقامسة رداً على الممارسات الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني والقدس والمسجد الأقصى الذي يتعرض لحملة صهيونية شرسة من اجل تهويده.

وأشار إلى أن الاحتلال الصهيوني ارتكب عشرات الجرائم وقتل مئات الأطفال الأبرياء دون أن يجرم صهيونياً واحداً.

وأعرب م. عبيدات عن أمله بأن يعود الدقامسة إلى أسرته عما قريب، مؤكداً إيمانه العميق بحلول هذا اليوم.

من جانبه أشاد الدقامسة بمواقف نقابة المهندسين الوطنية ومطالبتها المتكررة بالإفراج عنه وبالزيارات المتكررة التي تقوم بها لعائلته الكبيرة. أسرته.

الشرود حسب الأصول.

وجرح مستوطنة صحيحة بكفر سبعة في منطقة الباقورة.

وقال النائب علي الضلاعين ان الحكومة تضرب بمطالب النواب عرض الحائط مطالبا باعادة النظر بوادي عربة ومذكرة الافراج عن الجندي احمد الدقامسة وكذلك مذكرة طرد السفير الاسرائيلي في عمان.

وقال النائب بسام المناصير ان رئيس الوزراء اصدر تعميما على النواب بعدم الاتصال بالسفارات بحجة احترام الاعراف الدبلوماسية. مشيرا الى ان الامر يتعلق بهيبة المجلس وكرامته.

٢٤/٦/٢٠١٢ م

ورد رئيس المجلس سعد السرور انه لم يطلع على الكتاب الذي صدر عن رئيس الوزراء.

متضامنون بمهرجان خطابي في إربد يطالبون بالإفراج عن الدقامسة

□ بني كنانة - الدستور - [illegible] عبيدات

أجمع المتحدثون في المهرجان الخطابي الذي نظمته الفعاليات الشعبية قطاع من المجتمع المحلي لبلدة الهاشمية في لواء بني كنانة بجميع الفعاليات الشعبية بعنوان "أحمد الدقامسة عنوان الحرية والنضال الوطني" على ضرورة الإفراج عن الدقامسة الذي أمضى محكوميته على خلفية اطلاقه النار على فتيات يهوديات في منطقة الباقورة المستعمرة قبل ١٤ عاما.

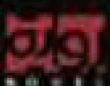
وأشار كل من رئيس اللجنة الشعبية رئيس بلدية الهاشمية ورئيس رابطة الكتاب الأردنيين سعود قبيلات ومساعد أمين حزب الوحدة الشعبية الدكتور ابراهيم شواهنة والناشطة الدكتورة عبيده المطلق والنائب المهندس ماجد [illegible] والدكتور محمد [illegible] عبيدات [illegible] إلى الظروف التي تم فيها سجن الجندي الدقامسة مطالبين بالإفراج عنه.

٦/٤/٢٠١١ م

علمت «الدستور» من مصادر مطلعة أن النزيل احمد موسى الدقامسة والمحكوم في مركز اصلاح وتأهيل ام اللولو رفع رسالة الى وزير الداخلية المهندس سعد هايل السرور ومدير الامن العام الفريق الركن حسين هزاع المجالي تتضمن براءته وشجبه واستنكاره للحملات التي وقعت في مدينة الزرقاء مؤخراً. واعتبر الدقامسة ان الاشخاص المسؤولين عن هذه الاحداث المحزنة والمؤلمة هم فئة ضالة ويعتبرون قتل المسلمين ورجال الامن والمواطنين وان افكارهم محصورة وجهلة.

يلتقي وفد من مجلس النقابة [illegible] السفارة السورية في عمان [illegible] السفير السوري مذكرة احتجاج على طريقة تعامل [illegible] السوري مع [illegible] [illegible] [illegible]

H I S   N A M E   A H M A D



اسمه أحمد

صدح صوتُ الوقف، صوتٌ سماوي، صوتٌ اهتزت له أركان القاعة بكل من فيها من البشر. إنها أمي وقفت شامخة كنخلة، ثابتة كطود، وعالية كرمح. هتفت وهي تلوح بيمناها كأنها فارس يشهر السيف في الميدان: «يا أحمد.. يا أحمد»، فانتبه طائر القلب إلى صوتها. إنها هي، عظيمة بقدر ما في العظمة من معنى. تابعت بصوت يهدر والقاعة كلها تنصت لكلماتها الخالدات، حتى الجدران خشعت وهي تصغي لكلماتها: «ارفع رأسك يا أحمد.. ولا يهمك.. لست أنت الذي يطاطئ رأسه.. ارفع رأسك بنيّ» ■















